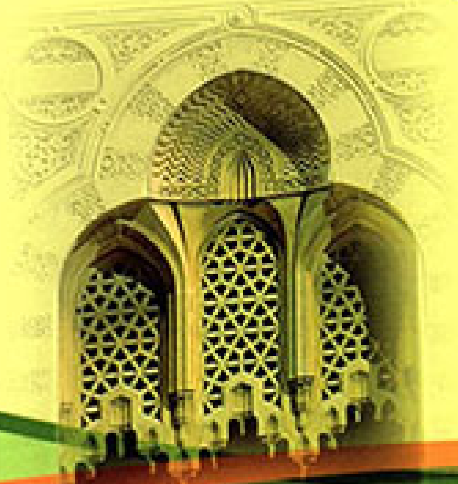


للعارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد
ابن عطاء الله السكندري
المتوفى ٧٠٩ هـ



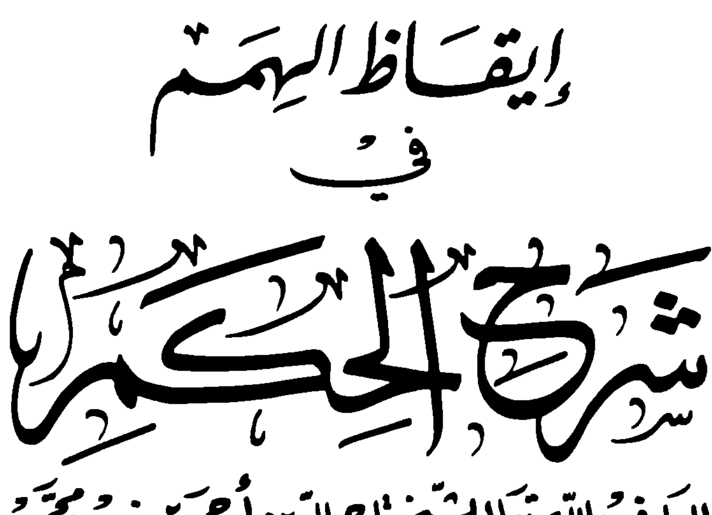
تأليف
العارف بالله الصوفي الجليل أحمد بن محمد
ابن عجيبة الحسني
المتوفى نحو سنة ١٢٦٦ هـ

ضبطه وصححه ونسقه وعلق عليه
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة







للعارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد
ابن عطاء الله السكندري
المتوفى ٧٠٩ هـ

تأليف

العارف بالله الصوفي الجليل أحمد بن محمد
ابن عجيبة الحسني
المتوفى نحو سنة ١٢٦٦ هـ

ضبطه وصححه ونسقه وعلق عليه
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

١ - ٢



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : إيقاظ الهمم في شرح الحكم

Title : ĪQĀẒ AL-HIMAM FĪ ŠARḤ AL-ḤIKAM
The explanation of Al-Sakandari's adages

التصنيف : تصوف

Classification: Sufism

المؤلف : أحمد بن محمد ابن عجيبة الحسني
(ت نحو ١٢٦٦ هـ)

Author : Ahmad ben Mohammed ibn Ajibah Al-Hassani (D. around 1266 H.)

المحقق : الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

Editor : Dr. Assem Ibrahim Al-Kayyali

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

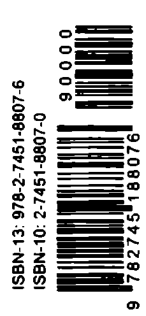
Pages	576	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2016 A.D. - 1437 H.	سنة الطباعة
Printed in	Lebanon	بلد الطباعة : لبنان
Edition	5th	الطبعة الخامسة

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah, Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon, Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠


ISBN-13: 978-2-7451-8807-6
ISBN-10: 2-7451-8807-0

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الأعظم الجامع للكمالات الأسمائية الجلالية والجمالية، والباطن بهويته الذاتية الأحدية، والظاهر بتجلياته الصفاتية الواحدية، والقاهر بشؤونه اليومية بحضرته الفردانية.

والحمد لله الذي أحكم كل شيء خلقه ثم هداه لأحكام استعدادات عينه الثابتة في العلم القديم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الخليفة الكامل في أرض ناسوت جسمه وسماء ملكوت قلبه ولاهوت جبروت روحه، والمبعوث رحمة للعالمين بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ **[الأنبياء: الآية 107]**، وقوله ﷺ: «**إنما أنا رحمة مهداة**» بما جاء لهم به من مقامات الدين الإسلامي الكامل؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة، الفقه والعقيدة والتصوف؛ المُلك والملكوت والجبروت، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ **[المائدة: الآية 3]**.

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: «**ما الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد**

الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة رَبَّها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلَّا الله. ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمَان: الآية 34] **الآية، ثم أدبر فقال: ردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلِّم الناس دينهم». وقال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وأورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر».** (ابن حبان برقم 88).

ومن هذا العلم الذي ورثه العلماء علم جوامع الكلم بما فيه من شريعة وطريقة وحقيقة، أي من فقه وتربية ويقين مصداقاً لقوله ﷺ: **«أوتيت جوامع الكلم»**، وقوله ﷺ: **«من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»**. ومن هؤلاء العلماء المخلصين الذين يصدق في حقهم هذا الحديث العلَّامة العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري الذي تفجَّر من قلبه ما يقارب ثلاثمائة حكمة في التربية والسلوك وفي التوحيد دليلاً وبرهاناً وشهوداً وعياناً، قال عنها الشيخ ابن عباد النفري في مقدمة كتابه غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية: «أما بعد فإنَّا لما رأينا كتاب الحكم المنسوب إلى الشيخ الإمام المحقق العارف ابن عطاء الله السكندري من أفضل ما صنف في علم التوحيد وأجّل ما اعتمده بالتفهُّم والتحفُّظ كل سالك ومريد، لكونه صغير الجرم، عظيم العلم، ذا عبارات رائعة ومعان حسنة فائقة، قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين وإبانة مناهج السالكين والمتجردين، أخذنا في وضع تنبيه يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة والكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة، لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة، وجواهر حكم مكنونة، لا يكشفها إلا هُم ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقي عنهم».

ولأهمية هذه الحِكَم اعتنى بها العلماء شرقاً وغرباً ما بين تالٍ لها ومدرس وشارح وناظم ومترجم ومن شرّاحه[1] الشيخ ابن عبّاد محمد بن إبراهيم النفري الرندي المتوفى سنة 792هـ، والشيخ أبي المواهب صفي الدين بن محمد الشاذلي المتوفى سنة 882هـ، والشيخ زروق أحمد بن محمد البُرنُسي المتوفى سنة 899هـ، والشيخ المتقي الهندي علاء الدين علي بن حسام الدين المتوفى سنة 975هـ،

(1) انظر كشفاً بيانياً عن أسماء شيوخ شراح الحكم العطائية في كتابنا «اللطائف الإلٰهية في شرح مختارات من الحكم العطائية»، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

والشيخ المناوي محمد عبد الرؤوف المتوفى سنة 1031هـ، والشيخ الشرقاوي عبد الله بن حجازي المتوفى سنة 1227 هـ. إلَّا أن شرح الشيخ العارف بالله تعالى أحمد بن عجيبة المسمى بـ«إيقاظ الهمم في شرح الحكم» يعتبر من أكثر الشروح نفعاً وتداولاً بين مريدي الطرق الصوفية وكثيراً ما يوصي الشيوخ تلاميذهم بقراءته. لذلك نعيد طبعه بحلّة جديدة تحقيقاً وتصحيحاً وضبطاً وتنسيقاً وتعليقاً، خدمة للركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل، الذي هو مقام الإحسام مقام التربية والسلوك إلى ملك الملوك وعلَّام الغيوب، مقام «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ولا بد من الإشارة إلى أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المُريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: الآية 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان.

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبّدنا الله به على لسان نبيه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: الآية 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النّجم: الآيتان 3، 4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النّساء: الآية 69]، لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان 22، 23].

كتبه الشيخ الدكتور

عاصم ابراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة شارح الحِكَم
سيدي [الشيخ] أحمد بن عجيبة
الحسني[1] (...ـ منتصف القرن 13)

[هو] الشريف الحسيب، قطبُ دائرة الولاية الكبرى، ومنبعُ أسرار أهل الحقيقة، شيخ الطريقتين، وعُمدة الفريقين، وليُّ الله الأكبر، وغوثُه الأشهر، سيدنا ومولانا أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي.

كان رضي الله عنه من أهل التمكين، تلقّى في بدايته العلومَ الشرعية.

وكان رضي الله عنه يلبسُ الملابس الحسنة، ومالَ إلى طريقِ التصوف، فأخذ أنوار الطريقة، وتلقّى أسرار الحقيقة من أستاذه فردِ هذه الطائفة سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه، ولقَّنه العهودَ والأوراد، والذكر، وقال له: يا أحمد، يا ولدي، شروطُ الطريق عندنا الصدقُ والمحبة. وقال رضي الله عنه: فقلتُ له: يا سيدي، نحبُّ أن تكتبَ لنا ذلك في كاغد[2]. قال: فكتبَ لي بذلك، ولمَّا خلوتُ بنفسي، نظرت إلى الكاغد، وقرأت ما فيها، ففُتح عليَّ في الحين، وصرتُ من أهل الحقائق والتمكين.

وبلغ رضي الله عنه وأرضاه مقاماتِ العارفين بصدقه وحبِّه، فخلع ما كان عليه من الثياب، لمَّا فُتحت له الأبواب، وناداه منادي الأحباب: ما هذا الحال يا ابن عجيبة؟ فأُفيضت عليه الأنوار، فارتدى مرقعةً وإزاراً، وعلّق سبحته وقرابه[3] في عنقه كما هو شأن الأخيار، وصار يمرُّ في الأسواق معلقاً قرابه في عنقه، لابساً لمرقعته وسبحته، وهو يقول بأعلى صوته: الله الله، أش هادي الغريبة؟ لو كان العلم يغني عن الحال، ما يعلّقُ القرابَ ابنُ عجيبة.

---

(1) هذه الترجمة مأخوذة من كتاب «طبقات الشاذلية» المسمى بـ«جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية» للشيخ أبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي، المتوفى سنة 1347هـ.

(2) الكاغد: ورق الكتابة، والجمع: كواغد.

(3) القراب: غمد السيف ونحوه. والجمع: قُرُب وأقربة.

واستمر على هذا الحال حتى نال ما نال، وتكلَّم على أسرار أهل الكمال، فأبدى علوماً غريبة، وأسراراً عجيبة، وأجمعت على ولايته أهلُ المغرب بأسرها، وتبرَّكوا بتقبيل يديه، وأقبلتِ الوفود عليه، وكان قدَّس الله سرَّه نظره إكسيراً، إذا أتاه أو التقى معه من يعرفه يرقيه في ميدان «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[1] حتى كثرت على يديه الأتباعُ والمريدون.

ومن يطالع شرحه على «الحكم» يعرفُ قدرَه ومكانته عند ربِّه، وكان شرحه لهذه «الحكم العطائية» بأمر مَنْ لا تسعه مخالفته فردِ الطائفة الشاذلية أُستاذه وموصله بسلسلة الأنوار سيدي محمد البوزيدي، قال قُدس سرُّه: وجلُّ هذا الشرح الذي نقيِّده إنما هو مواهبُ؛ لأني أكتبُ الحكمة ولا أدري ما أكتب، فأقف مفتقراً إلى ما عند الله.

وله تآليفُ وشروح كثيرة، منها: كتاب «قواعد التشوف في حقائق التصوف»، وله تفسيرٌ للقرآن في الظاهر والباطن. قال قدَّس الله سرَّه: إذا أردتُ أن نتكلم في التفسير أو غيره نشرع في الكلام، ثم نغيب، فكنت نحسُّ بالكلام يخرج مني من غير اختيار، كأنه السَّحاب، فتصدر مني علومٌ وحكم، ولقد حضر معنا ذات يوم رجلٌ كبيرُ السن، فسمع ذلك، فقال: والله لقد حضرتُ مجالس العلماء والصالحين، والله ما رأيتُ مثل هذه الجواهر واليواقيت التي تخرج من سيدي أحمد بن عجيبة، وذلك كله ببركة صحبة أشياخنا، فجزاهم الله عنَّا أحسنَ جزائه.

ومن تفسيره عند قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ [الأحزاب: الآية 56] وأمّا كونها ـ أي الصلاة ـ تقوم مقام الشيخ في دخوله مقام الفناء والبقاء حتى تعتدل حقيقته وشريعته، فلا تنقطع رعونات النفس إلَّا بآمرٍ وناه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغاية ما تُوصل إليه الصلاة على رسول الله ﷺ إن لم يظفر بالشيخ الفناءُ في الصفات، وينالُ مقامَ الصلاح الأكبر، وتظهر له كراماتٌ وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء، تكون شريعته أكبر من حقيقته، هذا ما ذقناه وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناهم يستعملونها، وأخذنا عنهم أنهم يأمرون المُريد إن رأوه أهلاً للتربية أن يلتزم الاسم المُفرد، ويفني فيه حتى تنعدم عوالمه، فإذا تحقَّق فناؤه، وغاب عن نفسه ورسمه، ردُّوه إلى مقام البقاء، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول الله ﷺ؛ لتكون صلاتُه عليه كاملةً، يُصلّي

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1137) [1/ 428] والهروي في المصنوع [1/ 110].

على روحه وسرّه بلا حجاب، ويشاهده في كلِّ ساعةٍ كما شاهد ربَّه.

أقول: ولهذا كانت الطريقة الشاذلية بدايتُها نهاية غيرها، ونهايتُها تحقيقٌ، فافهم.

وتآليفه قدَّس الله سرَّه، ونفعنا به عليها لوائح نفثات أهلِ المعرفة الكُمَّل، فإنه أُعطي رضي الله عنه ناطقة أسرارِ أهل الله، وأدرك مقامات العارفين بربهم، حتى عُدَّ قطبَ الزمان، وواحد الأوان.

وكلامه قدَّس الله سرَّه عالٍ، حلَّ مشكلات القوم، وفكَّ طلاسمَ أسرارهم، وتكلَّم بما أبهر عقولَ الأعيان.

توفّي قدَّس الله سرَّه في منتصف القرن الثالث عشر، ومقامه بالمغرب مشهورٌ يُتوسَّل به إلى الله في قضاء الحاجات، ودفع الكُربات، أمدَّنا الله بمدده، ونفعنا به، وجعلنا على أثره. آمين.

ترجمة مؤلف الحِكَم
سيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري[1] (... 709هـ)

الأستاذ الإمام، قطبُ العارفين، وتُرجمان الواصلين، مُرشد السالكين، مُنقذ الهالكين، مُظهر شموس المعارف، ومُبدي أسرار اللطائف، الواصل إلى الله، والموصل إليه، تاج الدين ومنبع أسرار الواصلين، أبو الفضل سيدي أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القَرَافي مزاراً، الصوفيُّ حقيقةً، الشاذلي طريقة، أعجوبةُ زمانه، ونخبة عصره وأوانه، الجامع لأنواعِ العلوم، من تفسيرٍ، وحديثٍ، وفقهٍ، وتصوف، ونحوٍ، وأصولٍ، وغير ذلك.

كان رضي الله عنه ونفعنا بأسراره، مُتكلّماً على طريق أهل التصوف واعظاً، انتفع به خلقٌ كثير وسلكوا طريقه، وقد شهد له شيخه بالتقديم قال في «لطائف المنن»: قال لي الأستاذ: الزم فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين. يريد مذهب أهل الشريعة ومذهب أهل الحقيقة.

وقال فيه أيضاً: والله لا يموتُ هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله تعالى.

قال رحمه الله: ودخلتُ عليه ذات يوم، فلما دخلت عليه قال: لا تطالبوا الأستاذ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم بأن يكون الأستاذ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونوا عنده.

وقد كنتُ قد حدَّثتُ بعض أصحابه: أريد لو نظرَ إليَّ الأستاذ بعنايته، وجعلني في خاطره، ثم قال لي: أيّ شيءٍ تريد؟ والله ليكونن لك شأنٌ عظيم، والله، ليكونن لك شأن عظيم، والله، ليكونن لك كذا وكذا. فكان كما أخبر.

---

(1) هذه الترجمة مأخوذة من كتاب «طبقات الشاذلية» المسمى بـ«جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية» للشيخ أبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي، المتوفى سنة 1347هـ.

وقال رضي الله عنه في «لطائف المنن»: جرت مُخاصمة بيني وبين أحد أصحاب سيدي أبي العباس المرسي قبل صحبتي له، وقلت لذلك الرجل: ليس إلَّا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم يدَّعون أموراً عظيمة، وظاهر الشرع يأباها. قال رحمه الله: وسببُ اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرتِ المخاصمة: دعني أذهب، أنظر إلى هذا الرجل فصاحبُ الحقّ له أمارات. قال: فأتيته، فوجدته يتكلَّم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، فأذهب الله ما كان عندي وصار رحمه الله من خواصّ أصحابه، ولازمه اثني عشر عاماً حتى أشرقت أنواره عليه، وصار من صدور المقربين.

وله مؤلفات رحمه الله متداولةٌ سارت بذكرها الركبان، منها: «الحكم العطائية» وهي أفضل ما صُنِّف في علم التوحيد، وأجلُّ ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كلُّ سالك ومُريد، ذاتُ عبارات رائقة، ومعان حسنة فائقة، قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحّدين، وإبانة مناهج السالكين والمتجرّدين. وله كتاب «التنوير» وكتاب «مفتاح الفلاح» في الذكر ومراتبه، وكتاب «تاج العروس» وكتاب «عنوان التوفيق» وهو شرح لقصيدة العارف بالله سيدنا أبي مدين التلمساني، وكتاب «القول المجرد في الاسم المفرد» وله غير ذلك.

توفي رحمه الله بالمدرسة المنصورية بمصر ثالث عشر جُمادى الآخرة سنة 709هـ، ودُفن بسفح الجبل المقطَّم بزاويته التي كان يتعبَّدُ فيها، ومقامه يُزار، يعرفُهُ الكبيرُ والصغير، ويتوسَّلُ به إلى الله الغني والفقير. نفع الله به المسلمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول العبد الفقير إلى مولاه، الغني به عمّا سواه، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني لطف الله به وحباه:

إن أولى ما عقد عليه الجنان، ونطقت به ألسنة الفصاحة والبيان، وخطت به أقلام البنان، حمد الفتّاح العليم الكريم المنّان.

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته، واختص أرواحهم بشهود عظمته، وهيّأ أسرارهم لحمل أعباء معرفته، فقلوبهم في روضات جنات معرفته يحبرون، وأرواحهم في رياض ملكوته يتنزهون، وأسرارهم في بحار جبروته يسبحون، فاستخرجت أفكارهم يواقيت العلوم، ونطقت ألسنتهم بجواهر الحكم ونتائج الفهوم. فسبحان من اصطفاهم لحضرته، واختصهم بمحبته، فهم بين سالك ومجذوب، ومحب ومحبوب، أفناهم في محبة ذاته، وأبقاهم شهود آثار صفاته. والصلاة والسلام على سيِّدنا ومولانا محمد منبع العلوم والأنوار، ومعدن المعارف والأسرار، ورضي الله تعالى عن أصحابه الأبرار، وأهل أبيته الأطهار، أما بعد:

كل شيء وقبله ومعه، فعلم التصوّف من أجّل العلوم قدراً، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً، وكيف لا وهو لباب الشريعة، ومنهاج الطريقة، ومنه تشرق أنوار الحقيقة. وكان أعظم ما صنّف فيه الحكم العطائية، التي هي مواهب لدنية، وأسرار ربّانية، نطقت بها أفكار قدوسيّة، وأسرار جبروتيّة.

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: سمعت الفقيه البناني يقول: كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحياً، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم، أو كما قال.

ولقد طلب مني شيخنا العارف الواصل، المحقق الكامل، سيدي محمد البوزيدي الحسني، أن أضع عليها شرحاً متوسطاً يبيِّن المعنى ويحقق المبنى، معتمداً في ذلك على حول الله وقوّته، وما يفتح الله به من خزائن علمه وحكمته، أو ما كان مناسباً لتلك الحكمة من كلام القوم.

فأجبت طلبته وأسعفت رغبته، رجاء أن يقع به الإمتاع ويعمّ به الانتفاع، وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وسمّيته **«إيقاظ الهمم في شرح الحِكَم»** جعله الله خالصاً لوجهه العظيم بجاه نبيِّنا المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

[مقدمتا الكتاب]

ولنقدم بين يديّ الكتاب مقدمتين، **إحداهما في** حدّ التصوّف وموضوعه وواضعه واسمه واستمداده وحكم الشارع فيه وتصوّر مسائله وفضيلته ونسبته وثمرته.

والمقدمة **الثانية في** ترجمة الشيخ وذكر محاسنه.

أما **حدّه**، فقال الجنيد: هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به. وقال أيضاً: أن تكون مع الله بلا علاقة.

وقيل: الدخول في كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى.

وقيل: هو أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم مع قوم كرام.

وقيل: أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء.

وقيل: استرسال النفس مع الله على ما يريد.

وقيل: التصوّف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التدبير والاختيار.

وقيل: الأخذ بالحقائق، والإياس مما في أيدي الخلائق.

وقيل: ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع.

وقيل: الإناخة على باب الحبيب وإن طرد.

وقيل: صفوة القرب بعد كدرة البعد.

وقيل: الجلوس مع الله بلا همّ.

وقيل: هو العصمة عن رؤية الكون.

والصوفي الصادق علامته: أن يفتقر بعد الغنى، ويُذلّ بعد العزّ، ويخفى بعد الشهرة.

وعلامة الصوفيّ الكاذب: أن يستغني بعد الفقر، ويعزّ بعد الذلّ، ويشتهر بعد الخفاء. قاله أبو حمزة البغدادي.

وقال الحسين بن منصور [الحلاج]: الصوفيّ واحد في الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحداً.

وقيل: الصوفيّ كالأرض يطرح عليه كل قبيح ولا يخرج منه إلّا كل مليح، ويطؤه البر والفاجر. وقالوا: من أقبح كل قبيح صوفي شحيح.

وقال الشبلي: الصوفيّ منقطع عن الخلق متصل بالحق لقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: الآية 41]. ثم قال أيضاً: الصوفيّة أطفال في حجر الحق.

وقيل: الصوفي لا تقله الأرض ولا تظلّه السماء، يعني لا يحصره الكون.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: قد حدّ التصوُّف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه والله أعلم.

ثم قال: والاختلاف في الحقيقة الواحدة إنْ كثر دلّ على بعد إدراك جملتها، ثم إن هو رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله واعتبار كل واحد على حسب مثاله، عملاً وحالاً وذوقاً، وغير ذلك. والاختلاف في التصوُّف من ذلك، فمن أجل ذلك ألحق الحافظ أبو نعيم رحمه الله بغالب أهل حليته عند تحلية كل شخص قولاً من أقوالهم يناسب حاله قائلاً: وقيل إنَّ التصوُّف كذا فاقتضى أن كل من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوُّف، وأنَّ تصوُّف كل أحد صدق توجهه، فافهم اهـ.

وقال أيضاً: قاعدة صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: الآية 7] فلزم تحقيق الإيمان ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَر: الآية 7] فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوُّف إلّا بفقه إذ لا تعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلّا منه ولا فقه إلّا بتصوُّف، إذ لا عمل إلّا بصدق توجه ولا هما إلّا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد إذ لا وجود لها إلّا فيها كمالاً كمل لها، أي للأشباح، إلّا بها.

ومنه قول مالك رحمه الله: من تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوَّف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.

قلت: تزندق الأول لأنه قائل بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام. وتفسُّق الثاني لخلو علمه عن صدق التوجه الحاجز عن معصية الله وعن الإخلاص المشروط في الأعمال. وتحقُّق الثالث لقيامه بالحقيقة في عين تمسكه بالحق. فاعرف ذلك إذ لا وجود لها إلّا فيها كما لا كمال له إلّا به، فافهم اهـ.

وأما موضوعه: فهو الذات العليّة لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها إما بالبرهان أو بالشهود والعيان، فالأول للطالبين، والثاني للواصلين. وقيل: موضوعه النفوس والقلوب والأرواح لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها وهو قريب من الأول لأن من عرف نفسه عرف ربّه.

وأما واضع هذا العلم: فهو النبي ﷺ، علّمه الله له بالوحي والإلهام فنزل جبريل عليه السلام أولاً بالشريعة، فلما تقررت نزل ثانياً بالحقيقة فخصّ بها بعضاً دون بعض. وأول من تكلَّم فيه وأظهره سيدنا علي كرَّم الله وجهه وأخذه عنه الحسن البصري وأمه اسمها خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وأبوه مولى زيد بن ثابت. توفي الحسن سنة عشر ومائة وأخذه عن الحسن حبيب العجمي، وأخذه عن حبيب أبو سليمان داود الطائي توفي سنة ستين ومائة، وأخذه عن داود أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي رضي الله عنه، وأخذه عن معروف الكرخي أبو الحسن سَري بن مغلس السقطي، توفي سنة إحدى وخمسين ومائة، وأخذه عن السري إمام هذه الطريقة ومظهر أعلام الحقيقة أبو القاسم محمد بن الجُنيد [الزجّاج البغدادي]، أصله من نهاوند ومنشؤه العراق، تفقّه على أبي ثور، وصحب الشافعي فكان يفتي على مذهب أبي ثور. ثم صحب خاله السري وأبا الحارث المحاسبي وغيرهما، وكلامه وحقائقه مدوَّن في الكتب. توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين، وقبره ببغداد مشهور يُزار. ثم انتشر التصوُّف في أصحابه وهلمّ جرا ولا ينقطع حتى ينقطع الدين.

ومن رواية أخرى: أخذه عن سيدنا علي رضي الله عنه أول الأقطاب سيدنا الحسن ولده ثم عنه أبو محمد جابر، ثم القطب سعيد الغزواني، ثم القطب فتح السعود، ثم القطب سعد، ثم القطب سعيد، ثم القطب سيدي أحمد المرواني، ثم إبراهيم البصري، ثم زين الدين القزويني، ثم القطب شمس الدين، ثم القطب تاج الدين، ثم القطب نور الدين أبو الحسن، ثم القطب فخر الدين، ثم القطب تقي الدين الفقير بالتصغير فيهما، ثم القطب سيدي عبد الرحمٰن المدني، ثم القطب الكبير مولاي عبد السلام بن مشيش، ثم القطب الشهير أبو الحسن الشاذلي، ثم خليفته أبو العباس المرسي، ثم العارف الكبير سيدي أحمد بن عطاء الله، ثم العارف الكبير سيدي داود البلخي، ثم العارف سيدي محمد بحر الصفا، ثم العارف ولده سيدي علي بن وفا، ثم الولي الشهير سيدي يحيى القادري، ثم الولي الشهير سيدي أحمد بن

عقبة الحضرمي، ثم الولي الكبير سيدي أحمد زروق، ثم سيدي إبراهيم الفحام، ثم سيدي علي الصنهاجي المشهور بالدوار، ثم العارف الكبير سيدي عبد الرحمٰن المجذوب، ثم الولي الشهير سيدي يوسف الفاسي، ثم العارف سيدي عبد الرحمٰن الفاسي، ثم العارف سيدي محمد بن عبد الله، ثم العارف سيدي قاسم الخصاصي، ثم العارف سيدي أحمد بن عبد الله، ثم العارف سيدي العربي بن عبد الله، ثم العارف الكبير سيدي علي بن عبد الرحمٰن العمراني الحسني، ثم العارف الشهير شيخ المشايخ سيدي ومولاي العربي الدرقاوي الحسني، ثم العارف الكامل المحقق الواصل شيخنا سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني، ثم عبد ربه وأقل عبيده أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني ثم عنه خلق كثير، والمنّة لله العليّ الكبير.

وأما اسمه: فهو علم التصوُّف، واختلف في اشتقاقه على أقوال كثيرة، ومرجعها إلى خمس:

أولها: أنه من الصوفة، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له.

الثاني: من صوفة القفا، للينها فالصوفي هيِّن ليِّن كهي.

الثالث: إنه من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة.

الرابع: أنه من الصفاء، وصُحِّح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله في الصوفي:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا جهلاً وظنُّوا أنَّه مشتق من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم إلَّا فتى صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

الخامس: إنه منقول من صفة المسجد النبوي الذي كان منزلاً لأهل الصفة لأن الصوفي تابع لهم فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ **[الكهف: الآية 28]**، وهو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه. قاله الشيخ زروق رحمه الله.

وأما استمداده: فهو مستمد من الكتاب والسنة والهامات الصالحين وفتوحات العارفين، وقد أدخلوا فيه أشياء من علم الفقه لمس الحاجة إليه في علم التصوُّف حررها الغزالي في الإحياء في أربعة كتب: كتاب العبادات، وكتاب العادات، وكتاب المهلكات، وكتاب المنجيات. وهو فيه كمال لا شرط إلَّا ما لا بد منه في باب العبادات، والله تعالى أعلم.

وأما حكم الشارع فيه: فقال الغزالي: إنه فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلّا الأنبياء عليهم السلام.

وقال الشاذلي: من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصرّاً على الكبائر وهو لا يشعر، وحيث كان فرضَ عين يجب السفر إلى من يأخذه عنه إذا عُرف بالتربية واشتهر الدواء على يده، وإن خالف والديه حسبما نص عليه غير واحد كالبلالي والسنوسي وغيرهما.

قال الشيخ السنوسي: النفس إذا غلبت كالعدو إذا فجأ تجب مجاهدتها والاستعانة عليها وإن خالفت الوالدين كما في العدو إذا برز. قاله في شرح الجزيري. وما أحسن قول القائل:

أخاطرُ في محبَّتكُم بروحي ... واركَبُ بحركم أمّا وإمَّا[1]

وأسلكُ كلَّ فجٍّ في هواكُم ... واشرب كأسَكُم لو كان سُمّا

ولا أُصغي إلى مَنْ قد نهاني ... ولي أُذن عن العذالِ صمّا

أخاطرُ بالخواطِرِ في هواكُم ... واتركُ في رضاكُم أباً وأُمّا

وأما تصوُّر مسائله: فهي معرفة اصطلاحاته والكلمات التي تتداول بين القوم كالإخلاص، والصدق، والتوكل، والزهد، والورع، والرضى، والتسليم، والمحبة، والفناء، والبقاء، وكالذات، والصفات، والقدرة، والحكمة، والروحانية، والبشرية. وكمعرفة حقيقة الحال والوارد والمقام وغير ذلك.

وقد ذكر القشيري في أول رسالته جملة شافية، وقد كنت جمعت كتاباً فيه مائة حقيقة من حقائق التصوُّف سمّيته «معراج التشوُّف إلى حقائق التصوُّف» فليطالعه من أراده ليستعين به على فهم كلام القوم.

ثم قلت: بل التحقيق في مسائل هذا العلم، أنها القضايا التي يبحث عنها السالك في حال سيره ليعمل بمقتضاها ككون الإخلاص شرطاً في العمل، وكون الزهد ركناً في الطريق، وكون الخلوة والصمت مطلوبين، وأمثال هذه القضايا فهي مسائل هذا الفن، فينبغي تصوُّرها قبل الشروع في الخوض فيه علماً وعملاً، والله تعالى أعلم.

---

(1) للشيخ محمد الحراق بيتاً قريباً منه، هو:

وأركب بحركم طلباً لحتفي ... ولست بقائل أمّا وإمَّا

وأما فضيلته: فقد تقدَّم أن موضوعه الذات العالية، وهي أفضل على الإطلاق فالعلم الذي يتعلق بها أفضل على الإطلاق إذ هو دال بأوّله على خشية الله تعالى، وبوسطه على معاملته، وبآخره على معرفته والانقطاع إليه.

ولذلك قال الجنيد: لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه.

وقال الشيخ الصقلي رضي الله عنه في كتابه المسمى بـ«أنوار القلوب في العلم الموهوب»: وكل من صدَّق بهذا العلم فهو من الخاصة وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة، وكل من عبَّر عنه وتكلَّم فيه فهو النجم الذي لا يُدرك والبحر الذي لا ينزف.

وقال آخر: إذا رأيت من فتح له في التصديق بهذه الطريقة فبشِّره، وإذا رأيت من فتح له في الفهم فاغتبطه، وإذا رأيت من فتح له في النطق فيه فعظِّمه، وإذا رأيت منتقداً عليه ففرّ منه فرارك من الأسد واهجره. وما من علم إلَّا وقد يقع الاستغناء عنه في وقت ما إلَّا علم التصوُّف فلا يستغني عنه أحد في وقت من الأوقات.

وأما نسبته من العلوم: فهو كلّي لها وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلَّا بصدق التوجه إلى الله تعالى. فالإخلاص شرط في الجميع، هذا باعتبار الصحة الشرعية والجزاء والثواب. وأما باعتبار الوجود الخارجي، فالعلوم توجد في الخارج بدون التصوُّف لكنها ناقصة أو ساقطة، ولذلك قال السيوطي: نسبة التصوُّف من العلوم كعلم البيان مع النحو ـ يعني هو كمال فيها ومحسن لها ـ.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: نسبة التصوُّف من الدين نسبة الروح من الجسد لأنه مقام الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ لجبريل: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1] الحديث، إذ لا معنى له سوى ذلك، إذ مداره على مراقبة بعد مشاهدة أو مشاهدة بعد مراقبة، وإلا لم يقم له وجود ولم يظهر له موجود، فافهم اهـ. ولعله أراد بالمراقبة بعد المشاهدة الرجوع للبقاء بشهود الأثر بالله.

وأما فائدته: فتهذيب القلوب ومعرفة علَّام الغيوب، أو تقول: ثمرته سخاوة النفوس وسلامة الصدور وحسن الخلق مع كل مخلوق.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي ﷺ. . .، حديث رقم (50) [1/ 27] وفي باب لا تشرك بالله. . .، حديث رقم (4499) [4/ 1793]. ومسلم في صحيحه، في أبواب عدّة منها: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. . .، حديث رقم (8) [1/ 36ـ 37] ورواه غيرهما.

واعلم أن هذا العلم الذي ذكرنا ليس هو اللقلقة باللسان وإنما هو أذواق ووجدان ولا يؤخذ من الأوراق وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، وليس ينال بالقيل والقال وإنما يؤخذ من خدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والله ما أفلح من أفلح إلّا بصحبة من أفلح وبالله التوفيق.

وأما ترجمة الشيخ: فهو الشيخ الإمام تاج الدين وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القرافي مزاراً، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه ونخبة عصره وأوانه، المتوفى في جمادى الآخر سنة تسع بتقديم التاء وسبعمائة، قاله الشيخ زروق.

وقال في الديباج المذهب: كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك. كان رحمه الله متكلماً على طريق أهل التصوُّف، واعظاً انتفع به خلق كثير وسلكوا طريقه. قلت: وقد شهد له شيخه أبو العباس المرسي بالتقديم، قال في لطايف المنن: قال لي الشيخ: الزم فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن. وقال فيه أيضاً: والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله. وقال فيه أيضاً: والله ليكونن لك شأن عظيم والله ليكونن لك شأن عظيم. قال: فكان بحمد الله ما لا أنكره. **وله من التآليف خمسة**: التنوير في إسقاط التدبير، ولطائف المنن في مناقب شيخه أبي العباس وشيخه أبي الحسن، وتاج العروس وهو مؤلف منهما، ومفتاح الفلاح في الذكر وكيفية السلوك. وله أيضاً القول المجرد في الاسم المفرد، والحكم الذي أردنا أن نتكلم عليه ومضمنه من علوم القوم أربعة: **الأول**: علم التذكير والوعظ وقد حاز منه أوفر نصيب، وهو لمقام العوام، وتستفاد مواده من كتب ابن الجوزي وبعض تأليف المحاسبي، وصدور كتب الإحياء والقوت وتحبير القشيري وما جرى مجراها، والله أعلم. **الثاني**: تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال بتحلية الباطن بالأخلاق المحمودة وتطهيره من الأوصاف المذمومة، وهذا حظ المتوجهين من الصادقين والمبتدئين من السالكين، وقد حاز منها جملة صالحة ومادتها من كتب الغزالي والسهروردي ونحوهما. **الثالث**: تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات،

وهو نصيب المستشرفين من المريدين والمبتدئين من العارفين، وهذا النوع من أكثر ما وقع فيه، ومادته من مثل كتب الحاتمي[1] في المعاملات والبوني[2] في المنازلات إلى غير ذلك. **الرابع**: المعارف والعلوم الإلهامية، وفيه منها ما لا يخفى لكن كتبه ملئت بشرحها لا سيما التنوير ولطائف المنن اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب، وبالجملة فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ، والمسلك الذي سلك فيه مسلك توحيدي لا يسع أحد إنكاره ولا الطعن فيه، ولا يدع للمعتني به صفة حميدة إلَّا كساه إياها ولا صفة ذميمة إلَّا أزالها عنه بإذن الله كما قال الشيخ ابن عباد في وصف التنوير[3]: وهما إخوان من أب واحد وأم واحدة. قاله سيدي أحمد زروق في بعض شروحه.

---

(1) الحاتمي: هو الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي المتوفى سنة 638 هـ. من أشهر كتبه (الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم).

(2) البوني: هو الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف، نسبته إلى بونة بالمغرب، توفي سنة 622 هجرية. من أشهر كتبه: (شمس المعارف الكبرى) و(مواقف الغايات في أسرار الرياضات).

(3) أي كتاب «التنوير في إسقاط التدبير» للمصنف صاحب الحكم الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري.

[الباب الأول]

ولما كان علم التصوُّف إنما هو نتائج الأعمال الصحيحة وثمرات الأحوال الصافية [مصداقاً لقول النبي ﷺ]: **«من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»**[1] بدأ بالكلام على العمل فقال [رضي الله عنه]:

1 ـ (من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل)

الاعتماد على الشيء هو الاستناد عليه والركون إليه، والعمل حركة الجسم أو القلب، فإن تحرك بما يوافق الشريعة سمي طاعة، وإن تحرك بما يخالف الشريعة سمي معصية.

والأعمال عند أهل الفن[2] على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة.

أو تقول: عمل الإسلام، وعمل الإيمان، وعمل الإحسان.

أول تقول: عمل العبادة، وعمل العبودية، وعمل العبودة، أي الحرية.

أو تقول: عمل أهل البداية، وعمل أهل الوسط، وعمل أهل النهاية.

فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده.

أو تقول: الشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر.

وإصلاح الجوارح بثلاثة أمور: بالتوبة، والتقوى والاستقامة. وإصلاح القلوب بثلاثة أمور: بالإخلاص، والصدق، والطمأنينة. وإصلاح السرائر بثلاثة أمور: بالمراقبة، والمشاهدة، والمعرفة.

أو تقول: إصلاح الظواهر باجتناب النواهي وامتثال الأوامر، وإصلاح الضمائر

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، ضمن حديث: «من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلُّم وهدى. . .» رقم (2346) [2/ 287] والمناوي في فيض القدير، حرف السين [4/ 388].

(2) الفن: يقصد علم التصوف.

بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل، وإصلاح السرائر ـ وهي هنا الأرواح بذلها وانكسارها حتى تتهذب وترتاض ـ بالأدب والتواضع وحسن الخلق.

واعلم أن الكلام هنا إنما هو في الأعمال التي توجب تصفية الجوارح أو القلوب أو الأرواح، وهي ما تقدم تعيينها لكل قسم. وأما العلوم والمعارف فإنما هي ثمرات التصفية والتطهير فإذا تطهّرت الأسرار ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار، ولا يصح الانتقال إلى مقام حتى يحقق ما قبله، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة وترتاض جوارحه معها بأن يحقق التوبة بشروطها ويحقق التقوى بأركانها ويحقق الاستقامة بأقسامها، وهي متابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا تزكّى الظاهر وتنوَّر بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة وهي التصفية من أوصاف البشرية على ما يأتي، فإذا تطهَّر من أوصاف البشرية تحلَّى بأوصاف الروحانية وهي الأدب مع الله في تجلياته التي هي مظاهره، فحينئذ ترتاح الجوارح من التعب وما بقي إلَّا حسن الأدب.

قال بعض المحققين: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل بسوى الله، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله، اهـ.

ولا يعتمد المريد في سلوك هذه المقامات على نفسه ولا على عمله ولا على حوله وقوته، وإنما يعتمد على فضل ربّه وتوفيقه وهدايته وتسديده، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ **[القصص: الآية 68]**، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ **[الأنعام: الآية 112]** ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ **[هود: الآية 118]** ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ **[هود: الآيتان 118، 119]**.

وقال ﷺ: **«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلَّا أن يتغمدني الله برحمته»**[1].

---

(1) روى نحوه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بالتشديد في الأمور. . ، حديث رقم (348) [2/ 60] والطبراني في المعجم الأوسط، عن أبي هريرة، حديث رقم (8004) [8/ 74] وروى نحوه غيرهما.

فالاعتماد على النفوس من علامة الشقاء والبؤس، والاعتماد على الأعمال من عدم التحقق بالزوال، والاعتماد على الكرامة والأحوال من عدم صحبة الرجال، والاعتماد على الله من تحقق المعرفة بالله. وعلامة الاعتماد على الله أنه لا ينقص رجاؤه إذا وقع في العصيان، ولا يزيد رجاؤه إذا صدر منه إحسان.

أو تقول: لا يعظم خوفه إذا صدرت منه غفلة كما لا يزيد رجاؤه إذا وقعت منه يقظة، قد استوى خوفه ورجاؤه على الدوام لأن خوفه ناشىء عن شهود الجلال ورجاؤه ناشىء عن شهود الجمال، وجلالُ الحق وجمالُه لا يتغيران بزيادة ولا نقصان فكذا ما ينشأ عنهما، بخلاف المعتمد على الأعمال إذا قلّ عمله قلّ رجاؤه وإذا كثر عمله كثر رجاؤه لشركه مع ربّه وتحققه بجهله، ولو فني عن نفسه وبقي بربه لاستراح من تعبه وتحقق بمعرفة ربه.

ولا بد من شيخ كامل يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك، فالشيخ الكامل هو الذي يريحك من التعب لا الذي يدلك على التعب. [فإنَّ] من دلّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلّك على الدنيا فقد غشّك، ومن دلك على الله فقد نصحك، كما قال الشيخ ابن مشيش رضي الله عنه.

والدلالة على الله هي الدلالة على نسيان النفس، فإذا نسيت نفسك ذكرت ربّك، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: الآية 24] أي ما سواه. وسبب التعب هو ذكر النفس والاعتناء بشؤونها وحظوظها وأما من غاب عنها فلا يلقى إلَّا الراحة.

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝﴾ [البَلَد: الآية 4] أي في تعب، فهو خاص بأهل الحجاب.

أو تقول: خاص بأحياء النفوس، وأما من مات فقد قال تعالى فيه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝﴾ [الواقِعَة: الآيتان 88، 89] أي فروح الوصال وريحان الجمال وجنة الكمال، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحِجر: الآية 48] أي تعب ولكن لا تدرك الراحة إلَّا بعد التعب ولا يحصل الظفر إلَّا بالطلب «حفت الجنة بالمكاره»[1].

أيُّها العاشقُ معنى حُسنِنَا مهرُنا غالٍ لمَن يخطُبُنا

---

(1) حديث شريف تتمته: «وحفت النار بالشهوات» رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم (2822) [4/ 2174].

جسدٌ مضنى وروحٌ في العنا ... وجفونٌ لا تذوقُ الوَسَنا
وفؤادٌ ليس فيه غيرُنا ... وإذا ما شئتَ أدّ الثمنا
فافنَ إن شئتَ فناءً سرمداً ... فالفنا يُدني إلى ذاك الفِنا
واخلعِ النعلين إنْ جئتَ إلى ... ذلك الحَيّ ففيه قُدْسُنا
وعن الكونينِ كُنْ مُنخَلِعَاً ... وأزِل ما بينَنَا مِنْ بينِنا
وإذا قيل مَنْ تهْوى فَقُل ... أنا مَنْ أهوَى ومَنْ أهوَى أنَا

وقال في (حل الرموز)[1]: ثم اعلم أنك لا تصل إلى منازل القربات، حتى تقطع ست عقبات:

العقبة الأولى: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية.

العقبة الثانية: فطم النفس عن المألوفات العادية.

العقبة الثالثة: فطم القلب عن الرعونات البشرية.

العقبة الرابعة: فطم النفس عن الكدورات الطبيعية.

العقبة الخامسة: فطم الروح عن البخورات الحسية.

العقبة السادسة: فطم العقل عن الخيالات الوهمية.

فتشرف من العقبة الأولى على ينابيع الحكمة القلبية، وتطلع من العقبة الثانية على أسرار العلوم اللدنية، وتلوح لك في العقبة الثالثة أعلام المناجاة الملكوتية، ويلمع لك في العقبة الرابعة أنوار المنازلات القريبة، وتطلع لك في العقبة الخامسة أنوار المشاهدات الحبية، وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية، فهنالك تغيب بما تشاهده من اللطائف الأُنسية عن الكثائف الحسّية، فإذا أرادك لخصوصيته الاصطفائية سقاك بكأس من محبته شربة تزداد بتلك الشربة ظمأ وبالذوق شوقاً، وبالقرب طلباً، وبالسكر قلقاً اهـ المراد منه.

تتميم أشكل على بعض الفضلاء

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: الآية 32] مع قوله ﷺ: **«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»**[2] الحديث، والجواب: إن الكتاب والسُّنة وردا بين

---

(1) كتاب (حل الرموز وكشف الكنوز في التصوُّف) للشيخ عبد السلام بن محمد غانم المقدسي الشافعي، المتوفى سنة 978هـ.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

شريعة وحقيقة، أو تقول: بين تشريع وتحقيق فقد يُشَرّعان في موضع ويُحقِقان في آخر في ذلك الشيء بعينه، وقد يحققان في موضع ويشرعان فيه في آخر، وقد يشرع القرآن في موضع وتحققه السنة، وقد تشرع السنة في موضع ويحققه القرآن.

فالرسول عليه الصلاة والسلام مبيِّن لما أنزل الله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: الآية 44] فقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية 32] هذا تشريع لأهل الحكمة، وهم أهل الشريعة، وقوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» هذا تحقيق لأهل القدرة وهم أهل الحقيقة، كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30] تحقيق، وقوله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة»[1] تشريع.

والحاصل: أن القرآن تقيّده السنة والسنة يقيّدها القرآن، فالواجب على الإنسان أن تكون له عينان إحداهما تنظر إلى الحقيقة والأخرى تنظر إلى الشريعة، فإذا وجد القرآن قد شرع في موضع فلا بد أن يكون قد حقق في موضع آخر أو تحققه السنة، وإذا وجد السنة قد شرعت في موضع فلا بد أن تكون قد حققت في موضع آخر أو حققها القرآن، ولا تعارض حينئذ بين الآية والحديث ولا إشكال.

وهنا جواب آخر وهو: أن الله تعالى لما دعا الناس إلى التوحيد والطاعة على أنهم لا يدخلون فيه من غير طمع فوعدهم بالجزاء على العمل، فلما رسخت أقدامهم في الإسلام أخرجهم عليه السلام من ذلك الحرف ورقاهم إلى إخلاص العبودية والتحقق بمقام الإخلاص فقال لهم: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»[2] والله تعالى أعلم، وهنا أجوبة لأهل الظاهر لا تجدي شيئاً.

* * *

ولما كان الانتقال من عمل الظاهر إلى عمل الباطن لا بد أن يظهر أثره على الجوارح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: الآية 34] الآية، وظهور الأثر هو التجريد أشار إليه بقوله:

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب إذا همّ العبد بحسنة...، حديث رقم (130) [1/ 117] وابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن الله جلَّ وعلا قد يكتب للمرء بالحسنة...، حديث رقم (384) [2/ 107] ورواه غيرهما ونص رواية مسلم هي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كُتِبت».

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

2 ـ (إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمّة العليّة).

قلت: التجريد في اللغة هو التكشيط والإزالة، تقول: جردت الثوب أزلته عني، وتجرّد فلان أزال ثوبه، وجردت الجلد أزلت شعره.

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام: تجرد الظاهر فقط، أو الباطن فقط، أو هما معاً. فتجريد الظاهر هو ترك الأسباب الدنيوية وخرق العوائد الجسمانية. والتجريد الباطني هو ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية. وتجريدهما معاً هو ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية. أو تقول: تجريد الظاهر هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله، وتجريد الباطن هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله، وتجريدهما هو إفراد القلب والقالب لله، والتجريد الكامل في الظاهر هو ترك الأسباب وتعرية البدن من معتاد الثياب، وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم وتحليته بكل وصف كريم، وهو، أي التجريد الكامل الذي أشار إليه شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب بقوله:

أقارئينَ علمَ التوحيد هنا البحورُ ألي تغبي

هذا مقامُ أهلِ التجريد الواقفينَ معْ ربّي

وأما من جرّد ظاهره دون باطنه فهو كذاب كمن كسى النحاس بالفضة، باطنه قبيح وظاهره مليح. ومن جرّد باطنه دون ظاهره إن تأتى ذلك فهو حسن كمن كسى الفضة بالنحاس وهو قليل إذ الغالب أنَّ من تنشَّب ظاهره تنشب باطنه. ومن اشتغل ظاهره بالحسّ اشتغل باطنه به. والقوة لا تكون في الجهتين، ومن جمع بين تجريديّ الظاهر والباطن فهو الصدِّيق الكامل وهو الذهب المشحر الصافي الذي يصلح لخزانة الملوك.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: آداب الفقير المتجرِّد أربعة: الحرمة للأكابر، والرحمة للأصاغر، والإنصاف من نفسك، وعدم الانتصار لها. وآداب الفقير المتسبِّب أربعة: موالاة الأبرار، ومجانبة الفجار، وإيقاع الصلاة في الجماعة، ومواساة الفقراء والمساكين بما يفتح عليه. وينبغي له أيضاً أن يتأدب بآداب المتجرِّدين إذ هو كمال في حقه.

ومن آداب المتسبِّب إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقله منها على لسان شيخه إن كان أو بإشارة واضحة

كتعذرها من كل وجه، فحينئذ ينتقل للتجريد.

فإرادته التجريد مع إقامته تعالى له في الأسباب من الشهوة الخفية لأن النفس قد تقصد بذلك الراحة ولم يكن لها من اليقين ما تحمل به مشاق الفاقة، فإذا نزلت بها الفاقة نزلت واضطربت ورجعت إلى الأسباب فيكون أقبح لها من الإقامة فيها، فهذا وجه كونها شهوة.

وإنما كانت خفية لأنها في الظاهر أظهرت الانقطاع والتبتل وهو مقام شريف وحال منيف لكنها في الباطن أخفت حظها من قصد الراحة أو الكرامة أو الولاية أو غير ذلك من الحروف ولم تقصد تحقيق العبودية وتربية اليقين. وفاتها أيضاً الأدب مع الحق حيث أرادت الخروج بنفسها ولم تصبر حتى يؤذن لها. وعلامة إقامتها فيها دوامها له مع حصول النتائج وعدم العوائق القاطعة له عن الدِّين وحصول الكفاية بحيث إذا تركها حصل له التشوُّف إلى الخلق والاهتمام بالرزق، فإذا انخرمت هذه الشروط انتقل إلى التجريد.

قال في التنوير[1]: الذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك حتى يكون الحق تعالى هو الذي يتولى إخراجك كما تولّى إدخالك، وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب.

قال بعضهم: تركت السبب كذا وكذا مرة فعدت إليه فتركني السبب فلم أعد إليه.

قال[2]: ودخلت على الشيخ أبي العباس المرسي وفي نفسي العزم على التجريد قائلاً في نفسي: إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة التي أنا عليها بعيد من الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس، فقال لي من غير أن أسأله: صحبني إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدِّر فيها، فذاق من هذا الطريق شيئاً فجاء إليّ فقال لي: يا سيدي اخرج عما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا ولكن امكث فيما أنت فيه وما قسَّم الله لك على أيدينا فهو لك واصل. ثم قال الشيخ ونظر إليّ: وهكذا شأن الصدِّيقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: **«هم القوم**

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

(2) أي الشيخ ابن عطاء الله السكندري مؤلف الحِكَم.

لا يشقى بهم جليسهم»[1] اهـ.

قال رضي الله عنه: إنما منعه من التجريد لشره نفسه إليه والنفس إذا شرهت للشيء كان خفيفاً عليها، والخفيف عليها لا خير فيه، وما خف عليها إلَّا لحظ لها فيه.

ثم قال: فلا يتجرد المريد في حال القوّة حتى تفوت إن أراد أن تستفيد نفسه فإن جرّدها في حال القوة أتاه الضعف فيعقبه الخصمان ويشوشونه ويفتنونه، وربما إذا لم يدركه المولى بلطفه سامح في الخلطة ويرجع إلى ما خرج منه حتى يسيء ظنه بأهل التجريد، ويقول: ليسوا على شيء، كلنا دخلنا البلد وما رأينا شيئاً. والذي يثقل عليه التجريد أولاً هو الذي ينبغي له أن يتجرّد لأنه ما ثقل عليها إلَّا حيث تحققت أن عنقها تحت السيف مهما حرك يده قطع أوداجها. انتهى المقصود منه.

وأما المتجرِّد إذا أراد الرجوع إلى الأسباب من غير إذن صريح فهو انحطاط من الهمَّة العليّة إلى الهمَّة الدنيَّة أو سقوط من الولاية الكبرى إلى الولاية الصغرى.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: قال لي شيخي سيدي العربي: يا ولدي لو رأيت شيئاً أعلى من التجريد وأقرب وأنفع لأخبرتك به ولكن هو عند أهل هذه الطريقة بمنزلة الإكسير الذي قيراط منه يغلب ما بين الخافقين ذهباً كذلك التجريد في هذه الطريق. اهـ.

وسمعت شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: معرفة المتجرِّد أفضل وفكرته أنصع لأن الصفاء من الصفاء والكدر من الكدر، صفاء الباطن من صفاء الظاهر وكدر الباطن من كدر الظاهر، وكلما زاد في الحس نقص في المعنى.

وفي بعض الأخبار: إذا أخذ العالم شيئاً من الدنيا نقصت درجته عند الله وإن كان كريماً على الله، وأما من أذن له في السبب فهو كالمتجرِّد إذا صار حينئذ سببه عبودية، **والحاصل** أن التجريد من غير إذن سبب والسبب مع الإذن تجريد، وبالله التوفيق.

تنبيه: هذا الكلام كله مع السائرين، وأما الواصلين المتمكّنون فلا كلام عليهم إذ هم رضي الله عنهم مأخوذون عن أنفسهم يقبضون من الله ويدفعون بالله، قد تولّى الحق تعالى أمورهم وحفظ أسرارهم وحرس قلوبهم بجنود الأنوار فلا تؤثر فيها ظلم الأغيار، وعليه يحمل حال الصحابة في الأسباب رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل مجالس الذكر، حديث رقم (2689) [4/ 2069] وأحمد في المسند، مسند أبي هريرة، حديث رقم (8960) [2/ 382] ورواه غيرهما.

واعلم أن المتسبِّب والمتجرِّد عاملان لله إذ كل واحد منهما حصل له صدق التوجه إلى الله تعالى حتى قال بعضهم: مثل المتجرِّد والمتسبِّب كعبدين للملك قال لأحدهما: اعمل وكل، وقال للآخر: الزم أنت حضرتي وأنا أقوم لك بقسمتي. ولكن صدق التوجه في المتجرِّد أقوى لقلّة عوائقه وقطع علائقه كما هو معلوم.

* * *

ولما كانت همَّة الفقير المتجرِّد لا تخطىء في الغالب لقوله عليه السلام: «**إن لله رجالاً لو أقسموا على الله لأبرهم في قسمهم**»[1]. قال شيخنا: ولله رجال إذا اهتموا بالشيء كان بإذن الله. وقال أيضاً عليه السلام: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[2].

خشي الشيخ أن يتوهم أحد أن الهمّة تخرق سور القدر وتفعل ما لم يجز به القضاء والقدر فرفع ذلك بقوله:

3 ـ (سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار).

قلت: السوابق جمع سابقة، وهي المتقدمة. والهِّمم جمع همَّة والهمَّة قوّة انبعاث القلب في طلب الشيء والاهتمام به، فإن كان ذلك الأمر رفيعاً كمعرفة الله وطلب رضاه سميت همَّة عالية، وإن كان أمراً خسيساً كطلب الدنيا وحظوظها سمِّيت همَّة دنيّة. وسوابق الهِّمم من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي الهمم السوابق لا تخرق أسوار الأقدار، أي إذا اهتمَّ العارف أو المريد بشيء وقويت همّته بذلك فإن الله تعالى يكوِّن ذلك بقدرته في ساعة واحدة حتى يكون أمره بأمر الله.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: المريد الصادق إذا كان فانياً في الاسم مهما اهتمَّ بالشيء كان وإن كان فانياً في الذات تكوَّن الشيء الذي يحتاجه قبل أن يهتم به. أو كلام هذا معناه، وهو صحيح.

وفي بعض الأخبار، يقول الله تعالى: «عبدي أنا الله الذي أقول للشيء كن

---

(1) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب برقم (8578) [5/ 409] ورواه ابن أبي الدنيا في الأولياء برقم (42) [1/ 22] ورواه غيرهما. ونصه: «**يكون في أمّتي رجال طلس رؤوسهم دنس ثيابهم، لو أقسموا على الله لأبرهم**».

(2) رواه الترمذي في جامعه الصحيح، باب: ومن سورة الحجر، حديث رقم (3127) [5/ 298] والطبراني في المعجم الأوسط حديث رقم (3254) [3/ 312] وحديث رقم (7843) [8/ 23] وفي المعجم الكبير برقم (7497) [8/ 102] ورواه غيرهما.

فيكون فأطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون»[1]، وفي الحديث الصحيح أيضاً: «**فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً، إن سألني أعطيته**»[2] الحديث. ومع ذلك لا ينفصل بذلك ولا يتكون إلّا ما أحاط به قدر الله وقضاؤه. فهمَّة العارف تتوجَّه للشيء، فإن وجدت القضاء سبق به كان ذلك بإذن الله، وإن وجدت سور القدر مضروباً عليه لا تخرقه بل تتأدَّب معه وترجع لوصفها وهي العبودية، فلا تتأسف ولا تحزن بل ربما تفرح لرجوعها لمحلها وتحققها بوصفها.

وقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه يقول: نحن إذا قلنا شيئاً فخرج فرحنا مرة واحدة، وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات. وذلك لتحققه بمعرفة الله.

قيل لبعضهم: بماذاعرفت ربّك؟ قال: بنقض العزائم. وقد يحصل هذا التأثير للهمَّة القويّة وإن كان صاحبها ناقصاً كما يقع للعاين والساحر عن خبثهما أو لخاصية جعلها الله فيهما إذا نظرا لشيء بقصد انفعل ذلك بإذن الله وهذا كله أيضاً لا يخرق أسوار الأقدار بل لا يكون إلّا ما أراد الواحد القهار، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية 102]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: الآية 49]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسَان: الآية 30]. وقال ﷺ: «**كل شيء بقضاء وقدر حتى العَجْزُ والكَيْسُ**»[3] أي النشاط للفعل. وأشعر قوله: سوابق، أن الهمم الضعيفة لا ينفعل لها شيء، وهو كذلك في الخير والشر وفي استعارته الخرق والأسوار ما يشعر بالقوة في الجانبين لكن الحاصر قاهر فلا عبرة بقوّة العبد القاصر.

* * *

وإذا كانت الهمَّة لا تخرق أسوار الأقدار فما بالك بالتدبير والاختيار الذي أشار إليه بقوله:

4 ـ (أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به أنت لنفسك)

قلت: التدبير في اللغة: هو النظر في الأمور وأواخرها، وفي الاصطلاح هو كما قال الشيخ زروق رضي الله عنه: تقدير شؤون يكون عليها في المستقبل بما يخاف

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) أخرجه السيوطي في الدر المنثور [7/ 353] وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ترجمة الحسين بن يحيى الحسني [8/ 319] وأخرجه غيرهما.

(3) رواه مسلم في صحيحه، باب كل شيء بقدر، حديث رقم (2655) [4/ 2045] وابن حبان في صحيحه، ذكر الأخبار بأن كل شيء بمشيئة الله جلَّ وعلا . . . ، حديث رقم (6149) [14/ 17].

أو يرجى بالحكم لا بالتفويض، فإن كان مع تفويض وهو أخروي فنيّة خير أو طبيعي فشهوة أو دنيوي فأمنية. اهـ.

فاقتضى كلامه أن التدبير على ثلاثة أقسام: قسم مذموم، وقسم مطلوب، وقسم مباح.

فأما القسم المذموم: فهو الذي يصحبه الجزم والتصميم سواء كان دينياً أو دنيوياً لما فيه من قلّة الأدب وما يتعجله لنفسه من التعب إذ ما قام به الحيّ القيُّوم عنك لا تقوم به أنت عن نفسك، وغالب ما تدبره لنفسك لا تساعده رياح الأقدار، وتعقبه الهموم والأكدار، ولذلك قال أحمد بن مسروق: من ترك التدبير فهو في راحة. وقال سهل بن عبد الله: ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله جعل الروح والراحة في الرضى واليقين**»[1]. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لا تختر من أمرك شيئاً واختر أن لا تختار وفرّ من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار. اهـ. وقال أيضاً: إن كان ولا بد من التدبير فدبِّر أن لا تدبِّر. وقيل: من لم يدبِّر دبِّر له. وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: من أوصاف الولي الكامل أن لا يكون محتاجاً إلّا إلى الحال الذي يقيمه مولاه في الوقت. يعني ما له مراد إلَّا ما يبرز من عنصر القدرة. اهـ. فكلام هؤلاء السادات محمول على ما إذا كان بالنفس مع الجزم، وأمَّا ما كان مع التفويض فليس بمذموم ما لم يطل.

وأما **القسم المطلوب** فهو تدبير ما كلفت به من الواجبات وما ندبت إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة والنظر إلى القدرة، وهذا يسمى النيّة الصالحة. وقد قال عليه السلام: «**نيّة المؤمن خير من عمله**»[2] وقال أيضاً حاكياً عن الله سبحانه: «**إذا همَّ عبدي بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة**»[3] الحديث. وهذا مفهوم قول الشيخ فما قام به غيرك إذ مفهومه إن ما لم يقم به عنك، وهو الطاعة، لا يضرّك تدبيره. ولذلك قال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: العلم كله في

(1) رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، خيثمة بن عبد الرحمان، [4/ 121] والبيهقي في شعب الإيمان، ذكر حديث جمع القرآن، حديث رقم (208) [1/ 221ـ 222] ورواه غيرهما.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (6860) [5/ 343] والربيع الأزدي في مسنده، حديث رقم (1) [1/ 23] ورواه غيرهما.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

كلمتين: «لا تتكلف ما كفيت ولا تضيّع ما استكفيت». فقوله: لا تتكلف ما كفيت هو القسم الأول المذموم، وقوله: ولا تضيع ما استكفيت هو القسم الثاني المطلوب.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منه شيء إنما هو مختار الله لك، واسمع وأطع وهذا محل الفقه الربانيّ والعلم الإلهامي، وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى لمن استوى. اهـ. وقوله: لمن استوى، أي كمل عقله وتمَّت معرفته واستوت حقيقته مع شريعته لكن لا ينبغي الاسترسال معه فيشغله عن الله.

وأما **القسم المباح** فهو التدبير في أمر دنيوي أو طبيعي مع التفويض للمشيئة والنظر لما يبرز من القدرة غير معوّل على شيء من ذلك وعليه يحمل قوله ﷺ: «**التدبير نصف العيش**»[1] بشرط أن لا يردده المرة بعد المرة، فالقدر المباح منه هو مروره على القلب كالريح يدخل من طاق ويخرج من أخرى، وهذا هو التدبير بالله، وهو شأن العارفين المحققين، وعلامة كونه بالله أنه إذا برز من القدرة عكس ما دبّر لم ينقبض ولم يضطرب بل يكون كما قال الشاعر:

سلِّم لسلمى وسر حيث سارت ... واتبع رياح القضا ودر حيث دارت

وقال في التنوير: **فائدة: اعلم** أن الأشياء إنما تذمّ وتمدح بما تؤدي إليه، فالتدبير المذموم ما شغلك عن الله وعطلك عن القيام بخدمة الله وصدّك عن معاملة الله. والتدبير المحمود هو الذي يؤديك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاة الله. انظر بقية كلامه، فهذا تحرير ما ظهر لي في شأن التدبير. وقد ألف الشيخ رضي الله عنه فيه كتاباً سمّاه «التنوير في إسقاط التدبير» أحسن فيه وأجاد، ومرجعه إلى ما ذكرنا والله تعالى أعلم. ولما كمَّله اطلع عليه الولي الكامل سيدي ياقوت العرشي فلما طالعه قال له: جميع ما قلت مجموع في بيتين وهما هاتان:

ما ثَمَّ إلَّا ما أرادَ ... فاتركْ همومَك وانطرِح

واتْرُكْ شواغِلَكَ التي ... شُغِلْتَ بها تَستَرِح

* * *

ولما كان الانهماك في التدبير والاختيار يدل على انطماس البصيرة وتركهما أو

---

(1) أورده الديلمي في الفردوس، برقم (3421) [2/ 75] ورواه غيره بلفظ «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة...» ورواه غيرهما.

فعلهما بالله يدلّ على فتح البصيرة ذكر علامة أخرى أظهر وأشهر منهما على فتح البصيرة أو طمسها، فقال:

5 - (اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك)

قلت: الاجتهاد في الشيء استفراغ الجهد والطاقة في طلبه، والتقصير هو التفريط والتضييع، والبصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب، فالبصيرة لا ترى إلَّا المعاني والبصر لا يرى إلَّا المحسوسات.

أو تقول: البصيرة لا ترى إلَّا اللطيف والبصر لا يرى إلَّا الكثيف.

أو تقول: البصيرة لا ترى إلَّا القديم والبصر لا يرى إلَّا الحادث.

أو تقول: البصيرة لا ترى إلَّا المكوِّن والبصر لا يرى إلَّا الكون، فإذا أراد الله فتح بصيرة العبد أشغله في الظاهر بخدمته وفي الباطن بمحبته، فكلما عظمت المحبة في الباطن والخدمة في الظاهر قوي نور البصيرة حتى يستولي على البصر فيغيب نور البصر في نور البصيرة فلا يرى إلَّا ما تراه البصيرة من المعاني اللطيفة والأنوار القديمة، وهذا معنى قول شيخ شيوخنا المجذوب:

غيّبتْ نظَري في نظرْ وأفنيتْ عن كل فاني
حقّقتْ ما وجدتْ غيرْ وأمسيتْ في الحال هاني

وإذا أراد الله خذلان عبده أشغله في الظاهر بخدمة الأكوان وفي الباطن بمحبتها فلا يزال كذلك حتى ينطمس نور بصيرته فيستولي نور بصره على نور بصيرته فلا يرى إلَّا الحسّ ولا يخدم إلَّا الحسّ فيجتهد في طلب ما هو مضمون من الرزق المقسوم ويقصر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم، ولو كان بدل الاجتهاد استغراقاً وبدل التقصير تركاً لكان بدل الطمس عمى وهو الكفر والعياذ بالله لأن الدنيا كنهر طالوت لا ينجو منها إلَّا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده لا من شرب على قدر عطشه. فافهم ما قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: البصيرة كالبصر أدنى شيء يقع فيه يمنع النظر وإن لم ينته إلى العمى فالخطرة من الشيء تشوّش النظر وتكدِّر الفكر والإرادة له تذهب بالخير رأساً والعمل به يذهب عن صاحبه سهماً من الإسلام فيما هو فيه ويأتي بضده، فإذا استمر على الشر تفلت منه الإسلام فإذا انتهى إلى الوقيعة في الأمة وموالاة الظلمة حباً في الجاه والمنزلة وحباً للدنيا على الآخرة فقد تفلت منه الإسلام

كله ولا يغرنك ما توسم به ظاهراً فإنه لا روح له إذ الإسلام حب الله وحب الصالحين من عباده. انتهى.

* * *

ولما كان الاجتهاد في المضمون كله مذموم كان بالفعل كما تقدم أو بالقول وهو الاستعجال في تحصيله قبل إبانه بالدعاء أو بغيره أشار إلى ذلك بقوله:

6 - (لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد)

قلت: الإلحاح في الشيء هو تكرره من وجه واحد، والدعاء طلب مصحوب بأدب في بساط العبودية لجناب الربوبية، والموجب للشيء ما كان أصلاً في وجوده، واليأس قطع المطامع.

اعلم أن من أسمائه تعالى القيُّوم وهو مبالغة في القيام، فقد قام تعالى بأمر خلقه من عرشه إلى فرشه وعين لكل مظهر وقتاً محدوداً وأجلاً معلوماً ولكل واحد شكلاً معلوماً ورزقاً مقسوماً فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فإذا تعلّق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فارجع إلى وعد الله واقنع بعلم الله ولا تحرص ففي الحرص تعب ومذلّة.

قال شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه: الناس تقضي حوائجهم بالحرص فيها والجري عليها ونحن نقضي حوائجنا بالزهد فيها والاشتغال بالله عنها اهـ.

وإن كان ولا بد من الدعاء فليكن دعاؤك عبودية لا طلباً للحظ، فإن تركت الحظوظ صُبَّت عليك الحظوظ، وإن غلب عليك وارد الطلب وطلبت شيئاً ثم تأخر عنك وقت العطاء فيه فلا تتهم الله في وعده حيث قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية 60] ولا تيأس من نواله ورفده فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة، وقد يمنعك لطفاً بك لكون ذلك المطلب لا يليق بك كما قال الشيخ أبو الحسن: اللهمَّ إنَّا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم.

وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القَصَص: الآية 68] ما: موصولة، أي ويختار الأمر الذي لهم فيه

خيرتهم، وقد يكون أجابك وعيَّن لذلك وقتاً هو أصلح لك وأنفع فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة والبقاء وهو خير لك وأبقى. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«ما من داع إلَّا وهو بين إحدى ثلاث: إما أن تعجل له طلبته، وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»**[1] الحديث.

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: من لم يكن في دعائه تاركاً لاختياره راضياً باختيار الحق تعالى له فهو مستدرج ممن قيل له: اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته، فإن كان مع اختيار الحق تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجاباً وإن لم يعط، والأعمال بخواتمها. اهـ.

* * *

ثم حقق لك ما تقدم من إنجاز الوعد ونفوذ الموعود ولكن على الوجه الذي يريد وفي الوقت الذي يريد، وأمرك في ذلك بالصدق والتصديق ونهاك عن الشك والترديد ليكمل بذلك فتح بصيرتك وتبتهج أنوار سريرتك فقال:

7 - (لا يشكِّكنَّك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعيّن زمنه لئلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك)

التشكيك في الشيء: هو التردُّد في الوقوع وعدمه، والوعد: الإخبار بوقوع الشيء في محله، والموعود: المخبر به، والقدح في الشيء: التنقيص له والغض من مرتبته، والبصيرة: القوّة المهيئة لإدراك المعاني، والسريرة: القوة المستعدة لتمكُّن العلم والمعرفة.

واعلم أن النفس والعقل والروح والسرّ شيء واحد، لكن تختلف التسامي باختلاف المدارك، فما كان من مدارك الشهوات فمدركه النفس، وما كان من مدارك الأحكام الشرعية فمدركه العقل، وما كان من مدارك التجليّات والواردات فمدركه الروح، وما كان من مدارك التحقيقات والتمكنات فمدركه السرّ والمحل واحد، وإخماد الشيء: خفاؤه بعد ظهوره.

قلت: إذا وعدك الحق تعالى بشيء على لسان الوحي أو الإلهام من نبي أو ولي

---

(1) روى نحوه البيهقي في شعب الإيمان، ذكر فصول الدعاء. . .، رقم 122 [2/ 44- 45] والقرطبي في الاستذكار، باب ما جاء في الدعاء، [2/ 520] ونص رواية القرطبي هي: «ما من داع إلَّا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يستجاب وإما أن يؤخر عنه وإما أن يكفر عنه».

أو تجلّ قوي فلا تشك أيها المريد في ذلك الوعد إن كنت صديقاً، فإن لم يتعين زمنه فالأمر واسع وقد يطول الزمان وقد يقصر فلا تشك في وقوعه وإن طال زمنه، وقد كان بين دعاء سيدنا موسى وهارون على فرعون بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يُونس: الآية 88] الآية، أربعون سنة على ما قيل.

وإن تعين زمنه ولم يقع ذلك عند حلوله فلا تشك في صدق ذلك الوعد، فقد يكون ذلك مترتباً على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى عن ذلك النبي أو الولي لتظهر قهريته وعزّته وحكمته. وتأمل قضية سيدنا يونس عليه السلام حيث أخبر قومه بالعذاب لما أُخْبِرَ به وفرّ عنهم، وكان ذلك متوقفاً على عدم إسلامهم فلما أسلموا تأخر عنهم العذاب.

وكذلك قضية سيدنا نوح عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هُود: الآية 45] فوقف مع ظاهر العموم فقال له تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هُود: الآية 46] ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك، وإن فهمت العموم فعلمنا متسع، ولهذا السر الخفيّ كان الرسل عليهم السلام وأكابر الصدّيقين لا يقفون مع ظاهر الوعد فلا يزول اضطرارهم ولا يكون مع غير الله قرارهم، بل ينظرون لسعة علمه تعالى ونفوذ قهره.

ومنه قول سيدنا إبراهيم الخليل: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعَام: الآية 80]، وقول سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعـرَاف: الآيـة 89] أي فـي مـلّـة الـكـفـر ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعرَاف: الآية 89]. وقضية نبيِّنا ﷺ يوم بدر حيث دعا حتى سقط رداؤه وقال: «**اللهمَّ عهدك ووعدك، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة لم تُعبد بعد اليوم**»[1] فقال له الصدّيق: حسبك يا رسول الله فإن الله منجز لك ما وعدك. فنظر المصطفى أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد، ووقف الصديق مع الظاهر فكل على صواب والنبي ﷺ أوسع نظراً وأكمل علماً.

وأما قضية الحديبية فلم يتعيَّن فيها زمن الوعد لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾

---

(1) روى نحوه البخاري، باب (بل الساعة موعدهم. . .) حديث رقم (4596) [4/ 1846] ومسلم في صحيحه، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. . .، حديث رقم (1762) [3/ 1383] وروى نحوه غيرهما.

[الفَتح: الآية 27] وقد قال عليه السلام لعمر حين قال له: ألم تخبرنا أنا ندخل مكة؟ فقال له: «أقلت لك هذا العام؟» فقال: لا، فقال: «إنك داخلها ومطوّف بها»[1].

فشد يدك يا أخي على تصديق ما وعدك الله، به وحسِّن ظنك به وبأوليائه ولا سيما شيخك، فإياك أن تضمر التكذيب أو الشك فيكون ذلك قدحاً في بصيرتك، وقد يكون سبباً في طمسها، ويكون أيضاً إخماداً أي إخفاء وإطفاء لنور سريرتك، فترجع من حيث جئت وتهدم كل ما بنيت، فانظر أحسن التأويلات والتمس أحسن المخارج. وقد تقدم قول شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: نحن إذا قلنا شيئاً فخرج فرحنا مرة وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات. وما ذاك إلَّا لوسع نظره وتمكنه في معرفة ربه. وأيضاً قد يطلع الله أولياءه على نزول القضاء ولا يطلعهم على نزول اللطف، فينزل ذلك القضاء مصحوباً باللطف، فينزل خفيفاً سهلاً حتى يظن أنه لم ينزل، وقد شهدنا هذا وما قبله من أنفسنا ومن أشياخنا رضي الله عنهم فلم ينقص صدقنا ولم يخمد نور سريرتنا فللَّه الحمد ربنا.

تنبيه: كان شيخنا الفقيه العلَّامة سيدي التاودي بن سودة يستشكل هذه الحكمة ويقول: كيف يتصوّر تعيين الزمان؟ إن كان بالوحي فقد انقطع وإن كان بالإلهام فلا يلزم من الشك فيه القدح في البصيرة إذ لا يجب الإيمان به.

قلنا: كلامنا مع المريدين الصدّيقين السائرين أو الواصلين، وهم مطالبون بالتصديق للأشياخ في كل ما نطقوا به إذ هم ورثة الأنبياء فهم على قدمهم، فللأنبياء وحي الأحكام وللأولياء وحي الإلهام لأن القلوب إذا صفت من الأكدار والأغيار وملئت بالأنوار والأسرار لا يتجلّى فيها إلَّا الحق، فإذا نطقوا بشيء من وعد أو وعيد يجب على المريد تصديقه، فإذا دخله تشكيك أو تردد فيما وعده الله على لسان نبيه أو

---

(1) انظر قضية الحديبية في تفسير الطبري [26/ 107] وتفسير ابن كثير سورة الفتح، رقم (3268) [4/ 200 وما بعدها]. ومما كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام. فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به، قال: بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً حذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ [الفَتح: الآية 27] (التفسير 4/ 202).

شيخه قدح ذلك في نور بصيرته وأخمد سريرته، فإذا لم يعين زمنه انتظر وقوعه وإن طال، وإن عيّن زمنه ولم يقع تأول فيه ما تقدم في حق الرسل من توقفه على أسباب وشروط خفية. وبهذا فرّقوا بين الصِّديق والصادق لأن الصِّديق لا يتردد ولا يتعجب والصادق يتردد ثم يجزم، وإن رأى خرق عادة تعجب واستغرب، والله تعالى أعلم.

* * *

ولما كانت التعرفات القهرية ظاهرها جلال وباطنها جمال لما يعقبها من أوصاف الكمال، وربما يشك المريد فيما وعد الحق عليها من الخيرات وما رتب عليها من الفتوحات، نبّه الشيخ على ذلك فقال:

8 ـ (إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قلّ عملك فإنه ما فتحها عليك إلاَّ وهو يريد أن يتعرف إليك، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك)

فتح هنا بمعنى هيّأ ويسّر، والغالب استعماله في الخير، فأشعر الإتيان به هنا أن جهة التعريف من الأمور الجميلة. والوجهة هي الجهة، والمراد هنا الباب والمدخل. والتعرُّف طلب المعرفة، تقول: تعرّف لي فلان إذا طلب مني معرفته، والمعرفة تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن الانفكاك عنه بحال، والمبالاة التهمم بفوات الشيء.

قلت: إذا تجلّى لك الحق تعالى باسمه الجليل أو باسمه القهار، وفتح لك منها باباً ووجهة لتعرفه منها، فاعلم أن الله تعالى قد اعتنى بك وأراد أن يجتبيك لقربه ويصطفيك لحضرته، فالتزم الأدب معه بالرضى والتسليم وقابله بالفرح والسرور، ولا تبال بما يفوتك بها معها من الأعمال البدنية، فإنما هي وسيلة للأعمال القلبية، فإنه ما فتح هذا الباب إلَّا وهو يريد أن يرفع بينك وبينه الحجاب، ألم تعلم أن التعرفات الجلالية هو الذي أوردها عليك لتكون عليه وارداً، والأعمال البدنية أنت مهديها إليه لتكون إليه بها واصلاً، وفرق كبير بين ما تهديه أنت من الأعمال المدخولة والأحوال المعلولة وبين ما يورده عليك الحق تعالى من تحف المعارف الربانية والعلوم اللدنية، فطب نفساً أيها المريد بما ينزل عليك من هذه التعرفات الجلالية والنوازل القهرية. ومثل ذلك كالأمراض والأوجاع والشدائد والأهوال وكل ما يثقل على النفس ويؤلمها كالفقر والذلّ وأذية الخلق وغير ذلك مما تكرهه النفوس، فكل ما ينزل بك من هذه الأمور فهي نِعَم كبيرة ومواهب غزيرة تدل على قوّة صدقك إذ بقدر ما يعظم الصدق

يعظم التعرُّف، أشدكم بلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل[1]، والصدق متبوع، وإذا أراد الله أن يطوي مسافة البعد بينه وبين عبده سلّط عليه البلاء حتى إذا تخلّص وتشحر صلح للحضرة كما تصفى الفضة والذهب بالنار لتصلح لخزانة الملك.

وما زالت الشيوخ والعارفون يفرحون بهذه النوازل ويستعدون لها في كسب المواهب، وكان شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه يسميها ليلة القدر ويقول: ليلة الحيزة هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وذلك لأجل ما يجتنيه العبد منها من أعمال القلوب التي الذرّة منها أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وقد قلت في ذلك بيتين وهما:

إذا طرقَتْ بابِي من الدَّهرِ فاقةٌ   فتَحْتُ لها بابَ المَسَرَّةِ والبِشْر
وقلتُ لها أهلاً وسَهلاً ومَرْحَباً   فَوَقْتُكِ عندي أحظَى مِنْ ليلةِ القدر

واعلم أن هذه التعرفات الجلالية هي اختبار من الحق ومعيار للناس وبها تعرف الفضة والذهب من النحاس، فكثير من المدّعين يظهرون على ألسنتهم المعرفة واليقين، فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم في مهاوي القنط والإنكار، من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: العجب كل العجب ممن يطلب معرفة الله ويحرص عليها فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره.

وقال شيخنا البوزيدي رضي الله عنه: هذه التعرفات الجلالية على ثلاثة أقسام: قسم عقوبة وطرد، وقسم تأديب وتنبيه، وقسم زيادة وترق.

أما الذي هو عقوبة وطرد، فهو الذي يسيءُ الأدب فيعاقبه الحق تعالى ويجهل فيها فيسخط ويقنط وينكر فيزداد من الله طرداً وبعداً.

وأما القسم الذي هو تأديب، فهو الذي يسيء الأدب فيؤدبه الحق تعالى فيعرفه فيها وينتبه لسوء أدبه وينهض من غفلته، فهي في حقه نعمة في مظهر النقمة.

وأما الذي هي في حقه زيادة وترق، فهو الذي تنزل به هذه التعرفات من غير سبب فيعرف فيها ويتأدب معها ويترقى بها إلى مقام الرسوخ والتمكين. اهـ بالمعنى.

---

(1) عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فإذا كان الرجل صلب الدين يبتلى الرجل على قدر دينه، فمن ثخن دينه ثخن بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه». رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان، حديث رقم (120) [1/ 99] ورواه غيره.

قلت: ولذلك قال بعضهم: بقدر الامتحان يكون الامتكان. وقال أيضاً: اختبار الباقي يقطع التباقي.

فائدة: إذا أردت أن يسهل عليك الجلال فقابله بضده وهو الجمال، فإنه ينقلب جمالاً في ساعته، وكيفية ذلك أنه إذا تجلّى باسمه القابض في الظاهر فقابله أنت بالبسط في الباطن فإنه ينقلب بسطاً، وإذا تجلّى لك باسمه القوي فقابله أنت بالضعف، أو تجلّى باسمه العزيز فقابله بالذلّ في الباطن، وهكذا يقابل الشيء بضدّه قياماً بالقدرة والحكمة.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: ما هي إلَّا حقيقة واحدة إن شربتها عسلاً وجدتها عسلاً، وإن شربتها لبناً وجدتها لبناً، وإن شربتها حنظلاً وجدتها حنظلاً، فاشرب يا أخي المليح ولا تشرب القبيح. اهـ. ومعنى كلامه رضي الله عنه هو كما تقدم: كما تقابله يقابلك، والله تعالى أعلم.

* * *

ولما تكلم على الأعمال وثمراتها وهو الأدب، ومرجعه إلى السكون تحت مجاري الأقدار من غير تدبير ولا اختيار ولا تعجيل لما تأخر ولا تأخر لما تعجَّل، بل يكون محط نظره إلى ما يبرز من عنصر القدرة فيتلقاه بالمعرفة، تكلم على تنويعها وتهذيبها بتهذيب عاملها، فقال:

9 ـ (تنوَّعت أجناس الأعمال بتنوُّع واردات الأحوال)

تنويع الشيء تكثيره. والأعمال هنا عبارة عن حركة الجسم، والواردات والأحوال عبارة عن حركة القلب، فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب، لكن ما دام القلب تخطر فيه الخواطر الظلمانية والنورانية سمي ما يخطر فيه خاطراً، وإن انقطعت عنه الخواطر الظلمانية سمي ما يخطر فيه وارداً أو حالاً، فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة بيانية وكلاهما يتحولان، فإن دام ذلك سمّي مقاماً.

قلت: قد تنوَّعت أجناس الأعمال الظاهرة بتنوُّع الأحوال الباطنة. أو تقول: أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب، فإن ورد على القلب قبض ظهر على الجوارح أثره من السكون، وإن ورد عليه بسط ظهر على الجوارح أثره من الخفة والحركة، وإن ورد على القلب زهد وورع ظهر على الجوارح أثره وهو ترك وإحجام أي تأخر، وإن ورد على القلب رغبة وحرص ظهر على الجوارح أثره وهو كد وتعب، وإن ورد على القلب محبة وشوق ظهر على الجوارح أثره وهو شطح ورقص، وإن ورد على

القلب معرفة وشهود ظهر على الجوارح أثره وهو راحة وركود، إلى غير ذلك من الأحوال وما ينشأ عنها من الأعمال. وقد تختلف هذه الأحوال على قلب واحد فيتلوَّن الظاهر في أعماله، وقد يغلب على قلب واحد حال واحد فيظهر عليه أثر واحد، فقد يغلب على الشخص القبض فيكون مقبوضاً في الغالب، وقد يغلب عليه البسط كذلك إلى غير ذلك من الأحوال، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: **«ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**[1].

قلت: ولأجل هذا المعنى اختلفت أحوال الصوفية فمنهم عباد ومنهم زهاد ومنهم الورعون والمريدون والعارفون.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه في قواعده[2]: قاعدة: النسك: الأخذ بكل مسلك من الفضائل من غير مراعاة لغير ذلك، فإن رام التحقيق في ذلك، أي النسك، فهو العابد، وإن مال للأخذ بالأحوال فهو الورع، وإن آثر جانب الترك طالباً للسلامة فهو الزاهد، وإن أرسل نفسه في مراد الحق فهو العارف، وإن أخذ بالتخلُّق والتعلُّق فهو المريد، اهـ المراد منه.

وقال في قاعدة أخرى: لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقاصد، بل يكون متحدّاً مع اختلاف مسالكه كالعبادة والزهادة والمعرفة مسالك لقرب الحق على سبيل الكرامة، وكلها متداخلة، فلا بد للعارف من عبادة وإلا فلا عبرة بمعرفته إذ لم يعبد معروفه، ولا بد له من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده إذ لم يعرض عما سواه، ولا بد للعابد منهما إذ لا عبادة إلَّا بمعرفة، أي في الجملة ولا فراغ للعبادة إلَّا بزهد، والزاهد كذلك إذ لا زهد إلَّا بمعرفة، أي في الجملة: ولا زهد إلَّا بعبادة وإلا عاد بطالة، نعم من غلب عليه العمل فعابد أو الترك فزاهد أو النظر لتصريف الحق فعارف، والكل صوفية، والله أعلم. اهـ.

* * *

ولما كان الإخلاص شرطاً في كل عمل ذكره بإثره فقال:

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52) [1/ 28] ومسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (1599) [3/ 1219] ورواه غيرهما.

(2) قواعده: كتاب «قواعد التصوُّف» مكون من مئتين وخمسة وعشرين قاعدة في التصوُّف شارحاً حقيقته ومسائله المتعلقة في السير والسلوك إلى حضرة ملك الملوك وعلَّام الغيوب والكتاب مطبوع في الدار.

10 ـ (الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها)

الأعمال هنا عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية، والصور جمع صورة وهو ما يتشخص في الذهن من الكيفيات، والروح السرّ المودع في الحيوانات، وهو هنا عبارة عما يقع به الكمال المعتبر في الأعمال، والإخلاص إفراد القلب لعبادة الرب، وسرّه لبّه وهو الصدق المعبّر عنه بالتبرّي من الحول والقوّة إذ لا يتم إلّا به وإن صح دونه، إذ الإخلاص نفي الرياء والشرك الخفي وسرّه نفي العجب، وملاحظة النفس والرياء قادحة في صحة العمل، والعجب قادح في كماله فقط.

قلت: الأعمال كلها أشباح وأجساد، وأرواحها وجود الإخلاص فيها. فكما لا قيام للأشباح إلّا بالأرواح وإلا كانت ميتة ساقطة، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلّا بوجود الإخلاص فيها وإلا كانت صوراً قائمة وأشباحاً خاوية لا عبرة بها. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة: الآية 5] وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر: الآية 2]. وقال ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «**يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1]، وقال ﷺ: «**أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الخفي**»[2] وهو الرياء. وفي رواية: «**اتّقوا هذا الشرك الخفي فإنه يدبّ دبيب النمل، قيل: وما الشرك الخفي؟ قال: الرياء**»[3] اهـ بالمعنى لطول العهد به.

وفي حديث مسلسل إلى النبي ﷺ: أنه سئل عن الإخلاص، فقال: «**حتى أسأل جبريل**»، فلما سأله قال: «**حتى أسأل ربّ العزّة**»، فلما سأله قال له: «**هو سرّ من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده**». قال بعضهم: هو مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

والإخلاص على ثلاث درجات: درجة العوام، والخواص، وخواص

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب من أشرك في عمله غير الله. . .، حديث رقم (2985) [4/ 2289] وروى غيره نحوه.

(2) روى نحوه البزار في مسنده، حديث رقم (2663) [7/ 106] والبيهقي في شعب الإيمان، الخامس والأربعون من شعب الإيمان. . .، حديث رقم (6852) [5/ 237] ونصه: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي» وهو موقوف على معاذ بن جبل.

(3) هذا اللفظ لم أجده إنما ورد بلفظ: «عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عزَّ وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». (رواه أحمد في المسند حديث رقم (23680) [5/ 428] ورواه غيره).

الخواص. فإخلاص **العوام** هو إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور. وإخلاص **الخواص** طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية. وإخلاص **خواص الخواص** إخراج الحظوظ بالكلية فعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية أو محبة وشوقاً إلى رؤيته، كما قال ابن الفارض:

ليسَ سُؤْلي من الجنانِ نعيماً ... غيرَ أنّي أُحبُّها لأراكا

وقال آخر:

كلُّهم يعبُدون مِنْ خوفِ نار ... ويرونَ النجاةَ حظّاً جزيلا

أو بأَنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيَضْحوا ... في رياضٍ ويشْربُوا السلسبيلا

ليسَ لي في الجنانِ والنارِ رأيٌ ... أنا لا أبتغي بحُبي بَديلا

قال الشيخ أبو طالب رضي الله عنه: الإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الحق، وأول الخلق النفس. والإخلاص عند المحبين أن لا يعملوا عملاً لأجل النفس وإلا دخل عليها مطالعة العوض أو الميل إلى حظ النفس. والإخلاص عند الموحدين خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال.

وقال بعض المشايخ: صحح عملك بالإخلاص وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة. اهـ كلامه.

وقال بعض العارفين: لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ويسقط الناس من عينه، ولذلك قال آخر: كلما سقطت من عين الخلق عظمت في عين الحق، وكلما عظمت في عين الخلق سقطت من عين الحق. يعني مع ملاحظتهم ومراقبتهم.

وسمعت شيخنا يقول: ما دام العبد يراقب الناس ويهابهم لا يتحقق إخلاصه أبداً. وقال أيضاً: لا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبداً إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه اهـ. **والحاصل**: لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبداً، والله تعالى أعلم.

* * *

ولما كان الخمول من مضامن الإخلاص بل لا يتحقق في الغالب إلّا به، إذ لا حظ فيه للنفس ذكره بعده فقال:

11 ـ (ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه)

الدفن: هو التغطية والستر. والخمول: سقوط المنزلة عند الناس. ونتاج الشجرة: ثمرتها، استعير هنا للحِكَم والمواهب والعلوم التي يجتنيها العبد من المعرفة بالله وذلك عند موت نفسه وحياة روحه.

قلت: استر نفسك أيها المريد وادفنها في أرض الخمول حتى تستأنس به وتستحليه ويكون عندها أحلى من العسل، ويصير الظهور عندها أمّر من الحنظل، فإذا دفنتها في أرض الخمول وامتدت عروقها فيه فحينئذ تجني ثمرتها ويتم لك نتاجها وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص، وأما إذا لم تدفنها في أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول، ماتت شجرتها أو أسقطت ثمرتها فإذا جنى العارفون ما غرسوه من جنات معارفهم من العلوم وما دفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم بقيت أنت فقيراً سائلاً أو سارقاً صائلاً.

قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض، قال: كذلك الحكمة لا تنبت إلّا في قلب كالأرض اهـ. وقال بعض العارفين: كلما دفنت نفسك أرضاً أرضاً سما قلبك سماء سماء.

وقال رسول الله ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبرّه في قسمه**»[1]. وكان عليه الصلاة والسلام جالساً مع الأقرع بن حابس، كبير بني تميم، فمر عليه رجل من فقراء المسلمين فقال عليه السلام للأقرع بن حابس: «**ما تقول في هذا؟ فقال: هذا يا رسول الله من فقراء المسلمين حقيق إن خطب أن لا يزوَّج وإن استأذن أن لا يؤذن له وإن قال أن لا يسمع له. ثم مرّ بهما رجل من المترفين فقال له عليه السلام: وما تقول في هذا؟ فقال: هذا حقيق إن خطب أن يزوَّج وإن استأذن أن يؤذن له وإن قال أن يسمع له، فقال له ﷺ: هذا ـ يعني الفقير ـ خير من ملء الأرض من هذا**»[2]. وفي مدح الخمول أحاديث كثيرة وفضائل مشهورة ولو لم يكن فيه إلّا الراحة وفراغ القلب لكان كافياً. وأنشد بعضهم، وهو الحضرمي:

عشْ خاملَ الذكرِ بينَ الناسِ وارضَ بِهِ   فـذاكَ أسـلـمُ لـلـدنـيَـا ولـلـديـنِ

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7932) [4/ 364] وروى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم 1، حديث رقم (1882) [5/ 254] وروى نحوه غيره.

(2) روى نحوه البخاري في صحيحه باب الأكفاء. . .، حديث (4803) [5/ 1958] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10481) [7/ 330].

مَنْ عاشرَ الناسَ لم تسلمْ ديانتُهُ ولم يزلْ بينَ تحريكٍ وتسكينِ

وقال بعض الحكماء: الخمول نعمة والنفس تأباه، والظهور نقمة والنفس تهواه. وقال آخر: طريقتنا هذه لا تصلح إلَّا بقوم كنست بأرواحهم المزابل.

قلت: ويجب على من ابتلي بالجاه والرياسة أن يستعمل من الخراب ما يسقط به جاهه وإن كان مكروهاً دون الحرام المتفق عليه بقصد الدواء كالسؤال في الحوانيت أو الديار، والأكل في السوق وحيث يراه الناس، وكالرقاد فيه وكالسقي بالقربة وحمل الزبل على الرأس بوقائه، وكالمشي بالحفا وإظهار الحرص والبخل والشح، وكلبس المرقعة وتعليق السبحة الكبيرة وكل ما يثقل على النفس من المباح أو المكروه دون الحرام.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وكما لا يصلح دفن الزرع في أرض رديئة لا يجوز الخمول بحالة غير مرضية، وقياس ذلك بالغصة لا يصح لأن فوت الحياة الحسية مانع من كل خير واجباً ومندوباً، وتفويتها مع إمكان إبقائها محرّم إجماعاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: الآية 195] بخلاف الخمول لا يفوت به شيء من ذلك، إنما يفوت به الكمال وهو نفي الجاه والمنزلة وأصله الإباحة اهـ.

وأجاب بعضهم بأنه إذا جاز لفوت الحياة الفانية فأولى أن يجوز لفوت الحياة الدائمة وهي المعرفة، فتأمله. وقصة لص الحمام تشهد له، والله تعالى أعلم.

ولقد سمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: الفقير الصِّدِّيق يقتل نفسه بأدنى شيء من المباح، والفقير الكذاب يقع في المحرم ولا يقتلها. وكان كثيراً ما ينهى عن الأحوال الظلمانية ويقول: عندنا من المباح ما يغنينا عن المحرم والمكروه.

وأما السؤال، فإنما هو مكروه أو حرام لقصد قوت الأشباح مع الكفاية، وأما لقصد قوت الأرواح فليس بحرام. وقد ذكر القسطلاني في شرح البخاري عن ابن العربي أنه واجب على الفقير في بدايته، فانظره، وقد ذكره في (المباحث الأصلية)[1] مستوفى فانظره وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله عند قوله: لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق، الخ.

فإن قلت: هذا الخراب الذي ذكرت فيه شهرة أيضاً إذ الخمول هو الخفاء عن

(1) كتاب (المباحث الأصلية) للشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي المعروف بابن البنا السرقُسطي، بضم القاف، نسبة إلى سرقسط بلدة بتخوم الجزيرة، عاش بفاس وتوفي بها. وشرح الشيخ أحمد بن عجيبة هذا الكتاب وأسماه (الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية).

أعين الناس وهذا فيه ظهور كبير.

قلت: الخمول هو إسقاط المنزلة عند الناس وكتمان سر الولاية، وكل ما يسقط المنزلة عندهم وينفي تهمة الولاية فهو خمول وإن كان في الحس ظهوراً، ولذلك كان شيخنا رضي الله عنه يقول: طريقتنا منها الخمول في الظهور والظهور في الخمول.

وقال التجيبي في (الإنالة) ما نصه: ومن يقل من الصوفية إنَّ المرقعة شهرة فجوابه أن سلمان الفارسي سافر في زيارة أبي الدرداء من العراق إلى الشام راجلاً وعليه كساء غليظ غير مضموم، فقيل له: أشهرت نفسك، فقال: الخير خير الآخرة، وإنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد فإذا أعتقت لبست حلة لا تبلى حواشيها اهـ.

ومن ذلك قصة الغزالي رضي الله عنه من حمله جلد الثور على ظهره حين ملاقاة شيخه الخراز وكنسه السوق واستعماله القربة ليسقي الناس، كذا سمعتها من الشيخ مراراً ولم أقف عليها عند أحد ممن عرف به. وانظر ما جرى له مع ابن العربي عند قوله: رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده.

وكذلك قصة الششتري رضي الله عنه مع شيخه ابن سبعين لأن الششتري كان وزيراً وعالماً وأبوه كان أميراً، فلما أراد الدخول في طريق القوم قال له شيخه: لا تنال منها شيئاً حتى تبيع متاعك وتلبس قشابة وتأخذ بنديراً وتدخل السوق. ففعل جميع ذلك، فقال له: ما تقول في السوق؟ فقال: قل بدأت بذكر الحبيب. فدخل السوق يضرب بنديره ويقول: بدأت بذكر الحبيب، فبقي ثلاثة أيام وخرقت له الحجب فجعل يغني في الأسواق بعلوم الأذواق. ومن كلامه رضي الله عنه:

شُويخ مِنْ أرضِ مِكْنَاس ... في وسطِ الأسواقِ يُغَني
آشْ عليَّ من النَّاس ... وإشْ على النَّاس مني

ثم قال:

آشْ على حَدْ مِنْ حَدْ ... إفْهَمُوا ذِي الإشاره
وانظُرُوا كِبرَ سِنِّي ... والعَصا والغَزَاره
هكذا عِشْتُ بفاسْ ... وكذاك هُونْ هُوني
آش عليَّ من النَّاس ... وآش علَى النَّاس مني
وما أحسن كلامو ... إذا يخطُرْ في الأسواق
وترى أهلَ الحوانتْ ... تلتفِت لو بالأعناق

بـالـغـرارة فـي عـنـقـو بـعـكـيـكـز وبـغـرّاف
شـويـخ يـبـنـي عـلـى أسـاس كـإنـشـاء الـلّـه يـبـنـي
آشْ عـلـيَّ مـن الـنـاس وآشْ عـلـى الـنـاس مـنـي

وكذا قصة الرجل الذي كان مع أبي يزيد البسطامي، بقي معه ثلاثين سنة فكان لا ينقطع عن مجلسه ولا يفارقه، فقال له يوماً: يا أستاذ أنا منذ ثلاثين سنة أصوم النهار وأقوم الليل، وقد تركت الشهوات ولست أجد في قلبي شيئاً من هذا الذي تذكر البتة، وأنا أؤمن بكل ما تقول وأصدقه. فقال له أبو يزيد رضي الله عنه: لو صلّيت ثلاثمائة سنة وأنت على ما أراك عليه لا تجد منه ذرة، قال: فلم يا أستاذ؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، قال: أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب؟ قال: نعم ولكنك لا تقبل ولا تعمل، قال: بل أقبل وأعمل ما تقول، قال له أبو يزيد: اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلّق في عنقك مخلاة واملأها جوزاً واجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك: يا صبيان من يصفعني صفعة أعطه جوزة، وادخل سوقك الذي تعظم فيه وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك، فقال: يا أبا يزيد سبحان الله أيقال لمثلي هذا وتحسب أني أفعله، قال له: قولك سبحان الله شرك، فقال له: وكيف؟ فقال أبو يزيد: لأنك عظمت نفسك فسبحتها، قال: يا أبا يزيد لست أقدر على هذا ولا أفعله، ولكن دلني على غير هذا حتى أفعله. فقال له أبو يزيد: ابدأ بهذا قبل كل شيء حتى تسقط جاهك وتذلّ نفسك ثم بعد ذلك أعرّفك بما يصلح لك، قال: لا أطيق هذا، قال: إنك قد قلت إنك تقبل وتعمل وأنا أعلم أن لا مطمع لعبد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة فحينئذ تخرق له العوائد وتظهر له الفوائد اهـ.

وكذلك قصة أبي عمران البردعي مع شيخه أبي عبد الله التاودي بفاس من حلق رأسه ولبسه جلابية وأخذه خبزة ينادي عليها: من يخلصها، ففعل جميع ذلك. وكذلك قصة شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب من أكله التين عند أشجار الناس وغنائه بالأسواق، وخرابه بالقصر مشهور حتى طوف بها مراراً. وكذلك قصة سيدي علي العمراني فخرابه بفاس مشهور كنار على علم سكن السفليات حتى مات رضي الله عنه. وكذلك قصة شيخ شيخنا مولاي العربي من لبسه الغرارة وسقيه بالقربة وغير ذلك مما هو معلوم.

فهذه الحكايات تدل على أن الخمول ليس هو ما يفهمه العوام من لزوم البيوت

والفرار إلى الجبال فذلك هو عين الظهور عند المحققين، وإنما الخمول هو كما قال الشيخ زروق رضي الله عنه: تحقق النفس بوصفها الأدنى وشعورها به أبداً. ووصفها الأدنى هو الذلّ وكل ما يثقل عليها فمرجعه للتحقق بوصف التواضع وفائدته تحصيل العمل وكمال الحقيقة اهـ.

فإن قلت: في فعل هذه الأحوال التعرُّض لكلام الناس وإيقاعهم في الغيبة، قلت: هذا مبني على القصد والنيّة وكل من فعل شيئاً من ذلك فإنما قصده قتل نفسه وتحقيق إخلاصه ودواء قلبه وهم مسامحون لمن قال فيهم عاذرون له.

قال سيدي علي في كتابه: نحن نعذر من عذرنا ونعذر من لم يعذرنا. وقال الشيخ زروق في قواعده: (قاعدة) حكم الفقه عام في العموم لأن مقصوده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلماته، وحكم التصوُّف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي ولم يصح إنكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه في الأحكام لا في الحقائق اهـ.

تنبيه: هذه الأدوية التي ذكرنا إنما هي في حالة المرض، وأما من تحقق شفاؤه وكمل فناؤه فهو عبد الله سواء أظهره أو أخفاه، وفي هذا قال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء وعبد الله سواء عليه أظهره أم أخفاه اهـ.

* * *

ولما كان التخلص من دقائق الرياء ومخادع النفوس لا يكون في الغالب إلَّا بالفكرة ولا تتمّ الفكرة إلَّا بالعزلة ذكرها، فقال:

12 ـ (ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة)

النفع: إيصال الفائدة. والقلب: القوة المستعدة لقبول العلم، والعزلة: انفراد القلب بالله، وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القالب عن الناس، وهو المراد هنا إذ لا ينفرد القلب في الغالب إلَّا إذا انفرد القالب، وميدان بالفتح والكسر في الميم مجال الخيل استعير هنا للأفكار إذ ترددها في مواقعها كتردد الخيل في مجالها، والفكرة: سير القلب إلى حضرة الرب وهي على قسمين فكرة تصديق وإيمان وفكرة شهود وعيان على ما يأتي.

قلت: لا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة لأن العزلة كالحمية والفكرة

كالدواء، فلا ينفع الدواء من غير حمية ولا فائدة في الحمية من غير دواء، فلا خير في عزلة لا فكرة فيها ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها، إذ المقصود من العزلة هو تفرُّغ القلب، والمقصود من التفرُّغ هو جولان القلب واشتغال الفكرة والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكُّنه من القلب، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية صحته وهو الذي سمّاه الله القلب السليم، قال الله تعالى في شأن القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان 88، 89] أي صحيح، وقد قالوا: إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت ولا ينفعها إلّا الحمية، وهي قلّة موادها ومنعها من كثرة الأخلاط.

وفي الحديث: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»[1] وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض وربما مات، ولا ينفعه إلّا الحمية منها والفرار من مواطنها، وهي الخلطة فإذا اعتزل عن الناس واستعمل الفكرة نجح دواؤه واستقام قلبه وإلا بقي سقيماً حتى يلقى الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة، نسأل الله العافية.

قال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: ثمار العزلة الظفر بمواهب المنّة، وهي أربعة: كشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وتحقق المحبة، ولسان الصدق في الكلمة، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ﴾ [مريَم: الآية 49] الآية اهـ.

واعلم أن في الخلوة عشر فوائد:

الأولى: السلامة من آفات اللسان، فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم، وقد قال عليه السلام: «رحم الله عبداً سكت فسلم أو تكلم فغنم»[2]. ولا يسلم في الغالب من آفاته إلّا من آثر الخلوة على الاجتماع.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي[3] رضي الله عنه: إذا رأيت الفقير يؤثر الخلوة على الاجتماع والصمت على الكلام والصيام على الشبع فاعلم أن حبجه قد عسل،

(1) أورده الهروي في المصنوع [1/ 304] والعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2320) [2/ 279] وأورده غيرهما.

(2) رواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (582) [1/ 339] والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (4934) [4/ 241] ورواه غيرهما.

(3) علي: يقصد الشيخ علي الجمل شيخ مولاي العربي الدرقاوي.

وإذا رأيته يؤثر الخلطة والكلام والشبع على ضدها فاعلم أن حبجه خاوي. وقال في القوت وفي كثرة الكلام قلّة الورع وعدم التقوى وطول الحساب ونشر الكتاب وكثرة الطالبين وتعلق المظلومين بالظالمين وكثرة الإشهاد من الكرام الكاتبين، ودوام الإعراض عن الملك الكريم لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان وفيه الكذب وفيه الغيبة والنميمة والزور والبهتان. ثم قال: وفي الخبر: «أكثر خطايا ابن آدم في لسانه[1]، وأكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً في ما لا يعني»[2]. اهـ.

الفائدة الثانية: حفظ البصر والسلامة من آفات النظر، فإن من كان معتزلاً عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: الآية 131] فتمنع بذلك النفس من التطلع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها.

وقال محمد بن سيرين رضي الله عنه: إيّاك وفضول النظر فإنها تؤدي إلى فضول الشهوة.

وقال بعض الأدباء: من كثرت لحظاته دامت حسراته.

وقالوا: إن العين سبب الحين، أي الهلاك، ومن أرسل طرفه اقتنص حتفه، وإن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقة القلب. اهـ.

الفائدة الثالثة: حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

قال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة. قلت: لا بد لي؟ قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة. قلت: لا بد لي؟ قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم ولا بد لي من

---

(1) هذا الجزء من الحديث رواه ابن مردويه في جزء فيه أحاديث ابن حبان، حديث رقم (55) [1/ 119] والسيوطي في الدر المنثور [2/ 681] ورواه غيرهما.

(2) والنصف الثاني ورد بلفظ: «أكثر الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل». رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (8547) [9/ 104] والبيهقي في شعب الإيمان، الباب الثالث والثلاثون من شعب الإيمان، حديث رقم (10807ـ 10808) ورواه غيرهما.

معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون. قال: يا هذا تنظر إلى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله هيهات هذا لا يكون أبداً، ثم غاب عني.

وقال القشيري رضي الله عنه: فأرباب المجاهدة إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات، أي من الدنيا، قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضة.

الفائدة الرابعة: حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف العبد وكماله وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»[1] اهـ.

ولا شك أن من انفرد عن الناس ولم ينظر إلى ما هم فيه من الرغبة في الدنيا والانكباب عليها يسلم من متابعتهم في ذلك ويسلم من متابعة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة وقل من يخالطهم أن يسلم من ما هم فيه. وقد روي عن عيسى عليه السلام: لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قالوا: من الموتى، يا روح الله قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها.

الفائدة الخامسة: السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأرذال وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم ففي بعض الأخبار: مثل الجليس السوء كمثل الكير إذا لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه. وقال سيدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه: الجلسة مع غير الأخيار ترذل ولو تكون صافياً.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود ما لي أراك منتبذاً وحدانياً؟ فقال: إلٰهي قليت الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظان وارتد لنفسك إخواناً وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه فإنه لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني اهـ. فإن أردت الصحبة فعليك بصحبة الصوفية فإن صحبتهم كنز لا نفاد له.

قال الجنيد رضي الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء.

وقال آخر: والله ما أفلح من أفلح إلَّا بصحبة من أفلح.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، حديث رقم (7873) [4/ 348] والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (5972) [6/ 193] ورواه غيرهما.

الفائدة السادسة: التفرُّغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر ولا شك أن العبد إذا كان وحده تفرّغ لعبادة ربّه وانجمع عليها بجوارحه وقلبه لقلّة من يشغله عن ذلك.

قال في القوت: وأما الخلوة فإنها تفرغ القلب من الخلق وتجمع الهمّ بالخالق وتقوي العزم على الثبات، الخ كلامه.

الفائدة السابعة: وجدان حلاوة الطاعات وتمكن لذيذ المناجاة لفراغ سره وهذا مجرب صحيح. قال أبو طالب: ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية وحتى يكون أنسه في الوحدة وروحه في الخلوة وأحسن أعماله في السر اهـ.

الفائدة الثامنة: راحة القلب والبدن، فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم وتعب البدن بالسعي في أغراضهم وتكميل مرادهم، وإن كان في ذلك الثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم وهو جمع القلب في حضرة الرب.

الفائدة التاسعة: صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التي توجبها الخلطة، فإن للنفس تولعاً وتسارعاً للخوض في مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا وزاحمتهم فيها. وللشافعي رضي الله عنه:

ومنْ يذقِ الدنيا فإنّي طعمتهَا وسيقَ إليَّ عذبُها وعذابُهَا

فلمْ أرهَا إلَّا غروراً وباطلاً كما لاحَ في ظهرِ الفلاةِ سرابُهَا

وما هي إلَّا جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ همهنَّ اجتذابُهَا

فإنْ تجتنبها عشتَ سلماً لأهلهَا وإن تجتذبهَا ناهشتكَ كلابُهَا

فطوبَى لنفسٍ أوطأتْ قعرَ بيتِها مغلقةَ الأبوابِ مرخىً حجابُهَا

الفائدة العاشرة: التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخلوة. وفي الخبر: تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة. وكان عيسى عليه السلام يقول: طوبى لمن كان كلامه ذكراً وصمته تفكراً ونظره عبرة، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. وقال كعب: من أراد شرف الآخرة فليكثر من التفكر. وكان أفضل عبادة أبي الدرداء التفكر، وذلك لأنه يصل به إلى حقائق الأشياء وتبيين الحق من الباطل، ويطلع بها أيضاً على خفايا آفات النفوس ومكائدها وغرور الدنيا، ويتعرف بها وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها.

قال الحسن رضي الله عنه: الفكرة مرآة تريك حسنك من سيئك ويطلع بها أيضاً على عظمة الله وجلاله إذا تفكر في آياته ومصنوعاته، ويطلع بها أيضاً على آلائه ونعمائه الجلية والخفية فيستفيد بذلك أحوالاً سنية يزول بها مرض قلبه ويستقيم بها على طاعة ربه. قاله الشيخ ابن عباد رضي الله عنه. فهذه ثمرات عزلة أهل البداية.

وأما أهل النهاية فعزلتهم مصحوبة معهم ولو كانوا وسط الخلق لأنهم أقوياء رضي الله عنهم محجوبون بالجمع عن الفرق وبالمعنى عن الحس، استوى عندهم الخلوة والخلطة لأنهم يأخذون النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منهم شيئاً. وفي هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

الخلق نوّار وأنا أرعيت فيهم   هُمُ الحجب الأكبر والمدخل فيهم

* * *

فإن أضاف المريد إلى العزلة الصمت والجوع والسهر، فقد كملت ولايته وظهرت عنايته وأشرقت عليه الأنوار وانمحت من مرآة قلبه صور الأغيار. وقد أشار الشيخ إلى بعض ذلك متعجباً من ضده فقال:

13 ـ (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته)

يشرق: بضم الياء أي يستنير ويضيء، وصور الأكوان: أشخاصها وتماثيلها الحسيّة والمعنوية، والأكوان: أنواع المخلوقات دقت أو جلّت، ومنطبعة أي ثابتة وانطبع الشيء في الشيء ظهر أثره فيه، والمرآة بكسر الميم آلة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها فكلما قوي صقلها قوي ظهور ما يقابلها فيها، واستعيرت هنا للبصيرة التي هي عين القلب التي تتجلى فيها الأشياء حسنها وقبيحها.

قلت: جعل الله قلب الإنسان كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها كل ما يقابلها وليس لها إلَّا وجهة واحدة، فإذا أراد الله عنايته بعبد شغل فكرته بأنوار ملكوته وأسرار جبروته ولم يعلق قلبه بمحبة شيء من الأكوان الظلمانية والخيالات الوهمية فانطبعت في مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان. وإلى ذلك أشار الششتري في بعض أزجاله بقوله:

أغْمِضِ الطرفَ ترى   وتلوحْ أخبارَك

وافْنَ عنْ ذي الورَى   تبدو لكْ أسرارَك

وبصقْل المِرَى   به يزول إنكارَك

ثم قال[1]:

الفُلكُ فيكَ يدورْ ويضيءُ ويلمَع
والشموسُ والبدورُ فيك تغيبُ وتطلَع

أي: وبصقل مرآة قلبك يزول إنكارك للحق فتعرفه في كل شيء فيصير قلبك قطب فلك الأنوار، فيه تبدو أقمار التوحيد وشموس العرفان، وإذا أراد الله تعالى خذلان عبد بعدله وحكمته أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية، فانطبعت تلك الأكوان في مرآة قلبه، فانحجب بظلماتها الكونية وصورها الخيالية عن إشراق شموس العرفان وأنوار الإيمان فكلما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها واشتد حجابها، فلا ترى إلَّا الحس، ولا تتفكر إلَّا في الحس فمنها ما يشتد حجابها وينطمس نورها بالكلية فتنكر وجود النور من أصله وهو مقام الكفر والعياذ بالله، ومنها ما يقل صداها ويرق حجابها فتقرّ بالنور ولا تشاهده وهو مقام عوام المسلمين، وهم متفاوتون في القرب والبعد وقوة الدليل وضعفه كل على قدر يقينه وقلّة تعلقاته الدنيوية وعوائقه الشهوانية وخيالاته الوهمية.

وفي الحديث: «**إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وإن الإيمان يخلق، (أي يبلى) كما يخلق الثوب الجديد**»[2] الحديث.

وفي حديث آخر: «**لكل شيء مصقلة ومصقلة القلوب ذكر الله**»[3]، وقال أيضاً ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر صقلت وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: الآية 14]**»[4]. أو كما قال عليه السلام.

* * *

(1) القائل هو أبو مدين التلمساني الأندلسي شعيب بن الحسن المتوفى سنة 594هـ (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(2) أورده العسقلاني في لسان الميزان، ترجمة النضر بن عبيد الأزدي برقم (576) [6/ 164] ونصه: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار». وأما نصف الحديث الثاني فقد رواه الحاكم في المستدرك بلفظ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم». (كتاب الإيمان، حديث رقم (5) [1/ 45] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (387) [1/ 114].

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) رواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة ويل للمطففين، حديث رقم (3334) [5/ 434] والنسائي في سننه الكبرى، حديث رقم (11657) [6/ 509] ورواه غيرهما.

وإذا علمت أن القلب ليس له إلَّا وجهة واحدة إذا قابلها النور أشرقت وإذا قابلتها الظلمة أظلمت ولا تجتمع الظلمة والنور أبداً، علمت وجه تعجب الشيخ بقوله:

13 ـ (كيف يشرق قلب) بنور الإيمان والإحسان و (صور الأكوان) الظلمانية (منطبعة في مرآة قلبه)

فالضدّان لا يجتمعان، قال الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية 4] فما لك أيها الفقير إلَّا قلب واحد إذا أقبلت على الخلق أدبرت عن الحق، وإذا أقبلت على الحق أدبرت عن الخلق، فترحل من عالم الملك إلى الملكوت ومن الملكوت إلى الجبروت، وما دمت مقيّداً في هذا العالم بشهواتك وعوائدك فلا يمكنك الرحيل إلى ربك، وإلى ذلك أشار بقوله:

13 ـ (أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته)

الرحيل: هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن، وهو هنا من نظر الكون إلى شهود المكوِّن، أو من الملك إلى الملكوت، أو من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب، أو من وطن الغفلة إلى اليقظة، أو من حظوظ النفس إلى حقوق الله، أو من عالم الأكدار إلى عالم الصفا، أو من رؤية الحس إلى شهود المعنى، أو من الجهل إلى المعرفة، أو من علم اليقين إلى عين اليقين، أو من عين اليقين إلى حق اليقين، أو من المراقبة إلى المشاهدة، أو من مقام السائرين إلى وطن المتمكنين، والمكبّل: هو المقيّد. والمراد بالشهوات: كل ما تشتهيه النفس وتميل إليه.

قلت: الرحيل مع التكبيل لا يجتمعان، فما دام القلب محبوساً بالميل إلى شيء من هذا العرض الفاني ولو كان مباحاً في الشرع فهو مقيد به ومكبل في وطنه فلا يرحل إلى الملكوت ولا تشرق عليه أنوار الجبروت، فتعلق القلب بالشهوات مانع له من النهوض إلى الله لاشتغاله بالالتفات إليها، وعلى تقدير النهوض معها تكون مثبطة له عن الإسراع بالميل إليها، وعلى تقدير الإسراع فلا يأمن العثار معها لأنس النفس بها، ولذلك ترك الأكابر لذّتها حتى قال بعضهم: لدغ الزنابير على الأجسام المقرحة أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. اهـ.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: قلت: هذا إن تعلق القلب بطلبها قبل حصولها وإلا فلا لعدم تعلق القلب بها، وقد تقدم في حقيقة التصوُّف أن تكون مع الله بلا علاقة. وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: إن شئتم أن نقسم لكم لا يدخل

عالم الملكوت من في قلبه علقة اهـ. فاقطع عنك يا أخي عروق العلائق، وفر من وطن العوائق تشرق عليك أنوار الحقائق، ولهذا كانت السياحة والهجرة من الأمور المؤكدة على المريد، إذ الإقامة في وطنه الحسي لا يخلو معها من التعلقات الحسية. وقد قالوا: الفقير كالماء إذا طال في موطن واحد تغير وإذا جرى عذب، وبقدر ما يسير في الحس يسير في المعنى، وبقدر ما يسير القالب يسير القلب، والهجرة سنّة نبويّة ومنذ هاجر النبي ﷺ لم تكن له راحة إلَّا في السفر للجهاد حتى فتح الله عليه البلاد، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم لم يستقر في وطنه إلَّا القليل منهم، حتى فتح الله على أيديهم سائر البلاد وهدى الله بهم العباد، نفعنا الله ببركاتهم آمين.

* * *

وإذا رحل القلب من وطن شهواته وتطهر من لوث غفلاته وصل إلى حضرة ربّه وتنعَّم بشهود قربه، ولذلك أشار بقوله:

13 ـ (أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته)

الحضرة: هي حضور القلب مع الربّ، وهي على ثلاثة أقسام: حضرة القلوب، وحضرة الأرواح، وحضرة الأسرار. فحضرة القلوب للسائرين، وحضرة الأرواح للمستشرفين، وحضرة الأسرار للمتمكنين. أو تقول: حضرة القلوب لأهل المراقبة، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة، وحضرة الأسرار لأهل المكالمة. وسر ذلك أن الروح ما دامت تتقلّب بين الغفلة والحضرة كانت في حضرة القلوب، فإذا استراحت بالوصال سمّيت روحاً وكانت في حضرة الأرواح، وإذا تمكّنت وتصفّت وصارت سراً من أسرار الله سميت سرّاً وكانت في حضرة الأسرار، والله تعالى أعلم.

قلت: الحضرة: مقدّسة منزهة مرفعة لا يدخلها إلَّا المطهرون فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجد الحضرة. وجنابة القلب غفلته عن ربّه، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النّساء: الآية 43] أي لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا وشهود السوى حتى تتيقظوا وتتدّبروا ما تقولون في حضرة الملك ولا جنباً من جماع الغفلة وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب الذي أشار إليه الحاتمي رضي الله عنه كما في الطبقات الشعرانية في ترجمة أبي المواهب بقوله:

توضأْ بماءِ الغيبِ إنْ كنتَ ذا سرِ ... وإلا تيممْ بالصعيدِ أوِ الصخرِ
وقدِّمْ إماماً كنت أنت إمامَهُ ... وصلِّ صلاةَ الظهرِ في أولِ العصرِ
فهذي صلاةُ العارفينَ بربهِم ... فإنْ كنتَ منهُم فانضحِ البَّرَ بالبحرِ

يعني تطهّر من شهود نفسك بماء الغيبة عنها بشهود ربك، أو تطهر من شهود الحس بشهود المعنى، أو تطهر من شهود عالم الشهادة بماء شهود عالم الغيب، أو تطهر من شهود السوى بماء العلم بالله فإنه يغيب عنك كل ما سواه، وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها، وإلى ذلك أشار الششتري رضي الله عنه بقوله:

طهّرِ العينَ بالمدامعِ سكباً ... من شهودِ السِّوَى تَزُلْ كلُّ علّةِ

وهذا الماء الذي هو ماء الغيب هو النازل من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت، فتغرقه سحائب الرحمة وتثيره رياح الهداية فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة فتملأ منه أودية القلوب المنوّرة وخلجان الأرواح المطهّرة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرّعد: الآية 17] الآية. شبَّه الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فكما أن المطر تعمر منه الأودية والغدران وتجري منه العيون والأنهار كل على قدر سعته وكبره، كذلك العلم النافع نزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة فسالت به أودية القلوب، كل على قدر طاقته وحسب استعداده.

وكما أن المطر يطهر الأرض من الأوساخ وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرّعد: الآية 17] أي مرتفعاً على وجه الماء، كذلك العلم النافع يطهِّر النفوس من الأدناس والقلوب من الأغيار والأرواح من الأكدار والأسرار من لوث الأنوار.

وهذا الماء هو الذي أشار إليه بقوله: توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر، أي كنت صاحب سر، والشهود شهود الوحدة ونفي الكثرة أو شهود العظمة بالعظمة.

ومن لم يتحقق بهذا فلا يمكنه التطهير بماء الغيب بالكلية لفقده ذلك الماء أو لعدم قدرته عليه فينتقل للتيمم الذي هو رخصة للضعفاء وطهارة للمرضى وإلى ذلك أشار بقوله: وإلا تيمم بالصعيد أو بالصخر، أي وإن لم تقدر على الطهارة الأصلية، وهي الغيبة عن السوى لمرض قلبك مع عدم صدقك فانتقل للطهارة الفرعية التي هي العبادة الظاهرية.

أو تقول: وإن لم تقدر على الطهارة الحقيقية التي هي الطهارة الباطنية فانتقل

للطهارة المجازية التي هي الطهارة الظاهرية.

أو تقول: وإن لم تقدر على طهارة المقرّبين فانتقل لطهارة أهل اليمين.

أو تقول: وإن لم تقدر على طهارة أهل المحبة فانتقل لطهارة أهل الخدمة.

قوم أقامهم الله لخدمته وقوم اختصهم بمحبته ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: الآية 20].

فطهارة أهل المحبة الفكرة والنظرة، وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم وغير ذلك، وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضى وتسليم ورحمة وشفقة وغير ذلك مما لا يظهر للعيان، وهذا هو تصوف أهل الظاهر. وأما تصوّف أهل الباطن فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكوّن، أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق، وهو الذي عبّر عنه الناظم بماء الغيب، فكل من لم يدرك تصوُّف أهل الباطن فهو من أهل التيمم.

فإن كان مشغولاً بالعمل الظاهر كالصلاة والصيام ونحوهما فهو كالمتيمم بالصعيد لظهورها كظهور أثر التراب على الجوارح.

وإن كان مشغولاً بالعبادة الخفية كالزهد والورع ونحوهما فهو كالمتيمم بالصخر لعدم ظهورها في الغالب كعدم ظهور أثر الصخر.

ولما أمرك بالغيبة عن السوى خاف عليك إنكار الواسطة وإسقاط الحكمة فتقع في الزندقة، فقال: وقدم إماماً كنت أنت إمامه، والمراد بالإمام هو النبي ﷺ ومن كان على قدمه ممن جمع بين الحقيقة والشريعة، فأمرك باتباع الشريعة المحمدية في حال غيبتك عن السوى فيكون ظاهرك سلوكاً وباطنك جذباً، ظاهرك مع الحكمة وباطنك مع القدرة، ولا بد أن تقتدي بإمام كامل سلك الطريقة على يد شيخ كامل يعلمك كيفية العمل بالشريعة، ويدلك على الحقيقة وإلا بقيت مريضاً على الدوام تستعمل طهارة المرضى على الدوام.

وانظر قول القرافي رضي الله عنه لما سقط على شيخ التربية قال: تيممت بالصعيد زماناً والآن سقطت على الماء، إذ لا تجد ماء الغيب ولا تقدر على استعماله إلَّا بصحبة أهل هذا الماء الذين شربوه وسكروا به ثم صحوا من سكرتهم وسلكوا من جذبتهم فتملكهم زمام أمرك وتنقاد إليهم بكليتك، بعد أن أطلعك الله على خصوصيتهم، وكشف لك عن أسرارهم، فشهدت لهم روحك بالتقديم، وسرك

بالتعظيم، فتقدمهم أمامك بعد أن كنت أنت أمامهم وهم يطلبونك للحضرة، وكذلك النبي ﷺ كان يدعو الناس إلى الله وهم فارون أمامه، فلما عرفوا الحق قدموه أمامهم، وهذا معنى قوله: كنت أنت إمامه.

وقوله: وصل صلاة الفجر في أول العصر، وفي بعض النسخ: وصل صلاة الظهر في أول العصر، أي اجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة. وفي أكثر النسخ: وصل صلاة الفجر في أول العصر أي ارجع إلى البقاء بعد كمال الفناء أو إلى السلوك بعد الجذب، إذ الغالب على المريد أن يتقدمه السلوك ثم يأتيه الجذب، فأوله سلوك وآخره جذب، كما أن أول النهار صلاة الفجر وآخره صلاة العصر، أي ارجع إلى صلاة الفجر التي كانت في أول نهارك، فصلها في آخر نهارك فارجع إلى السلوك الذي كان في أول أمرك، فاجعله في آخر أمرك وهو معنى قولهم: منتهى الكمال مبدأ الشرائع. وقالوا أيضاً: نهاية السالكين بداية المجذوبين، ونهاية المجذوبين بداية السالكين. وقالوا أيضاً: علامة النهاية الرجوع إلى البداية، وسيأتي الكلام على هذا في محله إن شاء الله.

وقوله: فهذي صلاة العارفين بربهم، لأنهم تطهّروا الطهارة الأصلية وصلّوا الصلاة الدائمة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: الآية 23]، فالعوام حد صلاتهم أوقاتهم، والعارفون في الصلاة على الدوام. قيل لبعضهم: هل للقلوب صلاة؟ فقال: نعم، إذا سجد لا يرفع رأسه أبداً، أي إذا سجدت الروح لهيبة الجلال والجمال لا ترفع رأسها أبداً، وإليه أشار الششتري بقوله:

فاسجد لهيبة ذي الجلال عند التداني ولتقرأ آية الكمال سبع المثاني

وقوله: فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر، أي فإن كنت من العارفين المحققين فانضح بر شريعتك ببحر حقيقتك، بحيث ترش على شريعتك من بحر حقيقتك حتى تغمرها وتغطيها فتصير الشريعة عين الحقيقة والحقيقة عين الشريعة، حتى يصير عملك كله بالله والله تعالى أعلم وبالله التوفيق ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله العلي العظيم.

* * *

وإذا دخل القلب حضرة القدس ومحل الأنس فهم دقائق الأسرار وملىء بالمواهب والأنوار وإلى ذلك أشار بقوله:

13 ـ (أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته)

الرجاء: تمني الشيء مع السعي في أسبابه وإلا فهو أمنية، والفهم: حصول العلم بالمطلوب، ودقائق الأسرار: غوامض التوحيد، والتوبة: الرجوع عن كل وصف ذميم إلى كل وصف حميد، وهذه توبة الخواص، والهفوات: جمع هفوة وهي الزلّة والسقطة.

قلت: فهم دقائق الأسرار لا يكون أبداً مع وجود الإصرار. أو تقول: فهم غوامض التوحيد لا يكون إلَّا بقلب فريد فمن لم يتب من هفواته ويتحرر من رقّ شهواته فلا يطمع في فهم غوامض التوحيد ولا يذوق أسرار أهل التفريد.

قال أحمد بن أبي الحواري: وسمعت شيخي أبا سليمان الداراني رضي الله عنه يقول: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

قال أحمد بن حنبل: صدقت يا أحمد وصدق شيخك ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إليَّ من هذه من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

وقيل للجنيد رضي الله عنه: كيف الطريق إلى التحقيق، قال: بتوبة تزيل الإصرار وخوف يقطع التسويف ورجاء يبعث على مسالك العمل وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل. فقيل له: بماذا يصل إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد فيه توحيد مجرد اهـ.

فإذا انفرد القلب بالله وتخلّص مما سواه فهم دقائق التوحيد وغوامضه التي لا يمكن التعبير عنها، وإنما هي رموز وإشارات لا يفهمها إلَّا أهلها ولا تفشى إلَّا لهم وقليل ما هم، ومن أفشى شيئاً من أسرارها مع غير أهلها فقد أباح دمه وتعرّض لقتل نفسه كما قال أبو مدين رضي الله عنه:

وفي السِّرِ أسرارٌ دقاقٌ لطيفةٌ تراقُ دمانا جهرةً لو بها بُحنَا

وقال آخر:

ولي حبيبٌ عزيزٌ لا أبوحُ بهِ أخشَى فضيحةَ وجهِي يومَ ألقَاه

* * *

وهذه الأسرار هي أسرار الذات وأنوار الصفات التي تجلّى الحق بها في مظهر الأكوان، وإلى ذلك أشار بقوله:

14 ـ (الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه)

الكون: ما كوّنته القدرة وأظهرته للعيان، والظلمة: ضد النور، وهي عدمية،

والنور وجودي، وأناره: أي صيّره نوراً، وظهور الحق: تجلّيه.

قلت: الكون من حيث كونيته وظهور حسّه كله ظلمة، لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه، ولأنه سحاب يغطي شمس المعاني لمن وقف مع ظاهر حس الأواني، وإليه أشار الششتري بقوله: لا تنظر إلى الأواني، وخض بحر المعاني، لعلك تراني.

فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة وإنما أناره تجلّي الحق به وظهوره فيه، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه حسّاً ظلمانياً ومن نفذ إلى باطنه رآه نوراً ملكوتياً، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: الآية 35] فتحصل أن قول الشيخ: الكون كله ظلمة، إنما هو في حق أهل الحجاب لانطباع ظاهر صور الأكوان في مرآة قلوبهم، وأما أهل العرفان فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحق، فرأوا الكون نوراً فائضاً من بحر الجبروت، فصار الكون عندهم كله نوراً، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: الآية 101] أي من نور ملكوته وأسرار جبروته أو من أسرار المعاني القائمة بالأواني.

وقال رسول الله ﷺ: **«إن الله احتجب عن أهل السماء كما احتجب عن أهل الأرض، وإن أهل الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم وأنه ما حلّ في شيء ولا غاب عن شيء»**[1] اهـ. وهذه المعاني إنما هي أذواق لا تدرك بالعقل ولا بنقل الأوراق وإنما تدرك بصحبة أهل الأذواق فسلم ولا تنتقد.

إنْ لَمْ تَرَ الهلالَ فسلِّمْ لأناسٍ رأوهُ بالأبصارِ

* * *

ثم قسم الناس في شهود الحق على ثلاثة أقسام: عموم وخصوص وخصوص الخصوص، فقال:

14 ـ (فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار)

فأهل مقام البقاء يشهدون الحق بمجرد وقوع بصرهم على الكون، فهم يثبتون الأثر بالله ولا يشهدون بسواه، إلّا أنهم لكمالهم يثبتون الواسطة والموسوطة، فهم يشهدون الحق بمجرد شهود الواسطة أو عندها بلا تقديم ولا تأخير ولا ظرفية ولا مظروف.

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

مـذ عـرفـتُ الإلٰـهَ لـمْ أرَ غـيـراً   وكـذا الـغـيـرُ عـنـدنَـا مـمـنـوعُ

وقال الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه لأبي الحسن رضي الله عنه: يا أبا الحسن حدد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء وعند كل شيء ومع كل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء وتحت كل شيء وقريباً من كل شيء ومحيطاً بكل شيء بقرب هو وصفه وبحيطة هي نعته، وبعد عن الظرفية والحدود وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب بالمسافات وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو هو كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان. اهـ.

وقال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلَّا رأيت الله فيه، ولم أره حديثاً وإنما هو من قول بعض العارفين. فأهل السير من المريدين يشهدون الكون ثم يشهدون المكوِّن عنده وبأثره فيمتحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه، وهذا حال المستشرفين.

وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل شهود الخلق بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلاً إذ لا ثبوت له عندهم لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة فانون عن الحكمة، غرقى في بحر الأنوار، مطموس عليهم الآثار، وفي هذا المقام قال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلَّا رأيت الله قبله.

وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان إنما يشهدون الكون ولا يشهدون المكوِّن لا قبله ولا بعده، إنما يستدلون على وجوده بوجود الكون، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين قد أعوزهم، أي فاتهم، وجود الأنوار ومنعوا منها وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار بعد طلوعها وإشراق نورها لكن لا بد للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب، ولله در القائل:

ومـا احـتـجـبـتْ إلَّا بـرفـعِ حـجـابِـهـا   ومِـنْ عـجـبٍ أنَّ الـظـهـورَ تـسـتُّـرُ

وقال آخر:

لـقـد ظـهـرتَ فـلا تـخـفَـى عـلـى أحـدٍ   إلا عـلَـى أكـمَـهٍ لا يـبـصـرُ الـقـمـرَا

لـكنْ بـطـنـتَ بـمـا أظـهـرتَ مـحـتـجـباً   وكـيـف يُـعـرفُ مـن بـالـعـزةِ اسـتـتـرَا

* * *

ثم احتجابه تعالى في حال ظهوره مما يدلك على وجود قهره كما أشار إليه بقوله:

15 ـ (مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه)

قلت: من أسمائه تعالى القهار، ومن مظاهر قهره احتجابه في ظهوره، وظهوره في بطونه، وبطونه في ظهوره.

ومما يدلك أيضاً على وجود قهره أن احتجب بلا حجاب وقرب بلا اقتراب، بعيد في قربه قريب في بعده، احتجب عن خلقه في حال ظهوره لهم، وظهر لهم في حال احتجابه عنهم، فاحتجب عنهم بشيء ليس بموجود وهو الوهم، والوهم أمر عدمي مفقود فما حجبه إلَّا شدة ظهوره وما منع الأبصار من رؤيته إلَّا قهارية نوره.

فتحصل انفراد الحق بالوجود وليس مع الله موجود، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية 88] واسم الفاعل حقيقة في الحال، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحَديد: الآية 3]، وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية 115]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَديد: الآية 4]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسرَاء: الآية 60]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفَال: الآية 17]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفَتْح: الآية 10] الآية، وقال ﷺ: «**أفضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكل نعيم لا محالة زائل**»[1]. وقال ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول: يا رب كيف أعودك وأنت ربّ العالمين، فيقول الله: أما أنه مرض عبدي فلان فلم تعده فلو عدته لوجدتني عنده، ثم يقول: يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني، ثم يقول: استسقيتك فلم تسقني**»[2] الحديث، فدلّ الحديث على أن هذه الهياكل والأشخاص خيالات لا

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب أيام الجاهلية، حديث رقم (3628) [3/ 1395] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، حديث رقم (2256) [4/ 1768] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم (2569) [4/ 1990] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ. . .، حديث رقم (269) [1/ 503] ورواه غيرهما.
ونص رواية مسلم هي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

حقيقة لها فهي أشبه شيء بالظلال.

قال الششتري رضي الله عنه:

الخلقُ خلقكمُ والأمرُ أمركُمُ فأيُّ شيءٍ أنَا لكنت من ظلل
ما للحجابِ مكانٌ في وجودكمُ إلا بسرّ حروف انظُر إلى الجبل
أنتم دللتُم عليكُم منكمُ ولكم ديمومةٌ عبرتْ عن غامضِ الأزل
عرفتم بكم هذا الخبير بكُم أنتم همُ يا حياة القلب يا أملي

قوله: الخلق خلقكم الخ، المراد بالخلق صور الأشباح، وبالأمر سرّ الأرواح، أي الأشباح حكمتكم، والأرواح سرّ من أسراركم، فأنا لا وجود لي أصلاً فأي شيء قدرت نفسي وجدتها لكم ومظهراً من مظاهركم، وإنما أنا ظلل من ظلل وجودكم. ثم قال: ما للحجاب مكان في وجودكم، أي لا موضع للحجاب الحسيّ في وجودكم، إذ لو كان للحجاب مكان في وجودكم لكان أقرب إلينا منكم وهو محال لأنك قلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية 16].

وقوله: إلّا بسر حروف الخ، الاستثناء منقطع أي لا موضع للحجاب الحسيّ بيننا وبينكم لكن حجاب القهرية ورداء العزّة والكبرياء هو الذي منع الأبصار من رؤية نوركم الأصلي الجبروتي، إذ لو ظهر ذلك النور لاضمحلت المكوّنات ولاحترقت من نور السبحات، ولهذا السر أمر الله سيدنا موسى عليه السلام حين طلب الرؤية بالنظر إلى الجبل لما أراد الله تعالى أن يتجلّى له بشيء من ذلك النور، فلما لم يثبت الجبل لشيء قليل منه علمنا أنه لا طاقة للعبد الضعيف في هذه الدار على رؤية الواحد القهار إلّا بواسطة الأكوان الكثيفة بعد أن نشر عليها الأردية المعنوية، وهذا معنى قوله: إلّا بسر حروف انظر إلى الجبل أي إلّا بحجاب القهرية المفهوم من سر قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعرَاف: الآية 143]، أو إلّا حجاباً ملتبساً بسر الحكمة المفهوم من قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعرَاف: الآية 143] وكأنه تعالى يقول: يا موسى لن تقدر أن تراني من غير حجاب الحكمة، ولكن انظر إلى الجبل فإن أطاق ذلك فسوف تراني أنت، فلما تجلّى له الحق تعالى من غير واسطة الحس جعله دكاء والله تعالى أعلم.

وقال أيضاً في هذا المعنى:

لقد أنَا شيءٌ عجيبٌ لِمَنْ رآني أنا المحب والحبيب ليس ثمَّ ثاني

يا قاصداً عين الخبر غطاه أينُك الخمر منك والخبر والسر عندك

ارجع لذاتك واعتبر ما ثم غيرك[1]

فقوله: يا قاصداً عين الخبر، أي عين خبر التحقيق.

وقوله: غطاه أينك أي مكان وجودك الوهمي إذ لو غبت عن وجودك لوقعت على عين التحقيق.

وقوله: الخمر منك، أي شربة خمرة المحبة منك وهذا كما قال: مني عليّ دارت كؤوسي.

وقوله: والخبر، أي والخبر عن عين التحقيق منك أيضاً، وسرّ الربوبية عندك لأنك كنز مطلسم، فإذا أردت أن تعرفه فارجع لذاتك واعتبر تجد الوجود كله واحداً وأنت ذلك الواحد.

قال الشاعر:

هذا الوجودُ وإنْ تعدَّدَ ظاهِراً وحياتِكُم ما فيه إلّا أنتمُ

وقال أيضاً رضي الله عنه:

لقد فشى سري بلا مقال وقد ظهر عني في ذا المثال

نرى وجودَ غيري مِنَ المُحال وكلُّ ما دوني خيالٌ فِيّ

متحدٌ في كلِّ شيء أنَا هوَ المحبوبُ وأنَا الحبيب

والحبُّ لي مني شيءٌ عجيب وحدي أنا، فافهم سرّي غريب

فمَنْ نظَر ذاتي رآني شيء وفي حلا ذات طواني طي

صفاتي لا تخفى لمَنْ نظَر وذاتي معلومةٌ تلكَ الصّور

(1) لقد وردت هذه الأبيات في ديوان الششتري على النحو التالي:

لقد أنَا شيءٌ عجيب لمن رآني

أنا المحبُ والحبيب ما ثمَّ ثاني

يا قاصداً عين الخبر غطاه غينك

ارجع لذاتك واعتبر ما ثمَّ غيرك

فالخبر منك والخبر والسّرُ عندك

وفيك يطوى ما انتشر من الأواني

أفنَ عنِ الإحساسِ ترَى عِبَر في السِّر والمعنى خَفيت كي
لأنَّهُ مِنِّي سترَ علَيّ

وقد اتفقت على هذا المعنى وهو سر الوحدة مقالات العارفين ومواجيد المحبين وأشعارهم كلٌ على قدر ذوقه وشربه، جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيراً.

ولا يفهم هذه العبارات إلّا أهل الأذواق والإشارات، وحسب من لم يبلغ لها فهمه ولم يحط بها علمه أن يسلم ويكل فهمها إلى أربابها، وليعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه، لأن هذه المعاني أذواق لا تنال إلَّا بصحبة أهل الأذواق.

* * *

ثم استدل على بطلان وجود الحجاب في حقه تعالى بعشرة أمور متعجِّباً من كل واحد لظهوره مع خفائه، أي لشدة ظهوره عند العارفين وشدّة خفائه عند الغافلين الجاهلين، فأشار إلى **الأول** بقوله:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء)

والظاهر هو الباطن ما بطن في عالم الغيب هو الذي ظهر في عالم الشهادة، فحياض الجبروت متدفقة بأنوار الملكوت، انظر جمالي شاهداً في كل إنسان، الماء يجري نافداً، في أس الأغصان، تجده ماءً واحداً، والزهر ألوان. يا عجباً كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف، عجبت لمن يبغي عليك شهادة، وأنت الذي أشهدته كل شاهد. ثم ذكر **الثاني** فقال:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء)

بباء الجر أي تجلّى بكل شيء فلا وجود لشيء مع وجوده فكيف يحجبه شيء والغرض أن لا شيء. قال صاحب العينية رضي الله عنه:

تجلّيتَ في الأشياءِ حينَ خلقتَهَا فهَا هيَ ميطَتْ عنكَ فيهَا البراقعُ

ثم ذكر **الثالث** فقال:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء)

بقدرته وحكمته القدرة باطنة والحكمة ظاهرة، فالوجود كله بين قدرة وحكمة وبين جمع وفرق، وقد تقدم قول بعضهم: ما رأيت شيئاً إلّا رأيت الله فيه، أي بقدرته وحكمته فلولا ظهور أنوار الصفات ما عرفت الذات لولا الحس ما قبضت المعنى

ولولا الكثيف ما عرفت اللطيف. وللششتري رحمه الله:

محبوبي قد عمّ الوجودَ وقدْ ظهرَ في بيضٍ وسود
وفي النصارَى مع اليهودْ وفي الخنازيرِ مع القرود[1]
وفِي الحروفِ مع النقط أفهمنِي قط افهمنِي قط

ثم قال:

عرفتُه طولَ الزمان ظهرَ لي في كلِ أوان
وفي المياهِ وفي الدلوان وفي الطلوعِ وفي الهبوط
افهمني قط افهمني قط

ثم ذكر الرابع فقال:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر لكل شيء)

بلام الجر أي المتجلّي لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته، ولما تجلّى لكل شيء وعرفه في الباطن كل شيء وسبّح بحمده كل شيء فلم يحجبه شيء عن شيء، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية 44] يقول بلسان حاله: سبحان المتجلّي لكل شيء، الظاهر بكل شيء، يفقهه العارفون ويجهله الغافلون.

ثم ذكر الخامس فقال:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء)

فكل ما ظهر فمنه وإليه، فكان في أزله ظاهراً بنفسه ثم تجلّى لنفسه بنفسه، فهو الغني بذاته عن أن يظهر بغيره أو يحتاج إلى من يعرفه غيره، فالكون كله مجموع والغير عندنا ممنوع.

ثم ذكر السادس فقال:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء)

إذ لا وجود للأشياء مع وجوده ولا ظهور لها مع ظهوره، وعلى تقدير ظهورها

---

(1) أي من حيث أن الأثر يدل على المؤثر فهذا الكون بما فيه من أضداد جمال وجلال وخير وشر وكفر وإيمان وشرك كله يدل على ذات الواحد القهار، فعلم الله تعالى يكشف المعلومات على ما هي عليه والإرادة تخصصها على وفق ما كشفه العلم والقدرة تبرزها إلى عالم الشهادة على وفق ما كشفه العلم وخصصته الإرادة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: الآية 118].

فلا وجود لها من ذاتها فلولا ظهوره في الأشياء ما وقع عليها أبصار:

مَنْ لا وجودَ لذاتِهِ مِنْ ذاتِهِ فوجودُهُ لولاهُ عينُ مُحالِ[1]

فالعبد في حالة الحجاب تكون نفسه وجودها عنده ضرورياً ووجود الحق تعالى عنده نظرياً، فإذا عرف الحق وفني عن نفسه وتحقق بزوالها صار عنده وجود الحق ضرورياً ووجود نفسه نظرياً بل محال ضروري. قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا عن الدليل والبرهان وإنَّا لا نرى أحداً من الخلق فهل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً اهـ.

زاد في لطائف المنن: ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إلى الله، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له، وإن كانت الكائنات موصلة له فليس ذلك لها من حيث ذاتها لكن هو الذي ولّاها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلٰهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهي لمن وقف معها ولا ينفذ إلى قدرته عين الحجاب، فظهور الحق أجلى من كل ما ظهر إذ هو السبب في ظهور كل ما ظهر، وما اختفى إلَّا من شدّة ما ظهر ومن شدّة الظهور الخفاء، وإلى هذا المعنى أشار الرفاعي بقوله:

يا مَنْ تعاظَمَ حتَّى رقَّ معنَاهُ ولا تردّى رداءَ الكِبرِ إلَّا هُو

أي يا من تعاظم في ظهوره حتى خفي معناه.

ثم ذكر السابع فقال:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء)

لتحقق وحدانيته أزلاً وأبداً، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، أإلٰه مع الله تعالى الله عما يشركون، أفي الله شك فكل ما ظهر للعيان فإنما هو مظاهر الرحمٰن. قال صاحب العينية رضي الله عنه:

تجلّى حبيبي في مرائي جمالِهِ ففي كلِّ مرأى للحبيبِ طلائعُ

فلمَّا تجلَّى حُسنُهُ متنوّعاً تسمَّى بأسماءٍ فهُنّ مطالِعُ

---

(1) هذا البيت من البحر الكامل وهو للصوفي الكبير أبو مدين التلمساني شعيب بن الحسن الأندلسي المتوفى سنة 594 هـ. 1198 م (موسوعة الشعر العربي ـ المجمع الثقافي ـ أبو ظبي).

فالحق تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فلا شيء قبله ولا شيء بعده ولا شيء معه.

ثم ذكر **الثامن** فقال:

16 ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء)

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية 16]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: الآية 85]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: الآية 7]. وقرْبه تعالى قربُ علم وإحاطة وشهود لا قرب مسافة إذ لا مسافة بينك وبينه.

وتقدّم في الحديث: وإن الله ما حلّ في شيء ولا غاب عن شيء[1]، وقال سيدنا عليٌّ كرَّم الله وجهه: الحق تعالى ليس من شيء ولا في شيء ولا فوق شيء ولا تحت شيء، إذ لو كان من شيء لكان مخلوقاً، ولو كان فوق شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان تحت شيء لكان مقهوراً اهـ.

وقيل له[2]: يا ابن عم رسول الله ﷺ أين كان ربنا أو هل له مكان؟ فتغيّر وجهه وسكت ساعة ثم قال: **«قولكم أين الله سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان ثم خلق الزمان والمكان وهو الآن كما كان دون مكان ولا زمان»** اهـ.

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: قيل لي: يا علي بي قل وعليّ دل وأنا الكل اهـ. هذا كما في حديث البخاري: **«يقول الله تعالى يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»**[3]. وقال أيضاً ﷺ: **«لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»**[4] وتفسيره ما في الحديث قبله، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر **التاسع** فقال:

16 ـ (كيف يتصوّر أن يحجبه شيء ولولاه لما ظهر وجود كل شيء)

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) أي للإمام علي بن أبي طالب.

(3) ورواه الطبراني في الدعاء، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم (2032) [1/ 564] وتمام الرازي في الفوائد، الجزء الخامس عشر من حديث رقم (1053) ورواه غيرهما.

(4) رواه مسلم، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم (2246) [1763] والنسائي في السنن الكبرى، قوله تعالى: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: الآية 24]، حديث رقم (11487) [6/ 457] ورواه غيرهما.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: الآية 2] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: الآية 49] فكل ما ظهر في عالم الشهادة فهو فائض من عالم الغيب وكل ما برز في عالم الملكوت فهو فائض من بحر الجبروت فلا وجود للأشياء إلّا منه ولا قيام لها إلّا به ولا نسبة لها معه إذ هي عدم محض وعلى توهم وجودها فهي حادثة فانية ولا نسبة للعدم مع الوجود ولا للحادث مع القديم ولذلك تعجب الشيخ من اجتماعهما فقال:

16 ـ (يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم)

قلت: وهذا هو **العاشر**، فالوجود والعدم ضدان لا يجتمعان، والحادث والقديم متنافيان لا يلتقيان، وقد تقرر أن الحق واجب الوجود وكل ما سواه عدم على التحقيق، فإذا ظهر الوجود انتفى ضده وهو العدم، فكيف يتصوّر أن يحجبه وهو عدم فالحق لا يحجبه الباطل، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: الآية 32] فلا وجود للأشياء مع وجوده، فانتفى القول بالحلول إذ الحلول يقتضي وجود السوى حتى يحل فيه معنى الربوبية، والفرض أن السوى عدم محض فلا يتصور الحلول، وإلى هذا أشار في العينية[1] بقوله:

ونزّهه في حكم الحلول فما له سوى وإلى توحيده الأمر راجع

والقديم والحادث لا يلتقيان، فإذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم. قال رجل بين يدي الجنيد رضي الله عنه: الحمد لله، ولم يقل: رب العالمين، فقال له الجنيد: كمّله يا أخي، فقال له الرجل: وأي قدر للعالمين حتى يذكروا معه، فقال الجنيد: قله يا أخي فإنّ الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم، اهـ.

فقد تقرّر أن الأشياء كلها في حيز العدم إذ لا يثبت الحادث مع من له وصف القدم، فانتفى القول بالاتحاد إذ معنى الاتحاد هو اقتران القديم مع الحادث، فيتحدان حتى يكونا شيئاً واحداً وهو محال، إذ هو مبني أيضاً على وجود السوى ولا سوى. وقد يطلقون الاتحاد على الوحدة كقول ابن الفارض:

وهامتْ بها رُوحِي بحيثُ تمازجَا اتحاداً ولا جرمٌ تخلَّلَهُ جِرم

(1) أي الشيخ عبد الكريم الجيلي المتوفى سنة 805 في عينيته المشهورة.

فأطلق الاتحاد على اتصال الروح بأصلها بعد صفائها، ولذلك قال بعده: ولا جرم تخلله الخ، فتحصل أن الحق سبحانه واحد في ملكه قديم أزلي باق أبدي منزّه عن الحلول والاتحاد، مقدّس عن الشركاء والأضداد، كان ولا أين ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان. ومما ينسب لسيدنا عليّ كرَّم الله وجهه:

رأيتُ ربِّي بعينِ قلبي ... فقلتُ لا شكَّ أنتَ أنتَ
أنتَ الذي حزتَ كلَّ أينٍ ... بحيثُ لا أينَ ثَمَّ أنتَ
فليسَ للأينِ منكَ أينٌ ... فيعلَمُ الأينُ أينَ أنتَ
وليسَ للوهمِ فيكَ وهمٌ ... فيعلمُ الوهمُ كيفَ أنتَ
أحطتَ علماً بكلِ شيءٍ ... فكلُ شيءٍ أراهُ أنتَ
وفي فَنائي فَنا فَنائي ... وفي فَنائي وَجدتُ أنتَ

وسئل أبو الحسن النوري رضي الله عنه: أين الله من مخلوقاته، فقال: كان الله ولا أين والمخلوقات في عدم، فكان حيث هو وهو الآن حيث كان إذ لا أين ولا مكان. فقال له السائل، وهو علي بن ثور القاضي في قصة محنة الصوفية: فما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة، فقال: عز ظاهر وملك قاهر ومخلوقات ظاهرة به وصادرة عنه لا هي متصلة به ولا منفصلة عنه، فرغ من الأشياء ولم تفرغ منه لأنها تحتاج إليه وهو لا يحتاج إليها.

قال له: صدقت فأخبرني ماذا أراد الله بخلقها، قال: ظهور عزته وملكه وسلطانه. قال: صدقت، فأخبرني ما مراده من خلقه، قال: ما هم عليه. قال: أو يريد من الكفرة الكفر، قال: أفيكفرون به وهو كاره.

ثم قال: أخبرني ماذا أراد الله باختلاف الشيع وتفريق الملل، قال: أراد إبلاغ قدرته وبيان حكمته وإيجاب لطفه وظهور عدله وإحسانه. اهـ المراد منه.

وفيه إشارة إلى أن تجليات الحق على ثلاثة أقسام:

قسم أظهرهم ليظهر فيهم كرمه وإحسانه وهم أهل الطاعة والإحسان، **وقسم** أظهرهم ليظهر فيهم عفوه وحلمه وهم أهل العصيان من أهل الإيمان، **وقسم** أظهرهم ليظهر فيهم نقمته وغضبه وهم أهل الكفر والطغيان. فهذا سر تجلّيه تعالى في الجملة، والله تعالى أعلم.

فذلكة: حاصل ما اشتمل عليه هذا الباب من أول الكتاب ثلاثة أمور: عمل الشريعة، والطريقة، والحقيقة. أو تقول: عمل الإسلام، والإيمان، والإحسان. وهي

البداية والوسط والنهاية. ومن علامة النجاح في النهاية الرجوع إلى الله في البداية.

فأمرك بالرجوع إليه والاعتماد عليه دون الاعتماد على العمل مع وجود العمل، ثم دلّك على الأدب في حال التجريد والأسباب.

ثم نهاك في حالة المسير عن شغل باطنك بكد التدبير فإنه سبب التكدير، ثم أنهضك إلى الاجتهاد في الأعمال المطلوبة منك مع التقصير فيما هو مضمون لك ليكون سبباً في فتح بصيرتك.

ومن جملة ما هو مضمون ما تطلبه بدعائك فلا تستعجل ما تأخر عن وقته ولا تيأس من رحمته، وإذا وعدك بشيء فلا تشك في وعده ولا تتهمه فيما ينزل بك من تعرفاته وقهره فهذه أعمال أهل البدايات اختلفت أجناسها باختلاف أحوالهم.

فقوله: من علامة الاعتماد على العمل، إلى قوله: الأعمال صور قائمة، كله من عمل الشريعة الذي هو مقام الإسلام.

وقوله: الأعمال صور قائمة إلى قوله: الكون كله ظلمة، هو من عمل الطريقة الذي هو مقام الإيمان، ومداره على تخليص الباطن وتهذيبه فأمرك بالإخلاص والصدق وهو سر الإخلاص والخمول لأنه محله ومظهره والعزلة لتتمكن من الفكرة وتصفية مرآة القلب من صور الأكوان لتتهيّأ لإشراق شموس العرفان.

ثم فتح لك الباب ورفع عنك الحجاب وقال لك: ها أنت وربك، وهو قوله: الكون كله ظلمة، إلى آخر الباب، فقد قطع لك توهم الحجاب من جميع الوجوه فجزاه الله أحسن جزائه ومتّعه برضوانه مع أنبيائه وأحبائه وخرطنا في سلكهم مع كافة الأحباب آمين.

ولما أدخلك الحضرة دلّك على آدابها فقال في أول الباب الثاني مترجماً عنها من بعض التلامذة بقوله: وقال رضي الله عنه: وجملة أبوابه خمسة وعشرون باباً وثلاث رسائل وجواب، ثم مناجاة.

[الباب الثاني]

فلما فرغ من الباب الأول أشار إلى الباب الثاني فقال:

17 ـ (ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه).

الجهل هو ضد العلم، وقيل: هو عدم العلم بالمقصود وهو على قسمين: بسيط ومركب، فالبسيط أن يجهل ويعلم أنه جاهل، والمركب أن يجهل جهله، وأقبح الجهل الجهل بالله وإنكاره بعد طلب معرفته. قلت: من آداب العارف الحقيقي أن يقرّ الأشياء في محلها ويسير معها على سيرها، فكلما أبرزته القدرة للعيان فهو في غاية الكمال والإتقان. وفي ذلك قال صاحب العينية رضي الله عنه:

وكلُّ قبيحٍ إنْ نسبتَ لحسنِهِ   أتتكَ معاني الحُسن فيهِ تسارعُ
يُكملُ نقصانَ القبيحِ جمالُه   فمَا ثَمَّ نقصانٌ ولا ثَمَّ باشعُ

وقال أبو الحسن النوري رضي الله عنه: مراد الله من خلقه ما هم عليه، فإذا أقام الله عبداً في مقام من المقامات فالواجب على العارف أن يقرّه فيه بقلبه كائناً ما كان فإن كان لا تسلمه الشريعة رغبه في الخروج عنه بالسياسة وينظر ما يفعل الله.

قال بعضهم: من عامل الخلق بالشريعة طال خصمه معهم، ومن عاملهم بالحقيقة عذرهم، والواجب أن يعاملهم في الظاهر بالشريعة فيذكرهم وفي الباطن بالحقيقة فيعذرهم. ومن أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله تعالى في نفسه أو في غيره فقد جمع الجهل كله ولم يترك منه شيئاً حيث عارض القدر ونازع القادر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية 107] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعَام: الآية 112] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يُونس: الآية 99]. وفي بعض الأخبار: يقول الله تبارك وتعالى: **«من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليخرج من تحت سمائي وليتخذ ربّاً سواي»**(1). وقال عبد الله بن مسعود وابن

---

(1) روى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي هند الداري، حديث رقم (807) [22/ 320] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (4449) [3/ 169] ورواه غيرهما.

عباس رضي الله عنهما: لأن ألْحَسَ جمرة أحرقتْ ما أحرقتْ وأبقتْ ما أبقتْ أحبُّ إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان. وقال أبو عثمان رضي الله عنه: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ولا نقلني إلى غيره فسخطته.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي [الجمل] رضي الله عنه في كتابه[1]: من عرف أهل حقائق الظاهر ولم ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم يظفر بما في أيديهم ولا يمنع خيرهم قطعاً، ومن عرف أهل حقائق الباطن ولم ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم يظفر بما في أيديهم على كل حال ولا يمنع خيرهم قطعاً، والعارف بالله يجمع بين خير الفرقتين يصطحب معهما جميعاً وكل فرقة يتلوّن على لونها كشيخ شيوخنا رضي الله عنهم سيدي أحمد اليماني نفعنا الله به، كان رضي الله عنه ممن لا ينكر حالاً من أحوال الخلق أهل الظاهر يتلمذهم في ظواهرهم ويدفعهم إليها ويقرّهم فيها، وأهل البواطن يتلمذهم في بواطنهم ويدفعهم إليها ويقرّهم فيها، فحصل له خير الفرقتين بما رزقه الله من المعرفة والحكمة.

وقيل: إن الولي الكامل يتطوّر بجميع الأطوار ويقضي جميع الأوطار. اهـ.

قلت: ومن تأمل الأحاديث النبوية وجدها على هذا المنوال، لأن النبي ﷺ كان سيد العارفين وقدوة المربين، فكان يقرّ الناس على ما أقامهم الله في حكمتهم ويرغّبهم فيها، فلذلك تجد الأحاديث متعارضة ولا تعارض في الحقيقة. فإذا نظرت في أحاديث الذكر قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث الجهاد قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث فضل العلم قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث الزهد والتجريد من أسباب الدنيا قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث الكسب والخدمة على العيال كذلك، فكل حكمة رغّب النبي ﷺ فيها حتى تقول: لا أفضل منها تطييباً لخاطر أهلها ليكونوا فيها على بيّنة من ربّهم، ولم يأمرهم عليه السلام بالانتقال عنها إذ مراد الله منهم هو تلك الحكمة، فأقرّهم عليه السلام عليها ورغّبهم فيها حتى يظن من يسمع أحاديثها أنه لا أفضل منها، وهو كذلك إذ لا أفضل منها في حق أهلها.

والحاصل: أن العارف لا ينكر شيئاً ولا يجهل شيئاً. وقد قال بعض العارفين: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وتأويله: أن ما سبق في علم الله يكون لا يمكن غيره

---

(1) أي كتاب «نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد». طبع في الدار بتحقيقنا.

فلا أبدع منه، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ذكر **الأدب الثاني من آداب الحضرة القدسية، وهي ترك الرعونات البشرية** فقال:

18 - (إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس)

الإحالة على الشيء هو تسليطه وإغراؤه عليه، والمراد هنا توقف الأمر عليه بحيث لا يتوجه له حتى يتيسر وجوده، والفراغ من الشيء خلوه منه، وفراغ القلب خلوه مما يشغله، وفراغ الجوارح خلوها من الأشغال، والرعونة نوع من الحمق.

قلت: من آداب العارف أن يكون كامل العقل ثاقب الذهن، ومن علامة العقل انتهاز الفرصة في العمل ومبادرة العمر من غير تسويف ولا أمل، إذ ما فات منه لا عوض له وما حصل لا قيمة له. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ألا وإن من علامة العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزوُّد لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور»**[1]. وقال ﷺ: **«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»**[2] اهـ. والكيِّس هو العاقل، ودان نفسه حاسبها.

وفي صحف إبراهيم عليه السلام: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكّر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب.

وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلّا لثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة من غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه. اهـ.

فإحالتك الأعمال وتأخيرها إلى وقت آخر تكون فيه فارغ القلب أو القالب من علامة الرعونة والحمق وهو غرور، ومن أين لك أن تصل إلى ذلك الوقت والموت هاجم عليك من حيث لا تشعر، وعلى تقدير وصولك إليه لا تأمن من شغل آخر

---

(1) روى نحوه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، حديث رقم (7863) [4/ 346] وابن أبي شيبة في مصنفه، حديث رقم (34314) [7/ 76] ورواه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (191) [1/ 125] والترمذي في جامعه الصحيح، باب 25 حديث رقم (2459) [4/ 638] ورواه غيرهما.

يعرض لك. وفراغ الأشغال من حيث هو نادر لقوله عليه السلام: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[1] أي كثير من الناس فقدوهما وغبنوا فيهما إذ كثير منهم لا تجده إلَّا مشغولاً بدنيا أو مفتوناً بهوى أو مريضاً مبتلى. ومفهوم الكثير أن القليل من الناس رزقهم الله الصحة والفراغ، فإن عمروهما بطاعة مولاهم فقد شكروا وربحوا ربحاً عظيماً، وإن ضيّعوهما فقد خسروا خسراناً مبيناً وكفروا بهاتين النعمتين، فجدير أن تسلبا عنهم. وهو أيضاً من علامة الخذلان، وسيأتي كلام الشيخ: الخذلان كل الخذلان أن تقل عوائقك ثم لا تقبل عليه.

فالواجب على الإنسان أن يقطع علائقه وعوائقه ويخالف هواه ويبادر إلى خدمة مولاه ولا ينتظر وقتاً آخر، إذ الفقير ابن وقته فلا تجده مشغولاً إلَّا بفكرة أو نظرة أو ذكر أو مذاكرة أو خدمة شيخ يوصله إلى مولاه. وقد قلت لبعض الإخوان: الفقير الصديق ليس له فكرة ولا هدرة إلَّا في الحضرة أو ما يوصله للحضرة، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ذكر **الأدب الثالث**، وهو إقامته حيث أقامه الله تعالى فقال:

19 - (لا تطلب منه أنْ يُخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج)

قلت: من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه، فإذا أقامه الله تعالى في حالة من الأحوال فلا يستحقرها ويطلب الخروج منها إلى حالة أخرى، فلو أراد الحق تعالى أن يخرجه من تلك الحالة ويستعمله فيما سواها لاستعمله من غير أن يطلب منه أن يخرجه، بل يمكث على ما أقامه فيه الحق تعالى حتى يكون هو الذي يتولى إخراجه كما تولى إدخاله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [**الإسرَاء: الآية 80**]، فالمدخل الصدق هو أن تدخل فيه بالله، والمخرج الصدق هو أن تخرج منه بالله، وهذا هو الفهم عن الله وهو من علامة تحقق المعرفة بالله.

فالعارف بالله إذا كان أعزب لا يتمنى التزويج وإذا كان متزوجاً لا يتمنى الفراق، وإذا كان فقيراً لا يتمنى الغنى، وإذا كان غنيّاً لا يتمنى الفقر، وإذا كان صحيحاً لا يتمنى المرض، وإذا كان مريضاً لا يتمنى الصحة، وإذا كان عزيزاً لا

---

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، حديث رقم (6094) [5/ 2357] والحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7845) [4/ 341] ورواه غيرهما.

يتمنى الذلّ، وإذا كان ذليلاً لا يتمنى العزّ، وإذا كان مقبوضاً لا يتمنى البسط، وإذا كان مبسوطاً لا يتمنى القبض، وإذا كان قوياً لا يتمنى الضعف، وإذا كان ضعيفاً لا يتمنى القوة، وإذا كان مقيماً لا يتمنى السفر، وإذا كان مسافراً لا يتمنى الإقامة، وهكذا باقي الأحوال ينظر ما يفعل الله به ولا ينظر ما يفعل بنفسه لتحقق زواله، بل يكون كالميت بين يدي الغاسل أو كالقلم بين الأصابع، كما قال صاحب العينية[1] رضي الله عنه:

أراني كالآلاتِ وهوَ محرّكي أنا قلمٌ والاقتدارُ أصابعُ

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: الآية 68]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30]. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود تريد وأريد ولا يكون إلّا ما أريد، فإن سلمت لي ما أريد أتيتك بما تريد، وإن لم تسلم لي ما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلّا ما أريد.

وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: «**جفّ القلم بما أنت لاق**»[2] وفي حديث آخر: «**جفت الأقلام وطويت الصحف**»[3].

وقال شيخ شيوخنا سيدي أحمد اليماني رضي الله عنه حين سأله أصحابه عن حقيقة الولاية فقال لهم: حقيقة الولاية هو إذا كان صاحبها جالساً في الظل لا تشتهي نفسه الجلوس في الشمس، وإذا كان جالساً في الشمس لا تشتهي نفسه الجلوس في الظل، اهـ. وهذا كله مع الاختيار دون الأمر الضروري، وقد تقدم قول شيخ شيوخنا سيدي علي[4] رضي الله عنه: من أوصاف الولي الكامل أن لا يكون محتاجاً إلّا إلى الحال الذي يقيمه مولاه فيه في الوقت. يعني ما له مراد إلّا ما يبرز من عنصر القدرة لا تشتهي نفسه غيره اهـ.

---

(1) أي الشيخ عبد الكريم الجيلي مؤلف كتاب «الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر» وقد سبقت الإشارة إليه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من التبتل والخصاء، حديث رقم (4788) [5/ 1953]، والبيهقي في سننه الكبرى، باب النهي عن التبتل والخصاء، حديث رقم (13243) [7/ 79] ورواه غيرهما.

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن حنش الصنعاني عن ابن عباس، حديث رقم (12988) [12/ 238] وأبو يعلى في مسنده، عن شهر بن حوشب بن أبي هريرة، حديث رقم (6468) [11/ 355] ورواه غيرهما.

(4) أي الشيخ علي العمراني المشهور بعلي الجمل وقد سبقت الإشارة إليه.

قلت: فإذا تجلّى في العارف شيء من هذه الأمور، أعني الانتقال من حال إلى حال، فليتأن وليصبر حتى يفهم أنه من الله بإشارة ظاهرة أو باطنة أو هاتف حسي أو معنوي، ولينصت إلى الهواتف فإن الله تعالى يخاطبه بما يفعل وهذا أمر مجرّب صحيح عند العارفين، حتى أنهم لا يتصرّفون إلَّا بإذن من الله ورسوله، إذ لا فرق عند أهل الجمع، جعلنا الله منهم آمين، وهذا كله إذا كان الحال الذي هو فيه موافقاً للشريعة وإلا فليطلب الخروج منه بما يمكن.

* * *

ثم ذكر **الأدب الرابع** وهو: رفع الهمّة عن الأكوان ودوام الترقّي في مقامات العرفان، فقال:

20 ـ (ما أرادت همّة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك. ولا تبرجت ظواهر المكوَّنات إلا ونادته حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر)

همّة السالك هي القوّة الباعثة له على السير، ووقوفها مع الشيء هو اعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية أو فيه كفاية، وهواتف الحقيقة هي لسان حال الكشف عن عين التحقيق، وتبرُّج الشيء ظهوره في حال الزينة لقصد الإمالة، وظواهر المكونات هو ما كساها من الحسن والحكمة، وتزيينها هو خرق عوائدها له، وانقيادها لحكمه، وحقائقها نورها الباطني وهو تجلّي المعنى فيها.

قلت: السالك هو الذي يشهد الأثر، فإن كان يشهده في نفسه فهو سالك فقط، وهو في حالة السير، وإن كان يشهده بالله فهو سالك مجذوب، والمقامات التي يقطعها ثلاث: فناء في الأفعال، وفناء في الصفات، وفناء في الذات. أو تقول: فناء في الاسم، وفناء في الذات، وفناء في الفناء وهو مقام البقاء، ثم الترقي إلى ما لا نهاية له فإذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال وذاق حلاوته وأرادت همّته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء في الصفات الذي تطلب أمامك.

وإذا ترقى إلى مقام الفناء في الصفات وكشف له عن سر توحيد الصفات واستشرف على الفناء في الذات وأرادت همّته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء في الذات: الذي تطلب أمامك.

وإذا ترقى إلى الفناء في الذات وكشف له عن سر توحيد الذات وأرادت همّته أن

تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة فناء الفناء أو حقيقة البقاء: الذي تطلب أمامك.

وإذا وصل إلى البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114]، وقد قال عليه السلام: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(1).

أو تقول: إذا كشف للمريد عن الفناء في الاسم وذاق حلاوة العمل والذكر، وأرادت همّته أن تقف معها، نادته هواتف حقائق الفناء في الذات: الذي تطلب أمامك.

فإذا ترقى إلى مقام الفناء في الذات وذاق حلاوته ولم يتمكن وقنع بذلك وأرادت همّته أن تقف مع ذلك نادته هواتف حقيقة التمكين: الذي تطلب أمامك.

وإذا تمكن ولم يطلب زيادة الترقي نادته هواتف الترقي: الذي تطلب أمامك، وهكذا كل مقام ينادي على ما قبله ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية 13].

وإذا تبرّجت، أي ظهرت بزينتها وحللها للسالك أو للعارف، ظواهر المكونات بخرق عوائدها وانقيادها له وتصرّفه فيها بهمّته كالمشي على الماء والطيران في الهواء ونبع الماء وجلب الطعام وغير ذلك من الكرامات الحسيّة وأرادت همّة السالك أن تقف مع ظواهرها وتشتغل بحلاوة حسها نادته هواتف المعاني الباطنة: إنما نحن فتنة لك نختبرك هل تقنع بها دون معرفة مالكها ومنشئها المتجلّي فيها، أو تعرض عنها وتنفذ إلى نور معانيها وشهود مالكها ومجريها، فلا تكفر وتجحد المتجلي بها فتنكره فتكون من الجاهلين.

وقد ضرب الساحلي في (البغية) مثلاً لهذه المقامات والسير فيها فقال: مثل ذلك كملك ظهر بالمشرق مثلاً وأرسل لنا رسلاً بكتاب من عنده، فقرأه علينا كُتَّاب الملك وشوقونا إليه غاية التشويق بذكر كرمه ومحاسنه، فمن الناس من أعرض عن طاعته والانقياد إليه وهم الكفار، ومن الناس من قبل وآمن ولم يقدر على النهوض إلى حضرة الملك وهم عوام المسلمين، ضعفاء المحبة واليقين، ومن الناس من تشوق للملك ونهض إلى حضرته فقالت له الرسل: نحن نسيرك ونعرفك الطريق فتقدموا أمامهم يسيرون بهم، ثم أن الملك بنى دياراً ومنازل ينزلونها، كل منزل

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (486) [1/ 352] والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الوتر، حديث رقم (1150) [1/ 449] ورواه غيرهما.

أعظم من الذي قبله، هكذا إلى حضرته، فإذا نزلوا أول المنازل ورأوا حسنه وبهجته أرادوا أن يقيموا فيه فتقول لهم الرسل الذين جاؤوا من عند الملك: الذي تطلبون أمامكم، فينهضونهم من ذلك المنزل، فإذا نزلوا الثاني وجدوه أعظم من الأول فيريدون أن يقيموا فيه فترحلهم الرسل إلى ما بعده، هكذا يقطعون بهم المنازل منزلاً منزلاً حتى يوقفونهم على الملك فيقولون لهم: ها أنتم وربكم، فيستريحون من التعب ويتمتعون بالمجالسة والنظر. والمراد بالرسل هنا: الأنبياء الذين بعثهم الله وخلفاؤهم ممن كان على قدمهم ممن جمع بين الحقيقة والشريعة، وهذه المنازل هي المقامات التي يقطعها المريد. اهـ بالمعنى مع الاختصار لطول العهد به. وقد أشار الششتري إلى التنبيه على عدم الوقوف مع هذه المقامات والكرامات، فقال:

فلا تلتفِتْ في السَّيرِ غيراً وكلُّ ما ... سِوى اللَّه غيرُ فاتخذْ ذكره حصنا

وكلُّ مقامٍ لا تقُمْ فيه إنَّه ... حجابٌ فجدَّ السَّيرَ واستنجِدِ العَونا

ومَهما تَرى كلّ المراتبِ تجتَلي ... عليكَ فحُلْ عنها فعنْ مثلِها حُلنا

وقُل ليسَ لي في غَير ذاتِكَ مطلبٌ ... فلا صورةٌ تُجْلى ولا طُرفةٌ تُجنَى

واعلم أن هذه الآداب التي ذكرها الشيخ في هذا الباب قد تكون خاصة بالمعارف، وقد يشاركه فيها غيره فلذلك يعبر بعبارة واسعة لتكون عامة لأن المريد قد يترقى إلى مقام وقد بقيت عليه بقية مما قبله، فيكملها فيه، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ذكر **الأدب الخامس**، وهو ترك الطلب من حيث هو قال فيما يأتي: ربما دلهم الأدب على ترك الطلب، فقال:

21 ـ (طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلّة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك منه)

قلت: طلبك منه يكون بالتضرُّع والابتهال، وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال، وطلبك لغيره يكون بالتعرُّف والإقبال، وطلبك من غيره يكون بالتملُّق والسؤال.

وحاصلها أربعة، طلب الحق ومنه طلب الباطل ومنه وكلها مدخولة عند المحققين، أما طلبك منه فلوجود تهمتك له لأنك إنما طلبته مخافة أن يهملك أو

يغفل عنك، فإنما ينبه من يجوز منه الإغفال وإنما يذكر من يمكن منه الإهمال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 74]، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية 36]، وقال ﷺ: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[1]. فالسكون تحت مجاري الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهال.

وكان شيخ شيوخنا مولاي العربي [الدرقاوي] رضي الله عنه يقول: الفقير الصادق لم تبق له حالة يطلبها وإن كان ولا بد من الطلب فليطلب المعرفة. اهـ.

قلت: وإذا ورد منهم الدعاء فإنما هو عبودية وحكمة لا طلباً للقسمة، إذ ما قسم لك واصل إليك، ولو سألته أن يمنعكه أجابك.

وفي المسألة خلاف بين الصوفية: هل السكوت أولى أو الدعاء، والتحقيق أن ينظر ما يتجلى فيه وينشرح له الصدر فهو المراد منه.

وأما طلبك له فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك فلو حضر قلبك وغبت عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره.

أراكَ تسألُ عن نجدٍ وأنتَ بها ... وعن تُهامةَ هذا فعلُ متهم

وقال ابن المرحل السبتي رضي الله عنه:

ومن عجبٍ أنّي أحنُ إليهمُ ... وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي

وتبكيهمُ عيني وهُم بسوادِها ... ويشكُو النوَى قلبي وهُم بينَ أضلعي

وللرفاعي رضي الله عنه:

قالوا أتنسَى الذي تهوَى فقلتُ لهم ... يا قومُ منْ هُوَ روحي كيفَ أنسَاهُ

وكيفَ أنساهُ والأشياءُ بهِ حسُنَتْ ... مِنَ العجائبِ ينسى العبدُ مولاهُ

ما غابَ عني ولكنْ لستُ أُبْصِرُهُ ... إلا وقلتُ جهاراً قُل هوَ اللَّهُ

وأما طلبك لغيره، أي لمعرفة غيره، فلقلّة حيائك منه وعدم أنسك به. أما وجه قلّة حيائك منه فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة، ومثال ذلك كمن كان في حضرة الملك والملك مقبل عليه، ثم يجعل هو يريد الخروج منها ويلتفت إلى غيره، فهذا يدل على قلة حيائه وعدم اعتنائه بالملك، فهو حقيق بأن يطرد إلى الباب أو إلى سياسة الدواب، وقد قالوا: أنكر من تعرف ولا تتعرف لمن لا تعرف.

---

(1) رواه الترمذي في سننه (25 باب) حديث رقم (2926) [5/ 184] والقضاعي في مسند الشهاب، باب (378 من شغله ذكري. . .)، حديث رقم (584) [1/ 340] ورواه غيرهما.

وأما وجه عدم أنسك به فلأنك لو أنست به لاستوحشت من خلقه فلا يتصور منك طلب معرفتهم وأنت تفر منهم، فإذا آنسك به أوحشك من خلقه وبالعكس. والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس. إقبالك على الحق إدبارك عن الخلق، وإقبالك على الخلق إدبارك عن الحق. وقد عدوا من أصول الطريق الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

وأما طلبك من غيره فلوجود بعدك عنه إذ لو تحققت بقربه منك وهو كريم ما احتجت إلى سؤال غيره وهو لئيم. وسيأتي في المناجاة، أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما قطعت عادة الامتنان.

وفي بعض الكتب المنزّلة يقول الله تبارك وتعالى: «إذا أنزلت بعبدي حاجة فرفعها إليّ أعلم ذلك من نيّته لو كادته السماوات السبع والأرضون السبع لجعلت من أمره فرجاً ومخرجاً، وإذا أنزلت بعبدي حاجة فرفعها إلى غيري أضحت[1] الأرض من تحته وأسقطت السماء من فوقه وقطعت الأسباب فيما بيني وبينه ـ أو كما قال: ـ لطول العهد به». فتحصل أن الأدب هو الاكتفاء بعلم الله والتحقق بمعرفة الله والاستغناء به عما سواه، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ذكر **الأدب السادس**، وهو التسليم والرضى بما يجري به القدر والقضاء فقال:

22 ـ (ما من نفس تبديه إلاَّ وله قدر فيك يمضيه)

قلت: النفس بفتح الفاء عبارة عن دقيقة من الزمان قدر ما يخرج النفس ويرجع، وهو أوسع من الطرفة، والطرفة أوسع من اللحظة وهي رمق البصر ورده، والقدر هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر وهو علم أوقاتها وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها وما يعرض لها من الكيفيات وما ينزل بها من الآفات.

فإذا علمت أيها الإنسان أن أنفاسك قد عمّها القدر ولا يصدر منك ولا من غيرك إلَّا ما سبق به علمه، وجرى به قلمه، لزمك أن ترضى بكل ما يجري به القضاء، فأنفاسك معدودة وطرفاتك ولحظاتك محصورة فإذا انتهى آخر أنفاسك رحلت إلى آخرتك، وإذا كانت الأنفاس معدودة فما بالك بالخطوات والخطرات

---

(1) أَضَحْتُ: أبرزت، وضاحية كل شيء ناحيته البارزة. والمعنى هنا: أي رفع من تحته الأرض فلا يستطيع الوقوف عليها.

وغير ذلك من التصرفات، ولله در القائل:

مشيناهَا خُطىً كُتِبَتْ علينَا ... ومَنْ كُتِبَتْ عليهِ خُطىً مشاها
ومَنْ قُسِمَتْ منيَّتُهُ بِأَرْضٍ ... فليسَ يموتُ في أرضٍ سِواها

وحقيقة الرضى هو تلقي المهالك بوجه ضاحك، وحقيقة التسليم استواء النقمة والنعيم بحيث لا يختار في أيهما يقيم. وهذا هو مقام أهل الكمال الذين تحققوا بالزوال، نفعنا الله بذكرهم وخرطنا في سلكهم آمين.

* * *

ثم ذكر **الأدب السابع**، وهو دوام المراقبة ومواصلة المشاهدة فقال:

23 - (لا تترقب فراغ الأغيار فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه)

الترقب هو الانتظار، والأغيار جمع غير بكسر الغين وهو ما يغيّر القلب عن حاله، والغالب استعماله فيما يغيّره من حالة الكمال إلى حالة النقص. وعند الصوفية: كل ما يشغل عن الحضرة ويغيّر القلب عنها فهو غير، والمراقبة هي العسة[1] على القلب لئلا يخرج من حضرة الرب. والمراد بها في كلام الشيخ مطلق العسة فتصدق بمراقبة القلب كما تقدم، وتصدق بمراقبة الروح وهي عسها على دوام الشهود، وبمراقبة السر وهي عسته على دوام الترقي والأدب.

قلت: إذا أقامك الحق تعالى في حال يغلب فيها وجود الأغيار لغلبة الحس فيها كما إذا أقامك في شغل دنيوي في الظاهر لا محيد لك عنه، فجاهد قلبك في العسة عليه في الحضور لئلا تسرقك الغفلة أو جاهد روحك في العسة عليها في دوام الشهود لئلا يسرقك الحس، أو جاهد سرك في استمداد المواهب والعلوم لئلا يحصل من ذلك فتور.

ولا تترقب، أي تنتظر، فراغ شغل يدك من تلك الأغيار فتؤخر حضور قلبك إلى تمام شغل يدك فيفوتك وجود المراقبة في تلك الحال التي أقامك الحق فيها فيكون في حقك سوء أدب، وفيه أيضاً تضييع ذلك الوقت وخلوه من معاملة الحق، وصرف الأوقات لا يمكن قضاؤها.

---

(1) عسس: عسَّى يَعُسُّ عَسَساً وعَسّاً أي طاف بالليل، ومنه حديث عمر، رضي الله عنه: أنه كان يَعُسُّ بالمدينة، أي يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة. فتكون العسة هنا هي الحراسة على القلب.

ولقد بلغني أن شيخ شيخنا مولاي العربي [الدرقاوي] رضي الله عنه كان إذا رأى أصحابه في شغل وخاف عليهم أن يسرقهم الحس نادى عليهم بأعلى صوته: أنت أنت، تنبيهاً لهم وإيقاظاً من شهود الحس. وقد ذكر الشعراني في العهود عن بعض أشياخه أنه كان لا يغيب عن الله ولو في حالة الجماع. وهذا شأن أهل الاعتناء من العارفين وهذا هو جمع الجمع، والله تعالى أعلم.

تنبيه: ليس هذا تكرار مع ما تقدم في قوله: إحالتك الأعمال على وجود الفراغ الخ، لأن ذلك في عمل الجوارح وهذا في عمل القلوب يدلك على ذلك تعبيره هنا بالمراقبة وتعبيره ثَمَّ بالأعمال، والإفادة خير من الإعادة، وبالله التوفيق.

* * *

وإذا حصلت لك المراقبة أو المشاهدة في حال الأغيار فلا تستغرب ما تراه من الأكدار لئلا يحصل لك الإنكار، وإلى هذا أشار بقوله:

24 - (لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلاَّ ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها)

الاستغراب تصيير الشيء غريباً حتى يتعجب منه، والأكدار كل ما يكدر على النفس ويؤلمها، ومستحق وصفها ما تستحق أن توصف به، وواجب نعتها ما يجب أن تنعت به.

قال بعضهم: الوصف يكون بالأمور اللازمة، والنعت يكون بالعوارض الطارئة. فالأمور اللازمة كالبياض والسواد والطول والقصر، والعوارض كالمرض والصحة والفرح والحزن وغير ذلك. والمراد هنا بالأوصاف ما يتكرر وقوعه كالموت والأمراض وما يقع كثيراً، وبالنعوت ما يقلّ وقوعه في العادة كالفتن والهرج والزلازل لأنهم يقولون: الأوصاف لوازم والنعوت عوارض. وقيل: [هما] شيء واحد وهو الأصح.

قلت: من آداب العارف أن لا يستغرب شيئاً من تجليات الحق ولا يتعجب من شيء منها كائنة ما كانت جلالية أو جمالية فإن نزلت به نوازل قهرية أو وقعت في هذه الدار أكدار وأغيار جلالية فلا يستغرب وقوع ذلك لأن تجليات هذه الدار جلها جلالية لأنها دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «**أيها الناس، إن هذه الدار دار التواء، (أي هلاك)، لا دار استواء. ومنزل ترح، (أي حزن)، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخائها ولم يحزن لشقائها، ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى والآخرة**

دار عقبى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، وإنها لسريعة التوي وشيكة الانقلاب فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها لكربة آجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها ولا تواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها فتكونوا لسخطه متعرضين ولعقوبته مستحقين»[1].

وقال الجنيد رضي الله عنه: ليس استبشع مما يرد عليّ من العالم لأني أصّلت أصلاً وهو أن الدار دار همّ وغمّ وبلاء وفتنة، وأن العالم كله شر. ومن حكمه أن يتلقاني بكل ما أكره فإن تلقاني بما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول. وفي ذلك قيل:

يمثلُ ذو اللبِّ في لبِّهِ ... شدائدَهُ قبلَ أن تنزلا
فإن نزلَتْ بغتةً لم ترعْهُ ... لمَا كانَ في نفسِهِ مثلا
رأى الأمرَ يُفضي إلى آخر ... فصيَّرَ آخرُه أولا
وذو الجهلِ يأمنُ أيامَهُ ... وينسَى مصارعَ منْ قدْ خلا
فإنْ دهمتْهُ صروفُ الزما ... نِ ببعضِ مصائبِهِ أعولا
ولوْ قدَّم الحزمَ من نفسِهِ ... لعلَّمَهُ الصَّبرَ عندَ البلا

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد جوع قليل وعري قليل وذل قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا. اهـ.

فلا تستغرب أيها العارف ما يقع بك أو لغيرك من الأكدار ما دمت مقيماً في هذه الدار لأنها ما برز فيها من التجليات الجلالية إلَّا ما هو مستحق أن تتصف به، وواجب أن تنعت به، فلا تستغرب شيئاً ولا تتعجب من شيء بل الواجب عليك أن تعرف الله في الجلال والجمال والحلوة والمرة، وأما إن كنت لا تعرفه إلَّا في الجمال فهذا هو مقام العوام، والمعرفة في الجلال هو السكون والأدب والرضى والتسليم، فينبغي للفقير أن يكون كعشب السمار إذا جاءت حملة الوادي حنى رأسه وإذا ذهبت رفع رأسه.

وكما لا تستغرب وقوع الأكدار بحيث لا تحزن ولا تخف ولا تجزع كذلك لا تتعجب من وقوع المسار وهو الجمال بحيث لا تفرح ولا تبطر، فإن الجلال مقرون

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن ابن عمر، حديث رقم (9186) [5/ 281].

بالجمال والجمال مقرون بالجلال يتعاقبان تعاقب الليل والنهار والعارف يتلوّن مع كل واحد منهما لا يستغرب شيئاً ولا يتعجب من شيء إذ كل ما يبرز من عنصر القدرة كله واحد وبهذا وقع التفريق بين الصادق والصدِّيق لأن الصدِّيق لا يتعجب من شيء ولا يتردد في شيء وعد به بخلاف الصادق فقط فإنه مهما رأى شيئاً مستغرباً تعجب منه وإذا وعد بشيء قد يتردد في امتثاله، وقد وصف الله تعالى السيدة مريم بالصدِّيقية ولم يصف السيدة سارة بها، لأنها لمَّا بُشرت بالولد على وجه خرق العادة استغربت وقالت: إن هذا لشيء عجيب، فلذلك قالت لها الملائكة: أتعجبين من أمر الله، بخلاف مريم فلم تتعجب وإنما سألت سؤال استفهام فقط أو سألت عن وقت ذلك أو كيفيته هل بالتزوج أو بغيره والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ذكر **الأدب الثامن**، وهو أن يكون تصرفه بالله ولله ومن الله وإلى الله، وهو مقام الصدق الذي هو لبّ الإخلاص وإخلاص خواص الخواص، فقال:

25 ـ (ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسّر مطلب أنت طالبه بنفسك)

التوقف الحبس والتعذر، والمطلب ما يطلب قضاؤه، والتيسر: التسهيل.

قلت: إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأردت أن تقضى لك سريعاً فاطلبها بالله ولا تطلبها بنفسك، فإنك إذا طلبتها بالله تيسّر أمرها وسهل قضاؤها، وإن طلبتها بنفسك صعب قضاؤها وتعسر أمرها، ولا يتوقف ويحبس أمر طلبته بربك ولا يتيسر ويسهل أمر طلبته بنفسك، قال تعالى حاكياً عن سيدنا موسى عليه السلام، وقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية 128]، فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له وكان من المتقين، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: الآية 3] أي كافيه كلَّ ما أهمَّه. وقال ﷺ لبعض أصحابه وهو سويد بن غفلة: **«لا تطلب الإمارة فإنك إن طلبتها وكلّت إليها، وإن أتتك من غير مسألة أعنت عليها»**(1).

(1) روى نحوه البخاري عن عبد الرحمان بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكّلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفّر عن يمينك» (باب الكفارة. . . ، حديث رقم 6342 [6/ 2471] ورواه مسلم في صحيحه، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، حديث رقم (1652) [3/ 1273] ورواه غيرهما].

وعلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه، فإذا جاء وقته تكوَّن بإذن الله. وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه فإذا تعذر عليه انقبض وتغير عليه، فهذا ميزان من كان طلبه بالله وطلبه بنفسه، فمن طلب حوائجه بالله قضيت معنى وإن لم تقض حسّاً، ومن طلب حوائجه بنفسه خاب سعيه وضاع وقته وإن قضيت نهمته وحاجته.

وها هنا ضابط يعرف به أهل العناية من أهل الخذلان وأهل الولاية من أهل الخسران ذكره الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه فقال: إذا أكرم الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله، وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته والحظوظ عنه مستورة مع جري ما قدر له، ولا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها، وإذا أهان الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته فهو يتقلّب في شهواته وعبودية الله عنه بمعزل وإن كان يجري عليه شيء منها في الظاهر. قال: وهذا باب من الولاية والإهانة. وأما الصدِّيقية العظمى والولاية الكبرى فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة لأنه بالله فيما يأخذ ويترك. اهـ. نقله الشيخ زروق في بعض شروحه.

والحاصل: أن تصرفات العارف كلها بالله، وتصرفات غيره كلها بالنفس، ولو كانت بالله فالعمل بالله يوجب القربة والعمل لله يوجب المثوبة، العمل بالله صاحبه داخل الحجاب في مشاهدة الأحباب، والعمل لله يوجب الثواب من وراء الباب، العمل بالله من أهل التحقيق، والعمل لله من أهل التشريع، العمل لله من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5] والعمل بالله من أهل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5].

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: بين العمل بالله والعمل لله ما بين الدينار والدرهم. اهـ وبالله التوفيق.

* * *

ومن كان علمه بالله كان راجعاً إليه في كل شيء ومعتمداً عليه في كل حال، وإليه أشار بقوله:

26 ـ (من علامة النُّجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات)

النجح في الشيء هو بلوغ القصد والمراد فيه، ونجحت مطالبه إذا قضيت وبلغ منها ما أحب، ونهاية الشيء تمامه، وبدايته أوله.

قلت: إذا توجهت همّتك أيها المريد إلى طلب شيء، أي شيء كان، وأردت أن ينجح أمره وتبلغ مرادك فيه وتكون نهايته حسنة وعاقبته محمودة فارجع إلى الله في بداية طلبه وانسلخ من حولك وقوتك قل كما قال عليه السلام: «**إن يكن من عند الله يمضه، فلا تحرص عليه ولا تهتم بشأنه فما شاء الله كان وما لم يشأ ربنا لم يكن، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم يقدّره الله لك لم يقدروا على ذلك ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يقدره الله عليك لم يقدروا على ذلك، جفت الأقلام وطويت الصحف**»[1]، كما في الحديث. فإذا طلبت شيئاً وكنت فيه معتمداً على الله ومفوّضاً أمرك إلى الله، تنظر ما سبق في علم الله، كان ذلك علامة نجح نهايتك وحصول مطلبك، قضيت في الحس أو لم تقض، لأن مرادك مع مراد الله لا مع مراد نفسك قد انقلبت حظوظك حقوقاً لا تشتهي إلّا ما قضى الله ولا تنظر إلّا ما يبرز من عند الله، قد فنيت عن حظوظك وشهواتك.

وإن طلبت شيئاً بنفسك معتمداً على حولك وقوّتك حريصاً على قضائها جاهداً في طلبها كان ذلك علامة على عدم قضائها وخيبة الرجاء فيها وعدم نجح نهايتها، وإن قضيت في الحس وكّلت إليها فتعبت بسببها ولم تعن على شؤونها ومآربها، وهذا كله مجرّب صحيح عند العام والخاص. وهذه الحكمة تتميم لما قبلها وشرح لها، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم كمَّل هذه المسألة بقاعدة كليّة تصدق بما تقدم وبغيره، فقال:

27 ـ (من أشرقت بدايته أشرقت نهايته)

قلت: إشراق البداية هو الدخول فيها بالله وطلبها بالله والاعتماد فيها على الله مع السعي في أسبابها والاعتناء في طلبها قياماً بحق الحكمة وأدباً مع القدرة، ويعظم السعي في السبب بقدر عظمة المطلب، فبقدر المجاهدة تكون بعدها المشاهدة، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: الآية 69] إن رحمة الله قريب من المحسنين.

وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه:

لا تحسبوها رخيصة رآه وأكل المعشوق غالي

---

(1) هذا النص هو عبارة عن عدة أحاديث جمع معناها المصنف في نص واحد.

ما تنحصد صابت[1] الصيف إلا ببرد الليالي

فمن رأيناه في بدايته جاداً في طلب الحق معرضاً عن الأُنس بالخلق، مستغرقاً في خدمة مولاه، ناسياً لحظوظه وهواه، علمنا أن نهايته مشرقة وعاقبته محمودة ومآربه مقضية، ومن رأيناه مقصراً في طلب مولاه لم يخرج عن نفسه وهواه علمنا أنه كاذب في دعواه، فنهايته الحرمان وعاقبته الخذلان إلّا أن يتداركه الكريم المنان، هذا في طريق الوصول إلى حضرة الحق.

وأما إشراق البداية في طلب حوائج الدنيا أو المقامات أو المراتب أو الخصوصية مثلاً فهو بالزهد فيها والإعراض عنها والاشتغال بالله عنها، قال بعضهم: لا تدرك المراتب إلّا بالزهد فيها. قال الشيخ أبو الحسن: كنت أنا وصاحب لي نعبد الله في مغارة ونقول: في هذا الشهر يفتح الله علينا، في هذه الجمعة يفتح الله علينا. فوقف على باب المغارة رجل عليه سيماء الخير فقال: السلام عليكم، فرددنا عليه السلام وقلنا له: كيف أنت، فنهض علينا وقال: كيف يكون حال من يقول في هذا الشهر يفتح الله في هذه الجمعة يفتح الله لا فتح ولا فلاح هلا عبدنا الله كما أمرنا. ثم غاب عنا ففهمنا من أين أخذنا فرجعنا على أنفسنا باللوم ففتح الله علينا. اهـ بالمعنى، ذكره في التنوير[2].

فمن طلب الخصوصية كان عبد الخصوصية وفاته حظه من الله حتى يتوب، ومن كان عبد الله نال حظه من العبودية وأدركته الخصوصية من غير التفات إليها ولا طلب والله تعالى أعلم.

* * *

ثم إن هذه الأمور التي تشرق بها البداية وتكون علامة على إشراق النهاية هي أمور باطنية كالاعتماد على الله والرجوع إليه أو كثرة الشوق والاشتياق إليه، لكن لا بد من ظهور أثرها على الظاهر وإليه أشار بقوله:

28 ـ (ما استودع من غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر)

استودع أي وضع، فالاستيداع هو وضع الشيء في محل ليحفظ، وغيب

(1) جاء في معجم الأمثال والحكم لأبي الفضل الميداني: «صابت بِقُرّ: أي نزل الأمر في قراره، فلا يستطاع له تحويل، وصابت من الصَّوْب وهو النزول، والقُرُّ: القرار. يضرب هذا المثل عند شدة تصيبهم أي صارت الشدة في قرارها.

(2) أي ذكره الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى في كتابه «التنوير في إسقاط التدبير».

السرائر هو باطنها، والمراد بالسرائر هو القلوب والأرواح، وشهادة الظواهر في ظاهر الجوارح.

قلت: ما استودع الله سبحانه في القلوب وجعله فيها من خير أو شر، من نور أو ظلمة، من علم أو جهل، من رحمة أو قسوة، من بخل أو شح أو كرم وسخاء، وقبض وبسط، ويقظة أو غفلة، ومعرفة أو نكران، أو غير ذلك من الأخلاق المحمودة أو المذمومة، لا بد أن يظهر آثار ذلك على الجوارح من أدب وتهذيب وسكون وطمأنينة ورزانة، وبذل وعفو، أو طيش وقلق وغضب، وغير ذلك من الأحوال القلبية والأعمال القالبية، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البَقَرَة: الآية 273]، وقال: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفَتْح: الآية 29]، وقال ﷺ: **«من سر سريرة كساه الله رداءها»**[1]. فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب فمن أودع في سرّ غيبه معرفة مولاه لم يطلب من سواه، ومن أودع في سر غيبه الجهل بمولاه تعلق بما سواه، وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن كما تقدم في قوله: تنوَّعت أجناس الأعمال لتنوُّع واردات الأحوال، فالأسرة تدل على السريرة، والكلام صفة المتكلم، وما فيك ظهر على فِيك، وكل إناء بالذي فيه يرشح، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره، والله تعالى أعلم.

* * *

وأعظم ما استودع في غيب السرائر معرفة الله، وهي على قسمين: معرفة البرهان، ومعرفة العيان، أشار إلى الفرق بينهما فقال:

29 ـ (شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه)

شتان بمعنى بعد وافترق، ولا تكون إلّا في افتراق المعاني دون الحسيّات.

قلت: **اعلم** أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلّى بأسرار ذاته وأنوار صفاته أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزلي فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها واقتضت

---

(1) هذا الحديث ورد بلفظ: «ما أسر عبد سريرة إلّا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر». (رواه الطبراني في الأوسط عن جندب بن سفيان البجلي، حديث رقم 7906 [8/ 43] وفي الكبير برقم 1702 [2/ 171] ورواه غيره.

الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها فلما فرَّغت القدرة نورها في مظاهر الكون أسدلت عليها الحكمة رداء الصون فصارت الأكوان كلها نوراً في حجاب مستور.

ثم إن الحق سبحانه قسَّم الخلق على قسمن وفرَّقهم فرقتين، قسم اختصهم بمحبته وجعلهم من أهل ولايته ففتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب فأشهدهم أسرار ذاته ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته، وقسم أقامهم لخدمته وجعلهم من أهل حكمته أسدل عليهم حجاب الوهم وغيّب عنهم نور العلم والفهم فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور مع شدّة الظهور، فسبحان من أخفى سره بحكمته وأظهر نوره بقدرته.

فأما أهل المحبة، وهم أهل الولاية والعرفان من أهل الشهود والعيان، فهم يستدلون بالنور على وجود الستور، فلا يرون إلّا النور، وبالحق على وجود الخلق [يستدلون] فلا يجدون إلّا الحق، وبقدرته [يستدلون] على حكمته فوجدوا قدرته عين حكمته وحكمته عين قدرته، فغابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه.

وأما أهل الخدمة من أهل الحكمة، فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور، وبالخلق على وجود الحق، غابوا عنه في حال حضوره وحجبوا عنه بشدة ظهوره.

قال بعض العارفين: أثبت الله تعالى للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة نفسه فأثبتوا به المخلوق اهـ. فشتان، أي فرق كبير، بين من يستدل به على ظهور أثره وبين من يستدل بظهور أثره على وجوده لأن من يستدل به عرف الحق وهو الوجود الحقيقي لأهله أي لمن هو أهل له ويستحقه وهو الله الواجب الوجود الملك المعبود، وأثبت الأمر وهو القدم للوجود الحقيقي من وجود أصله وهو الجبروت الأصلي القديم الأزلي، يعني أن من عرف الله حتى صار عنده ضرورياً عرف الوجود إنما هو لله وانتفى عنه وجود ما سواه وأثبت القدم لأوله ومنتهاه.

أو تقول: عرف الحق وهو الوجود الأصلي لأهله وهو الله تعالى، وأثبت الأمر وهو الوجود الفرعي من وجود أصله، أي ألحقه بأصله. فإذا التحق الفرع بالأصل صار الجميع جبروتياً أصلياً. ويحتمل أن يكون معناهما واحداً ويكون التقدير: عرف الوجود الحقيقي لأهله وأثبت ذلك الأمر من أصله، كقولك: عرفت هذا الحكم وأصبت به من أصله والله تعالى أعلم.

وأما من يستدل عليه فلبعده عنه في حال قربه منه، ولغيبته عنه في حال حضوره معه، بعده الوهم وغيبه عدم الفهم، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه إذ هو أقرب إليك من حبل الوريد، ومتى بعد حتى تكون الآثار الوهمية هي التي توصل إليه ﴿وَهُوَ

﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَديد: الآية 4] إذ أثر القدرة هو عينها فالصفة لا تفارق الموصوف إذ لا قيام لها إلَّا به ولا ظهور لها إلَّا منه، وسيأتي له في المناجاة: إلٰهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، والله تعالى أعلم.

* * *

ولما كان المستدلون بالله قد وسع الله عليهم دائرة العلوم وفتحت لهم مخازن الفهوم بخلاف المستدلين عليه قد قتر الله عليهم أرزاق العلم بوجود حجاب الوهم، أشار إلى ذلك بقوله:

30 ـ (لينفق ذو سعة من سعته، الواصلون إليه ومن قدر عليه رزقه السائرون إليه)

السعة هي الغنى، وقدر عليه ضيق عليه.

قلت: أما الواصلون إليه فلأنهم لما نفذت أرواحهم من ضيق الأكوان إلى فضاء الشهود والعيان، أو تقول: لما عرجت أرواحهم من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت اتسعت عليها دائرة أرزاق العلوم وفتحت لها مخازن الفهوم فأنفقوا من سعة غناهم جواهر العلم المكنون ومن مخازن كنوزهم يواقيت السر المصون فاتسع لهم ميدان المجال وركبوا أجياد البلاغة وفصاحة المقال، فما أسرع الغنى لمن واجهته منهم العناية وما أعظم فتح من لحظته منهم الرعاية، إنَّ لله رجالاً من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً وهم أهل السر والحال.

وأما السائرون إلى الله فلأنهم باقون في ضيق الأكوان وفي عالم الأشباح، مسجونون في سجن الوهم لم يفتح لهم شيء من مخازن الفهم، مشغولون بجهاد نفوسهم ومعاناة تصفية قلوبهم، مضيّق عليهم في العلوم ومقتر عليهم في سائر الفهوم، فإن جدّوا في السير وصلوا وانتقلوا من ضيق الأكوان ورحلوا وتبختروا في رياض العلوم ورفلوا فظفروا بما أمَّلوا، واستغنوا بعدما أن ملوا، وإن رجعوا من الطريق أو قصروا فقد خابوا وخسروا.

تنبيه: إن أردت أن يتسع عليك علم الأذواق فاقطع عنك مادة الأوراق، فما دمت متكلاً على كنز غيرك لا تحفر على كنزك أبداً، فاقطع عنك المادة وافتقر إلى الله تفيض عليك المواهب من الله ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبَة: الآية 60] إن

أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك. وقد قال الشيخ الدباس لتلميذه ابن ميمونة حين تأخر عنه الفتح فرصده فوجده يطالع رسالة القشيري: اطرح كتابك واحفر في أرض نفسك يخرج لك ينبوع وإلا فاذهب عني. اهـ وبالله التوفيق.

* * *

ثم ذكر سبب اتساع العلوم على الواصلين دون السائرين، وهو أن الواصلين لم يقفوا مع شهود الأنوار بل نفذوا إلى نور الأنوار، بخلاف السائرين فإنهم واقفون مع الأنوار مفتقرون إليها مملوكون في يدها فقال:

31 ـ (اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم لأنهم لله لا لشيء دونه ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91])

قلت: أنوار التوجيه هي أنوار الإسلام والإيمان، وأنوار المواجهة هي أنوار الإحسان. أو تقول: أنوار التوجيه أنوار الطاعة الظاهرة والباطنة، وأنوار المواجهة هي أنوار الفكرة والنظرة. أو تقول: أنوار التوجه أنوار الشريعة والطريقة، وأنوار المواجهة أنوار الحقيقة. أو تقول: أنوار التوجه أنوار المجاهدة والمكابدة وأنوار المواجهة هي أنوار المشاهدة والمكالمة.

وبيان ذلك أن الحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليه أولاً بنور حلاوة العمل الظاهر وهو مقام الإسلام فيهتدي إلى العمل ويفنى فيه ويذوق حلاوته.

ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس بالله والتوحُّش مما سواه، فيهتدي إليه ويفنى فيه ويذوق حلاوته ويتمكَّن من المراقبة، وهذا النور أعظم من الأول وأكمل.

ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة، وهو عمل الروح، وهو أول نور المواجهة، فتأخذه الدهشة والحيرة والسكرة، فإذا أفاق من سكرته وصحا من جذبته وتمكَّن من الشهود وعرف الملك المعبود ورجع إلى البقاء كان لله وبالله فاستغنى عن النور بمشاهدة نور النور لأنه صار عين النور، فصار مالكاً للأنوار بعد أن كانت مالكة له لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها، فلما وصل صار عبداً لله حرّاً مما سواه ظاهره عبودية وباطنه حرية.

والحاصل: إن المريد ما دام في السير فهو يهتدي بأنوار التوجه مفتقراً إليها لسيره بها، فإذا وصل إلى مقام المشاهدة حصلت له أنوار المواجهة فلم يفتقر إلى

شيء لأنه لله لا لشيء دونه، فالراحلون وهم السائرون للأنوار لافتقارهم إليها وفرحهم بها وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم لاستغنائهم عنها بالله فهم لله وبالله لا لشيء دونه.

ثم تلا الشيخ هذه الآية على طريق أهل الإشارة [والمعنى]: قل الله بقلبك وروحك وغب عما سواه ثم ذر الناس، أي اتركهم في خوضهم يلعبون، أي يخوضون في السوى لاعبين في الهوى. وقد اعترض بعض المفسرين على الصوفية استشهادهم بهذه الآية ولم يفهم مرادهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 60].

وكان الشيخ ابن عباد يقول: لا تجعلوا أهل الظاهر حجة على أهل الباطن. اهـ، أي لأن أهل الباطن نظرهم دقيق وغزلهم رقيق لا يفهم إشارتهم غيرهم، نفعنا الله بهم وخرطنا في سلكهم آمين.

هذا آخر الباب الثاني، **وحاصله**: آداب العارف وعلاماته. فالآداب ثمانية والعلامات أربع، الرجوع إليه في كل شيء، والاعتماد عليه في كل حال، والغيبة فيه عن كل شيء، والاستدلال به على كل شيء. واتساع أرزاق العلوم، وفتح مخازن الفهوم، والوصل إلى مواجهة الأنوار والغيبة عنها بشهود الواحد القهار.

[الباب الثالث]

ثم افتتح الباب الثالث بذكر التخلية والتحلية، فقال رضي الله عنه:

32 - (تشوُّفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوُّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)

التشوُّف إلى الشيء الاهتمام به والتطلع له.

قلت: تشوُّفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب كالحسد والكبر وحب الجاه والرياسة وهمّ الرزق وخوف الفقر وطلب الخصوصية وغير ذلك من العيوب والبحث عنها والسعي في التخلص منها أفضل من تشوُّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد وما يأتي به القدر من الوقائع المستقبلة، وكالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له لأن تشوُّفك إلى ما بطن من العيوب سبب في حياة قلبك وحياة قلبك سبب في الحياة الدائمة والنعيم المقيم والاطلاع على الغيوب إنما هو فضول، وقد يكون سبباً في هلاك النفس كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس، وسيأتي للشيخ: من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً يجر الوبال إليه.

واعلم أن العيوب ثلاثة: عيوب النفس، وعيوب القلب، وعيوب الروح. **فعيوب النفس** تعلّقها بالشهوات الجسمانية كطيب المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح وشبه ذلك. **وعيوب القلب** تعلّقه بالشهوات القلبية كحب الجاه والرياسة والعزّ والكبر والحسد والحقد وحب المنزلة والخصوصية وشبه ذلك مما يأتي إن شاء الله في أوصاف البشرية. **وعيوب الروح** تعلّقها بالحظوظ الباطنية، كطلب الكرامات والمقامات والقصور والحور وغير ذلك من الحروف، فتشوُّف المريد إلى شيء من ذلك كله قادح في عبوديته مانع له من القيام بحقوق ربوبيته، فاشتغاله بالبحث عن عيوبه النفسانية والقلبية والروحانية وسعيه في التطهير من جميع ذلك أولى من تشوّفه إلى ما حجب عنه من علم الغيوب كما تقدم وبالله التوفيق.

* * *

ولما ذكر التخلية ذكر ثمرتها، وهي التحلية بالمعرفة، إذ ما منع منها إلّا تشوُّف النفس أو القلب أو الروح إلى حظوظها الوهميّة فقال:

33 ـ (الحق ليس بمحجوب عنك إنما المحجوب أنت عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر وكل حاصر لشيء فهو له قاهر وهو القاهر فوق عباده)

قلت: الحق تعالى محال في حقه الحجاب فلا يحجبه شيء لأنه ظهر بكل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء، فلا ظاهر معه ولا موجود في الحقيقة سواه[1]، فهو ليس بمحجوب عنك وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه لاعتقادك الغيرية وتعلُّق قلبك بالأمور الحسيّة، فلو تعلّق قلبك بطلب المولى وأعرضت بالكليّة عن رؤية السوى لنظرت إلى نور الحق ساطعاً في مظاهر الأكوان وصار ما كان محجوباً عنك بالوهم في حَقّ الشهود والعيان، ولله در القائل:

لـقـد تَـجـلَّـى مـا كـانَ مـخـبّـى والـكـونُ كـلُّـه طُـويـت طـيّ

مـنـي عـلـيَّ دارتْ كـؤوسـي مِـنْ بـعـدِ مـوتـي تَـرانـي حَـيْ

فالناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون، وكلهم في البحر ولا يشعرون.

وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: والله ما حجب الناس عن الله إلّا الوهم، والوهم أمر عدمي لا حقيقة له اهـ.

وسيأتي للشيخ: ما حجبك عن الحق وجود موجود معه إذ لا شيء معه، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه اهـ. إذ لو حجبه تعالى شيء حسيّ لستره ذلك الحجاب ولو كان له ساتر حسيّ لكان لوجوده حاصر إذ محال أن يستره من جميع الوجوه ولا يحصره، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، كيف والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعَام: الآية 18] أي لأنهم في قبضته وتحت تصريف قدرته وتخصيص إرادته ومشيئته، والفوقية عبارة عن رفعة الجلال والمكانة لا المكان، كما يقال: السلطان فوق الوزير، والسيد فوق عبده، والمالك فوق المملوك وغير ذلك مما يثبت الكبرياء وينفي سماة الحدوث، والله تعالى أعلم.

* * *

(1) أي لا موجود قائم بذاته غيره تعالى لأن ما سواه من المخلوقات قائم به تعالى ويستمد وجوده منه بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فَاطِر: الآية 41] . ويقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه موضحاً ذلك: «نعمتان ما خرج موجود عنهما ولا بد لكل مكوَّن منهما، نعمة الإيجاد (من العدم) ونعمة الإمداد (بالوجود).

ولما كان حجاب الروح عن المعرفة أمراً وهمياً عدمياً لا حقيقة له وهو مرضها بأوصاف البشرية، فلو صحت لعرفت، أشار إلى ذلك بقوله:

34 ـ (اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً)

قلت: أوصاف البشرية هي الأخلاق التي تناقض خلوص العبودية. ومرجعها إلى أمرين:

الأول: تعلُّق القلب بأخلاق البهائم، وهي شهوة البطن والفرج وما يتبعهما من حب الدنيا وشهواتها الفانية، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 14] الآية.

الثاني: تخلُّقه بأخلاق الشياطين كالكبر والحسد والحقد والغضب، والحدة وهي القلق، والبطر وهي خفة العقل، والأشر وهو التكبُّر وحب الجاه والرياسة والمدح والقسوة والعطاء والفظاظة والغلظة وتعظيم الأغنياء واحتقار الفقراء، وكخوف الفقر وهم الرزق والبخل والشح والرياء والعجب وغير ذلك مما لا يحصى حتى قال بعضهم: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. وقد ألّف الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي كتاباً في عيوب النفس وأدويتها ونظمه الشيخ زروق في نحو ثمانمائة بيت، ومن ألقاه الله إلى شيخ التربية فلا يحتاج إلى شيء سوى الاستماع والاتباع فإذا خرج المريد من أخلاق البهائم تخلّق بأخلاق الروحانيين كالزهد والورع والقناعة والعفة والغنى بالله والأنس به، وإذا خرج من أخلاق الشياطين تخلّق بأخلاق المؤمنين أو بأخلاق الملائكة كالتواضع وسلامة الصدور والحلم والسكينة والرزانة والطمأنينة والسهولة والليونة والخمول والاكتفاء بعلم الله والشفقة والرحمة وتعظيم الفقراء والمساكين وأهل النسبة وجميع الأمة والكرم والسخاء والجود والإخلاص والصدق والمراقبة والمشاهدة والمعرفة، فإذا تخلّق العبد بهذه الأخلاق وتحقَّق بها ذوقاً بعد أن تخلّص من أضدادها كان عبداً خالصاً لمولاه حرّاً مما سواه وكان لندائه مجيباً ومن حضرته قريباً، فإذا قال له ربه: يا عبدي، قال له: يا رب، فكان صادقاً في إجابته لصدق عبوديته بخلاف ما إذا كان منهمكاً في شهواته الظاهرة والباطنة كان عبداً لنفسه وشهواته، فإذا قال: يا رب، كان كاذباً إذ من أحب شيئاً فهو عبد له وهو لا يحب أن تكون عبداً لغيره وإذا تخلص من رق الشهوات والحظوظ كان أيضاً قريباً من حضرة الحق بل عاكفاً فيها إذ ما أخرجنا عن الحضرة إلّا حب هذه الخيالات

الوهميّة فإذا تحررنا منها وتحققنا بالعبودية وجدنا أنفسنا في الحضرة. **واعلم** أن هذه الأوصاف البشرية التي احتجبت بها الحضرة إنما جعلها الله منديلاً لمسح أقذار [آثار] القدرة كالنفس والشيطان والدنيا، فجعل الله النفس والشيطان منديلاً للأفعال المذمومة، وجعل البشرية منديلاً للأخلاق الدنيئة، وما ثم إلَّا مظاهر الحق وتجليات الحق وما ثم سواه ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

* * *

ثم إن هذه العيوب سبب بقائها في الإنسان باعتبار الحكمة هي الغفلة عن البحث عنها، وسبب الغفلة عن البحث عنها هو الرضى عن النفس، إذ لو أساء ظنّه بها لبحث عن مساويها فاستخرجها وتطهّر منها، فلذلك قال:

35 ـ (أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس)

قلت: إذ كل من رضي عن نفسه استحسن أحوالها وغطى مساويها لقول الشاعر:

وعينُ الرِّضَى عَنْ كُلِّ عيبٍ كليلةٌ

35 ـ (وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضى منك عنها)

قلت: لأن من اتهم نفسه وأساء ظنه بها ونظر إليها بعين السخط بحث عن عيوبها واستخرج مساويها لقول الشاعر:

ولكنَّ عينَ السخطِ تُبدي المساويَا

فابحث أيها المريد عن مساويك واتهم نفسك ولا تستحسن شيئاً من أحوالها فإنك إذا رضيت عنها واستحسنت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر وحجبتك عن الحضرة وأنت تنظر. قال أبو حفص الحداد: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضى عن نفسه والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ [يوسف: **الآية 53**] اهـ. وفي معنى ذلك أنشدوا:

توق نفسك لا تأمن غوائلها فالنفس أخبث من سبعين شيطاناً

وقال السري السقطي: من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يروح ويغدو في لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش، اهـ. فابحث يا أخي عن

عيوبك إن أردت نصح نفسك، فإذا بحثت عن عيوبها وفضحت عوراتها تخلصت وتحررت وتحققت ودخلت الحضرة واتسعت لك النظرة واشتكت لك الفكرة. وكان شيخ شيخنا يقول: لعنة الله على من ظهرت له عورة نفسه فلم يفضحها. وكان أيضاً كثيراً ما يوصي بعدم المراقبة للناس وعدم المبالاة بهم إذ لا يتخلص من دقائق الرياء إلَّا بإسقاطهم من عينه وسقوطه هو من عينهم. ومن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلص، ولذلك قال:

35 ـ (ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه)

قلت: إذ صحبة من لا يرضى عن نفسه خير محض لتحققه بالإخلاص فيسري ذلك في الصاحب حتى يتحلى بالإخلاص ويصير من جملة الخواص، وصحبة من يرضى عن نفسه شرّ محض ولو كان أعلم أهل الأرض، لأن الطباع تسرق الطباع إذ الجهل الذي يقرّب للحضرة أحسن من العلم الذي يبعد عن الحضرة، ولذلك قال بعض العارفين: أشد الناس حجاباً عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد لوقوفهم مع علمهم وعبادتهم وزهدهم. والجهل الذي يوصل إلى الله علم على الحقيقة، والعلم الذي يحجب عن الله جهل على الحقيقة، ولذلك قال:

35 ـ (فاي علم لعالم يرضى عن نفسه)

قلت: لأنه صار حجاباً له عن ربّه.

35 ـ (وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه).

قلت: إذ بعدم الرضى عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقّها فصار عبداً حقيقة لله فحينئذ أحبه سيده واصطفاه لحضرته واجتباه لمحبته وأطلعه على مكنون علمه فكان أعلم خلقه، والله تعالى أعلم.

* * *

وإذا تخلّص العبد من حظوظه وأوصاف بشريته قرب من حضرة ربّه لصحة قلبه وإشراقه بنور ربّه، ثم امتحى وجوده في وجود محبوبه وشهوده في شهود معبوده، وإلى ذلك أشار بقوله:

36 ـ (شعاع البصيرة يُشهدك قربَه منك وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان)

قلت: البصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب، فالبصيرة ترى المعاني اللطيفة النورانية والبصر يرى المحسوسات الكثيفة الظلمانية الوهميّة، ثم البصيرة باعتبار إدراك نور المعاني اللطيفة على خمسة أقسام:

قسم فسد ناظرها فعميت فأنكرت نور الحق من أصله، قال سيدي البوصيري:

قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ ويُنكرُ الفمُ طعمَ الماءِ منْ سقمِ

وهذه بصيرة الكفار. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحَجّ: الآية 46].

وقسم صح ناظرها لكنها مسدودة لضعف ناظرها لمرض أصابه، فهي تقرّ بالنور لكنها لا تقوى على مشاهدته ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها وهي لعامة المسلمين.

وقسم صح ناظرها وقوي شيئاً ما حتى قرب أن يفتح عينه لكن لشدّة الشعاع لم يطق أن يفتح عينه فأدرك شعاع النور قريباً منه وهو لعامة المتوجهين ويسمى هذا المقام شعاع البصيرة.

وقسم قوي ناظرها ففتح عين بصيرته فأدرك النور محيطاً به حتى غاب عن نفسه بمشاهدة النور وهذا لخاصة المتوجهين، ويسمى هذا المقام عين البصيرة.

وقسم صحت بصيرته واشتد نورها فاتصل نورها بنور أصلها فلم تر إلَّا النور الأصلي، وأنكرت أن يكون ثمّ شيء زائد على نور الأصل «كان الله ولا شيء معه[1] وهو الآن على ما عليه كان»[2]، ويسمى هذا حق البصيرة.

ووجه تسميته بشعاع البصيرة أن صاحبها لما كان يرى وجود الأكوان انطبعت في مرآة بصيرته فحجبته عن شهود النور من أصله، لكن لما رقّت كثافتها وتنوّرت دلائلها رأى شعاع النور من ورائها قريباً منه فأدرك الشعاع ولم يدرك النور، وهذا هو

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك بلفظ: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء فكتب في الذكر كل شيء...» (تفسير سورة هود، حديث رقم (3307) [2/ 371] ورواه النسائي في السنن الكبرى، قوله تعالى: وكان عرشه على الماء، حديث رقم (11240) [6/ 363] ورواه غيرهما.

(2) جملة «وهو الآن على ما عليه كان» زادها العارفون بالله تعالى المتحققون بمقام الإحسان وذوقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ولقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، ولقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ولقول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». (البخاري، باب أيام الجاهلية، حديث رقم 3627، ومسلم كتاب الشعر، حديث رقم (2256) ورواه غيرهما).

نور الإيمان وهو مقام علم اليقين.

ووجه تسمية عين البصيرة، أن البصيرة لما صحّت وقويت انفتحت عينها فرأت النور محيطاً ومتصلاً بها فسميت عين البصيرة لانفتاحها وإدراكها ما خفي على غيرها وهذا مقام عين اليقين.

ووجه تسمية حق البصيرة أن البصيرة لما أدركت الحق من أصله وغابت عن نور الفروع بنور الأصول سمّيت حق البصيرة لما أدركته من الحق وغابت عن شهود الخلق، وهذا مقام حق اليقين.

فشعاع البصيرة هو نور الإيمان لأهل المراقبة، وعين البصيرة هو نور الإحسان لأهل المشاهدة، وحق البصيرة هو نور الرسوخ والتمكين لأهل المكالمة.

أو تقول: شعاع البصيرة نور علم اليقين، وعين البصيرة هو نور عين اليقين، وحق البصيرة هو نور حق اليقين.

فعلم اليقين لأهل الدليل والبرهان، وعين اليقين لأهل الكشف والبيان، وحق اليقين لأهل الشهود والعيان، مثال ذلك كمن سمع بمكة مثلاً ولم يرها فهذا عنده علم اليقين فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها فهو عين اليقين فإذا دخلها وتمكَّن فيها فهو حق اليقين، وكذلك طالب الحق فما زال من وراء الحجاب فانياً في الأعمال فهو في علم اليقين فإذا استشرف على الفناء في الذات ولم يتمكن من الفناء فهو عين اليقين، فإذا رسخ وتمكَّن فهو في حق اليقين.

أو تقول: شعاع البصيرة لأهل عالم الملك، وعين البصيرة لأهل عالم الملكوت، وحق البصيرة لأهل عالم الجبروت.

أو تقول: شعاع البصيرة لأهل الفناء في الأعمال، وعين البصيرة لأهل الفناء في الذات، وحق البصيرة لأهل الفناء في الفناء.

فشعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، أي يوجب لك شهود قرب نور الحق منك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية 16]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية 4].

وعين البصيرة يشهدك عدمك أي زوالك بزوال وهمك لوجوده، أي وجود الحق إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه، فإذا زال عنك الوهم وفنيت عن وجودك شهدت ربك بربك وهو علامة فتح البصيرة وعلاج السريرة، كما قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب:

مَنْ رأى المكوِّنَ بالكونِ عزّه في عمَى البصيرة
ومن رأى الكونَ بالمكوِّنِ صادفَ علاجَ السريرة

فظاهره أن عامة المسلمين عميت بصيرتهم، والتحقيق هو ما تقدم من التفصيل وأنها مسدودة فقط مع صحة ناظرها بخلاف بصيرة الكفار فإنها عمياء.

وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده لا وجودك لأنك مفقود من أصلك ولا عدمك إذ لا يعدم إلَّا ما ثبت له وجود ولم يكن مع الله موجود «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»[1]، وهذه الزيادة وإن لم تكن في الحديث لكن معناها صحيح إذ التغير عليه تعالى محال. قال محيي الدين بن محمد بن علي بن العربي الحاتمي رضي الله عنه: من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد جاز، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل. اهـ.

قلت: ومن شهدهم بعين العدم فقد تمكَّن وصاله. وأنشدوا:

من أبصرَ الخلقَ كالسّرابِ فقدْ ترقَّى عنِ الحجابِ
إلى وجودٍ تراهُ رتقاً بلا ابتعادٍ ولا اقترابِ
فلا خطابَ به إليهِ ولا مشيرَ إلى الخطابِ

والله تعالى أعلم.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

[الباب الرابع]

ثم إذا تقرر انفراد الحق بالوجود فلا تتعد همّتك إلى غيره إذ هو مفقود، وإلى ذلك أشار بقوله في أول الباب الرابع:

37 ـ (لا تتعدى نيّة همّتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال)

قلت: لا تتعدى أي لا تتجاوز، ونيّة الهمّة قصدها الذي تتوجه به، والهمّة القوّة المنبعثة في طلب المقاصد، والآمال قصود القاصدين، ومعنى لا تتخطاه أي لا تتجاوز إلى غيره.

قلت: إذا تعلّقت همّتك أيها المريد بشيء تريد تحصيله فردها إلى الله، ولا تتعلّق بشيء سواه لأنه سبحانه كريم على الدوام ونعمه سحاء على مر الليالي والأيام، والكريم لا تتخطاه الآمال وهو يحب أن يسأل فيجيب السؤال، وقد قالوا في تفسير اسمه تعالى الكريم هو الذي إذا سئل أعطى ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفى عفا وإذا عاتب ما استقصى. فهذا من كمال كرمه وتمام إحسانه وإنعامه، وفي ذلك يقول سيدي إبراهيم التازي في قصيدة له:

كمالُ اللَّهِ أكملُ كلِّ حسنٍ ... فللَّه الكمالُ ولا مُماري
وحبُّ اللَّهِ أشرفُ كلِ أنس ... فلا تنسَ التخلُّقَ بالوقارِ
وذكرُ اللَّهِ مَرْهَمُ كلِّ جرحٍ ... وأنفعُ مِنْ زلالٍ للأوارِ
ولا موجودَ إلّا اللَّه حقّاً ... فدَعْ عنكَ التعلُّقَ بالفشارِ

* * *

وإذا علمت كرمه وجوده وكماله وإحسانه فلا ترفع إلى غيره ما هو مورده عليك كما قال:

38 ـ (لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك)

قلت: قد علمت أن ما سوى الحق خيال وهمي لا حقيقة لوجوده، فإذا أنزل الله بك حاجة كفاقة أو شدّة أو غير ذلك من العوارض فانزلها بالله واجعلها تحت مشيئة الله وغب عنها في ذكر الله ولا تلتفت إلى ما سواه تعلّقاً ولا تملقاً، ففي

الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[1]. وقال أبو علي الدقاق: من علامة المعرفة أن لا تسأل حوائجك كلها إلَّا من الله قلّت أو جلّت مثل موسى عليه السلام اشتاق إلى رؤيته فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية 143]، واحتاج يوماً إلى رغيف فقال: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: الآية 24] اهـ.

ثم تعجب ممن رفع أحكام الحق إلى غيره مع عجزه وضعفه، فقال:

38 ـ (فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعاً)

قلت: من قلّة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره مع علمه تعالى بإحسانه وبرّه وعدم انفكاك لطفه عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أيست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لها، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي. وقال بعض العارفين من المكاشفين رضي الله عنهم: قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم: لا تبدين فاقة فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك وخروجك إلى حد عبوديتك إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع إليّ منها وتتضرّع بها لديّ وتتوكّل فيها علي سبكتك بالفاقة لتصير بها ذهباً خالصاً فلا تزيغن بعد السبك وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسي بالغنى فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتي وحسمت أسبابك من أسبابي طرداً لك عن بابي فمن وكلته إليّ ملك ومن وكلته إليه هلك. اهـ.

ثم بيَّن وجه التعجب، فقال:

38 ـ (من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً)

قلت: من عجز عن إصلاح نفسه فكيف يقدر أن يصلح غيره، ضعف الطالب والمطلوب. قال بعضهم: من اعتمد على غير الله فهو في غرور لأن الغرور ما لا يدوم ولا يدوم شيء سواه وهو الدائم القديم الذي لم يزل ولا يزال وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد إلَّا على من يدوم لك منه العطاء والفضل اهـ.

* * *

ثم إن الاعتماد على الله ورفع الحوائج إليه والرجوع في كل النوازل إليه سببه حسن الظن به كما أشار إليه بقوله:

---

(1) رواه الترمذي في سننه (2 باب منه) حديث رقم (3373) [5/ 456] والبخاري في الأدب المفرد، باب من لم يسأل الله. . .، حديث رقم (658) [1/ 229] ورواه غيرهما.

39 - (إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه حسن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عودك إلاَّ حسناً وهل أسدى إليك إلاَّ مننا)

قلت: الناس في حسن الظن بالله على قسمين: خواص وعوام.

أما الخواص فحسن ظنهم بالله تعالى ناشىء عن شهود جماله ورؤية كماله، فحسن ظنهم بالله لا ينقطع سواء واجههم بجماله أو بجلاله، لأن اتصافه تعالى بالرحمة والرأفة والكرم والجود لا ينقطع، فإذا تجلّى لهم بجلاله أو قهريته علموا ما في طيّ ذلك من تمام نعمته وشمول رحمته فغلب عليهم شهود الرحمة والجمال فدام حسن ظنهم على كل حال.

وأما العوام، فحسن ظنهم بالله ناشىء عن شهود إحسانه وحسن معاملته وامتنانه، فإذا نزلت بهم قهرية أو شدّة نظروا إلى سالف إحسانه وحسن ما أسدى إليهم من حسن لطفه وامتنانه، فقاسوا ما يأتي على ما مضى، فتلقوا ما يرد عليهم بالقبول والرضى، وقد يضعف هذا الظن بضعف النظر والتفكر ويقوى بقوتهما، بخلاف الأول فإنه ناشىء عن شهود الوصف والوصف لا يتخلّف والثاني ناشىء عن شهود الفعل وهو يتخلّف، فإن لم تقدر أيها المريد أن تحسن ظنك بالله لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التي لا تتخلّف، فحسِّن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه فهل عوّدك الحق تعالى إلّا برّاً حسناً ولطفاً جميلاً، وهل أسدى إليك أي أوصل إليك، إلّا مناً كبيرة ونعماً غزيرة.

قال رسول الله ﷺ: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي**»[1]. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إنَّا لا نحب إلَّا الله، فقال رجل: أبي ذلك جدك يا سيدي بقوله: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها. فقال الشيخ أبو الحسن: إنَّا لما لم نر محسناً غير الله لم نحب سواه اهـ. وقال أيضاً رضي الله عنه: قرأت ليلة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾ [النَّاس: الآية 1] إلى أن بلغت فيها ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ [النَّاس: الآية 4] فقيل لي: شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك يذكرك أفعالك السيئة وينسيك أفعالك الحسنة، ويكثر عندك ذات الشمال ويقلل عندك ذات اليمين، ليعدل بك عن حسن الظن بالله وكرمه إلى سوء الظن بالله ورسوله. فاحذروا هذا الباب فقد أخذ منه خلق كثير من العباد والزهاد

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ومن مناقب أهل رسول الله، حديث رقم (4716) [3/ 162]. ورواه الترمذي في سننه، باب مناقب معاذ بن جبل. . . ، حديث رقم (3789) [5/ 664] ورواه غيرهما.

وأهل الطاعة والسداد اهـ.

وقال رضي الله عنه أيضاً: العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءته في إحسان الله إليه ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: الآية 69] اهـ.

* * *

وإذا كان الحق تعالى ما عوّدك إلَّا الإحسان وما أسدى إليك إلَّا الامتنان فمن العجب أن تتركه وتطلب ما سواه، وإلى ذلك أشار بقوله:

40 ـ (العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له منه ويطلب ما لا بقاء له معه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج، الآية، ٤٦]

قلت: ما لا انفكاك منه هو الحق تعالى وقضاؤه وقدره وما لا بقاء له هو الدنيا أو ما تدبره النفس وتقدره، فمن أعجب العجائب أن يفر العبد من مولاه ويتوجّه بالطلب لما سواه مع أنه لا انفكاك له منه ولا محيد له عنه إذ لا وجود له إلَّا منه ولا قيام له إلَّا به، فكيف يهرب منه بترك طلب معرفته وبالتقرُّب به بامتثال أمره واجتناب نهيه ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ الدنيا الفانية التي إن لم تزل عنها في الحياة زالت عنك بالممات، فاطلب ما يبقى دون ما يفنى. ولله در القائل:

هبِ الدنيَا تُساقُ إليكَ عفواً ... أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى زوالِ
وما دُنياكَ إلَّا مثلَ ظلٌّ ... أظلّكَ ثمَّ آذنَ بارتحالِ

أو تقول: من العجب كل العجب أن يهرب العبد مما لا انفكاك له عن قدر الله وقضائه، ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ تدبيره واختياره، إذ كل ما تدبره وأبرمه فسخه القضاء وهدمه:

متى يبلغُ البنيانُ يوماً تمامَهُ ... إذا كنتَ تبنيهِ وغيرُك يهدِمُ

وهذا كله من عدم فتح البصيرة أو عماها، ولذلك قال: فإنَّها لا تعمي الأبصار عن إدراك الحس لأنها أدركته وحجبت به ولكن تعمي القلوب عن إدراك المعنى، فلا ترى إلَّا الحس ولا تحب إلَّا إيّاه ولا تطلب شيئاً سواه، نسأل الله عافيته وهداه.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: عمى البصيرة في ثلاث: إرسال الجوارح في معاصي الله، والطمع في خلق الله، والتصنُّع بطاعة الله. اهـ.

* * *

ثم إذا طلبت الحق الذي لا انفكاك لك عنه ورحلت إليه فاطلب معرفة ذاته لا

زخارف جناته إذ هي كون من مكوّناته، ولذلك قال:

41 - (لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه ولكن أرحل من الأكوان إلى المكوِّن ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾ [النّجم: الآية 42]).

قلت: الرحيل من الكون إلى الكون هو الرحيل من السوى إلى طلب السوى وذلك كمن زهد في الدنيا وانقطع إلى الله يطلب بذلك راحة بدنه وإقبال الدنيا عليه لقوله ﷺ: «**من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب**»[1]، ولقوله أيضاً: «**من كانت الآخرة نيّته جمع الله عليه أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي صاغرة**»[2] وكمن زهد فيها يطلب الخصوصية كإقبال الخلق والعز وتربية المهابة في قلوب الناس، أو زهد فيها يطلب الكرامة وخوارق العادات، أو زهد فيها يطلب القصور والحور، فهذا كله رحيل من كون إلى كون، فمثله كحمار الطاحونة يسير الليل والنهار وهو في موضعه، فالذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه، فمن كانت همّته الحظوظ النفسانية فحاله حال حمار الساقية، في السير دائم وهو في موضعه قائم، يظن أنه قطع مسافة مما طلب وما زاد إلّا نقصاً مع تعب».

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: قف بباب واحد لا لتفتح لك الأبواب تفتح لك الأبواب، واخضع لسيد واحد لا لتخضع لك الرقاب تنخضع لك الرقاب، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحِجر: الآية 21] اهـ.

فينبغي لك أيها المريد أن ترفع همّتك إلى الملك المجيد فترحل من رؤية الأكوان إلى طلب شهود الملك الديان، أو ترحل من الدليل والبرهان إلى رتبة الشهود والعيان وهو غاية القصد وبلوغ المنتهى ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾ [النّجم: الآية 42].

ولا ترحل من كون إلى كون بأن تترك حظاً من حظوظ نفسك طلباً لحظ آخر فتكون كحمار الرحى الذي سار منه هو الذي عاد إليه.

وتشبيهه بالحمار دليل على بلادته وقلّة فهمه إذ لو فهم عن الله لرحل عن حظوظ نفسه وهواه قاصداً الوصول إلى حضرة مولاه، فلا ترحل أيها المريد من كون مخلوق إلى كون مخلوق مثلك ولكن ارحل من الكون إلى المكون ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾

---

(1) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب، كتاب البيوع، وغيرها . . .، حديث رقم (2642) [2/ 341] والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، حديث رقم (3658) [7/ 196] ورواه غيرهما.

(2) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم [1/ 300].

[النّجم: الآية 42] والرحيل إلى المكوِّن يكون بثلاثة أمور:

الأول: قصر همّتك عليه دون ما سواه حتى يطلع على قلبك فلا يجده محبّاً لسواه.

الثاني: الرجعى إليه بإقامة الحقوق والفرار من الحظوظ.

الثالث: دوام اللجاء إليه والاستعانة به والتوكل عليه والاستسلام لما يورده عليك.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أربعة من كن فيه احتاج الخلق إليه وهو غني عن كل شيء: المحبة لله، والغنا بالله، والصدق واليقين. الصدق في العبودية واليقين في أحكام الربوبية، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون اهـ. قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

ثم استدل على طلب رفع الهمة إلى الله مع الإعراض عما سواه بحديث الهجرة الذي في الصحيح فقال:

41 - (وانظر إلى قوله ﷺ: ‹فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه›[1] فافهم قوله عليه السلام: فهجرته إلى ما هاجر إليه وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم والسلام)

قلت: الهجرة هي الانتقال من وطن إلى وطن آخر بحيث يهجر الوطن الذي خرج منه ويسكن الوطن الذي انتقل إليه، وهي هنا من ثلاثة أمور: من وطن المعصية إلى وطن الطاعة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن عالم الأشباح إلى وطن عالم الأرواح.

أو تقول: من وطن الملك إلى وطن الملكوت أو من وطن الحس إلى وطن المعنى، أو من وطن علم اليقين إلى وطن عين اليقين، أو حق اليقين.

فمن هاجر من هذه المواطن قاصداً بهجرته الوصول إلى رضى الله ورسوله أو الوصول إلى معرفة الله ورسوله فهجرته موصلة له إلى الله ورسوله على حسب قصده وهمّته.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب ما جاء أن الأعمال بالنية. . .، حديث رقم (54) [1/ 30] ورواه مسلم في صحيحه، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية. .» حديث رقم (1907) [3/ 1515] ورواه غيرهما.

ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه فقد خاب قصده ومسعاه، وغاية هجرته ما هاجر إليه وكانت هجرته زيادة في جر الوبال إليه، فافهم أيها السامع قوله عليه السلام: فهجرته إلى ما هاجر إليه وتدّبره واعرضه على قلبك ونفسك وانظر هل فيك بقية من الالتفات إلى ما هاجرت منه، أو فيك حظ سوى ما هاجرت إليه من رضوان الله ورسوله أو معرفة الله ورسوله، فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه ولن يوصل إليه من بقي فيه بقية من حظه وهواه. قال الششتري:

إنْ تردْ وصلنَا فموتُك شرطٌ لا ينالُ الوصالَ مَنْ فيهِ فضلَه

وقال أيضاً:

ليسَ يدركُ وصالِي كلُّ مَنْ فيهِ بقيَّا

وسمعت شيخنا [محمد] البوزيدي رضي الله عنه يقول: إن أردتم أن تعرفوا هل رحلت أنفسكم من هذا العالم إلى عالم الملكوت أو لم ترحل، فأعرضوا عليها الأمور التي كانت تشتهيها وتميل إليها واحداً بعد واحد، فإن وجدتموها رحلت عنها وخرجت محبتها من قلبها ولم تركن إلى واحد منها، فاستبشروا فقد رحلت أرواحكم إلى عالم الملكوت، وإن وجدتموها ركنت أو مالت بالمحبة إلى شيء من هذا العالم فجاهدوها وأخرجوها عنه بالكلية حتى ترحل إلى ربها اهـ بالمعنى.

وختم هذا الباب بالسلام لما اشتملت عليه من الرحيل والمقام فكلها تدل على سفر القلب من شهود الخلق إلى شهود الخالق فناسب ختمها بالسلام لما فيه من ذكر السلامة.

[الباب الخامس]

ولما كان السفر لا بد فيه من دليل وإلا ضلّ عن سواء السبيل، افتتح الباب الخامس بذكر الصحبة وشروط المصحوب وآدابها فقال:

42 - (لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلّك على الله مقاله)

قلت: الذي ينهضك حاله هو الذي إذا رأيته ذكرت الله فقد كنت في حال الغفلة فلما رأيته نهض حالك إلى اليقظة، أو كنت في حالة الرغبة، فلما رأيته نهض حالك إلى الزهد، أو كنت في حالة الاشتغال بالمعصية فلما رأيته نهض حالك إلى التوبة، أو كنت في حالة الجهل بمولاك فنهضت إلى معرفة من تولاك، وهكذا.

والذي يدلك على الله مقاله هو الذي يتكلم بالله ويدل على الله ويغيب عما سواه، إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب، وإذا سكت أنهضك حاله إلى علّام الغيوب، فحاله يصدق مقاله ومقاله موافق لعلمه، فصحبة مثل هذا إكسير يقلب الأعيان، وهو مفهوم من قول الشيخ: لا تصحب من لا ينهضك حاله الخ، أي بل اصحب من ينهضك حاله ويدلّك على الله مقاله.

والصحبة في طريق التصوُّف أمر كبير في السير إلى الله تعالى حسبما جرت به عادة الله تعالى وحكمته، حتى قال بعضهم: من لا شيخ له فالشيطان شيخه. وقال آخر: الإنسان كالشجرة النابتة في الخلاء فإن لم تقطع وتلقم كانت دكارة[1]. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل من لا شيخ له في هذا الشأن لا يفرح به.

ومن شروط الشيخ أربعة: علم صحيح، وذوق صريح، وهمّة عالية، وحالة مرضية. فالعلم الصحيح: هو ما يتقن به فرضه.

ولا بد أن يكون عالماً بالمقامات والمنازل التي يقطعها المريد، وبغرور النفس ومكايدها، قد سلك ذلك على يد شيخ كامل وذاق ذلك ذوقاً لا تقليداً وهو المراد بالذوق الصريح. والهمة العالية: هي المتعلقة بالله دون ما سواه. والحالة المرضية:

---

(1) لعلها لهجة مغربية المقصود منها أنها كالذكر لا تحمل الثمار وليست كالأم التي تحمل الأولاد فالشجرة التي لا تقلم وتجذب فهي دكارة أي لا فائدة منها والله تعالى أعلم.

هي الاستقامة بقدر الاستطاعة.

ولا بد أن يكون جامعاً بين حقيقة وشريعة وبين جذب وسلوك فيجذبه بجذب القلوب وبسلوكه يخرجها من حالة الجذب إلى البقاء، فالسالك فقط ظاهري لا يجذب ولا يحقق، والمجذوب فقط لا يسير ولا يوصل، وفساد صحبته أكثر من نفعها.

قال في أصول الطريقة: ومن فيه خمس لا تصح مشيخته: الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، ودخول ما لا يعني، واتباع الهوى في كل شيء، وسوء الخلق من غير مبالات. اهـ.

* * *

فصحبة مثل هذا ضرر محض، وإليه أشار بقوله:

43 ـ (ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك)

قلت: رب هنا للتكثير، وصحبتك فاعل بأراك، والإحسان مفعول مقدم. والتقدير: ربما تكون مسيئاً في حالك مقصراً في عملك، فإذا صحبت من هو أسوأ حالاً منك أراك، أي أبصرتك صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك الإحسان منك لما ترى ما يصدر منها من الإحسان ومن المصحوب من التقصير والنقصان فتعتقد المزية عليه لأن النفس مجبولة على رؤية الفضل لها ومشاهدة التقصير من غيرها علماً أو عملاً أو حالاً بخلاف ما إذا صحبت من هو أحسن حالاً منها فإنها لا ترى من نفسها إلّا التقصير وفي ذلك خير كثير.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلّا حيث ترجو ثواب الله ولا تجلس إلّا حيث تأمن غالباً من معصية الله، ولا تصطف لنفسك إلّا من تزداد به يقيناً وقليل ما هم.

وقال له أيضاً: لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قل ما يدوم، واصحب من إذا ذكر ذكر الله فالله يغني به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد ذكره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب اهـ.

وحاصله: لا تصحب من تتكلف له فوق جهدك، ولا من يتكلف لك كذلك وخير الأمور أوساطها. وهذا والله أعلم في صحبة الإخوة. وأما صحبة الشيخوخة فكل ما أمر به الشيخ أو أشار إليه أو فهمت أنه يحب ذلك فلا بد أن تبادر إليه بقدر

الإمكان ولو كان محالاً عادة لأخذت في التهيىء للفعل. قال شيخ شيوخنا سيدي العربي بن أحمد بن عبد الله: الفقير الصديق هو الذي إذا قال له شيخه ادخل في عين المخياط لا يتردد ويقوم يبادر في امتثال ما أمر ولو كان لا يتأتى منه ذلك. وقال أيضاً: صاحبي هو الذي تفتله بشعرة اهـ.

وقال سيدي علي رضي الله عنه في كتابه: **اعلم** أنه لا يُقرِّب طالب الله إلى الله شيء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده، وإن لم يجده فعليه بذكر الله ليلاً ونهاراً قائماً وقاعداً مع العزلة عن أبناء الدنيا بعدم الجلوس معهم وعدم الكلام كذلك وعدم النظر فيهم لأنهم سم خارق.

ولا يبعد من الله شيء مثل جلوسه مع فقير جاهل، الفقير الجاهل أقبح من العامي الغافل بألف ضعف، الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين.

والجلوس مع العامي الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل، لا شيء في الوجود يسود قلب المريد مثل جلسة مع الفقير الجاهل، كما أن العارف بالله يجمع بين العبد ومولاه بنظرة أو بكلمة كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها، يرحم الله المجذوب حيث يقول في بعض كلامه: الجلسة مع غير الأخيار ترذّل ولو تكون صافي. اهـ.

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقرّاء المداهنين، والمتصوّفة الجاهلين. اهـ. وزاد الشيخ زروق: علماء الظاهر، قال: لأن نفوسهم غالية عليهم. اهـ.

قلت: الجلوس معهم اليوم أقبح من سبعين عامياً غافلاً وفقيراً جاهلاً لأنهم لا يعرفون إلَّا ظاهر الشريعة ويرون أن من خالفهم في هذا الظاهر خاطىء أو ضالّ فيجهدون في ردّ من خالفهم يعتقدون أنهم ينصحون وهم يغشون، فليحذر المريد من صحبتهم والقرب منهم ما استطاع، فإن توقف في مسألة ولم يجد من يسئل عنها من أهل الباطن فليسأله على حذر ويكون معه كالجالس مع العقرب والحية، والله ما رأيت أحداً قط من الفقراء قرب منهم وصحبهم فأفلح أبداً في طريق الخصوص. ويرحم الله أبا ذر الغفاري رضي الله عنه حيث قال: والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين. اهـ.

قال: هذا في علماء الصحابة الأخيار رضي الله عنهم، فما بالك اليوم حين اشتغلوا بجمع الدنيا وتزيين الملابس وتكبير العمائم وتحسين المأكل والمساكن

والمراكب، ورأوا ذلك سنّة نبويّة، فلا حول ولا قوّة إلَّا بالله العلي العظيم.

وكان يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه يقول لعلماء وقته: يا معشر العلماء دياركم هامانية، ومراكبكم قارونية، وأطعمتكم فرعونية، وولائمكم جالوتية، ومواسمكم جاهلية، وقد صيّرتم مذاهبكم شيطانية، فأين الملّة المحمديّة.

* * *

ومما يتأكد النظر إليه في المصحوب: الزهد في الدنيا، ورفع الهمة عنها، ولو قلّ عمله في الظاهر وإلى ذلك أشار بقوله:

44 ـ (ما قَلَّ عمل برز من قلب زاهد ولا كَثُر عمل برز من قلب راغب)

قلت: الزهد في الشيء هو خروج محبته من القلب وبرودته منه، وعند القوم بغض كل ما يشغل عن الله ويحبس عن حضرة الله ويكون أولاً في المال، وعلامته أن يستوي عنده الذهب والتراب والفضة والحجر، والغنى والفقر، والمنع والعطاء، ويكون ثانياً في الجاه والمراتب. وعلامته: أن يستوي عنده العز والذلّ والظهور والخمول والمدح والذمّ والرفعة والسقوط. ويكون ثالثاً في المقامات والكرامات والخصوصيات، وعلامته أن يستوي عنده الرجاء والخوف والقوة والضعف والبسط والقبض يسير بهذا كما يسير بهذا، أو يعرف في هذا كما يعرف في هذا، ثم يكون الزهد في الكون بأسره بشهود المكوّن وأمره، فإذا تحقق المريد بهذه المقامات في الزهد أو جلها كان عمله كله عظيماً كبيراً في المعنى عند الله وإن كان قليلاً في الحس عند الناس. وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: **«عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة»**[1]، وأي بدعة أعظم ولا أشنع من حب الدنيا والانكباب عليها بالقلب والقالب، الذي لم يكن في زمنه ﷺ ولا في زمن الصحابة حتى ظهرت الفراعنة فبنوا وشيّدوا وزخرفوا فهذه هي البدعة الحقيقية، فعمل هؤلاء قليل في المعنى وإن كان كثيراً في الحس إذ لا عبرة بحركة الأشباح وإنما العبرة بخضوع الأرواح.

---

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه، باب الرخص في الأعمال والقصد، حديث رقم (20568) [11/ 291] والبيهقي في شعب الإيمان، فصل ومن هذا الباب مجانبة الظلمة، حديث رقم (9523) [7/ 72] ورواه غيرهما.

عبادة الزاهد بالله لله وعبادة الراغب بالنفس للنفس. عبادة الزاهد حية باقية وعبادة الراغب ميتة فانية. عبادة الزاهد متصلة على الدوام وعبادة الراغب منقطعة بلا تمام. عبادة الزاهد في مساجد الحضرة التي أذن الله أن ترفع، وعبادة الراغب في مزابل القذرات التي أذن الله أن توضع. ولذلك قال بعضهم: عبادة الغني كالمصلي على المزبلة.

وما مثل عبادة الزاهد مع قلّتها في الحس وكثرتها في المعنى، وعبادة الراغب مع كثرتها في الحس وقلّتها في المعنى إلَّا كرجلين أهديا للملك أحدهما أهدى ياقوتة صافية صغيرة قيمتها ستون قنطاراً والآخر أهدى ستين صندوقاً خاوية فارغة، فلا شك أن الملك يقبل الياقوتة ويكرِّم صاحبها ويرد الصناديق ويهين صاحبها ويغضب عليه لكونه استهزأ بالملك حيث أهدى له خشباً خاوية شهرتها أعظم من منفعتها.

وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: الراغب في الدنيا غافل ولو كان يقول: الله الله، بلسانه على الدوام، إذ لا عبرة باللسان. والزاهد في الدنيا ذاكر على الدوام ولو قلّ ذكره باللسان اهـ. قلت: وبهذا فسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النّساء: الآية 142] أي مع الغفلة والرغبة ولو كثر في الحس. اهـ.

وقال سيدنا علي كرَّم الله وجهه [ورضي عنه]: كونوا لقبول العمل أشد منكم اهتماماً للعمل، فإنه لم يقلّ عمل مع التقوى وكيف يقلّ عمل يتقبل. اهـ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتان من زاهد عالم خير وأحب عند الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً.

وقال بعض السلف: لم يفتكم أصحاب محمد ﷺ بكثرة صلاة ولا صيام إلَّا أنهم كانوا أزهد في الدنيا. اهـ.

وفي بعض الأخبار: أن سيدنا عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم والناس يتعبّدون، فقال له عيسى عليه السلام: قم تتعبّد مع الناس، فقال: تعبدت يا روح الله، فقال له: وما عبادتك، قال: تركت الدنيا لأهلها، فقال له: نم نعمت العبادة هذه، أو كما قال عليه السلام.

وقال رجل للشيخ أبي الحسن رضي الله عنه: ما لي أرى الناس يعظِّمونك ولم أر لك كبير عمل، فقال: بسنَّة واحدة افترضها الله على رسوله تمسكت بها، فقال له: وما هي، قال: الإعراض عنكم وعن دنياكم. اهـ.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وإنما كانت للزهاد هذه الفضيلة لثلاثة أوجه:

أحدها: ما فيه من فراغ القلب عن الشواغل والشواغب.

الثاني: لأنه شاهد بوجود الصدق في المحبة إذ الدنيا محبوبة لا تترك إلّا بما هو أحب. قال عليه السلام: «**الصدقة برهان**»[1]، قيل: على حب العبد ربه.

الثالث: لأنه دليل على المعرفة بالله والثقة به لأن بذل الموجود من الثقة بالمعبود، ومنع الموجود من سوء الظن بالمعبود. اهـ.

* * *

ولما كان حسن الظاهر وإتقانه الذي يكون به كماله ونقصانه إنما هو نتائج حسن الباطن وأحواله، أشار إلى ذلك بقوله:

45 ـ (حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال وحسن الأحوال من التحقق في مقامات الإنزال)

قلت: الأعمال حركة الجسم بالمجاهدة، والأحوال حركة القلب بالمكابدة، والمقامات سكون القلب بالطمأنينة، مثال ذلك مقام الزهد مثلاً فإنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالاً ثم يسكن القلب ويذوق حلاوته فيصير مقاماً.

وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار ثم يصير حالاً ثم يسكن القلب فيه ويذوقه فيصير مقاماً.

وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل في الظاهر كخرق العوائد من نفسه، ثم تكون مكابدة بالمعرفة والإقرار عند التعرفات، ثم تصير حالاً، فإذا سكنت الروح في الشهود وتمكنت صارت مقاماً، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، يعني أن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقاماً، فالأحوال تتحول، تذهب وتجيء، فإذا سكن القلب في ذلك المعنى صار مقاماً وهو مكتسب من دوام العمل.

واعلم أنَّ المقام والحال لكل واحد علم وعمل، فالمقام يتعلق به العلم أولاً ثم يسعى في عمله حتى يكون حالاً ثم يصير مقاماً، وكذلك الحال يتعلق به العلم أولاً ثم العمل ثم يصير مقاماً حالاً والله تعالى أعلم. فعلامة التحقق بمقامات الإنزال هو

---

(1) وتمام الحديث: «والصيام جنة والصلاة نور والسكينة مغنم وتركها مغرم» رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم (8911) [9/ 185] ورواه غيره.

حسن الحال، وعلامة حسن الحال هو حسن العمل، فاتقان الأعمال وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال وحسن الأحوال وإتقانها هو نتيجة التحقق بمقامات الإنزال أي التحقق بالإنزال في المقامات. أو تقول: حسن الأحوال دليل على التحقق بالمقامات التي ينزل الله عبده فيها وحسن الأعمال دليل على حسن الأحوال، والتحقق بالحال والسكون في المقام أمر باطني ويظهر أثره في عمل الجوارح.

والحاصل: أن حركة القلب تدل على صلاح القلب أو فساده لقوله ﷺ: **«إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**[1]. فإذا تحقق القلب بالزهد مثلاً وصار له حالاً أو مقاماً ظهر ذلك على جوارحه من الثقة بالله والاعتماد عليه وقلّة الحركة عند الأسباب المحرِّكة لقوله عليه السلام: **«ليس الزهد بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال إنما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك»**[2].

وقال الصدِّيق رضي الله عنه لأبي الحسن الشاذلي في النوم: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد، وعلامة التحقق بالإنزال في مقام التوكل السكون والطمأنينة عند محركات الأسباب، وعلامة التحقق بالإنزال في مقام المعرفة هو الأدب ظاهراً وباطناً وحسن الخلق مع كل مخلوق، ولذلك قال أبو حفص الحداد رضي الله عنه: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن، فإن النبي ﷺ قال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»**[3] اهـ. وراجع ما تقدم من شرح قوله: تنوَّعت أجناس الأعمال بتنوّع واردات الأحوال، ففيه زيادة شرح على هذا المحل، والله تعالى أعلم.

* * *

وأفضل الأعمال التي يقطع بها المريد المقامات وأقربها هو ذكر الله، ولذلك

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52) [1/ 28] ومسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (1599) [3/ 1219] ورواه غيرهما.

(2) روى نحوه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، حديث رقم (2340) [4/ 571] وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، حديث رقم (4100) [2/ 1373] ورواه غيرهما ونصه: عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك».

(3) رواه ابن شيبة في مصنفه، في مس اللحية في الصلاة، حديث رقم (6787) [2/ 86] أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في الأصل الخامس والأربعون والمائتان [3/ 210] وأورده غيرهما.

ذكره بأثره فقال:

46 ـ (لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عن ما سوى المذكور ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: الآية 20])

قلت: الذكر ركن قوي في طريق القوم وهو أفضل الأعمال، قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 152]، وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزَاب: الآية 41] والذكر الكثير أن لا ينساه أبداً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتاً مخصوصاً، وعَذَر العباد في غير أوقاتها إلّا الذكر لم يجعل الله له وقتاً مخصوصاً، قال الله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزَاب: الآية 41]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النِّسَاء: الآية 103]، وقال رجل: يا رسول الله كثرت عليَّ شعائر الإسلام فأوصني بأمر أدرك به ما فاتني وأوجز، فقال: «**لا يزال لسانك رطباً بذكر الله**»[1]. وقال عليه السلام: «**لو أن رجلاً في حجره دراهم يقسّمها وآخر يذكر الله لكان الذاكر الله أفضل**»[2]. وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: وما ذاك يا رسول الله، قال: ذكر الله**»[3].

وعن علي كرَّم الله وجهه: قلت: يا رسول الله أي الطرق أقرب إلى الله وأسهلها على عباد الله وأفضلها عند الله تعالى، فقال: «**يا علي عليك بمداومة ذكر الله**»، **فقال علي: كل الناس يذكرون الله، فقال** ﷺ: «**يا علي لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول: الله**»، فقال له: كيف أذكر يا رسول الله، فقال له ﷺ:

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. . .، حديث رقم (1822) [1\672] وابن ماجه في سننه، باب فضل لا إله إلا لله، حديث رقم (2793) [2\1246] ورواه غيرهما

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (5969) [6/ 116] وذكر تخريجه السيوطي في الدر المنثور، قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 152] [1/ 363]

(3) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الدعاء. . .، حديث رقم (1825) [1/ 673] وابن ماجة في سننه، باب فضل الذكر، حديث رقم (3790) [2/ 1245] ورواه غيرهما.

«غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ثم قل مثلها وأنا أسمع، فقال ﷺ: لا إله إلَّا الله ـ ثلاث مرات مغمضاً عينيه ـ»[1] ثم قالها علي كذلك ثم لقنها علي للحسن البصري ثم الحسن الحبيب العجمي ثم حبيب لداود الطائي ثم داود لمعروف الكرخي ثم معروف للسري ثم السري للجندي ثم انتقلت إلى أرباب التربية، فلا مدخل على الله إلَّا من باب الذكر فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته ويبذل فيه جهده فإن الذكر منشور الولاية ولا بد منه في البداية والنهاية، فمن أعطى الذكر فقد أعطى المنشور ومن ترك الذكر فقد عزل. وأنشدوا:

والذكرُ أعظمُ بابٍ أنتَ داخلهُ لِلَّهِ فاجعل لهُ الأنفاسَ حُرّاسًا

فبقدر ما يفنى في الاسم يفنى في الذات، وبقدر ما يتفتر في الفناء في الاسم يكون متفتراً في الفناء في الذات، فليلتزم المريد الذكر على كل حال ولا يترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه بل يذكره بلسانه ولو كان غافلاً بقلبه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره لأن غفلتك عن ذكره إعراض عنه بالكلية، وفي وجود ذكره إقبال بوجه ما، وفي شغل اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله، وفي فقده تعرض لاشتغالها بالمعصية. قيل لبعضهم: ما لنا نذكر الله باللسان والقلب غافل، فقال: أشكر الله على ما وفّق من ذكر اللسان ولو أشغله بالغيبة ما كنت تفعل.

فليلزم الإنسان ذكر اللسان حتى يفتح الله في ذكر الجنان فعسى أن ينقلك الحق تعالى من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، أي انتباه لمعاني الذكر عند الاشتغال به، ومن ذكر مع يقظة إلى ذكر مع وجود حضور المذكور وارتسامه في الخيال حتى يطمئن القلب بذكر الله ويكون حاضراً بقلبه مع دوام ذكره، وهذا هو ذكر الخواص والأول ذكر العوام، فإن دمت على ذكر الحضور رفعك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور لما يغمر قلبك من النور، وربما يعظم قرب نور المذكور فيغرق في النور حتى يغيب عما سوى المذكور حتى يصير الذاكر مذكوراً والطالب مطلوباً والواصل موصولاً ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: الآية 20] أي بممتنع، فقد يرفع في أعلى الدرجات من كان في أسفل الدركات، وها هنا يسكت اللسان وينتقل الذكر للجنان فيصير ذكر اللسان غفلة في حق أهل هذا المقام، كما قال الشاعر:

ما إنْ ذكرتكَ إلَّا همَّ يلعنني سرِّي وقلبِي وروحي عندَ ذكراكَ
حتى كأنَّ رقيباً منكَ يهتفُ بي إياكَ ويحكَ والتذكار إياكَ

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع

أما ترى الحقَّ قدْ لاحتْ شواهدُهُ ... وواصلَ الكلَّ مَنْ معناهُ معناكَ

وقال الواسطي مشيراً إلى هذا المقام: الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه، اهـ. يعني أن الذاكرين الله بالقلوب هم في حال ذكرهم لله بلسانهم أكثر غفلة من التاركين لذكره لأن ذكره باللسان وتكلفه يقتضي وجود النفس وهو شرك والشرك أقبح من الغفلة، هذا معنى قوله: لأن ذكره سواه، أي لأن ذكر اللسان يقتضي استقلال الذاكر، والفرض إن الذاكر محو في مقام العيان.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور وعن كل شيء سواه لقوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ [المُزمّل: الآية 8]. وقال القشيري رضي الله عنه: الذكر اندراج الذاكر في مذكوره واستظلام السر عند ظهوره. وفي معنى ذلك أنشدوا:

ذكرتكَ لا أني نسيتُك لمحةً ... وأيسرُ ما في الذكرِ ذكرُ لساني

وصرتُ بلا وجدٍ أهيمُ منَ الهوى ... وهامَ عليَّ القلبُ بالخفقان

فلما أراني الوجدُ أنك حاضري ... شهدتُك موجوداً بكلِ مكان

فخاطبتُ موجوداً بغيرِ تكلمٍ ... وشاهدتُ موجوداً بغيرِ عيان

وفي هذا المقام يتحقق المريد بعبادة الفكرة أو النظرة، وفكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: أوقاتنا كلها ليلة القدر، أي عبادتنا كلها مضاعفة مع خفائها وتحقيق الإخلاص فيها إذ لا يطلع عليها ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده. وفي ذلك قال بعضهم، قيل: هو الحلاج:

قلوبُ العارفينَ لها عيونٌ ... ترَى ما لا يُرى للناظرينَ

وألسنةٌ بأسرارٍ تناجي ... تغيبُ عن الكرامِ الكاتبينَ

وأجنحةٌ تطيرُ بغيرِ ريشٍ ... إلى ملكوتِ ربِ العالمينَ

وقد ذيلتها ببيتين فقلت:

وأفئدةٌ تهيمُ بعشقٍ وجدٍ ... إلى جبروتِ ذي حقٍ يقينا

فإنْ تردن تباكر ذي المعاني ... فبذلُ الروحِ منكَ يقلُ فينا

* * *

[الباب السادس]

ولما كان الذكر هو سبب حياة القلب وتركه سبب موته، وفي الحديث: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت»**[1]. ذكر علامة حياته وموته في أول الباب السادس، فقال:

47 ـ (من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات وترك الندم على ما فعلت من وجود الزلات)

قلت: موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح في معاصي الله. وسبب حياته ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله. وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فعلت من الزلّات، وصحبتك للغافلين الأموات، وذلك لأن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة وصدور المعصية علامة الشقاوة، فإن كان القلب حياً بالمعرفة والإيمان آلمه ما يوجب شقاوته وأفرحه ما يوجب سعادته.

أو تقول: صدور الطاعة من العبد علامة على رضى مولاه، وصدور المعصية علامة على غضبه. فالقلب الحيّ يحس بما يرضيه عند مولاه فيفرح، وما يسخطه عليه فيحزن، والقلب الميت لا يحس بشيء قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية لا يفرح بطاعة وموافقة ولا يحزن على زلّة ولا معصية كما هو شأن الميت في الحس. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن»**[2].

وقال عبد الله بن مسعود: المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه والفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فأطاره. اهـ.

* * *

لكن لا ينبغي للعبد أن يغلب النظر إلى جانب الذنب فيقل رجاؤه ويسيء الظن

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل ذكر الله، حديث رقم (6044) [5/ 2353].

(2) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم، [1/ 33] ورواه الحاكم في المستدرك، بلفظ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» حديث رقم (35) [1/ 59] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا يخلو رجل بامرأة أجنبية، حديث رقم (13299) [7/ 91].

بسيده، كما أشار إليه بقوله:

48 ـ (لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدّك عن حسن الظن بالله)

قلت: الناس في الخوف والرجاء على ثلاثة أقسام:

أهل البداية ينبغي لهم تغليب جانب الخوف، وأهل الوسط ينبغي لهم أن يعتدل خوفهم ورجاؤهم، وأهل النهاية يغلبون جانب الرجاء.

أما أهل البداية فلأنهم إذا غلبوا جانب الخوف جدّوا في العمل وانكفوا عن الزلل فبذلك تشرق نهايتهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: الآية 69].

وأما أهل الوسط فلأنهم قد انتقلت عبادتهم إلى تصفية بواطنهم فعبادتهم قلبيّة فلو غلبوا جانب الخوف لرجعوا إلى عبادة الجوارح، والمطلوب منهم عبادة البواطن على رجاء الوصول وخوف القطيعة فيعتدل خوفهم ورجاؤهم.

وأما الواصلون فلا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركاً فهم ينظرون إلى تصريف الحق وما يجري به سابق القدر فيتلقونه بالقبول والرضاء، فإن كان طاعة شكروا وشهدوا منّة الله وإن كان معصية اعتذروا وتأدّبوا ولم يقفوا مع أنفسهم إذ لا وجود لها عندهم وإنما ينظرون إلى ما يبرز من عنصر القدرة، فنظرهم إلى حلمه وعفوه وإحسانه وبرّه أكثر من نظرهم إلى بطشه وقهره. ويرحم الله الشافعي حيث قال:

فلما قسَا قلبي وضاقتْ مذاهبي ... جعلتُ الرجَا مني لعفوِكَ سُلّمَا

تعاظمني ذنبي فلما قرنتهُ ... بعفوكَ ربي كانَ عفوُكَ أعظمَا

فما زلتَ ذا جودٍ وفضلٍ ومنّةٍ ... تجودُ وتعفُو منّةً وتكرُّمَا

فيا ليتَ شعرِي هلْ أصيرُ لجنّةٍ ... أهنا وإما للسعير فأندَما

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: الآية 53].

وتأمل قضية الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم سأل راهباً فقال له: هل لي من توبة؟ فقال له: لا توبة لك. فكمَّل به المائة ثم أتى عالماً فسأله فقال له: من يحول بينك وبينها ولكن اذهب إلى قرية كذا ففيها قوم يعبدون الله فكن فيهم حتى تموت. فلما توسط الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إليهم أن قيسوا القرية التي خرج إليها والقرية التي خرج منها فإلى أيهما كان أقرب فهو من أهلها. فأوحى الله إلى القرية التي يريد: أن تقاربي، وإلى القرية التي خرج منها: أن تباعدي، فوجد أقرب إلى القرية التي يريد بشبر فأخذته ملائكة

الرحمة. والحديث في الصحيحين[1] نقلته بالمعنى.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: العامة إذا خوّفوا خافوا وإذا رجوا رجوا، والخاصة متى خوّفوا رجوا ومتى رجوا خافوا.

قال في لطائف المنن: ومعنى كلام الشيخ هذا: أنَّ العامة واقفون مع ظواهر الأمر فإذا خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله، وأهل الله إذا خوّفوا رجوا عالمين أنَّه من وراء خوفهم، وما خوفوا به أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من منّته، فاحتالوا على أوصاف كرمه علماً منهم ما خوفهم إلَّا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك إليه، وإذا رجوا يخافون غيب مشيئته الذي هو من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما ظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم هل تقف مع الرجاء أو تنفذ إلى ما بطن في مشيئته فلذلك أثار الرجاء خوفهم اهـ.

ودخل الجنيد رضي الله عنه على شيخه السري فوجده مقبوضاً فقال له: ما لك أيها الشيخ مقبوضاً، فقال: دخل عليّ شاب فقال لي: ما حقيقة التوبة، فقلت له: أن لا تنسى ذنبك، فقال الشاب: بل التوبة أن تنسى ذنبك. ثم خرج عني. قال الجنيد، فقلت: الصواب ما قاله الشاب لأني إذا كنت في حالة الجفاء ثم نقلني إلى شهود الصفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء اهـ. قلت: نظر السري إلى أهل البداية ونظر الجنيد إلى أهل النهاية والكل صواب، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر موجب تصغير الذنب فقال:

48 - (فإن من عرف ربّه استصغر في جنب كرمه ذنبه)

قلت: بل من عرف ربه غاب عن رؤية ذنبه لفنائه عن نفسه بشهود ربّه فإن صدر منه فعل يخالف الحكمة غلب عليه شهود النعمة، قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحجر: الآية 49]، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: الآية 50] فإنما هو لمن لم يتب. وقال رسول الله ﷺ: «**لو أذنبتم**

(1) رواه البخاري حديث الغار، رقم (3278) [3/ 1278] ومسلم، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (2766) [2118] ورواه غيرهما. ونص رواية مسلم هي: «عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا. فقتله فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا. فأدركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما. فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».

حتى تبلغ خطاياكم عنان السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم، ولو أن العباد لم يذنبوا لذهب الله بهم ثم جاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهو الغفور الرحيم»[1]. والله أفرح بتوبة عبده من الظمآن الوارد ومن العقيم الوالد ومن الضال الواجد، لكن لا ينبغي أن يصغر عنده ذنبه حتى يغتر بحلم الله.

وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود قل لعبادي الصديقين لا يغتروا فإني إن أقم عليهم عدلي وقسطي أعذبهم غير ظالم لهم، وقل لعبادي المذنبين لا يقنطوا فإنه لا يعظم عليّ ذنب أغفره لهم. اهـ.

وقال الجنيد رضي الله عنه: إذا بدت عين من الكريم ألحقت المسيء بالمحسن. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه في حزبه: إلٰهي معصيتك نادتني بالطاعة وطاعتك نادتني بالمعصية ففي أيهما أخاف وفي أيهما أرجو، إن قلت بالمعصية قابلتني بفضلك فلم تدع لي خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتني بعدلك فلم تدع لي رجاء، فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك. اهـ.

ومعنى كلام الشيخ رضي الله عنه: أن العبد إذا كان في المعصية شهد قهرية الحق وعظمته وضعف نفسه وعجزه اكتسب من المعصية انكساراً وذلًّا لنفسه وتعظيماً وإجلالاً لربّه وهذا أفضل الطاعات، فقد نادته معصيته التي هو فيها بالطاعة التي يجتنيها منها، وإذا كان في الطاعة ربما شهد فيها نفسه وقصد متعته وحظه فأشرك بربه وأخلّ بأدبه وهذه معصية، فإذا كان في الطاعة نادته بهذه المعصية التي يجتنيها منها فلا يدري من أيهما يخاف وأيهما يرجو.

وقوله: إن قلت بالمعصية الخ، أي إن نظرت إلى صورة المعصية قابلتني بفضلك فامتحى اسمها واندرس رسمها، وإن نظرت إلى صورة الطاعة قابلتني بعدلك فاضمحلت وامتحت، وبقي محض الرجاء من الكريم الوهاب الذي يعطي بلا سبب

---

(1) هذا النص هو مجموع حديثين اثنين والأول هو: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». رواه الترمذي، باب فضل التوبة والاستغفار. . ، حديث رقم (3540) [5/ 548] ورواه غيره. وأما الحديث الثاني فهو: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم». رواه مسلم في صحيحه، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث رقم (2749) [4/ 2106] ورواه غيره.

ويغطي بحلمه المناقشة والعتاب والله تعالى أعلم.

* * *

فتحصَّل أن العارف لا يقف مع معصية وإن جلّت ولا مع طاعة وإن عظمت وهو معنى قوله:

49 ـ (لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله)

قلت: الصغيرة هي الجريمة التي لا وعيد فيها من القرآن ولا من الحديث، والكبيرة هي التي توعّد عليها بالعذاب أو الحدّ في القرآن أو في السنّة، وقيل غير ذلك. هذا كله بالنظر لظاهر الأمر وأما باعتبار ما عند الله من أمر غيبه وبالنظر إلى حلمه وعدله فقد يبرز خلاف ما يظن، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية 47] فمن سبقت له العناية لا تضرّه الجناية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفُرقان: الآية 70] وإن كانت الأعمال علامات فقد تختلف في بعض المقامات، فوجب استواء الرجاء والخوف في بعض المقامات والتسليم لله في كل الأوقات، إذ قد تمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ولا مبدل لكلماته، فإذا قابلك الحق سبحانه وتعالى بعدله وجلاله لم تبق لك صغيرة وعادت صغائرك كبائر، وإذا واجهك الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه وجماله لم تبق لك كبيرة وعادت كبائرك صغائر.

قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: إذا أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة وإذا وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة اهـ. وقيل: لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما على الآخر بل المؤمن كالطائر بين جناحين، أو كما قيل، قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

قلت: وحديث الرجل الذي تمد له تسع وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم تخرج له بطاقة قدر الأنملة فيها شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله فتطيش تلك السجلات[1]،

---

(1) ونص الحديث هو: «سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم يقول الله عز وجل: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا، يا رب. فيقول: أظلمتك كتبتي الحافظون؟. ثم يقول: ألك عن ذلك حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم عليك اليوم. فتُخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة». رواه ابن ماجة في سننه، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، حديث رقم (4300) [2/ 1437] ورواه غيره.

يدل على عظيم حلمه ورحمته وشمول كرمه ومنّته.

* * *

ولما ذكر رضي الله عنه علامة موت القلب ذكر الأعمال التي توجب حياته فقال:

50 - (لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ويُحتقر عندك وجوده)

قلت: هكذا هي نسخة الشيخ بلفظ القلوب وهي أوفق بالسياق، إذ الكلام كله في موت القلوب وحياتها، يعني أنه لا عمل أرجى لحياة القلوب من عمل يكون بالله ولله غائباً فيه عما سواه غير ملاحظ فيه حظوظه وهواه، متبرئاً فيه من حوله وقواه، فإذا أظهرته عليه القدرة غاب عن شهوده وصغر في عينه صورة وجوده، لما تجلّى في قلبه من عظمة مولاه فصغر عنده كل ما سواه، فمثل هذا العمل تحيا به القلوب وتحظى بمشاهدة علّام الغيوب وهو روح اليقين وهو حياة قلوب العارفين، فإذا أراد الله أن يتولى عبده أنهضه للعمل وصغّره في عينه فلا يزال جادّاً في عمل الجوارح حتى ينقله إلى عمل القلوب فتستريح الجوارح من التعب ولا يبقى إلّا شهود العظمة مع الأدب.

قال النهرجوري رحمه الله: من علامات من تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره والنقصان في صدقه والفتور في مجاهدته، وقلّة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقراً إلى الله في قصده وسيره حتى يغنى عن كل شيء دونه اهـ.

* * *

وإذا حيا القلب بمعرفة الله كان محلاً لتجلّي الواردات الإلٰهية، وإلى ذلك أشار بقوله:

51 - (إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً)

قلت: الوارد نور إلٰهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده، وهو على ثلاثة أقسام: على حسب البداية والوسط والنهاية. أو تقول: على حسب الطالبين والسائرين والواصلين.

القسم الأول: وارد الانتباه هو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة وهو لأهل البداية من الطالبين، فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه

طالباً لربه فيقبل عليه بقلبه وبقالبه وينجمع عليه بكليته.

القسم الثاني: وارد الإقبال، وهو نور يقذفه الله في قلب عبده فيحركه لذكر مولاه ويغيّبه عما سواه فلا يزال مشتغلاً بذكره غائباً عن غيره حتى يمتلىء القلب بالنور ويغيب عما سوى المذكور فلا يرى إلَّا النور فيخرج من سجن الأغيار ويتحرر من رقّ الآثار.

القسم الثالث: وارد الوصال، وهو نور يستولي على قلب العبد ثم يستولي على ظاهره وباطنه فيخرجه من سجن نفسه ويغيّبه عن شهود حسه. وقد أشار إلى القسم الأول، وهو وارد الانتباه، بقوله: إنما أورد عليك الخ، أي إنما أشرق عليك نور اليقظة والانتباه وهو الوارد لتكون بسببه وارداً عليه وسائراً إليه ولو لم يورد عليك هذا الوارد لبقيت في وطن غفلتك نائماً في سكرتك، دائماً في حسرتك.

ثم أشار إلى القسم الثاني، وهو وارد الإقبال، فقال:

51 ـ (أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحرّرك من رقّ الآثار)

أي إنما أورد عليك وارد الإقبال ليؤنسك بذكر الكبير المتعال فإذا اشتغلت بذكره وغبت عن غيره تسلمك، أي أنقذك، من يد لصوص الأغيار بعد أن شدوا أوثاقك بحبل هواك وسجنوك في سجن حظوظك ومناك وليحررك ويعتقك أيضاً من رقّ الآثار بعد أن ملكتك بما أظهرته لك من زخرف الاغترار، فإذا تسلمت من يد الأغيار أفضيت إلى شهود الأنوار، وإذا تحررت من رقّ الآثار ترقّيت إلى شهود الأسرار، فالأنوار أنوار الصفات والأسرار أسرار الذات، فالأنوار لأهل الفناء في الصفات، والأسرار لأهل الفناء في الذات.

ثم أشار إلى القسم الثالث، وهو وارد الوصال، فقال:

52 ـ (أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك)

أي إنما أورد عليك وارد الوصال بعد أن أهبّ عليك نفحات الإقبال ليخرجك من سجن رؤية وجودك إلى فضاء، أي اتساع، شهودك لربك فرؤيتك وجودك مانعة لك من شهود ربك إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه، وجودك ذنب لا يقاس به ذنب. وأنشد الجنيد:

وجودي أنْ أغيبَ عنِ الوجودِ ... بما يبدُو عليَّ منَ الشهودِ

فالفناء عن النفس وزوالها أصعب من الفناء عن الكون وهدمه، فمهما زالت النفس وهدمت انهدم الكون ولم يبق له أثر، وقد يهدم الكون وتبقى في النفس بقية،

فلذلك قدم الشيخ رقّ الأكوان على سجن وجود الإنسان، والله تعالى أعلم. ثم فسّر تلك الواردات فقال:

53 ـ (الأنوار مطايا القلوب والأسرار)

قلت: النور نكتة تقع في قلب العبد من معنى اسم أو صفة يسري معناها في كليته حتى يبصر الحق والباطل إبصاراً لا يمكنه التخلّف معه عن موجبه. قاله الشيخ زروق.

والمطايا جمع مطية، وهي الناقة المهيئة للركوب، والقلوب جمع قلب وهو الحقيقة القابلة للمفهومات، والأسرار جمع سر وهو الحقيقة القابلة للتجليات، والسر أدق وأصفى من القلب، والكل اسم للروح.

فإن الروح ما دامت متظلمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفساً فإذا انزجرت وانعقلت انعقال البعير سمّيت عقلاً، فما زالت تتقلّب في الغفلة والحضور سمّيت قلباً، فإذا اطمأنت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سمّيت روحاً، فإذا تصفت من غبش الحس سمّيت سراً لكونها صارت سراً من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها وهو سر الجبروت.

فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أنسه أمدّه بواردات الأنوار كالمطايا فيحمل عليها في محفة العناية مروّحاً عليه بنسيم الهداية، محفوفاً بنصرة الرعاية، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سرّاً من أسرار الله لا يعلمها إلّا الله ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية 85].

فالأنوار التي هي الواردات مطايا القلوب تحملها إلى حضرة علّام الغيوب وهي أيضاً مطايا الأسرار تحملها إلى جبروت العزيز الجبار، فالسلوك هداية والجذب عناية فوارد الانتباه والإقبال حمله سلوك، ووارد الوصال حمله جذب، فالأنوار التي هي مطايا القلوب تحملهم على جهة السلوك إلا أنهم محمولون فيه بحلاوة نور الانتباه والإقبال فصار سلوكهم كأنه جذب.

وأما الأنوار التي تحملهم على مطايا الأسرار فإنها تحملهم على جهة الجذب ممزوجاً بسلوك فيكونون بين جذب وسلوك، وهذا الحمل أعظم والله تعالى أعلم.

* * *

ثم بيَّن كيفية السير على هذه المطايا وما يعوقها عن السير، فقال:

54 ـ (النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار)

قلت: الظلمة نكتة تقع من الهوى في النفس عن عوارض الوهم فتوجب العمى عن الحق لتمكن الباطل من الحقيقة فيأتي العبد ويذر على غير بصيرة. قاله الشيخ زروق.

قلت: قد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر أسماء لمسمى واحد وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة في هذا القالب الجسماني الظلماني، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها وتنقّل أطوارها، ومثال ذلك كماء المطر النازل في أصل الشجر ثم يصعد في فروعها فيظهر ورقاً ثم نوراً وأزهاراً، ثم يعقد ثمرة ثم ينمو حتى يكمل، فالماء واحد، واختلفت أسماؤه باختلاف أطواره. هكذا قال الساحلي في بغيته. وقد نظمت في ذلك قصيدة ذكرت في غير هذا الكتاب.

فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة التي هي محل النفس إلى وطن النور الذي هو القلب وما بعده، فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها وهي تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها، فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى الحضرة التي هي أصله وفيها كان وطنه وكأنها جنود له من حيث إنه يتقوّى بها وينتصر على ظلمة النفس، وهذه الأنوار هي الواردات المتقدمة.

والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحلتها صارت كأنها جنود لها وهي ظلمة من حيث إنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شموس العرفان.

فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة رحل إليها القلب بجنود أنواره فيلتحم بينهما القتال، فإذا أراد الله عناية عبده ونصره أمد قلبه بجنود الأنوار وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار فيستولي النور على الظلمة وتُوَلّي النفس منهزمة.

وإذا أراد الله خذلان عبده أمد نفسه بالأغيار وقطع عن قلبه شوارق الأنوار فيأتي المنصور بالأمر على وجهه والمخذول بالشيء على عكسه.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وأمداد الأنوار ثلاثة، أولها: يقين لا يخالطه شك ولا ريب. الثاني: علم تصحبه بصيرة وبيان. الثالث: إلهام يجري بعد العيان.

وإمداد الظلم ثلاثة، أولها: ضعف اليقين. الثاني: غلبة الجهل على النفس. الثالث: الشفقة على النفس. وذلك كله أصله الرضى عن النفس (وعدمه) ومظهره

الثلاث المرتبة عليه وهي: المعاصي والشهوات والغفلات وأضدادها المتقدمة في الباب الثالث، فافهم، اهـ.

* * *

ولما كان النور هو جند القلب لأنه يكشف عن حقائق الأشياء فيتميز الحق من الباطل فيحق الحق ويبطل الباطل فينتصر القلب بإقباله على الحق على بيِّنة واضحة وتنهزم النفس بانهزام جند ظلماتها إذ لا بقاء للظلمة مع وضوح النور، كما أشار إلى ذلك بقوله:

55 ـ (النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار)

قلت: النور من حيث هو من شأنه أن يكشف الأمور ويوضحها حتى يظهر حسنها من قبيحها، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يقبل على ما يثبت حسنه ويدبر عن ما يثبت قبحه.

أو تقول: يقبل على ما فيه نفعه ويدبر عما فيه ضرره، ومثال ذلك: رجل دخل بيتاً مظلماً فيه عقارب وحيات وفيه سبائك ذهب وفضة فلا يدري ما يأخذ ولا ما يذر ولا ما فيه نفع ولا ضرر، فإذا أدخل فيه مصباحاً رأى ما ينفعه وما يضره وما يأمنه وما يحذره، كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة، فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضرّه وما ينفعه وفرّق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفَال: الآية 29] أي نوراً يفرّق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعَام: الآية 122]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزُّمَر: الآية 22] فهو على نور من ربه، وهذا النور الذي يكشف الأمور هو نور الواردات المتقدمة الذي هو مطايا القلوب إلى علّام الغيوب، أولها نور وارد الانتباه ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة ويظهر نور اليقظة، فتحكم البصيرة بقبح الغفلة وحسن اليقظة فيقبل القلب حينئذ على ذكر ربه ويدبر عما يغفله عن ربه، وهذا هو نور الطالبين.

الثاني: نور وارد الإقبال، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار ويظهر بهجة المعارف والأسرار فتحكم البصيرة بضرر الأغيار وحسن الأسرار فيقبل القلب على بهجة الأسرار ويدبر عن ظلمة الأغيار، وهذا هو نور السائرين.

الثالث: نور وارد الوصال، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الكون ورداء الصون

ويظهر نور تجليات المكوِّن فيقبل القلب على مشاهدة مولاه ويدبر عن الالتفات إلى ما سواه، وهذا هو نور الواصلين وهو نور المواجهة ونور ما قبله نور التوجه.

وإن شئت قلت: هو نور الإسلام والإيمان والإحسان، فنور الإسلام يكشف ظلمة الكفر والعصيان ويظهر نور الانقياد والإذعان فتحكم البصيرة بقبح الكفر والعصيان، وحسن نور الإسلام والإذعان، فيقبل القلب على طاعة ربه ويعرض عما يبعده من ربه.

ونور الإيمان يكشف ظلمات الشرك الخفي ويظهر بهجة الإخلاص والصدق الوفي، فتحكم البصيرة بقبح الشرك وضرره وحسن الإخلاص وخيره فيقبل القلب على توحيد ربه ويعرض عن الشرك وشره.

ونور الإحسان يكشف ظلمة السوى ويظهر نور وجود المولى فتحكم البصيرة بقبح ظلمة الأثر وحسن نور المؤثر فيقبل القلب على معرفة مولاه ويغيب بالكليّة عما سواه.

وإن شئت قلت: هذا النور هو نور الشريعة والطريقة والحقيقة، فنور الشريعة يكشف ظلمة البطالة والتقصير ويظهر نور المجاهدة والتشمير، فتحكم البصيرة بقبح البطالة وحسن المجاهدة، فيقبل القلب على مجاهدة الجوارح في طاعة مولاه ويدبر عن متابعة حظوظه وهواه.

ونور الطريقة يكشف ظلمة المساوىء والعيوب ويظهر بهجة الصفاء وما يثمره من علم الغيوب، فتحكم البصيرة بقبح العيوب وحسن الصفا وعلم الغيوب فيقبل القلب على ما يوجب التصفية ويدبر عما يمنعه من التخلية والتحلية.

ونور الحقيقة يكشف ظلمة الحجاب ويظهر له محاسن الأحباب.

أو تقول: نور الحقيقة يكشف له ظلمة الأكوان ويظهر نور الشهود والعيان فيقبل القلب على مشاهدة الأحباب داخل الحجاب ويدبر عما يقطعه عن الأدب مع الأحباب، جعلنا الله معهم على الدوام في هذه الدار وفي دار السلام آمين.

* * *

ولما كان أصل كل نور وسر وخير هو طاعة الله وأصل كل ظلمة وحجاب وبعد هو معصية الله، ومن علامة حياة القلب فرحه بالطاعة وحزنه على صدور المعصية نبّهك الشيخ على وجه الفرح بالطاعة التي هي سبب نور القلوب ومفاتيح الغيوب فقال:

56 - (لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

قلت: قد تقدم في الحديث: «**من سرّته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن**»(1) والناس في الفرح بالطاعة على ثلاثة أقسام:

قسم فرحوا بها لما يرجون عليها من النعيم ويدفعون بها من عذابه الأليم، فهم يرون صدورها من أنفسهم لأنفسهم لم يتبرؤوا فيها من حولهم وقوّتهم، وهم من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5].

وقسم فرحوا بها من حيث إنها عنوان الرضى والقبول وسبب في القرب والوصول، فهي هدايا من الملك الكريم ومطايا تحملهم إلى حضرة النعيم لا يرون لأنفسهم تركاً ولا فعلاً ولا قوّة ولا حولاً، يرون أنهم محمولون بالقدرة الأزلية مصرفون عن المشيئة الأصلية وهم من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5]. فأهل القسم الأول عبادتهم لله وأهل القسم الثاني عبادتهم بالله وبقدرة الله وبينهما فرق كبير.

وقسم ثالث فرحهم بالله دون شيء سواه، فانون عن أنفسهم باقون بربهم، فإن ظهرت منهم طاعة فالمنّة لله وإن ظهرت منهم معصية اعتذروا لله أدباً مع الله لا ينقص فرحهم إن ظهرت منهم زلّة ولا يزيد إن ظهرت منهم طاعة أو يقظة لأنهم بالله ولله من أهل لا حول ولا قوة إلا بالله وهم العارفون بالله.

فإن ظهرت منك أيها المريد طاعة أو إحسان فلا تفرح بها من حيث إنها برزت منك فتكون مشركاً بربك فإن الله تعالى غني عنك وعن طاعتك وغني عن أن يحتاج إلى من يطيعه سواه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العَنكبوت: الآية 6]. وقال ﷺ حاكياً عن ربّه عز وجل: «**يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً**»(2) الحديث. وافرح بها من حيث إنها هدية من الله إليك تدل على أنك من مظاهر كرمه وفضله وإحسانه، فالفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يُونس: الآية 58] ففضل الله هو هدايته وتوفيقه،

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم، حديث رقم (2577) [4/ 1994] والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة. . .، حديث رقم (7606) [4/ 269] ورواه غيرهما.

ورحمته هو اجتباؤه وتقريبه. وقيل: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن. وقيل: فضل الله هداية الدين ورحمته جنة النعيم. وقيل: فضل الله توحيد الدليل والبرهان ورحمته توحيد الشهود والعيان. وقيل غير ذلك والله تعالى أعلم.

* * *

ولما كان الفرح بالطاعة قد يتوهم أنه فرع رؤيتها والنظر إليها رَفَعَ ذلك بقوله:

57 ـ (قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم، أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها، وأما الواصلون فلأنه غيّبهم بشهوده عنها)

قلت: قطع هنا بمعنى غيّب، ولو عبّر به لكان أظهر وأسهل لما في التعبير بالقطع من الشؤومة وفي عبارته شيء من النقص، فلو قال: غيّب السائرين له عن رؤية أعمالهم وأحوالهم والواصلين إليه عن رؤية وجودهم. أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا فيها الصدق مع الله، وأما الواصلون فلأنهم لم يشهدوا مع الله سواه.

يعني أن الحق تعالى غيّب السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم الظاهرة وشهود أحوالهم الباطنة.

أما السائرون فلأنهم يتهمون أنفسهم على الدوام فمهما صدر منهم إحسان ولاح لهم يقظة أو وجدان رأوها في غاية الخلل والنقصان، فاستحيوا من الله أن يعتمدوا عليها أو يعتدوا بها، فغابوا عن أعمالهم وأحوالهم واعتمدوا على فضل ربهم، فالصدق هو لبّ الإخلاص وسرّه، أي لم يتحققوا بسر الإخلاص فيها فلم يروها ولم يركنوا إليها.

سئل بعض العارفين: ما علامة قبول العمل؟ قال: نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية بدلالة قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ **[فَاطِر: الآية 10]**.

وقال زين العابدين رضي الله عنه: كل شيء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك، فذلك دليل على أنه لم يقبل لأن المقبول مرفوع مغيّب عنك، وما انقطعت عنه رؤيتك فذاك دليل على القبول اهـ.

وأما الواصلون فلأنهم فانون عن أنفسهم غائبون في شهود معبودهم فحركاتهم وسكناتهم كلها بالله ومن الله وإلى الله إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه، فإن ظهرت عليهم طاعة أو صدر منهم إحسان شهدوا في ذلك الواحد المنان.

حكي عن الواسطي رحمه الله أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشيها، اهـ.

قال القشيري: أراد صيانتهم عن الإعجاب ودلالتهم على الآداب اهـ. فضمير قطع يعود إلى الحق سبحانه وتعالى والسائرين والواصلين مفعول به.

واعلم أن السائرين في كلام الشيخ هم القسم الثاني الذين فرحهم بالطاعة من حيث إنها عنوان القبول، ولا يلزم من الفرح بها رؤيتها إذ قد يفرح بها من حيث إنها منَّة من الله ويقطع رؤيته عنها من حيث اعتماده على الله، والواصلون هنا هم القسم الثالث الذي هم فرحهم بالله دون شيء سواه، والله تعالى أعلم.

هذا آخر الباب السادس وبه انتهى ربع الكتاب.

وحاصله: علاج القلوب وعلامة موتها ومرضها وصحتها واستمداد أنوارها واتصال وارداتها حتى تغيب عن شهود أعمالها وأحوالها وتفنى عن دائرة حسّها باتساع فضاء شهودها، وفي ذلك شرفها وعزّها وفي ضد ذلك وهو رؤية المخلوق والركون إليه ذلّها وهوانها.

* * *

[الباب السابع]

وبذلك افتتح الباب السابع فقال:

58 ـ (ما بسقت أغصان ذلّ إلاَّ على بذر طمع)

قلت: البسوق هو الطول، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: الآية 10] أي طويلات، والبذر الذريعة، والطمع تعلُّق القلب بما في أيدي الخلق وتشوُّف القلب إلى غير الربّ، وهو أصل شجرة الذلّ، فما بسقت أغصان شجرة الذلّ إلَّا على زريعة الطمع، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي: والله ما رأيت العزّ إلَّا في رفع الهمّة عن الخلق.

وإنما كان الطمع هو أصل الذلّ لأن صاحب الطمع ترك ربّاً عزيزاً وتعلّق بعبد حقير فاحتقر مثله، ترك ربّاً كريماً وتعلّق بعبد فقير فافتقر مثله، ترك رفع همّته إلى الغني الكريم وأسقط همّته إلى الدنيّ اللئيم إن الله يرزق العبد على قدر همّته. وأيضاً كان عبد الله حرّاً مما سواه صار عبداً للمخلوق وعبداً لنفسه وهواه لأنك مهما أحببت شيئاً وطمعت فيه إلَّا كنت عبداً له ومهما أيست من شيء ورفعت همّتك عنه إلَّا كنت حرّاً منه. وفي ذلك يقول الشاعر:

أبتِ المطامعُ أنْ تهشّمني ... إني لمعولها صفا صلد
العبدُ حرٌ ما عصَى طمعاً ... والحرُ مهما طاعَهُ عبدُ

قال في التنوير: وكن أيها العبد إبراهيمياً فقد قال أبوك إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية 76] وكل ما سوى الله آفل إما وجوداً وإما إمكاناً، وقد قال سبحانه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحَج: الآية 78] فواجب على المؤمن أن يتبع ملّة إبراهيم، ومن ملّة إبراهيم رفع الهمّة عن الخلق فإنه يوم زجّ به في المنجنيق تعرّض له جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة، فقال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، قال: فاسأله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

فانظر كيف رفع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه همّته عن الخلق ووجّهها إلى الملك الحق فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ومن سؤاله، فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله وأنعم عليه بنواله

وأفضاله وخصّه بوجود إقباله.

ومن ملّة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمّة بالود إلى الله لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 77] والغني إن أردت الدلالة عليه فهو في اليأس. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أيست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لها، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي. وهذا هو الكيمياء والإكسير الذي من حصل له حصل له غنى لا فاقة فيه وعز لا ذلّ معه وإنفاق لا نفاد له، وهو كيمياء أهل الفهم عن الله تعالى.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: صحبني إنسان وكان ثقيلاً عليَّ، فباسطته فانبسط وقلت: يا ولدي ما حاجتك ولم صحبتني؟ قال: يا سيدي قيل لي إنك تعلم الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك، فقلت له: صدقت وصدق من حدثك ولكن أخالك، أي أظنك، لا تقبل، فقال: بل أقبل، فقلت: نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين أعداء وأحباء، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكوني بشوكة لم يردني الله بها فقطعت نظري عنهم، ثم تعلّقت بالأحباء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعوني بشيء لم يردني الله به فقطعت يأسي منهم، وتعلّقت بالله فقيل لي: إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمنا لك في الأزل.

وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء، قال: أخرج الخلق من قلبك واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك وليس يدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده إنما يدل على نوره وفهمه غناه بربّه وانحياشه إليه بقلبه وتحرّزه من رقّ الطمع وتحلّيه بحلية الورع وبذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: الآية 7] فحسن الأعمال إنما هو الفهم عن الله والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه والدوام بين يديه وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله، وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه، وتطهّر من الطمع في الخلق فلو تطهّر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهّره إلّا اليأس منهم ورفع الهمّة عنهم.

وقدم علي رضي الله عنه البصرة، فدخل جامعاً، فوجد القصّاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصري فقال: يا فتى إني سائلك عن أمر فإن أجبت عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتاً وهدياً، فقال الحسن: سل عما شئت، فقال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساد الدين؟

قال: الطمع، قال: اجلس فمثلك يتكلم على الناس.

قال: وسمعت شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله عنه يقول: كنت في ابتداء أمري بالإسكندرية فجئت إلى بعض من يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهم فقلت في نفسي: لعله لا يأخذه مني، فهتف بي هاتف السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين، وسمعته يقول: صاحب الطمع لا يشبع أبداً ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة، الطاء والميم والعين، فعليك أيها المريد برفع همّتك عن الخلق ولا تذلّ لهم في شأن الرزق، فقد سبقت قسمته وجودك وتقدم ثبوته ظهورك، واسمع ما قال بعض المشايخ: أيها الرجل، ما قدِّر لماضغيك أن يمضغاه، فلا بد أن يمضغاه فكله ويحك بعزّ ولا تأكله بذلّ اهـ.

وقال أبو الحسن الوراق رحمه الله: من أشعر نفسه محبة شيء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ومن طمع في شيء ذلّ له وبذلّه هلك.

وقال أبو بكر الوراق: لو قيل للطمع: من أبوك، لقال: الشك في المقدور. فلو قيل له: ما حرفتك، لقال: اكتساب الذلّ. فلو قيل له: ما غايتك، لقال: الحرمان. اهـ. وفي معنى هذا أنشدوا:

اضرعْ إلى اللَّهِ لا تضرّعْ إلى الناسِ ... واقنعْ بعزٍّ فإنَّ العزَّ في الياسِ

واستغنِ عنْ كلِ ذي قربَى وذي رحِمٍ ... إنَّ الغنيَ من استغنَى عنِ الناسِ

* * *

ولما كان سبب وجود الطمع هو الوهم والجزع ذكره بإثره فقال:

59 ـ (ما قادك شيء مثل الوهم)

قلت: يقال: قاد الشيء يقوده جره إليه، وقدت البهيمة جررتها إليك. والوهم أول الخاطر وهو أضعف من الشك. والمراد هنا ما خالف اليقين فيصدق بالظن والشك.

يقول رضي الله عنه: ما جرك شيء وقادك إلى الطمع في الخلق والتملق لهم والتذلّل لما في أيديهم شيء مثل الوهم، يعني أنك لما توهمت أن بيدهم نفعاً أو ضراً أو عطاء أو منعاً طمعت فيهم وتذلّلت لهم واعتمدت عليهم وخفت منهم، ولو حصل لك اليقين أن أمرهم بيد الله وأنفسهم في قبضة الله عاجزين عن نفع أنفسهم فكيف يقدرون على نفع غيرهم، لقطعت يأسك منهم ولرفعت همّتك عنهم ولتعلّقت همّتك برب الأرباب ولنبذت الأصحاب والأحباب.

أو تقول: ما قادك شيء عن حضرة الشهود والعيان إلَّا توهمك وجود الأكوان، ولو انهتك عنك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولو أشرق نور الإيقان لغطى وجود الأكوان.

قال في التنوير: وإنما منع العباد من السبق إلى الله جواذب التعلُّق بغير الله، فكلما همّت قلوبهم أن ترحل إلى الله جذبها ذلك التعلُّق إلى ما به تعلّقت فكرت راجعة إليه ومقبلة عليه، فالحضرة محرمة على من هذا وصفه وممنوعة على من هذا نعته.

قال بعض العارفين: لا تظن أن تدخل الحضرة الإلٰهية وشيء من ورائك يجذبك وافهم هنا قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 88]. والقلب السليم هو الذي لا تعلق له بشيء دون الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعَام: الآية 94] يفهم منه أيضاً أنه لا يصح مجيئك إلى الله بالوصول إليه إلَّا إذا كنت فرداً مما سواه. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الضّحى: الآية 6] يفهم أنه لا يأويك إليه إلَّا إذا صح يتمك مما سواه، وقوله عليه السلام: «**إن الله وتر يحب الوتر**»[1] أي يحب القلب الذي لا يشفع بثنوية الآثار، كما قال. وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فإنه لا غير معه حتى أشهده معه اهـ.

فتحصّل أن الوهم حجب عن الله العوام والخواص، وأما خواص الخواص فلم يحجبهم عن الله شيء، أما العوام فقادهم إلى التعلُّق بالخلق ومنعهم عن السير إلى الملك الحق فاشتغلوا بمراقبة الأحباب وعداوة من عاداهم من الأصحاب ففاتهم محبة الحبيب ومراقبة الرقيب، وأما الخواص فقادهم الوهم إلى ثبوت الآثار والوقوف مع الأنوار، فقنعوا بذلك ولم يتشوّفوا إلى ما وراء ذلك، فالقناعة من الله حرمان وليس الخبر كالعيان.

وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: والله ما حجب الناس عن الله إلَّا الوهم، والوهم أمر عدمي لا حقيقة له اهـ. وأما خواص الخواص فلم يحجبهم عن الله شيء، قطعوا حجاب الوهم وحصل لهم من الله العلم والفهم فلم يتعلّقوا بشيء ولم يحجبهم عن الله شيء جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

* * *

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب في أسماء الله تعالى. . .، حديث رقم (2677) [4/ 2062] والحاكم في المستدرك، كتاب الوتر، حديث رقم (1118) [1/ 441] ورواه غيرهما.

ولما كان الوهم ينشأ عنه الطمع، والطمع ينشأ عنه الذلّ والعبودية، واليقين ينشأ عنه الورع، والورع ينشأ عنه العز والحرية، نبّه عليه بقوله:

60 ـ (أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع)

قلت: إنما كان الإنسان حراً مما أيس منه لأنه لما أيس من ذلك الشيء رفع همّته عنه وعلّقها بالملك الحق، فلما علّق همّته بالملك الحق سخّر الحق تعالى له سائر الخلق فكانت الأشياء كلها عبيداً له ومسخّرة لأمره.

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن، فإذا شهدت المكوِّن كانت الأكوان معك، فمن كان عبداً لله كان حراً مما سواه، وإنما كان الإنسان عبداً لما طمع فيه لأن الطمع في الشيء يقتضي المحبة له والخضوع والانقياد إليه، فيكون عند أمره ونهيه لأن حبك الشيء يعمي ويصم وهذه حقيقة العبودية. وفي هذا المعنى قيل: العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع، وما أقبح الإنسان الذي يريد سيده منه أن يكون ملكاً وهو يريد أن يكون مملوكاً، يريد سيده أن يجعله حرّاً وهو يريد أن يكون عبداً. خلق له سيده الكون بأسره خادماً له عند نهيه وأمره فجعل هو يخدم الكون بنفسه ويتعبّد لأقل شيء وأخسه.

يقول المصنف في التنوير في مناجاة الحق تعالى على ألسنة الهواتف: إنا أجللنا قدرك أيها العبد أن نشغلك بأمر نفسك فلا تضعن قدرك يا من رفعناه، ولا تذلّن بحوالتك على غيري يا من أعززناه، ويحك أنت أجلّ عندنا من أن تشتغل بغيرنا لحضرتي خلقتك وإليها طلبتك وبجواذب عنايتي لها جذبتك، فإن اشتغلت بنفسك حجبتك وإن اتبعت هواها طردتك وإن أخرجت عنها قربتك وإن توددت لي بإعراضك عما سواي أحببتك اهـ.

فتحصّل أن محبّة الأشياء والطمع فيها هو سبب الذلّ والهوان والتعبد لسائر الأكوان، وإن الإياس من الأشياء ورفع الهمّة عنها هو سبب العز والحرية والتيه على الأقران، ولله در القائل[1] حيث قال:

رأيتُ القناعةَ رأسَ الغنَى فصرتُ بأذيالهَا متمسك

---

(1) هذه الأبيات هي للإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة 204 هجرية وورد في موسوعة الشعر العربي إصدار المجمع الثقافي أبو ظبي باختلاف في البيتين الثاني والثالث على النحو التالي:

فلا ذا يراني على بابهِ ولا ذا يراني به مُنْهَمِك

فصرتُ غنيّاً بلا دِرْهَمِ أمرُّ على الناس شِبهَ المَلِك

فألبسني عزُّها حلَّةً يمرُّ الزمانُ ولا تنهتك
فصرتُ غنيّاً بلا درهمٍ أتيهُ على الناسِ تيهَ الملك

قلت: وهذا هو الغنى الأكبر والإكسير عند الأكياس، ويسمى في اصطلاح الصوفية: الورع، أعني الورع الخاص، وهو رفع الهمة عن السوي.

قال في لطائف المنن: واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلَّا قليل، فإن من جملة ورعهم تورّعهم أن يسكنوا لغيره أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره، ومن ورعهم ورعهم عن الخوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب، ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون إلى أنوار التجليّات. ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورعوا عن الدنيا وفاءً وعن الآخرة صفاء.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء: خرجت من بغداد أريد الموصل، فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت عليَّ بعزّها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت عليّ الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها، فلم أشتغل بها، فقيل لي: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنها، فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك.

قال الشيخ عبد الرحمٰن المغربي، وكان مقيماً بشرقي الإسكندرية: حججت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية فإذا النداء عليّ: أنك العام المقبل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت العام القابل ها هنا فلا أعود إلى الإسكندرية. فخطر عليّ الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن فأنا يوماً على ساحلها أمشي وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادة على البحر ومشى على الماء، فقلت في نفسي: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا عليّ يقال: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

وقال أبو الحسن: الورع نعم الطريق لمن عجّل ميراثه وأجّل ثوابه، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلَّا بالله ولله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عين الجمع لا يفترقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى.

وأما أدنى الأدنى فالله يورعهم عنه ثواباً لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى وميراثه التعزُّز لخلقه والاستكبار على مثله، والدلالة على الله بعلمه فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك. والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه. ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقاراً لربه واحتقاراً لنفسه وتواضعاً لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدهم. فاستعذ بالله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: الآية 1] اهـ.

فانظر، فهّمك الله سبيل أوليائه ومنَّ عليك بمتابعة أحبائه، هذا الورع الذي ذكره هذا الشيخ رضي الله عنه، هل كان فهمك يصل إلى هذا النوع من الورع، ألا ترى قوله: قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البيِّنة الواضحة والبصيرة الفائقة، فهذا هو ورع الأبدال والصدِّيقين لا ورع المتنطعين الذي ينشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم. اهـ.

قلت: هذا الورع الذي ذكره الشيخ هو ورع الخواص أو خواص الخواص وهو الذي يقابل الطمع كما تقدم في قول الحسن البصري: صلاح الدين الورع وفساد الدين الطمع. لا ورع العوام الذي هو ترك المتشابه والحرام فإنه لا يقابل الطمع كل المقابلة. **وحاصله** صحة اليقين وكمال التعلُّق برب العالمين ووجود السكون إليه وعكوف الهم عليه وطمأنينة القلب به حتى لا يكون له ركون إلى شيء من السوى، فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع المفسد وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: الورع على وجهين: ورع في الظاهر، وهو ألا تتحرَّك إلَّا لله. وورع في الباطن، وهو أن لا يدخل قلبك إلَّا الله.

ذكر أن بعضهم كان حريصاً على أن يرى أحداً ممن هذا صفته، فجعل يجتهد في طلبه ويحتال على التوصل إليه بأن يأخذ الشيء بعد الشيء من ماله ويقصد به الفقراء والمساكين ويقول لمن يعطيه: خذ لا لك، فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جواباً مطابقاً لما أراده، إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته، وذلك أنه قال لأحدهم: خذ لا لك، فقال له: آخذه لا منك.

فإن كان للعبد استشراف إلى الخلق أو سبقية نظر إليهم قبل مجيء الرزق أو بعده، فمقتضى هذا الورع والواجب في حق الأدب ألا ينيل نفسه شيئاً مما يأتيه على هذا الحال عقوبة لنفسه في نظره إلى أبناء جنسه، كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن

حنبل رضي الله عنهما، وهي معروفة، وكما روي عن الشيخ أبي مدين رضي الله عنه أنه أتاه حمّال بقمح فنازعته نفسه وقالت: يا ترى من أين هذا؟ فقال: أنا أعرف من أين هو يا عدوة الله. وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لها لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى. وقد قيل: إن أحل الحلال ما لم يخطر على بال ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال.

قال الشيخ عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: الورع ألا تتحرك ولا تسكن إلّا وترى الله في الحركة والسكون، فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقي مع الله. فالحركة ظرف لما فيها. كما قال: ما رأيت شيئاً إلّا رأيت الله فيه، فإذا رأيت الله ذهبت.

وقال أيضاً: أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط، وهذا مقام التوكل، ولهذا قال بعضهم: الحلال هو الذي لا ينسى الله فيه اهـ. على نقل ابن عباد رضي الله عنه.

* * *

وإذا أراد الله تعالى أن يعزّ عبده ويرفعه إلى هذا المقام قطع عنه زمام الوهم والجزع وحرّره من رقّ الطمع فقاده إليه بملاطفة الإحسان أو بسلاسل الامتحان كما أشار إلى ذلك بقوله:

61 ـ (من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان)

قلت: قد قسَّم الله تعالى عباده ثلاثة أقسام: أهل الشمال، وأهل اليمين، والسابقون.

أما أهل الشمال فلا كلام عليهم إذ لا إقبال لهم على الله أصلاً.

وأما أهل اليمين فلهم إقبال بوجه ما لكن لا خصوصية لهم لأنهم قنعوا بظاهر الشريعة ولم يلتفتوا إلى سلوك طريقة ولا حقيقة، وقفوا مع الدليل والبرهان ولم ينهضوا إلى مقام الشهود والعيان، ولا كلام معهم أيضاً.

وأما السابقون فقد أقبلوا على الله متوجهين إليه طالبين الوصول إلى معرفته وهم في ذلك على قسمين: **قسم** أقبل على الله بملاطفة إحسانه وقياماً بشكر إنعامه وامتنانه وهم أهل مقام الشكر. **وقسم** أقبل على الله بسلاسل الامتحان وضروب البلايا والمحن وهم أهل مقام الصبر.

أهل المقام الأول، أقبلوا على الله طوعاً، وأهل المقام الثاني أقبلوا على الله

كرهاً. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرّعد: الآية 15].

قال أبو مدين رضي الله عنه: سنَّة الله استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون، لأن مراده عزّ وجل رجوع العباد إليه طوعاً وكرهاً. اهـ.

فقوم بسط الله عليهم النِّعم وصرف عنهم البلايا والنقم ورزقهم الصحة وأمدهم بالأموال والعافية فأدُّوا حقها وقاموا بشكرها وتشوّقوا إلى معرفة المنعم بها فكانت مطية لهم على السير إليه ومعونة لهم على القدوم عليه، أخرجوها من قلوبهم وجعلوها في أيديهم وقليل ما هم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية 13]. وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «**نعمت الدنيا مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر**»[1] أو كما قال عليه السلام: قال بعض أصحابنا: جعل عليه السلام الدنيا مطية للمؤمن حاملة له، ولم يجعل المؤمن مطية لها حتى يتكلف حملها، فهذا يدل على أنها في يده يستعين بها على السير إلى ربه لا أنها في قلبه حتى يرتكب المشقة في طلبها، والله تعالى أعلم.

وقوم أمدّهم الله بالنعم وبسط لهم في المال والعافية وصرف عنهم النقم فشغلهم ذلك عن النهوض إليه ومنعهم من المسير إلى حضرته، فسلب ذلك عنهم وضرّ بهم بالبلايا والمحن فأقبلوا على الله بسلاسل الامتحان، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، وقد مدح الله الغني الشاكر والفقير الصابر بمدح واحد فقال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: الآية 30] ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 30] وقال في حق أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: الآية 44]، ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 30].

وقال بعضهم: لأن أعطى فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر. وكان الشيخ أبو العباس المرسي يرجح الغني الشاكر على الفقير الصابر. وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله الترمذي الحكيم، ويقول: الشكر صفة أهل الجنة والفقر ليس كذلك، قاله في لطائف المنن.

والتحقيق أن الفقير الصابر هو الغني الشاكر وبالعكس، لأن الغني إنما هو بالله

(1) ونصه كما رواه الشاشي في مسنده، باب بسم الله الرحمٰن الرحيم ربِّ يسر وأعن...، حديث رقم (383) [1/ 387]: عن مسروق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدنيا فنعم مطية الرجل عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر».

فإذا استغنى القلب بالله فصاحبه هو الغني الشاكر ولا عبرة بما في اليد فقد تكون اليد معمورة والقلب فقير، وقد يكون القلب غنياً بالله واليد فقيرة، وقد تكون اليد معمورة والقلب مع الله غنياً به عما سواه.

قال بعض المشايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدّق ببعضه ويتقوّت ببعضه. فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب، فقال له هذا الزاهد: إذا دخلت على بلدة كذا فاذهب إلى أخي فلان فاقرئه مني السلام واطلب منه الدعاء فإنه ولي من أولياء الله تعالى. قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لا تصلح إلّا للملوك، فتعجبت من ذلك وطلبته، قيل لي: هو عند السلطان. فازداد تعجبي، فبعد ساعة وإذا هو قد أتى في أفخر مركب وملبس وكأنما هو ملك في مركبه، قال: فازداد تعجبي أكثر من الأولين فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنني مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لي فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة، فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك، قال لي: جئت من عنده، قلت: نعم، قال: إذا رجعت إليه فقل له إلى كم اشتغالك بالدنيا وإلى كم إقبالك عليها وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها. فقلت: والله هذا أعجب من الأولى. فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان، قلت: نعم، قال: فما الذي قال لك، قلت: لا شيء، قال: لا بد أن تقول لي. فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلاً وقال: صدق أخي فلان هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره وأنا أخذها من يدي ولي إليها بقايا التطلع. اهـ من لطائف المنن للمؤلف رحمه الله ورضي عنه. فأحوال الأولياء لا تنضبط بفقر ولا غنى لأن الولاية أمر قلبي لا يعلمها إلّا من خصّهم بها، وبالله التوفيق.

* * *

ومن أقبل على الله بملاطفة إحسانه وجب عليه شكر ما أسدى إليه من لطائف كرمه وامتنانه وإلا زالت عنه بسبب كفره وعصيانه، وإلى ذلك أشار بقوله:

62 ـ (من لم يشكر النِّعم فقد تعرّض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها)

قلت: اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى، وإن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقالوا أيضاً: من أعطى ولم يشكر سلب منها ولم يشعر، فمن شكر النعمة فقد قيّدها بعقالها ومن كفّرها فقد تعرض لزوالها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: الآية 11] أي إن الله لا يغيّر ما بقوم من النعم حتى يغيّروا ما بأنفسهم من الشكر، وتغييرهم الشكر هو اشتغالهم بالمعاصي والكفر ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: الشكر أن لا يعصى الله بنعمه. وقيل: الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر وتنكف عن الزواجر.

وقال في لطائف المنن: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان. **فشكر اللسان** التحدث بنعم الله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: الآية 11]، **وشكر الأركان** العمل بالطاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَإ: الآية 13]، **وشكر الجنان** بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النّحل: الآية 53]. ومن القسم الأول قول النبي ﷺ: «**التحدُّث بالنِّعم شكر**»[1]، ومن الثاني أنه ﷺ قام حتى تورمت قدماه فقيل له: أتتكلف كل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[2] اهـ.

وسئل أبو حازم رضي الله عنه: ما شكر العينين، قال: إذا رأيت بهما خيراً أعلنته وإذا رأيت بهما شرّاً سترته. قال: فما شكر الأذنين، قال: إذا سمعت بهما خيراً وعيته وإذا سمعت بهما شرّاً دفنته. قال: فما شكر اليدين، قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حقاً هو لله فيهما. قال: فما شكر البطن، قال: أن يكون أسفله صبراً وأعلاه علماً. قال: فما شكر الفرج، قال: كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: الآية 5] إلى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون: الآية 6]. قال: فما شكر الرجلين، قال: إن رأيت شيئاً غبطته استعملتهما وإن رأيت شيئاً مقته كففتهما اهـ.

واعلم أن الناس في الشكر على ثلاث درجات: عوام وخواص وخواص الخواص. فشكر العوام على النعم فقط، وشكر الخواص على النعم والنقم، وشكر

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، باب التحدث بالنعم، حديث رقم (44) [1/ 61] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (2437) [2/ 77] وتتمته حسب رواية الديلمي: «وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير».

(2) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب قيام النبي ﷺ. . .، حديث رقم (1078) [1\380] ومسلم في صحيحه، باب إكثار الأعمال. . .، حديث رقم (2819 - 2820) [2171 2172] ورواه غيرهما.

خواص الخواص الغيبة في المنعم عن شهود النعم والنقم.

والنعم التي يقع الشكر عليها ثلاثة أقسام: دنيوية كالصحة والعافية والمال الحلال، ودينية كالعلم والعمل والتقوى والمعرفة، وأخروية كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل.

وأجل النعم الدينية التي يتأكد الشكر عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة وشكرها هو اعتقاد أنها منّة من الله تعالى بلا واسطة ولا حول ولا قوّة، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحُجرَات: الآية 7]، ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحُجرَات: الآية 8].

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه بعد كلام: فلو قلب قلوبنا في الشك والضلال كما يقلّب نيّاتنا في الأعمال أي شيء كنا نصنع وعلى أي شيء نعول وبأي شيء كنا نطمئن ونرجو، فهذا من كبائر النعم ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة، وادعاء الإيمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوّة وحول هو كفر نعمة الإيمان، وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان لأنه بدل شكر نعمة الإيمان كفراً اهـ.

* * *

فإن غفل العبد عن شكر هذه النعم ثم دامت صورتها عنده فلا يغتر فقد يكون ذلك استدراجاً كما أشار إلى ذلك بقوله:

63 ـ (خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية 182])

الاستدراج هو كمون المحنة في عين المنة وهو مأخوذ من درج الصبي أي أخذ في المشي شيئاً بعد شيء، ومنه الدرج الذي يرتقي عليه إلى العلو، كذلك المستدرج هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئاً بعد شيء، وهو لا يشعر. قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية 182] أي نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لا يشعرون. قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

فخف أيها المريد من دوام إحسان الحق إليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق ودوام الإمداد الحسيّة أو المعنوية مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير وعدم شكرك للملك الكبير أن يكون ذلك استدراجاً منه تعالى، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية 182].

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا. وقال ابن عطاء رضي الله عنه: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ونسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. ثم قال الحق تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية 178] أي نمدهم بالعوافي والنعم حتى نأخذهم بغتة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعَام: الآية 44] أي فلما غفلوا عما ذكروا به من العقوبة والعذاب فتحنا عليهم أبواب النعم وبسطنا عليهم الأرزاق الحسيّة حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعم وتمكنوا منها أخذناهم بالهلاك بغتة، أي فجأة، فإذا هم مبلسون آيسون من كل خير، وهكذا عادة الله في خلقه أن يرسل إليهم من يذكرهم بالله ويدلهم على الله، فإذا أعرضوا عنه وردوا عليه قوله، بسط عليهم النعم الحسيّة، حتى إذا اطمأنوا وفرحوا بها دمرهم الله وأخذهم بغتة ليكون ذلك أشد في العقوبة. قال الشاعر:

وأعظم شيء حين يفجؤك البغت

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية 178] فالواجب على الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة حسية أو معنوية أن يعرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقاً واعتقاداً وعملاً، فالنطق الحمد، والشكر باللسان، والاعتقاد شهود المنعم في النعمة وإسنادها إليه، والغيبة عن الواسطة بالقلب مع شكرها باللسان، من لم يشكر الناس لم يشكر الله، أشكركم للناس أشكركم لله. فإذا قال له: جزاك الله خيراً، فقد أدى شكرها، والشكر بالعمل صرفها في طاعة الله كما تقدم، فإن لم يقم بهذا الواجب خيف عليه السلب والاستدراج وهو أقبح.

* * *

والحاصل: أن الشكر هو الأدب مع المنعم ومن جاءت على يديه فإن أساء الأدب أدب وقد يؤدب في الباطن وهو لا يشعر، كما أشار إلى ذلك بقوله:

64 ـ (من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه، فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب البعاد فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلاَّ منع المزيد وقد تقام مقام البعد وأنت لا تدري ولو لم يكن إلاَّ أن يخليك وما تريد)

قلت: من الأمور المؤكدة على المريد الصادق أن يرعى الأدب مع الله في كل

شيء ويلتزم التعظيم لكل شيء ويحفظ الحرمة في كل شيء، فإن أخلّ بشيء من هذه الأمور وأساء الأدب مع ربه فليبادر بالتوبة والاعتذار مع الذلّة والانكسار، فإن أخر التوبة إلى وقت آخر انقطعت عنه الأمداد واستوجب الطرد والبعاد، وقد لا يشعر بذلك في الحين فيحتج لنفسه ويقول: لو كان هذا سوء أدب لانقطع عني المدد وهذا منه جهل قبيح يفضي إلى العطب إن لم تدركه العناية من رب الأرباب، وإنما كان هذا جهلاً من المريد لانتصاره لنفسه وقت سوء أدبه وعدم شعوره بنقصان قلبه إذ لو كان عالماً بمخادع النفس لاتهمها وما انتصر لها ولو كان عارفاً بربّه لشعر بنقصان قلبه فقد جمع بين جهالة وجهل، فالجهالة هي سوء الأدب الذي صدر منه والجهل هو مخاصمته عن نفسه وإنكاره أن يكون ما صدر منه سوء أدب وما احتج به من كونه لم يحس بالعقوبة ولو كان ذلك سوء أدب لأحس بقطع الإمداد ولأوجب الطرد والبعاد، لا ينهض فقد يقطع عنه المدد وهو لا يشعر. ومثال ذلك الأشجار التي على الماء فإذا قطع عنها الماء لا يظهر أثر العطش إلَّا بعد حين، فإذا طال الأمر يبست شيئاً فشيئاً.

كذلك قلب المريد قد لا يحس بقطع المدد في القرب حتى يغرق في الوهم ويحترق بالحس، فإن كانت له سابقة خير تاب وأصلح ما أفسد فيرجع إليه المدد، وإن لم تكن له سابقة رجع إلى وطنه وأقام في بعده، نسأل الله السلامة من سلب نعمته بعد عطائه.

ولو لم يكن من العقوبة إلَّا منع المزيد من السير والترقي لكان كافياً لأن من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو في الخسران، وقوله: في الاحتجاج أيضاً لو كان هذا سوء أدب لأوجب البعاد، فقد يقام مقام البعد وهو يظن أنه في محل القرب لأن مراتب القرب والبعد لا نهاية لها، وما من مقام في القرب إلَّا وما بعده أعظم منه حتى يكون ذلك القرب بالنسبة إلى ما بعده بعداً، ولو لم يكن ذلك البعد إلَّا أن يتركك مع ما تريد لكان كافياً في الطرد والبعد، إذ ترك العبد مع هواه وشهواته من علامة الإهمال وإخراج العبد عن هواه وما تركن إليه نفسه من علامة الاعتناء والإقبال فإذا اعتنى الله تعالى بعبد وأراد أن يوصله إلى حضرته شوّش عليه كل ما تركن إليه نفسه وأزعجه طوعاً أو كرهاً حتى يؤيسه من هذا العالم ولم يبق له ركون إلى شيء منه فحينئذ يصطفيه لحضرته ويجتبيه لمحبته فليس له حينئذ عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار.

وأصل ذلك قضية سيدنا موسى عليه السلام لما علم الله تعالى محبته لعصاه وركونه إليها قال له الحق تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: الآيتان 17، 18] أي حوائج أخر، قال له: ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، فلما فرّ عنها وقطع يأسه منها قال له: خذها ولا تخف لأنها لا تضرك حيث رجعت إليها بالله.

ويقال للفقير: وما تلك بيمينك أيها الفقير، فيقول: هي دنياي أعتمد عليها وأقضي بها مآربي، فيقال له: ألقها من يدك، فإذا هي حية تسعى كانت تلدغه وهو لا يشعر فإذا أيس منها واستأنس بالله واطمأن به قيل له: خذها ولا تخف لأنك تأخذها بالله لا بنفسك والله تعالى أعلم.

ومواطن الآداب التي يخل بها المريد فيعاقب عليها ثلاثة: آداب مع الله ورسوله، وآداب مع الشيخ، وآداب مع الإخوان.

فأما الآداب مع الله باعتبار العوام فبامتثال أمره واجتناب نهيه. ومع رسوله باتباع السنّة ومجانبة البدعة فإذا قصروا في الأمر أو خالفوا في النهي عوقبوا عاجلاً في الحس أو آجلاً في المعنى والحس.

وباعتبار الخواص مع الله بالإكثار من ذكره ومراقبة حضوره وإيثار محبته. زاد الشيخ زروق: وحفظ الحدود والوفاء بالعهود والتعلق بالملك الودود والرضى بالموجود وبذل الطاقة والمجهود اهـ.

ومع رسوله ﷺ بإيثار محبته والاهتداء بهديه والتخلُّق بأخلاقه، فإذا قصروا في ذكره أو جالت قلوبهم في غير حضرته أو مالت محبتهم إلى شيء سواه أو قصّروا في شيء مما تقدم أو حلوا عقدة عقدوها مع الله عوقبوا في الحس بالضرب أو السجن أو الإذاية باللسان أو في المعنى وهو أشد كقطع المدد وإيجاب الطرد والإقامة مقام البعد.

وباعتبار خواص الخواص وهم الواصلون يكون مع الله بالتواضع معه في كل شيء والتعظيم لكل شيء، ودوام معرفته في تجليات الجلال والجمال، أو مع اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار. ومع رسوله ﷺ بالتحقق بحسبه وتعظيم أمته وشهود نوره، كما قال أبو العباس المرسي: لي ثلاثون سنة ما غاب عني رسول الله ﷺ طرفة عين، ولو غاب عني ما أعددت نفسي من المسلمين. فإذا قصر العارف فيما تقدم في حقه أو في حق غيره من الآداب عوقب في الحس أو في المعنى، والغالب تيقظه في الحين فيستدرك ما فات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: الآية 201] فهذه جملة الآداب التي تكون مع الله من العوام والخواص وخواص الخواص.

أو تقول: من الطالبين والسائرين والواصلين، والله تعالى أعلم.

وأما الآداب التي تكون مع الشيخ فمرجعها إلى ثمانية أمور، أربعة ظاهرة وأربعة باطنة.

فأما الظاهرة، فأولها: امتثال أمره وإن ظهر له خلافه، واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه، فخطأ الشيخ أحسن من صواب المريد.

وثانيها: السكينة والوقار في الجلوس بين يديه، فلا يضحك بين يديه ولا يرفع صوته عليه، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام أو يفهم عنه بقرائن الأحوال كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين، ولا يأكل معه ولا بين يديه ولا ينام معه أو قريباً منه. قال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه في كتابه: ومن آداب المريد مع الشيخ أن لا يأكل معه ولا ينام معه ولا يضحك بين يديه ولا ينام في فراشه ولا يجلس في موضع جلوسه ولا يتكلم في مجلس الشيخ ولو كلمة واحدة، والكلام فيه سوء الأدب أكثر من كل شيء، وكل ما يشبه هذه الأوصاف يؤدي لعدم التعظيم والازدراء بجانب الشيخ، وذلك هو الخسران المبين والعياذ بالله من السلب بعد العطاء والطرد بعد الإقبال.

قالوا: اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً. وقال الشاعر:

أدبُ العبدِ تذلُّلُ والعبدُ لا يدعُ الأدب
فإذا تكاملَ ذلُّهُ نالَ المودةَ واقترب

وثالثها: المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله، فخدمة الرجال سبب الوصال لمولى الموالي. وقال سيدي عبد الله الهبطي الزجلي رضي الله عنه في منظومة له في السلوك:

إن الخديمَ ظنّهُ جميلُ دلَّ على فلاحِهِ دليل
أهَّلَ نفسهُ لخدمةِ الرجالِ لكي ينالَ من حبيبهِ الوصال
ذلُّ المحبِ في طلبِ القربِ عزُّ عزيزٍ عندَ أهلِ الحب
أتى بيوتَ القربِ من أبوابهَا ففتحتْ لهُ إذاً بأسرهَا
طوبى لهُ بشرَى لهُ استفادَ ونالَ خيرَ قربةٍ وساد

ثم قال:

مقامكَ اعرفْ أيها الخديمُ فإنهُ مفخمٌ عظيم

أمسيتَ للمخدومِ في جوارِهِ مشاركاً كذاك في أسرارِهِ
لا تغتبطْ سوَى مقامِكَ الرفيعِ فالخيرُ كلُّهُ لديكَ مجتمع

ورابعها: دوام حضور مجلسه، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه إذ بقدر تكرير الوصول إليه يقرب الوصول، فمدد الشيخ جار كالساقية أو القادوس فإذا غفل عن الساقية أو القادوس تخرم وانقطع الماء إلى غيره، وأيضاً تكرير الوصول يدل على شدّة المحبة وبقدر المحبة تكون الشربة. وفي هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

لا محبةَ إلَّا بأصول ولا وصولَ إلَّا غالي
ولا شرابَ إلَّا مختوم ولا مقامَ إلَّا عالي

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه في كتابه: **اعلم** أنه لا يقرب طالب الوصول إلى الله تعالى شيء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده. ثم قال: الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين، والجلوس مع العامي الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل، كما أن العارف بالله يجمع بين المريد ومولاه بنظرة أو بكلمة كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها يرحم الله سيدي المجذوب حيث يقول:

الجلسةُ معَ غيرِ الأخيارِ تردُّلْ ولو تكونُ صافي

اهـ المراد منه.

وأما الآداب الباطنية فأولها: اعتقاد كماله وأنه أهل للشيخوخة والتربية لجمعه بين شريعة وحقيقة وبين جذب وسلوك وأنه على قدم النبي ﷺ.

وثانيها: تعظيمه وحفظ حرمته غائباً وحاضراً، وتربية محبته في قلبه، وهو دليل صدقه وبقدر التصديق يكون التحقيق، فمن لا صدق له لا سير له ولو بقي مع الشيخ ألف سنة، ويرحم الله سيدي محمد الشرقي حيث قال: من لا صدق ما عند باش ينفق، من لا حقق ما جاب ايمارا يا بابا.

وثالثها: انعزاله عن عقله ورياسته وعلمه وعمله إلَّا ما يرد عليه من قبل شيخه، كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلي رضي الله عنه عند ملاقاته بشيخه، فهي سنّة في طريقه فكل من أتى شيخه في هذه الطريقة الشاذلية فلا بد أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن يصل إلى شيخه لينال الشراب الصافي من بحر مدده الوافي.

ورابعها: عدم الانتقال عنه إلى غيره، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح وأشنع كل شنيع وهو سبب تسويس بذرة الإرادة فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها، وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم. وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم ولا يحتاج إلى إذن، والله تعالى أعلم.

وأما الآداب مع الإخوان فأربعة، أولها: حفظ حرمتهم غائبين أو حاضرين، فلا يغتاب أحداً ولا ينقص أحداً فلا يقول: أصحاب سيدي فلان كمال وأصحاب سيدي فلان نقص أو فلان عارف أو فلان ليس بعارف أو فلان ضعيف وفلان قوي أو غير ذلك، فهذه عين الغيبة وهي حرام بالإجماع لا سيما في حق الأولياء فإن لحومهم سموم قاتلة كلحوم العلماء والصالحين فليحذر المريد جهده من هذه الخصلة الذميمة وليفر ممن هذا طبعه فراره من الأسد. فمن أولع بهذا فلا يفلح أبداً فالأولياء كالأنبياء فمن فرّق بينهم حُرم خيرهم وكفر نعمتهم. وقد قال بعض الصوفية: من كسره الفقراء لا يجبره الشيخ ومن كسره الشيخ فقد يجبره الفقراء، وهو صحيح مجرب لأن إذاية وليّ واحد ليس كإذاية أولياء كثيرة، ومن كسره الشيخ يشفع فيه الإخوان فيجبر قلب الشيخ بخلاف قلوب الفقراء إذا تغيرت قلّ أن تتفق على الجبر، والله تعالى أعلم.

وثانيها: نصيحتهم بتعليم جاهلهم وإرشاد ضالهم وتقوية ضعيفهم ولو بالسفر إليه، فإن فيهم أهل بدايات ونهايات والقوى والضعيف، فكل واحد يذكره بما يليق بمقامه، خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون، كما في الحديث.

وثالثها: التواضع لهم والاستنصاف من نفسك معهم وخدمتهم بقدر الإمكان. فخديم القوم سيدهم، فمن عرض له شغل لا ينفك عنه فالواجب إعانته ليتفرغ منه إلى ذكر الله إن كان خفيفاً، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المَائدة: الآية 2] فكل ما يشغل قلب الفقير فدفعه جهاد وبر.

ورابعها: شهود الصفا فيهم واعتقاد كمالهم فلا ينقص أحداً ولو رأى منه ما يوجب النقص في الظاهر فالمؤمن يلتمس المعاذر فليلتمس له سبعين عذراً فإن لم يزل عنه موجب نقصه فليشهده في نفسه، فالمؤمن مرآة أخيه ما كان في الناظر يظهر فيه، فأهل الصفا لا يشهدون إلَّا الصفا وأهل التخليط لا يشهدون إلَّا التخليط، وأهل الكمال لا يشهدون إلَّا الكمال، وأهل النقص لا يشهدون إلَّا النقص. وتقدم في الحديث عنه ﷺ: **«خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله وحسن**

الظن بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله»[1] وبالله التوفيق.

فهذه من جملة الآداب التي يجب على الفقير مراعاتها والتحفظ عليها سواء كان طالباً أو سائراً أو واصلاً، وقد تقدمت في أول الباب الأول ثمانية آداب بعضها في حق العارف وبعضها في حق السائر فليراجعها وليعمل بمقتضاها فإن الطريق كلها آداب، حتى قال بعضهم: اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً. وقال أبو حفص رضي الله عنه: التصوُّف كله آداب، لكل وقت آداب، ولكل حال آداب، ولكل مقام آداب، فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب مردود من حيث يظن القبول. وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً فما أساء أحد الأدب ظاهراً إلَّا عوقب في الظاهر، وما أساء أحد الأدب باطناً إلَّا عوقب في الباطن. وقال[2] في المباحث الأصلية:

والأدبُ الظاهرُ للعيانِ ... دلالةُ الباطنِ في الإنسانِ

وهو أيضاً للفقيرِ سندُ ... وللغني زينةٌ وسوددُ

وقيلَ من يحرمُ الأدبَ ... فهو بعيد ما تدانَى واقترب

وقيلَ منْ تحسبهُ الأنسابُ ... فإنمَا تطلقهُ الآدابُ

فالقومُ بالآدابِ حقاً سادوا ... منهُ استفادَ القومُ ما استفادوا

وقال أبو حفص السراج رحمه الله: والناس في الآداب على ثلاثة طبقات: أهل الدنيا وأهل الدين وأهل الخصوصية من أهل الدين.

فأما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في البلاغة وأخبار الملوك وأشعار العرب.

وأما أهل الدين فأكثر آدابهم حفظ العلوم ورياضة النفوس وتأديب الجوارح وتهذيب الطباع وحفظ الحدود وترك الشهوات واجتناب الشبهات والمسارعة إلى الخيرات.

وأما أهل الخصوصية من أهل الدين فآدابهم حفظ القلوب ومراعاة الأسرار

---

(1) لم أجده بهذا النص والذي ورد هو: «... حسن الظن بالله من حسن العبادة...» رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التوبة...، حديث رقم (7657) [4/ 285] وروى الطبراني في مسند الشاميين عن ابن الديلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل العبادة حسن الظن بالله، يقول الله عزَّ وجل: أنا عند حسن ظنك بي» حديث رقم (524) [1/ 300].

(2) أي الشيخ أحمد التجيبي المعروف بابن البنا السرقسطي، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه.

واستواء السر والعلانية، فالمريدون يتفاضلون بالعلم، والمتوسطون بالآداب، والعارفون بالهمم اهـ.

ثم ما ذكره الشيخ من لزوم الجهل للمريد مقيد بما ذكره من احتجاجه لنفسه ومدافعته عنها لأنه في هذه الحالة صاحب جدل لتركيبه المقدمة والنتيجة. وعليه يفهم قولهم: ما ألهم قوم الجدل إلَّا حرموا العمل. وأما لو اعترف بإساءته وأنصف من نفسه لم يكن ذلك في حقه جهلاً ولا جهالة. وقد قالوا: عدم الأدب إن كان يجر إلى الأدب فهو أدب، والله تعالى أعلم.

* * *

ومن جملة الآداب ألا يستحقر مقاماً أقام الحق تعالى فيه عبداً من عباده كائناً ما كان، كما أشار إليه بقوله:

65 ـ (إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد، وأدامه عليها مع طول الإمداد، فلا تستحقرن ما منحه مولاه، لأنك لم تر عليه سيما العارفين، ولا بهجة المحبين، فلولا وارد ما كان ورد)

قلت: ما ذكره الشيخ هنا من مؤكدات هذا الباب كلها في الآداب وهو أن لا يستحقر شيئاً من تجليات الحق على أي حال كانت، فلا ينبغي أن ينازع مقتدر ولا أن يضاد قهار، ولا أن يعترض على حكيم، فإذا رأيت عبداً أقامه الحق تعالى بوجود الأوراد ككثرة صلاة وصيام وذكر وتلاوة واجتهاد وأدامه عليها مع طول الإمداد ـ بكسر الهمزة ـ أي استمراره معه وهو تقويته في الباطن وصرف الشواغل والشواغب في الظاهر، لكنه لم يفتح عليه في علم الأذواق وعمل القلوب، فلا تستحقرن حاله وما منحه مولاه، لأجل أنك لم تر عليه سيما العارفين من السكينة والطمأنينة وراحة الجوارح والقلب، بسبب هبوب نسيم الرضى والتسليم على أرواحهم.

وقال الشيخ زروق: سيما العارفين ثلاث: أولها الإعراض عما سوى معروفهم بكل حال وعلى كل وجه. الثاني: الإقبال عليه بترك الحظوظ وإقامة الحقوق. الثالث: الرضى عنه في مجاري أقداره اهـ. ولا تستحقر حاله أيضاً لأجل أنك لم تر عليه بهجة المحبين وهي الفرح بمحبوبه والإكثار من ذكره والقيام بشكره والاغتباط بمحبته والمسارعة إلى محابه وطلب مرضاته والخضوع لعظمته والتذلل لقهره وعزّته.

تذلّل لمن تهوَى فليسَ الهوَى سهلُ — إذا رضيَ المحبوبُ صحَّ لكَ الوصلُ

تذلّل له تحظَى برؤيا جمالِهِ — ففي وجهِ مَنْ تهوَى الفرائضُ والنَّفْلُ

فكيف تستحقر من دامت خدمته واتصلت أوراده، فلولا وجود الوارد الإلٰهي في باطنه ما قدر على إدامة أوراده، فلولا وارد ما كان ورد، فالوارد ما منه إليك والورد ما منك إليه، فلولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: الآية 83] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: الآية 54]، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: الآية 118] فالعناية سابقة والهداية لاحقة والأمر كله بيده. وفي التحقيق: ما ثم إلَّا سابقة التوفيق ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أَكْرِم المؤمنين وإن كانوا عصاة فاسقين وأقم عليهم الحدود واهجرهم رحمة بهم لا تقذراً لهم. وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: فالمنتسب لجانب الحق يتعين إكرامه مراعاة لنسبته، ثم إن كان كاذباً فالأمر بينه وبين من انتسب إليه، فإن أمرنا بإقامة حقه عليه بحيث يتعين عليه كنا معه كعبد السيد يضرب ولد سيده بإذنه يؤدبه ولا يحتقره. ولأبي الحسن الحراني رحمه الله:

إرحم بَنِيَّ جميعَ الخلقِ كلّهمُ وانظرْ إليهم بعينِ اللُّطفِ والشَّفقَهْ

وقرّ كبيرَهُم وارحَم صغيرَهمُ وراعِ في كلِّ خلقٍ حقَّ مَنْ خلَقَهْ

* * *

ثم إن الإقامة على دوام الأوراد، وهي خدمة الجوارح، من شأن أهل الخدمة، وهم العباد والزهاد والانتقال منها إلى عمل القلوب من شأن أهل المحبة والمعرفة وهم العارفون وكلهم عباد الله، ومن أهل عنايته فلا يستحقرهم إلَّا جاهل أو مطرود كما بيَّن ذلك بقوله:

66 ـ (قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم بمحبته كلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً)

قلت: العباد المخصوصون بالعناية على قسمين:

قسم وجههم الحق لخدمته وأقامهم فيها، وهم أنواع:

فمنهم من انقطع في الفيافي والقفار لقيام الليل وصيام النهار، وهم العباد والزهاد.

ومنهم من وجهه الحق لإقامة الدين وحفظ شرائع المسلمين، وهم العلماء والصلحاء.

ومنهم من أقامه الحق لنصرة الدين وإعلاء كلماته، وهم المجاهدون في سبيل رب العالمين.

ومنهم من أقامه الحق لتمهيد البلاد وتسكين العباد، وهم الأمراء والسلاطين. وقسم أقامهم الحق لمحبته واختصهم بمعرفته وهم العارفون الكاملون سلكوا سواء الطريق ووصلوا إلى عين التحقيق، وبينهما فرق كبير لأن أهل الخدمة طالبون الأجور، وأهل المحبة رفعت عنهم الستور، أهل الخدمة يأخذون أجورهم وراء الباب، وأهل المحبة في مناجاة الأحباب. أهل الخدمة مسدول بينهم وبينه الحجاب، وأهل المحبة مرفوع بينهم وبينه الحجاب. أهل الخدمة من أهل الدليل والبرهان، وأهل المحبة من أهل الشهود والعيان. أهل الخدمة لا تنفك عنهم الحظوظ، وأهل المحبة تصب عليهم الحظوظ. أهل الخدمة محبتهم مقسومة وأهل المحبة محبتهم مجموعة. فلذلك دام أهل الخدمة في خدمتهم ونفذ المحبون إلى شهود محبوبهم، فلو تركوا الحظوظ وحصروا محبتهم في محبوب واحد لنفذوا إلى محبوبهم وشهدوه ببصر إيقانهم واستراحوا من تعب خدمتهم، ولكن حكمة الحكيم أقامتهم في خدمتهم فوجب تعظيمهم في الجملة ولا يلزم منه عدم تفضيل أهل المعرفة والمحبة عليهم، انظر كيف قال تعالى بعد ذلك، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فدل على تفضيل بعضهم على بعض لكن عبيد الملك كلهم معظمون في الجملة ولا يحب الملك أن تحقر له عبداً من عباده وإن كانوا متفاوتين عنده والله تعالى أعلم.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يصلح لحمل المعرفة صرفاً فشغلهم بالعبادة. وقال أبو العباس الدينوري رضي الله عنه: إن لله عباداً لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمحبته. وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: الزاهد صيد الحق من الدنيا والعارف صيد الحق من الجنة. اهـ. يعني أن الزاهد اصطاده الله من الدنيا فقبضه وأدخله الجنة والعارف اصطاده الحق من الجنة فأدخله الحضرة، اصطاده من جنة الحس وجعله في جنة المعنى، وهي جنة المعارف.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه في كتابه: سبحان من هيّأ أقواماً لخدمته وأقامهم فيها، وهيّأ أقواماً لمحبته وأقامهم فيها.

أهل الخدمة تجلّى لهم الحق بصفة الجلال والهيبة فصاروا مستوحشين من الخلق، قلوبهم شاخصة لما يرد عليها من حضرة الحق، قد نحلت أجسادهم واصفرّت ألوانهم وخمصت بطونهم، وبالشوق ذابت أكبادهم وقطعوا الدياجي بالبكاء والنحيب واستبدلوا الدنيا بالمجاهدة في الدين ورغبوا في جنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتّقين.

وأهل المحبة تجلّى لهم الحق تعالى بصفة الجمال والمحبة وسكروا بخمر لذيذ القربة، شغلهم المعبود عن أن يكونوا من العباد ولا من الزهاد، اشتغلوا بالظاهر والباطن وهو الله فحجبوا عن كل ظاهر وباطن [غيره]، زهدوا في التنعم والإنعام واشتغلوا بمشاهدة الملك العلّام. اهـ كلامه رضي الله عنه.

هذا آخر الباب السابع، **وحاصله**: رفع الهمّة وشكر النعمة وحسن الأدب في الخدمة ونفوذ العزيمة بالانتقال من دوام الخدمة إلى المحبة والمعرفة.

[الباب الثامن]

وإذا أراد الله أن يصطفي عبداً لحمل معرفته وينقله من تعب خدمته قوى عليه الواردات الإلٰهية فجذبته إلى الحضرة الربانية، وهي مواهب لا مكاسب تنال بأعمال ولا بحيل وقل أن تأتي إلَّا بغتة، كما أشار إلى ذلك في أول الباب الثامن فقال: رضي الله عنه:

67 ـ (قلَّما تاتي الواردات الإلٰهية إلاَّ بغتة صيانة لها أن يدعيها العباد بوجوب الاستعداد)

قال القشيري: الوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد فيه تحمل، والواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو ما تضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط إلى غير ذلك من المعاني، وهو قريب من الحال.

وسئل الشيخ عبد القادر الجيلاني نفعنا الله بذكره عن صفات الواردات الإلٰهية والطوارق الشيطانية فقال: الوارد الإلٰهي لا يأتي باستعداد ولا يذهب بسبب ولا يأتي على نمط واحد ولا في وقت واحد، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالباً اهـ.

قلت: والمراد به هنا نوع خاص وهو نفحات إلٰهية يهبّ نسيمها على القلوب والأرواح أو الأسرار، فتغيب القلوب في حضرة علَّام الغيوب، وتغيب الأرواح والأسرار في جبروت العزيز الجبار، فتطيش فرحاً وسروراً، وترقص شوقاً وحبوراً.

إذا اهتزّت الأرواح شوقاً إلى اللقا ترقّصت الأشباح يا جاهل المعنى

وقل ما تكون هذه الواردات الإلٰهية إلَّا بغتة لأنها لا تنال باكتساب، وإنما هي فتح من الكريم الوهّاب، ولو كانت تنال بجد واجتهاد لادعاها العباد والزهاد بوجوب التأهب والاستعداد، فتصير حينئذ مكاسب والأحوال والواردات إنما هي مواهب، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: الآية 105]. ونسخة الشيخ زروق: العباد بالتخفيف جمع عبد وهي أعم. قال: والحكمة في إتيانها بغتة ثلاثة أمور، أحدها: ليعرف منّة الله فيها. الثاني: ليقدر قدرها ويعظم الفرح بها.

الثالث: الغيرة عليها وتعزيزها لأن ما كان من العزيز لا يكون إلَّا عزيزاً اهـ.

* * *

ثم إن هذه الواردات الإلٰهية والمواهب الاختصاصية أسرار من الكريم الغفار لا يمنحها إلَّا لأهل الصيانة والأمانة لا لأهل الإفشاء والخيانة، كما أشار إلى ذلك بقوله:

68 ـ (من رأيته مجيباً عن كل ما سُئِل ومعبراً عن كل ما شهد، وذاكراً لكل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله)

قلت: أما وجه جهله في كونه مجيباً عن كل ما سئل فلما يقتضيه حاله من الإحاطة بالعلوم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية 85] فأي جهل أعظم ممن يعارض كلام الله، ولما فيه أيضاً من التكلُّف وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعَام: الآية 90] ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: الآية 86]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**أنا وأتقياء أمّتي براء من التكلُّف**»[1]، ولا يخلو صاحب التكلُّف من التصنع والتزين وهو من شأن الجهل بالله، إذ لو كان عالماً به لاكتفى بعلمه وعرف قدره، ففي بعض الأخبار: عاش من عرف قدره.

وسئل بعضهم عن العلم النافع، فقال: أن تعرف قدرك ولا تتعدى طورك. وقال بعض المحققين: إذا قال العالم لا أدري أصيبت مقاتله. وقال في الإحياء: كان السلف الصالح يسأل أحدهم عن المسألة الواحدة فيدفع السائل إلى غيره ثم يدفعه الثاني إلى آخر ثم كذلك حتى يرجع إلى الأول. وكان بعضهم إذا سئل عن مسألة يقول للسائل: اذهب بها إلى القاضي فقلدها في عنقه.

وقد سئل مالك رحمه الله عن اثنتين وثلاثين مسألة فأجاب عن ثلاث وقال في الباقي: لا أدري، فقال له السائل: وما نقول للناس، فقال: قل لهم قال مالك لا أدري. وأيضاً إجابة كل سائل جهل وضرر إذ قد يكون السائل متعنتاً لا يستحق جواباً، وقد تكون المسألة التي سأل عنها لا تليق به لأنه لا يفهمها ولا يطيق معرفتها، فتوقعه في الحيرة أو الإنكار، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم**»[2] وفي ذلك يقول الشاعر:

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (610) [1/ 232] وحديث (621) [1/ 237].

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأدب، حديث رقم (7707) [4/ 301] وابن حميد الكسي في مسنده، مسند عبد الله بن عباس، حديث رقم (675) [1/ 225] ورواه غيرهما.

سأكتمُ علمي عنْ ذوِي الجهلِ طاقتي ولا أنشرُ الدرَّ النفيسَ على البُهْمِ
فإنْ قدَّرَ اللَّه الكريمُ بلطفِهِ ولاقيتُ أهلاً للعلومِ وللحكَمِ
بذلتُ علومي واستفدتُ علومَهُم وإلا فمخزونٌ لدي ومكتتَم
فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقال علي كرَّم الله وجهه: حدث الناس بقدر ما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله. وقد قيل للجنيد رضي الله عنه: يسألك الرجلان فتجيب هذا بخلاف ما تجيب به هذا، فقال: الجواب على قدر السائل. قال عليه الصلاة والسلام: **«أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم»**[1] اهـ.

وقال رجل لبعض العلماء وقد سأله فلم يجبه: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: **«من كتم علماً نافعاً ألجم يوم القيامة بلجام من النار»**[2] فقال له العالم: اترك اللجام واذهب فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمني به اهـ.

وأما وجه جهله في كونه معبراً عن كل ما شهد من الكرامات وما وصل إليه من المقامات وما ذاقه من الأنوار والأسرار، فلأن هذه الأمور أذواق باطنية وأسرار ربّانية لا يفهمها إلَّا أربابها، فذكرها لمن لا يفهمها ولا يذوقها جهل بقدرها. وأيضاً هي أمانات وسر من أسرار الملك وسر الملك لا يحل إفشاؤه، فمن أفشاه كان خائناً واستحق الطرد والعقوبة ولا يصلح أن يكون أميناً بعد ذلك، فكتم الأسرار من شأن الأخيار، وهتك الأسرار من شأن الأشرار، وقد قالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار. وقال الشاعر:

لا يكتمُ السرَّ إلَّا كلُّ ذي ثقةٍ فالسِّرُ عندَ خيارِ النَّاسِ مكتومُ

وفي إفشائها قلّة عملها ونفعها في الباطن. ففائدة هذه الأحوال والواردات الإلٰهية هي محو الحسي وإظهار المعنى، أو محو الشك وتقوية اليقين، فإذا أفشاها ضعفت أعمالها وقلّت نتيجتها والخير كله في الكتمان. في الحديث: **«استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها»**[3] أو كما قال عليه السلام.

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (592) [1/ 225] وأورده غيره.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه عبد الصمد، حديث رقم (4815) [5/ 108] والأصبهاني في المسند المستخرج على صحيح مسلم، حديث رقم (16) (1/ 42].

(3) رواه الروياني في مسنده بلفظ: «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» حديث رقم (1449) [2/ 427] ورواه غيره.

وينخرط في سلك الأحوال التي يجب كتمانها خرق عوائد النفوس، فمن خرق عادة في نفسه فلا يفشي ذلك لغيره، فإن في ذلك دسيسة لها لأنها تحب أن تذكر بالقوة والنجدة، فيكون كل ما قتل منها أحياه في ساعته، وفيه أيضاً نقص الإخلاص وإدخال الرياء وهو سبب الهلاك والعياذ بالله.

وأما وجه جهله في كونه ذاكراً لكل ما علم من الحقائق والعلوم والمعارف فلأنه جهل قدرها واستخف شأنها، فلو كانت عنده رفيعة عزيزة ما أفشاها لغيره إذ صاحب الكنز لا يبوح به وإلا سلبه من ساعته. وانظر قول شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

أحفرْ لسرّكَ ودكُو … في الأرضِ سبعينَ قامهْ

وخلِّ الخلائقَ يشكُو … إلى يومِ القيامَهْ

وإذا كان الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النِّساء: الآية 5] فكيف بالعلم الذي هو لؤلؤ مكنون. قال عليه الصلاة والسلام: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلّا العلماء بالله فإذا أظهروه أنكره أهل الغرّة بالله**»[1] اهـ. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من علم، أما أحدهما فبثثته في الناس وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم[2] اهـ. ولله درّ زين العابدين سيدنا علي بن الحسين بن علي كرَّم الله وجهه حيث يقول:

يا ربَّ جوهرِ علمٍ لوْ أبوحُ بهِ … لقيلَ لي أنتَ ممَنْ يعبدُ الوثنَا

ولاستحلَّ رجالٌ مسلمونَ دمي … يرونَ أقبحَ ما يأتونَهُ حسنَا

إنّي لأكتمُ مِنْ علمي جواهرَهُ … كي لا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فيفتتنَا

وقال الروذباري رحمه الله: علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي. وقال الإمام الغزالي: قد تضر الحقائق بأقوام كما يتضرر الجعل بالورد والمسك.

قلت: قد يرخص للعارف الماهر إلقاء الحقائق مع من لا يعرفها بعبارة رقيقة وإشارة لطيفة وغزل رقيق بحيث لا يأخذ السامع منها شيئاً، فقد كان الجنيد رضي الله عنه يلقي الحقائق على رؤوس الأشهاد فقيل له في ذلك فقال: جانب العلم أحمى من

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (141) [1/ 58] وأورده المنذري في الترغيب والترهيب، فصل عن أبي هريرة، حديث رقم (141) [1/ 58].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب حفظ العلم، حديث رقم (120) [1/ 56] ولفظه عنده: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم».

أن يأخذه غير أهله. أو علمنا محفوظ من أن يأخذه غير أهله، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم إن الإجابة عن كل ما سئل، والتعبير عن كل ما شهد، وذكر كل ما علم، يوجب إقبال الخلق عليهم وتعظيمهم وإكرامهم في هذه الدار، لأن من ظهرت مزيته وجبت خدمته، ومن شأن العامة تعظيم صاحب الكرامة، فيجني ثمرة علمه وعمله في هذه الدار الفانية، وتفوته درجات الصدِّيقين في تلك الدار الباقية، فأمره بكتمها ويقنع بعلم الله ويدخر الجزاء عليها ليوم لقاء الله، وعلى ذلك نبّه بقوله:

69 ـ (إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أَجَلَّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها)

قلت: لا شك أن الله تعالى وسم هذه الدار بدار الغرور وحكم عليها بالهلاك والثبور، فهي دار دنية دانية زائلة فانية فلذلك سمّيت الدنيا، إما لدنوها وإما لدناءتها، فهي ضيقة الزمان والمكان. ووسم الآخرة بدار القرار ومحل ظهور الأنوار وانكشاف الأسرار، محل النظرة والحبور، ودوام النعمة والسرور، محل شهود الأحباب، ورفع الحجاب، نعيمها دائم، ووجودها على الدوام قائم، فلذلك جعلها الحق تعالى محلاً لجزاء عباده المؤمنين، ومقعد صدق للنبيِّين والصدِّيقين، ولم يرض سبحانه أن يجازيهم في دار لا بقاء لها، ضيقة الزمان والمكان ومحل الأكدار والأغيار والذلّ والهوان، لأنها ضيقة لا تسع ما يريد أن يعطيهم أي لا يسع فيها ما يريد أن يكرمهم به تعالى زماناً ولا مكاناً، لأن أدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات فكيف بأعلاهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية 17]. وقال ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1]. ولأنه جلّ وعلا أَجَلَّ أي عظم أقدار عباده المؤمنين والمقرّبين أن يجازيهم في دار لا بقاء لها فعمارتها خراب، ووجودها سراب، ففي بعض الأخبار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذي يبقى على الذي لا يبقى اهـ.

لا سيما بالعكس، فالآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى فلا يختارها إلّا من حكم الله عليه بالشقاء والعناء، والخزف ـ بالخاء والزاي والفاء ـ المحركات

(1) رواه البخاري في أبواب عدة منها، باب ما جاء في صفة الجنة...، حديث رقم (3072) [3/ 1185] ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، حديث رقم (2824) [4/ 2174] ورواه غيرهما.

الطين المصنوع للبناء وهو الآجرّ.

وفي حديث آخر: «**ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها على فانية لا ينفك عذابها، وقدم لما يقدم عليه مما هو الآن في يده قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه وقد شقي هو بجمعه واحتكاره**»(1). اهـ.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حلوا أنفسكم بالطاعة والبسوها قناع المخافة واجعلوا آخرتكم لأنفسكم وسعيكم لمستقركم، واعلموا أنكم عن قليل راحلون إلى الله سائرون ولا يغني عنكم هنالك إلَّا صالح عمل قدمتموه أو حسن ثواب جزيتموه، إنكم إنما تقدمون على ما قدمتم وتجازون على ما أسلفتم، فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية عن مراتب جنات عالية فكأن قد كشف القناع وارتفع الارتياب ولاقى كل امرىء مستقره وعرف مثواه ومنقلبه**»(2) اهـ.

* * *

ثم إن الجزاء في تلك الدار إنما يكون على العمل في هذه الدار بشرط كونه مقبولاً وقبوله مغيّب لكن له علامات يعرف بها هنا أشار إليها بقوله:

70 ـ (من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول)

قلت: ثمرة العمل هي لذيذ الطاعة وحلاوة المناجاة وأنس القلب بالمراقبة وفرح الروح بالمشاهدة والسر بالمكالمة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ **[البَقَرَة: الآية 60]** ودليل وجود هذه الثمرة النشاط في النهوض إليها والاغتباط بها والمداومة عليها وزيادة المدد فيها، وهي علامة حلول الهداية في القلب، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ **[مريَم: الآية 76]**. وللبوصيري في همزيته:

وإذا حلّتِ الهدايةُ قلباً نشطتْ للعبادةِ الأعضاءُ

فمن رأيناه في زيادة الأعمال والترقّي في الأحوال، علمنا أنه وجد لعمله ثمرة فهي بشارة له على قبولها، ومن رأيناه انقطع عن عمله أو نقص من أحواله خفنا عليه عدم قبول أعماله.

ومن ثمرة العمل أيضاً الاستيحاش من الخلق والأنس بالملك الحق، ومن ثمرة العمل أيضاً الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه. زاد الشيخ زروق رضي الله عنه: الحياة الطيبة ونفوذ الكلمة وانتفاء الحزن للفرح بالمنّة اهـ.

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فدليل الأول قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النّحل: الآية 97] قيل: هي القناعة، وقيل: هي الرضى والتسليم. والتحقيق أنها المعرفة.

ودليل الثاني، وهو نفوذ الكلمة، قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النّور: الآية 55] فنفوذ الكلمة هي الخلافة، وقال أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: الآية 73] لما صبروا.

وأما الثالث، وهو انتفاء الحزن، فدليله في نفسه لأن حلاوة العمل تنسي الحزن والغم لأنها شبيهة بنعم الجنة، قال تعالى في شأن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فَاطِر: الآية 34] والله تعالى أعلم. وسيأتي التحذير من الوقوف مع حلاوة الطاعة وأنها سموم قاتلة.

* * *

ولما ذكر ميزان مقادير الأعمال ذكر ميزان مقادير الرجال، أو تقول: لما ذكر ميزان العمل المقبول من المردود ذكر ميزان العامل المحبوب من المطرود، فقال:

71 ـ (إن أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا يقيمك)

قلت: جعل الله تعالى بحكمته خلقه على قسمين، أشقياء وسعداء، وجعل السعداء قسمين: أهل قرب وأهل بعد.

أو تقول: أهل يمين ومقرّبين وهم السابقون، فإن أردت أن تعرف نفسك هل أنت من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة، فانظر في قلبك، فإن كنت تصدّق بوجود ربّك وتوّحده في ملكه وتنقاد لمن عرفك به ـ وهو رسوله عليه السلام ـ فأنت ممن سبقت له الحسنى، وإن كنت تنكر أو تشك في ربك أو تشرك به غيره في اعتقادك أو لم تذعن لمن عرّفك به فأنت من أهل الشقاء.

ثم إن وجدت نفسك من أهل السعادة وأردت أن تعرف هل أنت من أهل القرب أو من أهل البعد فانظر، فإن كنت ممن يستدل بأثره عليه فأنت من أهل البعد من أصحاب اليمين، وإن كنت ممن يستدل به على غيره فأنت من أهل القرب من المقرّبين.

ثم إن عرفت أنك من أهل اليمين وأردت أن تعرف قدرك عنده هل أنت من المكرمين أو من المهانين فانظر، فإن كنت تمتثل أمره وتجتنب نهيه وتسارع في مرضاته وتحبب إلى أوليائه وأحبائه فأنت من المكرمين المعظمين، وإن كنت تتهاون في أمره وتتساهل في نواهيه وتتكاسل عن طاعته وتهتك حرماته وتعادي أولياءه فأنت والله عنده

من المهانين المحرومين المطرودين إلا أن تتداركك عناية من رب العالمين.

وإن تحققت أنك من أهل القرب وأنك بلغت مقام الشهود تستدل به على غيره فلا ترى سواه، فإن كنت تقرّ بالواسطة وتثبت الحكمة وتعطي كل ذي حق حقه فأنت من المقرّبين الكاملين، وإن كنت تنكر الحكمة وتغيب عن الواسطة فإن كنت مجذوباً مغلوباً فأنت في هذا المحل ناقص، وإن كنت صاحياً فأنت ساقط إلّا أن يأخذ بيدك شيخ واصل أو عارف كامل.

وهنا ميزان آخر تعرف به نفسك في القرب والبعد، فإن وجدت شيخاً مربياً كشف الله لك عن أنواره وأطلعك على خصائص أسراره فأنت قطعاً من أهل القرب بالفعل أو بالإمكان لقول الشيخ رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلّا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلّا من أراد أن يوصله إليه. وإن لم تجد شيخاً مربياً وغرّك قول من قال إنه انقطع وجوده فأنت قطعاً من أهل اليمين من عوام المسلمين، هذا الغالب والنادر لا حكم له والله تعالى أعلم.

وفي الحديث عنه ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: أنا الله لا إله إلّا أنا، خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يده وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يده**»[1] وفي حديث آخر: «**من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده**»[2]. وفي رواية: «**من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه**»[3]. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: الآيات 5-7] الآية، والله تعالى أعلم.

* * *

(1) خرجه المناوي في الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، برقم (106) [1/ 50] والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق، [2/ 153] وأورده غيرهما.

(2) أورد نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في الأصل السادس والسبعون والمائة [2/ 278] ورواه ابن المبارك في الزهد، باب التواضع، حديث رقم (849) [1/ 291] ورواه غيرهما.

(3) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، حديث رقم (1820: [1/ 671] ونصه: قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: خرج علينا النبي ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله وذكروه أنفسكم من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه». ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (2501) [3/ 67] ورواه غيرهما.

ثم ذكر ميزاناً آخر تعرف به المقرّبين والأغنياء الشاكرين، فقال: **(متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة)** قلت: الطاعة في الظاهر هي رسوم الشريعة والغنى به في الباطن هو شواهد الحقيقة، فإذا جمع لك بين الطاعة في جوارحك والغنى به عنها في باطنك، فقد أسبغ عليك أي أكمل وأطال عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وهذه سيما العارفين المقرّبين الأغنياء بالله الفقراء مما سواه، استغنوا بمعبودهم عن رؤية عبادتهم وبمعلومهم عن علمهم وبمصلحهم عن صلاحهم.

قال الشيخ أبو الحسن في حزبه الكبير: نسألك الفقر مما سواك، والغنى بك حتى لا نشهد إلّا إياك، فهؤلاء الأغنياء بالله الغائبون فيه عما سواه عبادتهم بالله ولله ومن الله قياماً بشكر النعمة وإتماماً لوظائف الحكمة. وفي الحديث عنه ﷺ: **«أحب العباد إلى الله الأغنياء الأخفياء الأتقياء»**[1] أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وفي حديث آخر: **«ليس الغنى بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»**[2] اهـ. وهو الغنى بالله، وهذه هي النعمة الحقيقية، فالنعم الظاهرة هي تزيين الجوارح بالشريعة والنعم الباطنة هي إشراق الأسرار بالحقيقة، وقيل: النعم الظاهرة هي الكفاية والعافية، والنعم الباطنة هي الهداية والمعرفة. وقيل: النعم الظاهرة راحة البدن من مخالفة أمره والباطنة سلامته من منازعة حكمه. وحقيقة النعمة من حيث هي ما لا يوجب ألماً ولا يعقب ندماً. وقيل: النعمة العظمى الخروج من رؤية النفس. وقيل: النعمة ما وصلك بالحقائق وطهّرك من العلائق، وقطعك عن الخلائق، وبالله التوفيق.

* * *

هذا آخر الباب الثامن، **وحاصله**: تحقيق الآداب مع الواردات الإلٰهية لأنها مواهب اختصاصية، فمن أراد مدد أنوارها فعليه بكتمان أسرارها، وليؤخر جزاء ثوابها لدار يدوم بقائها، فحينئذ يتحقق إخلاصه ويظهر اختصاصه، فيذوق حلاوة الطاعة والإيمان ويعظم قدره عند الملك الديّان فيغيبه به عما سواه ويسبغ عليه مننه.

---

(1) رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ترجمة أبي بكر الصديق [1/ 15] ولفظه: «أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا شهدوا لم يعرفوا أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم».

(2) رواه البخاري بلفظ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» (الصحيح، باب الغنى عن النفس، حديث رقم (6081) [5/ 2368] ورواه مسلم في صحيحه، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، حديث رقم (1051) [2/ 726] ورواه غيرهما.

[الباب التاسع]

ومهما أغناك به استغنيت به عن طلبه وإن كان ولا بد من الطلب فاطلب منه ما هو طالبه منك كما أشار إليه في أول الباب التاسع فقال رضي الله عنه:

72 ـ (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك)

قلت: والذي طالبه منا هي الاستقامة ظاهراً وباطناً، ومرجعها إلى تحقيق العبودية في الظاهر وكمال المعرفة في الباطن.

أو تقول: الذي هو طالبه منا إصلاح الجوارح الظاهرة بالشريعة قياماً برسم الحكمة، وإصلاح القلوب والأسرار الباطنة بالحقيقة قياماً بوظائف القدرة.

أو تقول: الذي طلبه منا امتثال أمره واجتناب نهيه والإكثار من ذكره والاستسلام لقهره، فالأكمل في حق العارف أن يستغني بعلم الله ويكتفي بسؤال الحال عن طلب المقال، فإن تجلّى فيه وارد الطلب فخير ما يطلبه من سيده ما هو طالبه منه، وهو ما تقدم ذكره. ففي بعض الأحاديث: «**إن الله لا يسأل الخلق عن ذاته وصفاته ولا عن قضائه وقدره ولكن عن أمره ونهيه**»[1]. قلت: لأن الأمر والنهي في كسبه ومكلف به، ومعرفة الذات والصفات والرضى والتسليم إنما هي مواهب جزاء الأعمال ونتائج الامتثال، فإذا فعل ما أمره به سيده رزقه المعرفة به، المعرفة العامة، وهي معرفة الدليل، فإذا اشتد عطشه قيض له من يأخذ بيده حتى يعرفه به المعرفة الخاصة. وقال بعضهم: إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله، يعني من غير طلب، ما لم يكن لك فيها حظ فتحجب عن الله اهـ. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النّساء: الآية 32] وفضله هو الغنى به.

ومن دعاء الجنيد رضي الله عنه: اللهمَّ وكُلُّ سؤال فعن أمرك لي بالسؤال، فاجعل سؤالي لك سؤال محابك، ولا تجعلني ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ بل يسأل القيام بواجب حقك.

* * *

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ثم إذا طلبت منه فاطلب منه ما طلبه منك وهو الطاعة والاستقامة، وإذا لم تساعفك الأقدار ومنعت منها قبل أن تسأل فإن لم تنهض إليها بقلبك وتأسفت عليها بنفسك فذلك علامة الاغترار كما أشار إلى ذلك بقوله:

73 - (الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامة الاغترار)

قلت: الحزن هو التحسر على شيء فان لم تحصله وندمت على تحصيله، أو التوجع على شيء منعت منه ولم تقدر على تحصيله، فإن كان حزنك على شيء منعت منه ونهضت إلى أسبابه الموصلة إليه فهو حزن الصادقين، وفيه قال أبو علي الدقاق: يقطع صاحب الحزن في شهر ما لا يقطعه غيره في سنين.

وإن لم تنهض إلى أسبابه فهو حزن الكاذبين، وإن كان على ما فات ونهضت إلى استدراك ما يمكن استدراكه فهو حزن الصادقين، وإن لم تنهض إلى استدراكه فهو حزن الكاذبين. وقد سمعت رابعة العدوية رجلاً يقول: واحزناه، فقالت له: قل وا قلة حزناه فلو كان حزنك صادقاً لم يتهيّأ لك أن تتنفس اهـ.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: ليس البكاء بتعصير العيون إنما البكاء أن تترك الأمر الذي تبكي عليه. وقيل: لا يغرنك بكاء الرجل فإن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون وقد فعلوا ما فعلوا اهـ. فالحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إلى استدراك ما فات منها أو إلى تحصيل ما حضر منها من علامة الاغترار، أي الغرور، وهو الركون إلى ما لا حقيقة له، فالاغترار قبول الغار والانقياد إلى غروره وخدعه.

فالحزن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حزن الكاذبين والصادقين والصدِّيقين السائرين.

فحزن الكاذبين هو ما تقدم من عدم النهوض والاستدراك لما فات.

وحزن الصادقين هو الحزن المصحوب بالجد والاجتهاد والتوسط في العمل والاقتصاد مع اغتنام ما بقي من الأوقات لاستدراك ما فات.

وحزن الصدِّيقين من السائرين هو الحزن على فوات الأوقات أو حصول شيء من الغفلات أو وقوع ميل أو ركون إلى الحظوظ والشهوات إلا أن حزنهم لا يدوم، إذ لا يقفون مع شيء ولا يقبضهم شيء.

وأما الواصلون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية 62] إذ الحزن إنما يكون على

فقد شيء أو فوات غرض وماذا فقد من وجد الله، وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. وفي هذا المقام ينقطع البكاء إذ لا بكاء في الجنة.

وقد رأى الصدِّيق قوماً يقرؤون ويبكون، فقال: كذلك كنا ثم قست القلوب، فعبر بالقسوة عن التمكين أدباً وتستراً، لأن القلب في بدايته رطب يتأثر بالمواعظ وتحركه الأحوال، فإذا استمر معها وتصلب لم يتأثر بشيء ويكون كالجبل الراسي ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النَّمل: الآية 88].

تنبيه: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: من لم تطاوعه نفسه على النهوض إلى الطاعات وأخلدت إلى أرض الشهوات فدواؤه في حرفين.

الأول: أن يعلم منَّة الله عليه بالهداية للإسلام ومحبة الإيمان فيشكر الله عليها ليحصن بقاءها عنده.

الثاني: دوام تضرُّعه وابتهاله في مظان الإجابة قائلاً: يا رب سلم سلم وإن أهمل هذين الأمرين فالشقاوة لازمة له اهـ بالمعنى وبالله التوفيق.

* * *

ثم إذا أعطاك ما طلبت من كمال الاستقامة ونهضت إليه نادماً على ما فاتك من الطاعة كانت نهايتك الوصول إلى الحبيب ومناجاة القريب، هناك تكل الألسن عن العبارة وتنقطع الإشارة كما أبان ذلك بقوله:

74 ـ (ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده)

قلت: الإشارة أرق وأدق من العبارة والرمز أدق من الإشارة، فالأمور ثلاثة: عبارات وإشارات ورموز، وكل واحدة أدق مما قبلها، فالعبارة توضح، والإشارة تلوح، والرمز يفرح، أي يفرح القلوب بإقبال المحبوب.

وقالوا: علمنا كله إشارة فإذا صار عبارة خفي، أي خفي سره، أي فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سرّه على الجنان، فإشارة الصوفية هي تغزلاتهم وتلويحاتهم بالمحبوب كذكر سلمى وليلى، وذكر الخمرة والكيسان والنديم وغير ذلك مما هو مذكور في أشعارهم وتغزلاتهم، وكذكر الأقمار والنجوم والشموس والبدور واللوائح والطوالع وكذكر البحار والإغراق وغير ذلك مما هو مذكور في اصطلاحاتهم.

وأما الرموز فهي إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها غيرهم، ومنها

في القرآن فواتح السور، ومنها في الحديث كقول رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**أريد أن أدعوك لأمر، قال: وما هو يا رسول الله، قال: هو ذاك**»[1] فرمز لأمر بينهما لا يعرفه غيرهما. وقال له أيضاً: «**يا أبا بكر أتعلم يوم يوم ـ بتكرير لفظ يوم ـ قال: نعم يا رسول الله، سألتني عن يوم المقادير**»[2]. فهذه رموز بين الصديق وحبيبه.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه في شرح الحزب الكبير: وقد حارت العقول في رموز الحكماء، فكيف بالعلماء، فكيف بالأنبياء، فكيف بالمرسلين، فكيف يطمع في حقائق رب العالمين اهـ.

وأما الإشارات فيدركها أربابها من أهل الفن. والناس في إدراكها وعدمه على أقسام، **فمنهم** من لا يفهم منها شيئاً ولا يعرف إلَّا ظاهر العبارة وهم الجهّال من عموم الناس. **ومنهم** من يفهم المقصود ويجد الحق بعد الإشارة أي بعد سماع الإشارة، وهم أهل البداية من السائرين. **ومنهم** من يفهم الإشارة ويجد المشار إليه وهو الحق أقرب إليه من إشارته، وهم أهل الفناء في الذات قبل التمكين، ولهذا تجدهم يتواجدون عند السماع ويتحركون وتطيب أوقاتهم وتهيم أرواحهم أكثر مما يتواجدون عند الذكر، لأن الإشارة تهيج أكثر من العبارة بخلاف المتمكنين قد رسخت أقدامهم واطمأنت قلوبهم وتحقق وصولهم فاستغنوا عن الإشارة والمشير ولذلك قيل للجنيد: ما لك كنت تتحرك عند السماع وتتواجد واليوم لا نراك تتحرك بشيء، قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النّمل: الآية 88] اهـ. وهذا هو العارف الذي لا إشارة له لفنائه في وجود الحق وانطوائه في شهوده.

أو تقول: لتحقق وصوله وتمكنه في شهوده، فصار المشير عين المشار إليه لفناء وجوده في وجود محبوبه، وانطواء ذاته في ذات مشهوده. أو تقول: لزوال وَهْمِهِ وثبوت علمه، فتحققت الوحدة وامتحت الغيرية.

رقَّ الزجاجُ ورقَّتِ الخمرُ فتشابَهَا وتشاكَلَ الأمرُ
فكأنَّمَا خمرٌ ولا قدَحُ وكأنَّما قدحٌ ولا خمرُ

فالأقداح أشباح والخمور أرواح. أو تقول: لذهاب حسّه وانطماس رسمه فانكسرت الأواني وسطعت المعاني:

وطاحَ مقامي في الرواسمِ كلِّها فلستُ أرَى في الوقتِ قُرباً ولا بُعدَا

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فنيتُ بهِ عنّي فبانَ بهِ غيبي فهذَا ظهورُ الحقِّ عندَ الفنَا قصدَا
أحاطَ بنَا التعظيمُ مِنْ كلِّ جانبٍ وعادَتْ صفاتُ الحقِّ ممَا يلي العَبْدَا

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: إن لله عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته، وحملهم من أسراره ما تعجز عنه الأولياء. وقال القطب الشيخ ابن مشيش رضي الله عنه ونفعنا ببركاته: وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت والأفعال بالأفعال اهـ. وأطلق المزج على التبديل مناسبة للشراب.

وقال إمام الطريقة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه في وصف العارف: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقه ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هدايته وصفا شرابه من كأس ودّه، تجلّى له الجبار عن أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن سكت فمن الله وإن تحرك فبإذن الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله ومن الله وإلى الله اهـ.

فهذه صفات العارف الحقيقي الراسخ المتمكِّن قد كلّ لسانه عن التعبير، واستغنى عن الإشارة والمشير، فإذا صدرت منه إشارة أو تعبير، فإنما ذلك لفيضان وجد أو هداية فقير، وقد صدرت إشارات من المتمكنين فتحمل على هذا القصد كقول الشيخ أبي العباس [المرسي] رضي الله عنه:

أعندكَ عن ليلَى حديثٌ محررُ بإيرادِهِ يحيَي الرميمُ وينشرُ
فعهدي بها العهدُ القديمُ وإنّني على كلِّ حالٍ في هواها مقصّرُ
وقد كان عنها الطيفُ قدماً يزورني ولمّا يَزُر ما بالُه يتعذّرُ
وهلْ بخِلَتْ حتى بطيفِ خيالِها أم اعتلَّ حتى لا يصحُ التصوُّر
ومِنْ وجهِ ليلَى طلعةُ الشّمسِ تستضي وفي الشّمس أبصارُ الورى تتحيّر
وما احتجبتْ إلّا برفعِ حجابِها ومن عجبٍ أن الظهورَ تستّرُ

هكذا وجدت بخط الشيخ، وكان كثيراً ما يتمثل بها. قاله المصنف[1] في لطائف المنن[2]. فقول الشيخ: ما العارف الخ، أي ليس العارف الكامل وهو الراسخ المتمكن.

(1) أي صاحب الحكم الشيخ أحمد بن عطاء الله الإسكندري الشاذلي رحمه الله تعالى.
(2) أحد كتبه المشهورة، وقد سبقت الإشارة إليه.

وأما السائر فيحتاج إلى الإشارة ويجد الحق أقرب إليه من الإشارة أو معها، وهي إعانة له وقوة كالعبارة للمتوجهين، وسيأتي العبارة قوت لعائلة المستمعين، وليس لك إلّا ما أنت له آكل.

وقوله: من إذا أشار، أي أشير له، وقوله: بل العارف من لا إشارة له، أي لا يحتاج إليها في نفسه وقد يشير لأجل غيره كما تقدم، وإنما استغنى عن الإشارة لأن الإشارة والعبارة قوت الجائع وهو قد شبع واستغنى. أو تقول: لأن الإشارة تقتضي البينونة والفرق وهو مجموع في فرقه، ولذلك قال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه: أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه.

وقال ابن العريف في محاسنه: الإشارة نداء على رأس البعد وبوح بعين العلّة اهـ. أي تصريح بعين علّته وهي بعده.

وقال الروذباري: الإشارة الإبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه، وفي الحقيقة الإشارة تصحبها العلل والعلل بعيدة من الحقائق.

وقال الشبلي رضي الله عنه: كل إشارة أشار بها، والبينونة بدليل قوله: حتى يشيروا إلى الحق بالحق، وإنما نفى الطريق إلى ذلك لاستغناء الحق عن الإشارة والمشير والله تعالى أعلم. ويحتمل أن يريد بالإشارة إشارة القلب أو الفكرة إلى الوجود، فإن القلب إذا أشار إلى الكون بأسره فني وتلاشى ووجد الحق أقرب إليه من إشارته لكونه كان فانياً قبل إشارته، وهذا حال السائرين.

وأما الواصل فلا يحتاج إلى إشارة لكونه قد تحقق فناؤه وانطوى وجوده في وجود محبوبه، فلم يحتج إلى إشارة لتمكن حاله وتحقق مقامه، والله تعالى أعلم.

وسئل أبو سعيد بن الأعرابي عن الفناء فقال: هو أن تبدو العظمة والإجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار، تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق في التعظيم اهـ.

* * *

ولما كان المطلوب من العبد القيام بوظائف العبودية ومعرفة عظمة الربوبية، تشوّقت القلوب إلى نيلها وطمعوا في إدراكها ورجوا بلوغ آمالهم فيها، فبيَّن الشيخ علامة الرجاء الصادق من الكاذب فقال:

75 ـ (الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية)

قال بعض العلماء: الرجاء تعلُّق القلب بمطموع يحصل في المستقبل مع الأخذ في العمل المحصِّل له، وأقرب منه طمع يصحبه عمل في سبب المطموع فيه لأجل تحصيله اهـ. والأمنية اشتهاء وتمني لا يصحبه عمل، فإن كان مع الحكم والجزم فهو تدبير وهو أتمّ قبحاً. قاله الشيخ زروق.

قلت: فمن رجا أن يدرك النعيم الحسي كالقصور والحور فعليه بالجد والطاعة والمسارعة إلى نوافل الخيرات وإلا كان رجاؤه حمقاً وغروراً. وقد قال معروف الكرخي رضي الله عنه: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق. وقيل: من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح فكذلك فليزعم أن الربح مع الفقر ووقد النار من البحر صحيح. ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم وفتح مخازن الفهوم فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين مع تحليته بالتقوى والورع، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ **[البَقَرَة: الآية 282]** فإن فعل هذا كان طالباً صادقاً وإلا مارجاً واصلاً وإلا كان باطلاً وبقي جاهلاً.

وقد قال بعض المحققين: من أعطى كليته في العلم أخذ كليته ومن لم يعط كليته لم يأخذ بعضه ولا كليته. وفي الحديث عنه ﷺ: «**إنما العلم بالتعلُّم وإنما الحلم بالتحلُّم من يطلب الخير يؤته ومن يتق الشر يوقه**»(1) اهـ.

والذي تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ويوسع المعقول، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات، وتحقيق المنازلات ومواجيد المحبّين وأذواق العارفين، فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال، بحط رأسه وذبح نفسه والأخذ فيما كلفوه به من الأعمال مع الذلّ والافتقار والخضوع والانكسار، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق في الطلب، فسر الله كله في صدق الطلب، وليستغرق أوقاته في ذكر الله وليلتزم الصمت والعزلة وليحسن ظنه بالله وبعباد الله، فإن الله يقيض له من يأخذ بيده ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ **[الأنفَال: الآية 70]**.

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (2663) [3/ 118] ونصه: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم، من يتحر الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه، ثلاث من كن فيه لم يسكن الدرجات العلا ولا أقول لكم الجنة، من تكهن أو استقسم أو رده من سفر تطير». ورواه الديلمي في مسند الفردوس، حديث رقم (1367) [1/ 342] ورواه غيرهما.

قال في القواعد[1]: قاعدة: طلب الشيء من وجهه وقصده أقرب لتحصيله، وقد ثبت أن حقائق علوم الصوفية منح إلٰهية ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد الطلب، فلزم مراعاة وجه ذلك، وهو ثلاث: **أولها**: العمل بما علم قدر الاستطاعة. **الثاني**: اللجاء إلى الله على قدر الهمّة. **الثالث**: إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأصل السنّة فيجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح. وقد أشار الجنيد رحمه الله تعالى إلى ذلك بقوله: ما أخذنا التصوُّف عن القيل والقال والمراء والجدال، إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال. أو كما قال.

وفي الخبر عنه عليه الصلاة والسلام: «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**»[2].

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم من غير أن يؤدي إليها عالم علماً اهـ. فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة وشرع في أسبابها وتحصيل مبادئها كان علامة على نجح مطلبه وكان رجاؤه صادقاً، ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد في أسباب تحصيلها كان أمنية أي غروراً وحمقاً. وكان الحسن رضي الله عنه يقول: يا عباد الله اتقوا هذه الأماني فإنها أودية النوكي يحلون فيها، فوالله ما أتى الله عبداً بأمنية خيراً في الدنيا والآخرة. اهـ. والنوكى ـ بفتح النون ـ جمع أنوك، وهو الأحمق.

* * *

ولما كان من رجا شيئاً وطمع فيه الغالب أنه يطلبه، بيَّن الشيخُ خيرَ ما يطلبه العبد ويرجوه، فقال:

76 ـ (مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية)

قلت: المطلب مصدر بمعنى المفعول أو اسم مكان أي مطلوب العارفين ومقصودهم أو محل قصدهم ومحل نظرهم، إنما هو تحقق الصدق في العبودية بحيث لا تبقى فيهم بقية، إذ المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، فما دام العبد مسجوناً بمحيطاته محصوراً في هيكل ذاته لا تنفك عنه الحظوظ إما دنيوية أو

---

(1) قال في القواعد: أي الشيخ أحمد زروق في كتابه قواعد الصوفية وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

(2) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين، [4/ 388]، والسخاوي في فتح المغيث [1/ 265] وأورده غيرهما.

أخروية، فلا تتحقق عبوديته لله وفيه عبودية لحظوظه وهواه فلا يكون صادقاً في عبوديته وهو مملوك لحظ نفسه، فإذا قال: أنا عبد الله نازعته حظوظه وهواه فلا تتحقق عبوديته لله حتى يتحرر من رقّ الأكوان ويتحقق بمقام الأحرار من أهل العرفان، فحينئذ يكون سالماً لله حراً مما سواه. قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية 29] ـ أي متخاصمون ـ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزُّمَر: الآية 29] أي لا يستويان أبداً، إذ العبد الخالص لسيد واحد يكون أحظى وأعز وأقرب من العبد المشترك وكذلك العبد الخالص لله أحظى بمحبة مولاه.

وقال رسول الله ﷺ: «**تعس ـ أي خاب وخسر ـ عبد الدينار والدرهم والخميصة إذا أعطي رضي وإذا لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»[(1)] أي إذا أصابته شوكة فالله لا يخرجها منه بالنقش عليها، وهو دعاء على من حظه هواه بالتنكيس وعدم الخروج مما يقع فيه.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: شتان بين من همّه الحور والقصور وبين من همّه الحضور ورفع الستور اهـ. ولأجل هذا كان مطلب العارفين إنما هو التحقق بالعبودية لمولاهم بالتحرر من رقّ هواهم والقيام بوظائف الربوبية بالأدب والتعظيم والإجلال لمولاهم وهما متلازمان، فمهما تحقق الصدق في العبودية إلّا حصل القيام بوظائف الربوبية، فإن النفس إذا ماتت بترك حظوظها حييت الروح وإذا حييت الروح عرفت وإذا عرفت أذعنت وخضعت لهيبة الجلال، وهذا هو القيام بحقوق الربوبية وهو مراد العارفين ومقصود السائرين ومحط نظر القاصدين والطالبين.

قيل لبعضهم: ما مراد العارف، قال: مراده معروفه اهـ. أي لا يريد إلّا ما أراد سيده ولا يتمنى إلّا ما يقضيه عليه مولاه. وقيل لبعضهم: ما تشتهي، قال: ما يقضي الله. فهذا يتحقق للعارف فناؤه وبتحقيق فنائه يتحقق بقاؤه. وأنشدوا:

لو قيلَ ما تمنّى والعبدُ يُعْطَى مُنَاهُ لقلتُ منيةُ قلبي في بَقَاهُ

أي بقائه مع مولاه والله تعالى أعلم. فإذا طلب العبد من مولاه ما هو طالبه منه من استقامة ظاهره بالنهوض إلى كمال الطاعات والحزن على ما سلف من الغفلات، واستقامة باطنه بمعرفة معبوده والفناء في شهوده، فيكون ظاهره قائماً بوظائف العبودية

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم (2730) [3/ 1057] وابن ماجه في سننه، باب في المكثرين، حديث رقم (4136) [2/ 1386] ورواه غيرهما.

وباطنه متحققاً بحقوق الربوبية.

* * *

ثم إذا أحس بإجابة المطلب وحصول المنى والمرغب، فرح قلبه وانبسطت روحه حيث شمت نسيم الإقبال وروح الوصال، فربما يقبضها البسط عن شهود مولاها فيخرجها منه إلى القبض، ثم يرحلها عنهما إليه، كما أشار الشيخ إلى ذلك بقوله:

77 ـ (بسطك كي لا يبقيك مع القبض وقبضك كي لا يتركك مع البسط وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه)

قلت: البسط فرح يعتري القلوب أو الأرواح، إما بسبب قرب شهود الحبيب أو شهود جماله أو بكشف الحجاب عن أوصاف كماله وتجلّي ذاته أو بغير سبب.

والقبض حزن وضيق يعتري القلب إما بسبب فوات مرغوب أو عدم حصول مطلوب أو بغير سبب، وهما يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار.

فالعوام إذا غلب عليهم الخوف انقبضوا وإذا غلب عليهم الرجاء انبسطوا.

والخواص إذا تجلّى لهم بوصف الجمال انبسطوا وإذا تجلّى لهم بوصف الجلال انقبضوا.

وخواص الخواص استوى عندهم الجلال والجمال فلا تغيّرهم واردات الأحوال لأنهم بالله ولله ولا لشيء سواه.

فالأولون ملكتهم الأحوال، وخواص الخواص مالكون الأحوال، فمن لطفه بك أيها السالك أخرجك من الأغيار ودفعك إلى حضرة الأسرار، فإذا أخذك القبض وتمكّن منك الخوف وسكنت تحت قهره وأنست بأمره أخرجك إلى البسط لئلا يحترق قلبك ويذوب جسمك، فإذا حبسك البسط وفرحت به وأنست بجماله قبضك لئلا يتركك مع البسط فتسيء الأدب وتجر إلى العطب، إذ لا يقف مع الأدب في البسط إلّا القليل، هكذا يسيرك بين شهود جلاله وجماله، فإذا شهدت أثر وصف الجلال انقبضت وإذا شهدت أثر وصف الجمال انبسطت.

ثم يفتح لك الباب ويرفع بينك وبينه الحجاب، فتتنزّه في كمال الذات وشهود الصفات، فتغيب عن أثر الجلال والجمال بشهود الكبير المتعال، فلا جلاله يحجبك عن جماله ولا جماله يحجبك عن جلاله ولا ذاته تحبسك عن صفاته ولا صفاته تحبسك عن ذاته، تشهد جماله في جلاله وجلاله في جماله، وتشهد ذاته في صفاته

وصفاته في ذاته، أخرجك عن شهود أثر الجلال والجمال لتكون عبد الله في كل حال، أخرجك عن كل شيء لتكون حرّاً من كل شيء وعبداً له في كل شيء.
وأنشدوا:

حرامٌ على مَنْ وحّدَّ اللَّه ربّه وأفرده أن يحتذي أحداً رفدا
فيا صاحبي قف بي على الحق وقفةً أموتُ بها وجداً وأحيا بها وجدًا
وقلْ لملوكِ الأرضِ تجهدُ جهدَهَا فذا الملكُ ملكٌ لا يباح ولا يهدا

قال فارس رضي الله عنه: القبض أولاً ثم البسط ثانياً ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط لمعان في الوجود وأما مع الفناء والبقاء فلا اهـ.

واعلم أن القبض والبسط لهما آداب، فإذا أساء فيهما الأدب طرد إلى الباب أو إلى سياسة الدواب، فمن آداب القبض الطمأنينة والوقار والسكون تحت مجاري الأقدار والرجوع إلى الواحد القهار، فإن القبض شبيه بالليل والبسط شبيه بالنهار، ومن شأن الليل الرقاد والهدوء والسكون والحنو، فاصبر أيها المريد واسكن تحت ظلمة ليل القبض حتى تشرق عليك شموس نهار البسط إذ لا بد لليل من تعاقب النهار ولا بد للنهار من تعاقب الليل، ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [**الحَجّ: الآية 61**] هذا آداب القبض الذي لا تعرف له سبباً.

وأما إن عرفت له سبباً فارجع فيه إلى مسبِّب الأسباب وَلُذْ بجانب الكريم الوهّاب، فهل عوّدك إلّا حسناً وهل أسدى إليك إلّا مناً، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عوّدك حسن الاختيار، فالذي أنزل الداء هو الذي بيده الشفاء، يا مهموم بنفسه لو ألقيتها إلى الله لاسترحت، فما تجده القلوب من الأحزان فلأجل ما منعته من الشهود والعيان.

والحاصل: أن سبب القبض إنما هو النظر للسوى والغفلة عن المولى، وأما أهل الصفاء فلا يشهدون إلّا الصفاء، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول: «**من أصابه هم أو غم فليقل: الله الله لا أشرك به شيئاً، فإن الله يذهب همّه وغمّه**»[1] أو كما قال عليه السلام، والحديث صحيح، فانظر كيف دلّ عليه الصلاة والسلام

---

(1) روى نحوه الطبراني في الكبير عن أسماء بنت عميس، حديث رقم (396) [24/ 154] ولفظه: «من أصابه هم أو غم أو سقم أو شدة فقال الله ربي لا شريك له، كشف ذلك عنه». ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10228) و(10229) [7/ 257] ولفظه: «من أصابه هم أو غم أو سقم أو أزل أو لأواء فقال: الله الله لا أشرك به شيئاً، فإن الله يذهب همه وغمه».

المقبوض إلى الدواء وهو شهود التوحيد والغيبة عن الشرك فدلنا ﷺ على القول. والمراد منه المعنى فكأنه قال: اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطاً ونقمتكم نعمة، وكذلك في حديث آخر قال: **«ما قال أحد اللهمّ إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همّي إلَّا أذهب الله همه وغمه وأبدل مكان همّه فرحاً وسروراً»**[1].

فدلّهم أولاً في الحديث الأول على شهود الربوبية، وفي الحديث الثاني على القيام بوظائف العبودية، وهو الصبر والرضى، إذ من شأن العبد أن يصبر على أحكام سيده ويسلِّم ويرضى لما يجريه عليه من أوصاف قهره.

ومن آداب البسط كف الجوارح عن الطغيان وخصوصاً جارحة اللسان، فإن النفس إذا فرحت بطرت وخفت ونشطت فربما تنطق بكلمة لا تلقي لها بالاً فتسقط في مهاوي القطيعة بسبب سوء أدبها، ولذلك كان البسط مزلة أقدام فإذا أحس المريد بالبسط فليلجم نفسه بلجام الصمت وليتحلّ بحلية السكينة والوقار، وليدخل خلوته وليلتزم بيته، فمثل الفقير في حالة البسط والقوة كقدر غلى وفار فإن تركه يغلي اهراق إدامه وبقي شاحتاً وإن كفّه وأخمد ناره بقي إدامه تاماً كذلك الفقير في حالة القوّة والبسط يكون نوره قويّاً وقلبه مجموعاً فإذا تحرَّك وبطش وتتبع قوّته برد ورجع لضعفه وما ذلك إلَّا لسوء أدبه، والله تعالى أعلم.

* * *

ولأجل هذا كان العارفون يخافون من البسط أكثر من القبض، كما نبّه عليه بقوله:

78 ـ (العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا)

قلت: كل من فتح عليه في شهود المعاني فهو عارف، فإن تمكن من شهود المعنى على الدوام فهو واصل متمكّن وإلا فهو سائر.

وإنما كان العارف إذا انبسط أخوف منه إذا انقبض لأن القبض من شأنه أن يقبض النفس عن حظوظها ومن شأنه أيضاً السكون، والسكون كله أدب. ومن شأن

---

(1) روى نحوه أحمد في المسند، آخر أحاديث عبد الله بن عباس، حديث رقم (3712) [1/ 391] ورواه غيره.

البسط أن يبسط النفس وينشطها، فربما تبطش لما فيه حظها فتزل قدم بعد ثبوتها بسبب قلّة آدابها، ولذلك قال:

78 ـ (ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلاَّ قليل)

قلت: وهم أهل الطمأنينة والتمكين لأنهم كالجبال الرواسي لا يحركهم قبض ولا بسط، فهم مالكون الأحوال لا يخرجهم القبض ولا البسط عن حالة الاعتدال بخلاف السائرين وإن كانوا عارفين فإنهم ربما تؤثر فيهم الواردات فيرد عليهم وارد البسط فيخرجهم عن حد الأدب. وقد قيل: قف على البساط وإياك والانبساط.

وقال رجل لأبي محمد الحريري رضي الله عنه: كنت على بساط الأنس وفتح عليّ طريق البسط فزللت زلّة فحجبت عن مقامي، فكيف السبيل إليه دلّني على الوصول إلى ما كنت عليه. فبكى أبو محمد وقال: يا أخي الكل في قهر هذه الخطة لكني أنشدك أبياتاً لبعضهم، وأنشد يقول:

قفْ بالديارِ فهذهِ آثارُهُم تبكي الأحبةُ حسرةً وتشوّقَا
كمْ قدْ وقفتُ بربعها مستخبراً عن أهلها أو سائلاً أو مُشفقَا
فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقتَ مَنْ تَهْوَى فعزَّ المُلتَقَا

* * *

ثم علّل عدم الوقوف على حدود الأدب في البسط فقال:

79 ـ (البسط تاخذ النفس منه حظها بوجود الفرح، والقبض لا حظ للنفس فيه)

قلت: لأن البسط جمال والقبض جلال، ومن شأن الجمال أن يأتي بكل جمال، وأين هو الجمال ثم هو عين الجلال أين هو حبيبك ثم هو عدوك، أين هو الربح ثم هو الخسارة. ومعنى ذلك أن الموضع الذي يلائم النفس ويليق بها ثَمَّ هو خسارة القلب وحجاب الروح لأن الموضع الذي تحيا به النفس يموت فيه القلب. والموضع الذي تموت فيه النفس يحيا به القلب والروح. ولذلك قال ابن الفارض رضي الله عنه:

الموتُ فيهِ حياتي وفي حياتِيَ قَتْلِي

وقال الششتري رضي الله عنه:

إن تُردْ وصلَنَا فموتُكَ شرطٌ لا ينالُ الوصالَ مَنْ فيهِ فضلَة

وكتب يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله إلى الجنيد رضي الله عنه: لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لا تذق بعدها خيراً أبداً. اهـ.

وقال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: القبض حق الحق منك، والبسط حقك منه، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك. اهـ.

وهذا كله في حق السائرين. وأما الواصلون المتمكنون فلا يؤثر فيهم جلال ولا جمال، ولا يحركهم قبض ولا بسط كما تقدم، لأنهم بالله ولله ومن الله وإلى الله، بالله تصرّفهم ولله عبوديتهم، ومن الله ورودهم، وإلى الله صدورهم، لأنهم لله لا لشيء دونه.

قال الجنيد رضي الله عنه: الخوف يقبضني والرجاء يبسطني والحقيقة تجمعني والحق يفرقني إذا قبضني بالخوف أفناني عني وإذا بسطني بالرجاء ردني عليّ وإذا أجمعني بالحقيقة أحضرني وإذا فرقني بالحق أشهدني غيري فغطاني عنه فهو في كل ذلك محركي غير مسكني وموحشي غير مؤنسي بحضوري لذوق طعم وجودي فليته أفناني عني فمتعني أو غيّبني عني فروحني اهـ.

قوله رضي الله عنه: الخوف يقبضني لأن العبد في حالة الخوف يشهد ما منه إلى الله من الإساءة فينفتح له باب الحزن، وفي حالة الرجاء يشهد ما من الله إليه من الإحسان فينفتح له باب الرجاء والبسط.

وقوله: والحقيقة تجمعني أي تغيبني عن نفسي وتجمعني به فلا نشهد إلَّا ما من الله إلى الله فلا قبض ولا بسط. وقوله: والحق يفرّقني، المراد بالحق الحقوق اللازمة للعبودية، فلا ينهض إليها إلَّا بشهود نوع من الفرق وإن كان نهوضه بالله.

وقوله: إذا قبضني بالخوف أفناني عني أي إذا تجلى لي باسمه الجليل ذاب جسمي من هيبة المتجلي وإذا بسطني بالرجاء بأن تجلّى لي باسمه الجميل أو الرحيم رد نفسي ووجودي عليّ، وإذا جمعني إليه بشهود الحقيقة أحضرني معه بزوال وهمي، وإذا فرّقني بالحق الذي أوجبه عليّ للقيام بوظائف حكمته أشهدني غيري حتى يظهر الأدب مني معه وقد يقوى الشهود فلا يشهد الأدب إلَّا منه إليه.

وقوله: فغطاني عنه، لأن العبد في حالة النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ قد يرجع لمقام المراقبة لكنه غير لازم. وسيأتي للمؤلف: بل نزلوا في ذلك بالله ومن الله وإلى الله فعلى هذا لا تغطية للعبد في حالة النزول للحق أصلاً.

وقوله: فهو في كل ذلك محركي غير مسكني، يعني أن الحق تعالى حين يقبضه

بالخوف أو يبسطه بالرجاء أو يجمعه بالحقيقة أو يفرقه بالحق هو محرِّك له ليسيّره إليه ويحوشه إليه غير مسكن له في مقام واحد وموحشه عن عالم نفسه غير مؤنس له بها بسبب حضوره مع عوالمه البشرية فيذوق طعم وجودها فإذا غيّبه عنه عرف قدر ما منَّ به عليه ولذلك قال: فليته أفناني عني، أي عن رؤية وجودي فمتعني بشهوده أو غيّبني عن حسي فروّحني من الحقوق التي تفرّقني عنه بإسقاطها عني في حالة الغيبة، وكأنه مال إلى طلب السلامة خوفاً من الوقوع فيما يوجب الملامة، وإن كان الكمال هو الجمع بين العبودية وشهود الربوبية والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ذكر أسباب القبض والبسط وهو العطاء والمنع في الغالب، فقال:

80 ـ (ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فاعطاك)

قلت: الغالب على النفس الأمارة واللوَّامة أن تنبسط بالعطاء وتنقبض بالمنع لأن في العطاء متعتها وشهوتها فلا جرم أنها تنبسط بذلك، وفي المنع قطع موادها وترك حظوظها، ولا شك أنها تنقبض بذلك، وذلك لجهلها بربّها وعدم فهمها، فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع كما يأتي.

فافهم أيها الفقير عن مولاك ولا تتهمه فيما به أولاك فربما أعطاك ما تشتهيه النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس، وربما منعك ما تشتهيه نفسك فيتم بذلك حضورك وأنسك، ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها فمنعك جمال الحضرة وبهجتها، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها، ربما أعطاك قوت الأشباح فمنعك قوت الأرواح، وربما منعك من قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح، ربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق، وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق، ربما أعطاك العلوم وفتح لك مخازن الفهوم فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيّوم، وربما منعك من كثرة العلوم وأعطاك الأنس بالحي القيّوم فأحطت بكل مجهول ومعلوم، ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة، ربما منعك من عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة، وربما أعطاك التعزز بالخلق ومنعك من التعزز بالحق، وربما منعك من التعزز بالخلق وأعطاك التعزز بالملك الحق، ربما أعطاك خدمة الكون فمنعك من شهود المكوِّن، وربما منعك من خدمة الكون وأعطاك شهود المكوِّن، ربما أعطاك التصرُّف في المُلك ومنعك دخول الملكوت، وربما منعك من التصرف في المُلك ومنحك شهود الملكوت، ربما أعطاك أنوار الملكوت فمنعك الترقّي إلى بحر الجبروت، وربما

حجب عنك أنوار الملكوت فأعطاك الدخول إلى حضرة الجبروت، ربما أعطاك القطبانية ومنعك التمتُّع بشهود الفردانية، وربما منعك القطبانية ومتّعك بشهود سر الوحدانية، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلَّا علَّام الغيوب.

قال ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه: إذا منعت فذاك عطاؤه، وإذا أعطيت فذاك منعه، فاختر الترك على الأخذ اهـ. وشاهده قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 216] الآية.

* * *

فإذا فهمت هذا علمت أن المنع هو العطاء كما بيَّنه بقوله:

81 - (متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء)

قلت: إذا فهمت أيها العبد عن الله بعد تحققك برحمته ورأفته وكرمه وجوده ونفوذ قدرته وإحاطة علمه علمت أنك إذا سألته شيئاً أو هممت بشيء أو احتجت إلى شيء فمنعك منه فإنما منعك ذلك رحمة بك وإحساناً إليك إذ لم يمنعك من بخل ولا عجز ولا جهل ولا غفلة، وإنما ذلك حسن نظر إليك وإتمام لنعمته عليك لكونه أتم نظر وأحمد عاقبة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 216] ، فربما دبرنا أمراً ظننا أنه لنا فكان علينا، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد والشدائد من وجوه الفوائد، وربما كمنت المنن في المحن والمحن في المنن، وربما انتفعنا على أيدي الأعداء وأوذينا على أيدي الأحباء، وربما تأتي المسار من حيث المضار وقد تأتي المضار من حيث المسار.

ولأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في حزبه: اللهمَّ إنَّا قد عجزنا عن دفع الضرّ عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم.

فمتى فتح لك أيها المريد باب الفهم عنه في المنع وعلمت ما فيه من الشر والخير وحسن النظر لك عاد المنع في حقك هو عين العطاء. ومثال ذلك كصبي رأى طعاماً حسناً أو حلواء أو عسلاً وفيه سم وأبوه عالم بما فيه فكلما بطش الصبي لذلك الطعام ردّه أبوه فالصبي يبكي عليه لعدم علمه وأبوه يرده بالقهر لوجود علمه، فلو عقل الصبي ما فيه ما بطش إليه ولعلم نصح أبيه وشدّة رأفته به.

ومثال آخر، كرجل صنع طعاماً جيداً وعمل فيه بصاقاً ومخاطاً أو قذراً وأتى به لمن لا يعرفه فكل من رآه ولم يعرف ما فيه بطشت نفسه إليه، فلو علم ما فيه ما بطشت

نفسه، فإذا نهاه عنه من علم ما فيه اتهمه لعدم فهمه، كذلك العبد يبطش للدنيا أو الرياسة أو غير ذلك مما فيه ضرره فيمنعه الحق تعالى منه رحمة به وشفقة عليه واعتناء به فإذا فهم عن الله سلم الأمر إلى مولاه ولم يتهمه فيما أبرمه وقضاه، وإذا لم يفهم عن الله تحسر وربما سخط، فإذا انكشف له سر ذلك بعدُ علم ما كان في ذلك من الخير لكن فاته درجة الصبر لقوله عليه السلام: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[1].

وانظر قضية الرجل الذي كان يسكن في البادية، وكان من العارفين، فاتفق له ذات يوم أن مات حماره وكلبه وديكه فأتى إليه أهله فقالوا له: حين مات الحمار مات حمارنا، فقال: خير، ثم قالوا: مات الكلب، فقال: خير، ثم قالوا له: مات الديك، فقال: خير، فغضب أهل الدار وقالوا: أي خير في هذا متاعنا ذهب ونحن ننظر. فاتفق أن بعض العرب ضربوا على ذلك الحي في تلك الليلة فاجتاحوا كل ما فيه وكانوا يستدلون على الخيام بنهيق الحمار ونباح الكلاب وصراخ الديكة فأصبحت خيمته سالمة إذ لم يكن بقي من يفضحها. فانظر كيف كان حسن نظر الحق لأوليائه وحسن تدبيره لهم وكيف فهم الرجل العارف ما في ذلك من السر في أول مرة، فهذا هو الفهم عن الله، رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر آمين.

قال الشبلي: الصوفية أطفال في حجر الحق تعالى. اهـ. يعني أنه يتولى حفظهم وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم ولا يكلهم إلى أنفسهم والله تعالى أعلم.

* * *

وسبب عدم الفهم عن الله هو الوقوف مع ظواهر الأشياء دون النظر إلى بواطنها كما أبان ذلك بقوله:

82 ـ (الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة)

قلت: الغرة بكسر الغين وقوع الغرور، وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لوجهين: **أحدهما**: ما جعل الله سبحانه على ظاهر حسها من البهجة وحسن المنظر، وما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب، وشهوة المناكح والمساكن والبساتين والرياضات، وكثرة الأموال والبنين وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر، وغير ذلك من بهجتها وزهرتها وزخرفها، فانكب جلّ الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها والجري عليها الليل والنهار والشهور

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب زيارة القبور، حديث رقم (1223) [1/ 430] ومسلم في صحيحه، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، حديث رقم (926) [2/ 637] ورواه غيرهما.

والأعوام، حتى هجم عليهم هاذم اللذّات فأعقبهم الندم والحسرات ولم ينفع الندم وقد جفّ القلم، سافروا بلا زاد، وقدموا على الملك بلا تأهُّب ولا استعداد، فاستوجبوا من الله الطرد والبعاد، ولأجل هذا حذّر الله سبحانه من غرورها وزخرفها والوقوف مع ظاهرها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 14] الآية، ثم قال: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية 15]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: الآية 7] أي: لنختبرهم أيهم أزهد فيها، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: الآية 131] أي أصنافاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه.

وسئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال: **«الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم فما عارضهم من نائلها عارضٍ إلّا رفضوه ولا خادعهم من رفعتها خادع إلّا وضعوه، خلقت الدنيا في قلوبهم فلم يجددوها وخربت بنيانهم فما يعمرونها، وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها ليشتروا بها ما يبقى لهم، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم المثلات فما يرون أماناً دون ما يرجون ولا خوفاً دون ما يجدون»**[1] اهـ.

(1) قال السيوطي في الدر المنثور [4/ 370]: «أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب قال: قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكرهم إياها فواتاً وفرحهم بما أصابوا منها حزناً وما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فليس يجددونها وخربت بينهم فليس يعمرونها، وماتت في صدورهم فليس يحبونها يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ويرفضونها، فكانوا برفضها هم الفرحين وباعوا فكانوا ببيعها هم المربحين، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلات فأحبوا ذكر الموت وتركوا ذكر الحياة يحبون الله تعالى ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب وبه علموا، وليس يرون نائلاً مع ما نالوا ولا أماني دون ما يرجون ولا خوفاً دون ما يحذرون». وعلى هذا الذي أورده السيوطي يكون الأثر لسيدنا عيسى عليه السلام. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ترجمة أبو بكر الصديق [1/ 10] ورواه غيرهما.

وقال عليّ [أمير المؤمنين] كرَّم الله وجهه فيما كتبه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه: إنما مثل الدنيا كمثل الحية ليِّن مسّها قاتل سمها فأعرض عنها وعما يعجبك منها لقلّة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه. اهـ.

فقد جعل الحق سبحانه هذه الأكوان، وهي الدنيا وما اشتملت عليه، ظاهرها فتنة وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان مغروراً ومن نفذ إلى باطنها كان عند الله مبروراً، فأهل الغفلة والبطالة وقفوا مع متعة عاجلها وبهجة ظاهرها فغرّتهم بزخرفها وخدعتهم بغرورها حتى أخذتهم بغتة، وأهل اليقظة والحزم نفذوا إلى باطنها فعرفوا سرعة ذهابها وقلّة بقائها فاشتغلوا بجمع الزاد وتأهبوا ليوم المعاد، أولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وكان السلف الصالح إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين.

الوجه الثاني: إنما جعل الله سبحانه الأكوان ظاهرها غرة تغطية لسره وإظهاراً لحكمته، وذلك أن الحق سبحانه لما تجلّى في مظاهر خلقه غطى سرّه بظهور حكمته، أو تقول: الأكوان ظاهرها ظلمة وباطنها نور، فمن وقف مع الظلمة كان محجوباً، ومن نفذ إلى شهود النور كان عارفاً محبوباً. أو تقول: الأكوان ظاهرها حس وباطنها معنى فمن وقف مع الحس كان جاهلاً ومن نفذ إلى المعنى كان عارفاً. أو تقول: الأكوان ظاهرها ملك وباطنها ملكوت فمن وقف مع الملك كان من عوام أهل اليمين ومن نفذ إلى شهود الملكوت كان من خواص المقرّبين. وقد أشرت إلى ذلك في قصيدتي التائية حيث قلت:

إذا حُبِسَتْ نفسٌ في سجنِ الهوى الذي ... تَقَيّدَ بهِ العقلُ في قهرِ قَبْضَةِ
وأشغلهَا علمُ الصوانِ لحكمةٍ ... فلمْ ترَ إلّا الكونَ في كلّ وِجْهَةِ
فذلكَ عينُ الملكِ وهم ثبوتهِ ... وناظرُهُ محجوبٌ في سجنِ ظلمةِ
وإنْ نَفَذَتْ روحُ المقدس سرُّهُ ... إلى دركِ نورِ الحقِ فاضَ بقدرةِ
فذَا ملكوتُ اللّهِ يسمَّى لوسعِهِ ... وعارِفُهُ يحظَى بفتحِ بصيرةِ

والله تعالى أعلم.

* * *

ثم بيَّن الشيخ الواقف مع الظواهر والنافذ إلى البواطن، فقال:

82 - (فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها)

قلت: إنما كانت النفس تنظر عبرتها إلى ظاهر غرتها لما فيها من متعة شهوتها وحظوظها فلا يخرجها عن ذلك إلا شوقٌ مقلق أو خوف مزعج أو عناية ربانية إما بواسطة شيخ كامل له إكسير يقلّب به الأعيان، أو بغير واسطة، والله ذو الفضل العظيم.

وإنما كان القلب ينظر إلى باطن عبرتها لما فيه من نور العرفان الذي يفرّق بين الحق والباطل ويميّز بين النافع والضار وهو ثمرة التقوى والتصفية. أو تقول: لما فيه من عين البصيرة التي لا ترى إلَّا المعاني بخلاف عين البصر لا ترى إلَّا الحس.

فتحصّل أن أهل النفوس وقفوا مع ظواهر الأشياء واغتروا بعاجلها ولم يهتموا بآجلها فحجبوا عن العمل وغرّهم الأماني وطول الأمل، وفي مثلهم ورد الخبر عن سيدنا عيسى عليه السلام كان يقول: «ويلكم علماء السوء مثلكم كمثل قناة حش، ظاهرها جص، وباطنها نتن» اهـ. والحش هو بيت الخلاء، وأهل القلوب لم يقفوا مع ظواهر الأشياء بل نفذوا إلى بواطنها واهتموا بآجلها ولم يغترّوا بعاجلها فاشتغلوا بالجد والاجتهاد وأخذوا في الأهبة والاستعداد وهم العباد والزهاد وأهل الأرواح والأسرار لم يقفوا مع الأكوان لا ظاهرها العاجل ولا باطنها الآجل، بل نفذوا إلى نور الملكوت فاشتغلوا بتطهير القلوب والتأهُّب لحضرة علَّام الغيوب حتى صلحوا للحضرة وتنزَّهوا في رياض الفكرة والنظرة، ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجَادلة: الآية 22]، أولئك المقرّبون في جنات النعيم ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾ [القَمَر: الآية 55] جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

* * *

وهؤلاء من تعلق بهم هم الأعزاء عند الله تعززوا بطاعة العزيز فعزَّهم العزيز كما أشار إلى ذلك بقوله:

83 - (إن أردت أن يكون لك عزّ لا يفنى فلا تستعزنّ بعزّ يفنى)

قلت: العزّ الذي لا يفنى هو العز بالله والغنى بطاعة الله أو بالقرب ممن تحقق عزّه بالله، فالعزّ بالله يكون بتعظيمه وإجلاله وهيبته ومحبته ومعرفته وحسن الأدب معه في كل شيء وعلى كل حال، ويكون بالرضى بأحكامه والخضوع تحت قهر جلاله وكبريائه، وبالحياء والخوف منه، ويكون بالذلّ والانكسار، كما قال الشاعر:

تـذلّـلْ لـمَـنْ تـهـوَى لـتـكـسـبَ عـزَّةً ... فـكَـم عـزَّةٍ قـدْ نـالَـهـا الـمـرءُ بـالـذُّلّ

إذا كانَ مَنْ تهوَى عزيزاً ولمْ تكُن ذليلاً لهُ فاقرأ السلامَ على الوصلِ

وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: والله ما رأيت العز إلّا في الذلّ. وقال شيخ شيخنا مولاي العربي: وأنا أقول والله ما رأيت الذلّ إلّا في الفقر، يعني أن الشيخ فسّر الذلّ بالفقر إذ لا يتحقق ذلّ الإنسان إلّا بالفقر فهو ذلّ الذلّ لأن النفس تموت بالفقر ولا يبقى لها عرق أصلاً والله أعلم.

وأما العزّ بطاعة الله فهو بالمبادرة لامتثال أمره واجتناب نهيه والإكثار من ذكره وبذل المجهود في تحصيل برّه.

وأما العزّ بالقرب ممن تحقق عزّه بالله فيكون بصحبتهم وتعظيمهم وخدمتهم وحسن الأدب معهم، وهذا في التحقيق يرجع إلى التعزُّز بالله لكونه وسيله إليه، فإذا تحقق عزّه بالله استغنى بعز الله عن عزّ غيره، فمن حصَّل هذا العزّ وتحقق به فقد تعزَّز بعزّ لا يفنى أبداً ينسحب عليه وعلى أولاده وأولاد أولاده إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فَاطِر: الآية 10]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المَائدة: الآية 56] والمراد بالذين آمنوا: هم الأولياء أهل الإيمان الكامل. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنَافِقون: الآية 8]. وقال سيِّدنا علي كرَّم الله وجهه: «من أراد الغنى بغير مال والكثرة بغير عشيرة فلينتقل من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة» اهـ. فمن تحقق عزّه بالله لم يقدر أحد أن يذلّه.

وانظر قضية الرجل الذي أمر هارون الرشيد بالمعروف فحنق عليه فقال: اربطوه مع بغلة سيئة الخلق لتقتله، فلم تقض فيه شيئاً، ثم قال: اسجنوه وطيّنوا عليه البيت، ففعلوا فرؤي في بستان فأتي به فقال له: من أخرجك من السجن، فقال: الذي أدخلني البستان، فقال: ومن أدخلك البستان، فقال: الذي أخرجني من السجن. فعلم هارون أنه لم يقدر على ذلّه فأمر هارون أن يركب على دابة وينادى عليه: ألا إن هارون أراد أن يذلّ عبداً أعزّه الله فلم يقدر. اهـ.

وأما التعزز بالعز الذي يفنى فهو التعزز بالمخلوق كتعزز ملوك الجور ومن انتسب إليهم بكثرة الأتباع والأجناد وبالعصي والقهر، وكالتعزز بالأموال والجاه في غير محله والرياسة وغير ذلك مما ينقطع ويبيد، فمن تعزز بهذا مات عزّه واتصل ذلّه فإن التعزز بالمخلوق قطعاً يعقبه الذلّ عاجلاً وآجلاً.

وانظر قضية الرجل الذي تكبّر في الحرم فصار بعد ذلك يتكفف الناس، وقال: إني تكبّرت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني في موضع [لا] ترتفع فيه الناس. ذكر القضيتين في التنبيه. ويقال لمن تعزز بالمخلوق: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧﴾ [طه: الآية 97].

ودخل عارف على رجل يبكي فقال له: وما يبكيك، فقال له: مات أستاذي، فقال له: ولم جعلت أستاذك من يموت. فنبّهه على رفع همّته وإنفاذ بصيرته وقد مات شيخه قبل أن يرشد، والله تعالى أعلم. فإن أردت أيها المريد أن يكون لك عزّ لا يفنى فاستعز بالله وبطاعة الله وبالقرب من أولياء الله ولا تستعزن بعزّ مخلوق يفنى فإن من تعزَّز بمن يموت مات عزّه، قال الله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النّساء: الآية 139]. وقال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: والله ما رأيت العزّ إلّا في رفع الهمّة عن الخلق.

تنبيه وإرشاد: اعلم أن سبب العز الذي يعطيه الله لأوليائه هو حبه لهم، فالعزّ نتيجة الحب. ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماوات: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض فيحبه أهل الأرض**»[1]. وفي رواية: يلقى له القبول في الماء فيشربه الناس فيحبونه جميعاً. أو كما قال عليه السلام.

وسبب حب الله للعبد هو زهده في الدنيا، ففي حديث الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»[2]. ثم **اعلم** أن هذا العز الذي يعطيه الله لأوليائه لا يكون في بدايتهم ولا في أول أمرهم لئلا يفتنهم الخلق عن الوصول إلى الحق بل من لطف الله بهم وإغارته عليهم أن ينفر عنهم الخلق أو يسلّط عليهم حتى يتخلصوا من رقّ الأشياء ويتحققوا بالوصول والتمكين فحينئذ إن شاء أظهر عزّهم لينفع بهم عباده ويهدي بهم من شاء من خلقه، وإن شاء أخفاهم واستأثر بعزّهم حتى يقدموا عليه فينشر عزّهم ويظهر مكانتهم

---

(1) رواه البخاري برقم (3037) [3/ 1175] باب ما جاء في قوله: «وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته». ومسلم برقم (2637) [4/ 2030] باب إذا أحب الله عبداً. ورواه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7873) [4/ 348] والطبراني في المعجم الكبير، عن سهل بن سعد، حديث رقم (5972) [6/ 193] ورواه غيرهما.

في دار لا فناء لها. وسيأتي الكلام على هذا في محله إن شاء الله.

* * *

ثم ذكر الشيخ سبب العزّ الذي لا يفنى، وهو الزهد في الدنيا كما ذكرنا، فقال:

84 - (الطيّ الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك)

قلت: الطيّ هو اللطف والضم بحيث يصير الطويل قصيراً والكبير صغيراً. يقال: طويت الثوب أي ضممته. وينقسم عند الصوفية إلى أربعة أقسام: طيّ الزمان، وطيّ المكان، وطيّ الدنيا، وطيّ النفوس.

فأما طيّ الزمان، فهو أن يقصر في موضع ويطول في موضع آخر، كمن مرّ عليه سنون في موضع وفي موضع آخر ساعة أو يوم، كالرجل الذي خرج يغتسل في الفرات يوم الجمعة قرب الزوال فلما فرغ من غسله لم يجد ثيابه فسلك طريقاً حتى دخل مصر فتزوج فيها وولد له أولاد وبقي سبع سنين، ثم ذهب يغتسل يوم الجمعة بنيل مصر فلما فرغ فإذا ثيابه الأولى فسلك طريقاً فإذا هو ببغداد قبل صلاة الجمعة من ذلك اليوم الذي خرج فيه، والحكاية مطوّلة للفرغاني في شرح التائية[1].

وأما طيّ المكان فمثاله أن يكون بمكة مثلاً فإذا هو بغيرها من البلدان، وهذا مشهور لأولياء الله. قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: والله ما صار الأولياء من قاف إلى قاف حتى يلقوا رجلاً مثلنا فإذا لاقوه كان بغيتهم.

وأما طي الدنيا، فهو أن تطوى عنك مسافتها بالزهد فيها والغيبة عنها وحصول اليقين التام في قلبك حتى يكون الآتي عندك واقعاً، أو كالواقع. وسيأتي للشيخ: لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ولرأيت الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها. وسيأتي تتمة الكلام على هذه الحكمة إن شاء الله.

وأما طيّ النفوس، فهو بالغيبة في الله عنها، ولذلك يتحقق الزوال، وتمام الوصال. وقد ذكره الشيخ بقوله فيما يأتي: ليس الشأن أن تطوى لك الأرض فإذا أنت بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن أن تطوي عنك أوصاف نفسك فإذا أنت عند ربك اهـ. وهذا هو الطيّ الحقيقي المعتبر عند المحققين لا طيّ الزمان أو

---

(1) واسم الكتاب الكامل هو «منتهى المدارك شرح تائية ابن الفارض» والفرغاني هو محمد بن أحمد بن محمد المدعو سعيد الدين الفرغاني المتوفى سنة 700 هجرية.

المكان إذ قد يكون استدراجاً أو مكراً أو تخيّلاً وسحراً، فالطي الحقيقي هو أن تطوي عنك مسافة الدنيا كلها حتى يكون الموت أقرب إليك من نفسك التي بين جنبيك، وكما قال الصدِّيق رضي الله عنه:

كلّ امرىءٍ مصبحٌ في أهلِهِ والموتُ أدنى مِنْ شراكِ نعلِه

وحتى ترحل عنها بالكلية فلا تبقى فيك منها بقية هنالك، ترحل إلى عالم الملكوت وتكشف لك أسرار الجبروت. وقد قيل في قوله عليه السلام: **«الدنيا خطوة مؤمن»**[1] بمعنى أنه يتخطاها بالزهد فيها. وقال بعضهم: لا تتعجبوا ممن يدخل يده في جيبه فيخرج ما يريد ولكن تعجبوا ممن يضع يده في جيبه ولم يجد شيئاً ولم يتغيّر.

وقيل لأبي محمد المرتعش: إن فلاناً يمشي على الماء، قال: عندي من مكّنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من المشيء على الماء وفي الهواء اهـ. ومخالفة الهوى إنما تكون بالزهد في كل شيء والغيبة عن كل شيء. وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: لا تفرحوا للفقير إذا رأيتموه يصلي كثيراً أو يذكر كثيراً أو يصوم كثيراً أو يعتزل كثيراً حتى تروه زهد في الدنيا ورحل عنها ولم يبق له التفات إليها، فحينئذ يفرح به ولو قلّت صلاته وصيامه وذكره وعزلته.

قلت: ومثل هذا تقدم في قوله: ما قلّ عمل برز من قلب زاهد. وكذلك قال في التنوير: لا تدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربّه وانحياشه إليه بقلبه وتحرّره من رقّ الطمع وتحليه بحلية الورع وبذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال اهـ. فما قاله شيخ شيخنا صحيح لكن لا يفهمه إلّا أهل الفن من أهل الذوق، إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة، وإنما تكون المجاهدة أولاً، فإذا حصلت المشاهدة في الباطن ركدت الجوارح في الظاهر وما بقي إلّا فكرة أو نظرة، والأدب مع الحضرة وربما يعترض على الشيخ من لم يعرف مقصوده من جهله علم الطريق وبالله التوفيق.

* * *

وإنما يتحقق طيّ مسافة الدنيا بتحقق الزهد فيها ولا يتحقق الزهد فيها إلّا برفع الهمّة عن الخلق والتعلُّق بالملك الحق وبالإياس مما في أيدي الناس، كما أبان ذلك بقوله:

85 ـ (العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان)

قلت: إنما كان العطاء من الخلق حرماناً لثلاثة أوجه: **أحدها**: ما في ذلك من

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

حظها وفرحها والتوصل إلى شهواتها وحظوظها، وفي ذلك موت القلب وقسوته.

الوجه الثاني: ما في ذلك من نقص الدرجات والغض عن كمال المراتب والمقامات، ولذلك ترك الأكابر التمتُّع بالشهوات لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [**الأحقاف: الآية 20**]. وقد يتعرض المريد للسؤال لأجل موت نفسه وحياة روحه فإذا كثر عليه العطاء من الخلق فرحت النفس وأنست فلا تموت به سريعاً بخلاف ما إذا واجهه المنع فإنها تموت سريعاً إذ لا حظ لها فيه، فالجهاد الذي لا غنيمة فيه أعظم من الجهاد الذي فيه الغنيمة. فقد ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا خرجت طائفة للغزو فجاهدوا وغنموا فقد تعجلوا ثلثي أجرهم، وإذا لم يغنموا رجعوا بأجرهم كاملاً**»[1] أو كما قال ﷺ.

الوجه الثالث: ما في ذلك من الركون إليهم وميل القلب بالمحبة لهم، إذ النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، فتسترق لهم وتكون أسيرة في أيديهم. وفي وصية سيدنا علي كرَّم الله وجهه: «لا تجعل بينك وبين الله منعماً وعدّ نعمة غيره عليك مغرماً». وأنشد رضي الله عنه:

لعمرُكَ من أوليتَهُ منكَ نعمةً ... ومدّ لها كفّاً فأنتَ أميرُهُ

ومنْ كنتَ محتاجاً إليه فإنّهُ ... أميرك تحقيقاً وأنتَ أسيرُهُ

ومن كنتَ عنهُ ذا غِنًى وهو مالِكُ ... أزمةَ أهلِ الدّهرِ أنتَ نظيرُهُ

فعشْ قانعاً إن القناعةَ للفتَى ... غناءٌ وهذَا مقتضَى ما أشيرُهُ

وقال آخر:

فلا أَلبس النَّعما وغيرُك مُلبسي ... ولا أملكُ الدنيا وغيرُك واهبي

وقال شيخ شيوخنا ومادة طريقنا بعد نبيِّنا مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه لأبي الحسن رضي الله عنه: يا أبا الحسن اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم فإن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك اهـ.

وقال بعضهم: عزّ النزاهة أكمل من سرور الفائدة. ولأجل هذا المعنى قال عليه

---

(1) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب بيان قدر ثواب من غزا...، حديث رقم (1906) [3/ 1514] والحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد، حديث رقم (2414) [2/ 87] ورواه غيرهما.

السلام: «**إذا أسدى إليكم أحد معروفاً فكافئوه**»[1] أي لتسقطوا منّته عليكم وتقطعوا رقبته لكم، والله تعالى أعلم. وإنما كان المنع من الله إحساناً لوجهين: **أحدهما** ما تقدم من أن الله سبحانه ما منعك بخلاً ولا عجزاً وإنما هو حسن نظر لك، إذ لعل ما طلبته لا يليق بحالك في الوقت وأخره لوقت هو أولى لك وأحسن أو ادخر لك ذلك ليوم فقرك.

الثاني: ما في ذلك من دوام الوقوف ببابه واللياذ بجنابه، وفي ذلك غاية شرفك ورفع لقدرك. وفي الحديث: «**إذا دعا العبد الصالح يقول الله تعالى للملائكة: أَخِّروا حاجته فإني أحب أن أسمع صوته، وإذا دعا الفاجر قال للملائكة: اقضوا حاجته فإني أكره صوته**»[2] أو كما قال عليه السلام لطول العهد به.

تنبيه: ما ذكره الشيخ من كون العطاء من الخلق حرماناً إنما هو باعتبار السائرين أو باعتبار الزهاد والعباد، وأما الواصلون إلى الله المتمكنون مع الله فقد تولَّاهم الحق وغيّبهم عن شهود الخلق، فهم يتصرفون بالله يأخذون من الله ويدفعون بالله ولا يرون في الوجود إلَّا الله.

مذ عرفتُ الإلٰهَ لم أر غيراً — وكذا الغيرُ عندنَا ممنوعُ
مذ تجمّعتُ ما خشيت افتراقاً — فأنا اليومَ واصلٌ مجموعُ

فلا يرون العطاء إلَّا من الله، ولا يرون الخلق البتة إلَّا ما يشهدون فيهم من واسطة الحكمة، كما قال القائل:

إذا ما رأيتَ اللَّهَ في الكلّ فاعلاً — رأيتَ جميعَ الكائنات مِلاحَا

وبالله التوفيق ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

هذا آخر الباب التاسع، **وحاصله**: علامة كمال العارف وآدابه في الطلب وفي البسط والقبض وفي المنع والعطاء.

---

(1) روى نحوه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بالمكافأة. . .، حديث رقم (3408) [8/ 199] وأبو داود في سننه، باب عطية من سأل، حديث رقم (1672) [2/ 128] وروى نحوه غيرهما. ونص رواية أبي داود هو: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل الله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

(2) روى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط عن جابر بن عبد الله، حديث رقم (8442) [8/ 216] ونصه: عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد يدعو الله وهو يحبه فيقول الله عزَّ وجل: يا جبريل أقض لعبدي هذا حاجته وأخرها فإني أحب ألا أزال أسمع صوته وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه فيقول الله عزَّ وجل: يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته وعجلها فإني أكره أن أسمع صوته» ورواه غيره.

[الباب العاشر]

ومن جملة العطاء ما يعطيه الحق سبحانه عباده من الخيرات في مقابلة أعمالهم الصالحات كما أشار إلى ذلك في أول الباب العاشر بقوله:

86 - (جلّ ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئة)

قلت: النقد ما كان معجلاً، والنسيئة ما كان مؤخراً. ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئاً أن ينجز نقده ويزيد إحسانه ورفده، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا فعوّضنا بها الجنة فمن باع نفسه وماله ونقدهما وسلمهما إليه عوَّضه الله جنة المعارف عاجلاً وزاده جنة الزخارف آجلاً مع ما يتحفه به من أنواع النعيم ودوام الشهود والنظر إلى وجهه الكريم، فجلّ ربنا، أي تنزَّه وترفَّع، أن يعامله العبد نقداً، أي معجلاً، فيجازيه نسيئة، أي مؤخراً، بل لا بد أن يعجِّل له ما يليق به في هذه الدار ويدخر له ما يليق به في تلك الدار، والذي عجَّل له سبحانه في هذه الدار أمور، منها ما يدفع عنه من المضارّ ويجلب له من المنافع والمسار لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية 196]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق: الآية 2]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية 62] وقد يتعدى ذلك إلى عقبه كما تقدم.

ومنها ما يشرق عليه من الأنوار ويكشف لقلبه من الأسرار وهي أنوار التوجه وأنوار المواجهة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: الآية 29] وهو نور يفرّق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية 282] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: الآية 257] يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى أو من ظلمة الكون إلى نور المكوِّن.

* * *

ومنها التوفيق والهداية لها قبل عملها حتى جعلك أهلاً للوقوف بين يديه، وهو الذي أبانه بقوله:

87 ـ (كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً)

قلت: لأن الملك لا يدعو لخدمته إلَّا من يريد أن يكرِّمه ولا يدخل لحضرته إلَّا من يريد أن يعظِّمه ولا ينسب له إلَّا أهل الفضل والتكرمة، فلولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، فالتوفيق لها أعظم منّة وأكبر جزاء على وجودها لأنها تحقق للعبد ثلاثاً، **أولها**: تصحيح النسبة لمولاه بوجه ما. **الثاني**: وجود الإقبال عليه بصورة ما. **الثالث**: إقامة رسم العبودية في الجملة، والله أعلم. قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

* * *

ومنها ما يرد على قلبه حال عملها من المؤانسة به والقرب له، وهو الذي ذكره بقوله:

88 ـ (كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته)

قلت: والذي فتحه على قلوبهم في حالة العمل ثلاث: محاضرة أو مراقبة أو مشاهدة. فالمحاضرة للطالبين، والمراقبة للسائرين، والمشاهدة للواصلين. فالمحاضرة للعموم، والمراقبة للخصوص، والمشاهدة لخصوص الخصوص، والكل يسمى خشوعاً. قال بعضهم: الخشوع إطراق السرّ على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة والذوبان تحت سلطان الكشف والامحاء عند غلبات التجلّي اهـ. ويختص المقام الثالث بقرّة العين.

وقال الشيخ زروق: ما يجده في حالة الطاعة ثلاث: **أولها**: وجود الأنس به فيها بروح إقباله، ومنه ما يقع من الرقّة والخشوع. **الثاني**: وجود التملق بين يديه وله حلاوة ينسى بها كل شيء. **الثالث**: حصول الفهم والفوائد العلمية والإلهامات اللدنية التي بها يترك كل شيء.

قال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شيء ولم يستوحش أبداً، قيل: وما هي، قال: معرفة الله.

وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا ما يشبه نعيم الجنة إلَّا ما يجده أهل التملُّق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

وكان بعضهم يقول: التملُّق للحبيب والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا هو

من الجنة أظهره الله في الدنيا لا يعرفه إلَّا هم ولا يجده سواهم روحاً لقلوبهم اهـ.

ومنها ما يجده من الثمرات بعد عملها، وهو الذي أشار إليه بقوله:

88 ـ (وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته)

قلت: هذه المؤانسة التي يجدها العامل بعد العمل على ثلاثة أقسام: مؤانسة ذكر، وهو لأهل الفناء في الأفعال. ومؤانسة قرب، وهو لأهل الفناء في الصفات وهم أهل الاستشراف. ومؤانسة شهود، وهو لأهل الفناء في الذات. فالأول لأهل الإسلام، والثاني لأهل الإيمان. والثالث لأهل الإحسان.

فمؤانسة الأول توجب له الفرار من الناس والوحشة منهم. ومؤانسة الثاني توجب القرب لهم على حذر منهم. ومؤانسة الثالث توجب الصحبة لهم ومخالطتهم لأنه يأخذ منهم ولا يأخذون منه.

فالأول لا تليق به إلَّا العزلة لضعفه. والثاني تليق به الصحبة مع العسة ليتعلم القوة فهو يشرب منهم ولا يشربون منه لبعده منهم بقلبه. والثالث لا تليق به إلَّا الصحبة لتحققه بالقوة فهو يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منه شيء، يصفو به كدر كل شيء ولا يكدر صفوه شيء. ومؤانسة الذكر توصل لمؤانسة القرب، ومؤانسة القرب توصل لمؤانسة الشهود فمن صعد عقبة أفضت به إلى راحة ما بعدها.

قال بعض العارفين: ليس شيء من الطاعات إلَّا ودونه عقبة كؤود يحتاج فيها إلى الصبر، فمن صبر على شدّتها أفضى إلى الراحة والسهولة وإنما هي مجاهدة النفس ومخالفة الهوى ثم والله مكابدة في ترك الدنيا ثم اللذّة والتنعم، أي ثم تكون لذّة الطاعة وتنعُّم المعرفة.

* * *

ثم ينبغي لك أيها المريد ألا تقصد شيئاً من هذه الأمور التي يجازيك الحق تعالى بها كانت معجلة أو مؤجلة، فإن ذلك نقص في إخلاصك وناقض لصدق عبوديتك كما أشار إليه بقوله:

89 ـ (من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه)

قلت: الناس في عبادة الله باعتبار إخلاصهم على ثلاثة أقسام: فمنهم من يعبد الله خوفاً من عقوبته معجلة أو مؤجلة أو طمعاً في رحمته وحفظه عاجلاً وآجلاً وهم

عوام المسلمين، وفيهم قال عليه السلام: **«لولا النار ما سجد لله ساجد»**[1].

ومنهم من يعبد الله محبة في ذاته وشوقاً إلى لقائه لا طمعاً في جنته وحفظه ولا خوفاً من ناره ونكاله، وهم المحبّون العاشقون من السائرين. ومنهم من يعبد الله قياماً بوظائف العبودية وأدباً مع عظمة الربوبية. أو تقول: صدقاً في العبودية وقياماً بوظائف الربوبية، وهم المحبّون العارفون.

فالقسم الأول عبادته بنفسه لنفسه. والثاني: عبادته بنفسه لله. والثالث: عبادته بالله لله ومن الله إلى الله. فمن عبد الله تعالى لشيء يرجوه منه في الدنيا أو في الآخرة أو ليدفع عنه بطاعته ورود العقوبة في الدنيا أو في الآخرة فما قام بحق أوصاف الربوبية التي هي العظمة والكبرياء والعزّة والغنى وجميع أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال، إذ نعوت الربوبية من العظمة والجلال تقتضي خضوع العبودية بالانكسار والإذلال، أرأيت إن لم تكن جنة ولا نار ألم يكن أهلاً لأن يعبد الواحد القهّار، أرأيت من أنعم بنعمة الإيجاد والإمداد أليس أهلاً لأن يشكره جميع العباد فمن كان عبداً مملوكاً لسيده لا يخدمه في مقابلة نواله ورفده بل يخدمه لأجل عبوديته ورقّه، وسيده لا محالة يقوم بمؤونته ورزقه، أيبرزك لوجوده ويمنعك من جوده؟ أيدخلك داره ويمنعك إبراره؟ لقد أسأت الظن بالربّ الكريم إن اعتقدت أنك إن لم تعبده منعك من جوده العظيم، لقد أجرى عليك منّته ورزقه وأنت في ظلمة الأحشاء ثم حين أظهرك لوجوده وبسط لك من جوده جعلك تتصرف فيه كيف تشاء وتصنع به ما تشاء. ومما وجد مكتوباً بقلم القدرة في حجر في الكعبة:

تذكّر جميلي فيكَ إذْ كنتَ نطفةً ... ولا تنسى تصويري لشخصكَ في الحشَا

وكنْ واثقاً بي في أمورِكَ كلها ... سأكفيكَ منها ما يُخافُ ويُخشَى

وسلّم إليَّ الأمرَ واعلمْ بأنّني ... أصرّف أحكامي وأفعلُ ما أشَا

فاستحي من الله أيها الإنسان أن تطلب أجراً على عبادة أجراها عليك الواحد المنان، واذكر قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ **[الأعرَاف: الآية 43]**، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ **[القَصَص: الآية 68]**، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ **[الإنسَان: الآية 30]**. قال رسول الله ﷺ: **«لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجرة**

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

لم يعمل»[1]. وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه.

وقال وهب بن منبه في زبور داود عليه السلام: يقول الله تعالى: «ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أُطاع» اهـ. وفي أخبار داود أيضاً عليه السلام: «إن الله أوحى إليه أن أود الأوداء إليّ من عبدني لغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها» اهـ. ثم إن رفعت همّتك عن طلب الحظوظ صبّت عليك الحظوظ، فقد ورد في بعض الأخبار أن الله يحفظ الأولاد وأولاد الأولاد بطاعة الأجداد لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: الآية 82] فقد حفظ الحق تعالى كنزهما بصلاح أبيهما، فقد صبّت الحظوظ على الأولاد وهو حفظهم بترك الآباء الحظوظ. وكان سعيد بن المسيب يقول لولده: إني لأطيل الصلاة من أجلك. اهـ. ومعناه إني أعبده مخلصاً لعله يحفظك.

* * *

ثم إن مدد الحق وهو لطفه وإبراره جار على الطائعين في كل وقت وحين سواء أعطاهم في الحس أو منعهم، وسواء بسطهم أو قبضهم، وهو ظاهر لمن يفهم عن الله، كما أشار إليه بقوله:

90 ـ (متى أعطاك أشهدك برّه ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرِّف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك)

قلت: من أسمائه تعالى اللطيف والرحيم، فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه في كل وقت وعلى كل حال، سواء أعطاهم أو منعهم وسواء بسطهم أو قبضهم، فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم برّه وإحسانه فعرفوا أنه سبحانه بارّ بعباده لطيف بخلقه رحيم كريم جواد محسن، فتعظم محبتهم فيه ويكثر شوقهم واشتياقهم إليه ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم، وفي هذا ما لا مزيد عليه من البر والإحسان والجود والامتنان. وإن منعهم أو قبضهم أشهدهم قهره وكبرياءه فعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل، فخافوا من سطوته وذابوا من خشيته وخضعوا تحت قهره فدامت عبادتهم وقلّت ذنوبهم ومحيت مساويهم واضمحلت خطيئتهم فوردوا يوم القيامة خفافاً مطهرين فرحين مبهجين إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين، فمن أخافه في الدنيا أمّنه يوم القيامة، ومن أمّنه في الدنيا فاغترّ أخافه يوم القيامة، كما في الحديث.

---

(1) روى نحوه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، عن وهب بن منبه [4/ 54].

فلا تتهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء فإنه متى أعطاك أشهدك بره ورحمته وكرمه فعرفت بذلك أنه بر كريم رؤوف رحيم فتتعلق بكرمه وجوده دون غيره، فتتحرر من رقّ الطمع ويذهب عنك الغم والجزع وتتخلّق أيضاً بوصف الكرم والرحمة والإحسان، فإن الله يحب أن يتخلّق عبده بخلقه، وفي الحديث: **«تخلّقوا بأخلاق الرحمٰن»**[1]. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. والقرآن فيه أوصاف الرحمٰن فكأنها قالت: كان خلقه خلق الرحمٰن، إلا أنها احتشمت الحضرة وتأدّبت مع الربوبية.

ومتى منعك أو قبضك أشهدك قهره وكبرياءه فعرفت أنه قهار جبار فيعظم خوفك وتشتد هيبتك وحياؤك منه فلا جرم أن الله يعظمك ويكرِّمك ويحفظك ويستحيي منك كما استحييت منه، فإن الله ينزل عبده على قدر منزلته منه، وإنما يطيع العبد ربّه على قدر معرفته به وخوفه منه، فهو سبحانه في كل ذلك من إعطاء ومنع وقبض وبسط متعرِّف إليك، أي طالب منك، أن تعرفه بصفاته وأسمائه، وما من اسم من أسمائه تعالى إلَّا اقتضى ظهور ما يطلبه، فاسمه الكريم اقتضى الإعطاء والإحسان وهو ظاهر في خلقه. واسمه المانع اقتضى ظهور المنع فظهر في عباده أيضاً. واسمه المنتقم، اقتضى ظهوره في قوم وجَّههم لمخالفته. واسمه القهار، اقتضى ظهوره في قوم يقهرهم على ما يريد من منع أو غيره، وظهر قهره أيضاً في عباده بالموت فهو من مقتضى اسمه القهار. وهكذا كل اسم يقتضي ظهوره في الوجود وكلها في بني آدم.

فإذا تحققت هذا في حالة الإعطاء والمنع علمت أيضاً أنه تعالى مقبل بوجود لطفه وإبراره عليك، إذ هو متعرف إليك في كل شيء ومقبل عليك في كل وجه، فاطلب أيضاً أنت معرفته في كل حال واعرف منّته عليك في الجمال والجلال، واقبل عليه بكليتك واستسلم لقهره بروحك وبشريتك تكن عبده حقاً وهو ربك حقاً وصدقاً، والله تعالى أعلم.

ويؤخذ من هذه الحكمة أن المدار إنما هو على قوّة الروحانية التي هي المعرفة في الجلال والجمال، لا على قوة البشرية لأن بمنعه يحصل للعبد الكمال، وبالله التوفيق.

* * *

---

(1) ورد بلفظ: «تخلقوا بأخلاق الله» المناوي في التعاريف فصل اللام [1/ 564] والجرجاني في التعريفات [1/ 216].

ثم هذا كله إنما يذوقه من يفهم عن الله كما تقدم، وإليه أشار بقوله:

91 ـ (إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه)

قلت: لأن الفهم عن الله يقتضي وجود المعرفة به ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه في الجلال والجمال والمنع والعطاء والقبض والبسط، وأما إن كان لا يعرفه إلّا في الجمال فهذه معرفة العوام الذين هم عبيد أنفسهم، فإن أعطوا رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون. وأيضاً من ثمرات المعرفة التسليم والرضى لما يجري به القضاء، ومن ثمرات المحبة والهوى الصبر عند الشدائد والبلوى.

تدَّعي مذهبَ الهوَى ثم تشكُو أينَ دعواكَ في الهوى قلْ لي أَيْنَا
لو وجدناكَ صابراً لهوانَا لأعطيناكَ كلَّ ما تتمنَى

فلا يكون المحب صادقاً في محبته ولا العارف صادقاً في معرفته حتى يستوي عنده المنع والعطاء والقبض والبسط والفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم والفقد والوجد والحزن والفرح، فيعرف محبوبه في الجميع كما قال القائل: حبيبي ومحبوبي على كل حالة، ويرضى ويسلِّم له في الجميع فإن لم يجد ذلك عنده سواء فلا يدَّعي مرتبة العشق والهوى فيعرف قدره ولا يتعدّى طوره ولا يترامى على مراتب الرجال، من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان. ولابن الفارض رضي الله عنه:

فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به شهيداً وإلا فالغرام له أهل

وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: لا يصح الفقر للفقير حتى تكون فيه خصلتان، **إحداهما**: الثقة بالله، **والأخرى**: الشكر لله فيما زوى عنه مما ابتلي به غيره من الدنيا. وقيل لبعضهم: ما الزهد عندكم، قال: إذا وجدنا شكرنا وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، فقال: وما الزهد عندكم أنتم، قال: إذا فقدنا شكرنا وإذا وجدنا آثرنا.

فهذا هو الفهم عن الله حيث شكر حين الفقد، فقد عدّ الفقد نعمة والفاقة غنى لما يجد فيها من المواهب والأسرار ولما يترقّب بعدها من ورود الواردات والأنوار.

* * *

ولو لم يكن إلّا التفرغ من الشواغل والأغيار، وبهذا تزكو الأحوال وتعظم الأعمال ويتأهّل صاحبها للقبول والإقبال وإلا فلا عبرة بصور وجودها مع عدم قبولها، كما نبّه على ذلك بقوله:

92 ـ (ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول)

قلت: لا عبرة بالطاعة إذا لم يصحبها قبول كما لا عبرة بالسؤال حيث لم

يحصل به مأمول، إذ الطاعة إنما هي وسيلة لمحبة المطاع وإقباله على المطيع بحيث يفتح في وجهه الباب ويرفع عن قلبه وجود الحجاب ويجلسه على بساط الأحباب، فإذا فتح لك باب العمل وبلغت في تحصيله غاية الأمل غير أنك لم تجد له ثمرة ولم تذق له حلاوة من الأنس بالله والوحشة مما سواه، ومن الغنى به والانحياش إليه والاكتفاء بعلمه والقناعة بقسمته فلا تغتر بذلك أيها المريد، فربما فتح لك باب طاعته وأنهضك إلى خدمته ولم يفتح لك باب القبول ومنعك بها من الوصول حيث اعتمدت عليها وركنت إليها وأنست بها وأشغلتك حلاوتها عن الترقّي إلى حلاوة شهود المنعم بها، ولذلك قال بعضهم: احذروا حلاوة الطاعات فإنها سموم قاتلة لأنها تقبض صاحبها في مقام الخدمة ويحرم من مقام المحبة.

وفرق كبير بين من شغله بخدمته وبين من اصطفاه لمحبته واجتباه لحضرته فإجراء الذنب على العبد أحسن من مثل هذه الطاعة التي تكون سبب الحجاب، كما نبّه عليه بقوله:

92 ـ (وقضى عليك الذنب فكان سبباً في الوصول)

قلت: وذلك أن العبد إذا كان سائراً لمولاه قاصداً لوصول حضرة حبيبه ورضاه، قد يحصل له كلل أو يصيبه ملل أو يركبه كسل فسلّط الحق عليه ذنباً أو تغلبه نفسه فيسقط فإذا قام من سقطته جدّ في سيره ونهض من غفلته ونشط من كسله فلا يزال جاداً في طلب مولاه غائباً عما سواه حتى يدخل حضرته ويشاهد طلعته وهي الحضرة التي هي تجليّات الحق وأسرار ذاته.

ومثال ذلك: رجل مسافر أصابه في الطريق نوم أو كسل فيسقط فيضربه حجر فإذا قام ذهب كسله وجدّ في سيره. وفي الحديث: «**رب ذنب أدخل صاحبه الجنة، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله، قال: لا يزال تائباً فارّاً منه خائفاً من ربه حتى يموت فيدخل الجنة**»[1] أو كما قال عليه السلام. وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»[2] اهـ. وقال ﷺ في شأن الطاعة التي لم تقبل: «**رب صائم ليس**

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، حديث رقم (2749) [4/ 2106] والطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (5073) [5/ 199] ورواه غيرهما.

له من صيامه إلَّا الجوع، وقائم ليس له من قيامه إلَّا السهر»[1].

* * *

فمثل هذه الطاعة المعصية التي يصحبها الانكسار أحسن منها بكثير، كما أبان ذلك بقوله:

93 ـ (معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزّاً واستكباراً)

قلت: إنما كانت المعصية التي توجب الانكسار أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلُّل والانكسار، أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني واتّصفت بأضدادها، فالمعصية التي توجب هذه المعاني وتجلب هذه المحاسن أفضل منها إذ لا عبرة بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية، وإنما العبرة بما ينتج عنهما: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم»**[2] فثمرة الطاعة هي الذلّ والانكسار، وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار. فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق، صارت الطاعة معصية والمعصية طاعة، ولذلك قال المحاسبي رضي الله عنه: إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم فإذا تكبَّر العالم أو العابد وتواضع الجاهل والعاصي وذلّ هيبة لله عزَّ وجل وخوفاً منه فهو أطوع لله عز وجل من العالم والعابد بقلبه. اهـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل إساءة أدب تثمر أدباً فليست بإساءة أدب. وكان رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان رضي الله عنه يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله حتى أنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالي به وربما دخل عليه عاص فأكرمه لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبِّر بعمله وناظر لفعله، وذلك العاصي دخل بكثرة معصيته وذلّته ومخالفته. قاله المصنف في لطائفه[3].

---

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى، ما ينهى عنه الصائم من قول الزور. . .، حديث رقم (3249) [2/ 239] وابن ماجة في سننه، باب ما جاء في الغيبة والرفث، حديث رقم (1690) [1/ 539] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم. . .، حديث رقم (2564) [4/ 1987] وابن حبان في صحيحه ذكر الإخبار بأن على المرء تعهد قلبه. . .، حديث رقم (394) [2/ 119] ورواه غيرهما.

(3) المصنف: أي صاحب الحكم أحمد بن عطاء الله السكندري. ولطائفه أي: كتابه (لطائف المنن)، هذا وقد سبقت الإشارة إلى الكتاب.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: نوديت في سري: خزائني مملوءة بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلّة والافتقار. وقال رسول الله ﷺ: **«لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب»**[1] كذا في الصحيحين. وقال عليه السلام: **«لولا أن الذنب خير من العجب ما خلا الله بين مؤمن وذنب أبداً»**[2]. وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: انكسار العاصي خير من صولة المطيع. وقال شيخ شيوخنا رضي الله عنه: معصية بالله خير من ألف طاعة بالنفس. اهـ. ومعنى كلام الشيخ: أن العبد إذا أجريت عليه زلّة لم يقصدها بقلبه وإنما جرّته القدرة إليها رغماً على أنفه، ثم ندم وانكسر فهي في حقه خير من ألف طاعة يشهد فيها نفسه ويتبجح بها على عباد الله. ولله در صاحب العينية[3] حيث يقول:

وأسلمتُ نفسِي حيثُ أسلمني الهوَى ... وما لي عنْ حكمِ الحبيبِ تنازعُ
فطوراً تراني في المساجدِ راكعاً ... وإنّي طوراً في الكنائسِ راتِعُ
أراني كالآلات وهو محرّكي ... أنَا قلمٌ والاقتدارُ أصابِعُ
ولستُ بجبري ولكنْ مشاهدٌ ... فعالَ مريدٍ ما له مَنْ يدافعُ
فآونة يقضي عليّ بطاعة ... وحيناً بما عنهُ نهتنا الشرائعُ
لذاك تراني كنت أترك أمره ... وآتي الذي أنهاهُ والجفنُ دامعُ
ولي نكتةٌ غراءُ سوفَ أقولها ... وحق لها أن ترعويها المسامعُ
هي الفرق ما بين الولي وفاسق ... تنبّه لها فالأمرُ فيه فظائعُ
وما هوَ إلّا أنهُ قبلَ وقعه ... يخبر قلبي بالذي هو واقعُ
فأجني الذي يقضيه فيّ مرادُهَا ... وعيني لهُ قبلَ الفِعَال تطالِعُ
فكنتُ أرى منها الإرادةَ قبلَ ما ... أرى الفعلَ مني والأسير مطاوعُ
فأتى الذي تهواه نفسي ومهجتي ... لذلكَ في نارٍ حوتها الأضالِعُ
إذا كنتُ في حكمِ الشريعةِ عاصياً ... فإنّي في علمِ الحقيقةِ طائِعُ

فأشار إلى الفرق بين معصية الولي ومعصية الفاسق، وذلك من ثلاثة أوجه،

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (882) [2/ 320] والعقيلي في كتابه ضعفاء العقيلي، حديث رقم (665) [2/ 159] وأورده غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) صاحب العينية: هو الشيخ عبد الكريم الجيلي. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

الولي لا يقصدها ولا يفرح بها ولا يصر عليها، والفاسق بالعكس في الجميع. وقيل للجنيد: أيزني العارف، فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً لكن معصية الولي حدها الظاهر ولذلك قال ابن عطاء الله: ليت شعري لو قيل له أتتعلق همّة العارف بغير الله لقال لا. اهـ.

* * *

ولما كانت النعم تقتضي من العبد شكرها وشكرها هو العمل بطاعة الله فيها، قال الجنيد: الشكر ألا يعصى الله بنعمه.

بيَّن الشيخ أصول النعم وفروعها، فقال:

94 ـ (نعمتان ما خرج موجود عنهما ولا بد لكل مكوَّن منهما، نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد)

قلت: أما نعمة الإيجاد فهي الإظهار من عالم الغيب إلى عالم الشهادة أو من عالم الأمر إلى عالم الخلق أو من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح أو من عالم القدرة إلى عالم الحكمة أو من عالم التقدير إلى عالم التكوين.

وأما نعمة الإمداد فهي قيامه تعالى بالأشياء بعد وجودها وإمداده إياها بما تقوم به بنيتها. وهاتان النعمتان عامتان، واختص الإنسان بما اجتمع فيه من الضدّين وهما النور والظلمة واللطافة والكثافة. فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم في عالم القدم لم تتمتع بنعمتين: نعمة الأشباح ونعمة الأرواح، ولو تجلّى فيك بوجهة واحدة لكنت ناقصاً في شهود المعرفة لأن مزية الآدمي في المعرفة أعظم، إذ بقدر المجاهدة يكون الترقّي في المشاهدة لما فيه من الكثافة واللطافة، فكلما لطف من كثافة ترقّى في مشاهدة ربه. ولما فيه من النور والظلمة، فكلما انتفت الظلمة قوي النور بخلاف غيره من الجن والملائكة غير المقرّبين، قال الله تعالى في حق الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾ [الصَّافات: الآية 164] فما مثل الآدمي إلَّا كياقوتة سوداء وهي أعظم اليواقيت كلما صقلتها أشرقت وزاد نورها وجمالها، ومثل الملائكة كالزجاج إذا صقل مرة كفاه ولا يزيد نوره على أصله. فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم أو من اللطافة بعد قبضة القدم لم يكن لك مزية على غيرك. ومما يدلك على أن تجلّي الآدمي أعظم اختصاصه بالجنة والنظر قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزُّمَر: الآية 75] والكلام إنما هو مع الخواص فخواص الآدمي، أعني الأنبياء، أعظم من خواص الملائكة وخواص الملائكة، أعني المقرّبين، أعظم من خواص الآدمي، أعني العارفين، والعارفون أعظم من عوام

الملائكة وعوام الملائكة أعظم من عوام بني آدم، والله تعالى أعلم.

فأنعم الحق سبحانه عليك أيها الإنسان أولاً: بنعمة الإيجاد وأصحبك الرأفة والوداد لتظهر مزيتك وتكمل نعمتك، ثم أنعم عليك ثانياً بنعمة الإمداد حسيّة ومعنوية. أما المدد الحسي فغذاء البشرية من أول النشأة إلى منتهاها. وأما المدد المعنوي فغذاء الروح من قوت اليقين والعلوم والمعارف والأسرار. ثم إن هذا المدد المعنوي من حيث هو ينقسم على ثلاثة أقسام، **منه** ما لا يزيد ولا ينقص وهو مدد الملائكة، قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ **[الصَّافات: الآية 164]. ومنه** ما يزيد وينقص وهو مدد عوام بني آدم، ومنه ما يزيد ولا ينقص وهو مدد خواصهم كالرسل والأنبياء وأكابر الأولياء ومن تعلق بهم ممن دخل تحت حضانتهم ولزم عيشهم من الفقراء والمريدين السائرين فمددهم في الزيادة على الدوام وهذا المدد ثابت للروح قبل اتصالها بالبشرية فلذلك أقرّت بالربوبية في عالم الذر.

قال في التنوير[1]: **اعلم** أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك وقام لك في كل ذلك بوجود إبرارك فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ **[الأعراف: الآية 172]** ومن حسن تدبيره لك أن عرّفك به فعرفته وتجلّى لك فشهدته واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته فوحّدته ثم إنه جعلك نطفة مستودعة في الأصلاب تولّاك بتدبيره هنالك حافظاً لك وحافظاً لما أنت فيه، موصلاً لك المدد بواسطة ما أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم ثم قذفك في رحم الأم فتولّاك بحسن التدبير وجعل الرحم قابلة لك أرضاً يكون فيها نباتك ومستودعاً تعطى فيها حياتك، ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما فكنت عنهما لما بنيت عليه الحكمة الإلهية من أن الوجود كله مبني على سرّ الازدواج، ثم جعلك بعد النطفة علقة مهيئة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه، ثم بعد العلقة مضغة ثم فتق سبحانه في المضغة صورتك وأقام فيها بنيتك، ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك، ثم غذاك بدم الحيض في رحم الأم فأجرى عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود، ثم أبقاك في رحم الأم حتى قويت أعضاؤك واشتدت أركانك ليهيئك إلى البروز إلى ما قسم لك أو عليك وليبرزك إلى دار يتعرّف فيها بفضله وعدله إليك، ثم لما أنزلك إلى الأرض علم سبحانه أنك لا تستطيع أن تتناول خشونات المطاعم وليس لك أسنان ولا أرحاء[2] تستعين بها على

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.
(2) الأرحاء: عامة الأضراس، واحدها رحىً. (لسان العرب، مادة: رحا).

ما أنت طاعم فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف ووكّل بهما مستحث الرحمة التي جعلها في قلب الأم فكلما وقف اللبن على البروز استحثته الرحمة التي جعلها لك في الأم مستحثاً لا يفتر ومستنهضاً لا يقصر، ثم إنه شغل الأب والأم بتحصيل مصالحك والرأفة عليك والرحمة والنظر بعين المودة منهما إليك وما هي إلّا رأفته ساقها للعباد في مظاهر الآباء والأمهات تعريفاً بالوداد وفي حقيقة الأمر ما كفلتك إلّا ربوبيته وما حضنتك إلّا ألوهيته. ثم ألزم الأب القيام بك إلى حين البلوغ وأوجب عليه ذلك رأفة منه بك، ثم رفع قلم التكليف عنك إلى أوان تكمل الأفهام وذلك عند الاحتلام ثم إلى أن صرت كهلاً لم يقطع عنك نوالاً ولا فضلاً، ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة، ثم إذا قدمت عليه، ثم إذا حشرت إليه، ثم إذا أقامك بين يديه ثم إذا سلّمك من عقابه، ثم إذا أدخلك دار ثوابه، ثم إذا كشف عنك وجود حجابه وأجلسك مجالس أوليائه وأحبابه قال سبحانه: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القَمَر: الآية 55] فلأي إحسانه تشكر، ولأي أياديه تذكر، واسمع قوله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية 53] تعلم أنك لم تخرج عن إحسانه ولن يعدوك وجود فضله وامتنانه. اهـ كلامه في التنوير وهو شرح لهذه الحكمة لاشتماله على النعمتين إيجاداً وإمداداً.

ومن نعمة الإمداد المعنوي نعمة الإسلام والإحسان، وحفظ ذلك وإدامته علينا في كل وقت وحين، وزيادة الترقّي في المعرفة واليقين إلى يوم الدين، فالحمد لله رب العالمين.

* * *

ثم المقصود بالنظر إلى هاتين النعمتين هو الإنسان وإن كانتا عامتين في جميع الأكوان، إذ هو المطلوب بشكرها والتحدث بذكرها، ولذلك خصّه بالخطاب:

95 ـ (أنعم عليك أولاً بالإيجاد وثانياً بتوالي الإمداد)

قلت: توالي الإمداد هو تتابعه واتصاله سواء كان حسياً أو معنوياً، ففي كل ساعة ولحظة أنت مفتقر إلى إمداده قلباً وقالباً كما أبان ذلك بقوله:

96 ـ (فاقتك لك ذاتية وورود الأسباب مذكرة لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)

قلت: الفاقة الذاتية هي الأصلية الحقيقية، والأسباب المحركة لها هي العوارض الجلالية، وهي كل ما يقهر النفس ويزعجها عن حظوظها وتصرفاتها العادية، وإنما كانت فاقتنا ذاتية لا تفارقنا ساعة واحدة لأن نشأتنا مركّبة من حس

ومعنى ولا يقوم الحس إلّا بالمعنى، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء، فأشباحنا مفتقرة في كل لحظة إلى نعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد، ولا الحكمة إلّا بالقدرة ولا البشرية إلّا بالروحانية، والروح سرّ من أسرار الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية 85] فالبدن قائم بالروح والروح أمر من أمر الله وكل شيء قائم بأمر الله. فافتقار البشرية للروحانية حاصل على الدوام، قال تعالى في نعمة الإيجاد: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فَاطِر: الآية 15]، فهذا هو الافتقار إلى نعمة الإيجاد. ثم قال في نعمة الإمداد: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية 19] وهذا هو افتقارنا إلى نعمة الإمداد. وقال تعالى في افتقار بقية العالم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فَاطِر: الآية 41] فالكون كله قائم بأمر الربوبية مظهر من مظاهرها لا قيام له بدونها.

قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: الحق سبحانه مستبد والوجود مستمد، والمادة من عين الجود، فإذا انقطعت المادة انهدّ الوجود. اهـ. والمراد بالوجود ظهور الحس وعين الجود هو المعاني اللطيفة القديمة، يعني أن الحق تعالى مستبد أي قائم بنفسه وظهور تجلياته مستمدة من باطن صفاته، ومادة الأشياء كلها من عين الجود وهي نعمة الإيجاد والإمداد، فإذا انقطعت المادة، أي مادة المعنى من الحس، اضمحل الحس واضمحلت الأكوان، فلو ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته ففاقتك، أي افتقارك، أيها الإنسان لك ذاتية، أي أصلية حقيقية، لكنها خفية وورود الأسباب المحركة لظهور تلك الفاقة، وهي الشدّة والحيرة وكل ما يلجئك إلى مولاك مذكرة لك ما خفي عنك منها، يعني أن فاقتك لا تفارقك إذ كل لحظة تفتقر إلى من يمدك بالوجود في الساعة الثانية إلّا أنها خفية لا تذكرها حتى يتحرك عليك أسباب ظهورها كالفتن والمرض وغيرهما. والفاقة الأصلية الذاتية لا ترفعها العوارض وهي الصحة والعافية، فما دام العبد في العافية ففاقته خفية لا يتفطن لها إلّا العارفون لأنه لا يزول اضطرارهم فإذا قام عليه جلال أو محرك ظهر افتقاره وتحقق اضطراره مع أنه دائم في الفاقة حسّه ومعناه، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم إن رجوع الشيء إلى أصله مرغّب فيه، وخروجه عن أصله لا خير فيه، وأصلك أيها الإنسان هو الفاقة والاضطرار والذلّة والانكسار، فكل ما يردك إلى أصلك فهو لك في غاية الحسن والاختيار، كما أبان ذلك بقوله:

97 ـ (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وترد فيه إلى وجود ذلّتك)

قلت: إنما كان شهود الفاقة هو خير أوقاتك لوجهين، **أحدهما**: ما في ذلك من

تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية، وفي ذلك شرف العبد وكماله إذ بقدر تحقيق العبودية في الظاهر يعظم شهود الربوبية في الباطن. أو تقول: بقدر العبودية في الظاهر تكون الحرية في الباطن. أو تقول: بقدر الذل في الظاهر يكون العز في الباطن. أو تقول: بقدر وضع الظاهر يكون رفع الباطن، من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره.

وانظر أشرف خلق الله وهم الأنبياء بماذا خاطبهم الله تعالى، فما خاطبهم إلَّا بالعبودية، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: الآية 1]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: الآية 45]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: الآية 17] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: الآية 41]. وقد اختارها نبينا ﷺ حين خُيِّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، فدلّ على أن أشرف حال الإنسان هو العبودية فبقدر ما يتحقق بها في الظاهر يعظم قدره في الباطن، ومهما خرج منها في الظاهر بإظهار الحرية أدّبته القدرة وردته القهرية حتى يرجع إلى أصله ويعرف ما له وعليه.

الوجه الثاني: ما في الفاقة من مزيد المدد وطلب الاستمداد، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: الآية 60] إن أردت بسط المواهب عليك صحِّح الفقر والفاقة لديك، كما يأتي إن شاء الله. وقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذلّة وتحقيق الضعف والقلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: الآية 123]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ﴾ [الأعراف: الآية 86] وجعل الخذلان وعدم النصر والمعونة في إظهار الحرية والقوة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: الآية 25]، وذلك لما وقع من بعض الصحابة الذين كانوا حديثي عهد بإسلام فأدّبهم الله بإظهار الحرية لكن عمّت الفتنة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾ [الأنفال: الآية 25] وهذا وجه ذكر الآية قبل ذكر القضية، والله تعالى أعلم.

فإذاً خير أوقاتك أيها المريد وقت تشهد فيه وجود فاقتك أي ظهورها، وإلا فهي كامنة فيك كما تقدم، وتسمى عند المتأخرين الحيزة، وهي الشدّة فهي خير لك من ألف شهر إن عرفت فيها ربك والمعرفة فيها أن تسكن عن التحرُّك والاضطراب وتقطع النظر عن التعلُّق بالأسباب، وترجع فيها إلى مسبِّب الأسباب، وتعلِّق همَّتك بربّ الأرباب، وتكتفي بعلم الله الكريم الوهّاب.

ولقد سمعت شيخنا [محمد] البوزيدي رضي الله عنه يقول: العجب من الإنسان يرى الخير أو الفتح واصلاً إليه وقادماً عليه ثم يقوم يبادر بسد الباب في وجهه وهو أن يرى الفاقة قادمة عليه فيبادر إلى الأسباب التي تقطعها عنه قبل وصولها، فقد كان الربح واصلاً إليه فقام فرده أو ما هذا معناه، وخير أوقاتك أيضاً وقت تشهد فيه وجود ذلّتك كما تقدم لأنه سبب عزّك ونصرك إذ الأشياء كامنة في أضدادها، العزّ في الذلّ والغنى في الفقر والقوة في الضعف والعلم في الجهل، أي في إظهار الجهل إلى غير ذلك قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: الآية 5]، وقال تعالى في حق الصحابة رضي الله عنهم حين كانوا في حالة الاستضعاف والإذاية تسلية لهم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: الآية 55] الآية.

ومما جرت به العادة الإلٰهية أن الفرج على قدر الضيق، فبقدر الفقر يكون الغنى وبقدر الذلّ يكون العزّ وبقدر العسر يكون اليسر. **والحاصل**: بقدر الجلال يكون الجمال عاجلاً وآجلاً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: الآيتان 5، 6] ولن يغلب عسر يسرين كما في الحديث حيث قال عليه السلام لابن عباس رضي الله عنه. «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا»[1] اهـ.

* * *

ثم إذا صح فقرك إليه وتحققت ذلّتك بين يديه أتحفك بأنسه وزجّ بك في حضرة قدسه، كما أشار إلى ذلك بقوله:

98 ـ (متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به)

قلت: هذه سنّة الله تعالى في خلقه إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره ويتحفه بمعرفته أوحشه من خلقه وشغله بخدمته وألهمه ذكره، حتى إذا امتلأ قلبه بالأنوار وتمكن من حلاوة الشهود والاستبصار ردّه إليهم رحمة لهم، لأنه حينئذ لقوّته يأخذ منهم ولا يأخذون منه، ومثاله في الحس كفتيلة شعلتها فما دامت ضعيفة لا بد أن

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. . .، حديث رقم (6304) [3/ 624]. ورواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل: قال البيهقي رحمه الله: وكما لا ينبغي. . .، حديث رقم (1074) [2/ 27ـ 28] ورواه غيرهما.

تحفظها من الريح وتقصد بها المواضع الخفية، فإذا اشتد نورها وأشعلتها في الحطب صعدت بها إلى ظهور الجبال فبقدر ما يصيبها الريح يعظم اشتعالها، كذلك الفقير ما دام في البداية لا يليق به إلّا الوحشة من الخلق والفرار منهم، فإذا تمكّن في الشهود فلا يليق به حينئذ إلّا الخلطة معهم لأنهم لا يضرونه، فمتى أوحشك أيها الفقير من خلقه وعزلك عنهم في قلبك، **فاعلم** أنه تعالى أراد أن يؤنسك به ويغنيك بمعرفته، فقد كان عليه السلام حين قرب أوان النبوّة والرسالة حبّب إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء. وحكمة ذلك تصفية البواطن من الشواغل والشواغب لتتهيأ لقبول ما تتحمله من الأسرار والمواهب، فإذا تطهّر من الأكدار مليء بالأنوار فأشرقت فيه شموس العرفان وتمكّن من حضرة الشهود والعيان فهذه سنّة الله في أوليائه وأصفيائه يفرون أولاً من الناس حتى يحصل لهم منهم الإياس ثم يردّهم الحق إليهم رغماً على أنفهم لمقام الدلالة والإرشاد فينتفع بهم العباد وتحيا بوجودهم البلاد، وفي مثلهم قال الشاعر:

تحيَا بكُمْ كلُّ أرضٍ تنزلونَ بها   كأنّكُم في بقاعِ الأرضِ أمطارُ
وتشتهي العينُ فيكُم منظراً حسناً   كأنّكُم في عيونِ النّاسِ أزهارُ
ونورُكُم يهتدي الساري برؤيتِهِ   كأنّكُم في ظلامِ اللّيلِ أقمارُ
لا أوحشَ اللّهُ ربعاً من زيارتِكُم   يا مَنْ لهُم في الحشَا والقلبُ تذكارُ

نفعنا الله بهم وحققنا بمعرفتهم آمين.

* * *

ثم إذا فتح لك باب الأنس وتشوّقت إلى حضرة القدس، ثم أطلق لسانك بطلبها **فاعلم** أنه يريد أن يفتح لك بابها كما أشار إلى ذلك بقوله:

99 ـ (متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك)

قلت: لأن الحق تعالى جعل الطلب سبباً من الأسباب، فإذا أراد أن ينجز للعبد ما سبق له فتح له فيه باب الطلب فإذا حصل منه الطلب حصل ذلك الذي قسم له في الأزل إظهاراً لحكمته وإخفاء لقدرته وتغطية لسرّه، فالدعاء من جملة الأسباب العادية كالحرث والدواء والتزوج في الولد وغير ذلك، سبقت به المشيئة ونفذ به القضاء والقدر فما بقي الدعاء إلّا إظهاراً للفاقة وإبقاء لرسم العبودية لا طلباً لحصول ما لم يكن، جلّ حكم الأزل أن يضاف للأسباب والعلل. فمتى

أطلق لسانك أيها المريد بالطلب لشيء تجلّى في قلبك أو احتجت إليه **فاعلم** أن الحق تعالى أراد أن يعطيك ما طلبت منه فلا تحرص ولا تستعجل فكل شيء عنده بمقدار، فإن أطلق لسانك في الدعاء من غير سبب فخير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك كما تقدم.

قال رسول الله ﷺ: «**من أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة**»(1) وقال أيضاً عليه السلام: «**من أذن له في الدعاء منكم فقد فتحت له أبواب الرحمة، وما سئل الله شيئاً أحب إليه من العفو والعافية**»(2). وقال الكتاني رضي الله عنه: لم يفتح الله لسان المؤمن بالمعذرة إلَّا وقد فتح له بالمغفرة. اهـ. وقال الخفاف رحمه الله: وكيف لا يجيبه وهو يحب صوته ولولا ذاك ما منح الدعاء. وفي ذلك قيل:

لَوْ لَـمْ تُـرِدْ نيـلَ مـا أرجُـو وأطـلـبُـهُ ... مِنْ فيضِ جُودِكَ ما علمتني الطلبَا

* * *

ثم هذا كله قبل فتح باب المعرفة، وإذا فتح لك الباب فلا تحتاج إلى طلب لغناك بمسبب الأسباب، فيكون دعاؤك إنما هو إظهار للفاقة والاضطرار اللازمتين لك مع كل نفس وفي كل وقت وحال، كما أشار إليه بقوله:

100 - (العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره)

قلت: أما وجه كونه لا يزول اضطراره فلتحقق قيومية الحق به إذ الحس لا يقوم إلَّا بالمعنى، فحس العبودية لا يقوم إلَّا بمعنى الربوبية، فبقدر تحقق العبد بقيومية الربوبية يشتد اضطراره في ظاهر العبودية، وأيضاً العارف لا يزال في الترقّي فهو متعطش للزيادة على الدوام، كما قال النقشبندي رحمه الله:

---

(1) رواه عبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء، باب ما ورد في فضل الدعاء، حديث رقم (17) [1/ 49] وأبو عبد الله الحنبلي المقدسي في الأحاديث المختارة، ورقاء بن عمر عن ثابت. . ، حديث رقم (1814) [5/ 192] وأخرجه السيوطي في الدر المنثور [5/ 9].

(2) لم أجده بلفظه إنما ورد معناه بألفاظ أخرى متفرقة، منها ما رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. . ، حديث رقم (1902) [1/ 698] وابن حبان في صحيحه، ذكر ما يستحب للمرء سؤال ربه. . . ، حديث رقم (961) [3/ 241] وروى نحوه غيرهما. ونص رواية ابن حبان هي: عن مطعم بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي».

وذو الصبابة لو يسقى على عدد الأنفـ ـاس والكـون كـأس لـيـس يـرويـه

وقال آخر:

سقـانـي الـحـبُّ كـأسـاً بـعـد كـأسٍ فـمـا نـفـذَ الـشـرابُ ولا رويــتُ

وقال بعضهم: لو شربت في كل لحظة ألف بحر لا ترى ذلك إلَّا قليلاً وتشهد شفتيك يابسة وكل ذلك كناية عن عدم النهاية، وأن المقصود غير منضبط. فالعارف لا يزال مفتقراً للزيادة على الدوام فلا يزول اضطراره على الدوام. وقد قال الله تعالى لسيد العارفين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114] فالاضطرار إلى زيادة العلم لا ينقطع ولو جمع علوم أهل السماوات والأرض، قال تعالى مخاطباً للكل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية 85].

وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره فلأن قلب العارف رحل إلى الله من الكون بأسره فلم تبق له حاجة إلى غيره، فقراره إنما هو شهود الذات الأقدس فإن نزل إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكن والرسوخ في اليقين، فالعارف ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار. وأيضاً سابق العناية لا يتركه يركن إلى غير مولاه فمهما ركن قلبه إلى شيء شوّشته عليه العناية واكتنفته الرعاية فهو محفوظ من الأغيار محفوف من كل جهة بمدد الأنوار إذا كان الله حرس السماء من استراق السمع فكيف لا يحرس قلوب أوليائه من الأغيار، وما تولاهم بمحبته حتى حفظهم من شهود غيره فكيف بالركون فكيف بالسكون هيهات هيهات هذا لا يكون.

من كان ظاهره محفوفاً بالأنوار وباطنه محشوّاً بالأسرار فكيف يركن إلى شهود الأغيار، كما أبان ذلك بقوله:

101 ـ (أنار الظواهر بأنوار آثاره وأنار السرائر بأنوار أوصافه)

قلت: أنوار الظواهر هي ما ظهر على تجليات الأكوان من تأثير قدرته وإبداع حكمته كتزيين السماء بالكواكب والقمر والشمس وما فيها من إبداع الصنع وتمام الإتقان، وكتزيين الأرض بالأزهار والثمار والنبات وسائر الفواكه وكتزيين الإنسان بالبصر والسمع والكلام وسائر ما فيه من عجائب الصنعة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: الآية 4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: الآية 7] فهذه أنوار الظواهر وأنوار الأوصاف هي العلوم والمعارف والأسرار. والمراد بالأوصاف أوصاف الربوبية كالعظمة والعزّة والجلال والجمال

والكبرياء والكمال وغير ذلك من أوصاف الذات العلية. والذات لا تفارق الصفات، فإذا أشرقت السرائر بأنوار معرفة الصفات فقد أشرقت بأنوار معرفة الذات للتلازم الذي بين الصفات والذات.

ثم الناس في شهود هذه الأنوار الباطنة التي هي أنوار الأوصاف على ثلاثة أقسام: قسم يشهدونها على البعد وهم أهل مقام الإسلام. وقسم يشهدونها على القرب وهم أهل المراقبة من مقام الإيمان. وقسم يشهدونها على الاتصال وهم أهل المعرفة من مقام الإحسان.

فأهل مقام الإسلام أنوارهم ضعيفة كأنوار النجوم، وأهل مقام الإيمان أنوارهم متوسطة كنور القمر، وأهل مقام الإحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس. فتحصّل أن أنوار الباطن ثلاثة: نجوم الإسلام وقمر التوحيد وشمس المعرفة. وإلى هذا المعنى أشار ابن الفارض بقوله:

لها البدر كأس وهي شمس يديرها هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

فالضمير لخمرة المحبة وهي أيضاً شمس المعرفة، فإذا مزجت لتشرب ظهر نجم الإسلام، وإذا وضعت في الكأس طلع قمر التوحيد وهو الإيمان، وإذا شربت أشرقت شمس المعرفة، والذي يديرها على الشاربين هلال الهداية. هذا معنى كلامه في الجملة.

وتشبيه الأنوار المعنوية بالأنوار الحسية إنما هو تقريب، وإلا فأنوار القلوب كلها عظيمة حتى قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: لو كشف عن حقيقة الولي لعبد من دون الله. وقال في لطائف المنن: ولو كشف الحق عن مشرقات قلوب أنوار أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر في مشرقات أنوار قلوبهم وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم، الشمس والقمر يطرأ عليهما الكسوف والغروب وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب. لذلك قال قائلهم:

هذهِ الشّمسُ قابلتنَا بنورٍ ولشمسِ اليقينِ أبهرُ نورًا
فرأينَا بهذهِ النورَ لكن بهاتيكَ قد رأينا المُنيرَا

فأنار الحق سبحانه ظواهر الكائنات بأنوار الظواهر وهي النجوم والقمر والشمس في الحس، وتزيين الخلق وإبداعه وتخصيصه وتقييده عن شكل معلوم في

الأنوار الخفية وتهذيب الجوارح وتطهيرها من الأنوار المعنوية، وأنار سبحانه القلوب والسرائر بأنوار أوصافه وهي عظمة الربوبية وأوصافها، فإذا أشرقت في سماء القلوب الصحيّة والأسرار الصافية غاب العبد عن شهود الأغيار وغرق في بحر الأنوار فتفنى الأشكال والرسوم ولا يبقى إلَّا الحيّ القيوم.

ثم ذكر الفرق بين أنوار الظواهر وأنوار السرائر، فقال:

101 ـ (لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر)

أي لأجل أن أنوار الظواهر إنما هي أنوار الأثر ومن شأن الأثر أن يتأثر ويتغيّر بالطلوع والغروب، فأفلت أي غربت أنوار الظواهر إما بالغروب المعلوم أو بالعدم المحتوم، ولم تأفل، أي تغرب، أنوار القلوب وهي أنوار الإسلام والإيمان وأنوار السرائر وهي أنوار الإحسان.

فأنوار الإسلام والإيمان هي أنوار التوجه وأنوار الإحسان هي أنوار المواجهة، فالنور عبارة عن اليقين الذي يحصل في القلب يثمر حلاوة العمل، فإذا قوي اليقين قوي النور واشتدت الحلاوة حتى يتصل بحلاوة الشهود فيغطي حلاوة العمل، فلذلك يقل عمل الجوارح عند العارف إذ حلاوة الشهود تغني عن كل شيء ليس الخبر كالعيان.

وفي بعض الأحاديث سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل، قال: «**العلم بالله**»، قالوا: يا رسول الله سألناك عن العمل، قال: «**العلم بالله**» ثم قال في الثالثة: «**عمل قليل كاف مع العلم بالله**»[1]. وحقيقة النور في الأصل كيفية تنبسط من النيرين على سطح الجسم فينكشف ما عليه بواسطة البصر. ثم شبّه به العلم واليقين والمعرفة لما بينهما من الشبه في كشف حقيقة الأشياء وتمييزها، فالنور الحسي ينقطع بانقطاع أصله، والنور المعنوي الذي هو نور القلوب لا ينقطع أبداً، فلذلك أنشد الشيخ هذا البيت فقاله.

101 ـ (ولذلك قيل:

إنّ شمسَ النهارِ تغربُ بليلٍ وشمسُ القلوبِ ليستْ تغيبُ)

وليس هو من عند المؤلف بل هو لغيره[2] وسيأتي في المناجاة بتمامه إن شاء الله.

---

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في الأصل السابع والستين والمئتين، في فضل العلم بالله [4/ 101] والمناوي في فيض القدير 2/ 26].

(2) هذا البيت هو للشيخ الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة 309هـ.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: فشمس القلوب لا تغيب أبداً بل هي دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها وهي معاني الأوصاف الربانية ودوام محالها، وهي الآفاق الروحانية فالمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم، ومن هذا الوجه كان غنى القوم بالله لا بالأسباب وتعلّقهم به لا بشيء دونه اهـ.

هذا آخر الباب العاشر، **وحاصله** ذكر كيفية الجزاء على الأعمال، والزجر على طلبه، وتحقيق معرفته في عطائه ومنعه، والاعتناء بإقباله وقبوله لا بخدمته ودوام الاضطرار بين يديه، والافتقار إلى نعمته، والاستيحاش من خلقه بدوام أنسه، ثم إشراق أنواره على قلوب أوليائه وأسرار أصفيائه جزاء لإقبالهم عليه وانحياشهم إليه، فإذا أتحفهم بذلك وهيّأهم لما هنالك تلى عليهم قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البَقَرَة: الآية 214] الآية، كما نبّه عليه في أول الباب الحادي عشر بقوله:

* * *

[الباب الحادي عشر]

وقال رضي الله عنه:

102 - (ليخفف ألم البلاء عنك علمك بانه سبحانه هو المبلي لك فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عوّدك حسن الاختيار)

قلت: إذا أصابتك أيها الإنسان مصيبة أو نزلت بك بلية في بدن أو أهل أو مال فاذكر من أنزل ذلك عليك وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك والمحبة والعطف عليك، لعلك تفهم ما في طيّ ذلك من النعم وما يعقبه من سوابغ الفضل والكرم، ولو لم يكن إلَّا تطهيرك من الذنوب وتمحيصك من العيوب وتقريبك من حضرة علَّام الغيوب، فهل تعودت منه إلَّا الإحسان وهل رأيت منه إلَّا غاية المبرة والامتنان، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عوّدك حسن الاختيار، فالذي واجهتك منه أحكام قهره هو الذي عوّدك تمام إحسانه وبره، فالذي واجهتك منه ظواهر المحن هو الذي أسبغ عليك بواطن المنن، فالذي واجهتك من حضرة قهاريته الرزايا هو الذي أتحفك بأنواع الكرامات والهدايا، ولله در صاحب العينية[1] حيث يقول:

تـلـذُّ لـيَ الآلامُ إذ أنـتَ مـسـقِـمـي ... وإنْ تَـمـتـحنِّـي فـهـي عـنـدِي صـنـائِـعُ

تَـحَـكَّـم بـمـا تـهـوَاه فـيَّ فـإنَّـنِـي ... فـقـيـرٌ لـسـلـطـانِ الـمـحـبـةِ طـائِـعُ

قال الجنيد رضي الله عنه: كنت نائماً بين يدي السري فأيقظني وقال لي: يا جنيد رأيت كأني وقفت بين يديه فقال لي: يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر، فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر، فسلّطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر. فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم فما تريدون، قالوا: إنك تعلم ما نريد، فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي،

(1) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

أتصبرون. قالوا: إن كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت. هؤلاء عبادي حقاً. اهـ.

وقال في التنوير[1]: وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام. وإن شئت قلت: وإنما يقوّيهم على حمل البلايا واردات العطايا. وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره. وإن شئت قلت: وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه. وإن شئت قلت: إنما يصبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود إجماله. وإن شئت قلت: إنما صبرهم على القضاء علمهم بأن الصبر يورث الرضى. وإن شئت قلت: إنما صبّرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار. وإن شئت قلت: إنما صبّرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره اهـ.

* * *

وإلى هذا الأخير أشار بقوله:

103 ـ (من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره)

قلت: من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه. وبهذا حكم النقل والعقل، أما العقل فما من مصيبة تنزل بالعبد إلَّا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها وقد وجد ذلك فإذا نزلت بك أيها الإنسان مصيبة فاذكر من هو أعظم منك بلاء، فكم من إنسان يتقطع بالأوجاع، وكم من إنسان مبتلى بالجذام والبرص والجنون والعمى، وكم من إنسان مطروح في الفنادق لا يجد من يبريه إلَّا من ابتلاه، وكم من إنسان أعمى أو مقعداً أو محموم إلى ما لا يتناهى نسأل الله عافيته الدائمة في الدارين.

وأما من جهة النقل فقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية في مدح الصابرين، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية 10]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 155] الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 153] إلى غير ذلك. وقوله ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها وحتى الهم يهمه إلَّا كفر به سيئاته**»[2]. وورد في الحمى أحاديث كثيرة، وإن حمى ساعة تكفِّر سنة إلى غير ذلك.

---

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب ثواب المؤمن...، حديث رقم (2570) [4/ 1990]، والنسائي في السنن الكبرى، ثواب من يصرع، حديث رقم (7487) [4/ 353] ورواه غيرهما.

وقد ذكر الشيخ ابن عباد رضي الله عنه منها جملة شافية فليطالعه من أراد تكثير الأجور ورفع الستور والرضى بالمقدور، وما ذكرناه كاف إن شاء الله. وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: كلام النيّة قصير وبالله التوفيق فالأمر واضح لمن هو لنفسه ناصح.

* * *

فلا يخاف عليك من الجهل بالحق وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى وجهلة الخلق، كما أشار إلى ذلك بقوله:

104 ـ (لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك)

قلت: لا شك أن الله سبحانه بيَّن لنا طريق الوصول على لسان الرسول ﷺ فبيَّن لنا أعلام الشريعة ومنار الطريقة وأنوار الحقيقة، فقرَّر لنا شرائع الإسلام وقواعد الإيمان ومقام الإحسان فما ترك ﷺ شيئاً يقرّبنا إلى الله إلَّا دلّنا عليه ولا شيئاً يبعدنا عنه إلَّا حذرنا منه لم يأل جهداً في إرشاد العباد وإظهار طريق السداد، فما رحل إلى الله تعالى حتى ترك الناس على الدين القويم والمنهاج المستقيم على طريق بيضاء لا يضلّ عنها إلَّا من كان أعمى. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية 3]، وقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البَقَرَة: الآية 256]. وقال عليه السلام: «**لقد تركتكم على الحنيفية السمحة**»[1] وفي رواية: «**على المحجة البيضاء نهارها كليلها**»[2]. أو كما قال عليه السلام.

وقال أحمد بن حضرويه البلخي رضي الله عنه: الطريق واضح والدليل لائح والداعي قد أسمع فما التحيّر بعد هذا إلَّا من العمى.

وسمعت رابعة العدوية صالحاً المري يقول: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له. فقالت له: الباب مفتوح وأنت تفرّ منه كيف تصل إلى مقصد أخطأت الطريق إليه في أول قدم. اهـ كلامها رضي الله عنها.

فلا يخاف عليك أيها المريد أن تلتبس الطرق الموصلة إلى الله تعالى عليك لأنها في غاية الوضوح وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصمك ويعميك،

---

(1) لم أجده بهذا اللفظ، إنما ورد: «إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة». (رواه الطبراني في المعجم الأوسط، عن أبي هريرة، حديث رقم (7351) [7/ 229].

(2) رواه ابن كثير في تفسيره، سورة المائدة، حديث رقم (4266) [2/ 37].

إن الهوى ما تولى يُصْمِ أو يَصِمِ، فلا يخاف عليك التباس الهدى إنما يخاف عليك اتباع الهوى فلا يخاف عليك التباس الحق وإنما يخاف عليك جهلة الخلق، وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، فلا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق، وإنما يخاف عليك قطاع الطريق، لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق إنما يخاف عليك من قلّة الصدق، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم والله ما حجبهم عنك إلّا من عدم صدقك، فلو حسَّنت ظنك بالله وبأولياء الله لرفع الله الحجاب بينك وبينهم، ووجدتهم أقرب إليك من أن ترحل إليهم. فسبحان من سترهم في حال ظهورهم وأظهرهم في حال خفائهم.

* * *

كما نبّه عليه الشيخ بقوله:

105 ـ (سبحان من ستر سرّ الخصوصية بظهور وصف البشرية وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية)

قلت: الخصوصية هي نور الحق يشرقه الله في قلوب خواص عباده المقرّبين بعد تطهيرها من الأكدار وتنزيهها عن المساوىء والأغيار، يغيبون به عن شهود أنفسهم بشهود محبوبهم، وسرها هو ما احتوى عليه ذلك النور من الكمالات العلية والنعوت القدسية والصفات السنية التي تليق بالمتحلّي بها كالكبرياء والعز والقوّة والعظمة والإجلال، وكالاتصاف بالقدرة التامة والعلم المحيط وسائر أوصاف الكمال. ثم إن الحق سبحانه من عظيم حكمته وباهر قدرته أن ستر تلك الأوصاف اللازمة لذلك النور بظهور أضدادها التي هي أوصاف العبودية، فستر كبرياءه وعظمته بظهور الذلّ والفقر والضعف على العبد، وستر قدرته وإرادته بظهور العجز والقهرية عليه، وستر علمه المحيط بظهور الجهل والسهو، إلى غير ذلك من أوصاف العبودية المقابلة لأوصاف الربوبية.

فسبحان من جعل الأشياء كامنة في أضدادها، ستر كمالات الربوبية بنقائص العبودية ولولا ذلك لكان السر غير مصون والكنز غير مدفون، وسيأتي قوله: ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تبتذل بالإظهار وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار. اهـ.

ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: لو كشف عن نور الوليّ لعبد من دون الله. وثبت عن الشيخ أبي يزيد رضي الله عنه: أنه لما تجلّى له هذا

النور قال: سبحاني ما أعظم شأني. وقال الحلاج رضي الله عنه:

أَنَا أنتَ بلا شكٍ سبحانَك سبحانِي
توحيدُك توحيدي وعصيانُك عصياني

وقال أيضاً:

سبحانَ مَنْ أظهرَ ناسوتَهُ سرَّ سناء لاهوتِهِ الثاقِبْ
ثم بدَا في خلقهِ ظاهراً في صورةِ الآكلِ والشارِبْ
حتى لقد عاينَهُ خلقُهُ كلحظةِ الحاجبِ بالحاجِبْ

وبإظهار هذا وأمثاله قتل رضي الله عنه. فمن لطف الله تعالى ورحمته أن ستر ذلك السر بظهور نقائصه صوناً لذلك السر أن يظهر لغير أهله، ومن أفشاه لغير أهله قتل كما فعل بالحلاج.

وكما ستر سر الخصوصية بظهور أضدادها ظهر بعظمة الربوبية في مظاهر العبودية. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية اهـ. إذ الربوبية تقتضي مربوباً موصوفاً بضد ما اتصف به ربه من الكمالات الإلٰهية والنعوت القدسية فما ظهرت أوصاف الربوبية التي هي الغنى والعزّ والقدرة وغير ذلك من الكمالات إلّا في أضدادها من الفقر والذلّ والضعف وغير ذلك، فالفقر الحقيقي شامل لسائر الموجودات والغنى المطلق واجب لمن تجلّى في الأرض والسماوات ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فَاطِر: الآية 15]. فإذا تقرّر هذا علمت أن الإضافة في سر الخصوصية ليست هي للبيان بل هي للتخصيص، فسر الخصوصية غيرها إذ الخصوصية هي النور الذي يقذفه الله سبحانه في قلوب أوليائه وسرها هو الكمالات التي تلازم ذلك النور كما تقدم.

واعلم أن سر الخصوصية الذي جعله الله في بواطن أوليائه وستره بظهور وصف بشريتهم قد يظهره عليهم على وجه خرق العادة، فقد يظهر على وليه من قدرته وعلمه وسائر كمالاته ما تحار فيه العقول وتذهل فيه الأذهان، لكن لا يدوم ذلك لهم بل يكون على سبيل الكرامات وخرق العادات يشرق عليهم شموس أوصافه فيتصفون بصفاته ثم يقبض ذلك عنهم فيردهم إلى حدودهم، فنور الخصوصية وهي المعرفة ثابت لا يزول ساكن لا يحول، وسرها وهو كمالاته تعالى، تارة يشرق على أفق بشريتهم فيستنير بأوصاف الربوبية وتارة ينقبض عنهم فيردون إلى حدودهم وشهود عبوديتهم. فالمعرفة ثابتة والواردات مختلفة، والله تعالى أعلم.

واعلم أيضاً أن أوصاف البشرية التي ستر الله بها سر الخصوصية إنما هي الأوصاف الذاتية اللازمة للبشر كالأكل والشرب والنوم والنكاح، لا الأوصاف المذمومة المناقضة للعبودية كالكبر والعجب والحسد والغضب وغير ذلك، فإن تلك أوصاف ذهبت بظهور نور العناية وسابق الهداية إذ لا تثبت الخصوصية إلَّا بعد محوها، بخلاف الأوصاف الذاتية فإنها تجامع الخصوصية كما سيأتي إن شاء الله، بل هي حجابها وصوانها وبوجودها وقع الستر، للخلفاء ولأولياء الله تعالى غيرة عليهم أن يعرفهم من لا يعرف قدرهم.

قال في لطائف المنن: فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم. وسمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله فإن الله معروف بكماله وجماله ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وإذا أراد الله أن يعرّفك بوليّ من أوليائه طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته اهـ.

تنبيه: هذا النور الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه كان كامناً في الروح في أصل بروزها، فأصلها نورانية عالمة بأسرار الغيب دراكة للأشياء على حقيقتها، وإنما حجبها عن ذلك سجنها في هذا البدن الطيني واشتغالها بحظوظه وشهواته فمن أدّبها وريّضها على يد شيخ كامل رجعت إلى أصلها. قال في المباحث:

ولم تزلْ كلُّ نفوسِ الأحيا عـلَّامـةٌ درَّاكـةٌ للأشيا
وإنّما تعوقُها الأبدانُ والأنفسُ النزغُ والشيطانُ
فكلُّ مَنْ أذاقهُم جهادَه أظهر للقاعد خرق العادةِ

فإذا كمل تطهير الروح من الأغيار، وأشرقت عليها شموس الأنوار، كوشفت بأسرار الذات وأنوار الصفات، فغرقت في بحر التوحيد الذي تكل عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة، وهو التوحيد الخاص الذي أشار إليه الهروي بقوله:

ما وَحّدَ الواحدَ مِنْ واحدٍ إذْ كلُّ مَنْ وحَّدَهُ جاحِدُ
توحيدُ مَنْ ينطقُ عن نعتِهِ عاريةٌ أبطلَهَا الواحِدُ
توحيدُهُ إياهُ توحيدُهُ ونعتُ مَنْ ينعتُهُ لاحدُ

ومضمنه: أن الحق سبحانه تولى توحيد نفسه بنفسه، فكل من ادعى أنه وحّده بنفسه فهو جاحد لوحدانيته حيث أشرك معه نفسه، وكل من ينعته بنفسه فهو لاحد أي

مائل عن الصواب، والله تعالى أعلم.

* * *

فإذا طلبت ربك في تطهيرك من وصف البشرية ليكشف لك سر الخصوصية، ثم تأخر مطلبك، فإنما ذلك من سوء أدبك كما نبّه عليه بقوله:

106 ـ (لا تطالب ربّك بتاخر مطلبك ولكن طالب نفسك بتاخر أدبك)

قلت: هذه قاعدة عامة وإن كانت مناسبتها خاصة، فإذا طلبت شيئاً ثم تأخر ظهور ذلك المطلب فإنما ذلك لما فاتك من حسن الأدب ولو لم يكن إلَّا قصد خصوص ذلك الطلب فلا تطالب ربك أن يعجّل مطلبك بسبب تأخره عنك، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك، فلو أحسنت الأدب في الطلب لقضيت حاجتك معنى، وإن لم تقض حساً، وحسن الأدب هنا هو اكتفاؤك بعلمه ورضاك بحكمه واعتمادك على ما اختاره لك دون ما اخترته لنفسك لقلّة علمك، فقد ضمن لك الإجابة فيما يريد لا فيما تريد وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد. ولله در القائل:

وكم رمتَ أمراً أخرتَ لي في انصرافِهِ فـلا زلـتَ لـي مـنـي أبـرَّ وأرحـمَـا

عـزمـت عـلـيّ ألا أحـسّ بـخـاطـر على القلبِ إلَّا كنتَ أنتَ المُقدمَا

وألّا تـرانـي عـنـدَ مـا قـدْ نـهـيـتَـنِـي لأنَّـك فـي نـفـسـي كـبـيـراً مـعـظّـمَـا

قال وهب بن منبه رضي الله عنه: قرأت في بعض الكتب: يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك ولا تعلمني بما يصلحك إني عالم بخلقي، إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري، ولست بناظر في حق عبدي حتى ينظر عبدي في حقي.

* * *

وأعظم الآداب وأكملها امتثال أمره والاستسلام لقهره، كما نبّه عليه بقوله:

107 ـ (متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره وفي الباطن مستسلماً لقهره فقد أعظم المنّة عليك)

قلت: إنما كان من أعظم المنّة لأنه شاهد المعرفة التي هي منتهى الهمم وأقصى غاية النعم، فامتثال الأمر في الظاهر يدل على كمال الشريعة وتحقيق العبودية، والاستسلام للقهر في الباطن يدل على كمال الطريقة ونهاية الحقيقة، والجمع بينهما هو غاية الكمال إذ منتهى الكمالات الشرائع فمتى جعلك أيها الإنسان

في الظاهر ممتثلاً لأمره ومجتنباً لنهيه وفي الباطن مستسلماً لقهره فقد أعظم المنّة عليك، حيث أراح ظاهرك من عنت المخالفة وأراح باطنك من تعب المنازعة.

أو تقول: حيث زيّن ظاهرك بالطاعة وزين باطنك بالمعرفة، فالواجب عليك أن تشكر هذه النعمة وتعرف قدرها حتى تعظم محبة الله في قلبك وذلك أقصى مرادك وقصدك والله ذو الفضل العظيم.

* * *

ومتى أثبت لك هذا الأمر فقد خلصك من نفسك وحررك من رقّ حظك فلا تبال معها ما فاتك من تخصيص الكرامات الحسّية لأنَّها أمور وهمية كما أشار إلى ذلك بقوله:

108 ـ (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه)

قلت: المراد هنا بالتخصيص: تخصيصه بالكرامات الحسية، والمراد بالتخليص: تخليصه من رقّ الحظوظ ومن بقية السوى فليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات الحسِّية كمل تخليصه من حظوظه النفسية، [و] ليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات كمل تخليصه من العوائد والشهوات، بل قد يُعطى الكرامة الحسِّية بعض من لم يتخلص من حظوظه النفسية. وحكمة ظهورها عليه ثلاثة أمور:

أحدها: إنهاضه في العمل لحصول فترة أو وقعة.

الثاني: اختبار له هل يقف معها فيحجب أو يأنف عنها فيقرب.

الثالث: زيادة في يقينه أو يقين الغير فيه لينتفع به فهي مقصودة بالتكميل على كل حال.

قال سهل رضي الله عنه لرجل قال له: إني أتوضأ فأجد الماء يسقط من يدي قضبان ذهب وفضة، فأجابه بقوله: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة يشتغلون بها.

قال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات إلَّا على أيدي البله من الصادقين اهـ. قلت: الكرامة العظمى هي المعرفة والاستقامة ورفع الحجاب وفتح الباب، فلا كرامة أعظم من هذا وسيأتي الكلام على هذا المعنى بعد إن شاء الله.

ويحتمل أن يريد بالتخصيص تخصيص التقريب والهداية فليس كل من ثبت تخصيصه بالهداية وشروق الأنوار كمل تخليصه من رؤية الأغيار، فقد يخصص بالمجاهدة والمكابدة ولا يتحف بالمعرفة والمشاهدة، قوم أقامهم لخدمته وقوم

اختصهم بمحبته كما تقدم، فالعبّاد والزهّاد ثبت تخصيصهم، فهم من عوام المقرّبين ولم يكمل تخليصهم من شهود السوى حتى يكونوا من خواص العارفين، وبالله التوفيق.

هذا آخر الباب الحادي عشر.

وحاصله: تحقيق الأدب في التعرفات الجلالية بدوام معرفته وشهود نعمته في نعمته وجريان لطفه وبره في حال قضائه وقدره حتى لا يغلبك الهوى فتلتبس عليك سبل الهدى أو تقف مع ظاهر الأشياء التي هي محل الجلال فتحجب عن البواطن التي هي مستقر الجمال، فالذات جلال والصفات جمال فمن وقف مع ظواهر الجلال حجب عن شهود الجمال وحرم من معرفة الرجال وكان محجوباً عن ذي العظمة والجلال، فيسيء الأدب ويحرم حصول المطلب، فإذا استدركته العناية وهبّت عليه ريح الهداية شغل ظاهره بوظائف العبودية وباطنه بشهود الربوبية فكان في الظاهر ممتثلاً لأمره وفي الباطن مستسلماً لقهره، فتمّت عليه نعمة مولاه وكمل تخليصه من رقّ حظوظه وهواه فهو يعظم ما عظم مولاه ولا يستحقر شيئاً من أسباب محبته ورضاه.

[الباب الثاني عشر]

كما أبان ذلك في أول الباب الثاني عشر بقوله: وقال رضي الله عنه:

109 - (لا يستحقر الورد إلاَّ جهول، الوارد يوجد في الدار الآخرة والورد ينطوي بانطواء هذه الدار، وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده، الورد هو طالبه منك والوارد أنت تطلبه منه، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه)

قلت: الورد في اللغة هو الشرب، قال تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هُود: الآية 98]. وفي الاصطلاح: ما يرتبه العبد على نفسه أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات. والوارد في اللغة: هو الطارق والقادم. يقال: ورد علينا فلان، أي قدم. وفي الاصطلاح: ما يتحف الحق تعالى به قلوب أوليائه من النفحات الإلٰهية فيكسبه قوّة محركة، وربما يدهشه أو يغيّبه عن حسّه ولا يكون إلّا بغتة ولا يدوم على صاحبه.

ثم إن الورد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ورد العباد والزهّاد من المجتهدين. وورد أهل السلوك من السائرين وورد أهل الوصول من العارفين.

فأما ورد **المجتهدين** فهو استغراق الأوقات في أنواع العبادات وعبادتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وصيام، وقد ذكر في الإحياء[1] والقوت: أوراد النهار وأوراد الليل، وعيَّن لكل وقت ورداً معلوماً.

وأما ورد **السائرين** فهو الخروج من الشواغل والشواغب وترك العلائق والعوائق وتطهير القلوب من المساوىء والعيوب، وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل وعبادتهم ذكر واحد وهو ما يعينه له هم الشيخ لا يزيدون عليه مع جمع القلب وحضوره مع الربّ.

وأما ورد **الواصلين** فهو إسقاط الهوى ومحبة المولى وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف في الحضرة، فكل من أقامه مولاه في ورد فليلتزمه ولا يتعدى طوره ولا يستحقر غيره، إذ العارف لا يستحقر شيئاً بل يصير مع كل واحد في مقامه ويقرر كل

---

(1) الإحياء: كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى، المتوفى سنة 505 هجرية.

شيء في محله فلا يستحقر الورد ويطلب الوارد إلَّا جهول أو معاند وكيف يستحقر الورد وبه يكون الورود على الملك المعبود، الورد يوجد ثوابه وثمرته في الدار الآخرة، والوارد الذي تطلبه ينطوي بانطواء هذه الدار، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: الآية 72].

وجاء في الأثر: أنَّ الله يقول: «ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم»[1]. وأيضاً المراد من الواردات ثمراتها ونتائجها وهو ما يعقبها من اليقين والطمأنينة والرضى والتسليم وغير ذلك من المحاسن، فإذا أعطتك نتائجها وجنيت ثمراتها فلك في الله غنى عنها فلا يستحقر الورد ويطلب الوارد إلَّا من كان عبد الوارد، وأما من كان عبد الله فلا يلتفت إلى ما سواه بل يلزم ما هو مكلف به من وظائف العبودية قياماً بحق عظمة الربوبية فهو الذي يدوم وبه يتوصل إلى رضى الحي القيّوم، وأولى ما يعتني به الإنسان ما ينقطع وجوده بانقطاع موته، وهو ورده، فيغتنم وجوده ما دام في هذه الدار فليس في تلك الدار عمل وإنما هي دار جزاء وحصول أمل، فالدنيا دار عمل لا جزاء فيها والآخرة دار جزاء لا عمل فيه. فليغتنم الإنسان عمره قبل الفوات فما من زمن يخلو عنه إلَّا وهو فائت منه.

وقد جاء في الحديث: «**لا تأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلَّا كانت عليه حسرة يوم القيامة**»[2] اهـ. والذكر متنوّع كل بحسب حاله. وقال الحسن رضي الله عنه: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم. وفي معنى ذلك قيل:

السِّباقَ السِّباقَ قولاً وفعلاً حَذِّرِ النَّفسَ حَسْرَةَ المسبُوقِ

وفي بعض الأحاديث عنه عليه السلام: «**من استوى يوماه فهو** مغبون، **ومن كان يومه شرّاً من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن في الزيادة فهو في** النقصان، **ومن كان**

(1) روى شطره الأول وهو قوله: "ادخلوا الجنة برحمتي" ضمن حديث طويل أبو بكر الإسماعيلي في معجم الشيوخ، برقم (226) [2ـ 596، 597] والسيوطي في الدر المنثور، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: الآية 172].

(2) لم أجده بلفظه، إنما الذي ورد: «ما من قوم جلسوا مجلساً وتفرقوا منه لم يذكروا الله فيه إلَّا كأنما تفرقوا عن جيفة حمار وكان عليهم حسرة يوم القيامة» (رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. . .، حديث رقم (1808) [1/ 668] ورواه غيره باختلاف يسير في لفظه.

في النقصان فالموت خير له»[1]. وأولى ما يعتني به العبد أيضاً، ما هو طالبه منه الحق تعالى، وهو الورد دون ما يطلبه هو منه وهو الوارد، فالورد من وظائف العبودية وهو الذي طلبه منا الحق تعالى، والوارد من وظائف الحرية، ولذلك تطلبه النفس وتتعشّق إليه، وأين ما هو طالبه منا مما هو مطلبنا منه بينهما فرق كبير.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: بينهما في القدر ما بينهما في الوصف قضاء الله أحق وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق. اهـ.

فتحصّل: أن الاعتناء بالورد أفضل وأكمل من الاعتناء بالوارد، لأن الورد من وظائف العبودية وهي لا تنقطع ما دام العبد في هذه الدار، وكما أن حقوق الربوبية لا تنقطع كذلك حقوق العبودية لا تنقطع.

قال النقشبندي رحمه الله: ولهذا لم يترك العبادة سيد هذا المقام ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: كيف تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، فقال: **«أفلا أكون عبداً شكوراً»**[2]. فأفاد ﷺ أن شكر النعمة تمام الخدمة وهو موجب المزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية 7] وهذا سبيل طائفة الجنيد رضي الله عنه، لم يترك أوراده في حال نزاعه، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أولى مني بذلك وهذه صحائفي تطوى. فلم يترك الخدمة رضي الله عنه في مثل هذه الحالة، فكيف بسواها.

قيل له: إن جماعة يزعمون أنهم يصِلُون إلى حالة يسقط عنهم التكليف، قال: وصلوا ولكن إلى سقر.

وقال في كلام آخر: هذا كلام من يقول بالإباحة والسرقة والزنى عندنا أهون حالاً ممن يقول بهذه المقالة. ولقد صدق رضي الله عنه في قوله هذا، فإن الزاني والسارق عاص بزناه وسرقته ولا يصل إلى حد الكفر، وأما القائل بسقوط الفرائض المعتقد لذلك فقد انسلّ من الدين كانسلال الشعرة من العجين. فعض على هذا الأصل بالنواجذ يا أخي ولا تسمع كلام من أخذ الحقائق من الكتب وصار يتكلم

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (5910) [3/ 611] وفيه [ملعون] بدل [محروم] وكذا وجدتها في كل المصادر التي بين يدي. وممن رواه أيضاً البيهقي في كتاب الزهد الكبير، حديث رقم (987) [2/ 367] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه. . .، حديث رقم (1078) [1/ 380]. ومسلم في صحيحه باب إكثار الأعمال. . .، حديث رقم (2818)، (2819) [4/ 2171] ورواه غيرهما.

بالزندقة والإلحاد وإسقاط الأعمال على حسب فهمه وهواه. قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئت به**»[1]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية 31].

فعليك بمتابعته ﷺ ومتابعة السلف الصالح في الأقوال والأفعال والأحوال تحز مقامهم وتكن معهم، فالمرء مع من أحب.

اهـ كلام النقشبندي وهو حسن لأن من أخذ الحقائق من الكتب لا ذوق عنده وإنما يترامى على الحقيقة بالعلم فيتبع الرخص ويسقط في مهاوي الهوى، وأما من كان من أهل الأذواق فسره مكتوم وأمره محزوم وعبادته أدب وشكر، وهو أحق بدوام الشكر، وكيف ينكر الواسطة ولولا الواسطة لذهب الموسوط.

قال أبو الحسن الدراج رضي الله عنه: ذكر الجنيد أهل المعرفة بالله وما يراعونه من الأوراد والعبادات بعدما أتحفهم الله به من الكرامات، فقال الجنيد رضي الله عنه: العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك. اهـ.

وقد رأى رجل الجنيد رضي الله عنه وفي يده سبحة فقال له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة، فقال: نعم سبب وصلنا إلى ما وصلنا فلا نتركه أبداً. اهـ. فالشريعة باب والحقيقة بيت الحضرة، قال تعالى ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: الآية 189]، ثم قال: فلا دخول للحقيقة إلّا من باب الشريعة. ولله در سيدي عبد الله الهبطي الزجلي رضي الله عنه حيث يقول في منظومته:

وثالثُ الفصولِ في الشريعه	لأنها إلى الهدَى ذريعَه
فكلُّ بابٍ دونَها مسدُود	ومَن أتَى مِنْ غيرِهَا مردُود
قد اصطفاهَا ربُّنَا عزَّ وجلَّ	بفضلِهِ وجودِهِ على الملَل
طريقةُ العدنَان للرحمٰنِ	محفوفَةٌ بالنورِ والرضوان
طوبَى لمَنْ أتى بها للعرضِ	والويلُ للذي بها لم يقض
يا أيُّها المريدُ إن أردت	وصالَ مَنْ بحبِّه شُغِفْت
فشدّ منكَ الكفَّ يا وليّ	على شريعةِ النبيّ الأميّ
حصّل جميعَ ما له الشرعُ ارتضى	وكُنْ لكلِ ما سواهُ رافضَا

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (7791) [5/ 153] وابن أبي عاصم الشيباني في السنة، حديث رقم (15) ورواه غيرهما.

تـرى الـفـؤادَ صـافـيـاً وشـارقـاً   وعن سوى المولى إلى المولى ارتقى

ثم قال:

فـبـالـشـريـعـةِ الـوصـالُ لـلـمُـنـا   كـالـفـوزِ بـالـبـقـاءِ مِـنْ بـعـدِ الـفَـنَـا

ومَـنْ يـظـنُّ الـخـيـرَ فـي سـواهـا   فـإنّـه والـلّـهِ مـا دراهَـا

قلت: وقد رأيت كثيراً من الفقراء قصروا من الشريعة فخرجوا من الطريقة وسلبوا نور الحقيقة، ورأيت آخرين طال أمدهم في صحبة القوم ولم يظهر عليهم بهجة المحبين ولا سيما العارفين وما ذلك إلَّا لعدم التحفظ على مراسم الشريعة، وكان شيخنا [محمد] البوزيدي رضي الله عنه يقول: كل من ترك الشريعة من غير جذب ولا عذر سلكوط كبير. اهـ. قلت: والله ما رأينا الخير إلَّا فيها وما ربحنا إلَّا منها، فالله يرزقنا الأدب معها إلى يوم الفصل والقضاء آمين.

* * *

ثم ذكر ثمرة الورد ونتيجته وهو المدد الإلٰهي، إذ بقدر الاستعداد تحصل الأمداد ولا استعداد لها إلَّا بدوام الأوراد وتفرُّغ الفؤاد، فقال:

110 ـ (ورود الإمداد بحسب الاستعداد)

قلت: المراد بالإمداد أنوار التوجه للسائرين، وأنوار المواجهة للواصلين، فهي تتوالى على قلوب العباد بحسب التأهب والاستعداد، فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة، وبقدر التخلية تكون التحلية. وفائدة هذا الإمداد تطهير القلوب من الأغيار وتقديس الأسرار من غبش الحس والأكدار، والوقوف مع الأنوار، فلا تزال أمطار المدد تنزل على أرض النفوس الطيبة والقلوب المطهّرة والأرواح المنورة والأسرار المقدسة حتى تمتلىء بأنوار المعاني فتنشق لها أسرار الذات وتتعلق لها أنوار الصفات، فتغيب بشهود الذات عن أثر الصفات ثم ترد إلى شهود الصفات بالذات والذات بالصفات لا يحجبها جمعها عن فرقها ولا فرقها عن جمعها، تعطي كل ذي حق حقه وتوفي كل ذي قسط قسطه.

قال شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه في بعض رسائله: فإن قلتم أي وقت نكون كالجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، قلنا: إذا زهدتم في الدنيا بالكلية وقطعتم الأياس من الرجوع إليها بالكلية ثم اعتقدتم في شيوخكم أنهم كُمَّل وأنهم على قدم الأنبياء عليهم السلام من ورثة النبي ﷺ فوالله العظيم لينزل عليكم المدد الليل والنهار والشهر والعام وفي كل وقت وساعة ولحظة حتى تمتلىء قلوبكم

بمعرفة الله وتطمئن قلوبكم بذكر الله وتكونوا كالجبال الراسية. هذا معنى كلامه باختصار رضي الله عنه، وهو كما قال لأن الزاهد في الدنيا تفرغ قلبه وتخلى من الأكدار وتهيّأ للأنوار فإذا نزل المدد وجد القلب متسعاً مطهراً منظفاً فملأه من أنواره وحلّاه بحلية أسراره، بخلاف ما إذا كان القلب معموراً بأغيار الدنيا لم يجد المدد موضعاً ينزل فيه فيرجع من حيث جاء. واعتقاد كمال الشيوخ هو عين الصدق وبقدر الصدق ينبع المدد ولا يمكن أن ينقطع الوهم أو يذهب الحس إلّا بالصدق مع الزهد، فبالزهد يتهيّأ للمدد وبالصدق يفيض عليه المدد، فكلما فاض ماء المدد غسل أوساخ الوهم، فإذا لم يبق للوهم أثر حصل الغرق في البحر، والله تعالى أعلم.

ثم فسّر الأمداد وكيفية الاستعداد، فقال:

110 ـ (وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار)

قلت: شروق أنوار المعارف في أفق سماء القلوب يكون على قدر صحوها من سحب الآثار وغيم الأغيار وغين الأنوار، كما قال الشاعر:

إن تلاشى الكونُ عن عينِ قلبي شاهدِ السرَّ غيبَهُ في بيانِ
فاطرحِ الكونَ عنْ عيانِكِ وامحُ نقطةَ الغينِ إنْ أردتَ تراني

فبقدر صفائها ومحوها يكون تمام إشراق نورها فإذا انجلى عن سماء القلوب سحب الآثار وغيم الأغيار أشرق فيها نور الفناء فيغيب القلب والروح عن الرسوم ولم يبق إلّا الحي القيوم، وإذا انجلت عن الأسرار غين الأنوار وأشرق فيها نور البقاء فيفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل. ولصاحب العينية رضي الله عنه:

فنيتُ بها عيني فما لي أنيةٌ هويةُ ليلَى للأنيةِ قاطعُ
وكنتُ كمَا إن لمْ أكنْ وهو أنهُ كما لم يزل فرداً وللكلِّ جامعُ
فشمسي في أفقِ الألوهةِ مَشْرِقٌ وبدري في شَرقِ الربوبيةِ طالعُ
فأفنيتُهَا حتى فنتُ وهي لم تكُنْ ولكنني بالوهم كنتُ أطالع

* * *

فعلامة شروق هذه الأنوار ترك التدبير والاختيار والاكتفاء بنظر الواحد القهار، كما أشار إليه بقوله:

111 ـ (الغافل إذا أصبح نظر في ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به)

قلت: الغافل هو الجاهل بالله ولو كثر ذكره باللسان، والعاقل هو العارف بالله

ولو قلّ له ذكر اللسان. إذ المعتبر هو ذكر الجنان، فالغافل نفسه موجودة وآماله ممدودة إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه فيدبر شؤونه ومأربه بعقله وحدسه، فهو ناظر لفعله معتمد على حوله وقوته، فإذا أفسخ القضاء ما أبرمه وهدم له ما أمله غضب وسخط وحزن وقنط فنازع ربه وأساء أدبه فلا جرم أنه يستحق من الله البعد ويستوجب في قلبه الوحشة والطرد إلا إن حصل له إياب وأدام الوقوف بالباب حتى يرفع عنه الحجاب، فحينئذ يلتحق بالأحباب.

وأما العاقل وهو العارف، فقد تحققت في قلبه عظمة ربه وانجمع إليه بكلية قلبه فأشرقت في قلبه شموس العرفان وطوى من نظره وجود الأكوان فليس له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار، تصرُّفه بالله ومن الله وإلى الله فقد فني عن نفسه وبقي بربّه فلم ير لها تركاً ولا فعلاً ولا قوة ولا حولاً فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به فيتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين.

قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أصبحت وما لي سرور إلَّا مواقع القدر. وقال أبو عثمان رضي الله عنه: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ولا نقلني إلى غيره فسخطته اهـ. فإذا أراد الفقير أن يكون تصرُّفه بالله فلينعزل عن حظوظه وهواه، فإذا أراد أن يفعل أمراً فليتأن ويصبر ويستمع إلى الهاتف فإن الله سبحانه يسمعه ما يريد أن يتوجه إليه فعلاً أو تركاً، وقد جربنا هذا في سفرنا وإقامتنا فكنا لا نتصرف إلَّا بإذن خاص والحمد لله. وصاحب الاعتناء كله هكذا مع التأني فإن التأني من الله والعجلة من الشيطان.

وكثيراً ما كان الشيخ المجذوب الولي العارف سيدي أحمد أبو سلهام ينشدني هذا البيت:

تأنَّ ولا تعجَلْ لأمرٍ تريدُهُ وكنْ راحماً بالخلقِ تُبلَى براحِمِ

فعليك أيها المريد بالاعتناء بهذا الأمر، وافهم عن الله في أمورك كلها. وأنشد على نفسك:

اتبع رياحَ القضَا وَدُرْ حيثُ دارتِ وسلِّم لسلمى وسِرْ حيثُ سارت

واستعن على هذا الأمر بأدعيته عليه السلام في هذا المقام كقوله: **«اللهمَّ إني أصبحت لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلَّا ما أعطيتني ولا أن أتقي إلَّا ما وقيتني فوفّقني اللهمَّ لما ترضاه مني من القول**

والفعل وفي عافية وستر إنك على كل شيء قدير»[1].

وكقوله أيضاً عليه السلام: **«اللهمَّ إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتهناً بعملي، فلا فقير أفقر مني، اللهمَّ لا تشمّت بي عدوي ولا تسيء بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همّي ولا مبلغ علمي، ولا تسلِّط عليَّ من لا يرحمني»**[2] إلى غير ذلك من الأدعية التي تكسب الرضى والتسليم. والمقصود من دعائه عليه السلام فهم معانيها لا مجرد ألفاظها. فالمراد المعاني لا الأواني، والله تعالى أعلم.

ويجمع هذه المعاني وصية شيخ طريقتنا القطب ابن مشيش للرجل الذي قال له: وظف عليَّ وظائف وأوراد. فغضب وقال له: أرسول أنا فأوجب الواجبات، الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة فكن للفرائض حافظاً وللمعاصي رافضاً واحفظ قلبك من إرادة الدنيا وحب النساء ومن الجاه وإيثار الشهوات واقنع في ذلك كله بما قسم الله لك إذا خرج لك مخرج الرضى وهو جماله تعالى فكن لله فيه شاكراً، وإذا خرج لك مخرج السخط وهو جلاله فكن عليه صابراً، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات وأصل جامع لجميع الكرامات وحصن ذلك كله أربعة: صدق الورع، وحسن النيّة، وإخلاص العمل، ومحبة العلم. ولا يتم ذلك إلَّا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح. اهـ.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: احرص أن تصبح وتمسي مفوِّضاً مستسلماً لعله ينظر إليك فيرحمك اهـ.

وقال بعضهم: من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه، ومن اهتدى إلى نفسه لم يهتد إلى الله، أي من رأى الحق غاب عن نفسه، ومن رأى نفسه حجب عن الله.

* * *

---

(1) روى نحوه أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي في تاريخ مدينة دمشق [51/ 396] وعزاه إلى محمد بن إدريس الشافعي.

(2) روى نحوه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، حديث رقم (1934) عن نافع عن ابن عمر أنه لم يكن يجلس مجلساً كان عنده أحداً ولم يكن إلَّا قال: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، اللهم ارزقني من طاعتك ما تحول بيني وبين معصيتك وارزقني من خشيتك ما تبغي به رحمتك وارزقني من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا وبارك لي في سمعي وبصري واجعلهما الوارث مني، اللهم وخذ بثأري ممن ظلمني وانصرني على من عاداني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي اللهم ولا تسلِّط عليَّ من لا يرحمني». فسئل عنهن ابن عمر فقال: كان رسول الله ﷺ يختم بهن مجلسه. هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

ثم إن العاقل الذي ينظر ما يفعل الله هو العارف كما تقدم، لأنه هو الذي يتحقق فيه ذلك. ومن علامته أنه لا يستوحش من شيء لمعرفته في كل شيء وفهمه عن الله في كل شيء بخلاف غيره من العباد والزهاد، وهو الذي أشار إليه بقوله:

112 ـ (إنما استوحش العباد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء، فلو شهدوه في كل شيء ما استوحشوا من شيء)

قلت: العباد هم الذين غلب عليهم الفعل فهم مستغرقون في العبادة الحسية يقومون الليل ويصومون النهار شغلهم حلاوة العبادة عن حلاوة شهود المعبود فحجبوا بعبادتهم عن معبودهم.

والزهاد هم الذين غلب عليهم الترك فهم يفرون من الدنيا وأهلها، ذاقوا حلاوة الزهد فوقفوا معه وحجبوا عن الله فهم يستوحشون من الأشياء لغيبتهم عن الله فيها ولو عرفوا الله في كل شيء ما استوحشوا من شيء ولأنسوا بكل شيء وتأدّبوا مع كل شيء.

والعارفون لنفوذ بصيرتهم شهدوا الخلق مظاهر من مظاهر الحق فحجبوا أولاً بالحق عن الخلق، وبالمعنى عن الحس، وبالقدرة عن الحكمة، ثم ردوا إلى شهود الحق في الخلق والقدرة في الحكمة، فحين عرفوه في كل شيء أنسوا بكل شيء وتأدّبوا مع كل شيء وعظموا كل شيء. وفي هذا المقام قال المجذوب رضي الله عنه:

الخلق نوار وأنا رعيت فيهم هم الحجاب الأكبر والمدخل فيهم

وقال سيدي علي رضي الله عنه على قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي في شأن الخلق: أراهم كالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً، قال: بل إن فتشتهم وجدتهم شيئاً وذلك الشيء ليس كمثله شيء، يعني وجدتهم مظاهر من مظاهر الحق أنواراً من أنوار الملكوت فائضة من بحر الجبروت، كما قال صاحب العينية رضي الله عنه:

تجلّيتَ في الأشياءِ حينَ خلقتَهَا فهَا هيَ ميطَتْ عنكَ فيها البراقعُ
قطعتَ الورَى مِنْ ذاتِ نفسِكَ قطعةً ولـم يـكُ موصـولٌ ولا فصـل قـاطـعُ

وقال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

طلَعَ النهارُ على قلبي حتى نظرتُ بعينيا أنتَ دليلي يا ربي أنتَ أولى منّي بِيَّا

* * *

والحاصل: أن العارفين بالله غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق فهم مع الخلق بالأشباح ومع الحق بالأرواح ماتوا وبعثوا وقامت قيامتهم وتبدّلت في حقهم الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار فهم يرون الأنوار والناس في ظلمة الأغيار، كشف لهم في هذه الدار عن أسرار مكنوناته مسدولة عليها قهارية أستاره، وسيكشف لهم في تلك الدار عن أسرار ذاته من غير حجاب الحكمة التي هي أثر صفاته كما أشار إلى ذلك بقوله:

113 ـ (أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوّناته وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته)

قلت: إنما أمرك في هذه الدار أن تنظر إليه بواسطة مكوناته لأنك لا تقدر هنا أن تنظر إلى حقيقة ذاته المقدسة في عظمة الجبروت الأصلي بلا واسطة لضعف نشأتك وإن كان ذلك جائزاً عقلاً، ولذلك طلبه سيدنا موسى عليه السلام لكن حكمة الحكيم اقتضت تغطية أسرار الربوبية بأنوار سبحات الألوهية إذ لا بد للحسناء من نقاب وللشمس من سحاب ولو ظهر من غير رداء الكبرياء لوقع الإدراك ولم يبق حينئذ ترقّي فالترقّي في أسرار الذات إنما هو بالنظر إلى أنوار الصفات وهو لا ينقطع أبداً في الدارين فلا تنال الذات من غير مظهر أصلاً.

فالمعنى: لا تقبض إلَّا بالحس، هذا مذهب أهل التحقيق من أهل المعاني، فإن قلت: كيف فرّق الشيخ بين الرؤيتين باعتبار الدارين والتحقيق أنها رؤية واحدة لأن المظهر متحد، فالجواب: أنه لما كان مظهر هذه الدار الحس فيه غالب على المعنى والحكمة ظاهرة والقدرة باطنة، ومظهر الدار الآخرة بالعكس، المعنى فيه غالب على الحس والقدرة ظاهرة انكشف ثَمَّ عن حقيقة الذات أكثر مما انكشف هنا. فبهذا المعنى وقع التفريق بين الرؤيتين. ومثله قول الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير: عز الدنيا بالإيمان والمعرفة وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة. اهـ. هذا باعتبار الخواص.

وأما العوام فلا يرون إلَّا الحس في هذه الدار وفي تلك الدار، وأما الرؤية التي تحصل لهم يوم المزيد فيحتمل أن يظهر لهم نوراً من أنوار قدسه ويلهمهم المعرفة فيه، وهو ظاهر الحديث، أو يفنيهم عن حسهم في ذلك الوقت حتى يشهدوا معاني الذات ويتلذذوا برؤيتها ثم يردهم إلى حسهم.

والحاصل: أن تجلّي الذات على قسمين: قسم يكون بوسائط كثيفة ظاهرها ظلمة وباطنها نور، ظاهرها حكمة وباطنها قدرة، ظاهرها حس وباطنها معنى، وهو تجلّي هذه الدار.

وقسم يكون بوسائط لطيفة نورانية ظاهرها نور وباطنها نور، ظاهرها قدرة وباطنها حكمة، ظاهرها معنى وباطنها حس، وهو تجلّي دار الآخرة.

فالعارفون لما حصل لهم الشهود والمعرفة في هذه الدار وفي تلك الدار لا يحجبهم عن الله حور ولا قصور بل دائماً في النظرة والسرور والنضرة والحبور وذلك أنهم لما عرفهم به هناك لم يحجبهم هنالك يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، بخلاف العامة فإنهم لما حجبهم هنا بشهود أنفسهم انحجبوا هناك عن رؤية معبودهم إلّا في وقت مخصوص على وجه مخصوص، ولذلك كتب ابن العربي الحاتمي إلى الإمام الرازي فقال له: تعال نعرّفك بالله اليوم قبل أن تموت فإذا تجلّى الله لعباده أنكرته ولم تعرفه.

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه عن رجل يدعي أنه يرى الله ببصره، فاستدعاه فسأله عن ذلك فقال: نعم، فانتهره ونهاه عن هذا القول. ثم قيل له: أمُحِقٌ هو أم مبطل؟ فقال: هو محق ملبس عليه. وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم خرق من بصيرته إلى بصره فنفذ فرأى بصره بصيرته وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده فظن أن بصره رأى ما شاهدته بصيرته وإنما رأى بصره بصيرته فحسب اهـ.

والحاصل: أنه انعكس بصره في بصيرته فرآه ببصيرته وظن أنه رآه ببصره. ومعنى ذلك أن الروح ما دامت محجوبة بالبشرية كان النظر إنما هو للبصر الحسي فلا يرى إلّا الحس، فإذا استولت الروحانية على البشرية انعكس نظر البصر إلى البصيرة فلا يرى البصر إلّا المعاني التي كانت تراها البصيرة. وهو معنى قول شيخ شيوخنا المجذوب:

غـيّـبـتُ نـظـري فـي نـظـر وأفـنـيـتُ عَـنْ كُـلْ فـانـي
حـقـقـتُ مـا وجـدْتُ غـيـر وأمـسـيـتُ فـي الـحـال هـانـي

والله تعالى أعلم.

* * *

وإنما أمرك في هذه الدار أن تنظر إليه في مكوّناته تسلية لك عن شهود ذاته والنظر إليه إذ لا صبر للمحب عن محبوبه كما أبان ذلك بقوله:

114 ـ (لما علم أنك لا تصبر عنه أشهدك ما برز منه)

قلت: لما فصّل الحق سبحانه هذه الروح التي هي لطيفة نورانية من أصلها

وتغرّبت عن وطنها تعشقت إلى أصلها وتعطشت إلى محبة سيدها، فلما علم الحق سبحانه أنها لا تصبر عنه ولا تقدر أن تراه على ما هو عليه من كمال جلاله ونور بهاء جماله ما دامت في هذا السجن الذي هو قفص البدن، أشهدها الحق تعالى ما برز منه من تجلّياته في مظاهر مكوّناته وآثار صفاته، لكن لا بد للحسناء من نقاب وللشمس من سحاب، فبرزت أنوار الجبروت إلى رياض الملكوت فغطتها سحائب الحكمة وآثار القدرة، فبقيت الروح تتعشق إلى أصلها من وراء سحائب الأثر فإذا انقشع السحاب ورفع الحجاب لقي كل حبيب حبيبه وعرف كل إنسان مثواه ومستقره، فقنعت الروح بشهود المعاني خلف رقّة الأواني. وإليه أشار الشيخ الغوث أبو مدين رضي الله عنه بقوله:

فلولا معانيكُم تراهَا قلوبُنا إذا نحنُ أيقاظٌ وفي النوم غبنَا
لَمُتْنَا أسىً من بعدِكُم وصبابةً ولكِنْ في المعنى معانيكُم مَعَنَا

أي فلولا معاني ذاتكم تراها قلوبنا في مظاهر صفاتكم لمتنا عشقاً، أو فلولا معاني ربوبيتكم تراها قلوبنا في مظاهر مكوناتكم أو فلولا معاني الجبروت تراها قلوبنا في عالم الملكوت لمتنا أسى أي حزناً على فراقكم وشوقاً إلى لقائكم. وقوله: ولكن في المعنى معانيكم معنا، أي: ولكن معانيكم التي تشاهدها قلوبنا في المعنى معنى عظيم فاستأنسنا بمشاهدتها وأنست أرواحنا بها، فلم تمت عشقاً وشوقاً والله تعالى أعلم.

* * *

ومما تستأنس به الروح عن صدمات المحبة اشتغالها بالخدمة كما أشار إلى ذلك بقوله:

115 ـ (لما علم منك وجود الملل لوَّن لك الطاعات)

قلت: من كرمه تعالى وحسن اختياره لك أيها العبد أنه لما علم أنك لا تقدر أن تصبر عنه أشهدك ما برز منه، ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا يقدر أن يشهده فيما برز منه أشغله بخدمته، ولما علم أنه ربما يملّ من خدمة واحدة لوّن له طاعته، لأن من شأن النفس أن تملّ من تكرر الشيء الواحد. وفي ذلك يقول الشاعر:

لا يصلح النفس إذا كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

فلوّن لك طاعته فإذا مللت من الصلاة مثلاً انتقلت إلى ذكره، وإذا مللت من ذكره انتقلت إلى قراءة كتابه، وهكذا. وأنواع الذكر كثيرة والتنقل من موجبات النشاط، فالعبادة مع النشاط ولو قلّت أعظم من العبادة مع الكسل وإن كثرت. ليس العبرة بكثرة الحس وإنما العبرة بوجود المعنى.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: فلوّنت له الطاعة لثلاثة أوجه: **أحدها**: رحمة به ليستريح من لون إلى لون. **الثاني**: إقامة للمحجة عليه إذ لا عذر له في الترك. **الثالث**: ليثبت له النسبة في العمل بوجود التخيير في الجملة فتكمل الكرامة وتسهل الطاعة، فقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد، ومن سار إلى الله بطبعه كان الوصول أقرب إليه من طبعه، ومن سار إلى الله بمخالفة طبعه كان الوصول إليه بقدر بعده عن طبعه، ومتى يصح بعده عن طبعه، والمقصود إنما هو موافقة الحق لا مخالفة النفس وشواهد السنة لا تخفى، فافهم.

ومن دواعي الملل وجود الشره، وهو الحرص، وموجبه هو الإطلاق في العمل، فلذلك قيّدت الطاعة بأعيان الأوقات كما أبان ذلك بقوله:

115 ـ (وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات)

الشره: خفة في النفس توجب المسارعة للعمل والإسراع فيه، وينتج آفات ثلاثاً، **أولها**: الترك عند الدوام لتروي النفس وضيقها. **الثاني**: الملل وهو التثاقل إن لم يكن ترك. **الثالث**: الإخلال بالحقوق لوجود العجلة.

(والحجر) بالوقت، فيه فوائد ثلاث، **أولها**: منع الشره إذ لو كانت مرسلة لوقعت النفس فيها على وجه الشره. **الثاني**: نفي التسويف [إذ] لولا الوقت لكانت تعده من زمن إلى زمن فيؤدي إلى التفريط. **الثالث**: التمكين من العمل والتمكُّن فيه إذ لولا الوقت لأهمل العمل ولم يحافظ عليه لغلبة الهوى ولم يحفظه استعمالاً للحظوظ اهـ.

ثم بيَّن وجه التحجير، وهو الإتقان والإقامة، فقال:

115 ـ (ليكون همُّك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة)

قلت: السر في تحجير الصلاة في بعض الأوقات لتشتاق النفس إليها وترتاح بها، فحصل فيها الخشوع والحضور وقرّة العين، بخلاف ما إذا كانت دائمة فيها فلا تتعشق إليها بل ربما تملّ فتوقعها على غير تمام. والمقصود منك حركة قلبك لا حركة

جسمك إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم. ليس الشأن حركة الأشباح إنما الشأن خضوع الأرواح، فالسرّ في تحجُّر الصلاة عنك في بعض الأوقات أن يكون همك إقامة الصلاة وهو إتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة، لا وجود الصلاة من غير إقامة، فهي ميتة خاوية فهي إلى العقوبة أقرب.

قال الإمام القشيري رضي الله عنه: إقامة الصلاة هو القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلّى له فتحفظ عليه أحكام الأمر بما يجري عليه منه وهو عن ملاحظتها محو، فنفوسهم منه مستقبلة إلى القبلة وقلوبهم مستقرة في حقائق الوصلة. اهـ.

وقال المؤلف رضي الله عنه: إقامة الصلاة حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله عز وجل لا يختلج بسرك سواه اهـ.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عمّاله: إن أهم أموركم عند الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها فهو لما سواها أحفظ، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع. اهـ من الشيخ زروق.

ثم ذكر وجه كون المطلوب هو الإقامة دون الوجود من حيث هو، فقال:

115 ـ (فما كل مصلٍّ مقيم)

قلت: لأن الإقامة في اللغة: هو الإكمال والاتقان. يقال: أقام فلان داره إذا أكملها وجعل فيها كل ما يحتاج إليه، فإقامة الصلاة اتقانها كما تقدم، وضدّ الإقامة هو الإخلال والتفريط فليس كل مصلٍّ مقيماً فكم من مصلّ ليس له من صلاته إلّا التعب. وفي بعض الأحاديث: **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلّا بعداً»**[1]. وفي حديث آخر عنه ﷺ: **«إذا صلّى العبد فلم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها لُفَّتْ كما يُلف الثوبُ الخلق ثم يُضرب بها وجهه»**[2]. أو كما

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، من لم تنهه صلاته. . . ، حديث رقم (508) [1/ 305] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب حديث رقم (5944) [3/ 622] ورواه غيرهما.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه بكر، حديث رقم (3095) [3/ 263] ونصه كاملاً: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الصلاة لوقتها وأسبغ لها وضوؤها وأتمَّ لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بيضاء مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني. ومن صلى الصلاة لغير وقتها فلم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة تقول: ضيّعك الله كما ضيّعتني. حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق ثم ضرب بها وجهه». ورواه غيره.

قال عليه السلام. فالمصلُّون كثير والمقيمون قليل فأهل الأشباح كثير وأهل القلوب قليل.

قال أبو بكر بن العربي المعافري رحمه الله: ولقد رأيت ممن يحافظ عليها آلافاً لا أحصيها فأما من يحافظها بالخشوع والإقبال فما استوفى منهم خمسة.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل موضع ذكر فيه المصلون في موضع المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها. قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: الآية 3]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم: الآية 40] وأقام الصلاة والمقيمي الصلاة. ولما ذكر المصلِّين بالغفلة قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [المَاعون: الآية 5] ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة. اهـ.

واعلم أن الخشوع في الصلاة على ثلاث مراتب: **المرتبة الأولى**: خشوع خوف وانكسار وإذلال، وهو للعباد والزهاد. **المرتبة الثانية**: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال، وهو للمريدين السالكين. **المرتبة الثالثة**: خشوع فرح وسرور وإقبال، وهو للواصلين من العارفين ويسمى هذا المقام: قرّة العين كما يأتي إن شاء الله.

ثم اعلم أن الصلاة التي لا يصحبها خشوع ولا حضور هي باطلة عند الصوفية غير مقبولة عند العلماء، وقالوا: ليس للعبد من صلاته إلَّا ما حضر فيها قلبه فقد يكون له ربع صلاته أو نصفها بقدر ما حضر فيها، ويعين على الخشوع الزهد في الدنيا وهذا هو الدواء الكبير إذ محال أن تكون عندك بنت إبليس ولا يزورها أبوها فلا يتأتى الخلوص من الخواطر ما دامت في القلب وقليلها هو كثيرها، فمن بقيت فيه بقية منها فإنه تأتيه الخواطر على حسبها فمحال أن تكون شجرة الدنيا في قلبك وتسلم من الخواطر، ومثال ذلك كشجرة عندك في بستان يجتمع عليها الطيور ويهولونك بأصواتهم فكلما شوشتهم رجعوا فلا ينقطعون عنك أبداً حتى تقطع تلك الشجرة فإذا قطعتها استرحت من أصواتهم فكذلك الدنيا ما دامت في اليد وهو معمور بها لا يسلم القلب من خواطرها حتى يخرج عنها وحينئذ يستريح من مساوئها، والله تعالى أعلم.

ومما يعين أيضاً على الخشوع، الإكثار من ذكر الله بالقلب والقالب وإدمان الطهارة لأن الظاهر له تعلق بالباطن إذا طهر هذا طهر هذا، وبالله التوفيق.

* * *

ثم ذكر نتائج الصلاة وثمراتها ومرجعها إلى ست، كل واحدة توصل إلى ما

بعدها ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النّجم: الآية 42] فأشار إلى الأولى بقوله:

116 ـ (الصلاة مطهرة للقلوب)

قلت: إنما كانت الصلاة مطهرة للقلوب من المساوي والعيوب لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار والتذلل والاضطرار، فإذا خضع القلب لهيبة الجلال طهر من سائر العلل لأن طلب العلو والرفعة هو أصل العلل وعنصرها، ومن شأن النفس وطبيعتها طلب العلو والاستكبار والتعزُّز والافتخار لأنها جاءت من عالم العزّ فلا ترضى إلّا بالعز. وإلى هذا أشار شيخ شيوخنا المجذوب بقوله:

مِنْ أينَ جئتي يا ذي الروحِ الهايمَا روحانيَا
مقامُهَا بساطُ العزِّ أحوالُهَا ربانيَا

فلما ركِّبت في هذا القالب الجسماني ردّتها القهرية إلى العبودية وجعلتها لها باباً للوصول إلى حضرة الربوبية فلا يطمع لها في الرجوع إلى أصلها إلّا بانكسارها وذلّها، ولذلك قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحاماً فأتيت باب الذلّ والانكسار فوجدته خالياً فدخلت منه وقلت: هلموا إلى ربكم. هكذا سمعته من أشياخنا، فإذا انكسرت وذلّت رجعت لأصلها ووصلت، وإذا تعزَّزت واستكبرت حجبت وطردت وإذا طردت بعدت وكلما بعدت عن الحضرة الربانية استحكمت فيها الشهوات الجسمانية والأخلاق الشيطانية فاتصفت حينئذ بكل خلق دني وبعدت من كل خلق سني.

فإذا أراد الله تعالى أن يرحمها بالقرب من جنابه والوقوف ببابه ألهمها الصلاة وحبَّبها إليها حتى إذا تطهّرت من الذنوب ومحيت عنها المساوي والعيوب قربت من حضرة الحبيب ومناجاة القريب فقرعت الباب وطلبت رفع الحجاب وهذا معنى قوله:

116 ـ (واستفتاح لباب الغيوب)

وهي النتيجة الثانية من نتائج الصلاة، قلت: المراد بالغيوب أسرار الملكوت وأسرار الجبروت، وإنما كانت الصلاة استفتاحاً لباب الغيوب لما اشتملت عليه من تطهير الظاهر والباطن.

قال محمد بن علي الترمذي الحكيم رضي الله عنه: دعا الله الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهيّأ لهم فيها أنواع الضيافة لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه، فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة، وهي عرس

الموحدين هيّأها رب العالمين لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس من الأغيار اهـ.

فإذا تطهّر الظاهر بالطهارة الحسيّة والباطن بالطهارة المعنوية استحق الدخول إلى الحضرة القدسية، فأول ما يتحف به قربه إلى الباب وسماع خطاب الأحباب من وراء حجاب، فيتمتع بمناجاة الأحباب ولذيذ الخطاب وهو معنى قوله:

117ـ (الصلاة محل المناجاة)

وهي النتيجة الثالثة، قلت: المناجاة هي المساررة والمكالمة مع الأحباب، فمناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار، ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح ورفع الأستار، وفي الحديث الصحيح: **«المصلّي يناجي ربّه»**[1] وقال أيضاً عليه السلام: **«يقول الله تعالى: قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال الرحمٰن الرَّحيم قال الله تعالى: مجّدني عبدي، فإذا قال مالك يوم الدين قال الله تعالى: فوّض إليَّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله تعالى: هذه بيني وبين عبدي، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم الآية، قال الله: هذه لعبدي ولعبدي ما سأل»**[2] الحديث. فلا يزال المصلّي يناجي ربّه ويطلب قربه حتى تتمكن المحبة من القلب والإقبال من الرب، فتصفو المحبة من كدر الجفا ويتصل المحب مع حبيبه في محل الصفا، وهو معنى قوله:

117 ـ (ومعدن المصافاة)

وهي النتيجة الرابعة. قلت: المعدن هو محل الذهب والفضة استعير هنا لصفاء القلوب والأرواح لتصفيتها من لوث صلصال الأشباح، فالمصافاة خلوص المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس فهي أرق وأصفى من المناجاة كما قال ابن الفارض رضي الله عنه:

ولقدْ خلوتُ معَ الحبيبِ وبيننَا سرٌّ أرقُّ مِنَ النَّسيم إذا سَرَا

وهذه مصافاة العبد لربّه، ومصافاة الرب لعبده بالإقبال عليه حتى لا يدعه

---

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى، باب (11 هل يعظ المعتكف وذكر. . .، حديث رقم (3360) [2\264] والربيع الأزدي في مسنده، باب في القراءة في الصلاة، حديث رقم (227) [1\97] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب وجوب قراءة الفاتحة. . .، حديث رقم (395) [1/ 296] وابن حبان في صحيحه، ذكر كيفية قسمة فاتحة الكتاب. . .، حديث رقم (776) [3/ 54] ورواه غيرهما.

لغيره. وفي الخبر: «أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهوى يصلّون بصلاته» اهـ.

فإذا تمت التصفية وعظمت المحبة وكثر العطش وظهر الدهش استحقت الروح رفع الحجاب وفتح الباب فتدخل إلى حضرة الأحباب ويرتفع بينها وبينهم الحجاب فتخرج من ضيق الأشباح إلى فضاء عالم الأرواح أو من ضيق الملك إلى سعة عالم الملكوت وهو معنى قوله:

117 ـ (فيها تتسع ميادين الأسرار)

وهي النتيجة الخامسة. قلت: الميادين جمع ميدان وهو مجال الخيل استعير هنا لفضاء عالم الملكوت فإذا تنزَّهت الروح في عالم الملكوت وجالت بفكرتها في سعة أنوارها أشرقت عليها أنوار سنا الجبروت وهو معنى قوله:

117 ـ (وتشرق فيها شوارق الأنوار)

وهي النتيجة السادسة. قلت: أراد بالأسرار أسرار الذات وهو لأهل الفناء وبالأنوار أنوار الصفات وهو لأهل البقاء، والله أعلم.

وأراد الشيخ بهذه الصلاة التي تنقله من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام صلاة أهل الاعتناء وهم أهل السلوك على يد الشيوخ لا صلاة أهل الغفلة وصلاة أهل المجاهدة من العباد والزهاد فليس لهم هذا السير، والله تعالى أعلم.

قال أبو طالب: حدثنا أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرضين خوفاً منه لأنه تأهّب للدخول على الملك فإذا كبر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه بسرادق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال: الله أكبر، أطلع الملك في قلبه، فإذا ليس في قلبه أكبر من الله فيقول الملك: صدقت الله أكبر في قلبك كما تقول فيتشعشع في قلبه نور يلحق ملكوت العرش فينكشف له بذلك ملكوت السماوات والأرض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما تحتوش الذباب على نقطة العسل فإذا كبر أطلع الملك في قلبه فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله عنده فيقول: الملك كذبت ليس الله في قلبك كما تقول، فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه، ولا يزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس وتزيّن له حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما فعل ثم ذكر حكمة حصرها في عدد معلوم

وهو خمسة فقال:

117 ـ (علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها)

وهي خمس بعد أن كانت خمسين، فمن لطفه سبحانه بك أيها الإنسان قلَّل أعدادها مع سعة الزمان، فجعل عليك صلاة في أول نهاره شكراً لما أظهره لك من باهر أنواره، وليكون نهوضك إليه في أول قيامك جبراً لما حصل من غفلتك في طول منامك، وجعل عليك صلاة في وسط نهاره إخماداً عنك لما أظهره في ذلك الوقت من وقود ناره، وجعل عليك صلاة قرب انصراف النهار ليكون شاهداً لك بوجود طاعتك عند الملك الغفار، ولتشهد عليك ملائكة الرحمٰن بالصلاة عند الملك الديان، وأوجب عليك صلاة في أول زمان الليل استفتاحاً لذلك الزمان بوجود طاعتك كما استفتحت أول نهارك واستحفاظاً لما يتوقع من عجائب الليل، ثم لما أردت أن تنام عن سيدك وتغفل عن ربك وتتمتع بفراشك، أمرك أن تودعه بحضورك معه وأن يكون آخر عهدك به وجود طاعتك، فهذا كله جذب منك لحضرته واستخراج منك لشكر منّته. عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل.

وحين قلَّل أعدادها لما علم احتياجك إلى منّته كثَّر أمدادها، وإليه أشار بقوله:

117 ـ (وعلم احتياجك إلى فضله فكثَّر أمدادها)

المراد بالأمداد الجزاء الذي رتّب عليها فجعل كل صلاة بعشر فهي خمس وهي خمسون خمس في الحس وخمسون في المعنى، أي الثواب، وإذا فعلت في الجماعة كانت كل واحدة بخمس وعشرين وكل درجة بعشر فكان عدد صلاة الجماعة مائتين وخمسين في كل صلاة والله ذو الفضل العظيم. وتتفاوت الدرجة أيضاً بكثرة الجماعة وكمالها وبقدر الحضور والخشوع والغيبة ورفع الستور ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية 17]. وتتفاوت أيضاً بقدر البقع كبيت الله الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس وبقدر رتبة الإمام، **«من صلّى خلف مغفور غفر الله له»**[1]. والله تعالى أعلم.

* * *

لكن لا ينبغي لك أيها الفقير أن تلتفت إلى هذا الحظ فإن فضل الله كثير لمن رفع همّته إلى العليّ الكبير، كما أبان ذلك بقوله:

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

118 ـ (متى طلبت عوضاً عن عمل طولبت بوجود الصدق فيه ويكفي المريب وجدان السلامة)

قلت: متى صدر منك عمل من أعمال البر وطلبت الحق سبحانه أن يجازيك عليه طلبك الحق تعالى بوجود الصدق فيه، وهو سر الإخلاص ولبّه الذي هو التبرِّي من الحول والقوة وانعزال النفس عن رؤية العمل لها بالكلية، بعد تحقيق الحضور والسلامة من الوساوس والخواطر والهواجس، حتى تكون صلاتك بالله ولله غائباً فيها عما سواه، قد ملأ قلبك عظمة الله فغبت في الله بالله، فإن تحققت فيك هذه الأمور صح لك أن تطلب ما رتّب الحق سبحانه على العمل من أنواع الجزاء والأجور، وإن لم تتحقق من نفسك هذه الأمور **فاعلم** أن عملك مدخول، فاستحي من الله أن تطلب الجزاء على عمل مدخول فيكفيك من الجزاء وحصول المطلب السلامة من الهلاك والعطب، يكفيك من طلب حسن نواله السلامة من عقابه ونكاله، يكفي المريب، وهو المتهم وجدان السلامة من العقوبة فيما اتهم فيه، فمن كان عند الملك متهماً وهو محبوس للعقوبة على ما اتهم فيه ثم قيل له: إن الملك يمنحك ويعطيك كذا وكذا، فيقول لهم: يكفيني في العطاء وجدان السلامة من عقوبته.

وأنت أيها الإنسان طولبت بالأعمال والإخلاص فيها وإتقانها وإتمام إقامتها فأتيت بطاعة مشوبة بالخواطر والوساوس وعلى تقدير سلامتها من ذلك فطلبك الجزاء يقتضي رؤية نفسك ووجود الفعل منك وهو شرك تستحق عليه العقوبة فيكفيك من عطائه وجود السلامة من عقابه.

قال الواسطي رضي الله عنه: العبادة إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض. اهـ.

وقال خير النسّاج رضي الله عنه: ميراث أعمالك ما يليق بأفعالك، فاطلب ميراث فضله فإنه أتمَّ وأحسن. وقال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: الآية 58]. ومعنى كلامه رضي الله عنه: أن جزاء أعمالك ما يليق بأفعالك الناقصة، وجزاء الناقص ناقص، فاطلب منه ثمرة فضله فإنه كامل من كل وجه فهو أتم وأكمل، والله تعالى أعلم.

وكيف تطلب الجزاء على عمل لست له فاعلاً ولا علمت كون القبول له حاصلاً كما أشار إليه بقوله:

119 ـ (لا تطلب عوضاً عن عمل لست له فاعلاً يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلاً)

قلت: قد تقرَّر عند أهل الحق أن العبد مجبور في قالب مختار فليس له فعل

ولا اختيار، وإنما الفاعل هو الواحد القهار، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: الآية 68]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصَّافات: الآية 96]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التّكوير: الآية 29]. وقال ﷺ: «**كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس**»[1] أي النشاط. وقال عليه السلام: «**كلٌّ ميسر لما خلق له فأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة**»[2] ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليْل: الآية 5] الآية. فإذا تقرّر هذا فكيف يطلب العبد الأجر على عمل ليس هو فاعله، وعلى تقدير نسبته إليه فالجزاء متوقف على القبول فمن أين تدري هل يكون مقبولاً أم لا، وإذا تفضّل عليك بالقبول على ما هو عليه من النقص والخلل فهذا يكفيك في جزائك على العمل فلولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول فلولا أن الله سبحانه تفضّل على عباده بالعفو والحلم ما قبل عملاً قط إذ تصفية الأعمال كاد أن تكون من المحال. قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعَام: الآية 91] أي عظّموه حق تعظيمه، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ [عَبَسَ: الآية 23] أي لم يقض الإنسان ما أمره سيده على الوجه الذي أمر به. وانظر قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: الآية 16] لم يقل الحق تعالى: نتقبّل منهم لأنه يقتضي أنه كامل بل عداه بعن المفيدة للتجاوز، كأنه قال: أولئك الذين يتجاوز عنهم في أحسن ما عملوا فنتقبلها منهم، ولو لم يتجاوز عنهم فيها ما تقبلت منهم ولكن الكريم لا ينتقد بل يقبل كل ما يعطاه لعظيم كرمه وغناه.

* * *

فالحمد دائماً لله حيث خلق فينا العمل وأعطانا عليه غاية المنى والأمل، كما أشار إلى ذلك بقوله:

120 - (إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب إليك)

قلت: الحق تعالى فاعل بالمشيئة والاختيار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون،

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب كل شيء بقدر، حديث رقم (2655) [4/ 2045] وابن حبان في صحيحه، ذكر الأخبار بأن كل شيء بمشيئة الله جل وعلا، حديث رقم (6149) [14/ 17].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: الآية 10]، حديث رقم (4666) [4/ 1891] ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، حديث رقم (2647) [4/ 2039] ورواه غيرهما.

أي لا يسأل عما يفعل حقيقة وهم يسألون شريعة. ثم وإن الحق سبحانه وتعالى قسَّم عباده على ثلاثة أقسام:

قسم أعدّهم للانتقام، فأظهر فيهم اسمه المنتقم واسمه القهار، وأجرى عليهم صورة العصيان بحكمته ونسبها إليهم بعدله وقهره، ولو شاء ربك ما فعلوه، ولو شاء الله ما أشركوا فقامت الحجة عليهم باعتبار النسبة وإظهار الحكمة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصّلَت: الآية 46]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: الآية 118].

وقسم أعدَّهم الله للحلم ليظهر فيه اسمه الحليم واسمه الرحيم أجرى عليهم العصيان وحلاهم بالإيمان، فاستحقوا العقوبة على العصيان، ثم إن الحق تعالى حلم عليهم وعفا عنهم وأدخلهم الجنان.

وقسم أعدهم الله للكرم ليظهر فيهم اسمه الكريم واسمه الرَّحيم خلق فيهم الطاعة والإحسان وحلاهم بالإسلام والإيمان، وربما زادهم التجلّي بالإحسان فأدخلهم فسيح الجنان ومتَّعهم بالنظر إلى وجه الرحمٰن.

فإذا أراد الله تعالى أن يلحقك بهؤلاء السادات هيّأك لأنواع الطاعات وخلق فيك القوة على فعل الخيرات ثم نسب إليك ذلك الفعل، فقال: يا عبدي فعلت كذا وكذا من الخير فأنا أجازيك عليه أدخل الجنة برحمتي وترق إلى مقامك بعملك فمقامك حيث انتهى عملك. قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: الآية 20]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: الآية 21]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية 32].

ثم ينبغي لك أيها الإنسان أن تتأدّب مع الملك الديّان فلا تنسب إليه النقص والعصيان، وإنما أغوتك نفسك والشيطان، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمَان: الآية 33] أي الشيطان، فما كان من الكمال فانسبه إلى الكبير المتعال، وما كان من النقصان فامسحه في منديل النفس والشيطان.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: إذا عمل العبد حسنة وقال: يا رب بفضلك استعملت وأنت أعنت وأنت سهّلت شكر الله ذلك له وقال: يا عبدي بل أنت أطعت وأنت تقرّبت. وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقرّبت أعرض الله عنه وقال له: يا عبدي أنا وفّقت وأنا أعنت وأنا سهّلت، وإذا عمل سيئة وقال: يا رب أنت قدّرت وأنت قضيت وأنت حكمت، غضب المولى جلّت قدرته عليه وقال:

يا عبدي بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت. وإذا قال: يا رب أنا ظلمت وأنا أسأت وأنا جهلت أقبل المولى جلّت قدرته عليه، وقال: يا عبدي أنا قضيت وأنا قدّرت وقد غفرت وقد حلمت وقد سترت اهـ.

* * *

ثم إن هذه النسبة التي نسب الله لعبده بما خلق فيه بها يستحق المدح والذم، فإذا خلق فيه الطاعة ونسبها إليه استحق المدح بلسان الشرع، وإذا أجرى عليه المعصية وقضاها عليه استحق الذمّ بلسان الشرع أيضاً، كما أشار إليه بقوله:

121 - (لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك)

قلت: إذا أراد الله إهانة عبد وإذلاله ردّه إلى نفسه وهواه فأحيل عليها ووكّل إليها فيوليه ما تولى فإذا استولى عليه الهوى أعماه وأصمّه وفي مهاوي الردى أسقطه. كما قال الشاعر:

تـركَ يـومـاً نـفـسـهُ وهـواهَـا   سـعَـى لـهَـا فـي رداهَـا

فالهوى مختصر من الهوان وموجب له كما قال البرعي رحمه الله:

لا تـتـبـعِ الـنـفـسَ في هـواهَـا   إنَّ اتـبـاعَ الـهـوى هـوانُ

وإذا أراد الله إعزاز عبده وعنايته أظهر عليه جوده وكرمه فتولّاه وحفظه ولم يتركه مع نفسه وهواه طرفة عين ولا أقل من ذلك، فلا نهاية لمذامك أيها الإنسان إن ردّك إلى نفسك وحكّمها فيك وتركك مع هواك لأن ذلك من علامة الإهمال وسقوطك من عين الكبير المتعال والعياذ بالله من كل خسر ووبال ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك فتولاك بحفظه ورعاك بعنايته وحجزك عن نفسك وحال بينك وبين تدبيرك وحدسك. ومن دعائه عليه السلام: «**إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعوزة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلّا برحمتك**»[1] **والحاصل**: أنك إن كنت بربّك تكمل عزّك ولا يتناهى مدحك وإن كنت بنفسك تكامل ذلك ولا يتناهى ذمّك. كما قال الشاعر:

إذا كـنّـا بـهِ تـهـنَـا دلالا   عـلى كـلِّ الـحـرائرِ والـعـبـيـد
وإنْ كـنّـا بـنَـا عـدنَـا إلـيـنَـا   فـعـطّـل ذلُّـنَـا ذلَّ الـيـهـود

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ضمرة بن حبيب عن زيد بن ثابت، حديث رقم (4932) [5\157] والبيهقي في شعب الإيمان، الفصل الثاني في ذكر آثار وأخبار...، حديث رقم (753) [1\474] ورواه غيرهما.

أو تقول: من أهمله الله وتركه مع نفسه وهواه لا نهاية لمذامه وقبائحه فإن للنفس من النقائص ما لله من الكمالات ومن تولّاه الله وأظهر جوده عليه ولم يتركه مع نفسه وأزعجه عن حظه وحال بينه وبين هواه فلا نهاية لمدائحه إذ كمالات الله لا نهاية لها وما هنا إلا مظاهره فكما لا نهاية لجلاله كذلك لا نهاية لجماله والله تعالى أعلم.

هذا آخر الباب الثاني عشر، **وحاصله**: تعظيم الأوراد والتأهُّب لورود الإمداد وتصفية البواطن من الأكدار لتشرق عليها شموس الأنوار وهي شموس العرفان فيفنى العارف عن التدبير والاختيار، فكل يوم ينظر ما يفعل الواحد القهار فيأنس حينئذ بكل شيء ويتأدّب مع كل شيء، ويعظم كل شيء ولا يستوحش من شيء لمعرفته في كل شيء فيستأنس في هذه الدار بالنظر إلى الله في حجاب صفاته، وهي مظاهر مكوّناته وسيكشف له في تلك الدار عن كمال ذاته من غير حجاب صفاته وذلك أنه لما علم أنه لا يصبره عنه أشهده ما برز منه.

ولما علم أن من عباده من لا يقدر أن يشهده في مكوّناته أشغله بخدمته، وعلم أيضاً أنه إن دام على عمل واحد ربما حصل له الملل لوّن له الطاعة والعمل وعلم ما في عبده من الشره فحجرها عليه في بعض الأوقات ليكون همّه إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، ثم ذكر ثمراتها ونتائجها ونهاك عن طلب العوض عليها لكونك لست عاملاً لها وإنما هو فضل من الله عليك خلق فيك القوّة ونسبها إليك فإن ردك إلى نفسك وتركك مع هواك لا تتناهى مذامك وإن أخذك عن نفسك وتولّاك بجوده وفضله لا تفرغ مدائحك حيث صرت وليّاً من أوليائه وصفياً من أصفيائه، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه آمين.

هذا آخر النصف الأول والله المستعان على التمام

بجاه نبيّه المصطفى بدر التمام ﷺ وعلى آله الكرام،

وهذا أول النصف الثاني،

فنقول وبالله نستعين

إيقاظ الهمم في شرح الحكم

للعارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد
ابن عطاء الله السكندري
المتوفى ٧٠٩ هـ

تأليف

العارف بالله الصوفي الجليل أحمد بن محمد
ابن عجيبة الحسني
المتوفى نحو سنة ١٢٦٦ هـ

ضبطه وصححه ونسقه وعلق عليه
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

الجزء الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[الباب الثالث عشر]

قال المؤلف نفعنا الله به وبعلومه آمين: فإذا أردت أن يظهر جوده عليك وتبسط مواهبه لديك فتحقق بوصفك وتعلّق بوصفه، كما أبان ذلك بقوله رضي الله عنه:

122 ـ (كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحقّقاً)

قلت: أوصاف الربوبية هي العزّ والكبرياء والعظمة والغنى والقدرة والعلم وغير ذلك من أوصاف الكمالات التي لا نهاية لها. وأوصاف العبودية هي الذلّ والفقر والعجز والضعف والجهل وغير ذلك مما يناسب العبودية من النقائص.

وكيفية التعلُّق بأوصاف الحق هو أن تلتجىء في أمورك إليه وتعتمد في حوائجك عليه وترفض كل ما سواه ولا ترى في الوجود إلّا إياه، فإذا نظرت إلى عزّه وكبريائه وعظمته تعززت به ولم تعزز بغيره وصغر في عينك دونه كل شيء وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالغنى تعلّقت بغناه واستغنيت عما سواه ولم تفتقر إلى شيء واستغنيت به عن كل شيء، وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالقدرة والقوة لم تلتجىء في حال عجزك وضعفك إلّا إلى قدرته وقوّته واستضعفت كل شيء، وإذا نظرت إلى سعة علمه وإحاطته اكتفيت بعلمه واستغنيت عن طلبه، وقلت بلسان الحال: علمه بحالي يغني عن سؤالي. وهكذا في جميع الأوصاف والأسماء فكلها تصلح للتعلق والتخلق والتحقق **وكيفية التخلُّق** بأوصافه تعالى أن تكون في باطنك عزيزاً قوياً به عظيماً كبيراً عنده قوياً في دينه وفي معرفته عالماً به وبأحكامه، وهكذا. **وحاصلها**: استعمال

الحرية في الباطن والعبودية في الظاهر.

وكيفية التحقق بأسماء الله تعالى أن تكون تلك المعاني فيك راسخة متمكنة متحققاً فيك وجودها، فالتخلُّق مجاهدة والتحقق مشاهدة أي يكون وجودها غريزياً.

وكيفية التخلق بأوصاف العبودية هو التحقق بالذل في الظاهر حتى يصير الذل عندك حرفة وطبيعة لا تأنف منه بل تستحليه وتغتبط به، وكذلك الفقر والضعف والجهل وسائر أوصاف العبودية تتحقق بوجودها في ظاهرك حتى يكون ذلك شرفاً عندك.

وكان شيخ شيوخنا سيدي علي [الجمل] رضي الله عنه يقول: أهل الظاهر يتنافسون في العلو أيهم يكون أعلى من الآخر، وأهل الباطن يتنافسون في الحنو أيهم يكون أحنى من الآخر، اهـ بالمعنى.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: أوصاف الربوبية أربعة تقابلها أربعة هي أوصاف العبودية، **أولها**: الغنى ويقابله الفقر. **الثاني**: العزّ ويقابله الذلّ. **الثالث**: القدرة ويقابلها العجز. **الرابع**: القوة ويقابلها الضعف، وكل هذه متلازمة إن وجد واحدها وجد جميعها ووجود المقابل ملزوم بوجود مقابله، فمن استغنى بالله افتقر إليه ومن افتقر إلى الله استغنى به، ومن تعزَّز بالله ذلّ له ومن ذلّ له تعزَّز به، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوّة مولاه، ومن رأى قوته علم ضعف نفسه لكن إن كان البساط النظر لأوصافك فأنت الفقير إلى الله، وإن كان البساط النظر إلى أوصافه فأنت الغني بالله. وهما يتعاقبان على العارف، فتارة يغلب عليه الغنى بالله فتظهر عليه آثار العناية، وتارة يظهر عليه آثار الفقر إلى الله فيلتزم الرعاية، فحين غلب الغنى بالله على حبيب الله أطعم ألفاً من صاع، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شدّ الحجر على بطنه من الجوع فافهم اهـ.

قلت: والتحقيق ما قدمناه من أن التعلق بأوصاف الربوبية يكون في الباطن، والتحقق بأوصاف العبودية يكون في الظاهر. فالحرية في الباطن على الدوام، والعبودية في الظاهر على الدوام. فحرية الباطن هي شهود أوصاف الربوبية وهو معنى التعلق بها لكن إن كان مجاهدة فهو تعلق وإن كان طبيعة وغريزة فهو تحقق. أو تقول: إن كان حالاً فهو تعلق وإن كان مقاماً فهو تحقق، وعبودية الظاهر هي شهود أوصاف العبودية قياماً بالحكمة وستراً للقدرة.

والحاصل: أن عظمة الربوبية ظهرت في مظاهر العبودية، فمن نظر للعظمة صرفاً تحقق بعظمة الربوبية، ومن نظر لظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية،

والكامل ينظر لهما معاً فيتحقق بعظمة الربوبية في الباطن ويتحقق بأوصاف العبودية في الظاهر، فيعطي كل ذي حق حقه. فالجمع في باطنه مشهود والفرق في ظاهره موجود والله تعالى أعلم.

* * *

فإن أظهر أوصاف الربوبية فقد تعدى طوره وجهل قدره فلا بد أن تؤدبه القدرة، وإلى ذلك أشار بقوله:

123 ـ (منعك أن تدّعي ما ليس لك مما هو للمخلوقين أفيبيح لك أن تدّعي وصفه وهو رب العالمين)

قلت: الحق تعالى غيور فلا يحب لعبده أن يفشي سر خصوصيته ولا يرضى لعبده أن يشاركه في أوصاف ربوبيته، فمن غيرته تعالى أن ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، ولولا ذلك لكان سر الربوبية مبتذلاً ظاهراً وذلك مناقض لحكمته، وكيف وهو يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعَام: الآية 83] ومن غيرته تعالى أن اختص بأوصاف الربوبية ونهانا عن إظهارها والتحلّي بها حالاً أو مقالاً، وذلك كاتصاف العبد بالعزّ والعظمة والكبر وطلب الرياسة والعلو أو ادعاء ذلك بالمقال، فإن فعل شيئاً من ذلك استحق من الله الطرد والنكال. ففي الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قصمته**»[1]، وقال أيضاً ﷺ: «**لا أحد أغير من الله فلذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[2].

وفي البخاري في قصة سيدنا موسى عليه السلام، أنه خطب على الناس خطبة ذرفت منها العيون، فقام إليه رجل فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك، فقال: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فقال له: بلى عبدنا خضر هو أعلم منك. فكان

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (203) [1/ 129] بلفظ: «الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته». ورواه غيره. وأما اللفظ الوارد في النص فقد رواه ابن حبان وغيره باختلاف يسير في آخره، وفيه: «في واحدة منهما قذفته في النار» بدل «واحداً منهما قصمته». صحيح ابن حبان، ذكر الإخبار بأن من تقرّب إلى الله قدر شبر. . .، حديث رقم (328) [2/ 35].

(2) روى نحوه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: «لا شخص. . .» حديث رقم (6980) [6/ 2698]، وابن أبي عاصم في السنة، باب (110) حديث رقم (522) [1/ 230] ونص رواية ابن أبي عاصم هو: عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا شخص أغير من الله تعالى، ولا شخص أحب إليه العذر من الله عز وجل ومن أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدح من الله تعالى ومن أجل ذلك وعد الجنة».

من شأنهما ما قصّ الله في كتابه. فانظر كيف أدّبه بطلب غيره حتى صار تلميذاً له يأمره وينهاه بقوّة وصوله من عظم قدره وجلالة منصبه، وما ذلك إلَّا لإظهار شيء من الحرية، فكل من أظهر الحرية ردّه إلى العبودية بالقهرية، وكل من أظهر العبودية حقَّق له في باطنه الحرية وملّكه الكون بالكلية، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره.

ومن غيرته تعالى أيضاً أن حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والفواحش كل ما فحش قبحه وعظم جرمه كالزنا والغصب والسرقة والتعدي وأكل أموال اليتامى وغير ذلك من حقوق العباد، فإذا كان منعك أن تدَّعي ما ليس لك مما هو للمخلوقين من العرض الفاني، فكيف يبيح لك أن تدَّعي وصفه من العزّة والكبرياء وهو ربّ العالمين، فإذا ادعيت ما ليس لك سلبك ما ملكك، وإذا تحققت بوصفك وسلَّمت له وصفه منحك ما لم يكن عندك وأتاك ما لم يؤت أحداً من العالمين، فكلما نزلت بنفسك أرضاً أرضاً سما قلبك سماء سماء. وقد تقدم هذا المعنى في الخمول، والله تعالى أعلم.

تنبيه: اعلم رحمك الله ووفّقك للتسليم لأوليائه أن الحرية إذا تحققت في الباطن لا بد من رشحات تظهر على الظاهر، فكل إناء بالذي فيه يرشح، وصاحب الكنز لا بد أن يظهر عليه السرور وصاحب الغنى لا يخلو من بهجة وحبور. وكما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ولذلك تجد أهل الباطن رضي الله عنهم جلّهم أقوياء في الظاهر، فربما تصدر منهم مقالات تستخرجها القدرة منهم فيظن الجاهل بحالهم أن ذلك دعوى وظهور وليس كذلك، وإنما ذلك رشحات من قوّة الباطن لا قدرة لهم على إمساكها، منها ما يكون تحدُّثاً بالنعم ومنها ما يكون نصحاً للعباد ليعرفوا حالهم فينتفعون بهم في طريق الإرشاد، ومن هذا الأمر رفضهم كثير من أهل الظاهر المتعمِّقون في العبادة أو المتجمِّدون على ظاهر الشريعة أو من لم تطل صحبته معهم في الطريقة وإن كان كاملاً.

ومن ذلك ما وقع للشيخ زروق رضي الله عنه مع أبي المواهب التونسي رضي الله عنه حين ظهرت عليه آثار القوة الباطنية حتى قال فيه الشيخ زروق: دعواه أكبر من قدمه. وليس كذلك فإن الشيخ أبا المواهب عظيم الشأن، راسخ القدم في العرفان، أخذ عن أبي عثمان المغربي وكان يقول: لبست خرقة التصوُّف من رسول الله ﷺ. وله شرح حسن على الحكم إلَّا أنه لم يكمل، وله كلام رائق نظماً ونثراً، ومن نظمه

رضي الله عنه:

مَنْ فاتهُ منكَ وصلٌ حظُّهُ النَّدَمُ ... ومَنْ تكُن همَّه تسمُو بهِ الهممُ
وناظرٌ في سوَى معنَاكَ حق له ... يقتصُ من جفنِهِ بالدَّمعِ وهوَ دمُ
والسمعُ إنْ جالَ فيهِ من يحدِّثُهُ ... سوَى حديثِكِ أمسَى وقرهُ الصممُ
في كلِّ جارحةٍ عينُ أراكَ بها ... مني وفي كلِّ عضوٍ بالثناء فمُ
فإنْ تكلمتُ لم أنطِقْ بغيركُم ... وكلُّ قلبي مشغوفٌ بحبكُمُ
أخذتُمُ الروحَ منّي في ملاطفةٍ ... فلست أعرفُ غيراً مذ عرفتكمُ
نسيتُ كلَّ طريقٍ كنتُ أعرفُهَا ... إلا طريقاً تؤديني لربعكُمُ
فما المنازلُ لولا أنْ تحُلَّ بهَا ... وما الدّيارُ وما الأطلالُ والخيمُ
لولاكَ ما شاقني ربعٌ ولا طللٌ ... ولا سعَتْ بي إلى نحوِ الحمَى قدمُ

وأطال الشعراني[1] في ترجمته في الطبقات[2] بما يدل على كمال خصوصيته وتمام ولايته. وما حمل الشيخ زروقاً على مقالته تلك إلَّا القوَّة التي صدرت من أبي المواهب مع كونه لم تطل صحبته معه مع ما صدر منه في جانب الشيخ ابن عباد رضي الله عنهم، والله تعالى أعلم.

* *

وهذا الأمر الذي ذكرنا من القوّة التي في العارفين لا يجهله إلَّا من لم يبلغ مقامهم، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم. وسرّ هذه القوة التي ظهرت في العارفين هو من جهة الروح، وذلك أن الروح جاءت من عالم العزّ والقوة، فلما ركبت في هذا البدن حجبت وقهرت، فأرادت الرجوع إلى أصلها فطلبته بالعز الأصلي والقوة الأصلية فمنعت منه، وأتت من كوة الذل والافتقار وخرقت عوائد نفسها فانخرقت لها حينئذ الحجب فرجعت إلى أصلها، فلما رجعت إلى أصلها اتصفت بالقوة التي كانت لها فأمرت أن تجعل ذلك في باطنها ففعلت لكن ربما رشح شيء من ذلك على الظاهر غلبة.

ولذلك ذكر الشيخ خرق العوائد بأثر ذكر التحقق بالعبودية، فقال:

---

(1) الشيخ عبد الوهاب الشعراني صاحب المؤلفات الكثيرة، ومنها الطبقات الكبرى، والميزان الكبرى، واليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر. توفي سنة 973 هجرية.

(2) انظر الهامش السابق.

124 ـ (كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد)

قلت: العوائد كل ما تعوّدته النفس وألفته واستمرت معه حتى صعب خروجها عنه سواء كان ظلمانياً أو نورانياً كتتبع الفضائل وكثرة النوافل، وهي على قسمين: عوائد ظاهرة حسِّية، وعوائد باطنة معنوية.

فمثال العوائد الحسِّية: كثرة الأكل والشرب والنوم واللباس وخلطة الناس والدخول في الأسباب، وكثرة الكلام والمخاصمة والعتاب والاستغراق في العبادة الحسِّية أو العلوم الرسمية وغير ذلك.

ومثال العوائد المعنوية: حب الجاه والرياسة وطلب الخصوصية وحب الدنيا والمدح، وكالحسد والكبر والعجب والرياء، والطمع في الخلق وخوف الفقر وهمّ الرزق والفظاظة والقسوة وغير ذلك مما تقدم. فمن خرق من نفسه عوائدها الحسية بالرياضات القهرية خرقت له العوائد الحسية كالطيران في الهواء، والمشي على الماء، ونفوذ الدعوة وغير ذلك من الكرامات الحسية. ومن خرق من نفسه عوائدها المعنوية خرقت له العوائد الباطنة كرفع حجب الغفلة وتطهير القلوب وكشف الحجاب وفتح الباب وتحقيق العرفان والترقّي إلى مقام الإحسان، وهذا هو المعتبر عند الأكياس وهو المطلوب من سائر الناس.

وأما خرق العوائد الحسِّية فقد تكون لمن ليست لهم خصوصية كالسحرة وأرباب الشعوذة، نعم من جمع بينهما خرقت له فيهما. فكيف تطلب أيها المريد أن تخرق لك عوائد نفسك حتى تدخل حضرة قدسك وأنت لم تخرق عوائد نفسك فما حجب النفس عن الشهود إلّا ما تعوَّدته من رؤية هذا الوجود، فلو غابت عن رؤية هذا الوجود لتحقق لها أمر الشهود ولا يمكن أن تغيب عنه إلّا بخرق عوائد نفسها.

وقد تقدمت حكاية الرجل الذي كان مع أبي يزيد ثلاثين سنة فلم يذق شيئاً، فقال له: لو صلّيت ثلاثمائة سنة لم تذق شيئاً لأنك محجوب بنفسك. ثم قال له: اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلّق في عنقك مخلاة واملأها جوزاً، واجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك: يا صبيان من يصفعني صفعة أعطه جوزة، وأدخل السوق وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك، ثم قال له: فلا مطمع لأحد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة، فحينئذ تخرق لك العوائد وتظهر لك الفوائد. اهـ.

وتقدمت أيضاً في باب الخمول قصة الغزالي والششتري والمجذوب وغيرهم

ممن خرقوا العوائد فخرقت لهم العوائد وظهرت لهم الفوائد. وأما من بقي مع عوائد نفسه فلا يطمع أن يتمتع بحضرة قدسه. قال الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه: من ادعى شهود الجمال قبل تأدّبه بالجلال فارفضه فإنه دجّال، ولا جلال أعظم على النفس من خرق عوائدها كتبديل العز بالذل والغنى بالفقر والجاه بالخمول وغير ذلك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اللهمَّ إن القوم قد حكمت عليهم بالذلّ حتى عزُّوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فلا مطمع في نيل العز بالله حتى يتحقق بالذلّ له ولا في نيل الغنى به حتى يتحقق بالفقد مما سواه.

وقال أبو حمزة البغدادي رضي الله عنه: علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذلّ بعد العزّ، ويخفى بعد الشهرة اهـ. فهذه الأخبار كلها تدل على أن خرق عوائد النفس شرط في تحقق نيل الخصوصية، فمن ادعاها قبل أن يخرقها فهو كذاب، كما تقدم عن أبي المواهب.

وكتب شيخ شيخنا رضي الله عنه إلى بعض الإخوان، أما بعد: فإن أردتم أن تكون أعمالكم زكية وأحوالكم مرضية، فقلِّلوا من العوائد فإنها تمنع الفوائد اهـ. وسمعته رضي الله عنه يقول: من جملة العوائد تتبُّع الفضائل وكثرة النوافل، فإنه يشتت القلب، وإنما يلزم المريد ذكراً واحداً وعملاً واحداً كل واحد مما يليق به. أو كلام هذا معناه.

فخرق العوائد إبدالها بضدها كتبديل كثرة الأكل والنوم بالجوع والسهر، وكتبديل كثرة اللباس بالتقلُّل منه أو ما خشن من الثياب كالمرقعات ونحوها، وكتبديل الخلطة بالعزلة، والأسباب بالزهد، والكلام بالصمت، وسوء الخلق بحسن الخلق، وكتبديل حب الجاه والرياسة بالذلّ والخمول وسقوط المنزلة عند الناس، وحب الدنيا بالزهد فيها والفرار منها كاتصافه بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل، فإذا تحقق المريد بهذه الأمور خرقت له العوائد على ما يريد حتى يكون بسم الله عنده موافقة لكن من الله فيكون أمره بأمر الله ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: الآية 20].

ولا بد في خرق العوائد الباطنية من شيخ كامل جامع بين حقيقة وشريعة يحملك بهمّته، فإذا رميت يدك في نفسك حملتك الهمّة ونصرتك القدرة فقتلتها بالمرة، وأما إذا لم يكن لك شيخ فكلما قتلتها رجعت أكبر مما كانت، ولا تموت النفس الحية إلَّا مع الأموات كما قال شيخنا رضي الله عنه. هذا الأمر مجرّب، وبالله التوفيق.

* * *

وخرق العوائد الباطنية، التي هي رفع الحجب وشهود المحبوب، لا يكون بمجرد الطلب دون السعي في السبب مع تحقق الأدب كما نبّه عليه بقوله:

125 ـ (ليس الشأن وجود الطلب إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب)

قلت: قد تقدم في أول الكتاب أن الطلب كله مدخول عند المحققين أولي الألباب لما يقتضيه من وجود النفس والوقوف مع الحس، إذ العارف المحقق لم تبق له حاجة يطلبها لأنه قد حصل له الغنى الأكبر وفاز من مولاه بالحظ الأوفر، وهو معرفة مولاه والغيبة عما سواه، ماذا فقد من وجدك فليس الشأن وجود صورة الطلب وإنما الشأن أن تستغني به عن كل مطلب وترزق معه حسن الأدب والاكتفاء بعلم الله والوقوف مع مراد الله.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: والأدب على ثلاثة أوجه: آداب في الظاهر وذلك بإقامة الحقوق، وآداب في الباطن بالإعراض عن كل مخلوق. وآداب فيهما وذلك بالانحياش للحق والدوام بين يديه على بساط الصدق. وذلك هو جملة الأمر وتفصيله وتفريعه وتأصيله. اهـ.

* * *

فالطلب عند العارفين ليس هو بلسان المقام وإنما هو بلسان الحال، وهو الاضطرار وظهور الذلّة والافتقار كما نبّه عليه بقوله:

126 ـ (ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب مثل الذلّة والافتقار)

قلت: إنما كان طلب العارفين بلسان الحال دون المقال لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا منّته في محنته ونعمته في نقمته، فإذا تجلّى لهم بالقوّة والجلال تلقوه بالضعف والإذلال، فحينئذ يتجلّى لهم باسمه الجميل فيمنحهم كل جميل، وإذا تجلّى لهم باسمه العزيز أو القهار تلقوه بالذلّة والافتقار، فتتوارد عليهم المواهب الغزار. فإذا أردت أيها العارف أن تطلب من مولاك شيئاً جلباً أو دفعاً فعليك بالاضطرار، والاضطرار هو أن يكون كالغريق في البحر أو الضال في التيه القفر، ولا يرى لغياثه إلّا مولاه ولا يرجو لنجاته من هلكته أحداً سواه، فما طلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه والوقوف بين يديه متحلياً بحلية العبيد هنالك تنال كل ما تريد، كما قال الشاعر:

أدبُ العبيدِ تذلُّلٌ ... والعبدُ لا يدعُ الأدب

فإذا تكامَلَ ذلّهُ ... نالَ المودّةَ واقتَرَب

وقال آخر:

وما رمتُ الدخولَ عليهِ حتّى حللتُ محلّةَ العبدِ الذليل
وأغضيتُ الجفونَ على قذاها وصنتُ النّفسَ عن قالٍ وقيل

وإذا أردت ورود المواهب عليك، وهي العلوم اللدنية والأسرار الربانية، فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلّة والافتقار بين يدي الحليم الغفار، يكون ذلك قلباً وقالباً، فينبغي لك حينئذ أن تستعد لكتب المواهب ونيل المراتب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: الآية 60]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النّمل: الآية 62]، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية 123]، وقال ﷺ: «إن النصر مع الصبر وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً»[1]. وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ما أظهر عبد فاقة إلى الله في شيء إلّا قال الله تعالى للملائكة: «لولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك لبيك» اهـ.

* * *

فإذا طلبت الدخول مع الأحباب فقف ذليلاً حقيراً بالباب حتى يرفع بينك وبينهم الحجاب من دون حيلة منك ولا أسباب وإنما هو فضل من الكريم الوهّاب، كما أشار إلى ذلك بقوله:

127 ـ (لو كنت لا تصل إليه إلاّ بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه وغطّى نعتك بنعته فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه)

قلت: الوصول إلى الله هو العلم به وبإحاطته بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، وهذا لا يكون إلّا بعد موت النفوس وحط الرؤوس وبذل الأرواح وبيع الأشباح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية 111] أي جنة المعارف لأهل الجهاد الأكبر وجنة الزخارف لأهل الجهاد الأصغر، ولقوله عليه السلام: «موتوا قبل أن تموتوا»[2]. ذكره النقشبندي في شرح الهائية حديثاً. وقال في لطائف المنن: لا يدخل على الله إلّا من بابين أحدهما

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.
(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2669) [2/ 384] والهروي في المصنوع [1/ 371] وأورده غيرهما.

الموت الأكبر وهو الموت الحسي، والثاني الموت الذي تعنيه هذه الطائفة، يعني موت النفوس. وقال الششتري رضي الله عنه:

إن تُرِدْ وصلنَا فموتُكَ شرطٌ لا ينالُ الوصالَ من فيهِ فضلَه

وقال أيضاً:

ليسَ يدركُ وصالي كلُّ مَنْ فيهِ بقيَّا

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لا يصل الولي إلى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته اهـ.

وهذه التصفية ليست هي من فعل العبد وكسبه، وإنما هي بسابق عناية ربّه، فلو كان العبد لا يصل إلى الله تعالى إلّا بعد فناء مساويه ومحو دعاويه من حيث هو هو لم يصل أبداً، لكنّ الحق تعالى من كرمه وجوده إذا أراد أن يطوي عنه مسافة البعد أظهر له من أنوار قدسه ونعوت وصفه ما يغيب به العبد عن شهود نفسه، فحينئذ تفنى المساوي وتمتحق الدعاوي فيحصل الوصول ويبلغ المأمول بما مِنَ الله إلى العبد من سابق العناية والوداد، لا بما مِنَ العبد إلى الله من الكد والاجتهاد.

وإن شئت قلت: فناء المساوي هو التطهير من أوصاف البشرية، وهي الأخلاق المذمومة من حيث هي، ومحو الدعاوي وهو التبرّي من الحول والقوة بحيث لا يرى لنفسه فعلاً ولا تركاً ولا نقصاً ولا كمالاً، وإنما هي غرض لسهام الأقدار تجري عليها أحكام الواحد القهار. فتحقيق هذين الأمرين على الكمال مع وجود النفس كاد أن يكون من المحال لكن الحق تعالى لكرمه وجوده إذا رأى منك صدق الطلب وأراد أن يوصلك إليه وصلك إلى وليّ من أوليائه وأطلعك على خصوصيته واصطفائه، فلزمت الأدب معه فما زال يسير بك حتى قال لك: ها أنت وربك، فحينئذ يستر الحق تعالى وصفك الذي هو وصف العبودية بوصفه الذي هو وصف الحرية فتتحسن أوصاف البشرية بظهور أوصاف الروحانية ويغطي أيضاً نعتك الذي هو الحدوث بنعته الذي هو القدم، أو غطى نعتك الذي هو العدم بنعته الذي هو الوجود.

وقال الشيخ زروق: ستر فقرك بغناه وذُلّك بعزّه وعجزك بقدرته وضعفك بقوّته، ويصرفك عن شهود ذلك منك وإليك بشهود ما منه إليه. اهـ.

قلت: وهو لازم لما فسر به من وصف العبودية ونعت الحرية، فوصلك حينئذ بما منّه عليك من الإحسان واللطف والامتنان لا بما مِنْكَ إليه من المجاهدة والطاعة والإذعان. ومثال النفس كالفحمة كلما غسلتها بالصابون زاد سوادها، فإذا اشتعلت

فيها النار ونفخ فيها الريح كستها النار ولم يبق للون الفحمة أثر، فكذلك أوصاف البشرية إذا كساها نور الروحانية، تغطّت ظلمة البشرية، ولم يبق لها أثر فتنقلب البشرية في صفة روحانية، وفي ذلك يقول الششتري في بعض أزجاله:

فمتَى مَا يَبينُ لي زالتِ البشريَّا
وتحوّلتُ غيري في صفَا روحانيَّا

والنار التي تحرق البشرية هي مخالفة الهوى وتحمل النفس ما يثقل عليها كالذل والفقر ونحوهما مع دوام ذكر الاسم المفرد، فكلما فني فيه ذابت بشريته وقويت روحانيته حتى تستولي على بشريته، فحينئذ يكون الحكم لها فتغيب في نور مذكورها وتغرق في شهود عظمة محبوبها، فحينئذ يحصل الوصال ويتحقق الفناء في ذي العظمة والجلال. وللششتري أيضاً رضي الله عنه:

فانتبهتُ للخطاب وسمعت منّي
كلِّي عن كلِّي غاب وأنَا عنّي مفني
وارتفع لِيَ الحجاب وشهدتُ أنّي
ما بقي لي أثر غبتُ عن أثري
لم أجدْ منْ حضَر في الحقيقةِ غيري

وبالله التوفيق.

هذا آخر الباب الثالث عشر، **وحاصله**: أمرك بالتعلُّق بأوصاف الربوبية والتحقق بأوصاف العبودية وعدم مشاركتك له في وصف الحرية، وما تعوّدت به من ذلك فاخرق لها تلك العوائد هنالك حتى تتهذب وتتأدب وتكتفي بعلم الحال عن وجود الطلب، فيكون طلبها شاهد حالها من الذلّة والانكسار وظهور الفاقة والاضطرار، فحينئذ تترادف عليها المواهب وتنال بذلك غاية المطالب ومنتهى الرغائب، وهو الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس من غير حيلة ولا اكتساب، وإنما هو منّة من الكريم الوهّاب، منَّ عليها بالوصول وتفضّل عليها بالقبول كما أشار إلى ذلك في أول الباب الرابع عشر فقال:

[الباب الرابع عشر]

وقال رضي الله عنه:

128 ـ (لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول)

قلت: لأن العمل الذي يكون أهلاً للقبول هو الذي تتوفر فيه شروط القبول، وهو سر الإخلاص وغاية الحضور والتبري فيه من الحول والقوة، وهذا في غاية الندور، فلولا أن الله سبحانه تفضّل علينا بجميل ستره فغطى مساوينا بجلائل لطفه وبره ما كان عمل أهلاً للقبول أصلاً، ولكن الذي منَّ بوجود الأعمال يمنّ بوجود القبول والإقبال. قال بعضهم: ما هناك إلَّا فضله ولا نعيش إلَّا في ستره، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: مسكين ابن آدم ـ جسم معيب وقلب معيب ـ يريد أن يخرج من معيبين عملاً بلا عيب اهـ. قلت: ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ **[الأحقاف: الآية 16]** فعبر بعن التي تدل على التجاوز. ولم يقل نتقبل منهم فكأنه قال: أولئك الذين نتجاوز عنهم في أعمالهم فنتقبلها منهم، والله تعالى أعلم.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**البلاء والهوى والشهوة معجونة بطين آدم**»[1] اهـ. قيل: وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾ **[الإنسَان: الآية 2]** أي أخلاط فاختلط به البلاء والهوى والشهوة فركب ابن آدم منها، فلزمته الثلاثة ما دامت بنيته قائمة وبشريته موجودة فإذا انهدمت البشرية حسّاً أو معنى لم يبق حكم النطفة الأمشاجية، وصار الحكم للروح النورانية، والله تعالى أعلم.

* * *

فإذا تقرر أن عملنا مدخول وليس أهلاً للقبول لولا جميل ستره المأمول، علمت أن افتقارنا إلى علمه وعفوه في حال الطاعة أعظم من افتقارنا إليه في حال المعصية كما أبان ذلك بقوله:

---

(1) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (7018) [4/ 351].

129 ـ (أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إليه إذا عصيته)

قلت: وذلك لأن الطاعة بساط العز والرفعة وللنفس فيها شهوة ومتعة، ولأن الناس يلحظون صاحب الطاعة الظاهرة وينظرونه بعين التعظيم ويبادرون إليه بالخدمة والتكريم، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق إن كان يفرح بذلك ويقنع به دون الملك الحق بخلاف المعصية، فإنما هي بساط الذلّ والانكسار ومحل السقوط والاحتقار وكل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق، فكان العبد في حال طاعته لربّه أحوج إلى حلمه وعفوه منه في حال معصيته، لأن الطاعة التي ينشأ عنها العز والاستكبار أقبح من المعصية التي تورث الذل والافتقار، بل في الحقيقة ليست بطاعة لأن الطاعة التي توجب البعد ليست بطاعة والمعصية التي توجب القرب ليست بمعصية، وفي الحديث: «**يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**»[1]، ومن كان الله عنده فهو أعظم من ألف مطيع توجب له طاعته طرده وبعده.

أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام: «قل لعبادي الصدِّيقين لا يغتروا فإني إن أقم عليهم عدلي وقسطي أعذِّبهم غير ظالم لهم، وقل لعبادي الخاطئين: لا ييأسوا من رحمتي فإنه لا يكبر عليّ ذنب أغفره»[2] اهـ.

وقال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه: توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة. وكان ﷺ إذا صلّى استغفر ثلاثاً تعليماً للأمة في شهود التقصير، وإلا فلا استغفار من طاعة ولا ذنب[3] على المختار ﷺ.

* * *

ولما كانت المعصية بساط الذلّ والاحتقار، كما تقدم، وهي أقرب لمقام العبودية، والطاعة بساط العز والرفعة فافتقرت إلى حلم الله أكثر، صار الناس يطلبون الستر في المعصية أو عنها خوفاً مما ينشأ عنها كما أبان ذلك بقوله:

130 ـ (الستر على قسمين: ستر عن المعصية، وستر فيها. فالعامة يطلبون الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق، والخاصة يطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق)

قلت: الستر هو الحفظ والتغطية وهو في الحس من الآفات والبليّات التي

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (614) [1/ 234] والمناوي في فيض القدير، حرف الهمزة [1/ 519].

(2) أورده المناوي في الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، حديث رقم (235) [1/ 101] ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (519) [1/ 145].

(3) ولا ذنب: أي ولا ذنب من طاعة إلّا إن تلبس صاحبها بالرياء.

توجب هلاكه، وفي المعنى من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة، وهو باعتبار المعصية على قسمين: قسم يقع الستر فيها فلا يفضح صاحبها، وقسم يقع الستر عنها فلا يقع العبد فيها ولو طلبها، لِما شمله من حفظ الله ورعايته.

فالعامة يطلبون الستر من الله فيها مع وقوعها لئلا يسقطوا من عين الخلق فهم يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، فمحط نظرهم إنما هو شهود الخلق غائبين عن نظر الملك الحق، وذلك لضعف إيمانهم وقلّة يقينهم وانطماس بصيرتهم.

وفي بعض الأخبار: يقول الله تبارك وتعالى: **«يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم»**[1] اهـ.

وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها والعصمة منها خشية أن يسقطوا من عين الحق، لأن صدور المعصية من العبد سوء أدب ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب، فإذا وقعت منهم معصية بادروا إلى الاعتذار وصحبهم الخجل والانكسار، ثم جدوا في سيرهم ولم يقفوا مع نفوسهم إذ لا وجود لها في نظرهم ولا التفات لهم إلى الخلق إذ لم يبق في نظرهم إلّا الملك الحق، غابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق أو بشهود المعنى عن رؤية الحس أو بشهود الموسوط عن الواسطة.

وأما خاصة الخاصة فلا يطلبون شيئاً ولا يخافون من شيء، صارت الأشياء عندهم شيئاً واحداً واستغنوا بشهود واحد عن كل واحد، فهم ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة فيتلقونه بالقبول والرضى فإن كان طاعة شهدوا فيها المنّة، وإن كان معصية شهدوا فيها القهرية وتأدبوا مع الله فيها بالتوبة والانكسار قياماً بأدب شريعة النبي المختار ﷺ. وقد وردت أحاديث في المقامات الثلاثة تعليماً للأمة، فقد دعا عليه السلام بالستر على المساوىء، ومنها وهي العصمة والحفظ وطلب مقام الرضا والتسليم لأحكام الله القهرية، كل ذلك منشور في كتب الأحاديث فلا نطيل به.

* * *

ثم إذا ستر الحق تعالى مساويك وذنوبك ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والمجد والتكريم، فاعرف منّة الله عليك وانظر من الممدوح في الحقيقة هل أنت أو من ستر مساويك، كما أبان ذلك بقوله:

(1) أورده أبو الفرج عبد الرحمان البغدادي في جامع العلوم والحكم [1/ 162].

131 ـ «من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره، فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك»

قلت: إذا كان الحق تعالى تولّى حفظك برعايته وستر مساويك بستر عنايته، فغطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته، ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والتمجيد والتكريم، فاعرف منَّة الله عليك وانعزل عن شهود نفسك، فمن أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: الآية 83]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: الآية 21]، فالحمد في الحقيقة إنما هو لمن سترك لا لمن أكرمك، إذ لو أظهر للناس ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك، فاشكر الله على ما أسدى إليك من الكرم وغطى عليك من المساوىء التي توجب أنواع الأذية والنقم.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: إذ لولا ستره عن المعاصي ما كنت مطيعاً، ولولا ستره فيها لكنت مهاناً عند الخلق ومخصوصاً بالمقت بينهم، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين، فالخلق كلهم إنما يتعاملون بينهم بستر مولاهم، ولو خلا عبده من ستره لأبغضه أحب الناس إليه ولأذاه أشفق الخلق عليه ولأهلكه أرأف الخلق به.
ولله در القائل:

يظنونَ بي خيراً وما بي من خير ... ولكنّني عبدٌ ظلومٌ كما تدري
سترتَ عيوبي كلَّها عن عيونِهِم ... وألبستني ثوباً جميلاً من السَّترِ
فصاروا يحبوني وما أنا بالذي ... يُحبُّ ولكن شبّهوني بالغيرِ
فلا تفضحني في القيامةِ بينَهُم ... وكنْ لي يا مولاي في موقفِ الحشرِ

ولما بلغت الإذاية كل مبلغ من حبيب الله ﷺ ما زاد على أن قال: «**لا غنى لي عن عافيتك، عافيتك أوسع لي**»[1] الحديث. اهـ، وسيأتي التقسيم في شهود الخلق

---

(1) رواه الطبراني في الدعاء، باب الدعاء عند الكرب والشدائد، حديث رقم (1036) [1/ 315] والهيثمي في مجمع الزوائد، باب خروج النبي ﷺ إلى الطائف [6/ 35] ولفظه: عن عبد الله بن جعفر قال: لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه فانصرف فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال: «اللهُم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني أو إلى قريب ملكته أمري إن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلّا بك».

في حالة النعم.

وإن الناس على ثلاثة أقسام: قوم عوام لا يشهدون إلَّا الخلق، وقوام خواص لا يشهدون إلَّا الخالق، وقوم خواص الخواص يشهدون الخالق في الخلق والموسوط في الواسطة، فيعطون كل ذي حق حقه كما يأتي مبيّناً إن شاء الله.

* * *

وإذا تحقّقت أن الذي أكرمك هو الذي ستر عيوبك وغطى مساويك بعد اطلاعه على خفاياها وعلمه بخباياها، فاتخذه صاحباً وكن له مراقباً ودع الناس جانباً، كما نبَّه عليه بقوله:

132 ـ (ما صحبك من صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك إلاَّ مولاك الكريم)

قلت: وإذا علمت أنه ليس لك صاحب إلَّا مولاك فاعرف حقيقة صحبته والزم الأدب في ظاهرك وباطنك واستحي منه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك. وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال لأصحابه: «**استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحيي والحمد لله، قال: ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وتذكّر القبر والبلى، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء**»[1] اهـ. فالصاحب الذي يدوم لك هو الذي يصحبك وهو عالم بعيبك لأن ذلك داعٍ للسلامة من التكلف والرياء والتصنُّع، وليس ذلك إلَّا مولاك العالم بخفاياك المطّلع على سرك وعلانيتك، إن عصيته سترك وإن اعتذرت إليه قبل عذرك.

وقد قيل من الحكمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: الآية 111] مع أن الكل ملكه ثلاثة أشياء، **أحدها**: البشارة بعدم الرد بالعيب لأن المشتري عالم به. **الثاني**: ليسلِّم العبد نفسه إليه فيتولى تدبيره إذ لا يتم بيع إلَّا بالتسليم ولا كفالة إلَّا بعد إقباض. **الثالث**: إظهاراً لتمام الفضل في ظهور النسبة لله سبحانه وذكر الصحبة في جانب الحق، وقعت في حديث: «**أنت الصاحب في السفر**» واختلف في إطلاقه في غير ذلك المحل، والظاهر أن الشيخ يرى ذلك في محل إشارة الأدب والانحياش عليه. مر أبو حامد الغزالي في بعض كتبه، قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7915) [4/ 359] والترمذي في سننه، باب 24، حديث رقم (2458) [4/ 637].

واعلم أن الأمر الذي يرغب في الصحبة ويعقد المحبة والمودة أمران، **أحدهما**: ما تقدم من كون الصاحب يغطي شينك بحلمه ويستر وصفك بوصفه. **والثاني**: كونه يحبك ويطلبك إلى حضرته من غير غرض ولا منفعة له في صحبتك.

وإلى الثاني أشار بقوله:

132 - ([و] خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه)

قلت: ولا يوجد هذا الوصف المجيد إلَّا للغني الحميد الفعّال لما يريد، يحب من يشاء بلا علة ولا سبب ويمقت من يشاء بلا ضرر يلحقه ولا تعب، يقرّب من يشاء بلا عمل ويبعد من يشاء بلا زلل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولو شاء ربك ما فعلوه ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً. وكلامنا إنما هو مع أهل التحقيق.

وأما باعتبار الحكمة وأهل التشريع فلا يظلم ربك أحداً ولكن فاعل السبب هو فاعل المسبب، من وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلَّا نفسه. وللجيلي رحمه الله:

إذا كنتُ في حكمِ الشريعةِ عاصياً فإنّي في حكمِ الحقيقةِ طائعُ

فخير من تصحبه، أيها الإنسان، مولاك الذي يطلبك لحضرته ويجتبيك لمحبته من غير نفع يعود منك إليه، وإنما هو برور وإحسان منه إليك فكيف تتركه وتطلب الأنس بغيره وضرره أقرب من نفعه.

قال بعضهم: جرِّب الناس تجدهم عقارب فإذا طلبت الصحبة فاصحب العارفين الذين ينهضك حالهم ويدلّك على الله مقالهم. ولله در صاحب العينية حيث يقول في عينيته:

فشمّرْ ولذْ بالأولياءِ فإنّهم لهُم من كتابِ الحقِ تلكَ الوقائعُ
هَمُ الذُّخرُ للملهوف والكنز والرجا ومنهم يَنَالُ الصّبُ ما هو طامعُ
بهم يهتدي للعينِ من ضلّ في العمَى بهم يجذبُ العشاقُ والربعُ شاسعُ
همُ القصدُ والمطلوبُ والسولُ والمُنَى واسمهم للصبرِ في الحبِّ شافعُ
همُ النّاسُ فالزمْ إن عرفتَ جنابَهُم ففيهم لضرّ العالمينَ منافعُ

وقال في التحذير من صحبة غيرهم من الغافلين والعوام:

وقاطعٌ لمنْ واصلتَ أيامَ غفلةٍ فمَا واصَلَ العذالَ إلّا مُقاطعُ
وجانِب جنابَ الأجنبي ولو أنَّهُ لِقُرب انتسابٍ في المنامِ مُضاجعُ

فللنفس من جلاسها كل نسبة ومن خلّة للقلب تلك الطبائع

والحاصل: أن صحبة من يوصل إلى الله فما هي إلّا صحبة الله إذ ما ثمَّ سواه، والنظر إلى العارف بالله فإنما هو نظر إلى الله إذ لم تبق فيه بقية عليه لغير الله، فصار نوراً محضاً من نور الله، وفيهم قال عليه السلام: «**إن لله رجالاً من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً**»[1] اهـ. وهم موجودون لا ينقطعون أبداً، ظاهرون ظهور الشمس لا يخفون إلّا على من أراد الله منه طرداً وبعداً والعياذ بالله من السلب بعد العطاء ومن سوء القضاء وشماتة الأعداء وعضال الداء وخيبة الرجاء وزوال النعمة وفجأة النقمة آمين.

* * *

ثم فائدة صحبة العارفين هو حصول اليقين كما أشار إليه بقوله:

133 ـ (لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها)

قلت: اليقين هو العلم الذي لا يزاحمه وهم ولا يخالطه ريب ولا يصحبه اضطراب. مشتق من يقن الماء إذا حبس ولم يجر، شَبَّهَ به العلم إذا صحبته الطمأنينة ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب، وإشراق نوره هو ظهور أثره على الجوارح، فيظهر فيها الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويظهر منه الانحياش إلى الله والاشتياق إلى حضرة جماله والسكون والخضوع تحت قهر جلاله، والمسارعة إلى ابتغاء مرضاته والمبادرة إلى مظان محابه، ولهج اللسان بذكره وشغل القلب بالفكرة في عظمته، وهيمان الروح في حضرة قربه وسكرها من شراب حبه واغتمارها بشهود قربه، فهذه علامة إشراق نور اليقين في القلب. ومن علامته أيضاً أن يصير الآجل عاجلاً والبعيد حاصلاً والغيب شهادة، فإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين. ولنا في هذا المعنى:

فلا ترضَى بغيرِ اللهِ حبّاً وكُنْ أبداً بعشق واشتياقِ

ترى الأمرَ المغيّبَ ذا عيانٍ وتحظَى بالوصالِ وبالتّلاقِ

كنت ذيّلت بهما قول القائل:

فلا دهشَ وحامِ الحي حيٌّ ولا عطشَ وساقي القوم باقِ

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فـمَـا الـدّنـيَـا بـبـاقـيـةٍ لـحـيٍ   ومـا حـيٌّ عـلـى الـدنـيَـا بـبـاقِ

فلو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك أقرب إليك من أن ترحل إليها، إذ هي الراحلة إليك والمدركة لك، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية ظهرت كسفة الفناء عليها أي قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها، فصار ما كان ظاهراً باطناً وما كان باطناً صار ظاهراً، وما كان كثيفاً صار لطيفاً وما كان لطيفاً صار كثيفاً، وما كان غيباً صار شهادة وما كان شهادة صار غيباً، وإنما بعد ذلك عن الخلق ضعف إيمانهم وقلّة نور إيقانهم ولو أشرق نور اليقين في قلوبهم لرأوا الدنيا مكسوفة أنوارها بادية عوارها كما رآها حارثة رضي الله عنه حين أخبر عن حقيقة إيمانه.

فقد روي عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار فقال له النبي ﷺ: **«كيف أصبحت يا حارثة»**، قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، فقال له: **«انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك»**، فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا ـ أي أدبرت وهربت ـ فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأني بعرش ربي بارزاً وكأني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني انظر إلى أهل النار يتعاوون فيها. فقال له: أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه، قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ فقتل يوم بدر شهيداً فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة مني فإن يكن في الجنة أصبر، وإن لم يكن في الجنة ترى ما أصنع، فقال: **«أو هبلت، أجنة هي، إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»** فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ يا حارثة[1] اهـ.

وكما رآها معاذ بن جبل رضي الله عنه حين دخل على النبي ﷺ وهو يبكي فقال له: كيف أصبحت يا معاذ، قال: أصبحت مؤمناً، فقال: إن لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول، فقال: يا رسول الله ما أصبحت صباحاً قط إلَّا ظننت لا أمسي، وما أمسيت قط إلَّا ظننت لا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلَّا ظننت أني لا أتبعها بأخرى، وكأني أنظر إلى كل أمّة جاثية، كل أمّة تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10590) [7/ 362] ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في سر العمل وعلانيته، [4/ 74] ورواه غيرهما.

وثواب أهل الجنة، فقال ﷺ: «**عرفت فالزم**»[1]. فهذان الرجلان الأنصاريان أشرق نور الإيقان في قلوبهما وشرح الله به صدورهما فرأوا ما كان آجلاً عاجلاً وما كان آتياً واصلاً.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح**»، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها، قال: «**نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله**»[2] أو كما قال عليه السلام.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله: اليقين نور يجعله الله في قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها. اهـ.

* * *

قلت: فإذا تكامل إشراق نور الإيقان غطّى وجود الأكوان ووقع العيان على فقد الأعيان ولم يبق إلَّا نور الملك الديّان، كما أشار إلى ذلك بقوله:

134 ـ (ما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا شيء معه ولكن حجبك عنه توهُّم موجود معه)

قلت: الحق تعالى ظاهر ونوره للبصائر باهر، وإنما حجبه مقتضى اسمه الحكيم واسمه القاهر فما حجبك عن شهود الحق وجود شيء معه أإله مع الله تعالى الله عما يشركون، ولكن حجبك عن شهوده توهُّم وجود موجود معه ولا شيء معه، وكما كان ولا شيء بقي ولا شيء، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فالفعل لا يصدر من غير صفة والصفة لا تفارق الموصوف، فالفعل متحد والفاعل واحد والصفة متحدة والمتصف بها واحد.

وللششتري رضي الله عنه:

صفاتي لا تَخْفَى لِمَنْ نَظَرْ وذاتي معلومةٌ تلكَ الصور

فافنَ عن الإحساسِ ترَى عِبَر

---

(1) رواه بلفظه القزويني في التدوين في أخبار قزوين [1/ 17] ورواه غيره باختلاف يسير في لفظه منهم ابن أبي شيبة في مصنفه حديث رقم (30423) [6/ 170].

(2) روى نحوه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، حديث رقم (7862) [4/ 346] والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10552) [7/ 352] ورواه غيرهما.

وسبب توهُّم الغيرية عدم الفكرة، وسبب عدم الفكرة حب العاجلة، فهي الشاغلة للقلوب عن السير إلى حضرة علَّام الغيوب. وحكمة حب الدنيا ظهور القهرية، فمن قهاريته تعالى أن احتجب بلا حجاب وغطى نور شمسه بالأسحاب، وأيضاً قوالب العبودية حجبت مظاهر أنوار الربوبية، ووجود الحكمة ستر ظهور القدرة. وقال بعض العارفين: الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض، لأنه للطفه سار في كل شيء ولنوريته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيّف بكل كيف غير متقيّد بذلك، ومن لم يذق هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة محروم عن مشاهدة الحق اهـ. ومن كلام ابن وفا رضي الله عنه:

هوَ الحقُّ المحيطُ بكلِّ شيءٍ هوَ الرحمٰن ذو العرشِ المجيدِ
هوَ النُّور المبينُ بغيرِ شكٍ هوَ الربُّ المحجبُ في العبيدِ
هوَ المشهودُ في الأشهادِ يبدُو فيخفيهِ الشهودُ عنِ الشهيدِ
هوَ العينُ العيانُ لكلِّ غيبٍ هوَ المقصودُ مِنْ بيتِ القصيدِ
جميعُ العالمينَ لهُ ظلالٌ سجودٌ في القريبِ وفي البعيدِ
وهذا القدرُ في التحقيقِ كافٍ فكفَ النَّفسَ عن طلبِ المزيدِ

وقال الشيخ القطب مولاي عبد السلام بن مشيش مخاطباً لوارثه الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما في وصية له، وقد تقدّمت: حدد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته، وعد عن الظرفية والحدود وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان اهـ.

قال بعضهم: ونبّه بقوله: وعد الخ، على أن ما جرى في كلامه من الظروف ليست بزمانية ولا مكانية لأنها من جملة الأكوان، وإنما هي أمور ذوقية فاعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه وتمسك بقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: الآية 11]، وسلم ذلك لأهله فإنهم على بصيرة فيما رمزوا إليه مما ذاقوه

ووجدوه، بل هو من محض الإيمان وخالص العرفان، وهو حقيقة التوحيد وصفو الإيمان.

وأما قوله: وهو الآن على ما عليه كان، وإن لم يرد في الحديث الصحيح فهو في نفسه صحيح إذ لا وجود في الحقيقة للأشياء معه تعالى، وإنما هي كالخيال ووجود الظلال فلا تنسخ أحديته ولا ترفع فردانيته. وبالجملة فمن غلب عليه شهود الأحدية وكوشف بسر الوحدانية واستغرق في الحقيقة العيانية انقطع عن الشعور بنفسه وغاب عن السوى بالكلية، وإن رد إلى الشعور به رآه قائماً به وظاهراً فيه وبه وحكماً من أحكامه اهـ.

وقال في لطائف المنن: وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا ثبتت ظليّة للآثار لم تنسخ أحدية المؤثر لأن الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار. ومن ها هنا تبين لك أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله تعالى، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب من الله، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهُّم الحجاب اهـ.

* * *

ولما قرّر أمر الوحدة ونفى وجود الغيرية استشعر سائلاً يقول له: وهذه المكوَّنات الظاهرة فما تقول فيها مع ثبوت الوحدة، فأجاب بأنها قائمة به ولولا ظهور نوره فيها ما ظهرت، كما بيَّن ذلك بقوله:

135 ـ (لولا ظهوره في المكوَّنات ما وقع عليها وجود إبصار لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوَّناته)

قلت: كان الله ولا شيء معه، فكانت الخمرة الأزلية القديمة لطيفة خفية نورانية روحانية، وليس هناك شكل ولا رسم متصفة بصفات المعاني والمعنوية متسمية بأسمائها القديمة منعوتة بنعوت الجلال والجمال، فاقتضت الخمرة ظهور حسنها وجمالها، واقتضت الصفات ظهور آثارها، والأسماء ظهور مطالبها، فقبضت الصفات من النور اللطيف قبضة نورانية لمقتضى اسمه الظاهر واسمه القادر، فطلبها أيضاً اسمه الباطن واسمه الحكيم، فأبطنها في حال ظهورها وغطاها في حال بروزها، فكانت ظاهرة باطنة، ثم تفرّعت تلك القبضة على تفاريع كثيرة بعدد

الصفات، وتنوَّعت على أجناس كثيرة بتنوُّع الأسماء، فالماء واحد والزهر ألوان وفي ذلك يقول صاحب العينية:

وكلُّ الورى طرّاً مظاهرُ طلعتي مَراءٍ بها من حُسنِ وَجهِي لامعُ

ظهرتُ بأوصاف البَرِّيةِ كلِّها أجَل في ذواتِ الكلِّ نوريَ ساطعُ

فبحر الجبروت فيّاض إلى عالم الملكوت. ثم احتجب بالحكمة فصار ظاهره ظلمة وباطنه نوراً، ظاهره حكمة وباطنه قدرة، ظاهره ملك وباطنه ملكوت، والجميع جبروت، فإذا تقرّر هذا علمت أن الأكوان لا وجود لها من ذاتها، فلولا ظهور الحق بها ما ظهرت ولا وقع عليها أبصار الخلق، كما قال القائل:

مَنْ لا وجودَ لذاتِهِ مِنْ ذاتِهِ فوجودُهُ لولاهُ عينُ مُحالِ[1]

وقال آخر:

فلم يبقَ إلَّا الحقُّ لمْ يبقَ كائنٌ فمَا ثَمَّ موصولٌ وما ثَمَّ بائنُ

بذَا جَاء برهانُ العيانِ فمَا أرى بعيني شيئاً غيرَهُ إذْ أُعاينُ

وظهوره تعالى بواسطة تجليّات الأكوان فيه لطف كبير، إذ لا يمكن شهوده ومعرفته إلَّا بواسطة هذه التجليّات، ولو ظهر بالأوصاف التي كان عليها في الأزل بلا واسطة لتلاشت الكائنات واضمحلت.

---

(1) هذا البيت هو أحد أبيات قصيدة للشيخ القطب أبو مدين التلمساني شعيب بن الحسن الأندلسي من مشاهير الصوفية توفي سنة 594 هجرية. والقصيدة كاملة هي:

اللّه قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل دون اللّه إن حققته عدم على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

فالعارفون فنوا ولما يشهدوا شيئاً سوى المتكبِّر المتعالي

ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبال

فالمح بعقلك أو بطرفك هل ترى شيئاً سوى فعل من الأفعال

وانظر إلى علو الوجود وسفله نظراً تؤيده بالاستدلال

تجد الجميع يشير نحو جلاله بلسان حال أو بلسان مقال

هو ممسك الأشياء من علو إلى سفل ومبدعها بغير مثال

وفي الحديث: «**حجابه النور لو كشف عنه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره**»[1] اهـ. وهذا معنى قوله: لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته، أي لو ظهرت نعوته الأصلية الأزلية لاضمحلت المكوّنات الحديثة، إذ الكائنات كلها تكثيف للأسرار اللطيفة التي هي نعوت الخمرة الأزلية التي أشار إليها ابن الفارض في خمريته بقوله:

صفاءٌ ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هوَى ... ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ
تقدَّمَ كلَّ الكائناتِ حديثُها ... قديمٌ ولا شكلٌ هناكَ ولا رسمُ

فلو ظهرت الأسرار اللطيفة لتلاشت الكائنات الكثيفة إذ لا ظهور للكثيف إذا رجع لطيفاً، وما مثال الكون إلّا كالثلجة ظاهرها جامد وباطنها مائع، فإذا ذوّبت الثلجة رجعت إلى أصلها ماء ولم يبق للثلجة أثر، فكذلك المكونات الحسية إذا ظهرت أسرارها اللطيفة التي قامت بها ذابت ذواتها الكثيفة وتلاشت ورجعت لأصلها. وإلى هذا المعنى أشار صاحب العينية بقوله:

ومَا الكونُ في التمثالِ إلّا كثلجةٍ ... وأنتَ لهَا الماءُ الذي هو نابعُ
فمَا الثلجُ في تحقيقنَا غيرُ مائِهِ ... وغيرانِ في حكمٍ دعتهُ الشرائعُ
ولكنْ بذوبِ الماءِ يرفعُ حكمُهُ ... ويوضَعُ حكمُ الماء والأمرُ واقعُ

فمن وقف مع ظاهر الثلجة أنكر الماء الذي في باطنها وكان جاهلاً بحقيقتها، ومن نفذ إلى باطنها عرف أصلها وفرعها. وكذلك الأكوان ظاهرها غرّة لمن وقف مع كثافتها وباطنها عبرة لمن نفذ إلى أصلها. وقد مثلوا أيضاً الكون بصورة جبريل حين كان يتصوّر في صورة دحية فمن رآه كثيفاً قال: دحية، وأنكر أن يكون ملكاً. ومن عرف أصله لم ينكره ولم يقف مع ظاهره، فإذا تلطّف ورجع إلى أصله ذهبت تلك الصورة واضمحلت، فكذلك الكون إنما هو خيال فما دام موجوداً في الحس رئي وظهر فإذا رجع إلى أصله بظهور أسراره التي قام بها اضمحل ولم يبق له أثر. وقد أشار إلى هذا صاحب العينية أيضاً بقوله:

تجلّيتُ بالتحقيقِ في كلّ صورةٍ ... ففي كلّ شيءٍ مِنْ جمالي لوامعُ
فَمَا الكونُ في التمثالِ إلّا كدِحيةٍ ... تَصَورُ روحي فيه شكلٌ مُخادع

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب (79) في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام...»، حديث رقم (179) [1/161] وابن ماجه في سننه، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (195) [1/70] ورواه غيرهما.

ويسمّون هذه الأسرار التي قامت بها الأكوان: معاني، ويسمّون الأكوان: أواني حاملة للمعاني، فلو ظهرت المعاني لاضمحلت الأواني، ومن وقف مع حس الأواني حجب عن أسرار المعاني. وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

لا تنظرْ إلى الأواني وخضْ بحرَ المعاني
لعلَّكَ تراني

وقال ابن الفارض:

ولطف الأواني في الحقيقة تابع للطف المعاني والمعاني بها تسمو

فالأواني كلها لطيفة في الحقيقة تابعة للطف المعاني لأنها منها، وإنما تكثّفت في حق أهل الحجاب الذين وقفوا مع ظواهر الأشياء واشتغلوا بخدمة الحس قلباً وقالباً فعظم عليهم الحس وقويت دائرة حسّهم وغلظ الحجاب في حقهم فعبادتهم حسية وفكرتهم حسية وذلك لصحبتهم أهل الحس ولو صحبوا أهل المعاني لاشتغلوا بخدمة المعاني حتى تتلطف لهم الأواني.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه: سألت الشيخ، يعني سيدي العربي بن عبد الله [الدرقاوي]، فقلت: يا سيدي كنت أظن أنه لا يشفي غليل الإنسان إلّا الحس، يعني العبادة الحسية، ولا ظننت قط أن فعل المعاني يشفي الغليل أبداً، والآن وجدت نفسي بالعكس لا يشفي غليلها إلّا المعاني، فأجابني بأن قال: يا ولدي لما كانت همّتك مشورة للحسيات أمدك الله فيها فصرت لا تقنع إلّا بالحسيات، والآن انعكس الأمر لما رافقت أهل المعاني أثرت معرفتهم فيك بتشوير همتك لبلاد المعاني، ولما انقلبت همتك عن بلاد الحس وشورت لبلاد المعاني أمدّك الله فيها فصرت تقطع بالمعاني كما كنت تقطع بالحسيات. اهـ مختصراً. فكل من صحب أهل المعاني وانقلبت همّته لبلاد المعاني حتى صارت عبادته باطنية معنوية تلطفت في حقه الأواني ولم ير إلّا المعاني.

قلت: ومما منَّ الله عليّ بصحبة أهل المعاني أني إذا نظرت إلى الكون بعين بصيرتي من عرشه إلى فرشه ذاب وتلاشى ولم يبق له أثر، والله ذو الفضل العظيم.

تنبيه: سئل سيدي أحمد بن يوسف الملياني عن ذات الحق تعالى هل معنوية أو حسية، فقال: هي حسية لا تدرك. قال سيدي عبد الله الهبطي: وهذا مما يدل على تحقيق معرفته.

قلت: ذات الحق تعالى موجودة لطيفة لا تدركها الأبصار ولا تكيّفها العقول

متصفة بصفات المعاني والمعنوية، ولو كانت صفة أو معنى كما يزعمه النصارى، لم تتصف بصفات المعاني ولا المعنوية لأن الصفة والمعنى لا يقوم بنفسه ولا بد أن يقوم بغيره، والصفة لا تتصف بصفة أخرى. وأما قول بعض المتأخرين: المعنى لا يقبض إلَّا بالحس، وقولهم أيضاً: لا تنظر إلى الأواني وخض بحر المعاني. وقولهم: الأكوان أواني حاملة للمعاني، **فاعلم** أنه قد تقدم أنهم يطلقون على أسرار الذات، وهي الخمرة الأزلية، معاني لخفائها ولطافتها، فأشبهت المعاني من هذا الوجه. فتحصّل أن الحس لا قيام له إلَّا بالمعنى وهي معاني أسرار الذات، فصار قيام الأشياء كلها بالله ولا وجود لها معه. وهو الذي أشار إليه ابن الفارض بقوله:

وقامتْ بها الأشياءُ ثمَّ لحكمةٍ بها احتجبتْ عن كلِّ مَنْ لا لهُ فهمُ

أي قامت الأشياء كلها بالذات العلية، أي بأسرارها اللطيفة الأزلية. وقولهم أيضاً: الذات عين الصفات والصفات عين الذات، **فاعلم** أنه لما كان لا ظهور للذات إلَّا من أنوار الصفات ولا قيام للصفات إلَّا بالذات والصفات لا تفارق الموصوف صار كأن هذا عين هذا فنطقوا بتلك العبارة تحويشاً للجمع وفراراً من الفرق وهو اصطلاح منهم سمُّوا ما تكثّف وظهر للحس صفات، وما بطن من سر الربوبية ذاتاً ومعنى، والصفات لا تفارق الموصوف كما تقول في الثلجة ظاهرها ثلج وباطنها ماء، فالثلج صفات والماء ذات، الثلج حس والماء معنى، للطافته وخفائه صار كأنه معنى.

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: الآية 13] قال: في كل شيء اسم من أسمائه واسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله باطناً بقدرته ظاهراً بحكمته، ظهر بصفاته وبطن بذاته، حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع في الصنعة وأظهر الصنعة بالذوات، فهو باطن في غيبه وظاهر بحكمته وقدرته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. اهـ. نقله شارح بداية السلوك هكذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

فقوله: حجب الذات بالصفات، أي حجب أسرار الذات بأنوار الصفات وهي أثرها.

وقوله: وحجب الصفات بالأفعال لأن الأفعال ظروف للصفات لأنها أثر من آثارها ومظهرة لها.

وقوله: وكشف العلم بالإرادة، أي أظهر ما سبق في علمه بإرادته المخصصة لوقت إظهاره.

وقوله: وأظهر الإرادة بالحركات: أي أظهر ما سبق من إرادته بظهور الحركات الدالة على ما أراد.

وقوله: وأخفى الصنع في الصنعة: أي أخفى الصانع في صنعته.

وقوله: وأظهر الصنعة بالذوات، أي أظهر قدرته في الأجرام وسائر الذوات والله تعالى أعلم.

وقول شيخ شيوخنا سيدي علي [الجمل] رضي الله عنه في كتابه [نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد](1) في تفسير الذات والصفات: أن كل ما هو جلال فهو ذات وكل ما هو جمال فهو صفات، فإنما ذلك على وجه التشبيه فإن تجلّي الصفات كله جمال، لأنه محل نزهة أرواح العارفين وبه يرتقي أهل الدليل إلى معرفة رب العالمين وهو الذي شبهه الشيخ ابن مشيش(2) بالرياض في قوله: فرياض الملكوت(3) الخ، وأيضاً هو الذي تمكن رؤيته وتحصل المعرفة به بخلاف تجلّي الذات فإنه جلال محض، إذ لو ظهر ذرّة من نوره الأصلي بلا واسطة لاحترق الكون من أصله. وفي الحديث: «**حجابه النار**»(4). وفي رواية: «**النور**(5) **لو كشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره**»، فصار تجلّي الصفات كله جمال وتجلّي الذات كله جلال فأطلق وجه التشبيه أن كل ما يشق على النفس فهو ذات لأنه جلال كتجلّي الذات، وكل ما يخف على النفس فهو صفات لأنه جمال كتجلّي الصفات، والله تعالى أعلم.

وإنَّما أطلت الكلام في هذه المسألة لأني لم أر من تكلم عليها ولا من شفي فيها الغليل وكنت كثير البحث عنها فلم أجد من يشفيني فيها، وهذا ما ظهر لي فيها وما أنتجته فكرتي، والله تعالى أعلم وبالله التوفيق.

* * *

---

(1) طبع الكتاب بتحقيقنا.

(2) هو العارف الرباني والقطب الفرداني والوارث المحمدي الشيخ عبد السلام بن مشيش توفي سنة 622هـ.

(3) في صيغة الصلاة على النبي ﷺ سماها تلميذه الشيخ القطب أبو الحسن الشاذلي بـ «صلاة الفتح والقرب» مزجها العارف بالله الشيخ العربي الدرقاوي، وتعرف هذه الصيغة بالوظيفة الشاذلية، وموضع الاستشهاد هو: «رياض الملك والملكوت بزهر جماله الزاهر مونقة...» الخ.

(4) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (6025) [6/ 139] وأحمد في المسند، حديث أبي موسى الأشعري، رقم (19602) [4/ 400] ورواه غيرهما.

(5) سبق تخريج هذه الرواية.

ثم استدل على ظهوره في المكونات بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحَديد: الآية 3] فأشار إلى تفسير الظاهر والباطن بقوله:

136 ـ (أظهر كل شيء بأنه الباطن وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر)

قلت: مضمنه أن اسمه تعالى الباطن يقتضي ظهور الأشياء حسّاً ليكون باطناً بسبب ظهور حسها لأن الحس رداء أسرار المعاني، واسمه الظاهر يقتضي بطون الأشياء، أي هلاكها واضمحلالها، ليكون ظاهراً بما ظهر منها. هذا معنى قوله: أظهر كل شيء بأنه الباطن أي بسبب أنه الباطن ليتحقق بطونه بها وطوى وجود كل شيء بسبب أنه الظاهر ليتحقق انفراده بالظهور فيها.

والحاصل: أن الحصر في قوله تعالى: «هو الظاهر» يدل على أنه لا ظاهر معه، فانطوى وجود الأشياء واضمحل لها. وقوله: «هو الباطن» يدل على أنه لا باطن سواه فبطنت الأشياء كلها بعد ظهورها، فدل كلامه سبحانه أن ما ظهر به هو الذي بطن فيه والذي بطن به هو الذي ظهر فيه، وإلا لم يصح الحصر. فإن قلت: المتقابلان لا يجتمعان كالضدّين وكيف جمعتهما في ذات واحدة، قلت: لم يتواردا على محل واحد بل ذلك باعتبارين فاسمه الظاهر باعتبار الحس في عالم الحكمة، واسمه الباطن باعتبار المعنى في عالم القدرة، فالحكمة ظاهرة والقدرة باطنة. أو تقول: ظاهر باعتبار مظاهر الربوبية، باطن باعتبار قوالب العبودية. أو تقول: ظاهر باعتبار التعريف، باطن باعتبار التكييف. فالذات واحدة والاعتبارات مختلفة وذلك كثير.

فتحصّل: أن الحق سبحانه ظاهر في بطونه باطن في ظهوره، ما ظهر به هو الذي بطن فيه وما بطن به هو الذي ظهر فيه، أي ما ظهر فيه بحكمته هو الذي بطن فيه بقدرته وما بطن فيه بقدرته، هو الذي ظهر فيه بحكمته، وهو الذي قصده الشاعر بقوله:

لقد ظهرتَ فَلَا تخفَى على أحدٍ إلا علـى أكمَهٍ لا يبصرُ القمرَا

لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجباً وكيفَ يعرفُ من بالعزّةِ استترَا

والله تعالى أعلم.

تنبيه: قد كنت سألت الشيخين، أعني شيخنا وشيخه، عن الخمرة الأزلية قبل تجلّيها، هل تسمى ظاهرة باطنة، أو إنما تسمى باطنة فقط للطافتها حينئذ، فأجابني: بأن ما كان هو الذي ظهر وليس الذي ظهر غير ما كان في الأزل «كان

الله ولا شيء معه» وهو الآن على ما عليه كان. يعني أن الذات العلية كما كانت متصفة بصفاتها وأسمائها في الأزل بقيت كذلك فيما لا يزال فكان في الأزل ظاهراً باطناً وبقي بعد التجلّي كذلك ظاهراً لنفسه باطناً عن خلقه ما تجلّى به ظاهراً هو فيه أيضاً باطن.

وقال القاشاني في شرح تائية ابن الفارض ما نصه بعد كلام: وأظهر الحق تعالى سر ذاته وصفاته في مظاهر أفعاله، وما كان لخفائه عليه قبل ذلك، كما حكاه عن المحبوبة بلسان الجمع في قوله:

مظاهرُ لي فيهَا بَدَوْتُ ولم أكنْ   عليَّ بخافٍ قبلَ موطنِ برزة

ولكن ليتجلّى باسمه الظاهر آخراً كما كان متجلياً باسمه الباطن أولاً، والعجب كل العجب أنه تعالى ما ظهر بشيء من مظاهر أفعاله إلَّا وقد احتجب به كما قال:

بدَتْ باحتجابٍ واختفَتْ بمظاهر   على صِبغِ التَّلوينِ في كلِّ برزة

اهـ كلامه رضي الله عنه.

والتحقيق أن يقال: الحق تعالى لم يزل متصفاً بأسمائه وصفاته في الأزل وفيما لا يزال لكن ظهور آثارها وقع فيما لا يزال، فكان متصفاً باسمه الظاهر والباطن في الأزل، وظهر بعد ذلك آثارهما فيما لا يزال والله تعالى أعلم.

* * *

ثم بيَّن كيفية النظر والاعتبار في المكوّنات لتعرف ظهوره تعالى فيها، فقال:

137 ـ (أباح لك أن تنظر في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: الآية 101] فبقوله، انظروا ماذا في السماوات فتح لك باب الأفهام، ولم يقل، انظروا السماوات، لئلا يدلّك على وجود الأجرام)

قلت: إنما أبرز الله هذه المكونات وأظهر هذه العوالم ليعرف بها ويظهر نوره فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾ [الدخان: الآية 38]، ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: الآية 39] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ [المؤمنون: الآية 115]. قال في لطائف المنن: فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها. قال: ولنا في هذا المعنى:

مـا أثبـتَ لـكَ الـعـوالـمَ إلا لـتـراهـا بـعـيـن مَـنْ لا يـراهَـا

فارقَ عنهَا رقيَّ مَنْ ليسَ يرضَى حـالـةً دونَ أنْ يـرَى مـولاهَـا

فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السماوات والأرض من النور اللطيف الذي قامت به الأشياء وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات، تقف مع القشر وتحجب عن اللبّ. وقد تقدم قوله: الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان محجوباً، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفاً محبوباً، ولأجل هذا السر قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يُونس: الآية 101] أي ما فيها من عظمته ومعاني أسرار ذاته وكمال قدرته وإرادته وسائر صفاته فقد فتح لك باب الأفهام، جمع فهم، أي فتح لك باب الفهم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب حتى تعرفه في كل شيء وتفهم عنه كل شيء، ولو قال الحق تعالى: «قل انظروا السماوات» لدلّك على الأجرام وسد لك باب الأفهام، وكيف يدلّك على الأجرام وهي أغيار، والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار. ومثال ذلك في التقريب: لو قال لك قائل: انظر هذه الثلجة لدلّك على ظاهر جرمها، ولو قال لك: انظر ما في هذه الثلجة، لفتح لك باب الفهم إلى نظر ما في باطنها من الماء دون الوقوف مع ظاهر جرمها.

واعلم أن الحق سبحانه ندب عباده إلى معرفة ذاته ودرّجهم إليها شيئاً فشيئاً، فمنهم من قصر ومنهم من وصل، فدرّجهم أولاً إلى توحيد الأفعال وأنه لا فاعل سواه، فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: الآية 68] ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية 107] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات: الآية 96] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البَقَرَة: الآية 253] وقال في فعل غير الآدمي: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هُود: الآية 56]، وفي شأن الطير: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [المُلك: الآية 19]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعَام: الآية 38] أي في قهر قبضتنا مقدّرة آجالها مقسومة أرزاقها معدودة أنفاسها محفوظة أجسامها معلومة أماكنها ظاهرة أشباحها باطنة أنوارها.

وقال في توحيد الصفات: وإنه لا سميع ولا بصير ولا قدير ولا متكلّم إلّا الله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسرَاء: الآية 1] أي دون غيره فلا سمع ولا بصر إلّا به سبحانه. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذّاريَات: الآية 30]، وقال تعالى:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى في توحيد الذات: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: الآية 3] ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: الآية 35] على تفسير أهل الإشارة، وهم أهل الباطن. وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية 115]. وإذا قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: الآية 10].

وقال في محو الواسطة: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: الآية 18]، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ [عبس: الآية 25] أي بالحرث شقاً، ويحتمل أن تكون منها أو من توحيد الأفعال، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية 17] ولكن الله ألف بينهم.

وقد يجمع الحق تعالى في آية واحدة توحيد الصفات ويرقى إلى توحيد الذات كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: الآية 53].

ثم رقاهم إلى الشهود بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: الآيتان 53، 54]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: الآية 12].

ثم رقاهم من الغيب إلى الشهادة بقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: الآية 13] ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

فتحصّل: أن الأشياء كلها قائمة بالله، أثبتها ليعرف بها ثم محاها بوحدانيته كما أشار إلى ذلك بقوله:

138 ـ (الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته)

قلت: الأكوان هي ما ظهر في عالم الشهادة، أو تقول: ما دخل عالم التكوين وهي موجودة بوجود الحق قائمة به ثابتة بإثباته ليعرف بها، ممحوة بأحدية ذاته لانفراد وجوده، فمن أثبتها لنفسها فقد جهله فيها وحجب بها عن شهود موجدها، ومن أثبتها بالله فقد عرف فيها وشهد فيها مولاها، فالثبوت للأكوان أمر عرضي والحق اللازم هو وجود أحدية الحق تعالى، والأحدية مبالغة في الوحدة ولا تتحقق إلّا إذا كانت الوحدة بحيث لا يتمكن أن يكون أشد وأكمل منها، فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد، إذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان في ذلك متعدداً

وأثنينية. كما قيل:

أربٌ وعبد ونفيُ ضدٌ قلتُ له ليس ذاكَ عندي
فقال ما عندكم فقلنا وجُودُ فقدٍ وفقدُ وَجْدِ
توحيدُ حقٍ بتركِ حقٍ وليسَ حقٌ سوايَ وحدِي

ومعنى كلام الشاعر الإنكار على من أثبت الفرق بأن جعل للعبودية محلاً مستقلاً منفصلاً عن أسرار معاني الربوبية قائماً بنفسه، ولا شك أن العبودية تضاد أوصاف الربوبية على هذا الفرق، وأنت تقول في توحيد الحق لا ضد له فقد نقضت كلامك، ولذلك قال: ونفي ضد، فالواو بمعنى مع وهو داخل في الإنكار أي أيوجد رب وعبد مستقل مع نفي الضد للربوبية، والعبودية تضاد أوصاف الربوبية، والحق أن الحق تعالى تجلّى بمظاهر الجمع في قوالب الفرق ظهر بعظمة الربوبية في إظهار قوالب العبودية فلا شيء معه.

وقوله في الجواب: وجود فقد، أي عندنا وجود فقد السوى وفقد وجود النفس.

وقوله: توحيد حق بترك حق أي توحيد حقُ الحق بترك حق الغير ولا غير، ولذلك قال: وليس حق موجود سوى وجودي وحدي، تكلم على لسان الفناء والله تعالى أعلم. وقال آخر:

سرٌّ سَرَى من جنابِ القدسِ أفناني لكنْ بذاك الفنَا عني قد أحياني
وردني للبقا حتى أعبّرَ عن جمالِ حضرتِهِ لكلِّ هيمانِ
وصرتُ في ملكوتٍ منْ عجائبِهِ لم ألفُ غيرَ وجودٍ ما لَهُ ثانِي

وأنشد المؤلف[1] لنفسه في لطائف المنن[2] يوصي رجلاً من إخوانه اسمه حسن:

حسنٌ بأنْ تدَعَ الوجودَ بأسره حسن فلا يشغلكَ عنهُ شاغلُ
ولئنْ فهمتَ لتعلمنَّ بأنهُ لا ترك إلَّا للذي هوَ حاصلُ
ومتى شهدتَ سواهُ فاعلم أنه من وهمك الأدنى وقلبكَ ذاهلُ
حسبَ الإلٰه شهودُهُ لوجودِهِ واللّٰهُ يعلمُ ما يقولُ القائلُ

(1) أي مؤلف الحكم الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري.
(2) سبقت الإشارة إلى كتابه هذا.

ولقدْ أشرتُ إلى الصريح من الهدَى دلتْ عليهِ إنْ فهمتَ دلائلُ
وحديثٌ كانَ وليسَ شيءٌ دونَهُ يقضي به الآنَ اللبيبُ العاقلُ
لا غروَ إلّا نسبةٌ مثبوتةٌ لِيُذَمَّ ذو تركٍ ويحمدُ فاعلُ

هذا آخر الباب الرابع عشر، وحاصله: تحويش العباد إلى الله وتحبيبه إليهم بذكر ما اشتمل عليه الحق سبحانه من الكرم والإحسان وغاية اللطف والمبرة والامتنان، وذلك أنه سبحانه منَّ علينا أولاً بالطاعة والعمل، وتفضّل علينا ثانياً بالقبول مع ما اشتمل عليه عملنا من النقص والخلل، ثم إذا وقعت منا معصية أو زلل غطانا بستره وبمغفرته لنا تفضلاً، وإذا توجهنا إليه بقلوبنا سترنا منها وعصمنا ليعظم قدرنا ويظهر شكرنا فنتخذه صاحباً وندع غيره جانباً، فحينئذ تشرق في قلوبنا أنوار اليقين ونرحل إلى الآخرة في أقرب حين، ثم تشرق علينا أنوار الإحسان، فتنطوي لنا رؤية الأكوان بشهود نور الملك الديّان فحينئذ ينشر محاسننا للعباد فيقبلون علينا بالثناء والمحبة والوداد، كما أبان هذا بقوله في أول الباب الخامس عشر.

[الباب الخامس عشر]

وقال رضي الله عنه:

139 - (الناس يمدحونك بما يظنون فيك فكن أنت ذاماً لنفسك بما تعلمه منها)

قلت: إذا مدحك الناس بشيء ليس هو موجوداً فيك، **فاعلم** أن ذلك هواتف من الحق يهتفون بك ويحوشونك إلى الزيادة، ويقولون لك الخير أمامك فلا تقنع بذلك ولا تركن إلى ما هنالك، بل ارجع إلى نفسك باللوم ولا يغرنك ثناء القوم، فإنهم لا يعلمون منك إلَّا الصوان الظاهر وأنت تعلم من نفسك اللبّ الباطن.

قال بعضهم: من فرح بمدح الناس فقد مكَّن الشيطان أن يدخل بطنه. وكان بعضهم(1) يقول: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لنا ما لا يعلمون. وإنما قلنا: مدائح الناس هواتف الحق إذ ليس في الوجود إلَّا الحق ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك، فأهل الفهم عن الله يستمعون إلى الخطاب، فإذا سمعوه مدحهم بشيء نظروا، فإذا كان فيهم علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر، وإن لم يجدوه فيهم علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام، ولهذا لما سمع أبو حنيفة قوماً يمدحونه بقيام الليل كله وكان لا يقوم إلَّا نصفه جعل يقوم الليل كله، وقد ذمَّ الله قوماً أحبوا أن يمدحوا بما لم يفعلوا، فقال: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ **[آل عِمرَان: الآية 188]**.

وقال المحاسبي رضي الله عنه: مثل الذي يفرح بمدح الباطل كمن يقال له: العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة المسك وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به اهـ.

* * *

ثم إنَّ ذمك لنفسك إذا توجه الخلق إليك بالمدح إنما هو حياء من ربك حيث ستر عيوبك وأظهر محاسنك، وهو الذي نبّه عليه بقوله:

---

(1) هو خليفة رسول الله ﷺ سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما أورده الإمام النووي في تهذيب الأسماء، باب أبي بكر الصديق، فصل في استخلافه [2/ 480].

140 ـ (المؤمن إذا مُدح استحى من الله أن يُثنَى عليه بوصف لا يشهده من نفسه)

قلت: قد تقرر أنَّ التحقيق ما ثمَّ إلَّا سابقة التوفيق. ومن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك، فإذا أطلق الثناء عليك بشيء لا نسبة لك فيه، وإنما أنت محل لظهوره فاستحي منه تعالى أن يثنى عليك بشيء تعلمه أنه من فعل غيرك، أو لم يظهر عليك شيء منه أصلاً، فإن مدحت بشيء زائد على ما ظهر فيك فاطلب منه القوة على المزيد فإن ربك فعّال لما يريد، ولا يضرّك مدحك بما تفعل إن لم تقصد التعرض للمدح، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: **«أتدرون من المؤمن، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذي لا يموت حتى يملأ مسامعه مما يحب، ولو أنَّ رجلاً عمل بطاعة الله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث الناس بذلك ويزيدون، قيل: يا رسول الله كيف يزيدون، قال: المؤمن يحب ما زاد في عمله»**[1] الحديث.

وفي حديث آخر: **«قيل: يا رسول الله الرجل يعمل العمل خفية ثم يتحدث الناس به فيفرح، فقال عليه السلام: «له الأجر مرتين، أجر العمل وأجر الفرح، فإن مدح بما ليس فيه واغترّ بذلك فهو جاهل بربه»**[2].

* * *

كما أشار إليه بقوله:

141 ـ (أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس)

قلت: اليقين الذي عنده: هو علمه بمساويه وخفايا عيوبه وما انطوت عليه سرائره من النقائص والتقصير. وظن ما عند الناس: هو ما يرون على ظاهره من الكمالات وأنوار الطاعات التي تصحبها العلل الباطنية والحظوظ النفسانية، فيتوجهون إليه بالمدح والثناء، فإذا قنع بذلك وفرح بما هنالك فهو أجهل الناس وأحمق الناس، إذ قد قنع بعلم الخلق ولم يخف من مقت الحق، والمطلوب من الفقير عكس هذا وهو أن ينقبض عند

---

(1) لم أجده بهذا اللفظ إنما روى حديثاً قريباً منه الترمذي في نوادر الأصول، في سر العمل وعلانيته [4/ 83] ونصه: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من المؤمن؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: المؤمن من لا يموت حتى يملأ مسامعه مما يحب ولو أن عبداً اتقى الله في بيت في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد ألبسه الله تعالى رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون والكلام مثل ذلك في فجوره، قيل: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال: إن التقي لو استطاع أن يزيد في بره لزاد والفاجر لو يستطيع أن يزيد في فجوره لزاد».

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

المدح وينبسط عند الذم حتى يستويان عنده، هذا إن كان المادح من أهل الدين والخير، وأما إن كان جاهلاً أو فاسقاً فلا غباوة أعظم من الرضى بمدحهم والفرح به.

فقد روي عن بعض الحكماء أنه مدحه بعض العوام فبكى، فقال له تلميذه: أتبكي وقد مدحك، فقال له: إنه لم يمدحني حتى وافق بعض خلقي خلقه، فلذلك بكيت.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: تزكية الأشرار هجنة لك وحبهم لك عيب عليك.

وقيل لبعض الحكماء: إن العامة يثنون عليك، فأظهر الوحشة من ذلك وقال: لعلهم رأوا مني شيئاً أعجبهم ولا خير في شيء يعجبهم ويسوؤني. اهـ. فينبغي للفقير أن يخفي محاسنه وأعماله التي يمدح عليها ويظهر ما يسقط به من أعينهم مما هو مباح كما تقدم في الخمول.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي [الدرقاوي] رضي الله عنه يقول: فينبغي للفقير ألا يكون صيته أكبر من قدمه بل يكون قدمه أكبر من صيته وقدره أكبر من دعواه. اهـ. فيكون جلالي الظاهر جمالي الباطن، فكل ما تظهره على ظاهرك من الجلال يدخل في باطنك قدره من الجمال، وكل ما تظهره من الجمال يدخل قدره في باطنك من الجلال، فتزيين الظواهر يخرِّب البواطن وتخريب الظواهر يزيِّن البواطن، فبقدر ما تخرب في الظاهر يكون عمارة في الباطن، وبقدر ما تعمر في الظاهر يكون خراباً في الباطن، ولله در شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه حيث قال في شأن الجهّال:

اتفقُّوا على الدينِ تركوهُ ... تعاندُوا في المالِ والكساوي
الثوبُ مِنْ فوقِ غسلُوهُ ... وخلُّوا القلبَ خاوِي

* * *

فإذا أظهرت الجلال وأخفيت الجمال ثم أطلق الثناء عليك الكبير المتعال بما لست له أهلاً فأثنِ عليه بما هو أهله كما أبان ذلك بقوله:

142 ـ (إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فاثن عليه بما هو أهله)

قلت: إذا أطلق الله تعالى الثناء عليك على ألسنة خلقه بما لا تعلمه من نفسك ولست بأهل له فاثن على الله بما هو أهله، أي بما يستحقه من التعظيم ليكون ذلك شكراً لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك، وأيضاً فإنه هو الذي ستر عنهم مساويك وأظهر لهم محاسنك، ولو أظهر لهم ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك فإن العبد محل النقائص والحق تعالى محل الكمالات، فكل ما ظهر عليك من الكمالات فإنما هي رشحة من

كمالاته تعالى. فالثناء في الحقيقة إنما هو لله، فإذا وقع عليك فرده أنت إلى أصله، وفي الحقيقة ما وقع إلَّا في أصله، ولكن لما اختلف القصد اختلف الحكم.

أثنى على بعض السادات وهو ساكت، فقيل له في ذلك فقال: وما عليّ من ذلك ولست أغلط في نفسي بل لست في البين، والمجرى والمنشىء هو الله تعالى. اهـ. هذه حالة أهل الجمع.

وكان بعض السادات يستعمل الفرق إذا سمع الثناء عليه ألقى على رأسه التراب في خلوته.

فالناس في حالة المدح والذم على ثلاثة أقسام:

قسم يفرحون بالمدح ويكرهون الذم لأن نفوسهم غالبة عليهم، ولا شك أنها تفرح بالعز والرفعة وتنقبض بالذم والضعة وهم العوام الغافلون.

وقسم يكرهون المدح ويحبون الذم لأنهم في مجاهدة نفوسهم فكل ما يؤلمها ويقتلها أقبلوا عليه وكل ما يحييها ويقوّيها فروا منه، وهم العباد والزهاد والسائرون من المريدين.

وقسم يفرحون بالمدح لشهوده من مولاهم وينقبضون من الذم لشهودهم جلال من به تولاهم، وهم العارفون.

* * *

وقد أشار إلى القسم الثاني والثالث بقوله:

143 ـ (الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق)

قلت: أما العباد والزهاد فلأنهم محجوبون برؤية الخلق عن شهود الحق، فإذا مدحوا شهدوا ذلك من الخلق وحجبوا عن الجمع بالفرق فانقبضوا وخافوا على نفوسهم أن تغترّ بذلك أو تقف هنالك، وهم عاملون على ما تموت به نفوسهم وتحيا به قلوبهم. ولا شك أن المدح لها فيه حظ وافر، فربما تميل إلى ذلك فتعتقد المزية على الغير فيوجب لها التكبر والرضى[1]، وهما أصل كل معصية. وأما الذم فلا حظ لها فيه وإنما فيه موتها وفي موتها حياتها، فلذلك إذا مدحوا انقبضوا وإذا ذموا انبسطوا،

---

(1) والرضى: أي الرضى عنها وهي أمارة بالسوء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: الآية 53]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾. وقال العارفون: نفسك ما دامت بك حية فهي لك حية.

وسكت عنه الشيخ وكأنه يؤخذ بالمفهوم.

وأما العارفون الواصلون فلأنهم فانون عن أنفسهم باقون بربهم غائبون عن الخلق بشهود الملك، فإذا أثني عليهم رأوا ألسنة الخلق أقلام الحق وشهدوا الجمع في عين الفرق ففرحوا بمدح مولاهم وانبسطوا عند من تولاهم، فيزدادون له حباً وشوقاً ويفنون فيه شغفاً وعشقاً، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «**إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه**»[1] وإذا ذمُّوا انقبضوا سكوناً تحت قهرية الحق وأدباً مع جلاله، وليس في هذا الانقباض دليل على كراهية الذم من حيث نسبته للخلق، لأنهم يرون الخلق مصرفين بقدرة الحق، وعلامة ذلك أنهم يسمحون لمن أجرى ذلك عليه بل يتعطفون عليه ويتوددون بالمحبة إليه، كما قال الشاعر:

رُبَّ رامٍ لي بأحجارِ الأذى لم أجدْ بداً مِنَ العطفِ عليهِ
فعسَى يطلعُ اللَّهُ على فرحِ القومِ فيدنيني إليهِ

وفي تعبير آخر: الناس في المدح والذم على أربعة أقسام: عوام جهال، وعباد زهاد، ومريدون سالكون، وعارفون واصلون.

فأما العوام: فنفوسهم غالبة عليهم ودائرة الحس محيطة بهم محط نظرهم الخلق غافلون عن طلب الحق، إذا مدحوا وأقبل عليهم الخلق فرحوا وبطروا لنيل مرادهم وتحصيل أغراضهم، والنفس الأمارة مجبولة على حب الإمارة، وإذا ذمُّوا وأدبر عنهم الحق انقبضوا وحزنوا لفوات ما أملوا فهؤلاء قلوبهم خربة من النور.

وأما العباد والزهاد فهم مجتهدون في العبادة فارون من الخلق طالبون رضى الحق مستوحشون من الناس، تحققوا منهم الإياس، فإذا أقبلوا عليهم بالمدح والثناء انقبضوا وخافوا أن يشغلوهم عما هم فيه، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق فرحوا وانبسطوا لتفرّغهم حينئذ للعبادة وإقبالهم على ما هم عليه من المجاهدة.

وأما المريدون السالكون فهم عاملون على قتل نفوسهم وحياة قلوبهم، فإذا ذمُّوا وأدبر الخلق عنهم فرحوا لما في ذلك من موت نفوسهم وحياة قلوبهم، وإذا مدحوا انقبضوا خوفاً على قوة نفوسهم وضعف قلوبهم، إذ في موت النفس حياة القلوب وفي حياة القلوب موت النفوس.

وأما العارفون، فقد ظفروا بنفوسهم ووصلوا إلى شهود معبودهم، فهم

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر أسامة بن زيد بن حارثة. . .، حديث رقم (6535) [3/ 690] ورواه الطبراني في المعجم الكبير، عن أسامة بن زيد، حديث رقم (424) [1/ 170] ورواه غيرهما.

يستأنسون بكل شيء لمعرفتهم في كل شيء، يأخذون النصيب من كل شيء ويفهمون عن الله في كل شيء، فإذا مدحوا انبسطوا بالله لشهودهم المدح من الله وإلى الله ولا شيء في الكون سواه، وليس أحد أحب إليه المدح من الله كما في الحديث، وإذا ذمُّوا انقبضوا تأدباً مع جلال الله أو شفقة على عباد الله **«من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب»**(1) فصار بسطهم بالله وقبضهم بالله واستغنوا به عما سواه.

وبهذا المعنى وهو الفناء على النفوس صح مدحهم لأنفسهم تحدثاً بما أنعم الله عليهم، كالشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه والشاذلي والمرسي والشيخ زروق وأشباههم رضي الله عنهم، وذلك مشهور عنهم نظماً ونثراً، ومن أجل ذلك أيضاً أقرُّوا من مدحهم وأظهروا الانبساط عند مدحهم.

وللمؤلف رحمه الله قصائد في مدح شيخه أبي العباس، وكان يقول له: أيّدك الله بروح القدس، كما كان يقول عليه السلام لحسان بن ثابت رضي الله عنه حين يمدحه عليه السلام.

ومدح الشيوخ من أعظم القربات وأقرب الوسائل إلى الوصول إذ هم باب الله الأعظم ويد الله الآخذة بيد الداخلين إلى الحضرة، فمن مدحهم فقد مدح الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: الآية 10]، ومن ذمّهم فقد ذمّ الله.

وكذلك مدح الرسول ﷺ هو باب عظيم في الوصول إلى حضرة الكريم، فإن قلت قوله عليه السلام: **«احثوا التراب في وجوه المادحين»**(2) يقتضي العموم فيصدق بمدح العارفين وغيرهم، قلت: هو محمول على المدح بالكذب على وجه الطمع كما يقع للملوك وأرباب الأموال طمعاً فيما عندهم، أو يحمل على من كان باقياً مع نفسه خائفاً عليها كالعباد والزهاد، فإذا مدحهم أحد فينبغي أن يزجروه ويحثوا في وجهه التراب. قيل: حقيقة، وقيل: كناية عن الخيبة والرد والنهي والزجر.

وأما العارفون المتحققون، فقد عرفوا الممدوح وغابوا عن شهود الواسطة في المادح والممدوح نفعنا الله بذكرهم وخرطنا في سلكهم آمين.

* * *

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (6137) [5/ 2384] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب من الثقة بالله، حديث رقم (347) [2/ 58] ورواه غيرهما.

(2) أورده العيني في عمدة القاري، باب ما يكره من التمادح [22\132] والشوكاني في نيل الأوطار، باب النهي عن بيع فضل الماء، ورواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن المدح. . . و بلفظ: أمرنا رسول الله ﷺ: "أن نحثي في وجوه المداحين التراب". حديث رقم (3002) [4\2297] ورواه غيره.

ثم من علامة الكمال تحقيق الاعتدال واستواء الأحوال في ثمانية خصال: المدح والذم والعز والذلّ والقبض والبسط والمنع والعطاء. وقد تقدم بعضها. وأشار إلى الأخيرتين بقوله:

144 ـ (ومهما كنت إذا أعطيت بسطك العطاء وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك في عبوديتك)

قلت: الطفولية والتطفل: هو الدخول في قوم وليس منهم ولم يستأذنهم، والطفيلي: هو الذي يأتي للوليمة من غير دعوة وهو منسوب إلى رجل من أهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان كان يقول له طفيل الأعراس، كان يأتي إلى الولائم من غير أن يدعى إليها. فشبه المؤلف به من دخل مع القوم ولم يتحقق بما تحققوا به من استواء الأحوال، فإذا كنت أيها الفقير إذا أعطيت حظوظك ومناك واتصلت بعوائدك وهواك من الغنى والعز والجاه والبسط والصحة والعافية وغير ذلك من الحظوظ والشهوات، انبسطت وفرحت، وإذا منعت من حظوظك وشهواتك وأبدلك [الله تعالى] الغنى بالفقر والعز بالذل والجاه بالخمول والبسط بالقبض والصحة بالمرض والعافية بالبلية انقبضت وجزعت. فاستدل بذلك على ثبوت تطفلك على كلامهم ولا نسبة لك من مقامهم، وإنما أنت طفيلي الأعراس ما زلت في غفلة النعاس، واستدل بذلك أيضاً على عدم صدقك في عبوديتك إذ الصدق في العبودية يقتضي استواء النعمة والبلية، كما قال الشاعر:

أحبايَ أنتمُ أحسَنَ الدهرُ أم أسَا   فكونُوا كمَا شئتُم أنَا ذلكَ الخِلِّ

قال أبو عثمان الحيري رضي الله عنه: لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع والعطاء والعز والذل اهـ. فإذا كان الفقير يتضعضع عند الجلال وينهزم عند حملة الأبطال، **فاعلم** أنه ضعيف الحال متطفل على مقامات الرجال.

قال في التنوير [في إسقاط التدبير]: وقد ابتلى الله بحكمته ووجود منّته الفقراء الذين ليسوا بصادقين بإظهار ما كتموا من الرغبة وأسرُّوا من الشهوة، فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم ملايمين لهم موافقين لهم على ملذوذاتهم مدفوعين على أبوابهم، فترى الواحد منهم يتزين كما تتزين العروس معتنون بإصلاح ظواهرهم غافلون عن إصلاح سرائرهم، ولقد وسمهم الحق بسمة كشف بها عوارهم وأظهر أخبارهم فبعد أن كانت نسبته أن لو صدق مع الله أن

يقال فيه عبد الكبير، فخرج من هذه النسبة لعدم صدقه فصار يقال له: شيخ الأمير، أولئك الكاذبون على الله الصادون العباد عن صحبة أولياء الله، لأن ما يشهده العموم منهم يسحبونه على كل منتسب لهم صادق وغير صادق، فهم حجب أهل التحقيق وسحب شموس أهل التوفيق ضربوا طبولهم ونشروا أعلامهم ولبسوا دروعهم، فإذا وقعت الحملة ولُّوا على أعقابهم ناكصين، ألسنتهم منطلقة بالدعوى وقلوبهم خاوية من التقوى، ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية 8] أترى إذا سأل الصادقين عن صدقهم أيترك المدعين من غير سؤال، ألم يسمعوا قوله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: الآية 105] فهم في إظهار زي الصادقين وعملهم عمل المعرضين، كما قال القائل:

أمّا الخيامُ فإنَّها كخيامِهِم ... وأرَى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائِهَا

لا والذي حجَتْ قريشُ بيتَهُ ... مستقبلينَ الركنَ من بطحائِهَا

ما أبصرتْ عيني خيامَ قبيلةٍ ... إلا بكيتُ أحبتي بفنائِهَا

هذا آخر الباب الخامس عشر. **وحاصله**: آداب المريد في المدح والذم، ومرجعها إلى خمسة:

الأول: ذمّ النفس عند مدحها بما ليس فيها.

الثاني: استحياؤه من الله أن يمدح بوصف لا يشهده من نفسه.

الثالث: أن يرجع إلى يقين ما عنده فيعول عليه ولا يغترّ بظن ما عند الناس فيعتمد عليه.

الرابع: أن يكثر من الحمد والشكر لمولاه حيث ستر عيوبه وأظهر توفيقه وهداه.

الخامس: أن يكون معتدل الحال سليم القلب فلا يحزن عند الذم ولا يفرح عند المدح.

قال بعض العارفين: إذا قيل لك نِعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل اهـ.

وجاء رجل إلى شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه فجعل يمدحه في وجهه، فقال له: يا هذا لا تغرني بقولك أنا أعرف نفسي حين أكون أفضل الوجود أو أقل الوجود، فالوقت الذي نكون فيه ذاكراً لربي أنا أفضل الوجود، والوقت الذي لا

نذكر الله فيه أنا أقل الوجود، أو كلام هذا معناه.

لكن هذا الأدب الخامس يختلف باختلاف الأحوال، فالعباد يغلِّبون حب الذم على المدح، والعارفون يغلِّبون حب المدح على الذم، أو يعتدلون كما يعتدلون في حال المنع والعطاء والقبض والبسط والذل والعزّ والفقر والغنى وغير ذلك من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار. ومن جملة ذلك الخوف والرجاء بحيث إذا صدرت منهم طاعة لا يزيد رجاؤهم، وإذا وقعت منهم زلّة لا يعظم خوفهم ولا تنقص استقامتهم، كما أشار إلى ذلك في أول الباب السادس عشر بقوله:

[الباب السادس عشر]

وقال رضي الله عنه:

145 ـ (إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك)

قلت: السائر الصّديق أو الواصل إلى التحقيق كالراكب المغير جاداً في المسير كاد من السرعة أن يطير، فإذا وقعت منه كبوة أو سقطة أو صدرت منه عثرة أو هفوة استوى على جواده واستمر على إغارته في طلب مراده، فإذا سقط وجعل يتمرغ في سقطته كان ذلك دليلاً على فترته وعدم تحصيل طلبته، فإذا وقع منك أيها الفقير ذنب فلا يكن سبباً في قطعك عن الله أو يؤيسك من الاستقامة مع الله، فيتضاعف عليك وبال المعصية وتعظم في حقك المصيبة والبلية، فقد يكون ذلك رحمة بك وتنبيهاً لك من سِنتك كحصول ملل وفترة، فإذا سقطت نهضت وإذا قمت جددت، وقد يكون ذلك آخر ذنب قدّره الله عليك.

وتأمل ما وقع لكثير من الأكابر كانوا لصوصاً فصاروا خصوصاً، كإبراهيم بن أدهم والفضيل [بن عياض] وأبي يعزى وغيرهم ممن لا يحصى، فليكن لك بهم أسوة في حسن الظن بالله.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية 53] الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجر: الآية 56]، وقال تعالى: ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية 87].

وقال رسول الله ﷺ: **«كل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون»**[1]. وقال عليه السلام: **«إن الله يحب كل مفتن تواب»**[2] يعني كثير الذنب كثير التوبة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 222] فهذه الآيات تقويّ

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، حديث رقم (7617) [4/ 272] وابن ماجه في سننه، باب ذكر التوبة، حديث رقم (4251) [2/ 1420] ورواه غيرهما.

(2) ورد بلفظ: «خياركم كل مفتن تواب» رواه البزار في مسنده، باب ما روى النعمان بن سعد عن علي، حديث رقم (700) [2/ 280] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (1271) [2/ 239] ورواه غيرهما.

رجاء العباد وتوجب الاعتدال والسداد.

* * *

وقد بيَّن أصل الرجاء والخوف ومنشأهما، فقال:

146 ـ (إذا أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك، وإذا أردت أن ينفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه)

قلت: إذا أردت أيها الإنسان أن يتقوّى رجاؤك في الكريم المنان فاشهد ما منه إليك من الإحسان واللطف والمبرة والامتنان، فهل عوّدك إلَّا حسناً، وهل أسدى إليك إلَّا مِنناً، عليك بسط منّته ولك هيّأ جنته، أنعم عليك في هذه الدار بغاية الإنعام وما قنع لك بذلك حتى أعد لك دار السلام باقية مستمرة على الدوام، ثم أتحفك بالنظر إلى وجهه الكريم تماماً على سابق إحسانه القديم.

وإذا أردت أن ينفتح لك باب الحزن والخوف فاشهد ما منك إليه من الإساءة والتقصير في العبادة أو من موافقة الشهوة والاسترسال مع الغفلة، فإنك إن شهدت ذلك دام حزنك وقوي خوفك وربما كان سبباً في سوء ظنك بربك فتزل قدم بعد ثبوتها. وفي الحديث: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهو الغفور الرحيم»**[1] فدل الحديث على أن شهود الكرم أفضل عند الله من شهود الانتقام.

«وخصلتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر، سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله»[2] كما في الحديث.

وبقيت مرتبة ثالثة وهي الغيبة عن الرجاء والخوف بشهود ما منَّ الله إلى الله وهو مقام أهل الشهود، فلذلك اعتدل أمرهم في جميع الأحوال، نفعنا الله بذكرهم آمين.

* * *

ثم إن ثمرة الرجاء ونتيجته البسط، وثمرة الخوف ونتيجته القبض، فلذلك ذكره

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث رقم (2749) [4/ 2106]، وأحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (8068) [2/ 309] ورواه غيرهما، والحديث ليس في آخره جملة (وهو الغفور الرحيم).

(2) نصف الحديث الأخير رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب حديث رقم (2988) [2/ 199] ونصه: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر، الشرك بالله والضر بعباد الله».

بعدهما فقال:

147 ـ (ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً)

قلت: القبض والبسط حالتان يتعاقبان على الإنسان كتعاقب الليل والنهار، فالليل محل السكون والقرار، والنهار محل التحرك والانتشار. القبض لا حظ فيه للنفس، والبسط تأخذ النفس حظها منه، وما لا حظ فيه للنفس أقرب للسلامة وأعظم للإفادة، فالقبض كالليل والليل محل المناجاة والمصافاة وملاقاة الأحباب ورفع الحجاب، فربما أفادك في ليل القبض من انخناس النفس وذهاب الحس وموالاة الأنس ما لا تستفيده في نهار البسط، من تحصيل العلوم وتحقيق الفنون ومجالسة الأخيار ومخالطة الأبرار، فالقبض له فوائد والبسط له فوائد، والعبد لا يدري أيهما أقرب له نفعاً، فتعيّن الوقوف مع ما يواجهه من جهة الحق فيتلقاه بالقبول والأدب.

وقد تقدم آداب كل واحد منهما عند قوله: بسطك كي لا يتركك مع القبض الخ، فلا تطلب البسط إن واجهك بالقبض ولا تطلب القبض إن واجهك بالبسط فقد تستفيد من أحدهما ما لا تستفيده من الآخر فلا تدري أيهما أنفع ولا أيهما أضر، ولذلك استدل بالآية التي نزلت في ميراث الأب من الابن فالبسط كالأب لأنه ناشىء من شهود ما منه إليك، وهو فعل الحق الذي صدر منه كل موجود وهو الأصل، والقبض كالابن لأنه ناشىء من شهود ما منك إليه وهو الفرع إذ الفعل كله من القدرة. وأما الحكمة فإنما هي تغطية.

* * *

وإذا كان العبد جاهلاً بمنفعتهما كجهله بالأنفع من الآباء والأبناء، تعيّن متابعة الحق باتباع مراده وانتهاجه حاله من غير تحول ولا انتقال ولا تشوف إلى غير ما هو فيه من ذلك الحال، فبذلك يتنوّر قلبه ويتطهر سرّه ولبّه فتنكشف عنه الحجب والأستار، ويتهيّأ لحمل الأنوار والأسرار كما أبان ذلك بقوله:

148 ـ (مطالع الأنوار: القلوب والأسرار)

قلت: المطالع: جمع مطلع وهو محل طلوع الشمس وغيرها، والأنوار هنا: الواردات والكشوفات التي تكشف الحجب وترفع رداء الصون عن مظاهر الكون، وقد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر عند كثير من الصوفية شيء واحد وما هي إلّا الروح تتطور بحسب التصفية والترقّية.

فما دامت مشغولة بحظوظها وشهواتها فهي نفس ونورها مكسوف.

فإذا انزجرت وعقلت بعقال الشرع إلَّا أنها تميل إلى المعاصي والذنوب، فتارة تعصي وتتوب، وتارة تحن وتؤوب، سميت عقلاً ونورها قليل لأنها محبوسة في سجن الأكوان معقولة بالدليل والبرهان.

فإذا سكنت عن المعاصي إلَّا أنها تنقلب بين الغفلة واليقظة وبين الاهتمام بالطاعة والمعصية.

سمّيت قلباً وهو أول مطالع الأنوار فتشرق عليه أنوار التوجه فلا تزال تترادف عليه الواردات، وهي أنوار التوجه حتى يسكن إلى الله ويطمئن بذكر الله، فحينئذ تسمى روحاً وهو أول مطالع أنوار المواجهة، فبهذه الأنوار ينكشف الحجاب وينفتح الباب وتدخل في حضرة الأحباب.

فإذا تصفَّت من غبش الحس وتطهرت من كدر الأغيار سمّيت سرّاً وهو أول مطالع أنوار المشاهدة.

فإذا تزكّت من لوث الأنوار وهو الوقوف مع المقامات أو الالتفات إلى الكرامات، سمّيت سر السر وهو أول مطالع أنوار المعاينة والمكالمة ثم لا حال ولا مقام ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: الآية 13] فارجعوا.

وأما الترقّي في العلوم والمعارف فلا نهاية له على الأبد، فالقلوب مطالع ومشارق أنوار التوجه والأسرار مطالع ومشارق أنوار المواجهة، والمشاهدة والمعاينة والروح والسر قريب بعضها من بعض في المرتبة فلذلك سكت الشيخ عن الأرواح لاندراجها في الأسرار.

والحاصل: أنَّ النفوس والعقول الظلمة غالبة عليهما لانهماكهما في الحس وفنائهما في الغلس والخنس، فليستا مطلعاً لشيء من النور لعدم توجههما إلى الكريم الغفور، وأما القلب والروح والسر فهي مطالع الأنوار، أي محل طلوعها وإشراقها إلَّا أن القلب مطلع لأنوار التوجه والروح والسر مطلعان لأنوار المواجهة، وقد تقدم تفسيرهما عند قوله: اهتدى الراحلون الخ. وقد سوّى الشيخ بينهما، ومراده ما ذكرناه والله تعالى أعلم.

* * *

ثم بيَّن ابتداء مطلع هذا النور وهو القلب، ثم يشرق على الروح ثم على السر، فقال:

149 ـ (نور مستودع في القلوب مدده النور الوارد من خزائن الغيوب)

قلت: النور المستودع في القلوب، هو نور اليقين، ويكون أولاً ضعيفاً كنور النجوم وهو نور الإسلام، ثم لا يزال يتقوى ويستمد من النور الوارد من خزائن الغيوب حتى يكون كنور القمر، وهو نور الإيمان، ثم لا يزال ينمو بالطاعة والذكر والصحبة حتى يكون كنور الشمس وهو نور الإحسان.

وخزائن الغيوب: هي أنوار الصفات، وأسرار الذات، فمنها تستمد أنوار الإسلام وأنوار الإيمان، ثم تشرق أنوار الإحسان فيتغطى وجود الأكوان.

قال في التنوير: ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان، اهـ.

واعلم أن وجه اصطلاح الصوفية رضي الله عنهم في ترتيب الإسلام أولاً، ثم الإيمان، ثم الإحسان. إن العبد ما دام مشغولاً بالعبادة الظاهرة الحسية سمي ذلك المقام مقام الإسلام، فإذا انتقل العمل للقلب وهو اشتغاله بتصفية القلب بالتخلية والتحلية وتحقيق الإخلاص سمي ذلك مقام الإيمان، فإذا انتقل العمل للروح وللسر وهو الفكرة والنظرة سمي مقام الإحسان بخلاف الفقهاء فإنهم يقدمون الإيمان على الإسلام، فيقولون: لا يصح شيء دون الإيمان ولا مشاحة في الاصطلاح ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 60].

قال بعض المحققين: **اعلم** أن لعالم الملك وهو عالم الشهادة أنوار ظاهرة، ولعالم الملكوت وهو عالم الغيب أنوار باطنة. وأشهر ما في عالم الملك ثلاثة أنوار: نور الشمس ونور القمر ونور النجوم، ويقابلها من عالم الملكوت نور المعرفة ونور الفهم ونور العلم. فبطلوع نجم العلم في ليل الجهل تبدو الآخرة والأمور الغيبية. وبطلوع قمر الفهم في أفق التوحيد يشاهد قرب الحق. وبطلوع شمس المعرفة في أفق التفريد يقوى اليقين ويلوح وجه المشاهدة. وأول نور يلج في الصدر نور الإسلام، فإذا انشرح القلب به انقذف فيه نور الإيمان فإذا تقوى فيه صار شهوداً. اهـ المراد منه.

قلت: وبهذا النور وسع القلب معرفة الحق وهو الذي أشار إليه في الحديث القدسي: **«لن يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»**[1] فانظر هذا

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2256) [2/ 255]، ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب بلفظ: «لا يسعني شيء ووسعني قلب عبدي المؤمن إذا ألبسته لبسة أحبائي».

القلب الذي وسع الرب سبحانه ما أعظمه وأجله، فتحبّب يا أخي إلى أرباب هذه القلوب التي وسعت علَّام الغيوب حتى يوصلوك إلى ما وصلوا إليه من علم الغيوب، وبالله التوفيق.

* * *

ثم ذكر ثمرة النور وهي الكشف عن حقائق الأشياء، فقال:

150 - (نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به عن أوصافه)

قلت: أصل النور من حيث هو الكشف، فالنور الحسي يكشف عن المحسوسات، والنور المعنوي يكشف عن المفهومات. أو تقول: نور الحس يكشف عن الأواني والنور المعنوي يكشف عن المعاني، ولا عبرة برؤية الأواني خاوية عن المعاني. ثم إن النور المعنوي ينقسم على ثلاثة أقسام باعتبار القوة والضعف.

فنور الإسلام الذي هو كالنجوم يكشف لك الحق تعالى به عن وجود آثاره فتستدل بها على صانعها.

ونور الإيمان الذي هو كالقمر يكشف لك به عن ثبوت أوصافه فلا يتحرك شيء أو يسكن إلَّا تراه بقدرة الله وإرادته وعلمه وحياته إلى آخر صفاته.

ونور الإحسان يكشف لك به عن حقيقة ذاته فلا ترى شيئاً إلَّا رأيت صانعه فيه بواسطة تجلياته ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النُّور: الآية 35] فنهاية كشف النور الأول الفناء في الأفعال، ونهاية كشف النور الثاني الفناء في الصفات، ونهاية كشف النور الثالث التمكين في الفناء في الذات.

واستغنى الشيخ عن النور الثالث بذكر النور الثاني لأن الفناء في الصفات قريب من الفناء في الذات لأن الصفات لا تفارق الموصوف، فمن كان يرى سمعه بالله وبصره بالله وحركته بالله يرى وجوده بالله ولذلك استغنى بعضهم بالفناء في الذات عن الفناء في الصفات لتقاربهما فمهما تحقق أحدهما تحقق الآخر والله تعالى أعلم.

ويحتمل أن يريد بقوله: نور يكشف لك به عن آثاره النور الحسي المدرك بالبصر الحسي ونور يكشف لك به عن أوصافه نور البصيرة المعنوي، وعليه اقتصر الشيخ ابن عباد [النفري] رضي الله عنه، لكن نور البصر الحسي لا يستقل بإدراك المؤثر في الأثر ما لم تمده الأنوار الباطنية العقلية، فالمدار إنما هو على الأنوار الباطنية. وأما الحسية فمدركة لكل أحد حتى البهائم فلا خصوصية لها وبالله التوفيق.

* * *

ثم المطلوب من العبد هو الترقي من نور شهود الأثر إلى نور الصفات، ثم إلى نور شهود الذات، وقد تقف بعض القلوب مع النور الأول فتحجب عن الثاني ومع الثاني فتحجب عن الثالث كما أبان ذلك بقوله:

151 ـ (ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار)

قلت: قد تقف بعض القلوب مع أنوار المقامات دون الوصول إلى الغايات فتحجب عن الوصول كما حجبت النفوس بكثائف المحسوسات عن إدراك لطائف المعاني والمفهومات، وذلك إما لعدم شيخ التربية أو لضعف الهمّة عن الترقية، فقد ينكشف لبعض القلوب عن سر توحيد الأفعال فتفنى في العمل وتذوق حلاوته فتقف معه وهواتف الحقيقة تناديها الذي تطلبه أمامك، وقد ينكشف لها عن سر توحيد الصفات وتلوح لها أنوار المقامات كتحقيق الزهد والورع وصحة التوكل والرضى والتسليم وحلاوة المحبة والاشتياق إلى غير ذلك، فتقنع بذلك وتقف هنالك والمطلوب هو الكشف عن سر توحيد الذات وأنوار الصفات، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النّجم: الآية 42].

فالنور عبارة عن الحلاوة والقوة التي يجدها المريد في باطنه من مزيد إيمان وقوة إيقان، فحلاوة الخدمة لأهل الفناء في الأفعال، وحلاوة الذكر الحسي اللساني أو القلبي لأهل الفناء في الصفات مع الحجاب، وحلاوة الفكر والنظرة لأهل الفناء في الذات. وإن شئت قلت: ربما وقفت القلوب مع أنوار الأحوال فتحجب عن مقامات الرجال، أو مع أنوار المقامات فتحجب عن معرفة الذات، ولذلك قال الشيخ ابن مشيش لتلميذه أبي الحسن [الشاذلي]: أشكو إلى الله من برد الرضى والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار. خاف رضي الله عنه أن يحجب بحلاوة الرضى والتسليم عن شهود الذات.

واعلم أن الوقوف مع الأحوال أو المقامات إنما هو من عدم الوصول إلى الشيخ، وأما من صحب الشيخ وأكثر الوصول إليه فلا بد أن يرحله إلى المقصود إلّا أن يرى همّته ضعيفة لا تطيق أنوار الشهود فيتركه على ما هو عليه حتى تنهض همّته إلى شهود المعبود.

وشبَّه الشيخ رضي الله عنه حجب القلوب بالأنوار بحجب النفوس بالأغيار لاشتراكهما في الحجب عن الله، لكن حجب النفس بالأغيار أشد لأنها ظلمة والظلمة أشد حجاباً من النور. فالقلوب نورانية حجبت بالنور، والنفوس ظلمانية حجبت بالظلمة، وكثائف الأغيار هي ما ظهر من بهجة الدنيا وزخرفها وغرورها

وزهرتها، وهي التي أشار إليها الحق تعالى بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: الآية 14] الخ الآية، ويدخل فيها ما يلائمها من حب الجاه والرياسة وحب المدح والتعظيم وغير ذلك من شهواتها وعوائدها، وهي التي حجبت جل الناس وساقتهم إلى الخيبة والإفلاس، نسأل الله العصمة بمنِّه وكرمه.

ويدخل في الأغيار العلوم العقلية واللسانية، فالاشتغال بها والوقوف مع حلاوتها من أشد الحجب عن معرفة الله، أعني المعرفة الخاصة. ويدخل فيها أيضاً الكرامات الحسية كالطيران في الهواء والمشي على الماء، فالوقوف مع ذلك من أشد الحجب أيضاً، ولذلك قال بعضهم: أشد حجاباً عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد، فسبحان من حجب العلماء بعلمهم عن معلومهم، والعباد بعبادتهم عن معبودهم، والصالحين بصلاحهم عن مصلحهم، والله من وراء ذلك كله. وفي ذلك يقول الششتري رحمه الله:

تقيّدتَ بالأوهام لما تداخلَتْ ... عليكَ ونورُ العقلِ أورثَكَ السّجنَا

وهمتَ بأنوارٍ فهمْنَا أصولَهَا ... ومنبعَهَا مِنْ أينَ كانَ فمَا هِمْنَا

وقدْ تحجبُ الأنوارُ للعبد مثلَ ... ما تبعدُ من إظلامِ النَّفسِ حَوَتْ ضغنَا

* * *

وحكمة وجود هذه الأنوار الحسية والأغيار الظلمانية تغطية وستر لأنوار السرائر الباطنية كما أبان ذلك بقوله:

152 ـ (ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار)

قلت: أنوار السرائر: هي العلوم اللدنية والمعارف الربانية، ويجمعها علم الربوبية الذي يجب كتمه عن غير أهله ومن أباحه أُبيح دمه وهو الذي قتل بسببه الحلاج. وكثائف الظواهر: هي البشرية الظاهرة، أو تقول: أنوار السرائر هي الحرية الباطنية، وكثائف الظواهر هي العبودية الظاهرية. أو تقول: أنوار السرائر هي علم القدرة الباطنية وكثائف الظواهر هي علم الحكمة الظاهرة، فأنوار السرائر معان لطيفة رقيقة سترها الله تعالى بالكثائف الظاهرة ولذلك وقع الإنكار على أهلها قديماً وحديثاً حتى قال الكفار: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: الآية 7]، وقالوا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون: الآية 33]. ووقوع الإنكار على أولياء الله سنّة ماضية وحكمة ذلك إجلال وتعظيم لها أن تبتذل وتظهر بوجود الإظهار، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار فلا يبقى لها سر ولا عز ولهذا طلب الأولياء بالخمول واستعمال الخراب والتلبيس. قال الششتري رضي الله عنه:

إذا رأيتَ الوجودَ	قدْ لاحَ في ذاتِك
هودس ولازم الجحودَ	ذاتَكْ صفاتِك
واضرب بتُرسِكَ الـ	ـعقودَ وألقِ عصاتِك

والتهودس: التحمق. والترس: ما يستر به الإنسان مواقع النبل. والمراد بالعقود: العلائق والشواغل، أي اضرب بسيف عزمك علائقك وعوائقك، وإلقاء العصي كناية عن طرح كل ما يستند إليه أو يعتمد عليه من أصحاب أو أحباب أو أسباب أو حول أو قوّة أو غير ذلك مما يقع الركون إليه.

ويحتمل أن يريد بأنوار السرائر معاني الصفات السارية في الذات، وبكثائف الظواهر المحسوسات الظاهرة فلا ظهور للصفات إلّا بالذوات الحسيَّة ولا قيام للذوات إلّا بالصفات، فستر الله سبحانه صفاته الأزلية اللطيفة بظهور الذوات البشرية الكثيفة صوناً لسرّ الربوبية أن يبتذل بالإظهار أو ينادى عليه بلسان الاشتهار.

والحاصل: أن الأشياء كلها قائمة بين ذات وصفات، بين حس ومعنى، بين قدرة وحكمة، فستر الحق سبحانه معاني أسرار الذات اللطيفة بظهور الذوات الكثيفة، وستر المعنى اللطيف بالحس الكثيف، وستر القدرة بالحكمة، والكل من الله وإلى الله ولا موجود سواه، وهذه الكثائف الظاهرة هي أردية وقمص للمعاني اللطيفة. أو تقول: هي رداء الصون الذي نشر على الكون، فإذا انهتك الرداء أو قطع بقي المعنى سالماً. فالتصرفات القهرية إنما تجر الأردية والستور دون المعاني والنور، فالحق منزّه ومقدّس أن يلحقه ما يلحق العبيد، فلتكف عن طلب المزيد والعجز عن الإدراك من وصف العبيد، وقد مثّلوا أيضاً كمون المعاني اللطيفة في الأشباح الكثيفة بالحبوب اليابسة في الأغصان الرطبة، فهي كامنة مستترة، فإذا نزل المطر اخضرت الأشجار وأخرجت الثمار التي كانت كامنة فيها. وإلى هذا المعنى أشار ابن البناء في مباحثه الأصلية حيث قال:

وهـيَ مـنَ الـنـفـوسِ فـي كُـمُـون   كـمَـا يـكـونُ الـحَـبُّ فـي الـغُـصُـون
حـتـى إذا أرعـدَتْ الـرعـودُ   وانـسـكـبَ الـمـاءُ ولانَ الـعـودُ
وجـالَ فـي أغـصـانـهَـا الـريـاحُ   فـعـنـدَهَـا يـرتـقـبُ الـلُّـقَـاح

هذا آخر الباب السادس عشر، **وحاصله**: آداب السائر في حال سيره بحيث لا يقف مع معصية ولا يركن إلى طاعة ولا يغلب عليه خوف ولا رجاء ولا قبض ولا بسط، بل يبرز من الغيب فيتلقاه بالمعرفة والرحب، فإذا فعل ذلك أشرقت عليه الأنوار فتخرجه من رقّ الآثار حتى تفضي به إلى شهود الملك القهار، لكن لا بد للحسناء من نقاب وللشمس من سحاب ولليواقيت من صوان، فخفيت الأنوار بكثائف الأغيار إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار. فمن أجل ذلك أخفى أولياءه في خلقه فلا يطلع عليهم إلَّا من أراد أن يخصه بما خصّهم به من سرّه كما أبان ذلك في أول الباب السابع عشر، بقوله:

[الباب السابع عشر]

وقال رضي الله عنه:

153 ـ (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلاَّ من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلاَّ من أراد أن يوصله إليه)

قلت: الدليل: هو الموصل للمطلوب فإذا سار الحق تعالى بك إلى وليّ عارف به ودلّك عليه فقد سار بك إلى معرفته ودلّك عليه، فمهما دلّك على وليه وأطلعك على سرّه فقد دلّك عليه قطعاً ووصلك إلى حضرته سريعاً، فلم يجعل الحق سبحانه الدلالة على أوليائه والوصول إليهم إلَّا من جهة الدلالة عليه، ولم يوصل أحداً إليهم إلَّا من أراد أن يوصله إليه، فلأجل هذه الملازمة وعدم الانفكاك تعجّب الشيخ من ذلك.

وقال شيخنا رضي الله عنه في قول المؤلف رضي الله عنه: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، قال: وصولك إليه وصولك إلى عارف به، يعني مهما وصلك إلى عارف به وأطلعك عليه فقد وصلك إليه، ومهما حجبك عن العارفين به فقد حجبك عنه، فلا طريق إلى معرفة الله إلَّا من طريق معرفتهم، ولا دليل على الله، أعني على معرفته الخاصة العيانية، إلَّا من حيث الدليل عليهم. وكما حجب الحق سبحانه ذاته المقدسة بعزّته وقهريته كذلك حجب أولياءه بما أظهر عليهم من أوصاف البشرية فلا يعرفهم إلَّا من سبقت له العناية الربانية إذ لا يعرف الخواص إلَّا الخواص.

قال في لطائف المنن: أهل الله من خاصة عباده هم عرائس الوجود، والعرائس محجوبون عن المجرمين، فهم أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب. ثم قال: وإذا أراد أن يعرفك بوليّ من أوليائه طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته اهـ.

وأيضاً فإن الوليّ لا يعرف بالصورة الظاهرة وإنما يعرف بالمعاني الباطنة، لأن

الله لا يعبأ بالصور **«رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره في قسمه»**[1]، فمن أراد معرفته بالصورة فلا يعرفه لأنه لا يرى إلَّا بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فالعين لا ترى إلَّا الأجسام الكثيفة التي يطرأ عليها ما يطرأ على أهل الحجاب، ولم يدرك ما انطوت عليه الصورة من المعاني اللطيفة والأسرار المنيفة، فمن أراد الله سعادته رزقه الاعتقاد والتصديق أولاً ثم الهداية والتوفيق ثانياً، فالتصديق بأسرار الولاية أول المعرفة، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن: التصديق بطريقتنا هذه ولاية.

وقال بعضهم: لله رجال لا يعرفهم إلَّا الخاصة، ولله رجال يعرفهم الخاصة والعامة، ولله رجال لا يعرفهم لا الخاصة ولا العامة، ولله رجال أظهرهم في البداية وسترهم في النهاية، ولله رجال سترهم في البداية وأظهرهم في النهاية، ولله رجال لا يعرفهم سواه ولا يطلع على ما بينه وبينهم إلَّا الحفظة الكرام الذين وكِّلوا بحفظ السرائر، ولله رجال اختص الله بمعرفتهم لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة فمن سواهم حتى يلقونهم فهم شهداء الملكوت الأعلى، وهم المقرَّبون وهم الذين يتولّى الله قبض أرواحهم بيده، وهم الذين طابت أجسامهم من طيب أرواحهم، فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثون مشرقين بأنوار البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الأحد، وهم المخفيون تحت حجاب الأنس، المغموسون في بحار المحبة والقدس، فليس لهم مع غيره قرار ولا عن أنفسهم أخبار، تولى الله شأنهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ **[المَائدة: الآية 56]** اهـ.

* * *

قال الشطبي: وهذه الأسرار التي انطوت عليها أسرار الأولياء واحتجبت عن العامة هي أسرار الملكوت الغيبية التي أشار إليها بقوله:

154 ـ (ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد)

قلت: الملكوت مبالغة في الملك، هذا باعتبار اللغة. وأما باعتبار اصطلاح الصوفية، فالعوالم ثلاثة: ملك وملكوت وجبروت.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7932) [4/ 364] والطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (861) [1/ 264] ورواه غيرهما.

فالملك ما يدرك بالحس والوهم.

والملكوت ما يدرك بالعلم والفهم.

والجبروت ما يدرك بالبصيرة والمعرفة.

وهذه العوالم محلها واحد وهو الوجود الأصلي والفرعي. وإنما تختلف التسمية باختلاف النظرة وتختلف النظرة باختلاف الترقّي في المعرفة، فالوجود عند المحققين من العارفين واحد، قسم لطيف غيب لم يدخل عالم التكوين، وقسم كثيف دخل عالم التكوين فالأول يسمى عالم الغيب، والثاني عالم الشهادة. وما كان خفياً في عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة، فمن نظر إلى حس الأشياء الظاهرة سمّاه ملكاً ويسمى أيضاً عالم الحكمة وعالم الأشباح.

ومن نظر إلى أسرار المعاني القائمة بالأواني، وهي أسرار الذات القائمة بأنوار الصفات سماه ملكوتاً.

ومن نظر إلى الأسرار الأزلية التي كانت حال الكنزية التي لم تدخل عالم التكوين سماه جبروتاً.

أو تقول: ومن نظر إلى الكثيف الذي دخل التكوين ورآه مشتغلاً بنفسه قائماً بقدرة الله سمي في حقه ملكاً وهو لأهل الحجاب من أهل الفرق.

ومن رآه نوراً فائضاً من النور اللطيف متصلاً به إلَّا أنه تكثّف بالقدرة وتستّر بالحكمة سمّاه ملكوتاً.

وسمي اللطيف الباقي على أصله الذي لم يدخل عالم التكوين الذي هو أول كل شيء وآخر كل شيء ومحيطاً بكل شيء جبروتاً، فإن ضم الفرع إلى أصله والكثيف إلى اللطيف سمي الجميع جبروتاً.

وهذه المعاني لا يفهمها إلَّا أهل الأذواق بصحبة أهل الأذواق، وحسب من لم يبلغ لهذا المقام التسليم وإلا وقع في الإنكار على أولياء الله بما لم يحط به علماً.

ولنرجع إلى كلام الشيخ رضي الله عنه فنقول: ربما كشف الله عنك الحجاب وترقّيت إلى الدخول مع الأحباب، فأخرجك من سجن رؤية الأكوان إلى شهود المكوِّن، ومن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، فأطلعك على غيب ملكوته فأبصرت الكون كله نوراً فائضاً من بحر الجبروت، فألحقته بأصله وفنيت عن شهود الملك الذي هو عالم الفرق بشهود الملكوت الذي هو عالم الجمع الذي قال فيه [الشيخ]

ابن البناء[1]:

مهما تعدّيت عن الأجسام أبصرت نور الحق ذا ابتسام

وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد رحمة بك لأنك قد تحجب بذلك عن شهود الملكوت، فلا عبرة عند المحققين بمكاشفة أسرار العباد فقد تكون عقوبة في حق صاحبها كما يأتي، وقد يكون ذلك لمن لا استقامة له أصلاً كالكهان والسحرة وغيرهم. والغالب أن أهل شهود الملكوت يحجبون عن مكاشفة أسرار العباد لاشتغالهم بما هو أعظم وأحظى عند الله، وإنما تكون المكاشفات عند العباد والزهاد وأهل الرياضات والمجاهدات ولا تنكر أن تكون عند العارفين، فقد تجتمع لهم المكاشفة والكشف، أي مكاشفة أسرار العباد وكشف الحجاب عن الفؤاد، إلَّا أن الغالب هو استغراق الروح في شهود نور الملكوت دون الاستشراف إلى أسرار العباد التي هي من عالم الملك.

وقد كان الشيخ أبو يعزى رضي الله عنه يطلع على سرائر الناس ويفضحهم، فكتب إليه شيخه أبو شعيب أيوب المعروف بالسارية من أزمور يحذِّره من ذلك وينهاه عن هتك أستار المسلمين، فكتب له الشيخ أبو يعزى يجيبه: ليس هذا من قدرة البشر أن يسع أحد معرفة أسرار العباد وإخراج عيوبهم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وإنما هو شيء يلقى إليّ ويقال لي: قل واسمع الخطاب، أنت آية من آيات الله، والمراد منك أن يتوب الخلق على يديك، فتأخذني غلبة وتستولي عليَّ ملكة لا أقدر معها عن الكف عن القول اهـ.

وكان الشيخ أبو عبد الله التاودي يقول: ما قطعه الشيخ أبو يعزى في ستة عشر سنة قطعته أنا في أربعين يوماً، ولم يشم لطريقتنا هذه غباراً والله تعالى أعلم. وكلهم أولياء الله نفعنا الله بذكرهم وليس قصدنا تنقيص أحد منهم وإنما مرادنا أن طريق المكاشفة ليس هي النهاية بل قال بعضهم: هي البداية، وبالله التوفيق.

* * *

وقد تكون وبالاً في حق المريد، كما أبان ذلك بقوله:

---

(1) هو الشيخ الفقيه الصالح الولي الناصح أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي، المعروف بابن البنا «السرقسطي» بضم القاف نسبة إلى سرقسط بلدة بتخوم الجزيرة، كان أصل نسبه منها، ثم تقرر بفاس وبها توفي (الفتوحات الإلٰهية لابن عجيبة، ص 4 طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت).

155 ـ (من أطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً يجرّ الوبال إليه)

قلت: الاطلاع على أسرار العباد قبل التمكين في الشهود والتخلُّق بأخلاق الملك المعبود فتنة عظيمة وبلية ومصيبة، وذلك لأنه قبل التمكين في المعرفة قد يشتغل بذلك قلبه ويتشوّش خاطره ولبّه، فيفتره عن الشهود ويفتنه عن الرسوخ في معرفة الملك الودود. وأيضاً ما دامت النفس حية ولم يقع الفناء عنها قد يعتقد بذلك المزية على الناس فيدخله الكبر والعجب وهما أصل المعاصي، فكان اطلاعه حينئذ على أسرار العباد سبباً في جرّ هذا الوبال، أي العقوبة، إليه، وهو التكبُّر على الناس واعتقاد المزية عليهم وهو سبب البعد عن الله، بخلاف ما إذا تمكَّن في معرفة الحق وتخلَّق بأخلاقه وتحقق بمعاني صفاته وأسمائه، فإنه يكون على خلق الرحمٰن، فإذا اطلع على معاصي العباد ومساويهم رحمهم وسترهم وحلم عليهم، وقد قال عليه السلام: «**الخلق عيال الله وأقربكم إلى الله أرحمكم بعياله**»[1]، وقال ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء**»[2].

وفي الإشارات عن الله سبحانه: «عبدي إن استخلفتك شققت لك من الرحمانية شقّاً فكنت أرحم من المرء بنفسه»[3].

وروي أن إبراهيم عليه السلام حدّث نفسه أنه أرحم الخلق فرفعه الله حتى أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون فقال: يا رب دمِّر عليهم، فقال له الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك يا إبراهيم فلعلهم يتوبون ويرجعون[4].

وفي بعض التفاسير: إنه كان يعرج كل ليلة إلى السماء، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: الآية 75]، فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب [هو] على فاحشة، فقال: اللهمَّ أهلكه، يأكل رزقك ويمشي على

---

(1) لم أجده بهذا اللفظ، إنما رواه أبو يعلى في مسنده بلفظ: «الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» حديث رقم (3315) [6/ 65] ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (5541) [5/ 356] ورواه غيرهما.

(2) رواه أبو داود في سننه، باب في النهي عن اللعب بالنرد، حديث رقم (4941) [4/ 285].

(3) الطبري في تفسيره قوله تعالى: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [7/ 246].

(4) نفس المرجع السابق، وأبو نعيم في حلية الأولياء (قسامة بن زهير) [3/ 103].

أرضك ويخالفك أمرك. فأهلكه الله تعالى. فاطلع على آخر فقال: اللهمَّ أهلكه، فنودي: كف عن عبادي رويداً رويداً فإني طالما رأيتهم عاصين[1].

وفي رواية أخرى: فأوحى الله إليه: يا إبراهيم أين رحمتك للخلق، أنا أرحم بعبادي منك، أما يتوبون فأتوب عليهم، وإما أن أخرج من أصلابهم من يسبِّحني ويقدِّسني، وإما أن يبعثوا في مشيئتي فأعفو وأعاقب، يا إبراهيم كفِّر ذنبك في دعوتك بدم قربان. فنحر إبلاً فنودي في الليلة الثانية: كفِّر ذنبك بدم، فذبح بقراً فقيل له في الثالثة: فذبح غنماً، فقيل له في الرابعة كذلك فقرَّب من الأنعام إلى الله ما بقي عنده، فقيل له في الخامسة، فقال: يا رب لم يبق لي شيء، فقيل له: إنما تكفِّر ذنبك بذبح ولدك لأنك دعوت على العصاة فهلكوا. فلما شمَّر لذلك وأخذ السكين بيده قال: اللهمَّ هذا ولدي وثمرة فؤادي وأحب الناس إليّ، فسمع هاتفاً يقول: أما تذكر الليلة التي سألت إهلاك عبادي أو ما تعلم أني رحيم بعبادي كما أنت شفيق بولدك، فإذا سألتني إهلاك عبادي سألتك ذبح ولدك واحداً بواحد والبادي أظلم. اهـ.

* * *

ولما كان الاطلاع على أسرار العباد قد يدرك بكثرة الطاعات والاجتهاد، فقد تقصد النفس بالطاعة هذا الحظ الدنيء وهو مرض خفي نبّه عليه الشيخ بقوله:

156 ـ (حظ النفس في المعصية ظاهر جلّي وحظها في الطاعة باطن خفي، ومداواة ما خفي صعب علاجه)

قلت: حظ النفس في المعصية هي متعة البشرية الظاهرة كالأكل والشرب والنكاح وسماع اللهو وغير ذلك مما هو أذواق الحس التي هي محرَّمة، وحظها في الطاعة هي طلب الكرامات وخوارق العادات والاطلاع على المغيّبات وكحب الخصوصية والمنزلة عند الناس، ومداواة هذا المرض الخفي أصعب من مداواة الأول الجلي، لأن مداواة المرض الحسي الخفي أصعب من مداواة الجلي فكذلك المعنوي الباطني، ما كان جلياً متعلقاً بالنفس أصعب مما كان خفياً متعلقاً بالروح، فالأول يمكن دواؤه بالعزلة والفرار من مواطن الأشرار وبصحبة الأخيار وبكثرة الطاعة والأذكار، بخلاف الثاني، فلا تزيده الطاعة إلّا كثرة وقوة إذ بها صارت تطلب حظها، فلا يداويها من هذا إلّا خوف مزعج أو شوق مقلق أو وليّ عارف محقق يصحبه بالمحبة والتصديق.

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

قال بعضهم: من عسرت عليه نفسه فليسلمها إلى شيخ التربية، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطَّلاق: الآية 6] وإن عسرت عليكم أنفسكم فسترضع له نفسه نفس أخرى حتى يكمل أوان فطامها، فإن لم يكن واحد من هذه مات وهو سقيم ولم يلق الله بقلب سليم.

فالواجب على العبد اتهام نفسه ومراقبة قلبه فإذا استحلت النفس شيئاً من الطاعات وألفته أخرجها إلى غيرها ولو كانت مفضولة في ظاهر أمرها، وسيأتي للشيخ: إذا التبس عليك أمران انظر أثقلهما على النفس فإنه لا يثقل عليها إلَّا ما كان حقاً.

قال أبو محمد المرتعش: حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً، وذلك أن والدتي سألتني يوماً أن أسقي لها جرة ماء فثقل ذلك عليَّ فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحج كانت لحظ وشوب إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع.

وقال الشيخ أحمد بن أرقم رضي الله عنه: حدَّثتني نفسي بالخروج إلى الغزو، فقلت: سبحان الله إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: الآية 53] وهذه تأمرني بالخير لا يكون هذا أبداً، ولكنها استوحشت تريد لقاء الناس فتستروح إليهم ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم، فقلت لها: لا أسلك العمران ولا أنزل على معرفة، فأجابت فأسأت ظني بها وقلت: الله أصدق قولاً، فقلت لها: أقاتل العدو حاسراً بالرأس من غير وقاية فتكوني أول قتيل، فأجابت. ثم عدّ أشياء كلها أجابت لها، فقلت: يا رب نبهني بها فإني لها متهم ولقولك مصدق، فألهمت كأنها تقول: إنك تقتلني كل يوم مرات بمخالفتك إياي ومنع شهواتي ولا يشعر بي أحد فإن قاتلت وقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقولوا: استشهد أحمد، فيكون شرفاً وذكراً في الناس لي. فقعدت ولم أخرج ذلك العام. اهـ.

وقال الجنيد رضي الله عنه: ضاقت عليَّ نفسي ليلة حتى لم أطق الصبر، فخرجت ذاهباً على وجهي فانتهيت إلى رجل مطروح في المقابر مغطى الرأس، فلما أحس بي قال: أبو القاسم، قلت نعم، قال: متى يصير داء النفس دواؤها، فقلت: إذا خالفت هواها صار دواؤها داواؤها، فقال لنفسه: اسمعي فقد أجبتك بهذا مراراً وأنت تقولي: حتى أسمع ذلك من الجنيد. قال الجنيد: فانصرفت وما عرفته. اهـ.

* * *

ثم فسّر الشيخ ذلك الداء الذي يكون خفياً في الطاعة ببعض جزئياته وهو أعظمها، فقال:

157 ـ (ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك)

قلت: الرياء هو طلب المنزلة عند الناس وقصد ذلك بعمل صالح سواء كان ذلك العمل ظاهراً للناس وهو الغالب، أو خفياً عنهم، فقد يكون الرياء في العمل الخفي فيدخل الرياء عليك حيث لا ينظر أحد إليك، وهذا أصعب من الأول لأنه أخفى من دبيب النمل كما في الحديث.

وكان بعض العارفين يقول: اجتهدت في إزالة الرياء من قلبي بكل حيلة فما أزلته من جهة حتى نبت من أخرى من حيث لا أظنه.

وقال بعضهم: من أعظم الرياء من رأى العطاء والمنع والضرر والنفع من الخلق.

وقال بعضهم: أقسام الرياء ثلاثة كلها علّة في الدين:

الأول: وهو أعظمها، أن يقصد بعمله الخلق ولولاهم لم يعمل.

الثاني: أن يعمل للمدحة والثناء ولو لم يعلمه الناس.

الثالث: أن يعمل لله ويرجو على عمله الثواب ورفع العقاب، وهذا النوع جيد من وجه، معلول من وجه. [فهو] عند العارفين رياء، وعند عامة المسلمين إخلاص، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: الآية 10] هو السالم من الرياء ظاهراً وباطناً بحيث لا يريد عامله حظاً دنيوياً ولا أخروياً.

وللمرائي علامات لا تخفى، **منها** نشاطه في الجلوة وكسله في الخلوة، أو إتقان العمل حيث يراه الناس وتساهله حيث لا يراه إلّا الله. **ومنها** التماسه بقلبه توقير الناس له وتعظيمه ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه وإذا قصر أحد في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره، ويجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره وإهانته وإهانة غيره من أقرانه، حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم فيتوعدون من قصَّر في حقهم بمعاجلة الله لهم بالعقوبة، وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ ثأرهم فإن وجد الفقير هذه الأمارات في نفسه فليعلم أنه مرائي بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس.

وقد روي عن علي كرَّم الله وجهه: «أن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة: ألم تكونوا ترخص عليكم الأسعار، ألم تكونوا تبادرون بالسلام، ألم تكونوا تقضى لكم

الحوائج». وفي الحديث الآخر: «**لا أجر لكم، قد استوفيتم أجوركم**»[1].

وقال عبد الله بن المبارك: روي عن وهب بن منبه رضي الله عنه: أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنَّا إنَّما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تعطى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس فقال السائح: ما هذا، قيل له: الملك قد أظلك، فقال للغلام: ائتني بطعام. فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم، قالوا: هذا، قالوا له: كيف أنت، قال: كالناس ـ وفي حديث آخر: بخير ـ، فقال الملك: ما عند هذا من خير. فانصرف عنه. فقال السائح: الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام. ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار وعدوا أنفسهم من الأشرار، كما روي عن الفضيل رضي الله عنه أنه قال: من أراد أن ينظر إلى مرائي فلينظر إلى هذا.

وسمع مالك بن دينار امرأة تقول له: يا مرائي، فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي أضلّه أهل البصرة. إلى غير هذا مما روي عنهم في هذا المعنى.

ولا يسلم من الرياء الجلي والخفي إلَّا العارفون الموحدون، لأن الله تعالى طهّرهم من دقائق الشرك وغيّب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة ولم يخافوا منهم وجود مضرّة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس. ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو مراء بعمله وإن عبد الله تعالى في قنة جبل بالنون، أي أعلاه، قاله الشيخ ابن عباد رضي الله عنه. اهـ الخ.

* * *

ومنها: أي ومن علامة الرياء الخفيّة أيضاً، استشراف العبد وتطلعه أن يعلم الناس بخصوصيته كما أشار إليه بقوله:

158 ـ (استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك)

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

قلت: إذا خصك الحق تعالى أيها الفقير بخصوصية من خصوصية خواصه، كزهد أو ورع أو توكل أو رضى أو تسليم أو محبة أو يقين في القلب أو معرفة، أو أظهر على يديك كرامة حسِّية أو معنوية، أو استخرجت فكرتك حكماً أو مواهب كسبية أو لدنية ثم استشرفت، أي تطلّعت، وتمنيت أن يعلم الخلق بخصوصيتك بأن يطلعوا على تلك الخصوصية التي خصك الله بها، فذلك دليل على وجود الرياء الخفي في باطنك، ودليل على عدم صدقك في عبوديتك، بل أنت كاذب فيها، إذ لو كنت صادقاً في عبوديتك لاكتفيت بعلم الله، وقنعت بمراقبته إياك، واستغنيت به عن رؤية غيره، فالواجب على الفقير إذا خصّه الله بخصوصية كتمها وجحدها وسترها إلَّا عن شيخه، فإن أظهرها فهو على خطر فقد يكون تحدثاً وقد يكون تبجحاً وفي الكتمان السلامة. وقد تقدم قول الشيخ: من رأيته مجيباً عن كل ما سئل ومعبراً عن كل ما شهد وذاكراً كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله. وفي هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

احفرْ لسرّك ودكُو في الأرضِ سبعينَ قامَا
وخلِّ الخلائقَ يشكُو إلى يومِ القيامَا

وكان بعض إخواننا إذا سئل: ما أدركتم وما ذقتم في هذا الطريق، يقول: البرد والجوع. فكان شيخ شيخنا يعجبه ذلك ويستحسنه لدلالته على صدق الإخلاص. وما زالت أشياخنا وأشياخهم يستعملون الخراب في ظواهرهم صوناً لما في بواطنهم، ولأجل هذا فضّل عمل السرّ على عمل العلانية بسبعين درجة ضعفاً كما في الحديث: وقال سيدنا عيسى عليه السلام: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته ويمسح شفتيه، فإذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم، وإذا أعطى أحد فليعط بيمينه ويخفيها عن شماله، وإذا صلّى أحدكم فليسدل عليه ستر بابه، فإن الله يقسم الثناء كما يقسّم الرزق**»[1].

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: كل من لم يقنع في أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة.

وقال بعضهم: ما أخلص عبد قط إلَّا أحب أن يكون في جُبٍّ لا يعرف، ولهذا

---

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه، باب الدهن للصائم، حديث رقم (7913) [4/ 313] والبيهقي في شعب الإيمان، الباب الخامس والأربعون من شعب الإيمان، حديث رقم (6901) [5/ 351] ورواه غيرهما.

كان إسقاط المنزلة شرطاً في هذا الطريق، فإن تحقق العبد بالمعرفة ومشاهدة الوحدانية جاز له الإخبار بالوحدانية بأعماله والإظهار لمحاسن أحواله بناء منه على نفي الغير وأداء الواجب من الشكر.

كان بعض السلف يصبح فيقول: صلّيت كذا وكذا ركعة، وتلوت كذا وكذا سورة. فيقال له: أما تخشى من الرياء، فيقول: ويحكم وهل رأيتم من يرائي بفعل غيره.

والحاصل: من فني عن نفسه وتحقق بشهود ربه فلا كلام عليه، وقد قالوا: من أحب الخفا فهو عبد الخفا، ومن أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن لم يرد غير ما أراد الله به فهو عبد الله حقاً.

* * *

ثم علّمك الشيخ الدواء في ترك الاستشراف إلى الخلق وهو الاكتفاء بنظر الحق، فقال:

159 - (غيِّب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك)

قلت: الخلق في التحقيق عدم والوجود إنما هو لله الواحد الأحد، فوجود السوى كالهباء في الهواء، أو كظلال الأشخاص إن فتشته لم تجده شيئاً، فغيِّب عنك أيها الفقير نظر الخلق إليك اكتفاء بنظر الحق إليك إذ لا نظر لسواه، وغب عن إقبالهم عليك بالتعظيم والتكريم بشهود إقبال الملك الكريم، فغب عن الوهم بثبوت العلم فإقبالك على الخلق إدبارك عن الحق وإدبارك عن الخلق إقبالك على الحق ولا يجتمعان.

وفي الحديث عنه ﷺ في وصيته لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلَّا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلَّا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام وطويت الصحف**»[1].

وقال الشيخ أبو الحسن: أيست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ذكر عبد الله بن عباس حديث رقم (6303) [3/ 623] حديث رقم (2516) [4/ 667] ورواه غيرهما.

غيري لها، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي.

وقال في لطائف المنن: **اعلم** أن مبنى الولي على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ **[الطَّلَاق: الآية 3]**، وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ **[الزُّمَر: الآية 36]**، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ **[العَلَق: الآية 14]**، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ **[فُصِّلَت: الآية 53]**. فسبيل أمرهم في بدايتهم الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال تحقيقاً لفنائهم وتثبيتاً لزهدهم وعملاً على سلامة قلوبهم، حتى إذا تمكن اليقين وأيّدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بتحقيق الفناء ردُّوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الحق أظهرهم هادين إليه عباده، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، الخ كلامه.

وقال سهل بن عبد الله: لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى في الدارين إلّا هو وخالقه، فإن أحداً لا يقدر أن يضرّه ولا ينفعه، وتسقط نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه. اهـ. ولله در القائل:

فليتكَ تحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتكَ ترضَى والأنامُ غضابُ

وليتَ الذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبين العالمينَ خرابُ

وليتَ شرابي من ودادكَ صافياً ... وشربي من ماءِ المعينِ سرابُ

إذا صحَّ منكَ الودّ فالكلُّ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

واعلم أن رضى الخلق غاية لا تُدرك، وانظر قضية لقمان مع ابنه، وهي مشهورة، يتبين لك أن رضى الخلق محال ومتعذِّر، وأجهل الناس مَنْ طلب ما لا يدرك.

وقال بعضهم: ما لي وللناس، كنت في بطن أمي وحدي، وخرجت إلى الدنيا وحدي، ونموت وحدي، وندخل قبري وحدي، ونُسئل وحدي، ونُبعث من قبري وحدي، ونُحاسب وحدي، فإن دخلت الجنة دخلت وحدي، وإن دخلت النار دخلت وحدي. ففي هذه المواطن لا ينفعني أحد فما لي وللناس اهـ بالمعنى.

وقيل: إن الولي الصادق لا قدر له عند الخلق ولا قدر للخلق عنده، فكلما عظم أمره عند الله خفي أمره عند الناس.

* * *

ثم إنه لا تتحقق الغيبة عن نظر الخلق بنظر الحق إلّا بمعرفة الحق عند كل شيء

وشهوده في كل شيء كما أبان ذلك بقوله:

160 ـ (من عرف الحق شهده في كل شيء، ومن فني به غاب عن كل شيء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً)

قلت: معرفة الحق هو شهود ربوبيته في مظاهر عبوديتك، أو تقول: هي الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية. أو تقول: هي الترقي من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح فيكون جسمك مع الأشباح وروحك مع الأرواح. قال في المباحث:

واستشعروا شيئاً سوى الأبدانِ ... يدعونهُ بالعالمِ الروحاني

ثمَّ أمامَ العالَمِ المعقولِ ... معارفُ تُلْغَزُ بالمنقولِ

والفناء: هو أن تبدو لك العظمة فتنسيك كل شيء وتغيّبك عن كل شيء سوى الواحد الذي ليس كمثله شيء وليس معه شيء، أو تقول: هو شهود حق بلا خلق كما أن البقاء هو شهود خلق بحق.

والمحبة: أخذ الحق قلب من أحب من عباده فلا يكون له عن نفسه أخبار ولا مع غير محبوبه قرار. وقيل غير ذلك، فمن عرف الحق شهده في كل شيء ولم ير معه شيئاً لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، ومن شهود عالم الملك إلى شهود فضاء الملكوت، ومن فني به وانجذب إلى حضرته غاب في شهود نوره عن كل شيء ولم يثبت مع الله شيئاً.

والفرق بين الفاني والعارف، أن العارف يثبت الأشياء بالله، والفاني لا يثبت شيئاً سوى الله. العارف يقرِّر القدرة والحكمة والفاني لا يرى إلَّا القدرة. العارف يرى الحق في الخلق كقول بعضهم: ما رأيت شيئاً إلَّا رأيت الله فيه، والفاني لا يرى إلَّا الحق يقول: ما رأيت شيئاً إلَّا رأيت الله قبله. العارف في مقام البقاء والفاني مجذوب في مقام الفناء. الفاني سائر والعارف متمكِّن واصل، ومن أحب الله لم يؤثر عليه شيئاً من حظوظه وهوى نفسه ولو كان فيه حتف أنفه، كما قال القائل:

قالتْ وقد سألتْ عن حالِ عاشقِهَا ... باللَّه صِفْهُ ولا تُنْقِصْ ولا تزدِ

فقلتُ لو كانَ رهنَ الموتِ من ظمأ ... وقلتِ قِفْ عنْ ورودِ الماءِ لم يردِ

والكلام في المحبة طويل.

ذكر الشيخ في لطائف المنن منه جملة صالحة، وكلام الشيخ رضي الله عنه من

باب التدلي، فالمعرفة أعلى المقامات وقبلها الفناء، وقيل للفناء: المحبة أي أولها فأول ما يقذف الله في قلب عبده الذي يريد أن يصطفيه لحضرته ويعرّفه به محبته، فلا يزال يلهج بذكره ويتعب جوارحه في خدمته ويتعطش إلى معرفته، فلم يزل يتقرّب إليه بالنوافل حتى يحبه الحق فإذا أحبه أفناه عن نفسه وغيّبه عن حسه فكان سمعه وبصره ويده وجملته، ثم رده إليه وأبقاه به فعرفه في كل شيء ورآه قائماً بكل شيء، ظاهراً في كل شيء، والله تعالى أعلم.

ولهذا الذي ذكره الشيخ علامات تدل على تحقيق تلك المقامات فمن وجدها في نفسه كانت دعواه لتلك المقامات أو بعضها صحيحة، ومن لم يجدها في نفسه كانت دعواه لها كاذبة وفضيحة. فليعرف قدره ولا يتعدّ طوره وبالله التوفيق.

* * *

ولما كانت المعرفة تقتضي ظهور الحق في كل شيء حتى تراه ظاهراً في كل شيء، بيَّن وجه احتجابه وخفائه فقال:

161 - (إنما حجب الحق عنك شدّة قربه منك. إنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظيم نوره)

قلت: ذكر في حكمة خفائه تعالى مع شدة ظهوره ثلاث حكم:

الحكمة الأولى: شدة القرب، ولا شك أن شدّة القرب توجب الخفاء كسواد العين من الإنسان، فإن الإنسان لا يدرك سواد عينه لشدّة قربه منه والله تعالى أقرب إليك من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية 16] فشدّة قربه منك موجب لاضمحلالك.

قال في لطائف المنن: فعظيم القرب هو الذي غيّب عنك شهود القرب. قال الشيخ أبو الحسن: حقيقة القرب أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو وكلما دنا منها تزايد ريحها فلما دخل البيت الذي فيه المسك انقطعت رائحته عنه. وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تموهُ بالشعبينِ والعلَمِ والأمرُ أوضح/ مِنْ نارٍ على عَلَمِ
أراكَ تسألُ عن نجدٍ وأنتَ بهَا وعن تُهَامَةَ هَذا فعل متهَمِ

الحكمة الثانية: في خفائه تعالى: شدّة ظهوره، ولا شك أن شدّة الظهور موجب للخفاء، كما قال صاحب الهمزية:

ومن شدة الظهور الخفاء

وقد مثّلوا ذلك بقرص الشمس حين يعظم شعاعه ويتقوى إشراقه، فإن الأبصار الضعيفة لا تقوى على مشاهدته مع شدة ظهوره فصار شدة الظهور موجباً للخفاء، كما قال الشاعر:

وَمَا احتجَبَتْ إلّا برفعِ حجابِهَا ... ومِنْ عجبٍ أنَّ الظهورَ تستُّرُ

فاحتجب عن الأبصار الضعيفة بلا حجاب.

الحكمة الثالثة: شدة نوره، ولا شك أن شدّة النور موجب لعدم الإدراك، فإن البصر لا يقاوم النور الباهر. وفي حديث مسلم في قصة الإسراء، قلنا: يا رسول الله هل رأيت ربّك؟ قال: «**نور أنّى أراه؟!!**»[1] بلفظ الاستفهام، أي غلبني النور كيف أراه. وفي رواية: «**رأيت نوراً**»[2] فيحمل على أنه أول مرة رأى نوراً ثم لم يطق مشاهدته بالبصر مع تحقق شهوده بالبصيرة. وانظر أيضاً البرق الخاطف فإن البصر لا يطيق رؤيته. وأنشدوا:

بالنورِ يظهرُ ما ترَى من صورةٍ ... وبهِ وجودُ الكائناتِ بلا امتِرَا

لكنّهُ يخفَى لفرطِ ظهورِهِ ... حسّاً ويدركُهُ البصيرُ مِنَ الورى

فإذا نظرتَ بعينِ عقلِكَ لم تجَدْ ... شيئاً سواهُ على الذواتِ مصوّرا

وإذا طلبتَ حقيقةً من غيرِهِ ... فبنيلِ جهلِكَ لا تزالُ معثَّرَا

وهذا النور الذي نتكلم فيه ليس هو حسياً وإنما هو ما يبدو من معاني الصفات والأسماء التي تخرج من ظلمة الجهل إلى معرفة أسمائه وصفاته، قاله الشيخ زروق. قلت: هو النور الأصلي الذي فاض من بحر الجبروت إلّا أنه تستر بالحكمة والعزّة والقهرية. سئل أبو القاسم النصرباذي عن قولهم:

ويظهر في الهوى عز الموالي ... فيلزمني له ذلّ العبيد

فقال: عز الموالي الستر لأنه لو انهتك الحجاب لتفطّر الألباب.

هذا آخر الباب السابع عشر، **وحاصله**: ثلاثة أمور:

الأول: تلازم الدلالة على أولياء الله للدلالة على الله بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر في الغالب.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب في قوله عليه السلام: «نور أنى أراه»، حديث رقم (178) [1/ 161] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال. . .، حديث رقم (58) [1/ 254] ورواه غيرهما.

(2) رواه الترمذي، باب ومن سورة النجم، حديث رقم (3282) [5/ 396] والسيوطي في الديباج على مسلم، حديث رقم (178) [1/ 223]

الثاني: تفسير أسرار الولاية، وهي الاطلاع على أسرار غيب الملكوت دون اشتراط الاطلاع على أسرار العباد، لأن ذلك قد يكون فتنة في حقه وسبباً في عقوبته، إذا لم يتمكن من معرفته مع ما فيه من حظ النفس فربما تقصده بطاعتها فيكون رياء في حقها، وهو من الأمراض الباطنية التي يصعب علاجها كالاستشراف إلى اطلاع الناس على خصوصيته، ودواؤه الغيبة عنهم والاكتفاء بنظر الله عن نظر غيره.

الأمر الثالث: علامة وجود هذه الأسرار في العارف وهي شهود الحق في كل شيء وفناؤه عن كل شيء، وإيثار محبته على كل شيء، فإن قلت: كيف يشهده وهو غيب، قلت: بل هو ظاهر في كل شيء وإنما حجبه شدّة قربه وشدة ظهوره وعظيم نوره، وإذا علمت أنه قريب وأنه أقرب إليك من روحك وقلبك اكتفيت بنظره واستغنيت بعلمه عن طلبه، فإن كان ولا بد من الدعاء فليكن عبودية ومناجاة وتملُّقاً لا سبباً للعطاء كما أبان ذلك في أول الباب الثامن عشر بقوله:

[الباب الثامن عشر]

وقال رضي الله عنه:

162 - (لا يكن طلبك سبباً إلى العطاء منه فيقلّ فهمك عنه وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بحقوق الربوبية)

قلت: قد تقدَّم في أول الكتاب أن الطلب كله معلول عند ذوي الألباب، فإن كان ولا بد من الطلب فليكن إظهاراً للعبودية وقياماً بحقوق الربوبية، فلا يكن طلبك من الحق سبباً إلى العطاء منه فيقلّ فهمك عنه، لأن الفهم عن الله يقتضي الاكتفاء بعلمه والاستغناء بمعرفته فلا يحتاج إلى شيء ولا يتوقف على شيء، ماذا فقد من وجدك، فلا يكن محط نظره إلَّا ما يبرز من عنصر القدرة ولا يشتهي إلَّا ما يقضيه عليه مولاه. قيل لبعضهم: ماذا تشتهي، قال: ما يقضي الله.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لا يكن حظك من الدعاء الفرح بقضاء حاجاتك ومن مناجاة محبوبك فتكون من المحجوبين.

وقال بعضهم: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب يفعل ما يشاء.

قيل: إن سيدنا موسى عليه السلام قال: يا رب أطعمني فإني جائع، فأوحى الله إليه: قد علمت ذلك، قال: يا رب أطعمني، قال له: حتى أريد. وهذا مقام أهل النهايات. وأما أهل البدايات فيرخص لهم في طلب الحاجات وفي كثرة الدعاء والتضرُّعات، فالدعاء في حقهم واجب أو مندوب وفيهم ورد الترغيب في الدعاء والإلحاح فيه، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية 60]، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّمل: الآية 62].

وورد في بعض الأخبار: أن الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السلام: سلني حتى ملح عجينك. تشريعاً للضعفاء، لأن الأنبياء عليهم السلام بعثوا معلّمين للضعفاء والأقوياء، وينبغي أن يتأدّب في الدعاء فلا يدعو بممنوع شرعاً ولا ممتنع عقلاً، ويكون بتلطف وانكسار وظهور فاقة واضطرار لا بانبساط وإدلال، فإن ذلك مقام الرجال أهل المكانة والكمال، ومن ذلك قول الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير: وليس من الكرم ألا تحسن إلَّا لمن أحسن إليك، الخ.

وذكر في قوت القلوب: أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين فخرج سيدنا موسى عليه السلام بسبعين ألفاً من بني إسرائيل ليستسقي لهم فأوحى الله إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم وسرائرهم خبيثة، فدعوني على غير يقين ويأمنون مكري، ارجع إليهم فإن عبداً من عبادي يقال له برخ قل له: يخرج حتى أستجيب له. فسألهم عنه موسى فلا يعرفه أحد، فبينما موسى عليه السلام يمشي في طريق فإذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من السجود وقد عقد شملة على عاتقه فعرفه موسى عليه السلام بنور الله، فسلَّم عليه وقال: ما اسمك، قال: برخ، فقال له: منذ حين وأنا أطلبك اخرج فاستسق لنا، فخرج فكان من خطابه لربّه في دعائه ومناجاته: ما هذا من فعالك وما هو من حكمك وما بذلك عرفت، أنقصت عليك عيون مائك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفذ ما عندك أم اشتدّ غضبك على المذنبين. ألست كنت غفّاراً قبل خطأ الخاطئين، خلقت الرحمة وأمرت بالعطية فتكون لما تأمر من المخالفين، أم ترينا أنك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجّل بالعقوبة. قال: فما زال حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله العشب في نصف يوم حتى بلغ الراكب، قال: فخرج برخ فاستقبله موسى عليه السلام وقال له: ما هذا الخطاب الذي خاطبت به الحق، فأوحى الله إليه: دعه فإن دعاءه يضحكني. فانظر هذه الحكاية كيف وقعت هذه على بساط المباسطة التي لا يفهمها إلَّا أهل المكانة والتمكين، وحسب من لم يبلغ مقامات الرجال الأدب والهيبة مع ربّ العالمين.

* * *

ثم بيَّن وجه ما ذكره من كون الدعاء إنما يكون عبودية لا سبباً في العطاء، فقال:

163 ـ (كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق، جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل)

قلت: العطاء السابق هو ما تعلق به علمه القديم قبل أن تظهر تجليات الأكوان، ولا شك أن الله سبحانه قدّر في الأزل ما كان وما يكون إلى أبد الأبد، فقد قسّم الأرزاق الحسية والمعنوية وقدّر الآجال، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: الآية 49]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: الآية 8]، وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: الآية 34]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

يَسِيرٌ﴾ [فَاطِر: الآية 11]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية 145].

فإذا علمت أيها الإنسان أن القضاء والقدر قد سبق برزقك وأجلك وأنه قد سبقت قسمتك وجودك فماذا تطلب، وإذا طلبت فكيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق، إذ قد سبق منه العطاء قبل أن يكون منك الطلب، جلّ ـ أي عظم ـ وتعالى حكم الأزل القديم أن يضاف إلى العلل والأسباب الحادثة، إذ محال أن يتقدم الحادث على القديم لا وجوداً ولا حكماً.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: التوحيد أن يعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا علاج، وصنعه لها بلا مزاج، وعلّة كل شيء صنعه ولا علّة لصنعه، وليس في السماوات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبِّر غير الله وكل ما يخطر ببالك فالله مخالف لذلك. اهـ قوله. وعلَّة كل شيء الضمير في صنعه يعود على الحق تعالى، أي وعلة كل شيء صنع الحق له. يعني أن سبب وجود الأشياء وظهورها هو صنع الحق لها وصنع الحق لا علّة له.

وقال بعضهم: ليس [في] الإمكان أبدع مما كان، أي باعتبار العلم والمشيئة لا باعتبار القدرة. فالمراد بما كان: القدر والقضاء السابق، فما كوّنته القدرة وأظهرته لا يمكن أن يكون أبدع منه من حيث تعلق العلم القديم، فلا يمكن تخلفه وإن كان العقل يجوز أن يخلق الله تعالى أبدع منه والقدرة صالحة ولكن لما سبق به العلم ونفذ به القضاء، لم يكن أبدع منه أو تقول: ليس في عالم الإمكان أبدع مما كان، فما ظهر في عالم الإمكان، وهو عالم الشهادة، إلَّا ما كان في عالم الغيب من المعاني القديمة ولم يظهر أبدع منه ولن يظهر أبداً. فافهم فالكلام صحيح على هذا الوجه والله تعالى أعلم.

* * *

ومما يدلّك على أن طلبك ليس سبباً في عطائه لك، وجود عنايته بك قبل ظهورك الذي أشار إليه بقوله:

164 ـ (عنايته فيك لا لشيء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته، لم يكن في أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلاَّ محض الإفضال ووجود النوال)

قلت: مما تواترت به الأخبار والنقول ووافق المنقول المعقول أن ما شاء الله

يكون وما لم يشأ ربنا لم يكن، ومشيئته تعالى قديمة لأنها عين إرادته وإرادته على وفق علمه وعلمه قديم، فكل ما يبرز في عالم الشهادة فإنما هو ما قدّره الحق في عالم الغيب «**جفت الأقلام وطويت الصحف**»[1] قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [**الحديد: الآية 22**] أي نظهرها، فلا سعادة ولا شقاء إلَّا وقد سبق بهما القدر والقضاء، السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه. وقد تقدم قوله: ما من نفس تبديه إلَّا وله قدر فيك يمضيه، فإذا علمت ذلك أيها الإنسان اكتفيت بعلمه السابق عن طلبك اللاحق، وبقي طلبك عبودية وأدباً مع الربوبية، وإلا فعنايتك فيك سابقة على وجودك لا لشيء منك تستحق به عنايته ومنّته، وأين كنت حين واجهتك عنايته في أزله حين سبقت لك منه العناية وكتبك في جملة أهل الرعاية والهداية، ثم لما استنطقك يوم الميثاق أقررت بربوبيته، وأين كنت حين قابلتك رعايته وحفظه وأنت في ظلمة الأحشاء حين أجرى عليك رزقه من عرق الدم، وحفظك في ذلك المستودع حتى اشتدت أعضاؤك وقويت أركانك، فأخرجك إلى رفقه وما يسَّر لك من رزقه، لم يكن في أزله حين واجهتك عنايته ولا في مستودعك في الرحم حين قابلتك رعايته إخلاص أعمال ولا وجود أحوال تستحق بهما وجود النوال، بل لم يكن في ذلك الوقت إلَّا محضُ الإفضال وعظيم النوال.

قال الواسطي رضي الله عنه: أقسام قسِّمت ونعوت أُجريت كيف تستجلب بحركات أو تُنال بمعاملات. وقال الشاعر:

فـلا عـمـلَ مـنّـي إلـيـه اكـتـسـبـتُـهُ ... سوَى محضِ فضلٍ لا بشيءٍ يعلّلُ

وقال آخر:

وكنتُ قديماً أطلبُ الوصلَ منهُمُ ... فلمَّا أتاني العلمُ وارتفعَ الجهلُ

علمتُ بأنَّ العبدَ لا طلبَ لَهُ ... فإن قربُوا فضلٌ وإنْ بعَّدُوا عدلُ

وإن أظهرُوا لم يظهروا غيرَ وصفِهم ... وإن ستروا فالسترُ من أجلهم يحلوُ

وقال آخر:

قَدْ كنتُ أحسِبُ أن وصلَكَ يُشْتَرَى ... بـنـفـائِـسِ الأمـوالِ والأربـاحِ

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن ابن عباس، حديث رقم (12988) [12/ 238] وابن السني الدينوري في عمل اليوم والليلة، باب ما يوصى به الغلام إذا عقل، حديث رقم (425) [1/ 374] وورواه غيرهما.

وظننتُ جهلاً أنَّ حبَّكَ هينٌ تفنى عليهِ كرائمُ الأرواحِ
حتى رأيتُكَ تجتبي وتخصُّ مَنْ تختارُهُ بلطائفِ الأمناحِ
فعلمتُ أنَّكَ لا تُنَالُ بحيلةٍ فلويتُ رأسِي تحتَ طَيِ جناحِي
وجعلتُ في عشِ الغرامِ إقامتي فيهِ غُدُوّي دائماً وَرَوَاحي

ولهذا لم يلتفت قلب العارف لخوف ولا رجاء ولم يبق له في نفس غير وجه الله حاجة، فتحصل أن الولاية وهي سر العناية لا تنال بحيلة ولا تدرك بطلب، لكن من سبقت له العناية يُسِّر لما أريد منه.

قيل لذي النون: بم عرفت ربك، قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي اهـ.

وقيل لعلي كرَّم الله وجهه: هل عرفت الله بمحمد أو عرفت محمداً بالله، قال: لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكان محمد أوثق فيَّ من الله، ولكن الله عرّفني بنفسه فعرفت محمداً ﷺ بالله.

وهنا انتهت معرفة العارفين، أعني حين تحققوا بسابق القدر غابوا عن أنفسهم في وجود معروفهم، فاستراحوا واستظلوا في ظل الرضى والتسليم وهبّ عليهم من جنّات المعارف نسيم، لكن اختلفت أحوالهم في حال نهايتهم، الماء واحد والزهر ألوان.

فمنهم: من يغلب عليه الهيبة والحياء، قال بعضهم: من ازدادت معرفته ازدادت هيبته له. ومن كان بالله أعرف كان له أخوف. وفيهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: الآية 28].

ومنهم: من يغلب عليه الشوق والاشتياق. قال بعضهم: من عرف الله اتسم بالبقاء واشتاق إلى اللقاء وضاقت عليه الدنيا بحذافيرها.

وقال السري: أجل مقام العارف الشوق يقول الله تبارك وتعالى: «إن لي عباداً من عبادي أحبهم ويحبوني وأشتاق إليهم ويشتاقون إليّ، وأذكرهم ويذكروني، وأنظر إليهم وينظرون إليّ، من سلك طريقهم أحببته ومن عدل عنهم مقته»، قيل: يا ربنا وما علامتهم، قال: «يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جَنَّهُمُ الليلُ واختلط الظلامُ وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إليَّ أقدامهم وافترشوا إلي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليّ بإنعامي، فمن صارخ وباك،

ومن متأوّه وشاك، ومن قائم وقاعد، ومن راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي. أول ما أعطيهم ثلاثاً: أقذف في قلوبهم من نوري فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السماوات والأرض وما فيهن من موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل عليهم بوجهي أترى من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أريد أن أعطيه» اهـ.

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: غيّبني الشوق يوماً فقلت: يا رب إن أعطيت أحداً من المحبين ما تسكّن به قلوبهم قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضرّني القلق. فرأيت في النوم كأنه أوقفني بين يديه وقال: يا إبراهيم، أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكّن قلبك قبل لقائي، وهل يسكّن المشتاق قبل لقاء حبيبه، فقلت: يا رب تهت فلم أدر ما أقول، فاغفر لي وعلّمني ما أقول، فقال، قل اللهمَّ رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك.

ومنهم: من تغلب عليه السكينة في القلب لأن العلم واليقين يوجبان السكون والطمأنينة، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية 28].

ومنهم: من يغلب عليه الدهش والحيرة، قال بعضهم: أعرف الناس بالله أشدهم تحيُّراً فيه. وفي الحديث: «**اللهمَّ زدني فيك تحيُّراً**»[1].

ومنهم: من يغلب عليه التواضع والخضوع والذل والانكسار، قال الجنيد: العارف كالأرض يطأها البر والفاجر وكالسحاب يظل الأحمر والأبيض، وكالمطر يسقي الماشي والراشي.

ومنهم: من تتسع معرفته ويخوض بحار التوحيد فلا يكدِّره شيء ولا يسلط عليه شيء بل يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ من نصيبه شيء، يأنس بكل شيء ولا يستوحش من شيء.

قال أبو تراب: العارف يصفو به كدر كل شيء ولا يكدره شيء. اهـ.

وقال أبو سليمان الداراني: إن الله يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح له وهو قائم يصلي. وقال بعضهم: العارف من أنس بذكر الله حتى استوحش من خلقه وافتقر إلى الله تبارك وتعالى فأغناه عن خلقه، وذلّ إلى الله تبارك وتعالى فأعزّه الله في خلقه.

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وفي زبور داود عليه السلام: يا داود بلِّغ أهل رضائي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، وأنيس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، بعزّتي حلفت ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلَّا قبلته لنفسي وأحببته أشد مما أحبني، ومن طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وأْنَسُوا بذكري أؤنسكم بي، وأسرعوا إلى محبتي أسرع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبتي من طينة إبراهيم خليلي وموسى كليمي وعيسى روحي ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي وجمالي اهـ.

* * *

ولما كان الاعتماد على السابقة يقتضي ترك العمل بيَّن سرّ ذلك بقوله:

165 ـ (علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية 105]، وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتماداً على الأزل فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية 56])

قلت: لما أخبر الله سبحانه في كتبه على ألسنة رسله أن المدار إنما هو على السابقة، فمن سبقت له العناية لا تضرّه الجناية، تشوق الخلق كلهم إلى ظهور سر هذه العناية، فكل واحد يظن أنه من أهلها، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية 105] فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم، فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض، فربما يتركون العمل ويعتمدون على سابق الأزل، فأخبرهم الحق تعالى: أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله ومختص به، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية 56] فالرحمة هنا هي العناية السابقة وهي قريبة من المحسنين الذين أحسنوا عبادة ربهم وأحسنوا إلى عباد ربهم.

فتحصّل أن سر العناية إنما تظهر على المحسنين المتقنين لأعمالهم، المخلصين في عبودية ربهم، فمن استند إلى الحكم السابق وترك العمل فهو مغرور أو مطرود لإبطاله الحكمة، ومن استند إلى العمل دون النظر للقدرة والمشيئة السابقة فهو جاهل بعيد من الحضرة غافل، ومن جمع بينهما فهو محقق كامل. وسر العناية إليه إن شاء الله واصل.

قال أبو عثمان المغربي رضي الله عنه: قلوب العارفين فارغة لمفاجأة المقدور. وقال بعضهم: ليس كل من طلب نال، ولا كل من نال وصل، ولا كل من وصل أدرك، ولا كل من أدرك وجد، ولا كل من وجد سعد، وكم من واحد حرم من المنى بمنى، وكم من واحد أدرك من القربات غرفات، ومن أيّد بالتوفيق وصل في لحظة العين إلى عين القبول، كما حكي عن بعض الصالحين أنه رأى في منامه إبليس اللعين ضج بالصياح والعويل، فاجتمع عليه جنوده وقالوا: ما لك، فقال لهم: كنت أطمع في فلان منذ سنين فإذا به قد استوى ظاهره وباطنه وسره وعلانيته فلم أجد إليه سبيلاً، تحلّى بالصدق فامتنع مني ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ ۝﴾ [القمر: الآية 55].

* * *

ثم بيَّن ما تقدم من حكم المشيئة، فقال:

166 - (إلى المشيئة يستند كل شيء وليست تستند هي إلى شيء)

قلت: المشيئة والإرادة شيء واحد وإليهما تستند الأشياء كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: الآية 30]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: الآية 112] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سبق المشيئة لكل شيء. وأما هي فلا تستند إلى شيء ولا تتوقف على شيء، فلا تتوقف على سؤال ولا على طلب فما شاء الله كان من غير سبب ولا سؤال، وما لم يشأ ربنا لم يكن، قرب من شاء بلا عمل وبعد من شاء بلا سبب، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقاعدة التحقيق ما ثمَّ إلَّا سابقة التوفيق.

قال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه: إن الله لا يقرِّب فقيراً لأجل فقره ولا يبعد غنياً لأجل غناه، وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يوصل وبها يقطع، ولو بذلت الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها ولو أخذتها كلها ما قطعك بها، قرَّب من شاء بغير علة وقطع من شاء من غير علّة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: الآية 40] فالنظر إلى المشيئة حقيقة والنظر إلى السبب شريعة. أو تقول: النظر إلى المشيئة قدرة والنظر إلى الأسباب حكمة. ولا بد من الجمع بينهما، فالحقيقة معينة والشريعة مبينة، الشريعة حكمة والحقيقة قدرة، والحقيقة حاكمة على الشريعة في الباطن والشريعة حاكمة على الحقيقة في الظاهر، وليس حكم القدرة بأولى من وصف الحكمة في محله ولا بالعكس.

قال الشطيبي: واعلم أن الناس أربعة: ناظر في السوابق لعلمه بأن الحكم

الأزلي لا يتغيّر باكتساب العبد، وناظر في العواقب لعلمه بأن الأعمال بخواتمها، وناظر للوقت لا يشتغل بالسوابق ولا بالعواقب غير أداء ما كلف به من حكم الوقت عالم بأن العارف ابن وقته لا يهتم بماض ولا مستقبل ولا يرى غير الوقت الذي هو فيه، وناظر لله وحده لعلمه بأن الماضي والمستقبل والحال متقلبون في قبضته متصرفون في حكمه والأوقات كلها قابلة للتغير وتبديل الحال فلا يراها وإنما يراقب من كل شيء بيده.

وقد أراد بعضهم الخروج من بين يدي بعض المشايخ فقال له الشيخ: أين تريد، فقال: يا سيدي لئلا أشغلك عن وقتك، فقال له: ليس عند الله وقت ولا مقت إنما نرى رب الوقت لا الوقت ومن تمكّنت فيه حالة الشهود غاب بالموجد عن الوجود ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ **[الكهف: الآية 18]**.

حكي أن رجلاً قال لأبي يزيد: أين أبو يزيد، فقال له: ليس هنا أبو يزيد.

وقال رجل للشبلي: أين الشبلي، قال: مات لا رحمه الله.

إنما عنى الشبلي: لا ردّه الله لإحساسه عند مشاهدته لربه. ورأى أبو يزيد رجلاً في المسجد يسأل عنه فقال له: وأنا أطلبه منذ سنين، فظن أنه مجنون، فلما أعلم أنه هو قال له: يا سيدي عليك أسأل ولك أطلب، فقال له أبو يزيد: الذي تطلب قد ذهب في الذاهبين في الله بالله لله فلا ردّه الله.

هذا آخر الباب الثامن عشر، **وحاصله**: آداب السؤال والطلب وأنه ينبغي أن يكون عبودية لا سبباً في العطاء إذ قد سبقت قسمتك في الأزل قبل أن يكون منك طلب، فعنايته سابقة يختص برحمته من يشاء، لكن الحكمة تقتضي وجود العمل فوجود العمل أمارة على خصوصية الأزل مع توقف ذلك على المشيئة لأنها يستند إليها كل شيء ولا تستند هي لشيء، فلزم السكون والأدب حتى في ترك الطلب. كما بيَّن ذلك في أول الباب التاسع عشر بقوله:

[الباب التاسع عشر]

وقال رضي الله عنه:

167 ـ (ربما دلّهم الأدب على ترك الطلب)

قلت: الظاهر أن رب هنا للتكثير لأن الغالب على العارفين وأهل الفناء السكوت والسكون تحت مجاري الأقدار فصدور الطلب منهم قليل لأن العارف فانٍ عن نفسه غائب عن حسه، ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار، فلا يتصور منه سؤال ولا فوات مأمول، **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**[1]، الأشياء تشتاق إليه وهو غني عنها، «اشتاقت الجنة إلى عمار وصهيب وبلال»[2] كما في الحديث.

والحاصل: أن العبد ما دام غائباً عن نفسه فانٍ في شهود ربه منقطعاً عن حسه لا يتصور منه طلب أصلاً، إذ الطلب يقتضي وجود الإثنينية والفرض أنه غريق في بحر الوحدة، فطلبه حينئذ سوء أدب في حقه، فإن رد إلى الشعور بنفسه وهو مقام البقاء قد يتصور منه السؤال على وجه العبودية لا على وجه الاقتضاء والطلب كما تقدم. ثم بيَّن مستندهم في ترك الطلب، فقال:

167 ـ (اعتماداً على قسمته واشتغالاً بذكره عن مسالته)

قلت: أما الاعتماد على القسمة الأزلية فقد تقدم الكلام عليها في الحكمة قبل هذه. وأما الاشتغال بالذكر عن المسألة فقد تقدم قريباً في الحديث **«من شغله ذكري عن مسألتي»**[3]. وقال الواسطي رضي الله عنه: ما جرى لك في الأزل خير من معارضة الوقت، يعني بالطلب للحظ. وقال القشيري: إذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء دعا كما إذا وجد نشاطاً أو انبساطاً للدعاء، فالدعاء أولى وإذا وجد في قلبه قبضاً فالسكوت أولى.

* * *

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، من شغله ذكري عن مسألتي...، حديث رقم (584) [1/ 340] والبيهقي في شعب الإيمان حديث رقم (572) [1/ 413] ورواه غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

وقال بعضهم: ما سألت الله تعالى بلساني شيئاً منذ خمسين سنة ولا أريد أن أدعو ولا أن يدعى لي اهـ.

وذلك لأن الله سبحانه ليس بغافل حتى يذكر بل هو عليم بخفيات أمورك فيأتيك منها ما قسم لك. كما بيَّن ذلك بقوله:

168 ـ (إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال)

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا﴾ [البَقَرَة: الآية 74] ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 75] ولا يحتاج إلى تنبيه لأنه لا يهملك فيما هو من قسمتك كما بيَّنه بقوله:

168 ـ (وإنما ينبه من يجوز عليه الإهمال)

والحق تعالى لا يجوز عليه الإهمال لكمال قدرته وإحاطة علمه ولكن حكمته اقتضت ارتباط الأسباب والعلل وتقديم الأشياء وتأخيرها، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: الآية 8] فمن كمل يقينه اكتفى بتدبير الحق عن تدبيره واستغنى بعلم الله عن استعجاله ورضي بتصريف الحق فيما يفعل فيكون إبراهيمياً حنيفياً ولا شك أن من كان على ملّة إبراهيم عليه السلام اقتدى به. وقد كان بين السماء والأرض حين رمي به فاستغنى بعلم الله عن سؤاله فكانت حالة سيدنا إبراهيم عليه السلام في ذلك الوقت الاستغراق في الحقيقة، فلما رد للشرائع دعا فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: الآية 41]، ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 83].

* * *

وكذلك الأنبياء عليهم السلام أكثروا من الدعاء للتشريع والتعليم وإظهار الفاقات التي هي مواسم وأعياد كما أبان ذلك بقوله:

169 ـ (ورود الفاقات أعياد المريدين)

قلت: الأعياد جمع عيد، وهو ما يعود على الناس بالأفراح والمسرة، فالعوام فرحهم ومسرتهم بالحظوظ والعوائد الجسمانية والخواص فرحهم بإقبال الملك عليهم ووجود قلوبهم وصفاء وقتهم من كدرات الأغيار، والغالب أن هذه المعاني إنما توجد عند الفاقة والحيرة والإضطرار حيث ينقطع حظ النفس فيها، لأن النفس كلما ضيقت عليها رحلت إلى عالم الملكوت، وفي ذلك العالم راحتها وفرحها ومسرتها. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات: الآيتان 40، 41]، وهما جنتان معجلة ومؤجلة، فلأجل هذا آثرت الصوفية

الفقر على الغناء والشدة على الرخاء والذلّ على العز والمرض على الصحة، لما يحصل لهم بذلك من الرقة والحلاوة، وكلما ازدادوا فاقة زادهم الله قرباً وولاء.

وكان بعضهم يطوف حول الكعبة ويقول:

مؤتزرٌ بشملتي كما تَرى وصبيةٌ باكيةٌ كما تَرى

وامرأتي عريانةٌ كما تَرى يا من يَرى الذي بنا ولا يُرى

أما تَرى ما حلَّ أما تَرى

فسمعه بعضهم فجمع له كسراً ودفعها إليه، فقال له: إليك عني لو كان معي شيء لما أمكنني أن أقول هذا القول.

وقال أبو إسحٰق الهروي رضي الله عنه: من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعاً على سبع، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير، اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع، والدون على المرتفع، والذلّ على العزّ، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة اهـ.

وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليتحرز من الغنى حذراً أن يدخله فيفسد عليه فقره، كما يتحرز الغني من الفقر حذراً أن يفسد عليه غناه.

وأنشدوا[1] في أعياد العارفين:

قالوا غداً العيدُ ماذا أنتَ لابسُهُ فقلتُ خلعة ساق [حبه جرعَا][2]

فقرٌ وصبرٌ هما ثوباي تحتهما قلبٌ يرَى إلفه الأعيادَ والجمعَا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيبَ بها يومَ التزاورِ في الثوبِ الذي خلعَا

الدهرُ لي مأتمٌ إن غبتَ يا أملي والعيدُ ما كنتَ مرأى لي ومستمعَا

وقال آخر:

قالتْ هنا العيدُ بالبُشْرَى فقلتُ لها العيدُ والبُشْرَى عندي يومَ لقياكَ

اللّهُ يعلمُ أنَّ الناسَ قد فرحُوا فيهِ وما فرحتِي إلّا برؤياكَ

* * *

ثم بيَّن وجه كون الفاقة عيداً، فقال:

---

(1) منشد هذه الأبيات هو العارف بالله تعالى أبو بكر الشبلي دلف بن جحدر المتوفى سنة 334هـ. (موسوعة الشعر العربي، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(2) وفي نسخة [حسنة برعا].

170 ـ (ربما وجدت من المزيد في الفاقات ما لاتجده في الصوم والصلاة، الفاقات بسط المواهب. إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: الآية 60]

قلت: إنما كان الإنسان يجد في الفاقة من المزيد ما لا يجده في الصوم والصلاة لأن الفاقة من أعمال القلوب والصوم والصلاة من أعمال الجوارح والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، الفاقات قوت الروح والصوم والصلاة قوت القلب، والروح محل المشاهدة والقلب محل المراقبة وما بينهما معلوم.

قال بعضهم: اعلم أن المدد الذي هو الفتح الرباني إنما يقع في القلوب الفارغة من العوائق والشواغل، وقد يوجد العبد كثير الصلاة والصيام وباب قلبه مسدود لاشتغاله بأمور دنياه وهم الأكثر من الناس، وقد يوجد العبد قليل الصوم والصلاة وباب قلبه مفتوح للعلوم اللدنية والتنزلات الفهمية وهم الأقلون من الناس، وكل العبادات يدخلها الرياء إلَّا الخمول لكونه لا حظ للنفس فيه اهـ.

وفي بعض الأخبار، يقول الله تبارك وتعالى لعبده: «سبكتك بالفاقة لتكون ذهباً» الحديث. قال في التنوير[1]: اعلم أن في البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلَّا أولو البصائر، ولو لم يكن إلَّا تذلل النفس وتحقيرها وقطعها عن حظوظها لكان في ذلك غاية المطلوب منها، وقد قيل: حيثما وقعت الذلّة وقعت معها النصرة. قال الله العظيم: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ [آل عمران: الآية 123] اهـ.

فإن أردت أيها الفقير بسط المواهب وورودها عليك فصحح الفقر والفاقة لديك، فإذا صححت الفاقة والفقر عندك فاستعد لكتب المواهب فإنها ترد عليك كالسحاب، وقد قلت في هذا قصيدة سيأتي ذكرها قريباً إن شاء الله:

وإن تردن بسط المواهب عاجلاً ... ففي الفاقة ريح المواهب ينشر

والمراد بالمواهب، معارف وكشوفات وطمأنينة وحكم وعلوم وأسرار ترد على القلوب من خزائن الغيوب حال صفائها وتصفيتها من الغيرية، وأصفى ما يكون القلب حين تذهب النفس، وذهاب النفس إنما يكون بترك حظوظها، ولا يتحقق ذلك في الغالب إلَّا في حال الفاقة والفقر، ولذلك كانوا يفرحون بالفقر ويحزنون من الغنى.

فتح على بعضهم بشيء من الدنيا، فقال: هذه عقوبة لم أدر ما سببها.

---

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

وقال الهروي: الفقر صفة مهجورة، وهو ألذّ ما يناله العارف لكونها تدخله على الله وتجلسه بين يديه وهو أعم المقامات حكماً لقطع العوائق والتجرد من العلائق واشتغال القلب بالله.

قيل: الفقير الصادق لا يملك ولا يملك. وقيل لسهل رضي الله عنه: متى يستريح الفقير، قال: إذا لم ير في كل وقت غير ربه.

وقال الشبلي: الفقير لا يستغني بشيء دون الله. وقال السهروردي في عوارف المعارف: الفقر أساس التصوف وبه قوامه، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد مع زيادة أحوال لا بد منها للصوفي وإن كان فقيراً زاهداً.

وقال بعضهم: نهاية الفقر بداية التصوف لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني والخروج عن كل خلق دني، لكنهم اتفقوا أن لا دخول على الله إلّا من باب الفقر، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم والتحقق بالفقر هو الاستئناس به والاغتباط بحصوله والاستقرار معه حتى يكون عنده أحلى من العسل ويكون الماء عنده أمر من الحنظل فحينئذ تترادف عليه المواهب وتتسع له المعارف حتى يكون أغنى الأغنياء.

قال بعض الصالحين: كان لي بعض مال فرأيت فقيراً في الحرم جالساً منذ أيام ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة، فقلت: أغنيه بهذا المال، فألقيته في حجره وقلت: استعن بهذا على دنياك، فنفض بها في الحصباء، وقال لي: اشتريت هذه الجلسة مع ربي بما ملكت وأنت تفسدها عليّ، ثم انصرف وتركني ألقطها، فوالله ما رأيت أعز منه لما بددها ولا أذلّ مني لما كنت ألقطها. وهذا هو تصحيح الفقر والفاقة ظاهراً وباطناً.

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزيناً، وإذا لم يصبح عنده شيء أصبح فرحاً مسروراً، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا، فقال: إني إذا لم يصبح عندي شيء فلي برسول الله أسوة حسنة، وإذا أصبح عندي شيء لم يكن لي برسول الله أسوة حسنة.

قلت: وهذه حالة أشياخنا رضي الله عنهم حسبما استقريناه من حالهم، وقد بلغني أن شيخ شيخنا مولاي العربي [الدرقاوي] رضي الله عنه كان يشعل الفتيلة وينظر في نواحي البيت إذا وجد شيئاً أخرجه يتصدّق به ويبيت على الفاقة، هكذا كان حاله في حال تجريده رضي الله عنه.

هذا واستشهد المؤلف رضي الله عنه بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: الآية 60] إشارة إلى أن ما يهبه الله تعالى من المواهب والمعارف إنما هي صدقة ومنّة لا جزاء على الأعمال والأحوال لأن الصدقة لا تكون في مقابلة عمل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

* * *

ثم التحقق بالفقر مجموعه التحقق بأوصاف العبودية وهي الذل والعجز والضعف، كما بيَّن ذلك بقوله:

171 ـ (تحقق باوصافك يمدك باوصافه، تحقق بذلّك يمدك بعزّه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوّته)

قلت: أوصاف العبودية أربعة يقابلها من أوصاف الربوبية أربعة، **أولها**: من العبد الفقر ومن الله الغنى. **الثاني**: من العبد الذل ومن الله العزّ. **الثالث**: من العبد العجز ومن الله القدرة. **الرابع**: من العبد الضعف ومن الله القوة.

والتحقق بالوصف هو التحلّي والاتصاف به قلباً وقالباً، ويكون ذلك بادياً بين خلقه فلا يتحقق الذل لله حتى يظهر ذلك بين عباده، فمن أراد أن يمده الله بالغنى به عما سواه فليتحقق بالفقر مما سواه، كما قال الشيخ أبو الحسن في حزبه الكبير: نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد إلّا إياك. ومن أراد أن يمده الله بالعز الذي لا يفنى فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره ومن أراد أن يمده الله بالقدرة الخارقة للعوائد فليتحقق بعجزه ويتبرأ من حوله وقوته، ومن أراد أن يمده الله بالقوة على طاعة مولاه ومجاهدة نفسه وهواه فليتحقق بضعفه ويسند أمره إلى سيده، فبقدر ما تعطي تأخذ، وبقدر ما تتخلق تتحقق وبقدر ما تتحقق، بوصفك يمدك بوصفه، وقد كنت قلت في ذلك أبياتاً، وهي هذه:

تحققْ بوصفِ الفقرِ في كلِّ لحظةٍ ... فما أسرعَ الغنَى إذا صُحِّحَ الفقرُ
وإن تُردْنَ بسطَ المواهبِ عاجلاً ... ففي الفاقةِ ريحُ المواهبِ يُنشرُ
وإن تُرِدْنَ عزّاً منيعاً مؤيَّداً ... ففي الذلّ يخفى العِزُّ بلْ ثُمّ يظهرُ
وإن تُرِدْنَ رفعاً لقدركَ عالياً ... ففي وضعكَ النَّفْسِ الدَّنِيَّةِ يحضُرُ
وإن ترد العرفانَ فافنَ عن الورَى ... وعنْ كلِّ مطلوبٍ سوَى الحقِّ تَظْفَرُ
ترى الحقَّ في الأشياءِ حينَ تَلَطَّفَتْ ... ففي كل موجودٍ حبيبي ظاهرُ

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والضعف والذل لله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبية فما لك ولها، فلازم أوصافك وتعلّق بأوصافه، وقل من بساط الفقر الحقيقي: يا غني من للفقير سواك، ومن بساط الضعف الحقيقي: يا قوي من للضعيف سواك، ومن بساط العجز الحقيقي: يا قادر من للعاجز سواك، ومن بساط الذلّ الحقيقي: يا عزيز من للذليل سواك، تجد الإجابة كأنها طوع يدك واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين. ولا يصح التحقق بالوصف حتى يتعلق بأضدادها من مولاه فلا يلتجىء في فقره ولا عجزه ولا ضعفه إلى أحد سواه.

روي أن بعض الملوك قال لبعض الفقراء: ما يكون لك من حاجة فارفعها إليّ، فقال له الفقير: قد رفعت حوائجي لمن هو أقدر منك فما أعطاني منها رضيت به وما منعني منها رضيت عنه. فقال له: ولا لك حاجة عندي، قال: بلى، قال: وما هي، قال: لا تراني ولا نراك. وأنشدوا:

ملكتُ نفسي وكنتُ عبدَاً فزالَ رقّي وطابَ عيشي

أصبَحْتُ أرضى بحكمِ ربي إنْ لَمْ أكُنْ راضياً فأيشي

فهذا هو التعلق بوصف الربوبية والتعزز بالله الذي لا يفنى عزّه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية 8] ومن تعزّز بالله ذلّ له كل شيء.

وقد حج شيبان الراعي مع سفيان الثوري، فلما كانا في البرية عرض لهما سبع فأخذ سفيان خارج الطريق ومضى إليه شيبان ثم عرك أذنه فلم يزد أن حرَّك ذنبه وبصبص وانصرف، فقال له سفيان: ما هذا يا شيبان، فقال له: لو شئت أن أركبه إلى مكة لفعلت.

وكانت عجوز تأتي كل يوم لبيت السري السقطي فتكنس بيته وتسوق له بعض القوت، فسئل: من هي، فقال: الدنيا سخرها الله لي لما زهدت فيها. وفي هذا المعنى ورد الحديث، يقول الله تعالى للدنيا: «يا دنيا اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك»[1].

وقال إبراهيم بن أدهم: من طلب الفقر استقبله الغنى، ومن طلب الغنى استقبله الفقر، والغنى هو الغنى بالله.

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، يا دنيا اخدمي. . .، حديث رقم (1454) [2/ 325] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (8064) [5/ 239] ورواه غيرهما.

وقال سهل رضي الله عنه: لم يشم رائحة اليقين من ركن لغير الله.

وقال أبو تراب: رأيت شاباً في البادية يمشي بلا زاد، فقلت: في هذا الموضع بلا زاد، قال: لست أرى غير الله، فقلت اذهب الآن حيث شئت.

وقال إبراهيم الخواص: لقيت فقيراً في البادية، فقلت له: إلى أين، فقال: إلى مكة، قلت: بلا زاد ولا راحلة، فقال: الذي يمسك السماوات والأرضين ويحفظهما لا يعجزه قوتي بلا سبب ولا علاقة، فقلت: صدقت. ثم رأيته بعد ذلك في مكة وهو يطوف ويقول:

يا عينُ سحّي أبداً يا نفسُ موتي كمدَا
ولا تحبّي أحداً إلا الإلٰهُ الصمدَا

فلما رآني قال لي: ما زلت على ضعف يقينك، فقلت: لا بل أعلم أن الله على كل شيء قدير. اهـ.

هذا آخر الباب التاسع عشر، **وحاصله**: أن العارفين ربما دلّهم الأدب على ترك الطلب اكتفاء بعلم الله إذ لا يذكر إلَّا الغافل ولا ينبّه إلَّا الساهي، وتعالى الله عن الأمرين علوّاً كبيراً، فإذا نزلت بهم فاقة أو شدّة لم يسألوا رفعها بل فرحوا بها وجعلوها مواسم وأعياداً لما يجدون فيها من المزيد، وما يهب على قلوبهم من نسيم التوحيد والتفريد، وهي المواهب الربانية والعلوم اللدنية فتحققوا بأوصافهم وأمدّهم بأوصافه فصاروا في الظاهر عبيداً وفي الباطن أحراراً، في الظاهر فقراء ضعفاء أذلاء وفي الباطن أغنياء أقوياء أعزاء، وهذه هي الكرامة العظمى دون الكرامة الحسية، كما أشار إلى ذلك في أول الباب الموفي عشرين.

[الباب الموفي عشرين]

فقال: رضي الله عنه:

172 ـ (ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة)

قلت: الكرامة الحسية هي خرق الحس العادي كالمشي على الماء والطيران في الهواء، وطي الأرض، ونبع الماء، وجلب الطعام، والاطلاع على المغيّبات وغير ذلك من خوارق العادات.

والكرامة المعنوية هي استقامة العبد مع ربه في الظاهر والباطن وكشف الحجاب عن قلبه حتى عرف مولاه، والظفر بنفسه ومخالفة هواه، وقوة يقينه وسكونه وطمأنينته بالله، والمعتبر عند المحققين هي هذه الكرامة. وأما الكرامة الحسية فلا يطلبونها ولا يلتفتون إليها، إذ قد تظهر على يد من لم تكمل استقامته بل قد تظهر على يد من لا استقامة له أصلاً كالسحرة والكهان، وقد تظهر على أيدي الرهبان وليست بكرامة إنما هي استدراج.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان، كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضى عن الله تعالى. قال: وكل كرامة لا يصحبها الرضى عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور. اهـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض، فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان إنما الشأن من تطوى له صفات نفسه فإذا هو عند ربه.

قلت: والكرامة الحقيقية هي الاستقامة على الدين وحصول كمال اليقين، وأما خوارق العادات الحسية فإن صحبتها الاستقامة ظاهراً وباطناً وجب تعظيم صاحبها لأنها شاهدة له بالكمال مما هو فيه وإن لم تصحبها استقامة فلا عبرة بها. والغالب أن أهل الباطن كرامتهم باطنية ككشف الحجب ومزيد الإيمان ومعرفة الشهود

والعيان، وكذلك عقوبة من آذاهم جلها باطنية لا يتفطنون لها كقساوة القلب والانهماك في الذنوب والغفلة عن الله والبعد عن حضرته ولكن لا يشعرون، وهي أعظم من العقوبة في الحس.

والحاصل: أن أهل الاستقامة الظاهرية كرامتهم ظاهرية حسية، وأهل الاستقامة الباطنية كرامتهم باطنية معنوية. أهل الظاهر من آذاهم عوقب في الظاهر، وأهل الباطن من آذاهم عوقب في الباطن، وقد لا يعاقب لأنهم رحمة [و] كل من قرب منهم شملته الرحمة، كان قربه تسليماً أو إنكاراً، هم قوم لا يشقى جليسهم على قدم النبي ﷺ حيث قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1] وكل ولي أراد الله تعالى أن ينتفع الناس على يده لا يعاجل بالعقوبة من آذاه اقتداء برسول الله ﷺ حيث خيّره ملك الجبال فحلم ﷺ وعفا وقال: «**لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلّا الله**»[2] والله تعالى أعلم.

* * *

وأعظم الكرامة الفهم عن الله والرضى بقضاء الله وترك التدبير والاختيار مع الله، وإقامة العبد حيث أقامه الله كما أبان ذلك بقوله:

173 ـ (من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج)

قلت: إذا أقام الحق تعالى عبده في حالة لا يستقبحها الشرع ولا يذمها سليم الطبع، فلا ينبغي له الانتقال عنها بنفسه حتى يكون الحق تعالى الذي أدخله فيها هو الذي يتولى إخراجه منها، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [**الإسرَاء: الآية 80**] فالمدخل الصدق أن تدخل في الشيء بالله لا بنفسك، والمخرج الصدق أن تخرج منه بالله لا بنفسك، فإذا أقامك الحق تعالى في الأسباب فلا تخرج منها بنفسك فتتعب، فامكث حتى يخرجك الحق تعالى بإشارة صريحة من شيخك أو من هاتف من عند ربك. وقد تقدم هذا في أول الكتاب. ومن علامة إقامة الله تعالى لك في ذلك الشيء الذي أنت فيه إدامة الحق إياك في ذلك الشيء مع حصول النتائج

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، حديث الغار، رقم (3289) [3/ 1282] وفي باب إذا عرض الذمي. . .، حديث رقم (6530) [6/ 2539] ورواه مسلم في صحيحه، باب غزوة أحد، حديث رقم (1792) [3/ 1417] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب إذا قال أحدكم آمين. . .، حديث رقم (3059) [3/ 1180] ولفظه: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً». ورواه مسلم بلفظه، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، حديث رقم (1795) [3/ 1420] ورواه غيرهما.

وسلامة الدين، والمراد بالنتائج ما يترتب عليه من إعطاء حقه الواجب والمستحب، كأداء الزكاة وإطعام الجائع وستر العريان وإغاثة اللهفان، وغير ذلك من أنواع الإحسان.

وإذا أقامه الحق تعالى في نشر العلم الظاهر، فعلامة إقامة الحق فيه تعليمه لله ونفع عباد الله والزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله، والتواضع والصبر على جفاء المتعلمين، وهكذا سائر الحرف إذا كان فيها على المنهج الشرعي فلا ينتقل عنها بنفسه، وإذا أقامك الحق تعالى في التجريد فالزم الباب وتحل بالآداب حتى يفتح لك الباب. فعلامة إقامته إياك فيه حصول نتائجه وهي الترقّي في الأحوال والمقامات حتى تبلغ النهايات، والمقامات هي التوبة والتقوى والاستقامة والزهد والورع والخوف والرجاء والرضى والتسليم والإخلاص والصدق والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة والمعرفة، وكل مقام له علم وعمل وحال فأوله علم وثانيه عمل وثالثه حال، ثم مقام فإذا بلغ إلى مقام المعرفة وتمكن فيها انقطعت المقامات.

* * *

قال بعضهم: في بحر التوحيد غاصت الأحوال وانطمست المقامات ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النّجم: الآية 42] فحينئذ يغمس في بحر الإحسان، فإذا عبر من بساط إحسان الله له لم يصمت إذا أساء، كما أبان ذلك بقوله:

174 ـ (من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة، ومن عبر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء)

قلت: أهل التعبير، وهم أهل التذكير، الذين يذكرون عباد الله ويعبرون عما منحهم الله به من العلوم والمواهب والفتوحات والكرامات، على قسمين: علماء وعارفون، أو تقول: أهل الحجاب وأهل الفتح.

فأهل الحجاب يعبرون من بساط إحسان أنفسهم فيقولون فعلنا كذا ورأينا كذا وفتح علينا في كذا، وافعلوا أيها الناس كذا واتركوا كذا، فإذا وقعوا في زلة أو هفوة سكتوا حياء من الله وخوفاً أن يأمروا بما لم يفعلوا لأنهم باقون مع نفوسهم محجوبون عن ربهم، فإذا فعلوا طاعة فرحوا بها واعتمدوا عليها، وإذا فعلوا زلّة حزنوا وجزعوا وسقط في أيديهم. فلما عبروا من بساط إحسان نفوسهم أصمتتهم الإساءة.

وأهل الفتح من العارفين يعبرون من بساط إحسان الحق غائبين عن شهود الخلق، فانون عن أنفسهم، باقون بربهم، فهؤلاء إذا عبروا عما منحهم الله من

المعارف والأسرار والعلوم والأنوار والكرامات والفتوحات والمواهب، وذكروا فأمروا ونهوا دام تعبيرهم ونفع تذكيرهم، فإذا أساؤوا لم تصمتهم إساءتهم لأن إساءتهم من أنفسهم وتعبيرهم من بساط إحسان الله إليهم وإحسانه لا يكدره شيء.

وقولنا: من أنفسهم، أعني أدباً فقط إذ هم لا يشهدون إلَّا تصريف الحق فيهم فلذلك لم تصمتهم إساءتهم لأنهم مغموسون في بحر المنّة لا يشهدون في الكون سواه، وأيضاً من عبر من بساط نفسه نادته مساويه: اسكت أما تذكر فعلك القبيح ووصفك الذميم، فيسكت خجلاً.

* * *

ومن عبر من بساط إحسان الله غابت عنه مساويه لغيبته في محاسن مولاه فلا يشهد إلَّا إياه، فإذا أراد أن يعبر سبق نور معرفته إلى قلوب عباده فيسري فيهم التعبير ويأخذ بقلوبهم التذكير كما أبان ذلك بقوله:

175 - (تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيثما صار التنوير وصل التعبير)

قلت: الحكماء هم العارفون بالله الذين يتكلمون بالله ويصمتون بالله، غائبون عن أنفسهم يشهدون ما من الله إلى الله، فإذا أرادوا أن يعبروا عما منحهم مولاهم من العلوم والمعارف سبق نور شهودهم إلى القلوب المستمعة فتسري فيهم على قدر صدقهم، **فمنهم** من يدخل النور سويداء قلبه، **ومنهم** من يقف النور على ظاهر قلبه، **ومنهم** من يشرق النور على طرف قلبه، فإذا عبر العارف عن المقامات والأحوال وصل التعبير على قدر سريان النور فمن وصل النور إلى سويداء قلبه نهض من ساعته إلى ربه، ومن وصل إلى ظاهر قلبه خشع وخضع وعزم على البر والتقوى، ومن وصل إلى طرف قلبه عرف الحق وصدق، فحيثما صار التنوير وصل التعبير.

وقولنا في تفسير الحكماء: هم العارفون مأخذنا فيه قوله عليه السلام: «**رأس الحكمة مخافة الله**»[1] اهـ. وأعرف الناس بالله أشدهم له خشية وفيهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية 28].

وسئل مالك عن الحكمة، فقال: ما زهد عبد واتقى إلَّا أنطقه الله بالحكمة. ثم قال: من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله في السر أكثر من عمله في العلانية لأن عمل السر منبع الإخلاص والإخلاص منبع الحكمة. وسئل مرة أخرى

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (115) [1/ 100] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (3258) [2/ 270].

عن الحكمة أيضاً فقال: نور يقذفه الله في قلب العبد المؤمن من فسحة الملك. اهـ. فأهل التنوير هم الحكماء وهم العارفون بالله. ولله در القائل في وصفهم حيث قال:

هينونَ لينونَ أيسارٌ ذوو يَسَرٍ ... سُوَّاسُ مكرمةٍ أبناءُ أيسار

لا ينطقونَ بغيرِ الحق إن نطقُوا ... ولا يمارون إن مارُوا بإكثار

من تَلْقَ منهم تقلْ لاقيت سيِّدَهُم ... مثلُ النّجومِ التي يسري بها الساري

وقولنا في وصفهم: يشهدون ما من الله إلى الله، يعني أنهم غائبون عن أنفسهم لا يرون إلَّا تصريف الحق في مظاهر أنواره.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: الناس على ثلاثة: عبد يشهد ما منه إلى الله، وعبد يشهد ما من الله إليه، وعبد يشهد ما من الله إلى الله. الأول ذو حزن وأشجان، والثاني ذو فرح وامتنان، والثالث لم يشغله عن الله خوف نار ولا مثوى جنان. الأول ذو كد وتكليف، والثاني ذو عناية وتعريف، والثالث مشاهد للمولى اللطيف. ثم قال: وقليل العمل مع شهود المنَّة خير من كثيره مع رؤية التقصير من النفس. اهـ مختصراً.

* * *

ثم ذكر علامة التعبير الذي يسبقه التنوير والذي يسبقه التكدير، فقال:

176 ـ (كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

قلت: علامة الكلام الذي يسبقه التنوير هو تأثيره في القلوب وتهييجه الأرواح وتشويقه الأسرار، فإذا سمعه الغافل تنبه وإذا سمعه العاصي انزجر، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه، وإذا سمعه السائر طوى عنه تعب سيره، وإذا سمعه الواصل تمكن من حاله. فالكلام صفة المتكلم فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع في قلوب السامعين، وإذا كان ذا تكدير حد كلامه آذان المستمعين فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز، ولذلك قال سيدنا عليٌّ كرَّم الله وجهه: «من تكلم عرفناه من ساعته ومن لم يتكلم عرفناه من يومه».

وقيل: الناس حوانيت مغلقة فإذا تكلموا فقد فتحوا [و] هناك يتبين البيطار من العطار.

وقالوا أيضاً: الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان حده الآذان، وإنهاض الحال أكثر من المقال، وإذا اجتمع الحال والمقال فهو البحر

الطّام، والنجم الثاقب التّام.

وقال بعض العارفين: من كان قلبه روحانياً كان كلامه معنوياً ينزل من القلوب في أوسع ساحاتها، ومن كان قلبه نفسياً كان كلامه حسياً. يعني لا يتكلم إلّا في الحس ولا يخوض إلّا فيه، ومن طمس أذنَ قلبه حجبُ الدنيا فلا يَسمع ولا يُسمع، وقد يكون من الناس من هو عالم اللسان جاهل القلب وعلامته ترجيح حديث الدنيا على حديث الآخرة، أو حديث الحس على حديث المعنى، ومن مثل هذا الحذر الحذر لأن قلبه ميت فكلامه كله على الميتة والميتة هي الجيفة.

قال ﷺ: **«الدنيا جيفة وطلابها كلاب»**[1] فمن تكلم على الدنيا فمثله كالكلب ولا خير في كلب ولو كان عالماً. قاله الشطيبي.

* * *

ثم إن هذه الكسوة التي تبرز على الكلام إنما هي من نتائج الإذن من الله فيه، وأما إذا لم يكن إذن فيه فلا كسوة عليه كما أبان ذلك بقوله:

177 ـ (من أُذن له في التعبير حسنت في مسامع الخلق عبارته وجُلِّيَتْ إليهم إشارته).

قلت: الإذن في التعبير إنما يكون على يد الشيخ الكامل العارف الذي أهلّه الله للتربية ونصبه للتوصيل والترقّية، فإذا رأى على تلميذه أهلية التذكير أذن له في التعبير، فإذا عبر أخذ بمجامع القلوب وفاض من لسانه أسرار علم الغيوب فتحسن في مسامع الخلق عبارته وتجلى إليهم إشارته، أي تظهر وتفهم، ولا عبرة عند المحققين بلحن الكلام وإعرابه ولا خطأ في رفعه ونصبه من صوابه وإنما العبرة بالمعاني دون القوالب والأواني.

يحكى أن بعض النحويين دخل مجلس الحسن بن سمعون ليسمع كلامه فوجده يلحن فانصرف ذامّاً له، فبلغ ذلك الحسن، فكتب له: إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك، وأنك قد تهت بين خفض ورفع ونصب وجزم فانقطعت عن المقصود، هل لا رفعت إلى الله جميع الحاجات وخفضت كل المنكرات وجزمت عن الشهوات ونصبت بين عينيك الممات، والله يا أخي ما يقال للعبد لِمَ لَمْ تكن معرباً، وإنما يقال له: لِمَ كنت مذنباً. ليس المراد فصاحة المقال وإنما المراد فصاحة الفعال، ولو كان الفضل في

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1313) [1/ 492].

فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى حيث يقول: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القَصَص: الآية 34] اهـ. ومما ينسب للخليل رحمه الله أو لسيبويه:

لسانٌ فصيحٌ مُعْرِبٌ في كلامِهِ فيَا ليتَهُ من وَقْفَةِ العرضِ يَسْلَمُ
ولا خير في عبد إذا لم يكن تقياً[1] وما ضَرَّ ذَا تَقْوَى لسانٌ مُعْجِمُ

وقال آخر:

منحرفٌ بالفعالِ وذُو زللٍ وإنْ تكلَّم في جَدَالِهِ وَزَنَهْ
قالَ وقدْ كتبتْ لفظتُهُ فتيهاً وعجباً أخطأ ما لَحَنَهْ
وإنَّما أخطأ من قَام غَدَاً ولا يَرَى في كتابِهِ حسَنَهْ

وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه إذا ذكر من تقدم له في العربية يقول له: أنت اترك شيئاً من عربيتك وأنا أترك شيئاً من جبليتي، يعني من اللغة الجبلية، ونلتفت للطريق.

والحاصل أن من اجتمع فيه الحال وفصاحة المقال فهو كمال الكمال، وذلك لأنه ينتفع بكلامه بعد موته كالغزالي والششتري والشاذلي والمرسي والشيخ رضي الله عنهم، فقد عظم النفع بكلامهم وأعظمهم المؤلف رضي الله عنه، فقد حاز قصب السبق في التعبير ونسخت كتبه كتب القوم، وقد شهد له شيخه بهذا المعنى فقال: والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله. وقال له: والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك شأن عظيم. وقال فيه أيضاً حين نسخ له كتاب التهذيب: والله لأجعلنك عيناً من عيون الله يقتدى بك في عالم الظاهر والباطن. وقال فيه أيضاً: والله ما أرضى له بجلسة جدِّه ولكن بزيادة التصوف. وكان جدُّه فقيهاً شرح المدونة[2]، اسمه عبد الكريم، وكلام الشيخ رضي الله عنه يدل على مقامه وما تخلص التصوُّف ولا تهذّب إلَّا على يديه، فقد قرَّب المدارك وبيَّن المسالك في أحسن عبارة وأوجز لفظ وإشارة، جزاه الله عن المسلمين خيراً.

* * *

(1) وفي نسخة [وما ينفعُ الإعرابُ إنْ لم يكُنْ تُقى].
(2) المدونة: كتاب في فروع المالكية لأبي عبد الله الرحمان بن القاسم المالكي المتوفى سنة 191 وهي من أجل الكتب في مذهب مالك. وُضِع لها شروح عدّة.

ثم بيَّن رضي الله عنه الكلام الذي لم يؤذن لصاحبه في التعبير عنه، فقال:

177 ـ (ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار)

قلت: قد يتكلم الإنسان بحكم وحقائق مع فصاحة وبلاغة وشقاشق[1]، لكنها مكسوفة الأنوار مطموسة الأسرار ليس فيها حلاوة ولا عليها طلاوة، سبب ذلك عدم الإذن فيها إذ لو أذن له في التعبير لظهر عليها كسوة التنوير.

قال في لطائف المنن: من أجلّ مواهب الله لأوليائه وجود العبارة. قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: الولي يكون مشحوناً بالمعارف والعلوم والحقائق لديه مشهورة حتى إذا أعطى العبارة كان ذلك كالإذن من الله في الكلام. وقال: وسمعت أبا العباس يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر. اهـ.

قلت: وينبغي لأهل التعبير أن يخاطبوا الناس بقدر ما يفهمون فليس التعبير لأهل البداية كأهل النهاية. وفي الحديث: «**خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون**»[2]. نعم إن ضاق الوقت على التفريق جمع الكل. وذكر في البداية والوسط والنهاية وكل واحد يأخذ نصيبه ويشرب من منهله ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 60] وهذه كانت طريقة الجنيد رضي الله عنه، يلقي الحقائق على رؤوس الأشهاد فقيل له في ذلك فقال: علمنا محفوظ أن يأخذه غير أهله. أو ما هذا معناه.

* * *

ثم عبارتهم بعد الإذن لا تكون إلَّا لحكمة بيَّنها الشيخ بقوله:

178 ـ (عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد)

قلت: ما اشتملت عليه قلوب العارفين من المعارف وأسرار التوحيد وغوامض العلوم التي لا تطيقها جل الفهوم، هو سر من أسرار الله وهم أمناء الله عليها، فلا

---

(1) الشَّقْشِقَةُ: لَهَاةُ البعير ولا تكون إلَّا للعربي من الإبل. وقيل: هو شيء كالرِّئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج، والجمع الشَّقاشِقُ، ومنه سُمِّي الخطباء شَقاشِقُ، شبَّهوا المِكْثار بالبعير الكثير الهَدْرِ. وفي حديث علي رضي الله عنه: «أن كثيراً من الخُطَبِ من شَقاشِق الشيطان»، فجعل للشيطان شَقاشِق ونَسب الخطبَ إليه لما يدخل فيها من الكذب. قال أبو منصور: شبَّه الذي يتفَيْهَقُ في كلامه ويَسْرُدهُ سَرْداً لا يبالي ما قال من صِدْقٍ أو كذب بالشيطان وإسخاطه ربّه».

(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء بلفظ: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» حديث رقم (592) [1/ 225].

يطلعون عليها إلَّا من رأوه أهلاً لها، إلَّا من كان مغلوباً على حاله لا يقدر على إمساكها، وهو من لم يتمكن من حاله فيها، فعبارتهم إذاً إما لفيضان وجد غلبه فلم يقدر على إمساكها أو لأجل هداية مريد وإرشاده، وترقيته إلى مقام استحق الاطلاع عليه، وإلا فلا يظهرون من تلك الأسرار قليلاً ولا أقل من القليل، وقد تقدم قول بعضهم:

قـــلـــوبُ الأحـــرارِ   قـــبـــورُ الأســـرار

وقال آخر:

لا يـكـتُـمُ الـسـرَّ إلَّا كـلُّ ذي ثـقـةٍ   فـالـسـرُّ عـنـدَ خـيـارِ الـنـاسِ مكتومُ

ثم بيَّن حال الفريقين ومقام الرجلين، فقال:

178 ـ (الأول: حال السالكين)

وهم المستشرفون من السائرين، حققوا ولم يتمكنوا فهم مملوكون في يد الأحوال إذا غلب عليهم الوجد فاضوا ولم يشعروا وإذا رجعوا إلى أنفسهم ندموا واستغفروا.

ثم بيَّن حال الثاني فقال:

178 ـ (والثاني: حال أرباب المكنة والمتحققين).

وهم الراسخون المتمكنون فلا يعبرون عن تلك الأسرار إلَّا لأجل هداية المريدين وتربية السالكين وترقية السائرين، وأما لغير هؤلاء فلا، فإنْ عبَّر عنها السالك لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى، وإن عبر عنها المتمكن من غير قصد هداية كان في ذلك إفشاء لأسرار الربوبية، وهي عندهم أعزّ من الكبريت الأحمر، وقد كان الرجل يخدمهم سنين فلا يظهرون له منها قليلاً ولا كثيراً، حتى إذا رأوه أعطى نفسه وفلسه وبذل روحه بالكلية أشاروا إليه إشارة خفية.

فقد ذكر شيخ شيوخنا سيدي علي [الجمل] في كتابه: أن طائفة من المريدين خدموا شيخاً ثلاثين سنة ثم قالوا له: يا سيدنا أردنا أن تعرّفنا بربنا فقال لهم: نعم غداً ائتوني لداري. فلما أتوه أخرج لهم صبياً صغيراً فوجهه إليهم ثم دخل. فانظر هذه الإشارة ما ألطفها وأخفاها. ثم منَّ الله على أهل هذا الزمان برجال كرام من صحبهم بالصدق منحوه من الأسرار في يسير من الزمان ما لم يدركه المتقدمون في الأزمنة الطويلة، جزاهم الله عن الأمة المحمدية خيراً.

وقد تكلم الشيخ أبو الحسن على حال السالكين والواصلين بكلام طويل ذكره

في لطائف المنن، ونقله الشطيبي فقال: إن لله عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته، وحمَّلهم من أوصافه ما يعجز عن سماعه عامة الخلق، فهم مغرقون في بحر الذات وتيار الصفات، فنوا عن أفعالهم ثم فنوا عن صفاتهم ثم فنوا عن ذاتهم وبقوا بذات الله تعالى ولم يبق لهم منهم شيء، ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه، ومن صح فناؤه صح بقاؤه.

ثم قال: واعلم أن الفناء يوجب الغيبة عما سوى الله، قلت: وهو مقام السالكين، والبقاء يوجب إيجاد كل شيء مع الله، يعني بالله، فصاحب الفناء يقوم الله عنه وصاحب البقاء يقوم بالله عن الله، وهما ولايتان، فولي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا، وولي يتولاه الله وهو يتولى الصالحين.

قال الشيخ أبو الحسن: وعلامة الولاية الرضى بالقضاء والصبر على البلاء والفرار إلى الله عند الشدائد والرجوع إليه عند النوائب، فمن أعطي هذه الأربعة من خزائن الأعمال والمجاهدة فقد صحت ولايته لله ورسوله وللمؤمنين، ومن أعطيها من خزائن المنن والموادة فقد تمَّت ولاية الله له، فالولاية الأولى ولاية صغرى، والولاية الثانية ولاية كبرى، قيل له: كيف يتولى الله ورسوله والذين آمنوا، قال: يتولى الله بالمجاهدة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: الآية 69]، ويتولى الرسول بالمتابعة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 31] ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية 80]، ويتولى المؤمنين بالاقتداء بهم وهي علامات من خاض بحر الولاية، وأما الذين تولاهم الله فهم الذين صلحوا لحضرته وغابوا عن خليقته فلا يرون في الوجود إلَّا الله، الأولى تسمى ولاية إيمان، وهذه ولاية إيقان. فقيل له: وما الفرق بين الإيمان والإيقان، قال: كل يقين إيمان وليس كل إيمان إيقاناً، فالإيمان ربما تدخله الغفلة والإيقان لا تدخله الغفلة، المؤمن يتجلى له الحق دون كل شيء والموقن يتجلّى له الحق في كل شيء، المؤمن فان عن كل شيء فلم يشهد مع الله شيئاً، والموقن باق في كل شيء فهو يشهد الله في كل شيء اهـ.

* * *

ثم بيَّن المؤلف رضي الله عنه فائدة التعبير وثمرة العبارة فقال:

179 ـ (العبارة قوت لعائلة قلوب المستمعين وليس لك منها إلاَّ ما انت له آكل)

قلت: العائل هو الفقير، والعائلة جمع له، فعبارة العارفين قوت لقلوب الفقراء الطالبين لزيادة إيقان قلوبهم ومشاهدة محبوبهم، فلا يزالون في حضانة الشيوخ

وعيالهم حتى يكمل إيقانهم وترشد أحوالهم، فحينئذ يستقلون بأنفسهم. وعلامة رشدهم أنهم يأخذون النصيب من كل شيء ولا ينقص من حالهم شيء، يفهمون عن الله في كل شيء ويعرفون في كل شيء ويشربون من كل شيء، فإذا كانوا كذلك فقد استقلوا بأنفسهم وتأهلوا لإرشاد غيرهم.

قال بعض الحكماء: من لم يفهم صرير الباب ولا طنين الذباب ولا نبيح الكلاب فليس من ذوي الألباب، وأما من لم يبلغ هذا المقام فلا بد أن يلزم العش في حضانة من يرزقه ويطعمه، فإذا طار من العش قبل تربية الجناح اصطادته الكلاب والبيزان ولعبت به النساء والصبيان، فإذا كان في عش الشيخ وكان يطعمه مع غيره فليس له من القوت إلَّا ما يقدر أن يأكله وإلا قتله فليس طعام الصبي الصغير كطعام الرجل الكبير، وكذلك عبارة الشيوخ للمريدين كل واحد يأخذ ما يليق بحاله، فالشيوخ يذكرون في الجملة فيذكرون أحوال البدايات والنهايات والوسط، وكل واحد يأخذ ما يليق به ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 60] فلا يتعلق المبتدي بمذاكرة المنتهي فيفسد كما إذا أكل الطفل الصغير طعام الكبير يقف في حلقه وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبعه. هذا معنى قول الشيخ: وليس لك منها إلَّا ما أنت له آكل، أي ليس لك من قوت العبارة إلَّا ما أنت قادر على أكله وإلا غصصت به والله تعالى أعلم.

وقد سألني بعض الإخوان عن قوت الروحانية والبشرية، فقلت: قوت البشرية معلوم وقوت الروحانية على وزان قوت البشرية، فالصبي لا يطيق الطعام الخشن حتى يكبر، كذلك الروح تربى شيئاً فشيئاً فتطعم أولاً ذكر اللسان فقط، ثم ذكر القلب مع اللسان ثم ذكر القلب فقط ثم ذكر الروح وهو الفكرة ثم ذكر السر وهو النظرة ثم تأكل كل شيء وتشرب من كل شيء حتى تسرط الكون بأسره فلو أعطيتها الفكرة أو النظرة الذي هو طعام الرجال أول مرة وهي في مقام الأطفال للفظته وطرحته، فإذا بلغت الروح [لها] أن تأكل كل شيء وتشرب من كل شيء فقد صح لها أن تطير في الملكوت الأعلى وتذهب حيث تشاء، وقد يختلف الشرب لجماعة من آنية واحدة لاختلاف مقامهم كقضية الرجال الذين سمعوا قائلاً يقول: يا سعتر بري، وذلك أن رجلاً في الصفا بمكة صاح: يا سعتر بري، لرجل آخر، كان اسمه ذلك، فسمعه الثلاثة فكل واحد تعلّق بذهنه ما يليق بحاله فسمع أحدهم: الساعة ترى بري. وسمع الآخر: اسع ترى بري. وسمع الثالث: ما أوسع بري. فالأول كان مستشرفاً، والثاني مبتدياً، والثالث كان واصلاً. وكذلك قضية ابن الجوزي كان يقرأ ببغداد اثني عشر

علماً فخرج يوماً لبعض شؤونه فسمع قائلاً يقول:

إذا العشرونَ مِنْ شعبانَ ولّتْ فواصِلْ شربَ ليلِكَ بالنَّهارِ
ولا تشربْ بأقداحٍ صغارٍ فقدْ ضاقَ الزمانُ علَى الصغارِ

فخرج هائماً على وجهه إلى مكة، فلم يزل يعبد الله بها حتى مات رحمه الله. ففهم من الشاعر انصراف العمر وضيق زمان الدنيا كله.

قال في لطائف المنن: واعلم أن هذه المفهومات المعنوية الخارجة عن الفهم الظاهر ليست بإحالة اللفظ عن مفهومه بل هو فهم زائد على الفهم العام يهبه الله لهذه الطائفة من أرباب القلوب وهو من باطن الحكم المندرج في ظاهره اندراج النبات في الحبة، وذلك أن المدد النوراني والفتح الرباني يتصل بعضه ببعض إلى الطرف الظاهر فحيث انتهت القوة انتهى الإدراك فربما فهموا ما يوافق ظاهر المعنى الباطنية، وربما خالفه من جهة ما، وربما كان الفهم بعكس ظاهره، وقد كان الشيخ مكين الدين بن الأسمر رضي الله عنه ممن يشهد له الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه بالولاية الكبرى والمكاشفة العظمى، فأنشد إنسان في مجلسه:

لو كان لي مسعدٌ بالراحِ يسعدُني لما انتظرتُ لشرب الراح إفطارًا
الراحُ شيء شريفٌ أنتَ شاربُهُ فاشرَبْ ولو حمَّلتك الراحُ أوزارًا
يا من يلومُ على صهباءَ صافيةٍ خُذْ الجنانَ ودعني أسكُنُ النارا

فقال بعض فقهاء الظاهر: لا يجوز قراءة هذه الأبيات. فقال الشيخ مكين الدين: قل [له] دعه. فإنه[1] رجل محجوب، يعني أنه لا يفهم إلَّا الشراب الحسي دون المعنوي وهو جمود، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم إن العبارة لا تدل على حال المعبر، فقد يكون فوق ما يقول، وقد يكون دون ما يقول، كما أشار إلى بيان ذلك بقوله:

180 ـ (ربما عبّر عن المقام من استشرف عليه، وربما عبّر عنه من وصل إليه، وذلك ملتبس إلاَّ على صاحب بصيرة)

قلت: العبارة لا تدل على نهاية المعبِّر ولا وصوله إلى ما عبّر عنه، فقد يعبّر عن المقام من لم يصل إليه ولكن استشرف عليه، وقد يعبِّر عنه من وصل إليه، وربما

(1) أي الفقيه المعترض على هذه الأبيات والقائل بحرمة قراءتها.

عبر عن المقام وقدمه فوق ما عبر عنه وذلك ملتبس إذ لا يعرف المستشرف من الواصل إلَّا ذو بصيرة نافذة، يعني من فتح عليه في المعرفة، فكل من فتح عليه في معرفة الله ورفع عنه الحجاب عرف كلام الواصل من المستشرف فليس من خالط البلد ووصفها ثم نعتها كمن استشرف عليها ولم يدخلها، ثم جعل ينعتها.

قال بعضهم: وقد يعرف المستشرف بطول التعبير والواصل باختصاره، فالمستشرف يطوِّل العبارة ويكررها والواصل من أول مرة يدركها.

وقد قالوا: العارف بالضرب لا يكثر الهنى والعارف بالمفاصل لا يكثر الحنى.

قلت: وهذه القاعدة ليست كلية إذ كثير من العارفين الواصلين تطول عبارتهم لمعرفتهم بمفاصل الخطاب، ومن المستشرفين من تقصر عبارتهم.

قال المؤلف رضي الله عنه: الاستشراف والوصول ليس إلَّا مراتب التوجه للتحقق بالعجز، فمن وصل لمعرفة العجز عن الوصول فهو الواصل لكن العجز لا يكون إلَّا بعد الاتصاف به حقيقة لا مجازاً وذلك أن الجاهل عجزه حالي قهري والعارف عجزه جلالي رحماني.

قلت: المراد بالعجز في حقه الحيرة والدهش أولاً ثم العجز عن الإحاطة والكنه ثانياً. ثم قال: يشهد لذلك أن الجاهل متى تحرك وقع في الحظوظ والعارف لا يتحرك إلَّا بالحقوق، والجاهل نصيبه الوهم والعارف نصيبه الفهم، الجاهل طالب للعلم والعارف طالب للمعلوم، الجاهل تابع بنظره للصور الحسية والعارف غائص ببصيرته مع الأرواح المعنوية، وجميع المراتب والمقامات مراحل بين الحس والمعنى وانتقال من الهياكل الجسمية للعوالم القلبية ثم من العوالم القلبية إلى الحقائق الروحانية، ثم من الحقائق الروحانية إلى الأسرار الربانية، ثم من الأسرار الربانية إلى المعارف التوحيدية اهـ.

* * *

ثم لا ينبغي للسالك أن يعبِّر عن هذه الأسرار إذا واجهته في طريق السلوك، كما أبان ذلك بقوله:

181 ـ (لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته فإن ذلك مما يقلِّل عملها في قلبه ويمنعه وجود الصدق فيها مع ربّه)

قلت: المريد في حال سيره مأمور بالكتمان لعلمه وعمله وحال وارداته، فإفشاؤه لعمله من قلّة إخلاصه وإفشاؤه لأحواله من قلّة صدقه مع ربّه، وأيضاً

الأحوال تأتي من حضرة قهار فتزعج القلوب خوفاً وتقلقها شوقاً، فإذا أفشى ذلك كان تبريداً لها وإطفاء لنورها كمن غلت قِدْرته فصب فيها الماء البارد فيطول عليه غليانها ثانياً، ولو قلّل نارها وحركها لاستفاد إدامها كذلك الواردات الإلٰهية تفجأ القلوب لتحركها إلى النهوض إلى مولاها، فإذا أفشاها وذكرها للناس قلّ عملها في قلبه ودلّ على عدم صدقه فيها مع ربّه.

قلت: ومن ذلك استعمال الأحوال التي تميت النفوس لا ينبغي إفشاؤها، فللنفس حظ في ذلك لأنها مجبولة على حب المدح والذكر الحسن ولو من الإخوان، كثيراً ما ترى بعض الفقراء يذكرونها ويتبجحون بها وهو غير صواب، نعم إن كان يقتدي به فيذكرها للاقتداء ولإنهاض الفقراء فذلك حسن مع نيّة حسنة، وكثيراً ما تستعمل هذه الأحوال في حال السؤال، فلذلك ذكره بأثره.

* * *

أو تقول لما كان التعبير عن الواردات الإلٰهية مما يوجب الإقبال والتعظيم فيؤدي ذلك إلى العطاء فيحتاج إلى آداب القبض، بيَّن ذلك بقوله:

182 ـ (لا تَمُدَّنَّ يدك إلى الأخذ من الخلائق، ألا ترى أن المعطي فيهم مولاك فإن كنت كذلك فخذ ما وافق العلم)

قلت: مد اليد إلى الأخذ من الخلائق على قسمين: إما أن يكون من غير سؤال، أو بعد السؤال، ولكل واحد منهما أحكام.

أما الأخذ من غير سؤال فشرطه أمران، أحدهما: علمي، والآخر: صوفي. أما العلمي فلا يأخذ ممن كسبه حرام ولا مخلط ولا محجور عليه كالصبي والمجنون والعبد. وأما الصوفي فلا يقبض حتى يعرف ممن يقبض علماً وحالاً، فإن اتسعت معرفته وتحقق فناؤه بحيث لم يبق له نظر للواسطة أصلاً فربما يسلم له القبض مطلقاً، لأنه يقبض من الله ويدفع بالله، ولكن الكمال هو الجمع بين الحقيقة والشريعة، وقد كان كثير من الصوفية الحقيقيين يقبضون جوائز السلطان ثم يدفعونها على أيديهم.

وأما القبض بعد السؤال فالكلام عليه من وجهين، الأول: في جواز السؤال ومنعه. والثاني: فيما يقبضه بعد أخذه. أما حكم السؤال فأصله الجواز، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: الآية 10] فلو كان ممنوعاً ما نهى الله عن نهره. ثم تعتريه الأقسام الخمسة يكون واجباً ومندوباً ومباحاً ومكروهاً وحراماً.

فأما الواجب، فهو ما يكون لسد الرمق بحيث إذا ترك السؤال مات، فهذا واجب عليه، فلو تركه حتى مات مات عاصياً فأوجبه الشارع خوفاً على فوات حياة البشرية الحسية، وأوجبته الصوفية أيضاً على من خاف فوات حياة الروحانية بحيث منعته الرياسة من حظّ رأسه وذبح نفسه، فقد نقل القسطلاني في شرح البخاري عن ابن العربي المعافري أنه قال: هو واجب على المريد في البداية. فتحصل أنه واجب حيث يخاف فوات حياة البشرية أو الروحانية. وإليه أشار ابن البناء بقوله:

ومَا على السائلِ من تأويل لأجل قهر النَّفس والتذليلِ
فمَنْ أولى الأذواق والأحوال مَنْ كانَ راضَ النَّفْسَ بالسؤالِ
قالوا ولا خيرَ إذاً في العبدِ ما لَمْ يكُن قد ذاقَ طعمَ الردِ

وبالجملة: فهو لرياضة النفس واجب أو مندوب. وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين لا يزيد على ذلك.

وأما المندوب، فهو أن يسأل لغيره فهو من التعاون على البر، فيسأل الطعام ليطعمه من يستحيي أو يسأل اللباس أو غير ذلك، وقد سأل النبي ﷺ لأصحابه حين قدموا عليه عراة. ويدخل في المندوب ما كان لرياضة النفوس حيث لم يخف عليه كما تقدم.

وأما المكروه، فهو أن يسأل لقوت البشرية مع القدرة على الاستغناء عنه بسبب من الأسباب، وهذا ما لم ينقطع للعبادة ويتجرّد إلى الذكر. وأما المنقطع إلى الله فلا بأس به وقد فعله كثير من العارفين المحققين. فقد كان أبو جعفر الحداد، وهو شيخ الجنيد، يسأل باباً أو بابين أو ثلاثاً بين العشاءين، فكانت العامة تتعجب منه أولاً ثم عرف بذلك فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلوّ معرفته بربّه.

وكان الشيخ أبو سعيد الخراز إذا اشتدت به الفاقة يمد يده ويقول: من عنده شيء لله. وكان إبراهيم بن أدهم معتكفاً بجامع البصرة ولا يفطر إلَّا من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره. وكان سفيان الثوري رضي الله عنه يسأل الطعام لله فإن فتح بكثير أخذ كفايته وترك الآخر. وأكثر الرجال على هذه الحال قطعوا الدنيا الفانية لتأثيرهم الأخرى الباقية، وكل

ذلك لا يقدح بشريعة ولا حقيقة ولا يطفىء نور المعرفة. وقد أشار ابن البنا[1] إلى هذين القسمين، أعني المندوب والمكروه، فقال:

وكرهُوا سؤالَهُ لنفسِهِ ثُمَ أباحُوه لأجل جنسِهِ
ولم يعدُّوه مِنَ السؤالِ لكن مِنَ العونِ على الأعمالِ
إذْ كانَ خيرَ الخلقِ في أترابِهِ يسألُ أحياناً إلى أصحابهِ

وأما المباح، فهو أن يسأل لحاجته الغير ضرورية كسؤاله لقضاء دينه أو ما يزيد على ستر عورته وسد رمقه أو غير ذلك مما ليس بضرورة لكنه حاجي، أي محتاج إليه.

وأما المحرَّم، فهو أن يسأل تكثُّراً وزيادة على ما يكفيه، وفي الحديث: «**من له أربعون درهماً فالسؤال عليه حرام**»[2]. وفيه ورد الحديث: «**أنه يبعث يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم**»[3]. ومن المحرَّم أيضاً ما فيه إلحاح وإضرار بالمسؤول، قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة: الآية 273].

قلت: وأما ما يفعله بعض أصحابنا من صورة الإلحاح بنا فإنما قصدهم بذلك قتل نفوسهم بما يسمعون من المسؤول في جانبهم ولا يفعلونه إلَّا مع من يعرف عندهم بالإنكار فيستخرجون منه الجلال اختباراً لأنفسهم وقد يقصدون بذلك تحقيق الإخلاص وستراً للحال فيظهرون الرغبة وهم من أزهد الناس تحقيقاً للاكتفاء بعلم الله. وما كان ذلك إلَّا في حال قوَّتهم وجذبهم، فالسكر غالب عليهم. هذا ما حقَّقته منهم وقد انقطع ذلك كله اليوم فما بقي إلَّا أهل الصفاء وأهل الوفاء.

وسبب دخول السؤال في هذه الطائفة أن شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني رضي الله عنه كان له جاه ووزارة ورياسة في فاس، فلما دخل في يد الشيخ ورأى صدقه وجده قال له: أرى لك خمرة لم يقدر عليها أحد قبلك، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها. قال: وما هي يا سيدي، فقال: السوق للسؤال. هكذا سمعته من بعض الإخوان، والذي رأيته في كتابه أنه قال له: يا ولدي

---

(1) سبقت الإشارة إليه.

(2) ليس بحديث، إنما هو من أقوال العلماء، أورده المروزي في اختلاف العلماء [1/ 108] والمنذري في الترغيب والترهيب، كتاب الصدقات [1/ 326] وأورده غيرهما.

(3) ونصه كما في صحيح البخاري، باب من سأل الناس تكثراً، حديث رقم (1405) [2/ 536]: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم». وهو عند مسلم، باب كراهة المسألة للناس، حديث رقم (1040) [2/ 720].

أراك تطلب هذا العلم ولا تنال منه ما تريد إلَّا بالذلّ. فدخل فيه وسكن إلى مماته، فلما ذاق سرّه ورأى ما فيه من الأسرار وما يقطع به المريد في سيره من المفاوز والقفار سيّر أصحابه عليه ودلّهم على استعماله، فكان أصل مشروعيته قتل النفوس لا قبض الفلوس، فَمَنْ استعمله لقتل النفوس ولج حضرة القدوس إذ ما حجبنا عنها إلَّا حياة النفوس، ومَنْ استعمله لقبض الفلوس نال الشقاء والبؤس. وينبغي أن يكون في حال السؤال يده مشيرة إلى الخلق وقلبه معلّق بالحق. قال في المباحث:

وآدابُ الصوفي عندَ المسألةِ ... أَنْ يدخلَ السوقَ إليه يسألُهُ

لسانُه يشيرُ نحوَ الخلقِ ... وقلبُهُ مُعلّقٌ بالحقّ

وقد ذكر ابن ليون التجيبي السؤال وبيَّن أصله وذكر مسألة الزنبيل وكيفيته: أن يتوضأ الرجل ويصلّي ركعتين ويأخذ الزنبيل، يعني وعاء بيده اليمنى، ويخرج إلى السوق ومعه رجل آخر يذكر الله ويذكر الناس والناس يعطونه في ذلك الزنبيل حتى يجمع ما تيسر من الطعام ويصبه بين الفقراء، فيأكلون طعاماً حلالاً بلا تكلف ولا كلفة.

هذا ما تيسر لنا في حكم السؤال، والذي يظهر لنا أن تركه اليوم أحسن من استعماله إذ زالت هيبته وصار حرفة من الحرف فصارت نفس كثير من الفقراء تبطش إليه وما ذلك إلَّا لما فيه من الحظ عندها، والله تعالى أعلم.

وأما ما يأخذه من السؤال، فإن كان فقيراً إليه أخذه وإن كان غنياً عنه تصدّق به خفية بالليل مثلاً.

وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: كان قصدنا من السؤال قوت الأرواح، فلما خرج منه قوت الأشباح تبارك الله، يعني فيأخذه من اضطر إليه وبالله التوفيق. وهذه الحكمة التي ذكرها الشيخ هي من أعظم المهمات التي يحتاج إليها أهل التجريد وليس مقصوده الكلام على السؤال إنما مقصوده الدلالة على تربية اليقين وعدم التشوف إلى المخلوقين فلا يعلق قلبه بالمخلوق، فإن تشوف إليه فينبغي ألا يقبض ما يعطاه ولا يمد يده إلى الأخذ منه حتى يرى أن المعطي هو الله ويكون ذلك ذوقاً وحالاً.

قلت: وهذا الشرط إنما هو فيما يأخذه بغير سؤال، وأما في حال السؤال فلا يشترط بل يكون علماً ومجاهدة حتى يصير حالاً وذوقاً، وأما ما يأخذه بغير سؤال فلا بد من هذه المعرفة.

وقال شيخ شيخنا: لا تشترط هذه المعرفة بل يكفيه العلم فيها وهو الأصح ما لم تتشوف نفسه إلى الخلق، فإن تشوفت نفسه فليكف عن القبض من الخلق وليكتف

بضمان الملك الحق، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: الآية 6]. قيل لبعضهم: كيف خرجت من الدنيا بعد أن كانت في يدك، قال: نظرت منصفاً لنفسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: الآية 6] فرأيت جميع الخلق من البعوضة إلى الفيل تكفّل الله لهم بالرزق ففوّضت أمري إليه واشتغلت بالعبادة.

وقال عيسى عليه السلام: «لا تهتموا بالرزق فإن الذرة على صغرها تؤتى كل يوم برزقها» الحديث[1]، وقال أيضاً عليه السلام: **«عجبت لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بلا عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلّا بالعمل»**[2]. وقال ﷺ: **«من كان همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كان همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلّا ما قدر له. وأن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه»**[3].

وكان يحيى بن معاذ يقسم أنه لا تسكن الحكمة قلباً فيه ثلاث خصال: همّ الرزق، وحسد الخلق، وحب الجاه. وكان حبيب العجمي يخدم الحسن البصري، فصنع حبيب طعاماً لإفطارهما وإذا بسائل فأعطاه جميعه، فقال الحسن: يا حبيب إنك كثير اليقين قليل العلم فهلا أعطيته النصف ونتقوّت بالنصف، فقال: يا سيدي ثوابه لك وأنا أستغفر الله. فلما جنّ الليل وإذا بقارع على الباب، فخرج حبيب فوجد عبداً معه طعام كثير والشتاء ينزل والغلام يبكي، فقال له: ما هذا، قال: طعام، قال لي سيدي إن قبله منك الحسن البصري فأنت حر لوجه الله وقد طال عليّ الرق، فقال حبيب: لا إلٰه إلّا الله عتق رقبة وإطعام جائع. ثم دخل به على الحسن وقال: يا سيدي إنك كثير العلم قليل اليقين، فقال: يا حبيب تقدمناك وسبقتنا اهـ.

قلت: ولشيخ شيخنا مثل هذه الحكاية ذكرها لي بعض أصحابه ثم سألته عنها فقال: هي صحيحة، وذلك أن أهله صنعوا طعاماً جيداً فلما وضعوه بين أيديهم وإذا

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) روى نحوه الترمذي في سننه، حديث رقم (2465) [4/ 642] وابن حبان في صحيحه، ذكر وصف الغنى. . .، حديث رقم (680) [2/ 454] ورواه غيرهما. ونصه عند الترمذي هو: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق شمله ولم يأته من الدنيا إلّا ما قدر له».

بسائل يسأل فأخرجه له الشيخ كله وبقي أولاده بغير عشاء.

فلما كان بعد صلاة العشاء وإذا برجل يدق الباب فخرج الشيخ فوجد رجلاً معه مائدة فيها ألوان من الطعام، فأدخلها لعياله رضي الله عنه.

وقال بعض الأغنياء: كنت نائماً وإذا بإنسان قد وقف عليّ في عالم النوم وزجرني وقال لي: أجب الملهوف، فانتبهت وأنا مذعور ولم أدر ما أصنع، فأوقع الله في قلبي إن أخذت صرة فيها مائة دينار وركبت دابة وأطلقت زمامها فخرجت بي من العمران إلى مسجد خرب ووقفت فنزلت ودخلت المسجد فوجدت مسكيناً وهو يتضرّع إلى الله ويسأله من فضله، فسألته عن حاله فقال: أنا صاحب عيال ولي بنيات منذ ثلاث ما طعموا فأنا أسأل الله من فضله، فدفعت له المائة وقلت له: إذا نفذت فاسأل عني فأنا فلان وائتني، فقال: لا والله ما أسأل غير الله. ثم انصرفت وأنا متعجب من ثقته بالله تعالى.

* * *

فهذه حكاية جنود من جنود الله تعالى تقوّي اليقين وتوجب الثقة برب العالمين فيستحي العبد من الله أن يرفع حاجته إليه، فأولى أن يرفعها إلى غيره، كما بيَّن ذلك بقوله:

183 ـ (ربما استحى العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه لاكتفائه بمشيئته فكيف لا يستحيي أن يرفعها إلى خليقته)

قلت: العارف هو الذي بلغ من التقرُّب والقرب حتى امتحق عن نفسه بالكلية وزالت عنه الأينية والغيرية بحيث لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير مولاه قرار، فإذا أراد أن يسأل عبودية استحى من مولاه أن يثبت معه سواه اكتفاء بمشيئته وتحقيقاً لأحديته فإذا كان يستحيي من مولاه أن يرفع حوائجه إليه فكيف لا يستحيي منه أن يرفعها إلى غيره فلا جرم أن الحق سبحانه يعطيه أفضل ما يعطي السائلين ويبوئه في مقعد صدق مع النبيِّين والصدِّيقين. وقد تقدم الحديث: «**من شغله ذكري**»[1] الخ.

وقال سهل بن عبد الله: ما من وقت إلَّا والله تعالى مطلع فيه على قلوب عباده، فأي قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلّط عليه الشيطان وحجبه عنه اهـ.

وقيل للواسطي: لم لا تسأل الله شيئاً، فقال: أخشى أن يقال لي: إن سألتنا

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

الذي لك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الأدب معنا، وإن سلمت الأمر لنا ونظرت بنظرنا أجرينا لك الأمور على مقتضى الموافقة اهـ.

هذا آخر الباب الموفي عشرين، **وحاصله**: الكلام على الكرامات وما ينشأ عنها من العبارات، لأن الكرامات الحقيقية هي الاستقامة على العبودية ومشاهدة أنوار الربوبية، فإذا تحقق ذلك في الولي فاض بالحكم، وأذن له في التعبير، فحينئذ ربما يقبل عليه الخلق بالعطاء، فإذا عرف فيهم مولاه حل له الأخذ من أيديهم وإلا فلا.

وأما السؤال منهم لقوت البشرية فلا يتصور من العارفين استحياء من الله واكتفاء بعلمه ومشيئته. هذا مقام الواصلين. وأما السائرون فهم عاملون على مجاهدة نفوسهم فإن ثقل عليها السؤال قدموها إليه وإن ثقل عليها الفاقة والصبر والاكتفاء بالمشيئة والعلم قدموه كما بيَّن ذلك الشيخ رضي الله عنه في أول الباب الحادي والعشرين بقوله:

[الباب الحادي والعشرون]

قال رضي الله عنه:

184 ـ (إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلَّا ما كان حقاً)

قلت: هذا ميزان صحيح في حق السائرين المشتغلين بالجهاد الأكبر، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: الآية 78]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: الآية 69] فكل ما يثقل على نفس المريد وتنفر منه فهو حق فالواجب على المريد اتباعه، وكل ما يخف عليها فهو باطل وفيه حظها فالواجب عليه اجتنابه.

وهذا الأمر يختلف اختلافاً كثيراً فرب نفس يثقل عليها غير ما يثقل على الأخرى، فبعضها يثقل عليها الصمت وبعضها يثقل عليها الكلام، كما إذا تربى في الصمت، وبعضها يثقل عليها العزلة وبعضها يثقل عليها الخلطة، وبعضها يثقل عليها الصيام، وبعضها يثقل عليها الفطر، وبعضها يثقل عليها السؤال وتموت منه في ساعة واحدة، وبعضها يخف عليها كما إذا تعوّدته قبل الأمر به. وقس على ذلك فليكن العبد على نفسه بصيرة ويصير معها على عكس مرادها، هكذا يستمر معها يخالفها فيما تأمره ويتهمها فيما تستحسنه فإذا تزكّت وتطهرت من الحس ولم يبق فيها بقية فحينئذ يجب عليه موافقتها إذ لا يتجلى فيها حينئذ إلَّا الحق فقد ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: الآية 81] فيصير أمر العارف معكوساً مع السائر، فالسائر يضره التدبير والاختيار والعارف ينفعه، والسائر تضره الخلطة والعارف تنفعه، السائر يضره الكلام والعارف ينفعه، السائر تضرّه الدنيا ويهرب منها والعارف غائب عنها لا تضرّه وربما تنفعه.

والحاصل: أن الواصل معكوس مع السائر في أموره كلها وبالله التوفيق.

ويجب على من أراد جهاد نفسه أن يلقيها إلى شيخ التربية إذ قد يلتبس عليه أمرها، وعلى فرض علمه بما يثقل عليها لا قدرة له على مجاهدتها إلَّا بهمة الشيخ، هذه سنّة الله في عباده، فإن النفس لا تريد أن تخرج عن رأيها ومرادها أبداً، فالواجب إسلامها إلى من يعينه عليها وانظر التكاليف الشرعية تجدها مخالفة لهوى

النفس ومن لا يلقي قياده للشرع فهو كافر وما كفر من كفر إلَّا بتتبع الأهواء، والله تعالى أعلم.

وها هنا ميزان آخر تعرف به العمل الذي فيه حظ النفس وهواها، وما لا حظ لها فيه [و] هو أن تعرض عليها الموت وأنت في ذلك العمل، فإن رضيت بالموت وهي في ذلك العمل فالعمل صحيح، وإن لم ترض بالموت وهي في ذلك العمل فالعمل باطل، فكل عمل لا تهزمه بالموت فهو صحيح، وكل عمل تهزمه بالموت فهو باطل، يعني فيه الهوى والحظ.

وكذلك الإنسان يزن نفسه بهذا الميزان ليعرف هل رحل من هذا العالم أو هو باق فيعرض الموت على نفسه في حال عافية وجمال فإذا قبلت الموت ولم تفر منه فليعلم أنه رحل من هذا العالم وإن لم تقبل نفسه الموت وطلبت البقاء ففيه بقية بقدر ما تفرّ منها، وبالله التوفيق.

* * *

ثم ذكر الشيخ ميزاناً آخر يعرف به اتباع الهوى من الحق فقال:

185 ـ (من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات)

قلت: هذا ميزان آخر، وإن شئت قلت: هو داخل في الميزان الأول إذ من شأن النفس أن يثقل عليها الواجب لمشاركة الناس لها فيه إذ جل الناس يفعلونه فلا يظهر لها فيه مزية على غيرها وهي أبداً تحب الخصوصية بخلاف النوافل فإنها تبطش إليها وتحب أن تنفرد بها إما لطلب المدح والثناء وإما لطلب الأجور من القصور والحور، وهذا كله عند المحققين من الحظوظ الجلية أو الخفية، فالمسارعة إلى نوافل الخيرات وفضائل الطاعات مع التكاسل عن الفروض الواجبات من علامة الهوى فيجب على الإنسان أن يقدم الفرض الواجب ولا يقدم عليه إلَّا ما هو من كماله كالنوافل قبله وبعده إعانة على الحضور فيه، فإن حصل الحضور استغنى عن الوسيلة والنافلة الكبرى عندنا هو الاستغراق في مشاهدة مولاه بين فكرة ونظرة أو ما يوصل إلى هذا المقام من مذاكرة أو ذكر، ومن رفض الدنيا بحذافيرها وغاب عن نفسه وجنسه فقد جمع الفرائض والنوافل كلها ولو بات نائماً وظل مفطراً.

وفي بعض أخبار سيدنا داود عليه السلام قال: يا رب أين أجدك، فقال له: اترك نفسك وتعال، أي غب عنها تجدني أقرب إليك منها. وقال الشيخ أبو الحسن

رضي الله عنه: عليك بورد واحد وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى وبالله التوفيق.

* * *

ولما كان من شأن النفس الأمارة التكاسل عن الطاعات قيّدها الحق تعالى بأعيان الأوقات كما أبان ذلك بقوله:

186 ـ (قيّد الطاعات بأعيان الأوقات لئلا يمنعك عنها وجود التسويف، ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة الاختيار)

قلت: من شأن النفس تسويف العمل وتطويل الأمل فلو تركت مع اختيارها ما توجهت قط إلى ربها ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا تنهضه المحبة ولا يسوقه إليه مجرد الرغبة وإنما تسوقه إليه سلاسل الامتحان بتخويف النيران أو شبكة الطمع بنعيم الجنان أوعد من حاد عن طاعته بالعذاب الأليم ووعد من أطاعه وتقرّب إليه بالنعيم المقيم، ثم فرض عليهم ما تظهر فيه طاعته من الأحكام والفرائض وعيّن لها أوقاتاً مخصوصة إذ لو ترك ذلك لاختيار عبادة ما أقبل عليه بها إلَّا القليل من أهل محبته ووداده.

ومن رحمته تعالى أن وسع عليهم في تلك الأوقات فبقي لهم في ذلك ضرب من الاختيار فوسع الظهر مثلاً إلى العصر والعصر إلى الاصفرار والمغرب إلى العشاء والعشاء إلى نصف الليل والصبح إلى قرب الطلوع، فقد قيّد لك أيها العبد الطاعات التي أوجبها عليك بأعيان الأوقات لئلا يمنعك التسويف من فعلها فيؤدي ذلك بك إلى تركها ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة أي ضرباً ونصيباً من الاختيار، إذ لو ضيّق عليك الوقت لكان ذلك في غاية الحرج والاضطرار فالحمد لله على منّته وسعة رحمته.

وقد قيل: إن الله سبحانه يقول لعبده: ألم أخرجك من العدم إلى الوجود وأمدك بأمداد الفضل والجود جعلت لك نوراً في بصرك لتدرك به أدلة قدرتي وعظيم آياتي وجعلت لك نوراً في بصيرتك لتفهم به خطابي وتتقي بالطاعة عقابي وترجو ثوابي، فوعدتك الثواب على الطاعة وأوعدتك العقاب على المخالفة، ثم كلفتك من العمل ما تطيق ووسعت عليك في الأوقات كل ضيق فلو أنك قضيت ما أوجبت عليك في أول عمرك في آخره لقبلته منك فمن ذا الذي منعك من الامتثال ولم يكن بك عذر غير الغواية والضلال اهـ. وقد قيل في المثل: من طلب جاب ومن هاب خاب.

وانظر قرن الله الهداية بالمجاهدة وأوجب سبحانه على نفسه ما لم يجب عليه،

فقال سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية 69].

وأنشدوا في هذا المعنى:

لو صحَ منكَ الهوىَ أرشدت للحيل والصدقُ سيفٌ يُنيلُ غايةَ الأملِ

فكُن أخا همّةٍ تسمُو بصاحبِهَا ولا تكُن بالتَّواني مُخبَطَ العملِ

وكان الربيع بن خيثم يردد هذه الآية ويبكي قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجَاثيَة: الآية 21] الآية، وكان يصيح: ليت شعري من أي الفريقين أنت يا نفسي وهذه الآية، تسمى مبكية العابدين. وقال سهل رضي الله عنه في معنى هذه الآية: ليس أهل الموافقة كأهل المخالفة أهل الموافقة ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القَمَر: الآية 55] وأهل المخالفة في عذاب السعير اهـ.

* * *

ولما ذكر حكمة توقيت الطاعة ذكر حكمة إيجابها على عباده، فقال:

187 ـ (علم قلّة نهوض العباد إلى معاملته فاوجب عليهم وجود طاعته، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب. عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، أوجب عليك وجود طاعته وما أوجب عليك إلاَّ دخول جنته)

قلت: هذه حكمة التشريع لكنه ما ذكر إلّا حكمة أهل الظاهر.

وحاصلها: أن الحق سبحانه من حكمته لما علم من عباده قلة النهوض إلى معاملته لأنه قال ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية 13]، وقال أيضاً: ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: الآية 24] فلما علم ذلك أوجب عليهم طاعته وأوعدهم على تركها بالعقوبة فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب ثم ذكر الشيخ حديثاً ورد في شأن الأسارى إشارة إلى أن العبد لا اختيار له فهو أسير في يد قدرة القدير والحديث مشهور، وهو قوله عليه السلام: «**عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل**»[1] لأنه عليه السلام كان يدعو إلى الله وإلى دخول حضرته فمن وافقه نجا ومن خالفه جعل له السلسلة في عنقه وساقه إلى حضرة ربه. ولفظ الحديث: «**عجب الله من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل**»[1].

(1) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (8000) [2/ 302] ونصه: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل». وابن حبان في طبقات المحدثين بأصبهان، الطبقة الثامنة، حديث رقم (217) [2/ 376] وأورد الحديث غيرهما.

قال بعض العلماء: يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله إظهار عجب هذا الأمر لخلقه، لأنه بديع الشأن وهو أن الجنة التي أخبر الله بما فيها من النعيم المقيم والخلود في العيش الرغد الدائم، ومن حكم من سمع بها من ذوي العقل أن يسارع إليها ويبذل جهده فيها ويحتمل المكاره والمشاقات لينالها، وهؤلاء يفرون منها ويرغبون عنها حتى يقادوا إليها بالسلاسل كما يقاد إلى المكاره العظيمة التي تنفر منها الطباع اهـ.

ثم إن الحق سبحانه غني عن الانتفاع بالمنافع فما أمرك بهذا ونهاك عن هذا إلّا لما لك فيه من جلب المنافع ودفع المضار **أوجب عليك وجود طاعته وما أوجب عليك إلّا دخول جنّته.**

قال بعض الحكماء: واعلم أن في الطاعات تفاوتاً ودرجات، وفي المخالفة كبائر ودركات. قال رسول الله ﷺ: **«إن أهل الجنة ليتراءون الغرف من فوقهم كما يرى أهل الأرض الكوكب الدري في أفق السماء»** قيل: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء، قال: **«والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»**[1].

وقال آخر: الناس ثلاثة، عبد أطاع الله عبودية وشكراً وامتثالاً وقياماً بحق الخدمة فزاده الوجوب شرفاً وعلو درجة، وعبد أطاع الله تعظيماً للموجب فالوجوب في حقه تنبيه وإظهار للحكمة، وعبد أطاع الله خوفاً من عذابه ورجاء في ثوابه ولولا ذلك ما عبده فالوجوب في حقه لطيف به وفي الكل خير وشتان ما بينهما اهـ.

قلت: والتحقيق إنما هما قسمان، قسم أطاع على التكليف وهم أهل التكثيف، وقسم أطاع على التعظيم وهم أهل التعليم والتعريف. أهل الحجاب أطاعوا خوفاً وطمعاً وأهل العيان أطاعوا حباً وشكراً، وهو مقام الأنبياء وخواص الأولياء. قال عليه السلام: **«أفلا أكون عبداً شكوراً»**. فالحكمة عند أهل الباطن في وجوب الخدمة، إنما هي إظهار لستر سر الربوبية التي هي في مظاهر العبودية، فالربوبية بلا عبودية نقص يلزم عليه إبطال حكمته والعبودية بلا ربوبية محال لا يتصور وجوده.

مَنْ لا وجودَ لذاتِهِ مِنْ ذاتِهِ ... فوجودُهُ لولاه عينُ مُحالِ

ولأجل هذا المعنى كان العارفون إذا تحققوا هذا السر، وهو أن العبودية لا وجود لها من ذاتها، وإنما حكمة وجودها صور سر الربوبية بإظهار أحكام العبودية،

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب صفة أبواب الجنة. . .، حديث رقم (3083) [3/ 1188] ومسلم في صحيحه، باب ترائي أهل الجنة. . .، حديث رقم (2831) [4/ 2177] ورواه غيرهما.

وعرفوا ذلك حالاً وذوقاً كانت عبادتهم شكراً وكانوا فيها محمولين غير حاملين، عملهم بالله لله، فعبادة هؤلاء كثيرة عظيمة في المعنى وإن كانت قليلة في الحس، ولا تقل أبداً إذ تصرفاتهم كلها عبادة، نومهم عبادة، وأكلهم عبادة، ومشيهم عبادة، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «**نوم العالم عبادة**»[1]. وقال أيضاً: «**رجال يدخلون الجنة على الفرش الممهدة، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً**»[2] أو كما قال عليه السلام. ذكره المنذري.

* * *

وقال أبو سليمان: قد يدرك العارف على فراشه ما لا يدركه في صلاته ولا يستغرب العبد من نفسه بلوغ هذا المقام فإن فضل الله لا ينال بسبب، وقدرة الله صالحة لدرك كل مطلب، كما أبان ذلك بقوله:

188 ـ (من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلٰهية وكان الله على كل شيء مقتدراً).

قلت: لا شك أن الحق تعالى لا يعجزه شيء هو الغالب على أمره، وقلوب عباده بيده يصرفها كيف شاء ويقلبها حيث شاء، فمن كان منهمكاً في الغفلة مستغرقاً في بحار الشهوة فلا يستغرب أن ينقذه الله من غفلته وأن يخرجه من وجود شهوته، فإن ذلك قدح في إيمانه، وكيف يستغرب ذلك وربنا تعالى يقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: الآية 45] وأنت من ذلك الشيء، وقال تعالى في حق العصاة: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: الآية 53]، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ﴾ [المَائدة: الآية 39] إلى غير ذلك من الآيات. وقال عليه السلام: «**لو أذنبتم حتى تبلغ خطاياكم عنان السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم**»[3].

وليتذكر من تقدم قبله من أهل الغفلة والعصيان ثم صار من أهل المشاهدة

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (6731) [4/ 247].

(2) ولفظه: «عن أبي سعيد الخدري [رضي الله عنه] أن رسول الله ﷺ قال: «ليذكرن الله قوم في الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم الله الدرجات العلى». رواه أبو يعلى في مسنده برقم (1110) [2/ 359] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن المرء قد ينال بحسن السريرة. . .، حديث رقم (398) [2/ 124] ورواه غيرهما.

(3) ولفظه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم». رواه ابن ماجة في سننه، باب ذكر التوبة، حديث رقم (4248) [2/ 1419] ورواه أحمد الكناني في مصباح الزجاجة، حديث رقم (1526) [4/ 246].

والعيان كانوا لصوصاً فصاروا خصوصاً، كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي يعزى، وكثير ممن يتعذر حصره. وقد ذكر القشيري في أول رسالته منهم رجالاً قدمهم أولاً تقوية لرجاء المذنبين، وليذكر الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم سأل راهباً عن التوبة، فقال له: لا توبة لك، فكمَّل به المائة ثم سأل عالماً فدله على التوبة وأمره بالذهاب إلى قرية فيها قوم يعبدون الله، فقصدهم فمات بالطريق فأخذته ملائكة الرحمة، والحديث في البخاري مطولاً. وكذلك الرجل الذي كان لصاً فسأل عابداً: هل له من توبة، فاستهزأ به وأخذ عرجوناً يابساً وقال له: خذ هذا العرجون فإذا اخضّر فقد صحّت توبتك، فأخذه بالنية وجعل يعبد الله وينظر إليه، فأصبح ذات يوم معسلجاً أخضر.

قلت: وقد أدركت أقواماً كانوا مغروقين في الغفلة وترك الصلاة لا يعرفون من الدين المشهور قليلاً ولا كثيراً فضلاً عن طريق الخصوص فانقلبوا وصاروا خصوصاً عارفين، وقد أدركت أقواماً كانوا منهمكين في الذنوب مغروقين في المعاصي وظلم العباد فصاروا من أعظم الصالحين، وقد رأيت نصارى بثغر سبتة حضروا خلف حلقة الذكر فانجذبوا وتبعونا حتى خرجنا الحد الذي بيننا وبينهم ولو وجدوا سبيلاً لأسلموا سريعاً.

وقد كان بعض إخواننا يقول في شأن نفسه تعجباً من خروجه من غفلته: هذا مدفع النخاس المدبر من عنده شيء فليخرجه، فلقد رأيته مجذوباً عارياً رأسه، حافياً رجله، فهو اليوم من خواص الأولياء. والغالب إنما يتفق هذا لمن سقط على صحبة العارفين الذين عندهم الإكسير وهم موجودون في كل أوان، وهذا أمر شهير لا يحتاج إلى دليل، ومن شك فليشاهد، فيا عجباً ممن ينكر ضوء الشمس بعد طلوعها ونور القمر بعد ظهوره، ولكن كما قال صاحب البردة:

قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشَّمسِ منْ رمدٍ ... وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ منْ سقمِ

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: الآية 88]، وأعجب منه من ينكر وجود شيخ التربية ويقرّ بانقطاع أهل الخصوصية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية 46] أعني تعمي عن طريق أهل الخصوص وتبصر طريق أهل العموم، كحال الخفاش يبصر في الظلمة ولا يبصر في النور، فهو عند الناس معذور لفقده ما عند الأقوياء من النور.

* * *

وقد يسلِّط الله على عباده الانهماك في الشهوات ويحبسه في سجن الغفلات ثم

يمنّ عليه بالتوبة والتيقُّظ من الغفلة، ويدخله مع أحبائه مداخل الحضرة ليعرف قدر ما أظهر الله عليه من المنّة كما أبان ذلك بقوله:

189 ـ (ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما منّ به عليك).

قلت: لا شك أن نيل الشيء بعد الطلب ألذ وأعز من المساق بغير تعب، والمحبة بعد القطيعة أحلى من المحبة بلا قطيعة، والصفاء بعد الجفاء أصفى من الجفاء بلا جفاء، وفطام النفس عن مألوفاتها وعوائدها أشد معالجة من النفس السلسة المنقادة من غير تعب، فيكون الأجر أو القدر على قدر التعب.

فهذه حكمة تقديم ورود الغفلة والشهوة على العبد ثم ينقذه منها ليعلم قدر هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه فربما أورد عليك أيها الإنسان الحق تعالى، الظلم جمع ظلمة، وهي الأغيار والأكدار وحب الشهوات والعوائد فتغرق في بحارها وتسجن في سجون ظلماتها ثم ينقذك منها في ساعة واحدة وذلك لتعرف بعد الفتح قدر ما منَّ الله به عليك فتزداد محبة وشكراً ويعظم السر عندك محلاً وقدراً فتعرف حقه وتصونه عمن لا يستحقه، ولأجل هذا جعل الله الجنة محفوفة بالمكاره ليعرف العباد بعد دخولها قدر النعمة التي من الله بها عليهم، وكذلك جنة العارف محفوفة بالمكاره ليعرف العارف قدر السر الذي كشف به والخير الذي منحه الله إياه.

واعلم أن هذه الظلم التي ترد على القلوب فتحجبه عن علّام الغيوب هي ناشئة بحكمة الله من الدنيا والنفس والشيطان، فمن زهد في الدنيا وغاب عن نفسه وأطلق يده منها، وذكر الله حتى احترق الشيطان وذاب، دخل مع الأحباب وفتح له عن علم الغيوب الباب.

قال بعض الحكماء: واعلم أن الصانع البديع سبحانه لما خلق القلب جعله خزانة أسراره ومعدن أنواره وموضع نظره من عبده ولم يخلق الله في الوجود أشرف منه، ثم رمى على باب القلب أخس الأشياء وأقذرها لتقتضي حكمته اجتماع الأضداد التي لا قدرة لغيره على ذلك فطرح على باب القلب جيفة وكلباً ينهش فيها، وهما: الدنيا والشيطان، فمن أراد الدخول لخزانة سر الله لا بد له من تغميض عينه عن هذه القذارة وإعراضه عن الكلب، لأنه لا سبيل له على من أعرض عنه وعن جيفته وكل من التفت إليها سلب النور الذي أراد الله به الدخول لبيت قلبه وكان له ذلك كالطلسم على الكنز منعه منه لا محالة اهـ.

وقيل: إن الدنيا بنت الشيطان وطالب الدنيا صهر إبليس، والأب لا ينفك عن بنته أبداً ما دامت البنت في عصمة الصهر.

وقال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده خيراً زهّده في الدنيا ورغّبه في الأخرى وبصّره بعيوب نفسه»**[1] قيل: يا رسول الله أي الناس شر، قال: **«الأغنياء»** يعني البخلاء. ثم قال عليه السلام: **«ومن عظّم غنياً لأجل غناه كان عند الله كعابد وثن، ومن أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة»**[2] اهـ.

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «ما أحبني من أحب المال، وما أحبني من أحب الدنيا، فإنه لا يسع في قلب واحد حبي وحبها أبداً. يا موسى، ما خافني من خاف الخلق وما توكل عليّ من خاف فوات الرزق، وعزتي وجلالي ما توكل عليّ عبد إلَّا كفيته وبيدي مفاتح الملك والملكوت، وما اعتصم بي عبد إلَّا أدخلته الجنة وكفيته كل مهمة، ومن اعتصم بغيري قطعت عنه الأسباب من فوقه وأسخت الأرض من تحته ولا أبالي كيف أهلكته، يا موسى خمس كلمات ختمت لك بها التوراة إن عملت بهن نفعك العلم كله وإلا لم ينفعك شيء منه:

الأولى: كن واثقاً برزقي المضمون لك ما دامت خزائني مملوءة وخزائني مملوءة لا تنفد أبداً.

الثانية: لا تخافن ذا سلطان ما دام سلطاني وسلطاني دائم لا يزول أبداً.

الثالثة: لا ترى عيب غيرك ما دام فيك عيب والعبد لا يخلو من عيب أبداً.

الرابعة: لا تدع محاربة الشيطان ما دام روحك في جسدك فإنه لا يدع محاربتك أبداً.

الخامسة: لا تأمن مكري حتى ترى نفسك في الجنة، وفي الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكري أبداً. اهـ.

قلت: وهذا كله تشريع لغيره والأنبياء كلهم مطهَّرون معصومون، وكل ما ورد فيهم من التعليم والتربية فالمراد به غيرهم وبالله التوفيق.

* * *

(1) ليس بحديث، أورده المزي في تهذيب الكمال [26/ 346] ولفظه: قال موسى بن عبيدة الربذي عن محمد بن كعب القرظي: إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدنيا وفقّهه في الدين وبصّره عيوبه، ومن أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة. ورواه أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي في تاريخ مدينة دمشق [55/ 144]، ورواه غيرهما.

(2) الشطر الثاني من الحديث أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين، [6/ 61]، أما الشطر الأول فلم أجده.

ثم من منَّ الله عليه فأخرجه من أسر نفسه وأطلقه من سجن غفلته فلم يعرف هذه النعمة سلبها من ساعته، كما أشار إلى ذلك بقوله:

190 ـ (من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها).

قلت: هذا الذي ذكره الشيخ مجرّب صحيح، وذلك أن العبد قد تترادف عليه النعم والعوافي فلا يعرف قدرها ولا تعظم عنده كل التعظيم، فإذا سلبها وضرب بالبلاء والأوجاع والمصائب فحينئذ يعرف قدر العافية، وكذلك الفقير يكون مصحوباً بالحضور والفكرة والنظرة فلا يعظم عنده قدرها، فإذا أصابته الغفلة ورجع إلى الحس وفقد قلبه عرف قدر ما كان عنده، فإذا التجأ واضطر إلى الله ردّ إليه ما سلبه.

قيل: إن الله تعالى يقول لجبريل: يا جبريل انسخ حلاوة محبتي من قلب عبدي أختبره. فينسخ جبريل حلاوة المحبة من قلب ذلك العبد، فإذا هو اضطرب وتضرع والتجأ وبكى يقول الله تعالى لجبريل: ردّ عليه حلاوة محبتي فقد وجدته صادقاً. وإذا نسخ حلاوة المحبة من قلب العبد فلم يبتهل ولم يتضرع لم يرد إليه شيئاً وسلبه تلك الحلاوة، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء، ويستعين العبد على معرفة قدر النعم بالتفكر فيها وبالتفكر في حال نفسه قبل وجودها، فينظر إذا كان غنياً إلى حال فقره المتقدم حساً أو معنى، وينظر إذا كان صحيحاً إلى حال مرضه وينظر إذا كان طائعاً في حال عصيانه، وينظر إذا كان ذاكراً إلى وقت غفلته، وينظر إذا كان عالماً إلى وقت جهله، وينظر إذا كان مصاحباً لشيخ عارف إلى وقت ضلالته، وينظر إذا كان عارفاً إلى وقت جهالته، وهكذا كل نعمة ينظر إلى وجود ضدها الذي كان موجوداً فيه قبل ذلك، فلا شك أنه يعرف قدرها فيشكرها فتدوم عليه.

وأما من لم يتفكّر في حال النِّعم فلا يعرف قدرها، فيغفل عن شكرها فيسلب منها وهو لا يشعر، قال بعضهم: شكر الله تعالى باللسان هو الاعتراف بالنعمة على وجه الخضوع، وشكر الله باليد هو الاتصاف بالخدمة على وجه الإخلاص، وشكر الله بالقلب هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة.

وقال الجنيد رضي الله عنه [شكر النعمة]: ألا ترى نفسك أهلاً للنعمة وألا تعصي الله بنعمته. اهـ.

فإن قلت: كيف أقوم بشكر النِّعم وهي لا تحصى؟

* * *

قلت: القيام بها هو الاعتراف بها للمنعم وحده، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ بقوله:

191 - (لا تُدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإنَّ ذلك مما يَحُطُّ من وجود قدرك).

قلت: قد يتفكر الإنسان في نفسه وما به من النعم، فيجد نفسه مغموساً في النعم، حسيّة ومعنوية، فينظر في نعمة البصر، في نعمة السمع، في نعمة الشم، في نعمة الذوق، في نعمة الكلام، في نعمة العقل، في نعمة اليدين، في نعمة الرجلين، في نعمة الصحة والعافية، في نعمة الكفاية، في نعمة الأهل، في نعمة الأولاد، ثم في نعمة الهداية إلى الإسلام، ثم في نعمة الإيمان، ثم في نعمة الطاعة، ثم في نعمة العلم، ثم في نعمة من يستعين به من الإخوان، ثم في النعمة الكبرى، نعمة الشيخ فيما أعدّ الله له بعد الموت الذي لا نهاية له، فإذا وجد نفسه مغموراً في النعم فلا يدهش منها ويتحقر في نفسه عن القيام بشكرها، فإن الاعتراف بها ومعرفتها والإقرار بها أنها من الله بلا واسطة هو شكرها، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية 2] كاف في شكر اللسان، ألا ترى أن الجنة هي من أعظم النعم فكان شكر أهل الجنة فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية 2]، قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُونس: الآية 10].

وقد جاء في بعض الأخبار: أن داود عليه السلام قال: يا رب، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة من نعمك ونعمتك توجب عليّ الشكر، والشكر نعمة يوجب الشكر أيضاً. وهكذا أنشد بعضهم في هذا المعنى:

إذا كانَ شكرُ الله للعبدِ نعمةً ... عليها مِنَ اللَّه لهُ يجبُ الشكرُ

فكيفَ لهُ بالشكرِ والشكرُ نعمةٌ ... ولو والت الأحقابُ واتَّصَلَ العمرُ

وقال آخر:

لكَ الحمدُ مولانَا على كل نعمةٍ ... ومِنْ جملةِ النعماءِ قولي لكَ الحمدُ

فلا حمدَ إلَّا أنْ تَمُنّ بنعمةٍ ... فسبحانَكَ لا يقوى على حمدِكَ العبدُ

فأوحى الله إليه: إذا عرفت أن النعم كلها منّي فقد شكرتني وقد رضيت منك بذلك.

وفي رواية أخرى: قال داود عليه السلام: إلٰهي إنَّ ابن آدم ليس فيه شعرة إلَّا

وتحتها نعمة وفوقها نعمة، فمن أين يكافئها، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود إني أعطي الكثير وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أنَّ ما بك من نعمة فمنّي.

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إليه: أني بأرض ولقد كثرت فيها النعم ولقد أشفقت على قلبي ضعف الشكر. فكتب إليه عمر: إني كنت أراك أعلم بالله مما أراك أن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلَّا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلَّا في كتاب الله المنزل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النّمل: الآية 15]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ﴾ [الزُمَر: الآية 73]، ثم قال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزُمَر: الآية 74]. وأي نعمة أعظم من دخول الجنة اهـ.

* * *

ولما كان أعظم النعم وأشرفها هو دواء القلب وشفاؤه من مرض الهوى الذي قيّده في سجن الغفلة وعرضه لغضب المولى، نبّه الشيخ على ذلك ليعرف العبد قدر هذه النعمة إذا كان شفاه الله أو يطلب من الله إخراجه من تلك النعمة إذا لم يكن شفاه الله، فقال:

192 ـ (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال).

قلت: حلاوة الهوى على قسمين، هوى النفس، وهوى القلب. فهوى النفس يرجع لشهواتها الجسمانية كحلاوة المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن.

وهوى القلب هو شهواته المعنوية كحب الجاه والرياسة والعز والمدح والخصوصية والكرامات وحلاوة الطاعات الحسية كمقام العباد والزهّاد وحلاوة علم الحروف والرسوم.

فأما علاج هوى النفس فأمره قريب يمكن علاجه بالفرار من أوطان ذلك والزهد وصحبة الأخيار، وأما علاج هوى القلب إذا تمكن فهو صعب وهو الداء العضال الذي أعضل الأطباء، أي أعجزهم وحبسهم عن علاجه فلا يزيده الدواء إلَّا تمكناً.

* * *

وإنما يخرجه وارد إلٰهي بعناية سابقة بواسطة أو بغير واسطة، كما أشار إلى

ذلك بقوله:

193 - (لا يخرج الشهوة من القلب إلاً خوف مزعج أو شوق مقلق).

قلت: الشهوة إذا تمكَّنت من القلب صعب علاجها، فلا يمكن خروجها في العادة إلَّا بوارد قهري جلالي أو جمالي، فالوارد الجلالي هو خوف مزعج، فيزعجك عن شهوتك ويخرجك عن وطنك وأهلك. والوارد الجمالي هو شوق مقلق، فيقلقك عن مراداتك وحظوظك فينسيك نفسك ويؤنسك بربك، ولأجل صعوبة هذا المرض كان أشد حجاباً عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد لأن هذه الشهوة خفية لأن صاحبها أضلّه الله على علم الآية فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي أضلهم عن طريق الخصوص وبقوا في طريق العموم.

أما العلماء الظاهريون فهم يعتقدون أنه لا فضيلة فوق علمهم حتى أني سمعت من بعضهم يقول: إن مقام الإحسان هو مقامهم الذي هم فيه من العمل بظاهر الكتاب والسنة، ولا مقام فوق ذلك، فكيف يمكن إخراج هذا إلَّا بعناية سابقة.

وأما العباد والزهاد فهم يقولون أيضاً: هذه غاية المحبة والطاعة، ويزيدهم بعداً ما يرونه من الكرامات الحسية فيزدادون حجاباً وتمكناً في حالهم.

وأما العوام وأهل الغفلة فهم أقرب الناس إلى الانقياد والنفوذ إلى ربهم.

وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**أكثر أهل الجنة البله**»[1] أي المغفلون، ومما يدلك على أن الشهوة القلبية أصعب من الشهوة النفسية قصة آدم والشيطان، فإن آدم عليه السلام كانت شهوته في بطنه فتداركه الله بعنايته والشيطان كانت شهوته في قلبه قال: أنا خير منه، فطرد إلى يوم القيامة.

ثم **اعلم** أن الخوف على قسمين: خوف العوام، وخوف الخواص. خوف العوام من العقاب والعذاب، وخوف الخواص من القطيعة والحجاب.

والشوق أيضاً على قسمين: شوق العوام للحور والقصور وشوق الخواص للشهود والحضور. شوق العوام لنعيم الأشباح وشوق الخواص لنعيم الأرواح. شوق العوام ناشىء عن قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: الآية 72]. وشوق الخواص ناشىء عن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب [641: إن أكثر أهل الجنة البله) حديث رقم (989) [2/ 110] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (1463) [1/ 362] ورواه غيرهما.

ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية 72] جعلنا الله من أعظمهم قدراً وأكملهم محلاً وفضلاً، آمين بمنه وكرمه.

* * *

فإذا دخل الخوف أو الشوق إلى القلب، أخرج كل ما فيه من الأغيار ومليء بالمعارف والأنوار، فحينئذ تخلص الأعمال وتزكو الأحوال ويقبل عليه ذوو العظمة والجلال، كما أبان ذلك بقوله:

194 - (كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه).

قلت: العمل المشترك هو الذي تصحبه الحظوظ النفسانية دنيوية أو أخروية، والقلب المشترك هو الذي يكون فيه حب السوى، فالعمل الذي تصحبه الحظوظ مدخول والمدخول غير مقبول، يقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه**»(1)، والقلب الذي فيه حب شيء من السوى ملطخ بالهوى لا يليق لحضرة المولى. قال تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: الآية 26] يا داود، طهِّر لي بيتاً أسكنه. ولله در الششتري حيث يقول:

لـي حـبـيـبٌ إنَّـمَـا هـوَ غـيـورُ يـظـلُ فـي الـقـلـبِ كـطـيـرٍ حَـذُورُ
إذا رأى شـيـئـاً امـتـنَـع أنْ يَـزُوْرَ

فمن حصّن أعماله بالإخلاص استحق القبول وكان من الخواص، ومن حصن قلبه من الأغيار امتلأ بالعلوم والأنوار ونبعت منه المعارف والأسرار.

واعلم أن العمل المشترك هو الذي يدخله ثلاث علل: أما رياء، أو عجب، أو طلب عوض.

أما الرياء، فهو الشرك الأصغر، وقد تقدم الحديث: «**من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه**».

وفي حديث مسلم: ثلاثة أول من تسعر بهم جهنم يوم القيامة. فذكر القارىء

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب من أشرك في عمله. . .، حديث رقم (2985) [4/ 2289] وروى نحوه ابن خزيمة في صحيحه، باب الزجر عن الاستعجال. . .، حديث رقم (938) [2/ 67] وروى نحوه غيرهما.

لغير الله، والشجاع الذي يقاتل لغير الله، والغني الذي يتصدّق لغير الله[1].

وأما العجب، فهو رؤية النفس وإسناد العمل إليها، ورؤية المزية لها على الناس، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية 32] قيل: معناه إذا عملت عملاً فلا تقل عملت ولا تظهره عند من يعظّمك لأجل علمه بذلك لأن رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[2].

وقال زيد بن أسلم: معنى لا تزكوا أنفسكم، لا تعتقدوا أنها بارَّة. قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من الذنوب، العجب**»[3].

قال بعض السلف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً.

وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن.

والمعجب أعمى عن آفات نفسه وعمله، والعمل إذا لم يتفقد ضاع، وإنما يتفقد عمله من غلب عليه خوف الله وخوف ذنوبه ولا يريد الثناء على نفسه وحمدها وتزكيتها وربما أعجب برأيه وعقله فيستنكف عن سؤال غيره ولا يسمع نصح ناصح لنظره من سواه بنظر الاستحقار. نسأل الله السلامة والعافية.

وأما طلب العوض والجزاء، فقد تقدم مراراً الزجر عنه وإنك إن طالبته بالجزاء

---

(1) صحيح مسلم، باب من قاتل للرياء والسمعة. . . ، حديث رقم (1905) [3/ 1513] ونصه: عن سليمان بن يسار، قال: تفرّق الناس عن أبي هريرة، فقال له ناتل (اسم رجل من العرب) أهل الشام: أيها الشيخ، حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ. قال: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أوَّل الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استُشهد، فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها. قال فما عمِلت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استُشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلَّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتي به فعرّفه نِعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالِم. وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحب أن يُنفق فيها إلّا أنفقت فيها لك. قال: كذبت. ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (5452) [5/ 328] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (325) [1/ 214] ورواه غيرهما.

(3) روى نحوه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (1447) [2/ 320] وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في العجب، [10/ 269] وأورده غيرهما.

طالبك بسر الإخلاص، ويكفي المريب وجدان السلامة، فكل عمل فيه بعض هذه الآفات فإن الله لا يقبله قبول الخواص.

وأما القلب المشترك فهو الذي يدخله ثلاث أيضاً: حب الدنيا، أو حب الخصوصية، أو النعم الأخروية. وكلها قادحة في الإخلاص مخرجة عن درجة التوحيد الخاص، وبالله التوفيق.

هذا آخر الباب الحادي والعشرين، **وحاصله**: ذكر ميزان الأعمال والأحوال الصحيحة والسقيمة، وحاصل هذا الميزان كل ما يثقل على النفس فهو صحيح وكل ما يخف عليها فهو سقيم. ومن جملة ما يثقل عليها القيام بالفرض الواجب دون النوافل فإنها تخف عليها، فلما علم الحق سبحانه ذلك منها قيّد الفرائض بأوقات معلومة كي لا يمنعها التسويف، لأن جلّ النفوس يقلّ نهوضها إلى حضرة القدوس وليس للحق سبحانه غرض فيما فرض، وإنما ساقهم إلى جنته بسلاسل امتحانه.

فمن غلبته نفسه على النهوض إلى الطاعة وأسرته شهوته عن اللحوق بالسباق فلا يستغرب أن ينقذه الله منها فإن قدرة القادر كلمح البصر أو أقرب، وربما تكون تلك الشهوة أو الغفلة في حقك نعمة وذلك لتعرف منّة الله عليك حين ينقذك منها، فإن كثيراً ممن أنعم الله عليهم لم يعرفوا قدرها فسلبوا منها، فإذا أنعم عليك بإنقاذك من نفسك وإلحاقك بخواص جنسك فانغمست في النعم فلا تندهش عن شكرها، فإقرارك بالمنعم قيام بشكرها، فإذا رأيت من حبسته نفسه وتمكن داء الهوى من قلبه **فاعلم** أن ذاك هو الداء العضال فلا يخرجه منه إلّا خوف مزعج أو شوق مقلق، فإذا أزعجه الخوف أو الشوق تفرّغ قلبه وخلص عمله فيقبل الله عليه فإذا أقبل عليه ملأه بالأنوار، فمنها ما يصل إلى سويداء قلبه، ومنها ما يقف على ظاهر قلبه كما أبان ذلك بقوله في أول الباب الثاني والعشرين.

[الباب الثاني والعشرون]

وقال رضي الله عنه:

195 - (أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدخول).

قلت: أما الأنوار التي أذن لها في الوصول فهي أنوار الإيمان وهي لأهل الدليل والبرهان، لأن قلوبهم لم تتفرّغ من الأغيار ولم تمح منها صور الآثار، فلما جاءت وجدت داخل القلب مملوءاً بصور الآثار فوقفت في ظاهر القلب.

وأما الأنوار التي أذن لها في الدخول فهي أنوار الإحسان من الشهود والعيان وذلك لأنهم لما فرَّغوا قلوبهم مما سوى ربهم دخلتها الأنوار فوجدت متسعاً فسكنت سويداء قلوبهم. وعلامة النور الواصل والداخل، أن صاحب النور الواصل للظاهر فقط تراه تارة مع الدنيا وتارة مع الآخرة، تارة مع حظ نفسه وتارة في حق ربه، تارة مع الغفلة وتارة مع اليقظة. وصاحب النور الداخل لسويداء القلوب لا تراه إلَّا مع ربّه لا يشغله عنه حظوظ الدنيا ولا حظوظ الآخرة غائباً عن نفسه حاضراً مع ربّه.

قال بعض الحكماء: إن الإيمان إذا كان في ظاهر القلب كان العبد محباً لآخرته ودنياه فيكون صاحبه تارة مع ربه وتارة مع نفسه. وبقدر تمكُّن النور في القلب ودخوله إليه يكون بغض العبد للدنيا وتركه لهواه. اهـ.

وفي هذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «**النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح**»[1] قيل: فهل له من علامة يا رسول الله، قال: «**نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزوُّد لسكنى القبور والتأهُّب ليوم النشور**»[2]. اهـ.

ثم اعلم أن الأنوار التي أذن لها في الوصول عامة لجميع المؤمنين، وقد تقدم قول أبي الحسن [الشاذلي]: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض.

* * *

(1) روى نحوه الطبري في تفسيره [8/ 27] وسعيد بن منصور في سننه قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: الآية 125] . . . ، حديث رقم (918) [5/ 88] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه

وأما الأنوار التي أذن لها في الدخول، فهي خاصة بالخواص، أهل التفرُّغ من الأغيار ولوث الأنوار، فأما من كان قلبه محشواً بصور آثارها فلا يطمع في نيل أسرارها كما أبان ذلك بقوله:

196 ـ (ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث جاءت).

قلت: رب هنا للتكثير، أي كثيراً ما ترد عليك أنوار عالم الغيب لتغيبك عن عالم الشهادة، فتجد قلبك محشواً بصور عالم الشهادة فترحل عنك وتتركك محبوساً في يدها، أو تقول: كثيراً ما ترد عليك أنوار المعاني لتخرجك من سجن الأواني فتجد قلبك مملوءاً بها فتتركك في وسطها محجوباً بها، أو تقول: كثيراً ما ترد عليك أنوار الملكوت فتجد قلبك محشواً بظلمة الملك فتتركك في ظلمة الكون، أو تقول: قد ترد عليك أنوار الجبروت فتجد قلبك محشواً بأنوار الملكوت فرحاً بها قانعاً ببهجتها فتتركك واقفاً معها وتنادي عليك: القناعة من الله حرمان، الذي تطلب أمامك. ولو كان العلم ينتهي إلى حد محدود لم يقل الله تعالى لسيد العارفين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114].

قال عليه الصلاة والسلام: «**كل يوم لا أزداد فيه علماً لا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم**»(1) أو كما قال عليه السلام.

* * *

فالمانع للقلب من دخول الأنوار هو وجود الأغيار كما أشار إلى ذلك بقوله:

197 ـ (فرِّغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار).

قلت: التفرُّغ: هو الخلوُّ من الشيء والتنظيف منه، والأغيار: جمع غير بكسر الغين وفتح الياء، ويصح أن يكون بفتح الغين وسكون الياء، وهو أليق. والمراد به حينئذ السوى، وإنما جمعه لتعدد أنواعه كما قالوا في جمع العالمين.

يقول رضي الله عنه: فرِّغ قلبك أيها الفقير من الأغيار وهو ما سوى الله بحيث لا يتعلق قلبك بشيء من الكون علوياً أو سفلياً، دنيوياً أو أخروياً، حسياً أو معنوياً، كحب الخصوصية وغيرها من الحظوظ، فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية ولم يبق فيه إلَّا محبة مولاه، فإنه يملأه بالمعارف بحيث يكشف عنك حجاب الوهم

(1) رواه الطبراني في الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (6636) [6/ 367] وابن راهويه في مسنده، حديث رقم (1128) [2/ 553] ورواه غيرهما.

ويذهب عنك ظلمة الحس، فتشاهد الأشياء كلها أنوار ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية، ويملأه أيضاً بالأسرار وهي أسرار الجبروت فتغيب بالجمع عن الفرق وبشهود الجبروت عن شهود الملكوت، وتكاشف بأسرار القدر فيهب عليك نسيم برد الرضى والتسليم وأنت في حضرة النعيم المقيم عند الملك الكريم.

فالأسرار على هذا أبلغ من المعارف، فالمعارف أنوار الملكوت والأسرار أنوار الجبروت، لأن السائر قد يكشف له عن نور الملكوت فيشهد الكون كله نوراً، لكنه مفتقر إلى تلك الأنوار ليترقى بها إلى التمكين في شهود الذات كافتقار القارىء إلى النظر في الرسوم، فإذا حفظ القارىء المعنى وتمكَّن منه محا الرسوم ولم يفتقر إليها، كذلك السالك يكشف له أولاً عن نور الكون فيغيب في النور عن ظلمة الحس ثم لا يزال في السير حتى يقبض المعنى ويتمكن منه فلا يحتاج إلى مشاهدة فيستغني عن نور الملكوت بنور الجبروت، وقد تقدم هذا المعنى عند قول المؤلف: «اهتدى الراحلون» إلخ الحكمة، فيمتحي السوى عن عين قلبه بالكلية ويغيب عن نفسه وحسّه بشهود الأحدية. ولله در قول الشاعر:

إنْ تلاشَى الكونُ عَنْ عين قلبي شاهدَ السِّرُّ غيبَهُ في بَيَانِ
فاطرحِ الكونَ عن عِيَانِكَ وامْحُ نُقْطَةَ الغَيْنِ إنْ أردتَ تَرانِي

ويحتمل أن يريد بالمعارف علوم العرفان، وبالأسرار الأذواق والوجدان، فتكون المعارف هي علوم المعرفة بحيث يعرف في كل شيء ولا ينكر شيئاً، والأسرار أذواق تلك العلوم، فإن المعرفة تكون أولاً علماً وآخراً ذوقاً. ويحتمل أن يكون من عطف التفسير فتكون الأسرار هي المعارف والله تعالى أعلم.

ومن أراد سرعة السير إلى هذا المقام فليفرغ قلبه وينظفه على التمام، فبقدر التخلية تكون التحلية وبقدر التصفية تكون الترقية ولأجل هذا نهوا السائر عن التزوج وعن التعلق بالأسباب إذ لا يخلو من علقة فإذا تمكن من المعنى لم يبق له مراد إلَّا مراد معروفه صار كل ما يبرز من عند مولاه تلقاه بالقبول.

* * *

فإن طال بالمريد السفر وتأخر عنه الفتح والظفر، فلم يدرك هذه الأسرار ولم يكشف له عن تلك الأنوار فلا يستبطىء من ربه النوال فإنه جواد كريم، ولكن يستبطىء منه وجود الإقبال. وإلى ذلك أشار بقوله:

198 ـ (لا تستبطىء منه [تعالى] النوال ولكن استبطىء من نفسك وجود الإقبال).

قلت: الحق سبحانه جواد كريم حليم رحيم، من تقرَّب إليه شبراً تقرَّب إليه ذراعاً ومن تقرَّب منه ذراعاً تقرَّب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة كما في الحديث[1]. فإن توجهت إليه بقلبك ثم تأخر الفتح من قبله فلا تستبطىء منه النوال، أي العطاء، وهو كشف الحجاب ولكن استبطىء من نفسك وجود الإقبال فلعل إقبالك عليه لم يكن بكليتك فإن الله سبحانه يقول بلسان الحال: «وليس يدرك وصالي كل من فيه بقية أو كان بحرف أو خط». وأما لو زالت أغيارك لأشرقت أنوارك ولو تطهّرت من جنابة الغفلة لاستحققت الدخول إلى مسجد الحضرة. وقد يكمل إقبالك ويفوتك الأدب مع سيدك وهو استبطاؤك النوال، ولو صح منك الإقبال.

قال بعضهم: هب أن السيد الكريم أهل لكل فضل وكرم أفترى العبد يقبل الأدب بين يدي سيده ويكشف جلباب الحياء عن وجهه، فإن فعل ذلك فهو بالعقوبة أولى من الكرم، وقد قال أرباب المعرفة: لأن تكون صاحب استقامة خير من أن تكون صاحب كرامة اهـ. ومن باع نفسه لله وكان عبداً مملوكاً لمولاه فأي شيء يستحق على مولاه.

حكي عن ذي النون المصري رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد اشترى داراً وأراد أن يكتب عقدها، فقال له ذو النون: يا أخي إن قبلت وصيتي أوصيتك، فقال: نعم قل يا سيدي، فقال له: لا تشتر داراً تفنى وتدع داراً تبقى، فقال له: من لي بها، فقال له: هلا اشتريت من الله داراً دار السلام ومجاورة الكرام لتنال فيها الأمان، وتتنعم بنعيم لا يدرك بالأثمان، دار لها أربع حدود، الأول منازل الخائفين، الثاني منازل العارفين، الثالث منازل المشتاقين، الرابع رياض المحبين، دار سقفها عرش الرحمٰن وبابها باب الرضوان، مكتوب على بابها بالخط الأزلي:

دارُ تُقَى ورضى عليهما أُسِّسَت ونعمَ دارُ المتقين

---

(1) الذي رواه البخاري في صحيحه، باب ما يذكر في الذات. . . ، حديث رقم (6970) [6/ 2694] ونصه: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر. . . ، حديث رقم (2675) [4/ 2062] ورواه غيرهما.

ثُمَّ نادَى الحقُّ مِنْ أرجائِهَا   أدخلُوها بسلامٍ آمنين

فإن أردت عقد شرائها قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية 111] هذا ما اشترى العبد الثواب من الملك الوهاب بثمن قيمته الخروج من ذل المعاصي إلى عز الطاعة ومن تعب الحرص والطمع إلى راحة الزهد والورع شهد بذلك عدول القلب واللسان وصحيح ما نزل من القرآن وبتاريخ حل عقدة الإصرار من وقت الإنابة ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية 111] قال له: نعم. ثم تصدّق بماله وخرج معه إلى الله اهـ.

* * *

ثم من صح إقباله على الله لم يضيِّع شيئاً من الأوقات في غير طاعة مولاه كما نبّه على ذلك بقوله:

199 ـ (حقوق في الأوقات يُمكن قضاؤها وحقوق الأوقات لا يُمكن قضاؤها).

قلت: أما الحقوق التي في الأوقات فهي الطاعة التي عيَّن الله تعالى لها وقتاً محدوداً كالصلوات الخمس والسنن المؤكدة، وكذلك الزكاة والصيام لهما وقت محدود في العام، فإذا خرج وقتها أمكن قضاؤها وإن كان يسمى مفرطاً لكن بعض الشر أهون من بعض.

وأما حقوق الأوقات بأنفسها فهي مراقبة الحق أو مشاهدته كل واحد على قدر وسعه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية 286]، وهذه الحقوق إذا فات وقتها لا يمكن قضاؤها، إذ الوقت الثاني له حق مخصوص لا يسع غيره، فما من لحظة إلّا ويجب عليك فيها أن تكون عاملاً لله مشتغلاً فيها بما يوصلك إلى قربه ورضاه، وهذا معنى قوله:

199 ـ (إذ ما من وقت يرد إلاً ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه).

قلت: ما من وقت أو لحظة ترد عليك أيها العبد إلّا ولله عليك فيها حق جديد، من ذكر أو فكرة أو نظرة أو من مراقبة أو مشاهدة أو من خدمة حسِّية أو معنوية، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: الآية 60].

وأمر أكيد من التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية، فإن غفلت عن الحق الجديد أو الأمر الأكيد في وقت ما ودخل الوقت الثاني فقد فاتك القضاء وندمت

على ما مضى، فكيف يمكن أن تقضي في الوقت الثاني حق غيره وهو أيضاً له حق يجب عليك أن تؤديه فيه فلا يمكنك أن تقضي حق الوقت الأول في الوقت الثاني، وأنت لم تقض حق الله فيه، أي في الوقت الثاني.

والحاصل، أن كل وقت له حق، فإن فات فلا قضاء له، ولذلك قالوا في الآداب: التصوُّف هو ضبط الأنفاس وحفظ الحواس. والأنفاس هي دقائق الساعات وضبطها هي عمارتها بأنواع الطاعات، فإذا ضيّع حقوق الساعات خرج عن أدب التصوُّف، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: أوقات العبد أربعة لا خامس لها، نعمة أو بلية، أو طاعة أو معصية، وله على عبده في كل وقت منها حق، ففي النعمة الشكر، وفي البلية الصبر، وفي الطاعة شهود المنة، وفي المعصية اللجأ والإنابة وطلب الإقالة بالمعنى. وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «**من أعطي فشكر وابتلي فصبر وظلم فغفر وأذنب فاستغفر**»، **ثم سكت عليه السلام، فقالوا: ما له يا رسول الله، قال**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ **[الأنعَام: الآية 82]**»[1]، أي لهم الأمن يوم القيامة وهم مهتدون في الدنيا. وقيل: لهم الأمن في الدارين وهم مهتدون إلى حضرته في الكونين.

واعلم أن القيام بحقوق الأوقات على التمام يكاد أن يكون متعذراً في حق البشر، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ **[الأنعَام: الآية 91]** أي ما عبدوه حق عبادته وما عرفوه حق معرفته، فلهذا كانت حقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها لأنها راجعة لحفظ الأنفاس والخطرات، وقد أعيا الرجال حفظها في حال الصلاة فكيف في كل وقت، لكن قد يختص برحمته من يشاء.

قال بعضهم: منذ عشرين سنة ما خطر على قلبي شيء سوى الله تعالى.

وقال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي]: من أحب الله لم يستعمل جوارحه إلَّا فيما يوافق محبوبه، وأنفاسه كلها محفوظة بالطاعة، ولو حيل بينه وبين الخدمة لفارق الدنيا من ساعته، لأن الطاعة قد صارت غذاء أرواحهم، فإن فارقوها ماتوا. نفعنا الله بهم آمين.

* * *

(1) رواه ابن كثير في تفسيره، سورة الأنعام، حديث رقم (1378) وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [4/ 209] وأورده غيرهما.

ثم في تضييع حقوق الأوقات تضييع العمر الذي هو أعزّ من الكبريت الأحمر، وهو الذي نبَّه عليه بقوله:

200 ـ (ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له).

قلت: عمر المؤمن هو رأس ماله، فيه ربحه وخسرانه، فمن شدّ يده عليه كان من الفائزين ومن ضيّعه في البطالة والتقصير كان من الخاسرين، فما فات منه في غير طاعة ربه لا عوض له إذا ما ذهب لا يرجع أبداً وما حصل لك منه لا قيمة له تفي بقدره إذ لو اشتريت ساعة منه بملء الأرض ذهباً لكان نزراً في حقه لأن ساعة منه تذكر الله فيها تنال بذلك ملكاً كبيراً ونعيماً مقيماً لو بيعت الدنيا بحذافيرها ما بلغت منه عشر العشر، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات وبذلوا مجهودهم في اغتنام الساعات ولم يقنعوا من أنفسهم إلّا بالجد والتشمير، ولم يسمحوا لها في الراحة والبطالة بقليل ولا كثير.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**لا تأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلّا كانت عليه حسرة يوم القيامة**»[1]. وقال علي كرَّم الله وجهه: «بقية عمر العبد ما لها ثمن يدرك بها ما فات ويحيي بها ما مات». وقال الجنيد رضي الله عنه: الوقت إذا فات لا يستدرك وليس شيء أعز من الوقت. وفي معناه قيل:

السباقَ السباقَ قولاً وفعلاً حذِّر النَّفْسَ حَسرةَ المسبوقِ

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: أدركت أقواماً كانوا على أنفاسهم وأوقاتهم أشد حفظاً وأحرص شفقة منكم على دنانيركم ودراهمكم، كما لا يخرج أحدكم درهمه ولا ديناره إلّا في ورود منفعة واستجلاب فائدة كذلك كانوا لا يضيِّعون نفساً من أنفاسهم في غير طاعة أبداً. كان سيدنا علي رضي الله عنه يقول لفاطمة بنت رسول الله ﷺ: «**إذا صنعتِ طعاماً فميِّعيه**»[2] أي اجعليه مائعاً خفيفاً فإن بين المائع واليابس خمسين تسبيحة.

وقال أبو علي الجرجاني: ما مضغت الخبز منذ أربعين سنة، وإنما أسف السويق وأعود لذكر الله تعالى. قال: وقد كنت عددت ما بين المضغ والبلع ستين تسبيحة. وقيل: إن ساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة تُبعث يوم القيامة خزائن مصفوفة أربعاً وعشرين خزانة فمن كان عمَّرها في الدنيا بطاعة الله رآها خزائن معمورة

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

بالنعيم، ومن كان ضيّعها رآها خزائن فارغة خاوية فيتحسر عليها ويندم.

وجاء في الخبر[1]: أن أهل الجنة بينما هم في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوق أضاءت منه منازلهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يرى الكوكب الدري في أفق السماء، وقد فضلوا عليهم في الأنوار والجمال والنعيم كما فضل القمر على سائر النجوم، فينظرون إليهم يسيرون على نجب تسرح بهم في الهواء يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادي هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا، كنا نصلّي كما تصلون ونصوم كما تصومون فما هذا الذي فضلتم به علينا، فإذا النداء من قبل الله عز وجل: «إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ويعطشون حين ترورون ويعرون حين تكسون ويذكرون حين تنسون ويبكون حين تضحكون ويقومون حين تنامون ويخافون حين تأمنون، بذلك فضّلوا عليكم اليوم»[1]. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية 17] اهـ.

* * *

ومما يعين على حفظ الأوقات واتصال الطاعات الزهد في السوى ومحبة المولى، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره وخدمه وخضع له وكان عبداً حقيقة له، كما أشار إلى ذلك بقوله:

201 - (ما أحببتَ شيئاً إلاَّ كنتَ له عبداً، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً).

قلت: القلب إذا أحب شيئاً أقبل إليه وخضع له وأطاعه في كل ما يأمره، إن المحب لمن يحب مطيع، وهذه حقيقة العبودية الخضوع والطاعة، وليس للقلب إلَّا وجهة واحدة وليس للإنسان إلَّا قلب واحد، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزَاب: الآية 4] وإذا كان للقلب وجهة واحدة فمهما أقبل بها على مولاه أعرض عما سواه وكان عبداً له حقيقة، وإذا أقبل على هواه أعرض قطعاً عن مولاه وكان عبداً لسواه والحق سبحانه لا يرضى لعبده أن يكون عبداً لغيره، قال تعالى في ذم من كان عبداً لهواه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجَاثيَة: الآية 23] فالآية نص في ذم من أحب هواه واتخذه ربّاً من دون مولاه. وأما تفسير أهل الباطن

---

(1) روى نحوه السيوطي في الدر المنثور، سورة طه، الآية 72- 76. أخرج نحوه عبد بن حميد...، [5/ 587] وأبو نعيم في حلية الأولياء، ترجمة عون بن عبد الله بن عتبة [4/ 247].

فهو إشارة لا تفسير معنى، وفي الحديث: **«إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحدّاً ومطلعاً»**[1].

فقد ورد عن شيخ شيوخنا سيدي محمد بن عبد الله في إشارة هذه الآية: أنه يمكن أن يكون مدحاً ومعناه حينئذ: أفرأيت من اتخذ إلٰهه الذي خلقه هواه لا يحب سواه وأضله في محبته على علم وبيِّنة من ربّه، وختم على سمعه وقلبه بمحبته وجعل على بصره غشاوة منعه من النظر لما سواه، فمن يهديه هذه الهداية العظمى من بعد الله لا هادي له سواه. وهذا في ظاهر العبارة خارج عن سياق ظاهر الآية لكنه باطنها ولا يصح تفسير الآية به.

واعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسول الله ﷺ على غير المعنى المعهود ليس هو عندهم عين المعنى المراد، ولكنهم يقررون الآية والحديث على ما يعطيه اللفظ ثم يفهمون إشارات ودقائق وأسراراً خارجة عن مقتضى الظاهر، خصهم الله بها لصفاء أسرارهم. هكذا ذكر المؤلف في لطائفه.

ثم نرجع إلى ما كنا فيه من طلب العبودية لله والحرية مما سواه، قال ﷺ: **«تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة ـ زاد في رواية: والزوجة ـ تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»**[2]. وقيل للجنيد: من العبد؟ قال: من بقي في قلبه أدنى علاقة غير الله لأن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم. قيل له: ومن الحر؟ قال: من تخلّص من رقّ طبعه واستنقذ قلبه من شهوات نفسه.

وكان للشبلي تلميذ فكساه رجل يوماً جبة وكان على رأس الشبلي قلنسوة، فخطر على قلب التلميذ محبة القلنسوة ليجمعها مع الجبة فكاشفه الشيخ فأزال له الجبة وجمعها مع القلنسوة ورمى بهما في النار وقال له: لا تبق في قلبك التفاتاً لغير الله. وأنكر عليه بعض أهل الظاهر المتجمدين على ظاهر الشريعة جهلاً بالمقصود، لأن أعمال الصوفية مبنية على العبادة القلبية، لأن الأعمال الظاهرة إن لم يوافقها القلب كانت أشباحاً خاوية وبالله التوفيق.

واعلم أن من تخلّص من رقّ طبعه واستنقذ من أسر نفسه فقد تحقق بمحبة ربه. والمحبة لها بداية ووسط ونهاية، فأول المحبة وبدايتها ملازمة امتثال الأمر واجتناب

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم (2730) [3/ 1057] وابن ماجة في سننه، باب في المكثرين، حديث رقم (4135) [2/ 1385] ورواه غيرهما.

النهي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 31] ووسطها لهج اللسان بالذكر وتعلّق القلب بشهود المحبوب، ونهايتها لا تُدرك بالعبارة ولا تلحقها الإشارة. وفي هذا المعنى قيل:

فلم يبقَ إلّا اللّهُ لا ربّ غيره ... حبيبٌ لقلبٍ غابَ عَنْ كلّ مقصدِ
هنيئاً لمِنْ قد نال حب حبيبه ... وخاض بتركِ الغيرِ أكرمَ موردِ
نعيمٌ بلا حدٍ لديه مُجَدَّدٌ ... على عددِ الأنفاسِ في كلّ مشهدِ

روي أن أبا يزيد رضي الله عنه كان بحذاء المنبر، فقرأ الخطيب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعَام: الآية 91] فصبّر نفسه حتى طار الدم من عينه، فهذه المعاني لا تدركها العامة ولا الخاصة وإنما يذوقها خاصة الخاصة. وأنشدوا:

وحقّكَ لو أفنيتَ قلبي صبابةً ... لكنتَ على هذا حبيباً إلى قلبي
أزيدُ على عذلِ العذول تشوُّقاً ... ووجداً على وجدٍ وَحُبّاً إلى حبّ
أبَى القلبُ إلّا أنتَ في كلّ حالةٍ ... حبيباً ولو دارتْ عليهِ يدُ الكَربِ
فلا تبتليه بالبعادِ فإنّما ... تلذُّ أنفاسِ المحبينَ بالقُرْبِ

* * *

ومعنى محبة الله لعبده حين يقبل عليه هو تقريبه لحضرته وهدايته لمحبته من غير نفع له في ذلك، إذ لا تنفعه طاعة من أقبل عليه ولا تضرّه معصية من أدبر عنه، إذ هو غني عن الكل، كما أشار إلى ذلك بقوله:

202 ـ (لا تنفعه طاعتك ولا تضرّه معصيتك، وإنما أمرك بهذا ونهاك عن هذا لما يعود إليك. لا يزيد في عزّه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من قدره إدبار من أدبر عنه).

قلت: الحق سبحانه غني عن كل شيء مفتقر إليه كل شيء، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرّه معصية العاصين، وسيأتي في المناجاة: «إلٰهي تقدَّس رضاك أن تكون له علّة منك فكيف تكون له علّة مني أنت الغني بذاتك أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني» اهـ. فلا تنفعه أيها العبد طاعتك فيكون محتاجاً إليها تعالى الله عن ذلك ولا تضرّه معصيتك فيكون مقهوراً بها وهو القاهر فوق عباده فإنما أمرك بالطاعة ليقرّبك إليه، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية 56] وإنما نهاك عن المعاصي لما جعل فيها من علامة البعد عن حضرته فما أمرك الله بشيء إلّا وفيه تقريب وآداب للحضرة، وما نهى الله عن شيء إلّا وفيه ضرر وإبعاد عن الحضرة

لما فيه من سوء الأدب.

والتحقيق، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: الآية 23]، لا يزيد في عزّه إقبال من أقبل عليه لأن عزّته أزلية قديمة، ولا ينقص من عمره إدبار من أدبر عنه لأنه غني عن العالمين. وفي الحديث القدسي: **«لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»** الحديث. أخرجه مسلم في صحيحه.

ومن أسمائه تعالى: القدُّوس. قال بعضهم: معناه أنه منزّه عن كل كمال لا يليق بذاته، ولا يقال إنه منزَّه عن النقائص إذ لا تصح نسبتها إليه حتى ينزه عنها إذ لا ينفي عن الشيء إلَّا ما يصح إثباته له، فإن نفيت ما لا يصح إثباته فربما يكون نقصاً، كما يقال: السلطان ليس بجزار، ومن أجاز ذلك فإنما مراده التعميم وكمال التقديس والتنزيه. قال بعضهم: لو أراد الخلق تنزيه الخالق إلَّا بلسان العجز ما استطاعوا ولذلك قال ﷺ: **«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**(1) اهـ.

ثم قال ذلك البعض: إن صفات الباريء وأسماءه كلها كليات، والمخلوق جزء والجزء لا يحيط بالكل ولا يدرك حقيقته فليتحرز من التأويلات المخرجة عن المعنى اللائق بجناب الحق مسلماً أن لا يعرف الله إلَّا الله. وأنشدوا:

لا يعلمُ اللَّهَ إلَّا اللَّهُ فاتَّئِدُوا ... والدينُ دينانِ إيمانٌ وإشراكُ

وللعقولِ حدودٌ لا تُجَاوِزُهَا ... والعَجْزُ عَنْ دركِ الإدراكِ إدراكُ

فهذا أوائل المعرفة. وأما وسطها فهو اغتراف من بحر الحقيقة واستشراف على غوامض الطريقة، ولا تسعه كل عقول العامة وإنما يخوض فيه الخاصة. فإن ما تقدم كان فيه استدلال بالاسم على المسمى، وهذه مرتبة تسقط التفرقة بين الاسم والمسمى وبين الصفة والموصوف.

ثم قال: ولهذا قالوا الجمع سقوط التفرقة، وليس بعد هذا إلَّا جمع الجمع وهو غاية المعرفة، فأول المعرفة دلالة الصنعة على الصانع، ووسطها دلالة الصانع

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (482) [1/ 350] والحاكم في المستدرك، كتاب الوتر، حديث رقم (1150) [1/ 449] ورواه غيرهما.

على الصنعة، وغايتها تلاشي كل ما دون الحق ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآيتان 26، 27] اهـ. قاله الشطيبي مختصراً.

هذا آخر الباب الثاني والعشرين، **وحاصله**: الترغيب في تحصيل الأنوار بالتفرُّغ من الأكدار فإذا فرّغت قلبك وتأخّر الفتح عليك فلا تستبطىء منه وجود النوال ولكن استبطىء من نفسك وجود الإقبال، ولا يكمل إقبال العبد على ربه حتى يستغرق الأوقات كلها في طلبه فكل وقت من العمر لا ثمن له ولا يمكنه التفرُّغ لحفظ الأوقات حتى يتحرَّر من رقّ الكائنات، فإذا تحرر مما سواه كان عبداً حقيقة لمولاه فحينئذ اجتباه ولحضرته اصطفاه من غير منفعة له فيه ولا ضرر، وإنما يعود نفعه له وضرره عليه إذ لا يزيد في عزِّه إقبال من أقبل ولا إدبار من أدبر، وإنما وصل من وصل بمحض فضله وأبعد من أبعد بمحض عدله.

[الباب الثالث والعشرون]

ومعنى وصول العبد إلى مولاه علمه بنور عظمة ربه وسناه كما أبان ذلك في أول الباب الثالث والعشرين بقوله:

وقال رضي الله عنه:

203 ـ (وصولك إليه [تعالى] وصولك إلى العلم به، وإلا فجلّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء).

قلت: قد ذكر أهل الفن في هذا المقام اصطلاحات وألفاظ تداولوها بينهم تقريباً لفهم المعاني، **فمنها** السير والرحيل وذكر المنازل والمناهل والمقامات، **ومنها** الرجوع والوقوف، وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها، وقطع العوائق والعلائق عنها أو الوقوف مع شيء منها. وسيأتي للمؤلف: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين. **ومنها** الوصول والتمكين والسكون والطمأنينة، **ومنها** المشاهدة والمكالمة والمجالسة والمساورة وغير ذلك، وكل ذلك كناية عما أدركته أرواحهم وذاقته أسرارهم من عظمة الحق وجلاله، وسيأتي تفسير شيء من ذلك في محله إن شاء الله.

ومعنى الوصول عندهم: تحقيق العلم بوجوده وحده، فوصولك إليه هو شعورك بعدمك، حتى يكون عدمك عندك ضرورياً وعلمك بوجوده كذلك، وهذا الأمر كان حاصلاً لك في نفس الأمر لكن لم تشعر به. وفي هذا المعنى قال بعضهم، وبعضه للششتري:

بَيْنَ طلوعٍ ونزولِ ... تخبَّلت الغزول
افنِ مَنْ لم يكُنْ ... يبق من لم يَزُول
جُول كَيْ تَزُول ... أو امْشِ نزعَ الفحُول

فالزوال هو المعرفة، وهو معنى الوصول، وسببها جولان الفكرة ولذلك أمره بها. وقال شيخ شيوخنا سيدي علي: الناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون. وسمعت شيخنا يقول: الناس كلهم في البحر، أي في بحر الوحدة، ولكن لا يشعرون. فوصول العبد إلى الله هو تحقيق العلم بوجوده والغيبة عن نفسه وعن كل ما سواه،

وإلا تكن كذلك بأن تعتقد أن الوصول يكون حسِّياً. فجلّ ربنا: أي تعالى وترفَّع أن يتصل به شيء للزوم تحيّزه أو يتصل هو بشيء للزوم افتقاره وحصره تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

واعلم أن هذا العلم بالله يكون كسبياً، ثم لا يزال يغيب عن نفسه وحسه سكرة بعد سكرة وحيرة بعد حيرة حتى يصحو وينجلي عنه ضباب الحس وسحاب الجهل وظلمة النفس، فتشرق عليه شمس النهار وتنجلي عنه ظلمة الأغيار. وفي ذلك قيل:

لـيـلـي بـوجـهـكَ مـشـرقٌ وظـلامُـهُ فـي الـنَّـاس سـارِ

الـنَّـاسُ فـي سَـدَف الـظَّـلامِ ونـحـنُ فـي ضـوءِ الـنَّـهـارِ

أي ليل وجودي صار مشرقاً مضيئاً بسبب شهود ذاتك، وظلام ليل القطيعة سار في جلّ الناس، الناس في جوف ظلمة الأكوان ونحن في ضوء شموس العرفان.

ثم لا يزال في تربية الشيخ وتحت حضانته، ومدده سار إليه بقدر صدقه حتى يسلم له خصيم الغرق الظلماني، وينفرد النوراني ويحس ذلك من نفسه، فحينئذ يقول بلسان الحال: أقرّ الخصم فارتفع النزاع، فإذا انفرد الخصم النوراني استمد من كل شيء وشرب من كل شيء وأخذ النصيب من كل شيء فيبقى وصوله إلى الواسطة شكراً وإحساناً أن اشكر لي ولوالديك، وينشد حينئذ بلسان حاله ومقاله:

الـحـمـدُ لـلَّـه لا تـفـنَـى مـحـامـدُهُ والـحـمـدُ لـلَّـهِ فـي الآصـالِ والـبُـكَـرِ

مـن يـهـدِهِ الـلَّـهُ أضـحَـى عـالـمـاً فـطـنـاً بـالـلَّـه فـي كـلِّ مـا يـبـدُو مـن الـصـورِ

يا طالبَ الوصلِ جُدْ بالنَّفس ملتفتاً عـنـهَـا إلـى مـنـزلِ الأشـيـاءِ بـالـقـدرِ

فإنْ ظفرتَ فأنتَ الفردُ والعلمُ الـ ـمنعوتُ بالحسنِ والحسنَى لذي نظرِ

* * *

ومنها، أي من اصطلاحاتهم، ذكر القرب والاستشراف والمراقبة. وفسّر الشيخ معنى القرب، فقال:

204 ـ (قُرْبُك منه أن تكون مشاهداً لقربه، وإلا فَمِنْ أين أنت ووجود قربه).

قلت: إذا حققت أن الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته، علمت علم يقين أن الأكوان والمكان والزمان لا وجود لها، وأن الحق كما كان وجوده وحده ولا أين ولا مكان بقي كذلك لا أين ولا مكان ولا زمان، نور أحديته محا وجود الأكوان، فانتفى بوجوده الزمان والمكان، ولم يبق إلّا الواحد المنان.

وفي البخاري عنه ﷺ: «**يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار**»[1]، فالوجود الحقيقي إنما هو لذاته وأثر صفاته تجلّى واستتر واختفى فيما ظهر، فإذا علمت هذا علمت أنه تعالى قريب من كل شيء محيط بكل شيء، ولا شيء إلَّا الذي ليس كمثله شيء، لكن حكمة الحكيم أثبتت الحادث والقديم، فمن فتح الله عين بصيرته شهد عدمه لوجوده فأبصر الحق محيطاً به وماحياً لوجوده، ومن طمس الله عين بصيرته لم ير إلَّا الفرق ولم يدرك إلَّا البعد فإذا أراد الله أن يقرِّبه إليه فتح شعاع بصيرته فيبصر الحق قريباً منه ومحيطاً به.

روي أن الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه قال يوماً بين يدي أستاذه: اللهم اغفر لي يوم لقائك، فقال له شيخه: هو أقرب إليك من ليلك ونهارك ولكن الظلم أوجب الظلال، وسبق القضاء حكم بالزوال عن درجات الأنس ومنازل الوصال، وللظالم يوم لا يرتاب فيه ولا يحتال، والسابق قد وصل في الحال، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: الآية 38]. اهـ كلامه رضي الله عنه.

فمعنى قربك من الحق أن تكون مشاهداً لقربه منك قرب وجود وإحاطة، وذلك بعد أن تلطفت عوالمك وفنيت دائرة حسّك، وحينئذ يتحقق قربك منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: الآية 60]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلت: الآية 53] الآية، وأن لا تعتقد هذا واعتقدت وجود نفسك وثبوت حسك الوهمي فلا تشاهد إلَّا البُعد، فمن أين أنت ووجود قربك الحسي من نوره اللطيف حتى تراه بعين الحس، فما دمت في عالم الأشباح فأنت بعيد من عالم الأرواح في حال قربك منه كما قال القائل:

ومِنْ عجبٍ أنّي أحنُّ إليهِمُ ... وأسألُ شوقاً عنهُمُ وَهُمُ معِي

وتبكيهُمُ عيني وَهُم بسوادِهَا ... ويشكُو النَّوى قلبي وَهُمْ بينَ أضلعِي

سبحان من بعَّد قوماً في حال قربهم وقرَّب قوماً من غير بعدهم. وراجع ما تقدم لنا في الشرح عند قوله: شعاع البصيرة، تفهم المسألة على أصلها وحق هذه الحكمة أن تتقدم على التي قبلها لأن القرب سابق على الوصول، ولِمَا ترتَّب على ذكر الوصول من ذكر الواردات والأمر قريب، والله تعالى أعلم.

---

(1) حديث رقم (4549) و(5827) و(7053) ورواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم (2246) [4/ 1762] ورواه غيرهما.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه في شرح هذه الحكمة: القرب في الجملة على ثلاثة أوجه:

أحدها: قرب الكرامة وهو تقريب الحق عبده حتى يكون مشاهداً لقربه منه فيتولاه دون ما سواه.

الثاني: قرب الإحاطة، إحاطة العلم والقدرة والإرادة وعموم التصرف، وهذا هو قرب الحق من عبده.

الثالث: قرب المناسبة والمسافة، ولا يصح في جناب الربوبية لاستحالة المسافة عليه ونفي مناسبة العبد للرب. فتقدير الكلام قربك منه على وجه الكرامة أن تكون مشاهداً لقربه منك على وجه الإحاطة، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه على وجه التناسب والمسافة اهـ. وإنما نقلته لعلمي أن الكتاب يطالعه من يحسن العوم ومن لا يحسنه. فإذا خاف من البحر وجد جزيرة يأوي إليها وبالله التوفيق.

ومن حصل على مقام القرب والوصول ترد عليه الحقائق العرفانية والأسرار الربانية والعلوم اللدنية، تارة ترد مجملة ثم يقع التفصيل، وتارة مفصلة وهو غالب واردات أهل التمكين، والغالب أن هذه الواردات إنما ترد بعد الفتح والوصول ولذلك قلنا: الأحسن لو قدم الشيخ مقام القرب ثم يذكر مقام الوصول ليتصل بهذه الحكمة التي تكلم فيها على الواردات حيث قال:

205 ـ (الحقائق ترد في حال التجلِّي مجملة وبعد الوعي يكون البيان ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ **[القِيَامَة: الآيتان 18، 19])**.

قلت: الحقائق هي ما يرد على قلب العارف من تجليات العلوم والحكم والمعارف، فتارة تكون علوماً وتارة تكون حكماً ومعارفاً، وتارة تكون كشفاً بغيب كان أو سيكون، وحكمة ذلك الروح إذا تخلصت وتصفت من غبش الحس كان غالب ما يتجلى فيها حقاً. ثم إن هذه الحقائق قد ترد في حال التجلّي مجملة فيقيّدها الإنسان كما تجلب ثم يتفكر فيها فيتبين معناها، فبعد الوعي وهو الحفظ، يكون البيان.

ثم استدل بآية الوحي لأن الوحي على أربعة أقسام: وحي إلهام، ووحي منام، ووحي إعلام، ووحي أحكام. فشاركت الأولياء الأنبياء في ثلاثة: وحي إلهام، ووحي منام، ووحي إعلام، وهو الفهم عن الله. وانفردت الأنبياء بوحي الأحكام، فالأولياء لهم وحي الإلهام ويكون أولاً مجملاً في القلب فإذا قرأه وأظهره تتبعه

وبيَّنه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القِيَامَة: الآية 18] كما قرأناه عليك ثم ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية 19] حتى تفهمه وتبيِّنه للناس. كان عليه السلام يعالج من التنزيل شدة مخافة أن ينساه، فلما نزلت الآية كان يستمع لجبريل فإذا فرغ قرأه كما أنزل، فالوحي الذي هو وحي أحكام مصون فلا ينسى بخلاف وحي الإلهام، فلذلك ينبغي للولي أن يقيِّد تلك الواردات قريباً، فإن الحكمة في حال التجلِّي تكون كالجبل فإذا غفل عنها ترجع كالجمل فإذا غفل عنها بعد رجعت كالثور ثم كالكبش ثم كالبيضة ثم تغيب، ولذلك كان شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه لا تفارقه الدواة والقلم والقرطاس ليقيِّد المواهب وكذلك كان أشياخنا وكانوا يأمرون بذلك.

قلت: وجل هذا الشرح الذي نقيِّده إنما هو مواهب لأني أكتب الحكمة ولا أدري ما أكتب، فأقف مفتقراً إلى ما عند الله فإذا ورد شيء من عند الله كتبته أولاً، ثم أنظر في كتب القوم إن وجدت نقلاً غريباً موافقاً لما أفاض الله عليَّ كتبته وإلا تركته واكتفيت بما أتى الله، وكثيراً ما نكتب الكلام ثم نطالعه ونستغرب أني كتبته أو صدر مني، وذلك كله ببركة صحبة أشياخنا فجزاهم الله عنا أحسن جزائه. ولقد كنت في حال الرياضة والمجاهدة إذا أردت أن نتكلم في التفسير أو غيره نشرع في الكلام ثم نغيب، فكنت نحس بالكلام يخرج مني من غير اختيار كأنه السحاب، فتصدر مني علوم وحكم فإذا سكت لم يبق منها إلا القليل.

ولقد حضر معنا ذات يوم رجل صالح كبير السن فسمع ذلك فقال: والله لقد حضرت مجالس العلماء والصالحين، والله ما رأيت مثل هذه الجواهر واليواقيت التي تخرج من سيدي فلان. فبقيت كذلك مدة غير أني لم نكن نقيِّد شيئاً ثم انتقل ذلك إلى حال التقييد، فصار القلم عندي أفصح من عبارة اللسان.

وكان بعض العارفين يقول لأصحابه: إذا كنت أتكلم عليكم أكون أستفيد من نفسي ما يجريه الله على لساني كما تستفيدون أنتم مني. وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

ولا تكُ مِمَّنْ طيَّشَتْهُ طروسُهُ ... بحيث استخفَّتْ عقلَهُ واستفزَّتِ

فَثَمَّ وراء النَّقلِ علمٌ يدقُّ عن ... مداركِ غاياتِ العقولِ السليمةِ

تَلَقَّيْتُهُ منِّي وعنِّي أَخَذْتُهُ ... ونفسِي كانتْ من عَطائي مُمِدَّتي

وكان الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه إذا استغرق في الكلام وفاضت عليه العلوم يقول: هلا رجل يقيِّد عنا هذه الأسرار، هلموا إلى رجل صيَّره الله بحر

العلوم. أو كلاماً نحوه. وكان يحضر مجلسه أكابر وقته كعز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب وابن عصفور وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذري، وكان عز الدين بن عبد السلام إذا سمع كلامه يقول: هذا كلام قريب عهد بالله.

وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول: والله ما رأيت أعرف بالله من أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وكان في كل سنة يطلع إلى القاهرة ويجتمع عليه مشايخ القاهرة ومصر ومَن بتلك الناحية، فيفيض عليهم بالعلوم والمواهب الربانية والأسرار اللدنية، فلما مات رضي الله عنه واستخلفه أبو العباس المرسي جعل يطلع إلى القاهرة كما كان يفعل شيخه، فاجتمع إليه جماعة من أكابر مصر وعلمائها وقالوا: يا شيخ كان الشيخ أبو الحسن إذا جاء إلى هذا الموضع يجيء عندنا ونتبرَّك بقدومه وما نسمع منه من مواهب الله تعالى، وأنت قد أقامك الله مقامه فنحب أن نتبرَّك بكلامك، فقال لهم: إذا كان صبيحة غد نجيء إليكم إن شاء الله. فلما كان صبيحة غد أمر أصحابه بالمسير إلى مصر وأمر بحمل رسالة القشيري رضي الله عنه.

قال ابن الصباغ: فحملتها ووصلنا إلى جامع عمرو بن العاص، فوجدناه قد امتلأ بأكابر أهل مصر وعلمائها، فقال لي منتقد ومعتقد، قال: فجلسنا بشرقي الجامع فقال: أخرج رسالة القشيري، فأخرجتها فقال: اقرأ، فقلت: وما أقرأ؟ قال: الذي يظهر لك. ففتحنا الكتاب فوجدنا باب الفراسة، فقرأت أول الباب فلما فرغت من حديث رسول الله ﷺ قال لي: أغلق الكتاب، ثم قال: الفراسة تنقسم إلى أربعة أقسام، فراسة المؤمنين، وفراسة الموقنين، وفراسة الأولياء، وفراسة الصدِّيقين. فأما فراسة المؤمنين فحالها كذا ومددها من كذا. ثم تكلم بكلام عظيم ثم انتقل إلى فراسة الموقنين فتكلم بطبقة أعلى ثم قال: وأما فراسة الأولياء فمددها من كذا وحالها من كذا، وتكلم في ذلك بكلام موهوب غير مكسوب أذهل عقول الحاضرين واستغرق بذلك إلى أذان الظهر والناس يبكون، ورأيت العرق ينحدر من جبينه حتى ينحدر على لحيته، وكانت لحيته كبيرة اهـ.

وقال [تاج الدين بن عطاء الله السكندري] في لطائف المنن: وكنت أنا لأمره من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صح نقله عنه، حتى جرت مقاولة بيني وبين بعض أصحابه وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلَّا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظاماً وظاهر الشرع يأباها، فقال لي ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ تدري ما قال لي الشيخ يوماً تخاصمنا، قلت: لا، قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك

منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف بنا، قال: ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم من الذي كان ينقله عنه من يقصد الأذى، وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دعني أذهب فأرى هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارة لا يخفى شأنها. فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، فقال الأول إسلام، والثاني إيمان، والثالث إحسان. وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة. وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق، أو نحو هذا. فما زال يقول: وإن شئت قلت وإن شئت قلت إلى أن أبهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلٰهي ومدد رباني فأذهب الله ما كان عندي إلى آخر كلامه.

فهذه الحقائق التي يفيضها الحق تعالى على قلوب أوليائه فينطقون بها تكون أولاً مجملة فإذا حفظت وتقيّدت تبيَّن معناها، فمنها ما تدركه العقول ويطابق المنقول، ومنها ما لا تفهمها العقول فتكلها إلى أربابها ولا تنتقدها عليهم بمجرد سماعها. وانظر قول ابن الفارض رضي الله عنه:

فثَمَّ وراءَ النَّقلِ علمٌ يدقُّ عَنْ مداركِ غاياتِ العقولِ السليمةِ

ومع هذا كان الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه يقول: إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف والإلهام. ومثل هذا أيضاً قول الجنيد: إن النكتة لتقع في قلبي من جهة الكشف فلا أقبلها إلَّا بشاهدي عدل، الكتاب والسنَّة، ولا يلزم من عدم العمل بها انتقادها على أهلها فإن العلم واسع له ظاهر وباطن ومسائل الإلهامات تارة ترد على حسب العلم الظاهر وتارة ترد على حسب العلم الباطن، فإن لم تفهم فسلم ودع ما تعرف لما لا تعرف.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: من آداب مجالسة الصديقين أن تفارق ما تعلم لتظفر بالسر المكنون. اهـ. يعني إن أردت أن تظفر بما عندهم من السر المكنون فأسقط عنهم الميزان في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وأما ما دمت تزن عليهم بميزان علمك فلا تشم رائحة من سرهم.

وكان شيخ شيوخنا سيدي علي [الجمل] رضي الله عنه يقول: طريقتنا لا ينال منها شيئاً إلَّا من يصدِّق بالمحال، فإن أردت يا أخي أن يهب عليك نسيم أسرارهم

ونفحات مواهبهم فدع ما تعرف إلى ما لا تعرف، واغتسل من علمك وعملك حتى تبقى فقيراً إلى ما عندهم كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلي رضي الله عنه.

ولقد حدثني من أثق به أن الشيخ أبا الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه طلع إلى الشيخ ابن مشيش رضي الله عنه بالميزان فلم يشم رائحة الولاية فرجع، ثم طلع ثانياً كذلك فرجع كما طلع، فلما أسقط الميزان واغتسل من علمه وعمله وطلع فقيراً أغناه الله، قال له الشيخ ابن مشيش: يا أبا الحسن طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك فأخذت منا غنى الدارين اهـ. نفعنا الله بذكرهم ونفح علينا ما نفح عليهم حتى نستغني بهم غنى لا فقر معه أبداً آمين.

* * *

ثم إن هذه الواردات التي تتجلى بالحقائق والعلوم إنما هي واردات أهل النهاية، وأما واردات أهل البداية فإنها تأتي قوية قهارية إما بخوف مزعج أو شوق مقلق لترحله عن شهواته وعوائده وهي التي ذكرها الشيخ بقوله:

206 - (متى وردت الواردات الإلٰهية إليك هدمت العوائد عليك، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها).

قلت: الوارد الإلٰهي هو قوّة شوق أو اشتياق أو محبة يخلقها الله في قلب العبد، وقد تنشأ عن قوة خوف أو هيبة أو جلال، فتزعجه تلك القوّة إلى النهوض إلى مولاه، فيخرج عن عوائده وشهواته وهواه، ويرحل إلى معرفة ربّه ورضاه. وقد تترادف عليه أنوار تلك المحبة والشوق فتغيبه عن حسه بالكلية، وهو الجذب.

وإنما جمع الواردات باعتبار تلك المحبة والشوق فإنها لا تهدم عوائدها إلّا إن كثرت وتزايدت، وتسمى أيضاً هذه الواردات نفحات. قال عليه السلام: **«إن لله نفحات فتعرضوا لنفحاته»**[1]. فمن لم ترد عليه هذه الواردات اختياراً فليتعرض لها بصحبة العارفين أهل الإكسير الذي يقلب الأعيان، فإن صحبهم ولم ترد عليه فليخرق عوائد نفسه من الظاهر فإنها تدخل منه إلى الباطن، فمتى وردت عليك حينئذ تلك الواردات الإلٰهية هدمت العوائد عليك وأفسدتها لديك، فترد عزك ذلًّا، وغناك فقراً، وجاهك خمولاً، ورياستك تواضعاً وحنواً، وكلامك صمتاً، ولذيذ طعامك خشيناً،

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم 1، حديث رقم (2856) [3/ 180] ونصه: «إن لربكم عز وجل في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعل أحدكم أن تصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً».

وشبعك جوعاً، وكثرة كلامك صمتاً، وقرارك في وطنك سياحة وسفراً، هكذا شأن الوارد الإلٰهي يخرب العوائد ويهدمها، فهو كملك جبار ذي جيش طغاة دخل قرية أو مدينة فأفسد بناءها وغيَّر عوائدها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النَّمل: الآية 34] أي نزعوها وخربوها ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النَّمل: الآية 34] أي رؤساءها أتباعاً مرؤوسين ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النَّمل: الآية 34] أي هذا شأنهم، والاستشهاد بالآية في غاية الحسن والمناسبة.

* * *

ثم ذكر الشيخ علّة هدم الوارد عوائد الإنسان، فقال:

207 ـ (الوارد يأتي من حضرة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلاَّ دمغه بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق).

قلت: إنما كان الوارد الذي يرد على قلوب السائرين أو الطالبين قوياً شديداً لأنه يأتي من حضرة اسمه تعالى ليدمغ بقهريته كل ما وجد في النفس أو القلب من الأغيار. وإنما قلنا: من حضرة اسمه القهار لأن الحق تعالى له حضرات بعدد أسمائه، فاسمه تعالى القهار يتجلى من حضرة قهريته، واسمه جميل يتجلى من حضرة جماله، واسمه جليل يتجلى من حضرة جلاله، واسمه رحيم يتجلى من حضرة رحمته، واسمه الحليم يتجلى من حضرة حلمه، واسمه الكريم يتجلى من حضرة كرمه، وهكذا فكل اسم يخرج تجلّيه على وفق حضرته.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: الآية 21] ولو كان هذا الوارد الذي يرد على قلوب أهل البداية من حضرة الرَّحيم أو الحليم أو الجميل ما أمكن أن يدفع بحكمة الله ما صادمه من الباطل. وشبّه الشيخ الباطل وهو كل ما سوى الله بحيوان له دماغ، فإذا ضرب دماغه وتشتت مات، كذلك الباطل إذا صادمه الحق أهلكه وتشتت دماغه، فالوارد الإلٰهي محض حق فإذا صادم الباطل دمغه وقتله، ولذلك أتى بالآية التي نزلت في شأن القرآن مع الكفر، فإن الكفر تشتت واضمحل حين نزل القرآن، كذلك السوي إذا تجلى الحق بقهرية نوره تشتت واضمحل. وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه كثيراً ما ينشد هذه الأبيات في هذا المعنى:

فلوْ عاينتْ عيناكَ يومَ تزلزلَتْ ... أرضُ النُّفوسِ وَدُكّتِ الأجبالُ

لرأيتَ شمسَ الحقِّ يسطعُ نورُهَا ... عندَ التزلزلِ والرجالُ رجالُ

قال: والأرض أرض النفوس، والجبال جبال العقل، يعني أن الوارد الإلٰهي إذا ورد قوياً من حضرة قهاريته تعالى دكّ وجود النفوس وتدكدكت منه جبال العقول،

فيكشف له حينئذ عن أسرار خارجة عن مدارك العقول غير مدركة بعبارة النقول، فيصير صاحب هذا الوارد كله حقاً لا يصادم شيئاً إلّا دمغه، وهذا المعنى قصد شيخ شيوخنا القطب ابن مشيش بقوله: واقذف بي على الباطل فأدمغه، طلب أن يكون حقاً محضاً يقذف به على السوى فيدمغه فإذا ذهب السوى واضمحل بقي الحق الذي لا يفنى ظاهراً لا يخفى، كما أبان ذلك الشيخ.

* * *

فللّه دره ما أدق نظره في مناسبة الكلام وحسن التخليص لكل مقام حيث قال:

208 ـ (كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر).

قلت: قد كرر الشيخ هذا المعنى في كتابه مراراً تحريضاً على الجمع وتحذيراً من الفرق، فقد تقرّر أن الحق تعالى ليس محجوباً بشيء ولا يصح أن يحتجب بشيء إذ لو احتجب بشيء وجودي لكان ذلك من أثر قدرته وقدرته لا تفارق ذاته، فالصفة لا تفارق الموصوف، فما ظهر شيء من بحر الجبروت إلّا كان نوراً من أنواره وأثراً من أثر صفاته. وقد قال صاحب العينية[1]:

فأوصافُهُ والاسمُ والأثرُ الذي هوَ الكونُ عينُ الذَّاتِ واللَّهُ جامعُ

فلذلك تعجب الشيخ من تصوُّر الحجاب في حقه تعالى مع أن كل ما يبرز من عنصر القدرة كله نور من نور ملكوته، فائضاً متدفقاً من بحر جبروته، فتحققت الوحدة وانتفى الحجاب بالكلية فكل موجود نور الحق فيه حاضر موجود.

* * *

ثم إن الواردات هي الأحوال والأحوال نتائج الأعمال في الغالب، فلذلك ذكر الشيخ العمل وأمرك ألا تتركه حيث لم تذق حلاوته.

والعمل منه ما يجد العامل ثمرته وهو الحال والحلاوة، ومنه ما لا يجد ثمرته عاجلاً فلا ينبغي تركه ولا ييأس من ثمرته ولا من قبوله كما أبان ذلك بقوله:

209 ـ (لا تياس من قبول عمل لا تجد فيه وجود الحضور فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلاً).

قلت: قد تقدم قوله: من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود

---

(1) هو الشيخ القطب عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى عينيته.

القبول، ولا يقتضي المفهوم أنه إن لم يجد ثمرته فليس بمقبول بل هو مسكوت عنه، فإن توفرت فيه شروط القبول من جهة الشريعة إن صحبه الإخلاص والتقوى والإتقان الشرعي فهو مقبول عند الله إن شاء الله سواء وجد ثمرته أم لا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: الآية 27]، وقال ﷺ: «**لا يقبل الله من مسمع ولا مراء**»[1] فإن كنت متقياً لله في ظاهرك وباطنك على قدر استطاعتك ومخلصاً لله في أعمالك ثم لم تجد حلاوة العمل ولا حضور قلبك فيه ولم تجد ثمرته من أحوال الواجدين وأذواق العارفين فلا تيأس من قبوله عند الله، فليس وجود الحال ولا الحلاوة شرطاً في العمل إنما هي علامة والعلامة لا يلزم طردها، فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلاً، فيعطيك ثوابه آجلاً، فلا ينبغي لك أن تستحقر عملك فتتركه لعدم حضورك فيه أو لعدم وجدان حلاوته، بل يجب عليك أن تدوم عليه حتى تجني ثمرته، فمن قرع الباب يوشك أن يفتح له. واسمع قول الشاعر:

اطلب ولا تَضْجَرَنَّ من مَطْلَبٍ ... فآفةُ الطَّالبِ أنْ يضجَرَا
أَمَا ترَى الحبلَ بتكرارِهِ ... في الصخرة الصماءِ قدْ أثَّرا

واذكر قضية العابد الذي بقي في مكة أربعين سنة وهو يقول: لبيك اللهم لبيك، والهاتف يقول: لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك، وهو ملازم لم يبرح من موضعه ولم يرجع عن عمله، فجاء إليه رجل يزوره فلما قال الرجل العابد: لبيك، فقال له الهاتف: لا لبيك، فقام الزائد منصرفاً عنه وقال في نفسه: هذا رجل مطرود. فناداه العابد: ما لك، فقال: يا سيدي أنت قلت لبيك والقائل قال لك لا لبيك، فقال له: يا هذا لي أربعون سنة أسمع هذا الخطاب وهل ثم أبواب أخرى نأتيه منها، أنا واقف ببابه ولو طردني ألف مرة ما برحت عن بابه. فقبله الحق تعالى فلما قال لبيك قال له الحق: لبيك وسعديك، أو كما قال. فانظر من لازم الباب كيف التحق بالأحباب وفتح في وجهه الباب، ولذلك قال عليه السلام: «**أحب العمل إلى الله**

---

(1) رواه ابن السري في الزهد، باب السمعة، حديث رقم (874) [2/ 442] ووقفه على عبد الله ونصه: «عن مالك بن الحارث عن عبد الرحمان بن يزيد قال: كان الربيع بن خيثم يأتي علقمة يوم الجمعة فيتحدث عنده فيرسلون إليَّ فأجيء فأتحدث معهم، فأرسلوا إليَّ يوماً فجئت، فقال لي علقمة: ألم تر ما أتانا به الربيع بن خيثم؟ قلت: وما هو؟ قال: ثنا رجل من أهل الكتاب قال ألم تر إلى كثرة دعاء الناس وقلة الإجابة! ذلك أن الله لا يقبل إلَّا الناخلة والناخلة الخالصة، فقلت: فقد قال عبد الله مثلها، قال: وما قال؟ قلت: أما سمعته يقول: «والذي لا إله غيره لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا لاعب إلَّا داع دعاء ثابتاً من قلبه؟ قال: بلى».

أدومه وإن قلّ»[1]. وقال: «**إن الله لا يمل حتى تملوا**»[2]. فالمراد من العمل القيام برسم العبودية وتعظيم جانب الربوبية وليس المراد منها طلب الأحوال والمقامات، فإن ذلك قدح في الإخلاص عند أهل التوحيد الخاص.

* * *

وقد يكون الحال سبباً في الحجاب لمن وقف معه واستحلاه ولذلك قال بعضهم: اتقوا حلاوة الطاعة فإنها سموم قاتلة، أي لمن وقف معها ولم ينفذ إلى شهود المعبود بها فلا تكن عبد الحال وكن عبد المحوّل كما نبّه على ذلك المؤلف بقوله:

210 - (لا تزكين وارداً لا تعلم ثمرته فليس المراد من السحابة الإمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار).

قلت: ثمرة الوارد هو هدم العوائد واكتساب الفوائد والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل. وإن شئت قلت: ثمرة الوارد الصادق هو ما ينشأ عنه من الذلّة والانكسار والخشوع والسكينة والوقار والحلم والزهد والسخاء والإيثار، والتخلص من رقّ الشهوات الجسمانية والعوائد النفسانية والخروج من سجن الأكوان والترقّي إلى فضاء الشهود والعيان، والتحرُّر من يد الأغيار والتمحض إلى تحقيق المعارف والأسرار.

وكل هذا قد تقدم للمؤلف مفرّقاً قال في أول الكتاب: أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً، أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رقّ الآثار، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك، وقال فيما تقدم قريباً: متى وردت الواردات الإلٰهية إليك هدمت العوائد عليك.

وقال أيضاً: الوارد يأتي من حضرة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلّا دمغه، فإذا ورد عليك وارد ولم يترك فيك هذه الخصال فلا تزكه واتهم نفسك فيه لئلا يكون شيطانياً فإن الوارد الإلٰهي تعقبه برودة وسكون وزهد وطمأنينة وفترة، والوارد الشيطاني تعقبه حرارة وقساوة وتكبُّر وصولة ورؤية نفس، فليس المراد من الحال

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب لن يدخل الجنة بعمله. . . ، حديث رقم (2816) [4/ 2169] والنسائي في السنن الكبرى، باب في المصلي يكون بينه وبين الإمام سترة، حديث رقم (838) [1/ 274] ورواه غيرهما.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر العلة التي من أجلها أمر. . . ، حديث رقم (353) [2/ 67] والطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه عثمان، حديث رقم (3729) [4/ 107] ورواه غيرهما.

فرحه وخفته وشطحته إنما المراد منه ثمرته، فهو كسحابة الأمطار فليس المراد منها وجود الأمطار وإنما المراد ما ينشأ عنها من وجود الأثمار.

* * *

فلا تطلب بقاء الحال فقد يكون بقاؤه ضرراً لك فإن دوام الأمطار يعود نفعها ضرراً وإلى ذلك أشار بقوله:

211 ـ (لا تَطْلُبَنَّ بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها، فلك في الله غنى عن كل شيء، وليس يُغنيك عنه شيء).

قلت: طلب الشيء يدل على محبته ومحبة الشيء عبودية له، والحق تعالى لا يحب أن تكون عبداً لغيره فلا تطلب معه حالاً ولا مقاماً، فإن وردت عليك الأحوال، وهي الواردات الإلٰهية، ثم انقشعت وانصرفت، فلا تطلب بقاءها بعد أن بسطت في قلبك أنوارها فأخرجت منه ظلمة الأغيار وصور الآثار، وأودعت أسرارها من مزيد الإيقان وشهود العيان، أو تقول: لا تطلب بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها من هدم عوائد نفسك عليك فتحررت من رق الشهوات الجسمانية والعوائد النفسانية وتخليت من الرذائل وتحلّيت بالفضائل، فهذه آثار أنوار الواردات.

وبعد أن أودعت أسرارها في قلبك من اليقين والطمأنينة والمعرفة، أو من الزهد والرضى والتسليم، أو من الخشوع والتواضع والذلّة والانكسار، فهذه علامة صدق الوارد وحصول نتيجته، فإذا حصلت النتيجة فلا حاجة للشيخ لشيء فلك في الله غنى عن كل شيء، فلا تفتقر إلى شيء وليس يغنيك عنه شيء. وسيأتي للشيخ: ماذا فقد من وجدك وما الذي وجد من فقدك. وقال الشاعر:

لكلِّ شيءٍ إذا فارقْتَهُ عِوضٌ وليسَ للّه إنْ فارقْتَ مِنْ عِوضِ

وفي الإشارة عن الله تعالى: لا تركنن إلى شيء دوني فإنه وبال عليك وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك، وإن آويت إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال وقفناك معه، وإن آنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت الخلق وكّلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة نكّرناها عليك، فأي حيلة لك وأي قوة معك فارضنا لك ربّاً حتى نرضاك لنا عبداً. اهـ.

وسئل أبو سليمان الداراني عن أفضل ما يتقرّب به إلى الله، فقال: أقرب ما يتقرَّب به إلى الله أن يطلع على قلبك وهو لا يريد من الدنيا والآخرة سواه. وفي ذلك

قيل:

مَـنْ عـرفَ الـلَّـهَ فـلـمْ تـغـنِـهِ مـعـرفـةُ الـلَّـهِ فـذاكَ الـشَّـقِـي
مـا يـصـنـعُ الـعـبـدُ بـعـزِّ الـغِـنَـى والـعـزُّ كـلُّ الـعـزِّ لـلـمـتـقِـي

* * *

فإذا حصل لك الغنى بالله استغنيت عن كل ما سواه، فلا تتطلع إلى بقاء حال ولا وارد ولا مقام سوى شهود الملك العلام، فتطلعك إلى بقاء حال أو وارد دليل على عدم غناك به، كما أبان ذلك بقوله:

212 ـ (تطلُّعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له).

قلت: إذ لو وجدته ما طلبت شيئاً ولا افتقرت إلى شيء أصلاً، فكل من يفرح بالوارد والحال فهو غير متحقق بالوصال، وكل من يفتقر لغير الله فليس بعارف بالله، وكل من يحتاج إلى شيء أو يركن إلى شيء فليس من الله في شيء وليس على شيء. وكثيراً ما كنت نقول للفقراء: كل من تروه يزور غير الشيخ بعد أن قبض الورد، فهو باق من العوام ولم يدخل بلاد الخصوص لقلة صدقه، ولو دخل بلاد الخصوص لاجتمعت همته وانجمع قلبه واستغنى عن ماء غيره فتعطشه إلى غير شيخه دليل على أنه لم يشرب من مائه. ولله در القائل، ويقال إنه الغزالي، حيث قال:

كـانـت لـقـلـبـي أهـواءٌ مُـفَـرَّقـةٌ فاستجمعتْ مُذْ رأتكَ العينُ أهوائي
فـصـارَ يـحـسُـدُني مَـنْ كـنـتُ أحـسـدُهُ وصرتُ مولى الورَى مُذْ صِرتَ مولائي
تـركـتُ لـلـنَّـاسِ ديـنَـهُـم ودنـيَـاهُـم شـغـلاً بـذكـرِكَ يـا ديـنـي وَدُنـيَـائـي

* * *

ومن علامة الغنى به أيضاً الأنس به والوحشة من غيره، فالله يغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، فإذا فقد حالاً أو مقاماً سوى شهود ربه ثم استوحش منه فهو بعيد من الحضرة، كما أبان ذلك بقوله:

213 ـ (استيحاشك بفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به).

قلت: استيحاشك بفقدان الأحوال والواردات دليل على عدم وصلتك، إذ لو وصلت إليه لم تستوحش من فقدان شيء، وفي الحقيقة ما فقدت شيئاً، وهذه علامة الغنى بالله أنه إذا فقد شيئاً مما هو في العادة يؤلم فقده كالولد مثلاً أو قريباً أو فاتته عبادة حسية مثلاً أو غير ذلك، فإنه يرجع للمعرفة، فالله يغني عن كل شيء وهو

المقصود من العبيد. قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: الآية 23].

قال في التنوير: **اعلم** أن الله سبحانه إنما يدخلك في الحال لتنال منه لا لينال منك، وإنما جاءت لتحمل هدية التعريف من الله إليك فيها فتوجه إليها باسمه المبدي فأبداها وأبقاها حتى إذا وصلت إليك ما كان لك فيها، فلما أدت الأمانة توجه إليها باسمه المعيد فأرجعها وتوفاها فلا تطلبن بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ولا بقاء أمين بعد أن بلغ أمانته، وإنما يفتضح المُدَّعون بزوال الأحوال بعزلهم عن مراتب الإنزال، هنالك يبدو العوار وتنهتك الأستار، فكم من مدع الغنى بالله، وإنما غناه بطاعته أو بنوره أو فتحه، وكم من مدع العز بالله، وإنما إعزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمداً على ما ثبت عندهم من معرفته. فكن عبداً لله لا عبد العلل، وكما كان لك ربّاً ولا علة فكن عبداً له ولا علّة لتكون له كما كان لك اهـ.

هذا آخر الباب الثالث والعشرين، **وحاصله**: الكلام على القرب والوصال وما ينشأ عن ذلك من مقامات الإنزال ونتائج الأحوال والغنى بالله عنها في كل حال، فهذا هو النعيم على الدوام والاتصال الذي فتح به الباب الرابع والعشرين.

[الباب الرابع والعشرون]

فقال رضي الله عنه:

214 - (النعيم، وإن تنوَّعت مظاهره، إنما هو بشهوده واقترابه. والعذاب، وإن تنوَّعت مظاهره، إنما هو بوجود حجابه فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم)

قلت: نعيم الروح وعذابها إنما هو بشهود ربها واحتجابها وذلك بعد تخلصها من عالم الأشباح وترقّيها إلى عالم الأرواح، فيكون حينئذ نعيمها روح الوصال وريحان الجمال، وعذابها احتجابها عن شهود ذلك الجمال وبعدها عن الكبير المتعال، وهذا الأمر حاصل في دار الدوام لجميع الأنام لأنه تميّز الحق من الباطل وعرف كل واحد مثواه ومستقره، فأهل الجنان أحسوا بالرضى والرضوان، فهم عالمون بقرب الحق منهم ورضاه عنهم لكنهم متفاوتون في العلم، فمنهم من يعلم من وراء الرداء ومنهم من يعرف داخل الرداء.

وفي البخاري: «**وما بين الناس وبين أن ينظروا إلى ربهم إلَّا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»، ولا يفهم هذا الرداء إلَّا أهل الأذواق. وأما أهل النار فأحسوا بالبعد من الواحد القهار فتضاعف عذابهم في دار البوار، ولو أن الحق تعالى تجلّى لهم بصفة جماله لأنساهم ذلك اليوم عذابه ولو أنه تعالى احتجب عن أهل الجنة لضاق عليهم فسيح الجنان ولانقلب نعيمهم نقمة وعذاباً، أما من كان في دار الدنيا عارفاً فلا يحتجب الحق تعالى عنه كما شهده هنا بوسائط أنواره يشهده ثَمَّ بلطائف أسراره، بل ثَمَّ أولى لغلبة المعنى على الحس والقدرة على الحكمة.

وأما من كان هنا محجوباً فهو ثَمَّ أيضاً محجوب. قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسرَاء: الآية 72]. وللآية تفسيران، ظاهر وباطن، لكن في دار البقاء يرق الحجاب لرقة الأبدان ولطافتها، فلذلك صار نعيمهم لا يكمل إلَّا بشهود القرب، فإذا فقدوه تنغص نعيمهم لأن في تلك الدار صار الحكم للأرواح وفي هذه الدار الحكم للأشباح إلَّا من ترقّى هنا إلى عالم الأرواح فهو من أهل الجنة، فنعيمه نعيم الأرواح وهو روح الوصال وشهود الكمال، فنعيمه بشهود اقترابه

ورضوانه فلو زال عنهم شهود القرب أو انقطع عنهم مدد الرضوان لضاق عليهم فسيح الجنان.

وأما نعيم الأشباح وعذابها، أعني من كان محجوباً بها فإنما هو لموافقة ما يلائم طبعه أو مخالفته، فإذا جاء ما يلائمه من صحة وعافية وجمال حسي فهو في حقه نعيم، وإذا جاء ما يخالف طبعه من وجع أو فقد أو منع أو فتنة فهو عذاب في حقه إذ لا حظ له في لذّة القرب ومرارة البعد فإنما حظه من النعيم نعيم البهائم، نعم لو قدرنا أن العادة تخرق له ويتجلى الحق تعالى له في حال عذابه الحسي بصفة جماله لنسي ذلك العذاب.

والحاصل: أن كلام الشيخ إنما هو في حق أهل القرب أو الشهود بحيث يجد لذة القرب وحلاوة الشهود، ويحس بمرارة البعد وضيق الحجاب في هذه الدار وفي تلك الدار هذا ما ظهر لي وهذا الذي ذكره الشيخ مذوق عند أرباب العشق، فكم من عاشق ضرب بمحضر محبوبه فلم يحس بألم الضرب، فلما غاب عنه تضرّع واستغاث فقيل له في ذلك، فقال: لما حضر من كنت أضرب من أجله غبت عن ألم الضرب، فلما غاب عني وجدت ألمه. قلت: ولهذا المعنى استلذ العارفون الفاقات وأنواع التعرفات وضروب البليات لما ذاقوا في ذلك من إقبال محبوبهم ورضى مشهودهم. كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يقول: ألا حبذا المكروهات الثلاث الفقر والمرض والموت، أي ما أحبهم لي وأعزّهم وكانت زوجة بلال تصيح عند موته: وا كرباه، فيقول هو: وا طرباه غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

ولما ضرب عامر بن فهيرة بالرمح ونفذ من ظهره إلى صدره، قال: فزت وربّ الكعبة، وكان بعض الأولياء مجذوماً وهو يدعو للمرضى فيبرؤون من حينهم فقيل له: لو دعوت الله أن يخفف عنك فقال: رأيت ربّ العزّة في النوم وهو يقول لي: أتريد أن أبتليك ببلية أرفع لك بها أعلى الدرجات، قلت: نعم فأصبح مجذوماً.

فانظر هؤلاء السادات لما عرجوا عن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح لم يبق لهم نعيم ولا عذاب إلَّا نعيم الأرواح أو عذابها، وأما عذاب الأشباح فقد غابوا عنه فكان نعيم هؤلاء وقوت أرواحهم هو ذكر ربهم وشهود نوره أو اقترابه حتى صار لهم غذاء لا بقاء لهم إلَّا به ولا غنى لهم عنه، ولو فقدوه لفارقت أرواحهم وأشباحهم. وفي ذلك قيل:

بالقوتِ إحياءُ الجسومِ وذكرُهُ تحيَا بهِ الألبابُ والأرواحُ
هوَ عيشُهُم ووجودُهُم وحياتُهُم حقاً وروحُ نفوسِهِم والراحُ

وقد قلت في قصيدة لي عينية:

ولي لوعةٌ بالراح إذ فيه راحتي ... وروحِي وريحانِي وخيرهُ واسعُ
سكرنَا فهمنَا في بهاءِ جمالِهِ ... فغبنَا عن الإحساسِ والنُّورُ ساطعُ
تبدَّتْ لنَا شمسُ النَّهَارِ وأشرقَتْ ... فلَمْ يبقَ ضوءُ النَّجمِ والشمسُ طالعُ

* * *

والحاصل أن نعيم الأرواح التي تشاهد محبوبها لا ينقطع عنها، فنعيم العارفين لا ينقطع لأن قرب الحق لا ينقطع فمن بعدت نفسه أحس بالعذاب ولزمه الهموم والأحزان والنصب، كما أبان ذلك بقوله:

215 ـ (ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما مُنِعَتْ من وجود العيان)

قلت: إنما كان سبب الهموم هو فقد الشهود لأن الحق تعالى قريب على الدوام، رقيب على الدوام، فمن كان قريباً من الحبيب فكيف يحس بفراق شيء أو فواته، نظر الحبيب يغيب عن كل بعيد وقريب، وأيضاً كل ما ينزل من عند الحبيب فهو حبيب، فلا يلحقه شيء مكروه عنده حتى يهتم به ولا يفوته محبوب سوى محبوبه حتى يحزن عليه ففي محبوبه اجتمعت المحاسن كما قال القائل:

تذلَّل له تحظى برؤيا جماله ... ففي وجه من تهوى الفرائض والنفل

وفي هذا المعنى أيضاً قال صاحب العينية:

تلذُّ لي الآلامُ إذ كنتَ مسقِمِي ... وأنْ تَختبرِني فهوَ عندِي صنائِعُ

وبالجملة، من كان نظره إلى محبوبه ومشاهداً لنوره وجماله لم يبق له هم ولا غم. كما قال ابن الفارض في شهود الخمرة:

فمَا سكنتَ والهمَ يوماً بموضعٍ ... كذلكَ لمْ يسكُنْ معَ النَّغمِ الغَمُ

وقال أيضاً:

ولو خطرت يوماً على خاطر امرىء ... أقامت به الأفراح وارتحل الهمُّ

ومما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «لا تمزج همّ غيري بقلبك فتنقص منه حلاوة الروحانيين، يا داود أنا مصباح قلوب الروحانيين، ومن كنت مصباح قلبه لم يغتم أبداً، يا داود إنما مرادي من خلقي أن يكونوا روحانيين» اهـ.

وبالجملة، من كان عبداً لله غائباً عمّا سواه لم يبق له شيء من الهمّ لأنه قد

حصلت له المعية التي توجب النصر والظفر بكل ما يريد، ألا ترى قول رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**لا تحزن إن الله معنا**»[1] حين أحدق به المشركون فكان عليه الصلاة والسلام في محل العيان فلم يهمه شيء ولم تقرب من ساحته الأحزان، وكان أبو بكر في ذلك الوقت موقناً غير مشاهد فدله عليه السلام على مقام الكمال لأن الشهود فوق الإيقان. وأنشدوا:

كَبُرَ العيانُ عليَّ حتَّى أنَّهُ ... صارَ اليقينُ مِنَ العيانَ توهُمَاً

* * *

ومن جملة ما وقع من الاهتمام به لمن لم يكمل يقينه أمر الرزق وخوف الخلق حتى قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من ضمنها لي ضمنت له الولاية، أشار الشيخ إلى الأول بقوله:

216 ـ (من تمام النعمة عليك أن يرزقَك ما يكفيك ويمنعَك ما يطغيك).

قلت: من تمام نعمة الله على عبده أن يوجه همّته إليه ويفرغ قلبه من التعلق بغيره كائناً ما كان، فيرزقه ما يكفيه عن التعلق بغيره وهو الغنى بالله إذ لا نعمة أعظم من الغنى بالله والغيبة عما سواه، ويكفيه كل ما يطغيه حتى يشتغل به عن ربّه، فإذا رزقك الحق تعالى ما يكفيك لقيام بشريتك أكلاً ولباساً ومسكناً، ولقيام روحانيتك علماً وعملاً وذوقاً ومعرفة، ومنعك ما يطغيك ويشغلك عن حضورك مع ربك فقد أتمّ نعمته عليك فاشكره على ما أسدى إليك وتوجه إليه وحده فيما تعذّر عليك وادفع ما يشغل قلبك من النهوض إليه، إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وقد استعاذ عليه السلام مما يشغل القلب وينسي الربّ فقراً أو غنى فكان يتعوّذ من الفقر المنسي والغنى المطغي، وقال: «اللهمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً»[2]. وقال عليه السلام: «خير الذكر الخفي ـ أي في القلب، وهو الفكرة ـ وخير الرزق ما يكفي»[3]. وقال عليه السلام: «ما طلعت شمس إلَّا وبجناحيها ملكان يسمعان الخلائق غير الثقلين، أيها الناس هلموا إلى ربكم ما قل وكفى خير مما كثر

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب مناقب المهاجرين. .، حديث رقم (3452) [3/ 1336] ورواه مسلم، باب في حديث الهجرة. . .، حديث رقم (2009) [4/ 2309] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب في الكفاف والقناعة، حديث رقم (1055) [2/ 730] وابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن قوله ﷺ كفافاً. . .، حديث رقم (6344) [14/ 254] ورواه غيرهما.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن ذكر العبد ربه. . .، حديث رقم (809) [3/ 91] رواه أحمد في المسند، حديث رقم (1477) [1/ 172] ورواه غيرهما.

وألهى»[1]. وقال عليه السلام: «ليس الغنى بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[2]. وفي ذلك قيل:

غِنَى النَّفْسِ ما يكفيكَ عنْ سدِّ خلةٍ فإنْ زدتَ شيئاً عادَ ذاكَ الغِنَى فقرا

وقال عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه: سمعت أن جارية مجنونة في خراب الأيلة تنطق بالحكم، فكنت أطلبها حتى وجدتها وهي محلوقة الرأس وعليها جبة صوف، فلما رأتني قالت: مرحباً بك يا عبد الواحد. فعجبت من معرفتها لي ولم ترني، فقلت لها: رحَّب الله بك. ثم قالت: ما جاء بك، قلت: تعظيني، قالت: وا عجباً لواعظ يوعظ يا عبد الواحد، **اعلم** أن العبد إذا كان في كفاية ومَالَ إلى شيء من الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد وظل حيران ولهاً، فإن كان له عند الله نصيب عاقبه وحياً في سره فيقول له: عبدي أردت رفع قدرك عند ملائكتي وأجعلك دليلاً لأوليائي ومرشداً لأهل طاعتي، فملت إلى عرض الدنيا وتركتني، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأنس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى، ارجع إلى ما كنت عليه، أرجع إليك ما كنت تعرفه من نفسك. ثم انصرفت عني وتركتني وبقيت حسرتها في قلبي.

وفي بعض الكتب المنزّلة: أن أهون ما أصنع بالعالم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي اهـ.

* * *

وإنما كانت الكفاية نعمة والزيادة عليها نقمة، كما قال الشيخ، لأن النفوس مجبولة على حب العطاء وكراهية الفقد، فإذا أعطاها فرحت، وإذا أزال عنها حزنت، فمن أراد أن يدوم فرحه فلا يأخذ فوق كفايته ما يحزن على فقده، كما أبان ذلك بقوله:

217 ـ (ليقل ما تفرح له يقل ما تحزن عليه)

قلت: فإذا أردت أن يدوم سرورك فلا تملك شيئاً تحزن على فقده لأن حزنك

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة حم. . .، حديث رقم (3662) [2/ 482] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يكون للمرء من ماله. . .، حديث رقم (3328) [8/ 121] ونص الحديث: «عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ما طلعت شمس قط إلَّا بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان من على الأرض غير الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى. ولا غربت إلَّا بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً».

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب الغنى. . .، حديث رقم (6081) [5/ 2368] ومسلم في صحيحه، باب ليس الغنى. . .، حديث رقم (1051) [2/ 726] ورواه غيرهما.

على فقده دليل محبتك له، فإذا اقتصرت على الضرورة والحاجة من مال أو جاه أو عز أو غير ذلك فلا تجد ما تفقده حتى تحزن عليه. قيل لبعضهم: لم لا تغتم، قال: لأني لا أقتني ما يغمني. وفي ذلك قيل:

وَمَنْ سرّهُ أَنْ لا يرَى ما يَسُوؤُهُ فلا يَتَّخِذْ شيئاً يُخَافُ لهُ فقداً
فإنَّ صلاحَ المرءِ يرجعُ كلُّهُ فساداً إذا الإنسانُ جازَ بهِ الحَدَّا

يُحكى أنه رفع لبعض الملوك قدح من فيروزج[1] مرصعاً بالجوهر لم ير له نظير، ففرح به الملك فرحاً شديداً، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا، فقال: أراه مصيبة وفقراً، فقال: كيف ذلك، فقال: إن انكسر كان مصيبة لا صبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر فاتفق انكسار القدح فعظمت مصيبة الملك به فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا اهـ.

* * *

وهنا ميزان آخر أحسن من هذا، وهو أنك إذا أطلقت من نفسك وجعلتها غرضاً لسهام أقدار ربك لا تعارضه فيما يفعل بك لا شك أنك تستريح ويدوم فرحك، لأنك حينئذ منتظر ما يبرز من عند الحبيب فتتلقاه بالرضا والترحيب، وهذه حلاوة برد الرضا والتسليم، فإن صحبها شهود الفاعل المختار فهو النعيم المقيم وهذه هي الولاية الكبرى من تقلّدها لا يعزل عنها أبداً، كما أشار إلى ذلك بقوله:

218 ـ (إن أردت أن لا تعزل فلا تتولى ولاية لا تدوم لك).

قلت: الولاية التي لا تدوم هي الولاية التي تأتي من جهة الفرق، وهي ولاية الخلق كخطة السلطنة والقضاء والقيادة وغير ذلك من الخطط التي قلّدها الله بعض عباده، ويدخل فيها أيضاً ولاية المال إذا كان يعظم من أجله أو النسب إذا كان خالياً عن التقوى، أو العلم إذا كان خالياً عن العمل، وغير ذلك من رياسة الدنيا فإنها تفنى وتنقطع ويعقبها ذل وفقر.

والولاية التي تدوم هي الولاية التي تأتي من جهة الجمع وهي العز بالله والغنى به والمعرفة له والغيبة عما سواه، فلا شك أن هذه ولاية لا تنقطع وشرف لا ينفد وعز لا يبيد.

---

(1) الفَيْرُوزَج: هو ضرب من الأصباغ. ويطلق على الحجر الكريم المعروف، وذكر له الأطباء خواص. (تاج العروس: فرزج).

يحكى أن سيدي عبد الله بن المبارك، وكان من تابع التابعين ومن العلماء العاملين الزاهدين، قدم على هارون الرشيد، فلما دخل العسكر انكب عليه العسكر لزيارته فوقع من الازدحام ضجة كبيرة حتى تقطعت النعال وارتفعت الغيرة فأشرفت أم ولد هارون من قصر الخشب فلما رأت كثرة الناس وازدحامهم قالت: ما هذا، قالوا: هذا عالم خراسان، فقالت: هذا والله هو الملك والعز لا ملك هارون الذي يجمع الناس بالسوط والعصى.

وأيضاً الولاية التي تدوم تنسحب عليه وعلى ذريته ثم تدوم فيهم على قدر جاهه عند الله وعظيم ولايته، فكل من عظمت ولايته دامت على أولاده وأتباعه بقدر تلك الولاية وهو معنى قوله تعالى على بعض التفاسير: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: الآية 9] الآية، أي وليخشى الذين خافوا على أولادهم فإن الله يحفظه فيهم. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: الآية 82] أنه كان جدهم السابع فحفظ الله كنز اليتامى ببركة صلاح الجد والله تعالى أعلم.

* * *

وأما إن توليت الولاية التي لا تدوم فكن فيها على حذر ولا تغتر بحلاوة بدايتها فإن نهايتها مرارة، كما أبان ذلك بقوله:

219 ـ (إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات)

قلت: الولاية التي لا تدوم كعز بمال أو جاه أو عشيرة أو غير ذلك من عز الدنيا، أولها حلو لمتعة النفس ووجود حظها فيها، وآخرها مر لفقد تلك الولاية ولو بالموت ولما يعقبه من الذل والهوان، ولذلك قال عليه السلام: «نعمت المرضعة وبئست الفاطمة»[1]. فإن رغبتك في هذه الولاية التي تفنى حلاوة بدايتها زهدتك فيها مرارة نهايتها، فإن غرتك بظاهر بهجتها فاعتبر بباطن حسرتها، إن رغبتك فيها حلاوة إقبالها زهدتك فيها مرارة إدبارها، قال الشيخ أبو علي الثقفي رضي الله عنه: أف لأشغال الدنيا إذا أقبلت وأف من حسرتها إذا أدبرت، والعاقل لا يركن إلى شيء إذا أقبل كان فتنة وإذا أدبر كان حسرة. وأنشدوا في ذلك:

وَمَنْ يحمدُ الدنيا لشيء يَسُرُّهُ ... فسوفَ لَعَمري عن قريبٍ يَلُومُهَا

---

(1) رواه أحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (10165) [2/ 476] وأورده الجزري في النهاية في غريب الأثر، باب الراء مع الضاد [2/ 230].

إذا أدبرتْ كانتْ على المرءِ حسرةً وإن أقبلتْ كانتْ كثيراً همومُهَا

وكتب عليّ كرَّم الله وجهه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه: مثل الدنيا كمثل الحية ليِّن لمسها قاتل سمّها، فاعرض عن كل ما يعجبك فيها لقلّة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحزن ما تكون منها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن إلى سرورها أشخص إلى مكروهها. وقيل: الدنيا أحلام منام وسرورها ظل غمام أحداثها سهام وفتنتها طوام، أي أمواج، وسمها الله بالوحشة وقرنها بالفجائع والدهشة، ثم أوحى لها: يا دنياي تشددي على أوليائي وتوسعي على أعدائي. فمن نظر الدنيا بعين الإنصاف كفاه منها أقل الأوصاف إذ ليس فيها شيء محمود إلّا وقابله شيء مذموم كالمال بالانصراف والذهاب والشباب بالهرم والصحة بالسقم والفرح بالحزن والعز بالذل والحياة بالموت.

قلت: حكي عن الولي الصالح سيدي قاسم بن صبيح من قبيلة بني سعيد أنه قصد إذايته بعض الحكام ففر إلى سيدي الغزال بترغة، فجلس عند ضريحه مشتكياً بلسان حاله، فمد له من القبر بعود الريحان كاغداً مكتوباً لم يجف مداده فيه هذان البيتان:

إذا ما رماكَ الدَّهرُ يوماً بنكبةٍ فهيِّيء لهُ صبْراً ووسِّع لهُ صدرًا

لأنَّ تصاريفَ الزمانِ كثيرةٌ فيوماً ترى عسراً ويوماً ترى يُسرا

فمن وقف مع ظاهر الدنيا نادته هواتف باطنها: إنما نحن غرة فلا تغترّ، وهذا معنى قوله:

219 ـ (إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن)

قلت: ظاهرها خضرة حلوة وباطنها خبيثة مرة. قال عليه السلام: «**الدنيا حلوة خضرة**»(1)، «**وإنَّ مما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم**»(2) الحديث، فأخبر عليه السلام أن ظاهر الدنيا خضرة حلوة وباطنها سم قاتل وقد شبهها بعض الحكماء بسبعة أشياء» شبهها بالماء المالح يغرق ولا يروي ويضر ولا ينفع. قلت: وكذلك الدنيا تُغرق صاحبها في حبها ويموت عطشاناً منها. وشبَّهها بظلّ الغمام يغرّ ويخذل، قلت: وهو

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب أكثر أهل الجنة الفقراء. . .، حديث رقم (2742) [4/ 2098] والحاكم في المستدرك، كتاب الغنى. . .، حديث رقم (8543) [4/ 551] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب الصدقة على اليتامى، حديث رقم (1396) [2/ 532] ومسلم في صحيحه، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، حديث رقم (1052) [2/ 727] ورواه غيرهما.

الذي يغطي بعض المواضع فإذا أشرقت الشمس تقشع عنه. وشبَّهها بالبرق الخاطف، يعني في سرعة الذهاب والاضطراب وبسحاب الصيف يضر ولا ينفع، وبزهر الربيع يغرّ بزهرته ثم يصفّر فتراه هشيماً، وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فإذا استيقظ لم يجد في يده شيئاً إلَّا الحسرة، وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يعر ويقتل اهـ.

قال حفيده: فتأملت هذه الحروف السبعة سبعين سنة ثم زدت فيها حرفاً واحداً، فشبَّهتها بالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها اهـ. نقلها ابن عباد رضي الله عنه فانظره.

* * *

ثم علَّل كون الدنيا محلاً لهذه الأكدار والأغيار فقال:

220 ـ (إنما جعلها محلاً للأغيار ومعدِناً لوجود الأكدار تزهيداً لك فيها)

قلت: إنما رسم الله الدنيا بهذه الأوصاف من كونها محلاً للأغيار والأحزان ومعدناً لوجود الأكدار والفتن تزهيداً لك فيها، فتقبل بكليتيك عليه وتتوجه بهمتك إليه أو لتعرض عن الدنيا وتقبل على الآخرة. قال بعضهم: إنما مثل الدنيا كالبحر الهائل المحيط والآخرة من وراء ذلك البحر، ولا ينكشف الحجاب عن عين القلب بالنظر إلى الدار الآخرة إلَّا بعد الجواز على ذلك البحر في سفن الصبر والرضى، لأنه بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، يغشاه موج الشهوات من فوقه موج الغفلات من فوقه سحاب الكائنات. وأيضاً لو بسطت لك الدنيا لكرهت لقاء الله فيكره الله لقاءك، ولو بسطت لك العوافي والنعم لركنت الروح إلى هذا العالم فتبقى دائماً في عالم الأشباح، والمقصود منك هو الرحيل إلى عالم الأرواح، فضيَّق الحق تعالى عليك هذا العالم السفلي لترحل منه بهمتك إلى العالم العلوي فهو منه سبحانه إنعام وإحسان لكنها في قالب الامتحان، فلا يذوقها إلَّا أولو البصائر الحسان.

* * *

فهذا ما أشار إليه بقوله:

221 ـ (علم أنك لا تقبل النصح المجرّد فذوَّقك من ذواقها ما سهل عليك فراقها)

قلت: قد علم الحق سبحانه أن من عباده مَنْ لا يقبل النصح بمجرد القول فلا يزهد في الدنيا بمجرد سماع الوعظ، إذ كثير من أهل العلم والفهم يسمعون القرآن يقرعهم عليها ويحذِّرهم من غرورها وهم غائبون عن ذلك التذكير، مشغولون بما

يوجب لقلوبهم التذكير، فلما أراد سبحانه أن يصطفي لحضرته من شاء من عباده نغصها عليهم وشدد عليهم البلاء والمحن وأجرى على ظاهرهم مواقع الفتن، كل ذلك عناية ربهم ليذوقوا مرارة باطنها فلا يغتروا بحلاوة زخرف ظاهرها.

سئل عليه السلام: من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال: «**الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها واهتموا بآجلها حين اهتم الناس بعاجلها**»[1] الحديث. وقد تقدم عند قوله: الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فكل ما ينزل بالولي من هذه التعرفات الجلالية التي تغير النفس وتقهرها فهو خير كثير في حقه، فقد قالوا: الامتحان بقدر الامتكان، وكل محنة تزيد مكنة، واختبار الباقي يقطع التباقي، فقد تبقى في القلب بقية من حب شيء من هذا العالم أو ركون لشيء من الدنيا فيسلط عليه من يشوِّشه عليه وينغصه لديه، كل ذلك عناية به ليرحل من هذا العالم إلى عالم الملكوت.

* * *

فإذا تحقق رحيله استوى عنده الحلو والمر والعز والذل والغنى والفقر، لأنه تحقَّق أن كلًّا من عند الله وما في الوجود سواه. وهذا هو العلم الحقيقي الذي هو العلم النافع، وإليه أشار بقوله:

222 ـ (العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه وينكشف به عن القلب قناعه)

قلت: العلم النافع هو علم القلوب، ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل، أو تقول: مرجعه إلى التخلية والتحلية، فيبحث أولاً عن عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الروح وعيوب السر، فيطهر كل واحد من عيوبه فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال كالإيمان والإيقان والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة، وتحلى أيضاً بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة، فشعاع العلم الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين وبرد الرضى والتسليم، وحلاوة الإيمان مواجيد العرفان، وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة، وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة.

والقناع الذي ينكشف به عن القلب هو الغفلة، وسبب الغفلة هو الرضى عن النفس، وسبب الرضى عن النفس هو حب الدنيا الذي هو أصل كل خطيئة، فمن

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

حب الدنيا ينشأ الحسد والكبر والحقد والغضب والشح والبخل وحب الرياسة والقساوة والفظاظة والقلق وغير ذلك من العيوب. فإذا انكشفت هذه الأمور عن القلب انبسط فيه شعاع العلم الذي هو ثلج اليقين وبرد الرضى، وما تقدم ذكره، لأن العلم بالله نور في القلب وينبعث منه شعاع تنبسط في الصدر فتكسبه الزهد في الدنيا، فإذا زهد في الدنيا اتسع صدره باليقين والرضى والتسليم وغير ذلك من المحاسن، فكشف القناع مقدم على بسط الشعاع فلو قدمه لكان أولى لأن التخلية مقدمة على التحلية. فلو قال: هو الذي ينكشف به عن القلب قناعه وينبسط في الصدر شعاعه ويحتمل أن يريد بانبساط الشعاع في الصدر نور الإسلام والإيمان وهي أنوار التوجه، وبكشف القناع عن القلب كشف حجاب الحس وظلمة الكون فتبدو أنوار المواجهة، وهي أنوار الإحسان وأسرار العرفان، وعلى هذا يكون ترتيب كلام الشيخ حسن [رحمه الله تعالى] والله تعالى أعلم.

والحاصل أن العلم الذي يوجب الخشية هو العلم النافع وغيره ليس بنافع، وإليه أشار بقوله:

223 ـ (خير علم ما كانت الخشية معه)

فإن لم تكن خشية فلا خير فيه لأنه حجة على صاحبه، وإليه أشار بقوله:

223 ـ (العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك)

قلت: لأن العلم الذي تصحبه الخشية يمنع صاحبه من الغفلة وأسبابها ويزهده في كل ما يشغل عن العمل به ويرغّبه في كل ما يقرّبه إلى ربّه فيكون عوناً له على الوصول إلى معرفة الله، والقريب من ساحة رضاه، فإن لم تقارنه الخشية كان وبالاً عليه لأنه حينئذ حجة عليه لأن المعصية مع العلم أقبح من المعصية مع الجهل. وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**ويل للجاهل مرة وويل للعالم إذا لم يعمل عشر مرات**»[1]، ذكره الغزالي.

ومثله قول الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير: فالويل لمن لم يعرفك، بل الويل ثم الويل لمن أقرّ بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك، **فإن قلت**: قد ورد في بعض الأحاديث: أن يغفر للعالم أربعين ذنباً قبل أن يغفر للجاهل ذنباً واحداً. قلت: قد يجاب بأن الحديث الأول ورد في من مات مصرّاً من العالم والجاهل فإن عذاب العالم أكثر لأنه قد ورد أنه يجر قصبه في النار ويدور في رحى جهنم بخلاف الجاهل لم يرد فيه هذا. والحديث الثاني فيمن تحققت توبته منهما فإن

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

العالم بيده مصباح العلم يستدرك به ما فات أكثر من الجاهل إذا تاب فقد يجبر العالم من الخلل في شهر ما لا يجبره الجاهل في سنة أو أكثر.

والحاصل أن الأول في العالم والجاهل إذا ماتا مصرين، والثاني فيهما إذا تابا وأصلحا، والله تعالى أعلم.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: العلم كالدنانير والدراهم إن شاء الله نفعك بها وإن شاء ضرك بها.

وقال في لطائف المنن: فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله تعالى من عباده الخشية لله، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمّة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكبار وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء عليهم السلام، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلّا بالصفة التي كان بها عند الموروث ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها، جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه وسبباً في تكثير العقوبة لديه اهـ.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وفيه إشعار بأن العالم غير المتقي ليس بوارث، وفيه نظر لأن إفساد الموروث والعمل به في غير حق لا يخرج عن كون الوارث وارثاً والعقوق لا ينفي النسب، لكن يقال فيه: وارث سوء، وقد أثبت الله العلم لمن لا يخشاه وما نفاه عن من لم يخشه اهـ.

قلت: وقد يقال: الموروث عن الأنبياء هو غاية العلم وثمرته وهي الخشية والمعرفة به لا مجرد الرسوم لأن ذلك واسطة، فإذا لم يحصل الموسوط فلا عبرة بالواسطة، فإذاً لا وراثة لعالم الرسوم إذ ليست مقصودة بالذات. وقد كان الشيخ الولي الكبير ابن أبي جمرة يقول في علماء وقته: إنما هم معلمون، يعني أنهم محترفون بحرفة العلم، فهم صنّاع وليسوا بعلماء، والله تعالى أعلم.

وقد أشبع الشيخ ابن عباد الكلام في هذا الموضع، فليطالعه من أراد تخليص نفسه من حجة العلم، وبالله تعالى التوفيق.

* * *

ومن علامة العلم النافع القناعة بعلم الله والاكتفاء بنظره، وثمرة القناعة عدم المبالاة بذم الناس ومدحهم وإقبالهم وإدبارهم اكتفاء بعلم الله ونظره كما أبان ذلك بقوله:

224 ـ (متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فيك فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم)

قلت: إذا سلَّط الله عليك خلقه ليختبرك هل أنت غني به أو بخلقه، فأدبروا عنك أو اشتغلوا بذمك ثم توجعت من ذلك فارجع إلى علم الله فيك واطلاعه عليك إذ لا يخفى عليه شيء من أمرك، فإن كفاك ذلك وقنعت به وأنست بذكره أو شهوده استوى عندك ذمهم ومدحهم وإقبالهم وإدبارهم، بل ربما آثرت إدبارهم إذ فيه راحتك وتفريغ قلبك مع ربك، فإن لم تقنع بعلم الله ولم تكتف بنظره وتأسفت على إدبارهم أو تألمت من أذاهم، فمصيبتك بضعف إيمانك وذهاب يقينك أشد من مصيبة ذم الناس وإدبارهم عنك لأن هذا موجب لسخط الله وغضبه وسقوطك من عين محبته، وأما إذاية الخلق وبعدهم عنك فرحمة بك، وأيضاً إذا اشتغل الناس بذمك وإضرارك فانظر أنت مقامك مع ربك فإن كنت مع ربك صافياً فلا يكيدك شيء ولا يضرك شيء، كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

الـنَّـاس قـالُـوا لـي بِـدعـي وأنَـا طـريـقـي مـنـجـورَا
إذا صـفّـيـتْ مـع ربِّـي الـعـبـدُ مـا مـنـهُ ضُـرورا

وقال إبراهيم التيمي رضي الله عنه لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيّ؟ قال: يقولون إنك مرائي، قال: الآن طاب العيش.

قال بشر الحافي حين بلغه كلام التيمي: اكتفى والله بعلم الله فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره. وقال أيضاً: سكون القلب إلى قبول المدح لها أشد فيها من المعاصي.

وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: من أحب أن يعرف بشيء من الخير أو يذكر به فقد أشرك مع الله في عبادته لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لا تنشر علمك ليصدقك الناس وانشر علمك ليصدقك الله. وإن كان لام العلة موجوداً فعلّة تكون بينك وبين الله من حيث أمرك خير من علّة تكون بينك وبين الناس من حيث نهاك، ولعلّة تردك إلى الله خير لك من علّة تقطعك عن الله، فلأجل ذلك لم يعملوا بالثواب إذ لا يخاف ولا يرجى إلَّا من قبل الله، وكفى بالله صادقاً ومصدقاً، وكفى بالله عالماً ومعلماً، وكفى بالله

هادياً ونصيراً ووليّاً، هادياً يهديك ويهدي بك ويهدي إليك، ونصيراً ينصرك وينصر بك ولا ينصر عليك، ووليّاً يواليك ويوالي بك ولا يوالي عليك اهـ.

* * *

ثم ذكر حكمة وجود الأذى من الخلق لأولياء الله فقال:

225 ـ (إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكونَ ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يَشْغَلَكَ عنه شيء)

قلت: الروح إذا ركنت إلى هذا العالم السفلي وسكنت فيه وأحبت ما فيه تعذر نقلها إلى عالم الملكوت الذي هو العالم الروحاني لما ألفته من حب الأهل والأولاد والأصحاب والعشائر، فمن حكمة الله تعالى ولطفه وإبراره بوليه أن يحرك عليه ما ركنت إليه نفسه وألفته روحه الأحب فالأحب، فأول من ينكره أهله وأولاده ثم جيرانه وأحبابه، ثم ينكره العالم بأسره، فإذا رأت الروح أن هذا العالم أنكرها وضاق عليها رحلت إلى مولاها ولم يبق لها تشوُّف إلى هذا العالم أصلاً، فحينئذ يكمل وصلها ويتحقق فناؤها وبقاؤها، فلو بقيت النفس على ما هي عليه من السكون تحت ظل الجاه والعز ما رحلت من هذا العالم أصلاً، وكلما قوي على الأولياء الأذى دلّ على علوّ مقامهم عند المولى، فإنما أجرى الحق سبحانه الأذى على أيدي الخلق إليك إذ هو المجري والمنشىء فلا فاعل غيره كي لا تكون ساكناً بقلبك وروحك إليهم فيعوقك ذلك عن العروج إلى الملكوت، أراد الحق تعالى أن يزعجك عن كل شيء من هذا العالم حتى لا تركن إلى شيء ولا يشغلك عن شهوده شيء، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه أو تحبه وتحب معه سواه، أبت المحبة أن تشهد غير محبوبها فإذا تمكَّنت المحبة وكمل الشهود ردّهم إن شاء إلى عباده مرشدين إليهم بالله.

قال في لطائف المنن: **اعلم** أن أولياء الله تعالى حكمهم في بدايتهم أن يسلِّط الخلق عليهم ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وكي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رقّ إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال ﷺ: **«من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له»**[1]، كل ذلك ليتخلص القلب من رقّ إحسان الخلق ويتعلّق بالملك الحق.

ثم قال: وقال الشيخ أبو الحسن: اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في

(1) أورده الجزري في النهاية في غريب الأثر، باب السين مع الراء [2/ 356].

بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى الله خير من حبيب يقطعك عن الله، وعدّ إقبالهم عليك ليلاً وإدبارهم عنك نهاراً، ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا.

قال: وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ طريقهم سنّة الله في أحبائه وأصفيائه.

قال الشيخ أبو الحسن في حزبه: اللهمَّ إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا.

ثم قال: ومما يدلك على أن هذه سنّة الله في أحبائه وأصفيائه قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البَقَرَة: الآية 214] الآية، وغير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى اهـ.

وقال بعض العارفين: ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة في موطن العز والرفعة، فلو تركها الحق سبحانه لهلكت، فأزعجها عن ذلك بما سلّط عليها من أذى المؤذيين ومعارضة الجاحدين، وفي هذا المعنى قيل:

عُداتي لهُمْ فضلٌ عليَّ ومنةٌ فلا أبعدَ الرحمٰنُ عني الأعادِيَا

فهم بَحَثُوا عن زلّتي فاجتنبتُها وَهُم نافسوني فارتكبْنَ المَعَاليا

وقال بعضهم: النصيحة من العدو سوط من الله يرد بها القلوب إذا سكنت إلى غيره، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه وهو حجاب عن الله تعالى عظيم.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: آذاني إنسان مرة فضقت ذرعاً بذلك فنمت فرأيت يقال لي: من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم اهـ.

إذا تقرر هذا علمت أن إذاية الخلق للولي سنّة ماضية، يعني سنّة أنبياء الله ورسله ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فَاطِر: الآية 43]. وانظر أحوال نبينا عليه الصلاة والسلام ما رأى مع قريش وبني وائل، مكث معهم بعد النبوَّة التي هي محل الأذى من الخلق، ثلاثة عشرة سنة، كلها جلال وشدة وبلاء، وحين انتقل إلى المدينة لم تكن له راحة بين جهاد وتعليم ومعاناة أحبار يهود بالإذاية والتشغيب حتى لقي الله ﷺ وشرّف وكرَّم ومجّد وعظّم، وكذلك أصحابه معه وبعده لم تكن لهم راحة وجلهم ماتوا مقتولين، فقد مات الصدِّيق مسموماً، ومات الفاروق مقتولاً، وعثمان مذبوحاً، وسيِّدنا عليّ مضروباً بالسهم مسموماً حتى مات، والحسن مسموماً، والحسين مقتولاً حتى لعبوا برأسه بالشام ثم دفن بمصر، فداه بعض الملوك ودفنه بمصر وهو مزارة الحسين المشهورة عندهم، ثم ما لا يحصى. وقد سعي بالجنيد وأصحابه للسلطان

وأتي بهم للسيف ثم لطف الله بهم.

وقصتهم: أن فقهاء بغداد قالوا للمتوكل: إن الجنيد قد تزندق هو وأصحابه، فقال لهم الملك، وكان يميل إلى الجنيد: يا أعداء الله ما أردتم إلَّا أن تفنوا أولياء الله من الأرض واحداً بعد واحد، قتلتم الحلاج وأنتم ترون له كل يوم عبارة ولا تزدجرون، وهذا الجنيد لا سبيل لكم إليه حتى تغلبوه بالحجة، فاجمعوا له الفقهاء واعملوا له مجلساً، فإن أنتم غلبتموه وشهد الناس بأنكم غالبون عليه قتلته، وإن هو غلبكم والله لأمشين عليكم بالسيف حتى لا نبقي منكم أحداً على الأرض. قالوا: نعم.

فجمعوا له الفقهاء من الشام واليمن والعراق والأمصار، فلما اجتمع الفقهاء في ذلك حتى لم يبق في الجوانب الأربع من يعرف مسألة في دينه إلَّا حضر.

فلما اجتمع الفقهاء في المجلس بعث الملك إليه فأتي هو وأصحابه إلى باب القصر فدخل الجنيد وترك أصحابه وأدّى حق الخليفة ـ يعني من التعظيم ـ وقعد، فقام إليه أحد الفقهاء يسأله في مسألة، فسمعه القاضي علي بن أبي ثور فقال لهم: تسألون الجنيد، فقالوا: نعم، فقال لهم: أفيكم من هو أفقه منه، فقالوا: لا، فقال: يا عجباً هو أفقه منكم في علمكم وقد تفقه في علم تنكرونه عليه ـ يعني ولا تعرفونه ـ فكيف تسألون رجلاً لا تدرون ما يقول. فبهت القوم وسكتوا زماناً ثم قالوا: ما العمل يا قاضي المسلمين فأشر بما شئت فنصنع فأمرك مطاع.

قال: فردّ القاضي وجهه إلى الأمير وقال له: اترك الجنيد وأخرج إلى أصحابه صاحب سيفك وهو الوليد بن ربيعة ينادي فيهم: من يقوم إلى السيف، فأول من يقوم إليه نسأله، فقال الملك: يرحمك الله لِمَ ذلك، تروّع القوم ولم تظهر لكم حجة لا يحل لنا ذلك. فقال القاضي: يا أمير المؤمنين إن الصوفية يحبون الإيثار على أنفسهم حتى بأنفسهم، فأذن من ينادي أيكم يقوم للسيف فالرجل الذي يقوم مبادراً إلى السيف هو أكثر الناس جهلاً وأكثرهم صدقاً لله عز وجل، فيقوم يؤثر أصحابه بالعيش بعده، فإذا قدم أجهلهم علينا جعل الفقهاء يناظرونه فيما يطلبونه منه، فإن الفقهاء لا يغلبونه ولا يغلبهم فيقع الصلح بيننا وبينهم، فإنها قد نزلت مصيبة عظيمة لا ندري لمن يقع النجاة منها، فإنه إن قتل الجنيد نزلت داهية في الإسلام فإنه قطب الإيمان في عصرنا، وإن قتل العلماء والفقهاء فهي مصيبة عظيمة.

فقال له الأمير: لله درك لقد أصبت. ثم عطف على الوليد وقال: افعل ما يقول لك القاضي. فخرج الوليد وهو مقلّد سيفه، فوقف على المريدين وهم مائتان وسبعون رجلاً قعوداً ناكسين رؤوسهم وهم يذكرون الله، فنادى فيهم: أفيكم من يقوم إلى

السيف، فقام إليه رجل يقال له أبو الحسين النوري، فقال الوليد: ما رأيت طائراً أسرع منه، فوثب قائماً بين يدي، فعجبت من سرعة قيامه، فقلت: يا هذا أعلمت لما قمت؟ فقال: نعم ألم تقل أفيكم من يقوم للسيف، فقلت له: نعم، فقال: ولم قمت، قال: علمت أن الدنيا سجن المؤمن فأحببت أن أخرج إلى دار الفوز وأن أؤثر أصحابي عليّ بالعيش ولو ساعة، ولعلي أقتل فيطفى الشر بي فيسلم جميعهم ولا يقتل أحد غيري. قال الصاحب: فعجبت من فصاحته فقلت: أجب القاضي. فتغيّر لونه وسالت عبرته على خده فقال: أو دعاني القاضي، قلت: نعم دعاك، قال: فحقاً عليَّ إجابته.

فدخلت وهو معي فأخبرت الملك والقاضي بقصته فتعجبا منه وسأله القاضي عن مسألة غميضة فقال: من أنت ولم خُلقت وما أراد الله بخلقك وأين هو ربك منك، فقال: ومن أنت الذي تسألني، فقال: أنا قاضي القضاة، فقال له: إذاً لا ربّ غيرك ولا معبود سواك أنت قاضي القضاة وهذا يوم الفصل والقضاء والناس قد حشروا ضحى فأين النفخة في الصور التي قال الله فيها: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية 68] أنا ممن صعق أم أنا ممن شاء الله الذي لم أشهد النفخ، فبهت القاضي زماناً وقال: يا هذا أجعلت مني إلٰهاً؟ قال: معاذ الله بل أنت تألهت حيث تسميت بقاضي القضاة، وليس قاضي القضاة إلّا القاضي الذي يقضي ولا يقضى عليه، أضاقت عليك الأسماء؟! أما كفاك قاضي المسلمين أو أحد الفقهاء، أم أحد من عباد الله حتى تسميت بقاضي القضاة إذا استكبرت أن تقول: أنا علي بن أبي ثور. فما زال يقرعه حتى بكى القاضي وهمَّ أن تزهق نفسه، وبكى الملك لبكائه وبكى الجنيد فقال لتلميذه: أقصر من عتابك للقاضي فقد قتلته فخل سبيله. فلما أفاق القاضي قال: يا أبا الحسن أجبني عن مسألتي وأنا أتوب إلى الله بين يديك، فقال: اذكر مسألتك فإني نسيتها. فأعاد عليه مسألته، فنظر عن يمينه وقال: أتجاوبه، ثم قال: حسبي الله. ثم فعل عن يساره مثل ذلك، ثم نظر أمامه وقال: أتجاوبه، ثم قال: الحمد لله. ثم رفع رأسه إلى القاضي وقال له: أما قولك يرحمك الله: من أنت، فأنا عبد الله لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: الآية 93] وأما قولك: لماذا خلقت فكان الله كنزاً لا يعرف فخلقني لمعرفته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: الآية 56] أي ليعرفون كذا. قال ابن عباس وغيره: وأما قولك ما أراد الله بخلقي فما أراد بي إلّا كرامتي، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: الآية 70] وأما قولك: أين ربك منك فهو مني حيث أنا منه لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَديد: الآية 4].

فقال: أخبرني كيف هو معك ومعنا في قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية 4] قال: هو معنا كيف ما كنا معه، فإن كنا معه بالطاعة كان معنا بالعون والهدي إليه، وإن كنا معه بالغفلة كان معنا بالمشيئة، وإن كنا بالمعصية كان معنا بالمهلة، وإن كنا بالتوبة كان معنا بالقبول، وإن كنا بالترك كان معنا بالعقاب.

قال: صدقت فأخبرني أين هو مني؟ فقال: أخبرني أين أنت منه أعلمك أين هو منك. قال: صدقت يا علي فيما قلت، ولكن أخبرني بمسألة ثانية.

قال: وما هي، قال: لم ملت عن يمينك حين سألتك. قال: أعز الله الفقيه، إن المسألة التي سألتني عنها لم يكن عندي فيها جواب لأنني ما سئلت فيها قط ولا سمعتها فلما سألتني عنها لم يكن عندي ما أخبرك به فيها فسألت الملك الكريم الذي يكتب في اليمين، فقلت له: أتجاوبه أنت، فقال لي: لا علم لي، فقلت: حسبي الله وفوّضت أمري إلى الله.

فقال: وعن شمالك، فقال: كذلك. فقال: وأمامك، فقال: سألت قلبي فقال عن سره عن ربه ما أجبتك به، فقلت: الحمد لله شاكراً على الهداية ومقراً له بالعجز عن إدراك النهاية.

فقال له: يا هذا أتكلمك الملائكة، فقال له: ويحك أما ترى رب الملائكة كلمني حين هداني لحجتي وكنت لا أعرفها.

فقال له: يا هذا الآن قد صح عندي حمقك وثبت عندي كفرك وزندقتك، فما تريد أن أفعل بك وبأي قتلة تريد أن أقتلك.

فقال له: وما الذي تريد أن تفعل بي وأنت قاضي القضاة إن كنت تقضي ولا يقضى عليك فاقض بما شئت، وأي فعل لك.

فقال له أنا القاضي المقتضي بما يقضي به أو نقضي بما يقضي به. فقال له: أو فهمت الخطاب عن القاضي الذي يقضي ولا يقضى عليه، قال له: وما هو، قال: قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: الآية 54]، فقال له: وما تريد أنت؟ اقض بما شئت الآن طبت وطابت نفسي على لقاء ربي.

فعند ذلك رد القاضي رأسه إلى المتوكل وقال له: يا أمير المؤمنين اترك هؤلاء فإن كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مسلم، هؤلاء مصابيح الدين ودعائم الإسلام وهؤلاء المؤمنون حقاً، عباد الله المخلصون.

فعند ذلك عطف الملك على الجنيد وقال: يا أبا القاسم، هؤلاء الفقهاء ما جمعوا لك هذا المجلس العظيم واستعدوا لمناظرتك إلّا ليقتلوك لو غلبوك، والآن أنت الغالب عليهم، وأنا آليت على نفسي إن أنت غلبتهم أن أمشي عليهم السيف فإما أن تعفو عنهم وإما أن يموتوا، فقال: العياذ بالله يا سيدي أن يموت أحد منهم بسببي، عفا الله عنا وعنهم ولا أخذ عليهم في إنكارهم علينا، لأنهم ما ساقهم لذلك إلّا الجهل وقلّة العلم بما طلبوا، عفا الله عنا وعنهم.

فانحل المجلس على سلام ولم يمت فيه أحد والحمد لله. ثم عطف القاضي على النوري وقال له: يا علي أعجبني حالك والله شهيد أني أحبك ولكن أسألك سؤال رجل مسترشد فارشدني يرحمك الله، فقال: سل عما بدا لك فإن كان عندي جواب أخبرتك وإلا قلت لك لا علم لي ولا يعظم ذلك عليَّ. ثم سأله عن مسائل عديدة قد تقدم بعضها عند قوله: يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم، فراجعها إن شئت وتركت الباقي لكثرة التصحيف في النسخة التي وقعت بأيدينا، والله تعالى أعلم.

فهذه محنة الصوفية التي وقعت في زمن الجنيد، وهذه سنّة الله في أوليائه وأنبيائه هم أشد الناس بلاء.

وانظر أيضاً قضية القطب الشهير شيخ أشياخنا الشيخ [عبد السلام] بن مشيش فقد مات مقتولاً كما هو معلوم، وكذلك قضية تلميذه مع القاضي ابن البراء حيث أخرجه من تونس وكتب به إلى عامل مصر، وعمل به بينة أنه مشوش وأنه يطلب الملك فانتصر الله له، كما هو شأنه سبحانه من انتصاره لأوليائه.

وكذلك قضية [الشيخ محمد] الغزواني(1)، فإنه لما كملت تربيته وظهر رشده أرسله شيخه الشيخ التباع يعمر بلده فسكن بني زكار جوار ضريح الشيخ ابن مشيش فلما عمر سوقه وانكبت عليه المخلوقات سعي به إلى السلطان المريني فأرسل إليه الحرس وأطلعوه مكبلاً إلى العرايش لأن السلطان كان ثم نازلاً ثم أرسل به إلى فاس فسجن أربعة أشهر أو ستة حتى قدم السلطان إلى فاس فأطلقه وشرط عليه السكنى معه بفاس فسكن معه فلما قرب انقراض مدة المرينيين خرج إلى مراكش وقال: ذهبت دولة بني مرين وبقي بمراكش حتى توفي رضي الله عنه.

وذكر التجيبي [أبا بكر] أن الشبلي رفع إلى السلطان وأخرج أبو يزيد

(1) هو القطب أبو عبد الله محمد الغزواني المراكشي الشاذلي، صاحب الكرامات والمكاشفات، توفي بمراكش سنة 935هـ.

[البسطامي] من مدينة بسطام مراراً وهذا أمر شهير.

قال بعض الحكماء: إذا أراد الله ظهور الحق جعل من خلقه من يعانده ويريد إخماده فيكون ذلك سبباً لظهوره وإيضاحه، ولذلك سلط الله على كل نبي عدواً من المجرمين وعلى الأولياء كذلك. وأنشدوا:

وإذا أرادَ اللَّهُ نشر فضيلةٍ طُويتْ أتاحَ لهَا لسانَ حسودِ

لولا اشتعالُ النَّار فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طيبُ عَرْفِ العُودِ

وإنما أطلنا هنا النفس لأن الحال اقتضى هنا ذلك لأن وقت التأليف صادف عنفوان الجلال، والله يرزقنا التأييد نحن وأحباءنا ومن تعلق بنا بجاه المصطفى وآله، وعلامة التأييد هو حفظ التوحيد في أوقات الشدة بحيث يكون إبراهيمياً، فإذا رمى في نار الجلال وتعرض له الكون يقول له: ألك حاجة، يقول له العارف: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى فحينئذ يقول الله لنار الجلال يا نار كوني برداً وسلاماً على وليي فينقلب حرها برداً وسلاماً. قال سيدنا إبراهيم الخليل: ما رأيت نعيماً قط مثل تلك الأيام التي كنت فيها في النار.

قلت: وكذلك نار الجلال ليس يشبهها نعيم حين تنقلب برداً وسلاماً، برد الرضى وسلام التسليم، فيكمل النعيم. **واعلم** أن إذاية الخلق هي إحدى القواطع التي قطعت الناس عن الولاية لا يصبر عليها إلَّا الصديقون. فذكر الشيخ حكمة ذلك وسره.

* * *

ومن القواطع أيضاً الشيطان والنفس، فأشار الشيخ إلى كيفية دفع إذاية الشيطان بقوله:

226 ـ (إذا علمتَ أنَّ الشيطان لا يغفلُ عنك فلا تغفل أنت عمَّن ناصيتك بيده).

قلت: **اعلم** أن الحق تعالى جعل بحكمته الشيطان والنفس والناس حراس الحضرة، فلا يدخل الحضرة حتى يخرق فيهم ويجوز عنهم لأنهم واقفون بالباب وكلهم الله بباب حضرته وقال لهم: لا تتركوا أحداً يدخل إلَّا من يغلبكم. فوقفوا بالباب فإذا جاء من يريد الدخول تعرض له الخلق فيعيبون له الطريق وينكرون من يعرفها فإذا غلبهم جاءه الشيطان يطول عليه مدة الفتح ويخوفه من الفقر ويقول له: متى يفتح الله عليك، قيل: يكون، وقيل: لا يكون فإذا غلبه وزاد تعرضت له النفس، تقول له: كيف تترك دنياك وجاهك وعزك إلى شيء يكون أو لا يكون فإذا غلبها قال له الحق تعالى: مرحباً بك وأهلاً ولكن القواطع لا يزول طمعها عنه حتى يسكن في الحضرة، ولذلك قالوا:

والله ما رجع من رجع إلّا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع. وقال آخر: والله ما نشكر خليع، وإن ثمل وإن صحى، حتى يقطع في القطيع، ويدور دور الرحى، وإن ثبت يسر سريع، وإن شرب حتى امتحى.

فإذا علمت أيها الفقير أو الإنسان، أن الشيطان لا يغفل عنك ساعة لأن له بيتاً في صدرك من جهة شمالك، فإذا غفلت عن ذكر الله وسوس وإذا ذكرت الله انخنس، فإذا علمت ذلك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك وناصيته بيده وهو الحق تعالى، فإذا اشتغلت بالله رده عنك وكفاك أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النّساء: الآية 76] وقد حذر الله تعالى منه في كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: الآية 6] ففهم قوم أن الشيطان لهم عدو فاشتغلوا بمحاربته ففاتهم محبة الحبيب وفهم قوم أن الشيطان لكم عدو وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبة الحبيب فكفاهم عداوة العدوّ كما قال الشيخ أبو العباس.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي [الجمل] رضي الله عنه: عداوة العدو حقاً هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً، فإذا اشتغلت بعداوة العدو فاتتك محبة الحبيب ونال عدوك مراده منك.

وكتب [الشيخ عبد الوهاب] الشعراني إلى شيخ له بالمغرب يشكو له إذاية الخلق، فكتب له الشيخ: لا تشتغل بمن يؤذيك قط واشتغل بالله يرده عنك. وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير واشتغلوا بمن آذاهم فطال الأذى مع الإثم ولو أنهم رجعوا إلى الله لكفاهم أمرهم ولردهم عنهم، والسلام، هكذا سمعت هذه الحكاية من الشيخ.

وقال الشيخ [أحمد] زروق رضي الله عنه: وإنما يندفع الشيطان بالتوكل والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النّحل: الآية 99]. وقيل: الشيطان كلب إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب وإن رجعت إلى ربك صرفه عنك برفق.

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: إن كان هو يرانا من حيث لا نراه فالله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه اهـ.

قلت: ومن عرف الله ذاب الشيطان من نوره فلم يبق يعرف إلّا الله، ولذلك قال بعضهم: نحن قوم لا نعرف الشيطان، قيل له: أو ليس قد ذكره الله في كتابه، قال: أجل ولكن اشتغلنا بالله فكفانا أمره حتى نسيناه، وبالله التوفيق.

* * *

ثم ذكر حكمة وجوده فقال:

227 ـ (جعله لك عدواً ليحوشك به إليه)

قلت: لم يخلق الله شيئاً عبثاً، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 191] فإيجاد الشيطان له حكم.

أولها: انحياش عباده إليه لأن العبد الضعيف إذا رأى عدواً يطلبه هرب إلى سيده والتجأ إلى حصنه فيكفيه أمره.

الثانية: قيام الحجة على عباده، فإذا خالفوا أمره قال لهم: أتبعتم عدوي وعصيتم أمري. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعَام: الآية 149].

الثالث: كونه منديلاً للعار تمسح فيه أوساخ الأقذار وكذلك النفس والدنيا.

الرابعة: ظهور مزية المؤمن بمجاهدته ومحاربته، فهذه حكم في تسليط الشيطان على الإنسان والله غالب على أمره وهو العليم الحكيم.

حكاية: روي أن الشيطان تعرض لسهل بن عبد الله التستري وهو يضحك، فقال له سهل: مما ضحكك يا لعين وقد أبلست ويئست من رحمة الله، فقال: يا سهل أنا شيء والله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعرَاف: الآية 156]، فقال سهل: إنه يقول ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية 156] فأين أنت من التقوى، فقال: التقوى صفة العبد والرحمة صفة الرب، وأين الفاني من الباقي، فلم يجد سهل جواباً.

قلت: وقد يجاب بأن هذه الشبهة مبنية على النظر للفرق، وأما على الجمع فالرحمة وصفه، والتقوى فعله وفعله يقيد وصفه، والكل منه وإليه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبيَاء: الآية 23].

ثم ذكر حكمة ظهور النفس، فقال:

227 ـ (وحرَّك عليك النفس ليديم إقبالك عليه)

قلت: إنما حرَّك الحق تعالى عليك النفس ليدوم إقبالك وتوجهك إليه، لأن النفس لما غلبت عليها البشرية جرتها إليها، فهي دائماً تهوي بك إلى أرض الشهوات وأنت دائماً تريد أن تعرج إلى سماء الحقوق والواجبات، هي تريد أن تركن إلى أصلها من عالم الصلصال والطين وأنت تريد أن تردها إلى أصل روحانيتها في أعلى عليين، هي تريد السكون في عالم الأشباح وأنت تريد أن ترقّيها إلى عالم الأرواح، فهي دائماً تريد التسفل وأنت دائماً تريد الترقّي، فهذا معنى دوام إقبالك عليه،

وسيأتي لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، فالنفس والشيطان نعمتان في الباطن إذ لولاهما ما تحركت إليه ولا تحقق سيرك إليه، ولذلك كان شيخ شيخنا مولاي العربي [الدرقاوي] رضي الله عنه إذا اشتكى إليه أحد بالنفس يقول: أما أنا فجزى الله عني خيراً ما عليّ إلّا فضل الله وفضلها، والله ما ننسى جميلها، يشير لهذا المعنى الذي ذكرناه، وهما نقمتان في الظاهر لمن وقف معهما وحجب بهما.

والحاصل أن النفس والشيطان والدنيا والناس قواطع لمن قطعوا به الطريق، موصلات للحضرة لمن وقف للتحقيق، وسبق له من الله التوفيق. والنفس أصعب من الشيطان لأنه عدو متصل وأنت به شفيق فهي أقبح من سبعين شيطاناً في قطع الطريق.

وذكر ابن القسطلاني عن أحمد بن سهل رحمه الله أنه قال: أعداؤك أربعة:

أولها: الدنيا، وسلاحها لقاء الخلق، وسجنها الخلوة.

الثاني: الهوى، وسلاحه الكلام وسجنه الصمت.

الثالث: الشيطان، وسلاحه الشبع وسجنه الجوع.

الرابع: النفس، وسلاحها النوم وسجنها السهر، وقد نظم بعضهم هذه القواطع فقال:

إنّي بليتُ بأربعٍ يرمينَنِي ... بالنَّبلِ عَنْ قوسٍ لهُ توتيرُ
إبليسُ والدنيَا ونفسِي والهوَى ... يا ربِ أنتَ على الخلاصِ قديرُ

وقد ذكر هذه القواطع الشيخ، فذكر أولاً الدنيا ثم الناس ثم الشيطان ثم النفس، لكن ذكرها على وجه توحيدي لم يذكرها على أنها سوى أو قواطع، وإنما ذكر أسرارها وحكمة وجودها، فللَّه دره ما أشد معرفته بالتوحيد وأسرار التفريد، نفعنا الله بذكره وخرطنا في سلكه آمين.

هذا آخر الباب الرابع والعشرين، **وحاصله**: ذكر غاية النعيم وهو شهود نور وجهه الكريم، فمن تحقق به فلا تعتريه أحزان ولا هموم. ثم ذكر القواطع التي تقطع عنه وهي الدنيا وما يتعلق بها من رياسة علم غير نافع وجاه وغيره والخلق وما يتعلق بإذايتهم والشيطان والنفس لكن ذكرهم على وجه التحقيق لا على وجه التشريع، فإذا يخلص من هذه القواطع في الحس أفضى إلى شهود نور عظمة ربه في تجلياته فيتواضع مع الأشياء كلها لمعرفته فيها كما أشار إلى ذلك في الباب الخامس والعشرين بقوله:

[الباب الخامس والعشرون]

وقال رضي الله عنه:

228 ـ (من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً، إذ ليس التواضع إلاَّ عن رفعة، فمتى أثبت لنفسك رفعةً فانت المتكبر)

قلت: التواضع هو مجاهدة النفس في وضعها وسقوطها، فهي تريد الرفعة وأنت تريد السقوط، فإذا حققت ونظرت بعين فكرتك وجدت الأشياء كلها مستوية معك في الخلقة والتجلي من النملة إلى الفيل، فالمتجلي في النملة هو المتجلي في الفيلة، فأنت والكلب في حقيقة الخلقة سواء وإنما وقع التفضيل في التشريع والحكمة عند أهل الفرق، فأهل الفرق يرون المزية لأنفسهم عما سواهم، فإذا تساووا بأنفسهم مع الأشياء رأوا أنهم قد تواضعوا، وفي الحقيقة إنما تكبروا لأنهم أثبتوا المزية لأنفسهم ورفعوها ثم أثبتوا لها التواضع، فهم المتكبرون على خلق الله حقاً.

والعارفون بالله لم يثبتوا لأنفسهم مزية قط، رأوا الأشياء كلها سواء، خلقاً واحداً ونوراً واحداً، فلم يثبتوا لأنفسهم رفعاً ولا وضعاً فهم متواضعون من أول مرة. فتواضعهم حقيقي أصلي، فمن أثبت لنفسه تواضعاً ورأى أنها تواضعت دون قدرها فهو المتكبر حقاً، حيث جعل لها قدراً زائداً على خلق الله إذ ليس التواضع وإثباته للنفس إلَّا عن رفعة لها أولاً فمتى أثبت لنفسك أيها الفقير تواضعاً فأنت المتكبر حقاً ولا تكون متواضعاً حتى ترى الأشياء كلها مثلك أو أحسن منك إن عصيت ربك.

قال أبو يزيد: ما دام العبد يرى في الخلق أشر منه فهو متكبر، ولا يكون متواضعاً حتى لم يثبت لنفسه حالاً ولا مقالاً.

وقال بعضهم: من رأى لنفسه قيمة على الكلب فهو متكبر ممقوت عند الله، وإنما يتضع العبد بقدر تحققه بعلو قدر سيده، والنفس إن لم تتصف بالذل والهوان حقيقة فهي غير مشاهدة لعظمة الله، لأن أصل نشأة النفس الضعف والذل والهوان، ولا صلاح إلَّا في الرجوع لأصلها وتبريها من رؤية العز والجاه ومن تبريها من ذلك.

وقال الجنيد رضي الله عنه: من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع، ولو تبرأ منها ومن تواضعها لكان متواضعاً اهـ.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إنما الكرم التقوى، وإنما الشرف التواضع، وإنما الغنى اليقين، والمتواضعون في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة. إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة ولا يزيد التواضع للعبد إلّا رفعة فتواضعوا ليرفعكم الله، وإذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين من أمتي فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار بهم**»[1] اهـ.

أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «إنما أقبل عمل من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على خلقي، وألزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي»[2] اهـ.

* * *

ثم فسر التواضع الكامل، فقال:

229 ـ (ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع).

قلت: التواضع الحقيقي هو الذي ينشأ ممن يشاهد الأشياء كلها منه فإذا تواضع معها رأى أنها تستحق أكثر من ذلك التعظيم وأن نفسه في الدناءة والذل دون، أي أسفل مما صنع من التواضع، وليس المتواضع الذي يرى لنفسه مزية على الأشياء، فإذا تواضع معها رأى أن نفسه فوق وأفضل مما صنع من التواضع، فهذا هو المتكبر لأنه أثبت لنفسه تواضعاً مما تستحقه، وهذه الحكمة كأنها بيان وتتميم لما قبلها.

يحكى عن أبي الحسن بن الكرنبي، أستاذ الجنيد رضي الله عنهما، أن رجلاً دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله داره في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك فقال: قد ريَّضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيعود، ويرمى له عظم فيجيب ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبتك.

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) روى نحوه أبو بكر القرشي في التواضع والخمول، باب التواضع، حديث رقم (86) [1/ 116] ونصه كاملاً: عن إسماعيل بن أمية قال: قال الله تبارك وتعالى لموسى ﷺ: «إني إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي وأطعم الجائع وكسى العاري أوى الغريب فذلك الذي يشرق نور وجهه يوم القيامة مثل الشمس يدعوني فألبي له ويسألني فأعطيه وأجعل له في الجهالة حلماً وفي الظلمات نوراً أكلأه بعزتي وأستحفظه ملائكتي، فمثل ذلك العبد في الناس كمثل جنات عدن في الجنان لا تنقطع ثمارها ولا تغير عن حالها».

قال أبو طالب رضي الله عنه: وحدَّث عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل يأكل فمد يده وقال: إن كان ثم شيء لله تعالى، فقال: اجلس فكل، فقال: أعطني في كفي. فأعطاه في كفه فقعد في مكانه يأكل فسأله عن امتناعه من الجلوس معه، فقال: إن حالي مع الله تعالى الذل فكرهت أن أفارق حالي.

وقال السهروردي: رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بعث له بعض أبناء الدنيا طعاماً على رؤوس الأسارى من الإفرنج في قيودهم فمدت السفرة وقال للخادم: احضر الأسارى مع الفقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفاً واحداً وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد معهم كالواحد منهم وأكل وأكلوا وظهر لنا على وجهه ما نزل باطنه من التواضع لله والانكسار في نفسه وانسلاخه عن التكبر عليهم.

وكان الشيخ الفقيه عبد الرحمٰن بن سعيد من الفقهاء والعلماء العاملين، بينما هو يوماً يمشي في يوم شات كثير الطين فاستقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها. قال من رآه: رأيت الشيخ قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقاً ووقف ينتظره ليجوز، فلما قرب منه الكلب ترك مكانه الذي كان فيه ونزل أسفل وترك الكلب يمشي فوقه، قال: فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعليه كآبة، فقلت له: يا سيدي رأيتك الآن صنعت شيئاً استغربته كيف رميت بنفسك في الطين وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي؟ فقال لي: بعد أن عملت له طريقاً تفكرت وقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسي أرفع منه، بل هو والله أرفع مني وأولى بالكرامة، لأني عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب، والكلب لا ذنب له. فنزلت له عن موضعي وتركته يمشي عليه، وأنا الآن أخاف من الله ألا يعفو عني لأني رفعت نفسي على من هو خير مني اهـ. نقله الشيخ ابن عباد رضي الله عنه.

* * *

ثم إن التواضع منه ما يكون مجاهدة وتصنعاً، وهو مجاهدة أهل اليمين من السائرين، ومنه ما يكون اختيارياً حقيقياً وهو تواضع العارفين لأنه ناشىء عن شهود عظمة المعبود فلا يتخلف إلَّا في وقت الغفلة وهو قليل، وهو الذي أبانه بقوله:

230 ـ (التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلي صفته)

قلت: التواضع الحقيقي هو تواضع العارفين لأنه ناشىء عن شهود عظمة الحق

وتجلي ذاته وصفاته، وهو من عطف التفسير لأن تجلي الصفات هو عين عظمة الذات، وذلك أن الحق تعالى كان في أزله القديم متصفاً بصفاته ومتسمياً بأسمائه في خفاء ولطف لم يعرفه أحد، فلما أراد أن يُعرف أظهر بقدرته وإرادته عظمة ذاته المقدسة متصفاً بصفاته الأزلية فتجلّت القدرة لعظمة الذات، فشهود عظمة الذات هو شهود تجلّي الصفات، وإليه أشار صاحب العينية بقوله:

فـأوصـافُـهُ والاسـمُ والأثـرُ الـذي   هوَ الكونُ عينُ الذاتِ واللّهُ جامعُ

فالتواضع الحقيقي هو الذي ينشأ عن شهود عظمة الذات ونور الصفات، فلذلك ترى العارفين يتواضعون مع الحجر والمدر وكل شيء لمعرفتهم في كل شيء.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب عنه سلطان نفسه لأن النفوس كلها محقورة عند هيبته، ومن أشرف التواضع ألا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى اهـ.

والحاصل أن التواضع الحقيقي إنما هو للعارفين لأنهم حين شهدوا عظمة الحق خرجت عنهم أوصاف نفوسهم إذ لا يخرج عن الوصف إلّا شهود الوصف، كما ذكره بقوله:

231 ـ (لا يخرجك عن الوصف إلاّ شهود الوصف)

فلا يخرجك عن أوصاف نفسك الذميمة إلّا شهود أوصاف ربك العظيمة فلا يخرجك عن دناءة نفسك إلّا شهود كرم ربك، فلا يخرجك عن شهود أوصافك الحادثة إلّا شهود أوصاف ربك القديمة، فيخرجك عن شهود فعلك بشهود فعله وعن شهود صفاتك بشهود صفاته وعن شهود ذاتك بشهود ذاته.

وقد سئل شيخ أشياخنا القطب [عبد السلام] بن مشيش عن حقيقة المحبة، سأله تلميذه أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنهما، فقال: المحبة أخذ القلب وخطفه عند كشف نور الجمال وقدس الجلال، والشرب مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت والأفعال بالأفعال، إلخ.

فما دام العبد لم يشاهد أوصاف ربه العظيمة لا يمكنه أن يخرج عن أوصاف نفسه اللئيمة خروجاً كليّاً وإنما يكون ذلك مجاهدة تارة له وتارة عليه بين طلوع ونزول، بخلاف ما إذا شاهد أوصاف ربّه فإنه يغيب عن نفسه قد تولاه محبوبه فكان

سمعه وبصره ويده ورجله ومؤيداً له فلا يتصرف إلَّا بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم. وأنشدوا:

إذا حُـزْتَ الـفـخـار فـلا تُـبَـالِ بـنـقـصٍ فـي الـجـبـلـةِ أو كـمـال

فمَا التأنيثُ في اسمِ الشّمسِ نقصٌ ولا الـتـذكـيـرُ فـخـرٌ لـلـهـلال

يشير إلى أنه إذا تحقق الفناء في الذات والبقاء بالله فلا نقص للنفس ولا كمال، وإنما الكمال للكبير المتعال فله الحمد والثناء على كل حال.

* * *

كما قال الشيخ رضي الله عنه:

232 ـ (المؤمن يَشْغَلُه الثناءُ على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً)

قلت: النفس عند تحقق الفناء لا وجود لها حتى تذكر ولا فعل لها حتى تشكر، فليس للعارف عن نفسه أخبار حتى يخبر عنها بفعل شيء فضلاً عن أن يشكر لها وصفاً قد استغرقه شهود فعل الحق عن فعله وشهود وصف الحق عن شهود وصفه، وشهود نور ذات الحق عن شهود ذاته، فيشغله الثناء على الله عن الالتفات إلى ما سواه إذ لا يشهد في الكون إلَّا إياه، وتشغله حقوق الحق عن الالتفات إلى حظوظ النفس إذ لا نفس مع الفناء فلا يبقى إلَّا حقوق العالم الأسنى فتنقلب الحظوظ في حقه حقوقاً، لأنهم إذا نزلوا من عش الحضرة إلى أرض الحظوظ نزلوا بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين، نزلوا بالله ومن الله وإلى الله فليس لهم نظر إلى سواه قد تخلصت أرواحهم من طلب الحظوظ معجلة أو مؤجلة، نفسانية أو روحانية، إن صدر منهم عمل رأوه منّة من الله فيستحيون أن يطلبوا عليه عوضاً أو غرضاً.

* * *

كما أبان ذلك بقوله:

233 ـ (ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضاً ويطلب منه غرضاً)

قلت: لا شك أن المحبة التي تكون على الحروف والحظوظ ليست بمحبة، وإنما هي مصانعة لقضاء الحاجة، فمن أحب أحداً ليعطيه أو ليدفع عنه فإنما أحب نفسه إذ لولا غرض نفسه فيه ما أحبه.

قال أبو محمد رويم رضي الله عنه: من أحب العوض نغص العوض إليه محبوبه، وأيضاً فطالب العوض إنما هو بائع يريد أن يعطي لينال والمحب مقتول في

محبة سيده لا يعرج على سواء مرضاته. وفي معنى ذلك قيل:

بُنِيَ الحُبُّ على الجَوْرِ فلو أنصفَ المحبوبُ فيه لَسَمُج
ليس يُستحسنُ في حكمِ الهوى عاشقٌ يطلبُ تأليفَ الحُجَج[1]

ومما لا يستحسن أيضاً في حكم المحبة والهوى، إظهار الحزن أو الكآبة من أجل الجفاء من المحبوب أو الشكوى بذلك، بل الواجب هو التجلُّد والتصبُّر على جفاء المحبوب حتى يظفر بالمطلوب. وفي ذلك قيل:

إنْ شكوت الهوى فما أنتَ منّا احملِ الصدَّ والجَفَا يا مُعنى
تدَّعي مذهبَ الهوى ثمَّ تشكُو أينَ دعواكَ في الهوَى قلْ لي أينَا
لو وجدناكَ صابراً لهوانا لأعطيناكَ كلَّ ما تتمنَّى[2]

وقال آخر[3]:

الحبُ ديني فلا أبغي له بَدَلا والحسنُ ملكٌ مطاعٌ جارَ أم عَدَلَا
والنفسُ عزّتْ ولكن فيكَ أبذلُهَا والذلُ مرٌ ولكنْ في رضَاك حَلا
يا مَنْ عذابي عذبٌ في محبّتِهِ لا أشتَكِي منكَ لا صَدّاً ولا مَلَلَا

وإن شئت قلت: المحبة هي أخذ الرب بقلب العبد بحيث لا يلتفت إلى غيره أو أخذ جمال المحبوب بمحبة القلب حتى لا يجد مساغاً للالتفات لسوى المحبوب، فمتى وقع الالتفات نقص الحب على قدره.

قال بعض الناس لامرأة: إني أحبك، فقالت: وكيف وخلفك من هو خير مني.

---

(1) هذه الأبيات من بحر الرمل للشاعرة العباسية علية بنت المهدي أخت الخليفة هارون الرشيد المتوفية سنة 210هـ. ونص الأبيات وتتمتها كما في موسوعة الشعر العربي، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي، جاءت على النحو التالي:

بُنِيَ الحُبُّ على الجَوْرِ فلو أنصفَ المحبوبُ فيه لَسَمُج
ليس يُستحسنُ في حكمِ الهوى عاشقٌ يطلبُ تأليفَ الحُجَج
لا تعيبَنّ مِنْ محب ذلةً ذلة العاشق مفتاحُ الفرج
وقليلُ الحبِّ صِرفاً خَالِصاً لكَ خيرٌ مْن كثيرٍ قدْ مُزِج

(2) هذه الأبيات من البحر الخفيف وهي للشيخ العارف بالله تعالى محمد الحراق المتوفى سنة 1261 هجرية. (نفس المرجع السابق).

(3) هو ابن حبيش أبو بكر محمد بن يوسف بن الحسن، أصله من الأندلس من مرسية، رحل إلى تونس، توفي سنة 686هـ. (نفس المرجع السابق).

فالتفت فقال: قبحك الله من محب تدعي المحبة وتلتفت للغير. وكذلك العبد إذا ادعى محبة سيده ثم أحب شيئاً أو استحسن شيئاً من السوى، أو اشتكى شيئاً أو خاف شيئاً سوى محبوبه فهو ناقص المحبة أو مدعيها، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

ثم علَّل الشيخ كون المحبة على العوض مدخولة، فقال:

233 ـ (فإن المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له)

قلت: المحب في الشيء هو الذي يبذل نفسه فيه وفلسه ويزهد في جنسه من أجله، ولا يصح ذلك على التمام إلَّا في جانب الذي أسبغ عليك سوابغ الإنعام، أنعم عليك أولاً بالإيجاد، وثانياً بالإمداد، وأعطاك كل ما تريد وملكك الكون كله تتصرف فيه كما تريد، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34]، وقال: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: الآية 29]، فهذا سبب محبة العوام.

وأما محبة الخواص فهي ناشئة عن شهود جماله وبهائه فغابوا في شهود جماله وتاهوا في حضرة بهائه، وأنشدوا:

يا ساقي القوم مِنْ شَذَاه   الكلُّ لما سقيتَ تاهُوا
غابُوا وبالسكرِ فيكَ طابُوا   وصرحُوا بالهوَى وفاهُوا

فهؤلاء باعوا أرواحهم في طلب مولاهم، ثم استقلوا ما باعوا واستحيوا مما بذلوا لقلّة ما أعطوا في جانب ما طلبوا، وفي ذلك يقول سلطان العشاق ابن الفارض رضي الله عنه:

لو أنّ روحي في يدِي ووهبتُها   لمُبَشري بقدومكُم لم أنصفِ
ما لي سوى روحي وباذلُ روحِهِ   في حبِّ مَنْ يهواهُ ليسَ بُمسرفِ
فلئِنْ رضيت بها فقد أسعفتني   يا خيبةَ المسعَى إذا لم تُسْعِفِ

قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منه شيء.

وقال أبو يعقوب السوسي: حقيقة المحبة أن ينسى حظه من الله وينسى حوائجه إليه.

وقال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه: المحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه ولا مشيئة له مع مشيئته. وقيل: أول ما يقول الله للعبد:

اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك فإن قال: لا ما أريد إلَّا أنت، قال له: من دخل في هذا معي فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع الحدوث وإثبات القدم وذلك يوجب له العدم. وفي معنى ذلك قيل:

مَنْ لَمْ يكُن بكَ فانياً عَنْ حظِّهِ   وعَنِ الفَنَا والأنسِ بالأحبابِ

فلأنه بين المنازل واقف   لمنال حظ أو لحسن مآبِ

وبالجملة، فأمر المحبة كبير وبحرها خطير، وفي ذلك قالوا: ما خاضوا بحر الرباح حتى خاضوا بحر الخسارة، لا تنال إلَّا بذبح النفوس وترك الفلوس.

إنْ تُرِدْ وصلَنَا فموتُكَ شرطٌ   لا ينالُ الوصالَ مَنْ فيهِ فضلَه

* * *

فما تحقق سير السائرين ورحيلهم إلى المحبوب إلَّا بمحاربة النفوس ومجاهدتها وقتلها كما أبان ذلك بقوله:

234 ـ (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين)

قلت: الميادين جمع ميدان بكسر الميم وبفتحها، وبه صدر في القاموس وهو مجال الخيل، ثم استعير هنا لمحاربة النفوس ومجاهدتها، فهي تارة تكر عليه فتظفر به وتارة يكر عليها فيظفر بها، وفي هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

سايسْ مِنَ النّفسِ جَهْدَكَ   وصبّخ ومسّ عليهَا

لعلَّها تدخلُ بيَدِكَ   فتعودُ تصطَادُ بِها

فقد بيَّن رضي الله عنه كيفية مجاهدتها، وعلَّمك الحيلة في أخذها، وذلك أن تدخل معها شيئاً فشيئاً، فتعلمها الصمت وحده ثم العزلة، ثم تقدمها للخراب شيئاً فشيئاً، تقدمها للقليل فإذا استأنست به زدتها شيئاً آخر، وهكذا فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ ولا يعلمها البطالة فورده من العمل الذي تموت به لا يتركه.

وقد كنت في حالة المجاهدة إذا هممت بترك وردي، نادتني هواتف الأكوان حتى كنت في بعض الأيام تخاطبني الصبيان: يا هذا اليهودي حين نهتم بترك وردي من السؤال، وقد سمعت مراراً متعددة حين نستعمل خراباً زد على يدك، وتارة يقول: زد صف سبيكتك، وتارة نسمع: يا عساس حين يسرقني شيء من الحس، وهكذا. وكانت مجاهدتي لنفسي كلها سياسة، لم أحملها من المرة الأولى إلَّا ما تطيقه حتى تستأنس به، ثم نزيدها حتى كنا نفعل بها ما نشاء.

قال بعض العارفين: انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا، وما ذكرته من السياسة للنفس والاحتيال عليها هو الصواب. قال في المباحث:

واحتلْ على النَّفسِ فَرُبَّ حيلَةْ أنفعُ في النَّصرِ مِنْ قبيلَةْ

وأما إن حملها من أول مرة ما لا تطيقه، فإنها تسقط وتمل وربما ترجع بالكلية. قال ﷺ: «**اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا**»(1). وقال: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**»(2). والمنبت هو المنقطع.

وحاصل ما ذكره الشيخ في هذه الحكمة: أن الناس على قسمين:

قسم لا سير لهم إذ لا توجه لهم إلى الله، فهم واقفون مع ظاهر الشريعة، كلما أباحته الشريعة أخذوه كان ثقيلاً على النفس أو خفيفاً، بل لا يأخذون إلَّا الخفيف لأنهم يقصدون رخص الشريعة وتسهيلها مما يوافق هواهم فلم يغيِّروا من عوائدهم وشهواتهم شيئاً، فعزهم وافر وجاههم باق ودنياهم في الزيادة، وهؤلاء عوام المسلمين.

وقسم شاقت نفوسهم إلى حضرة الملك وغلبهم الشوق فتوجهوا إلى حضرته واشتغلوا بمجاهدة نفوسهم ومحاسبتها، فكل ما يثقل عليها أدخلوها فيه وهي تموت، وكل ما يخف عليها جنبوها منه وهي تبكي، هكذا يدومون عليها حتى ترتاض وتلين وحينئذ تطاوعهم فيما يريدون، فأول ما يجاهد المريد في ترك الدنيا أو التخفيف حتى لا يبقى ما يشغله عن ربه، ثم في ترك الناس والفرار منهم يتنكر لمن يعرف ولا يتعرف لمن لا يعرف، ثم في إسقاط المنزلة والجاه حتى يسقط من عين الناس ويسقط الناس من عينه، ثم في الذل والانكسار قلباً وقالباً بالمشي بالحفا وتعرية الرأس وغير ذلك فإذا تحققت بالذل والتواضع والخمول والفقر وسكنت في ذلك واستحلته فقد تمكن منها وملكها بل ملك الكون كله.

ونفسُكَ تحوي بالحقيقةِ كلِّها أشرتَ بجدِّ القولِ مَا أنَا خادعُ

---

(1) رواه أبو داود في سننه، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، حديث رقم (1368) [2/ 48] وابن ماجه في سننه، باب ذكر الذنوب، حديث رقم (4240) [2/ 1417] ورواه غيرهما.

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب القصد في العبادة. . . ، حديث رقم (4520) [3/ 18] والقضاعي في مسند الشهاب، (726) إن هذا الدين متين. . . ، حديث رقم (1147) [2/ 184] ورواه غيرهما.

فكل من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره، فلولا مجاهدة النفوس ومحاربتها في هذه الميادين ما تحقق سير السائرين، إذ لا يتحقق السائر من القاعد إلَّا بمخالفة الهوى وخرق العوائد، فمن خرق عوائد نفسه حتى استوى عنده العز والذل والفقر والغنى وغير ذلك من مكروهات النفوس، فقد تحقق سيره ووصوله، ومن لم يقدر على تغيير شعرة من نفسه فلا سير له ولا وصول.

قال أبو عثمان الحيري: لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع والعطاء والعز والذل، يعني أنه يكون عنده الذل كالعز والمنع كالعطاء لا ينقص منها.

وقال محمد بن خفيف رضي الله عنه: قدم علينا بعض أصحابنا فاعتلّ وكان به علة البطن، فكنت أخدمه وآخذ منه الطست طول الليل، قال: فغفوت مرة فقال لي: نمت لعنك الله، فقيل له: كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله، قال: كقوله رحمك الله.

وحكي عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال: ما سررت في الإسلام إلَّا ثلاث مرات معدودات: كنت في مركب يوماً وكان به رجل يحكي الحكايات فيضحك منه الناس وكان يقول: رأيت وقتاً في معركة الترك علجاً ويقول هكذا، وكان يأخذ بلحيتي ويمد يده على حلقي والناس يضحكون منه، ولم يكن في ذلك المركب عنده أحد أصغر مني ولا أحقر، فسررت بذلك. ويوماً آخر كنت جالساً فجاء إنسان فصافعني. ويوماً آخر كنت جالساً فجاء إنسان وبال عليّ.

وقال بعضهم: حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله في كل نفس من غير اختيار حالة يكون عليها، فإذا وجد المريد هذه العلامات في نفسه فقد خرج من عالم جنسه ووصل إلى حضرة قدسه، وكان كما قال الشاعر:

لكَ الدهرُ طوعاً والأنامُ عبيدُ ... فعشْ كلَّ يومٍ منْ أيامِكَ عيدُ

وكما قال سيدي أبو العباس بن العريف رضي الله عنه في هذا المعنى:

بدَا لكَ سرٌّ طالَ عنكَ اكتتامُهُ ... ولاحَ صباحٌ كنتَ أنتَ ظلامُهُ

فأنتَ حجابُ القلبِ عن سرِّ غيبه ... ولولاكَ لم يطبعْ عليه ختامُهُ

فإنْ غبتَ عنهُ حلَّ فيهِ وطنبتَ ... على مركبِ الكشفِ المصونِ خيامُهُ

وجاءَ حديثٌ لا يملُّ سماعُهُ ... شهيٌ إلينا نثرهُ ونظامُهُ

إذا سمعتهُ النفسُ طابَ نعيمُهَا ... وزالَ عنِ القلبِ المعنَّى غرامُهُ

فإن لم يجد المريد هذه العلامات فليستمر على سيره ولا يمل ولا يفتر، فمن عرف ما قصد هان عليه ما ترك. وهذا الكلام إنما هو مع من أسعده الله فوصله إلى شيخ التربية، وأما من لم يصل إليه فلا يطمع في السير أبداً ولو جمع العلوم كلها وصحب الطوائف كلها، وهذا أمر ذوقي لا أقلد فيه أحداً، فقد صلّينا كثيراً وصمنا كثيراً واعتزلنا كثيراً وذكرنا كثيراً وقرأنا القرآن كثيراً، والله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني، فأخرجونا من التعب إلى الراحة، ومن التخليط إلى الصفا، ومن الإنكار إلى المعرفة.

فإن قلت: قد قال الحضرمي: قد انقطعت التربية وما بقي إلَّا الهمة والحال فعليكم بالكتاب والسنّة.

قلت: لم يقصد الحضرمي انقطاعها على الأبد، وحاشا الحضرمي أن يتحكم على الله ويعجز قدرة الله، وإنما أراد أن في زمانه مدعين كثيرين فحذّر أهل زمانه منهم، ومعرفة الحضرمي وزروق رضي الله عنهما تنافي هذا القصد، وعلى تقدير صدورها منهما فليسا بمعصومين، فكل كلام يرد ويقبل إلَّا كلام صاحب الرسالة ﷺ.

قد وجد بعد الحضرمي رجال كانوا من أهل التربية النبوية بالحال والمقال والهمة لا يمكن عدهم، وهم موجودون في زماننا هذا مشهورون كنار على علم، قد هدى الله على أيديهم خلقاً كثيراً، وخرج على أيديهم من الأولياء ما لا يعلمهم إلَّا من منَّ عليهم بمعرفتهم.

قال في لطائف المنن: إنما يكون الاقتداء بولي دلّك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته وعرّفك وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد يعرفك برعونات نفسك ودفائنها وكمائنها ودقائقها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار مما سوى الله ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، يوقفك على إساءة نفسك ويعرفك بإحسان الله إليك، فتفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه والدوام على ممر الساعات بين يديه.

قال: فإن قلت: فأين من هذا وصفه لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب، **فاعلم** أنه لا يعوزك وجدان الدالين وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم، جد صدقاً تجد مرشداً وتجد ذلك في كتاب الله، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النّمل: الآية 62]، وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمّد: الآية 21] فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء والخائف إلى الأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريباً ولك مجيباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك اهـ.

قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: وفي كلامه تنبيه على أن الشيخ من منح الله وهداياه للعبد المريد إذا صدق في إرادته وبذل جهده في مناصحة مولاه، لا على ما يزعمه من لا علم عنده من كونه لا يشترط، ثم قال: وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الأدب معه لما أشهده من علوّ مرتبته ورفيع درجته اهـ.

وقال أيضاً في لطائف المنن: وليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك من سرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك من نهض بك حاله، شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلّت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك في نور الحضرة، وقال: ها أنت وربك اهـ.

والسير هنا إلى الله تعالى مجازي عبارة عن قطع العلائق والعوائق وإلا فالأمر كما قال الشيخ:

234 ـ (إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قُطْعَةَ بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)

قلت: هذا سؤال عن بحث مقدر كأن قائلاً قال له: هل بيننا وبينه مسافة حتى يتحقق سير السائرين إليه، فقال: لا مسافة بينك وبينه إلَّا حجاب النفس الكثيفة وعلائق القلب الكونية، فخرق عوائدها وقطع شهواتها.

وقطع العلائق والعوائق هو السير إلى الله، فمن خرق عوائد نفسه زالت عنه الحجب الظلمانية، ومن قطع علائق القلب فاضت عليه العلوم الربانية، وأشرقت عليه الشموس العرفانية وهذا هو الوصول، فلا مسافة بينك وبينه حسيّة حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه، أي لا حاجز بينك وبينه، حتى تمحوها وصلتك. قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية 16] فما حال بيننا وبينه إلّا توهم وجود نفوسنا، فلو غبنا عنها لوجدنا أنفسنا في الحضرة ولا يمكن الغيبة عنها إلّا بموتها، وموتها في مخالفة عوائدها.

قال الشيخ أبو مدين: من لم يمت لم ير الحق.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: لا دخول على الله إلّا من بابين، إما بالفناء الأكبر الذي هو الموت الطبيعي، أو بالفناء الأصغر الذي تعنيه هذه الطائفة.

وقال بعضهم: لا يدخل على الله حتى يموت أربع موتات، الموت الأحمر وهو مخالفة النفس، والموت الأسود وهو احتمال الأذى من الخلق، والموت الأبيض وهو الجوع، والموت الأخضر وهو لبس المرقعات.

قال الشطيبي رضي الله عنه: واعلم أن طريق الحق تعالى ليس فيها مفازة ولا متاهة، بل هي منازل وأحوال قد جعل الله لجميعها أعواناً وأنصاراً وهو سبحانه يصدق وعده وينصر عبده ويهزم الأحزاب وحده، وإنما المفاوز والمسافات في الركون إلى المألوفات واتباع العادات، وفي مسامحة النفس والوقوف مع الحس والحدس، وعند كشف الغطاء يتبين ذلك كما قال صاحب المباحث الأصلية[1]:

وإنَّما القومُ مسافرونَ ... لحضرةِ الحقِّ وظاعنونَ

فافتقروا فيها إلى دليلِ ... ذي بصرٍ بالسيرِ والمقيلِ

قَدْ سلكَ الطريقَ ثُمَّ عادَ ... ليخبرَ القومَ بما استفادَ

إلى آخر كلامه. اهـ.

وقال أيضاً: ومن الناس من تحجبه المجاهدة عن المشاهدة فتسطوا عليه الأحوال فتحول بينه وبين الغاية القصوى ومناهج الخلق متفاوتة لا تجري على منهاج واحد، قال الله العظيم: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: الآية 48] ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية 148]، وكل شخص إنما يعبر عن وجهته التي خصّه الله بها، ولذلك كان النظر في الكتب يضعف المسالك، لتشعبها وكثرتها عند اختلاف الهمم لا سيما من جبلت طبيعته على علم الظاهر، فإنه أبعد الناس عن الطريق ما لم يداركه الله بفتح

(1) سبقت الإشارة إليه.

منه، لأن التشريع كل حكمة تحتها حكم، من لم يفهمها فبستانه مزهر غير مثمر، ومن هنا وقع الإنكار حتى امتحن الله كثيراً من الصوفية على أيدي علماء الظاهر عندما نسبوهم للكفر والزندقة والبدعة والضلال، وسر الخصوصية يقتضي ذلك لا محالة، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: الآية 23]، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون وما هلكت الأمم السابقة إلَّا بقولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية 23].

* * *

فتحصل أن الإنسان إذا جال مع النفس في ميدانها، فجاهدها حتى هذّبها وطهّرها من الأوصاف الحاجبة لها، رجعت نفسه حينئذ إلى أصلها، وهي الحضرة التي كانت فيها إذ لم تكن بينها وبين الحضرة إلَّا الحجب الظلمانية، فلما تخلّصت منها رجعت إلى أصلها نوراً مشرقاً في قالب ظلماني فصارت عنده ياقوتة مكنونة تطوي عليها أصداف المكنونات كما أبان ذلك بقوله:

235 ـ (جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليُعْلِمُك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوي عليها أصداف مكوناته)

قلت: قد عظم الله سبحانه هذا الإنسان وجعله نخبة الأكوان، اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فيه ملك وملكوت ونور وظلمة وغيب وشهادة وعالم علوي وسفلي وقدرة وحكمة وحس ومعنى، فقد جعلك الله أيها الإنسان ناشئاً في العالم المتوسط بين ملكه وهو بشريتك وملكوته وهو روحانيتك، أو تقول: بين ملكه وهو عالم الأشباح وملكوته وهو عالم الأرواح، فلست أيها الإنسان ملكاً فقط فتكون كالبهائم والجمادات ولا ملكوتياً فقط فتكون كالملائكة ولكن جعلك مركباً من ملك وملكوت لتظهر مزيتك بالمجاهدة والمشاهدة ولذلك خصصت بالخلافة وتقدمت لحمل الأمانة ثم متعت بالنعيم والنظر إلى وجهه الكريم، ثم انقسمت الناس على قسمين:

فمنهم من غلبت بشريتهم على روحانيتهم وملكهم على ملكوتهم وظلمتهم على نورهم، فبقوا في ظلمة الأكوان ومنعوا من الشهود والعيان، وهم عوام المسلمين.

ومنهم من غلبت روحانيتهم على بشريتهم ونورهم على ظلمتهم وملكوتهم على ملكهم وهم الخواص العارفون السائرون إليه بمجاهدة نفوسهم في ميدان الحرب وهو مجال الفرسان، فمنهم السابق المقرب، ومنهم اللاحق المحبب كل واحد على قدر صدقه في محبة سيده.

وظاهر كلام الشيخ أن الإنسان شيء زائد على البشرية والروحانية لأنه قال: جعلك الله في العالم المتوسط بين الملك، وهو البشرية، والملكوت وهو الروحانية، فيقتضي أنه شيء ثابت بينهما، والتحقيق أن الإنسان هو المجموع من الجسد والروح فهو بنفسه عالم متوسط، أي مركب من ملك وملكوت، فلو قال: جعلك عالماً متوسطاً بين ملكه وملكوته لأفهم المراد بسهولة، أي لست ملكاً فقط ولا ملكوتاً فقط، بل جعلك متوسطاً بينهما أي مركباً منهما كقوله عليه السلام: «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**»[1] أي مركباً منهما دون روح. ولكن عبارة الشيخ فيها ألغاز وتدقيق إشارة، وعلمنا كله إشارة.

وإنما جعلك بين ملك وملكوت ليعلمك جلالة قدرك وفخامة أمرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [**الإسراء: الآية 70**]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [**التين: الآية 4**]. وليعلمك أيضاً أنك جوهرة نفيسة مصونة في صدف نفيس، وهو الكون بأسره فتطوي عليك أصداف مكوناته من عرشه إلى فرشه، فأنت أيها الإنسان كالياقوته في صدف، الأرض تقلك، والسماء تظلك، والجهات تكتنفك، والحيوانات تخدمك وتنفعك، والجمادات تدفع عنك، وأنت في وسط الجميع، فالأفلاك دائرة بك، والشمس والقمر منيران لما أنت فيه، فأنت جوهرة الصدف ولباب الكون ومداره عليك.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة.

وقد ورد في بعض الكتب: يا ابن آدم أنا بدك اللازم فالزم بدك.

وفي بعض الآثار المروية عن الله عز وجل: «يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له». وقد قالوا في عجائب الإنسان: إن الوجود كله منطو فيه فهو نسخة من العالم الأكبر.

ومما ينسب لأبي العباس المرسي رضي الله عنه:

يا تائِهاً في مَهْمَهٍ عَنْ سِرِّهِ ... انظُرْ تجِدْ فيكَ الوجودَ بأسرِهِ

أنت الكمالُ طريقةً وحقيقةً ... يا جامعاً سرَّ الإلٰهِ بأسرِهِ

وقال في المباحث [الأصلية]:

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2017) [2/ 173].

يا سابقاً في موكبِ الإبداعِ ولاحقاً في جيشِ الاختراعِ
إعقلْ فأنتَ نسخةُ الوجودِ للّه مَا أعلاكَ مِنْ موجودِ
أليسَ فيكَ العرشُ والكرسي والعالمُ العلويُ والسفلي
ما الكونُ إلّا رجلٌ كبيرُ وأنتَ كونٌ مثلُهُ صغيرُ

* * *

قلت: إنما يكون الإنسان نسخة من العالم أو كوناً صغيراً ما لم تغلب روحانيته على بشريته، ومعناه على حسه، ونوره على ظلمته، وأما إن غلبت روحانيته على بشريته ومعناه على حسه فقد صار حينئذ ملكوتياً جبروتياً قد استولى على الكون بأسره، وصار هو العالم الأكبر والكون نسخة منه. وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

وإنّي وإنْ كنتُ ابنَ آدمَ صورةً فلي فيهِ معنًى شاهدٌ بأبوتي

إذ الروح لم يسعها أرض ولا سماء كما بيَّن ذلك بقوله:

236 ـ (وَسِعَكَ الكونُ من حيث جثمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك)

قلت: الروح إذا تصَّفت وتطهرت من كدرات الحس عرجت إلى عالم الجبروت، فلم يحجبها عن الله أرض ولا سماء ولا فلك ولا عرش ولا كرسي، بل يصير ذلك في جوفها كشيء تافه، وهذا أمر مذوق عند العارفين إذا نظروا إلى الكون بأسره ذاب ورجع ماء، فإذا شربوه صار في قلوبهم كنقطة وهم متفاوتون في إحاطتهم بالكون، فمنهم من يصير عنده كالبيضة، ومنهم من يصير عنده كالخردلة، وذلك بحسب اتساع النظرة وضيقها، فكلما جالت الروح في بحر الجبروت صغر الكون عندها حتى لا تحس به، ولذلك قال بعضهم: لو كان العرش في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس به. وقال آخر: العرش والكرسي منطبعان في ترسي.

وقال شيخ أشياخنا مولاي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: والعرش والكرسي في طي قبضتي، ثم يتلاشى الكون ويضمحل ويتصل عالم الملكوت بعالم الجبروت، فلا بقاء إلّا للحي الذي لا يموت، وهذا لا يفهمه إلّا العارفون الذين غلبت روحانيتهم على بشريتهم، فصاروا روحانيين ملكوتيين أشباحهم مع الخلق وأرواحهم مع الحق، فقد وسعك أيها الإنسان الكون وحصرك من حيث جثمانيتك وبشريتك وهيكلك المحصور، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك، لأن روحك

متصلة بعالم الجبروت المحيط، فلما تكثفت وانحصرت في هذا الهيكل لزمتها القهرية فانحجبت بالحكمة وتقيّدت بالقدرة، فما دامت البشرية كثيفة بحب الشهوات والعوائد فهي محجوبة، فإذا تلطفت بذكر الله وانخرق عنها حجاب الحس رجعت إلى أصلها فاتصلت ببحرها، فصار الملكوت والملك في طي قبضتها، فلم يسعها حينئذ أرض ولا سماء، ولا يحصرها عرش ولا فرش، ولذلك قيل: الصوفي لا تقله الأرض ولا تظله السماء.

وفي الحديث القدسي: يقول الله تعالى: «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»[1] أي الكامل، وهو العارف والله تعالى أعلم.

فالجبروت: هو المعاني اللطيفة القديمة التي لم تدخل عالم التكوين، والملكوت: ما دخل عالم التكوين باعتبار جمعه ولحوقه بأصله، والملك: ما دخل التكوين واعتقد فيه الفرق.

وأهل الجمع لا ملك عندهم وإنما عندهم الملكوت والجبروت فما داموا يفرقون بين النور اللطيف والنور الكثيف فعندهم الملكوت والجبروت، فإذا ضموا كل شيء إلى أصله لم يبق إلّا الجبروت.

وأهل الفرق أثبتوا الملك بوهمهم وحجبوا به عن الله والله غالب على أمره.

* * *

فما دام العبد مسجوناً بالكون محصوراً في بشريته فهو في سجن الأكوان فإن نفذت بصيرته وعرجت روحه إلى الملكوت خرج من السجن إلى الفضاء، كما بيَّن ذلك بقوله:

237 - (الكائن في الكون ولم تُفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته محصور في هيكل ذاته)

قلت: ميادين الغيوب هي ما أدركته الروح حين خرجت من ضيق الأشباح إلى عالم الأرواح، ومن فضاء الشهود إلى معرفة الملك المعبود، فما دام الإنسان في الكون بحيث لا يشهد إلّا الكون، ولا يدرك إلّا الحس ولم تفتح له ميادين الغيوب، أي لم يخرج إلى فضاء الشهود، فهو مسجون بمحيطاته، أي بالأكوان المحيطة به كالسموات والأفلاك الدائرة به، فهو في سجن الأكوان محصور أيضاً في هيكل ذاته،

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2256) [2/ 255].

أي في شكل بشريته وكثائف جسمه، فإذا غلبت روحانيته على بشريته فقد خرجت من حصر الهيكل، وإذا نفذت بصيرته إلى فضاء الملكوت أو بحار الجبروت فقد خرجت من سجن الأكوان إلى شهود المكوِّن فحينئذ تتحرر من رق الأكوان وتحظى بنعيم الشهود والعيان.

وأما ما دام محصوراً في الهيكل مسجوناً في الأكوان فهو محجوب عن الله، ولو كان عالماً بالعلوم الرسمية متبحراً فيها إذ لا يزيده التغلغل فيها إلَّا حجاباً عن الله. وقد قال الشيخ أبو الحسن: التغلغل في علم الظاهر يضر بصاحبه في علم الخصوص، أو ما هذا معناه.

* * *

وقال في قوت القلوب(1): كل من لم يفتح له في هذا العلم علم الباطن فهو من أهل اليمين، وكل من فتح له في علم الباطن فهو من المقربين السابقين اهـ.

وهو ظاهر لأن علم الرسوم لا يخرجه من سجن الأكوان فهو مع الأكوان على الدوام، وإذا كان مع الأكوان فإنه شهود المكون كما قال الشيخ رضي الله عنه:

238 ـ (أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن فإذا شهدته كانت الأكوان معك)

قلت: ما دام العبد مقيّداً في سجن الأكوان ومحصوراً في هيكل جسمه فالأكوان حاكمة عليه، فهو يحبها ويعشقها وهي تبغضه وتبعده عن ربه، وهو يفتقر إليها وهي غنية عنه، وهو يميل إليها ويحرص عليها وهي تفر منه، وهو يخاف منها ويهابها وهي تخوفه وترعبه، فإذا شهد مكونها وغاب عنها وتحرر من رقها كانت حينئذ هي خادمته وهو حاكم عليها، وهي تحبه وتعشقه وهو مشغوف بحب خالقها، وهي تفتقر إليه وهو غني عنها، وهي تحرص عليه وهو زاهد فيها، وهي تخاف منه وتهابه وهو في أمن منها، فالجنة تشتاق إليه وهو غني عنها.

وفي الحديث: «**اشتاقت الجنة إلى ثلاثة علي وعمار وبلال**»(2) كانوا من أهل الصفة، والنار تهابه وهو في غيبة عنها. وقد ورد في الحديث أنها تقول يوم القيامة: «جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»(3) أو كما قال عليه السلام، فأنت أيها الإنسان

---

(1) كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي، مطبوع بتحقيقنا.

(2) رواه المزي في تهذيب الكمال، باب الراء، [33/ 306].

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (668) [22/ 258] والديلمي في الفردوس، حديث رقم (2365) [2/ 65] ورواه غيرهما. وأول الحديث: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة».

محبوس مع الأكوان في عالم الأشباح، مقيد في قيودها، فهي حينئذ تتصرف فيك كيف شاءت حين تكون تحبها وتحرص عليها وتشتاق إليها كائنة ما كانت، شهادية أو غيبية ما لم تشهد المكوِّن وتعرفه، فإذا شهدت المكون وعرفته كانت الأكوان معك، لأنك تكون حراً عنها، وهي مملوكة لك لا تحب منها شيئاً من حيث كونيتها، ولا تخاف منها شيئاً كذلك لأنك قد رحلت عنها إلى عالم الأرواح فحينئذ تكون في قبضتك تتصرف بها كيف شئت لأنك حينئذ تصير خليفة لله في أرضه، الكون كله في قبضتك وعند همتك لأنك علقت همتك بالله فصيَّر الأشياء عند همتك.

وفي بعض الآثار المروية عن الله عز وجل يقول: «**عبدي اجعلني مكان همك أكفك كل همك، ما كنتَ بكَ فأنت في محل البعد، وما كنت بي فأنت في محل القرب، فاختر لنفسك**»[1].

وقال بعض الأشياخ: إني لأدخل السوق والأشياء كلها تشتاق إليّ وأنا غنيّ عنها. وقال ابن الجلا رحمه الله: من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكوِّنها، ومن وقف بهمته على شيء دون الحق، فقد حجب به عنه لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك اهـ. فمن رفع همته عن الأكوان ومتع بشهود المكون فقد ثبتت له الخصوصية الكبرى والولاية العظمى.

* * *

ولا يلزم من رفع الهمة عن الأكوان استغناؤه عما تحتاج إليه البشرية مما يقوم به وصفها اللازم لها، وإليه أشار بقوله:

239 ـ (لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية)

المراد بالوصف البشري، ما جعله الله محتاجاً إليه بحكمته في قوام بدن الإنسان من أكل وشرب ولباس ومسكن، وما فطره عليه من شهوة مباحة كنكاح وشهوة غير محرَّمة، فهذه الأوصاف لا ينافي وجودها وجود الخصوصية، فقد قال تعالى في الرسل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: الآية 20]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: الآية 38] نعم وصف البشرية في حق أهل الخصوصية ليس هو كغيرهم لأن أهل الخصوصية أمرهم كله بالله، انقلبت حظوظهم حقوقاً بخلاف غيرهم، أنفسهم غالبة عليهم

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فتقلباتهم كلها في حظوظ أنفسهم.

فإذا تقرر هذا علمت أنه لا يلزم من ثبوت الخصوصية وهي الولاية والمعرفة أو الحرية، ومعناها واحد عدم وصف البشرية، فالخصوصية محلها البواطن ووصف البشرية محلها الظواهر، ولذلك اختفت الأولياء والأنبياء والرسل عن الناس لظهور أوصاف البشرية عليهم فكيف تعرف رجلاً يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وينام ويتزوج النساء فلا يعرفهم إلَّا من أراد الله سعادته.

وما وقع الإنكار على الأنبياء والأولياء إلَّا لاعتقادهم أن أوصاف البشرية تنافي ثبوت الخصوصية، فقد قال الكفار في حقه عليه السلام: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفُرقان: الآية 7] فرد الله تعالى عليهم بعدم تنافيهما فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الفُرقان: الآية 20] الآية، فهذه الأوصاف التي ذكرنا لا ينفك الطبع البشري عنها، وهي موجودة مع خصوصية النبوة والولاية.

وأما الأوصاف التي هي مذمومة كالحسد والكبر والبغض والعجب والرياء والغضب والقلق وخوف الفقر وهم الرزق والتدبير والاختيار وغير ذلك، فهذه لا بد من التطهير منها في خصوصية النبوَّة والولاية، وقد تقدم قوله: اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً.

أما في حق النبي فتطهيره منها واجب لأنه معصوم من جميع النقائص، وأما في حق الولي فليس بواجب لكنه محفوظ، فقد يصدر منه شيء من هذه الأوصاف المذمومة على سبيل الهفوة والزلّة ولا تنافي وجود خصوصيته لكنه لا يصر عليها ولا يدوم فيها، فقد يصدر من الولي الغضب مثلاً والقلق والتدبير والاختيار وغير ذلك لكنه كالريح يضرب ويسرح.

قال في النصيحة الكافية: وقد تكون للولي هفوة وهفوات وزلّة وزلات ولكن لا يصر عليها.

وقيل للجنيد: أيزني العارف، فسكت ثم قال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً. قال ابن عطاء الله: ليت شعري لو قيل له أتكون همة العارف مع غير الله لقال لا اهـ.

ثم ضرب مثلاً لنور الخصوصية مع ظلمة البشرية الحسية، فقال:

239 ـ (إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليست منه، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك، فالنهار ليس منك إليك ولكنه وارد عليك)

قلت: مثل نور الربوبية الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه وستره بظهور

البشرية كمثل نور الشمس إذا أشرق على الآفاق، وهو الفضاء الذي بين السماء والأرض فإن الفضاء قبل ظهور الشمس مظلم ليس فيه نور، فإذا أشرقت عليه الشمس رجع نوراً صافياً، فنور أنيته ليست من ذاته وإنما هي من الشمس، كذلك نور الربوبية هو مستودع في باطن البشرية، فإذا أراد الله تعالى أن يظهر خصوصية عبده أشرق ذلك النور على ظاهر بشريته، فتستولي روحانيته على بشريته فلا يبقى للبشرية أثر فتصير البشرية كلها نوراً، فنور البشرية ليس منها ولكنه وارد عليها، فتارة تشرق شموس أوصافه وهي الوجود والقدم والبقاء وسائر أوصافه السلبية والوجودية والمعاني والمعنوية على ليل وجودك الظلماني الكثيف. فتذهب أوصافك الحادثة العدمية بظهور أوصافه القديمة الأزلية فيتحقق الوصال ويذهب الانفصال، وتارة يقبض ذلك النور ويغيبه عنك ويرده إلى باطنك فترجع إلى شهود عبوديتك ويردك إلى حدودك، وهذا حال الوارد الإلٰهي إذا فاض على الإنسان غيَّبه عن نفسه واقتطعه عن حسه فلا يرى إلَّا أوصاف ربه وينكر وجود نفسه من أصله، فإذا سكن الوارد رجع إلى شهود نفسه بربه، ورجع ذلك النور إلى باطنه فيكون باطنه نوراً على الدوام، وظاهره تارة يغلب عليه ذلك النور وتارة تغلب عليه الظلمة أي العبودية، فنور الوارد ليس من الإنسان من حيث بشريته ولكنه وارد عليه من حيث روحانيته، كما أن نور الأفق ليس هو من ذات الأفق لكنه وارد عليه من إشراق شمس النهار عليه.

وها هنا مثال آخر وهو الحديد والفحمة إذا جعلتهما في النار ونفخت عليهما، فإنهما يرجعان من جنس النار وتكسو النار الحديد كله والفحمة كلها، فإذا بردا رجع الحديد حديداً والفحمة فحمة، كذلك البشرية إذا استولت عليها الروحانية صارت كلها روحانية معنوية، فلا ترى إلَّا المعاني ولا تحس إلَّا إياها.

واعلم أن الناس في هذا النور على ثلاثة أقسام: قسم نوره حده الباطن ولم يصعد من شعاعه شيء لظاهره وهم العوام. وقسم استولى نورهم على ظاهرهم وباطنهم وهم المجذوبون في حضرة الله. وقسم امتلأ باطنهم نوراً وصعد شعاعه على ظاهرهم فاستولى على الظاهر على الدوام، وهم السالكون بعد الجذب الراسخون في المعرفة، والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ذكر الطريقة الموصلة إلى الخصوصية فقال:

240 ـ (دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه).

قلت: هذه طريقة الترقي، فوجود الأثر يدل على وجود القادر والمريد والعليم والحق مثلاً، فالقادر يدل على قيام القدرة به بحيث لا تفارقه إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر، وهنا افترق أهل الظاهر من أهل الباطن، فأهل الظاهر أثبتوا من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات ولم يقدروا على شهود الذات، غلبهم الحس عن شهود المعنى والوهم عن ثبوت العلم، وشهود الحكمة عن شهود القدرة.

وأهل الباطن لما فرغوا قلوبهم من الأغيار وباعوا نفوسهم للواحد القهار، فتح الله عين بصيرتهم وأطلعهم على مكنون سره فأفردوا الحق بالوجود وانتفى عن بصيرتهم نظرهم كل موجود إذ محال أن يفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها، فلزم من وجود الصفات وجود الذات وهذا هو سر الخصوصية الذي خص الله بها أولياءه ولم يشاركهم فيه غيرهم، بيَّنَ أهل الجذب من أهل السلوك وأهل التدلي من أهل الترقي، فقال:

240 ـ (فأهل الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ثم يردهم إلى شهود صفاته ثم يردهم إلى التعلق بأسمائه ثم يردهم إلى شهود آثاره، والسالكون على عكس هذا فنهاية السالكين بداية المجذوبين لكن لا بمعنى واحد فربما التقيا في الطريق، هذا في ترقّيه وهذا في تدليه)

قلت: عباد الله المخصوصين بسر الخصوصية في سيرهم على قسمين: منهم من يبدأ بالجذب ثم يرد إلى السلوك، ومنهم من يبدأ بالسلوك ثم يدركه الجذب ثم يصحو.

فأرباب الجذب يكشف لهم أولاً من غير مجاهدة عن شهود الذات فيسكر بشهود نورها، فينكر الواسطة أصلاً وينكر الشرائع إلَّا أنه مغلوب، ثم يرد من شهود الذات إلى شهود الصفات، فلا يرى إلَّا صفات الحق تكثفت وظهرت وينكر الأثر، ثم إذا شهد الصفات تعلق بالأسماء اللازمة لها، ثم يرجع إلى شهود آثاره فيقوم بأحكام عبوديته.

والسالكون على عكس هذا فيستدلون بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود

أسمائه على وجود صفاته، وبوجود صفاته على وجود ذاته كما تقدم. فنهاية السالكين وهي شهود الذات بداية المجذوبين. ونهاية المجذوبين، وهي شهود الأثر بداية السالكين، ولكن ليس بمعنى واحد بل أحدهما نازل يشهد الأشياء بالله، والآخر صاعد يشهد الأشياء بنفسه لله، فربما التقيا في الطريق كشهود الصفات والتعلق بالأسماء مثلاً هذا في ترقيه وهذا في تدليه، فإذا وصلا معاً اجتمعا لأن المرتقي يرجع للأثر الذي انتهى إليه المجذوب بعد شهود الذات، ويكون رجوعه بالله فيجتمعان معاً في مقام البقاء، والمترقي أكمل من المتدلي في التربية لأنه قاسى شدائد الطريق وأهوالها، بخلاف المجذوب فإنه كان محمولاً وهو نادر إذ الغالب على الناس السلوك ثم الجذب.

والطريق الشاذلية الغالب عليها الجمع بين الجذب والسلوك من أول قدم، ومعنى الجذب هو اختطاف الروح من شهود الكون إلى شهود المكوِّن.

واعلم أن الناس في الجملة على أربعة أقسام: سالكون فقط، مجذوبون فقط، سالكون ثم مجذوبون، ومجذوبون ثم سالكون. فالأولان لا يصلحان للتربية والإرشاد، أما السالك فقط فلأنه ظاهري محض فلا نور له في باطنه يجذب به. وأما المجذوب فقط فلا سلوك عنده يسير به، والآخران يصلحان للتربية مع أفضلية الأول.

واعلم أيضاً أن حقيقة السلوك الأول هو شهود خلق بلا حق، وحقيقة الجذب هو شهود حق بلا خلق، وحقيقة السلوك الثاني هو شهود خلق بحق والله تعالى أعلم.

* * *

ثم ما يدركه الواصل من أنوار الشهود والعيان ليست هي حسية يدركها كل إنسان، وإنما هي معاني قلبية وأسرار باطنية ملكوتية كما أبان ذلك بقوله:

241 ـ (لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلاَّ في غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء إلاَّ في شهادة الملك)

قلت: **اعلم** أن الناس كلهم عندهم النور في قلوبهم بدليل قوله ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة»**[1] أي على أصل النشأة الأولية وهي القبضة النورانية، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: **الآية 35**]. قال أهل تفسير الظاهر: أي نور أهل السماوات والأرض وهو عام في كل موجود فيهما فقد تحقق أن النور سار في

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (1391) [1/ 465] وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم (128) [1/ 336] ورواه غيرهما.

الجميع، فمن الناس من حجب عن هذا النور وعمي عنه، وهو من وقف مع ظاهر الملك وهو قشر الكون وحسه الظاهر، ويسمى عالم الأشباح ولم ينفذ إلى باطنه وهو الملكوت ويسمى عالم الأرواح، فهذا محجوب عن نوره الباطني لا يرى إلَّا النور الحسي لأنه مسجون في سجن الأكوان محصور في ظلمة الحس والوهم.

ومن الناس من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطني فيه ولم يقف مع القشر بل نفذ إلى شهود اللب وهو نور الملكوت وأسرار الجبروت، وهو الذي أشار إليه في المباحث بقوله:

مهما تعدّيتَ عنِ الأجسامِ أبصرتَ نورَ الحقِّ ذا ابتسامِ

وهذا النور أيضاً هو الذي تراه قلوب العارفين دون الغافلين كما أشار إليه الحلاج بقوله:

قلوبُ العارفينَ لها عيونٌ ترَى ما لا يُرَى للنَّاظرينَ

فإذا تحققت هذا علمت أنه لا يعلم بالبناء للمفعول، أي لا يظهر قدر أنوار القلوب الغيبية وشرفها وأنوار الأسرار القدسية وكمالها إلَّا في غيب الملكوت والجبروت، فأنوار القلوب لا يعلم قدرها إلَّا في غيب الملكوت وهي الأنوار المتدفقة من بحار الجبروت. فمن لم ينفذ إلى شهود الملكوت لم يعلم قدرها بل لم يعرفها أصلاً، وأنوار الأسرار لا يعلم قدرها إلَّا في غيب الجبروت، وهي الأنوار الأصلية الأزلية وهو ما لم يدخل عالم التكوين، فمن كان محجوباً في عالم الملك لا يعلم قدر أنوار الملكوت ولا يحس بها بل ينكرها كما شهدناه ممن يدعي الخصوصية وهو بعيد منها. ومن كان واقفاً مع أنوار الملكوت لا يعلم قدر أنوار الجبروت، ومن نفذ منهما شهد الجميع وكما لا تظهر الأنوار الغيبية إلَّا في غيب الملكوت أو الجبروت كذلك لا تظهر أنوار الملك وهي الأنوار الحسية إلَّا في عالم الشهادة وهو عالم الحس، ويسمى عالم الملك.

والحاصل أن أنوار القلوب هي أنوار الملكوت، وأنوار الأسرار هي أنوار الجبروت وهي غيبية لا يعلم قدرها إلَّا من ترقى إلى عالم الملكوت أو الجبروت، فحينئذ يدركها ويعلم قدرها علماً وحالاً والله تعالى أعلم.

تنبيه: قد رأيت كثيراً ممن شرح هذا الكتاب غلط في تفسير الملك والملكوت والجبروت فزعموا أن الملك هو عالم الدنيا، والملكوت هو عالم الآخرة، والجبروت ما لا يعلمه أحد، وهذا غلط إذ لو كان كما زعموا ما صح

الترقي من ملك إلى ملكوت وإلى جبروت إذ يلزم على تفسيرهم أن الملك لا يرجع ملكوتاً والملكوت لا يصير جبروتاً وهو غير سديد إذ قد نص كثير من المحققين أن أهل الملكوت لا يرون الملك أصلاً وأهل الجبروت يحجبون عن الملكوت، هكذا ذكره النقشبندي في شرح الهائية.

والصواب أن المحل واحد، وهو الوجود الأصلي والفرعي، فما لم يدخل عالم التكوين من عظمة الباري تعالى فهو عالم الجبروت، وما دخل التكوين فمن ألحقه بأصله وجمع فيه فهو في حقه ملكوت، ومن فرقه وحجب به فهو في حقه ملك.

فتحصل أن المحل واحد والأمر إنما هو اعتباري تختلف التسمية باختلاف النظرة وتختلف النظرة باختلاف الترقي في المعرفة، فمن وقف مع الكون كان في حقه ملكاً ومن نفذ إلى شهود النور الفائض من الجبروت إلَّا أنه رآه كثيفاً نورانياً ولم يضمه إلى أصله في اللطافة سمي في حقه ملكوتاً، ومن ضمه إلى أصله ولم يفرق بين النور الكثيف سمي جبروتاً. وقد حققت ذلك في قصيدتي التائية وتقدم بعضها، وكذلك في شرح التصلية المشيشية، والله تعالى أعلم.

* * *

ولا بد لمن أراد أن تكشف له هذه الأنوار ويدرك هذه المقامات من وجود أعمال ومقاسات أحوال، فإذا عمل عملاً وذاق حلاوته فليستبشر بالفتح الذي هو جزاء السائرين، وهو الذي أشار إليه بقوله:

242 ـ (وجدان ثمرات الطاعة عاجلاً وبشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً)

قلت: من وجد في بدايته حلاوة مجاهدته فليستبشر بوجود مشاهدته، ومن لم يجدها فلا ييأس من روح الله فإن لله نفحات تهب على القلوب فتصبح عند علَّام الغيوب، أو تقول: من وجد ثمرة عمله في الدنيا فليستبشر بوجود الجزاء آجلاً في الآخرة. وقد تقدم هذا للشيخ مراراً.

* * *

وهذا الجزاء الذي يستبشر به لا ينبغي قصده ولا طلبه لئلا يكون ذلك قدحاً في الإخلاص كما أبان ذلك بقوله:

243 ـ (كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك، أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك)

قلت: العبد إنما هو آلة مسخرة، فإذا سخره ربّه تحرك وإلا فلا، وإذا كان

كذلك فلا نسبة لك في العمل إلَّا ظهوره عليك حكمة، فكيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك وإذا منَّ عليك بصدق العبودية وهو سر الإخلاص فكيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك.

وعبر في جهة العمل بالصدقة التي تكون للمحتاجين، وفي جهة الصدق بالهدية التي تكون للمحبوبين، لأن العمل الناس مشتركون فيه إذ جل الناس في العمل والإخلاص قليل وأهله أقل من القليل، وهم الخواص أو خواص الخواص.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه في قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[1]: **الأنبياء لأممهم عطية ونبينا لنا هدية، والعطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين.**

وقال الواسطي رضي الله عنه: مطالبة الأعواض على الطاعة من نسيان الفضل.

وقال أبو العباس بن عطاء: أقرب الأشياء إلى مقت الله رؤية النفس وأفعالها، وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها اهـ.

* * *

وأعظم الأعمال التي توجد ثمرتها عاجلاً وآجلاً هو ذكر الله، وثمرته هو النور الذي يشرق في القلب فيضمحل به كل باطل. والناس في هذا النور على قسمين: قسم سكن النور قلوبهم فهم ذاكرون على الدوام، وقسم يطلبون وجوده بأذكارهم، وإلى هذا أشار بقوله:

244 ـ (قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم)

قلت: أما القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم فهم الواصلون. وأما الذين تسبق أذكارهم أنوارهم فهم السائرون. الأولون لهم أنوار المواجهة لا تفارقهم فهم ذاكرون على الدوام فإذا أرادوا أن يذكروا باللسان سبقت إلى قلوبهم الأنوار فكانت هي الحاملة لهم على وجود الأذكار. وأما الآخرون فلهم أنوار التوجه وهم طالبون لها محتاجون إليها فهم يجاهدون أنفسهم في طلب تلك الأنوار.

* * *

ثم بيَّن حال الفريقين، فقال:

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان، حديث رقم (100) [1/ 91] والطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (2981) [3/ 223] ورواه غيرهما

245 - (ذاكر ذكر ليستنير قلبه، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً)

قلت: فالذي ذكر ليستنير قلبه هو الذي يسبق ذكره نوره فهو من القوم الذين تسبق أذكارَهم أنوارُهم، والذي استنار قلبه فكان ذاكراً هو الذي يسبق نورُه ذكره فهو من القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم، وهم العارفون بالله لا تجدهم إلَّا في حضرة الله بين ذكر أو فكرة أو نظرة أو إرشاد إلى الحضرة، فقلوبهم ممتلئة بالأنوار وأرواحهم دائماً في حضرة الأسرار.

* * *

ثم إن وجود الذكر في الظاهر عنوان وجود الشهود في الباطن إذ لولا وارد ما كان ورد، وهو الذي أبانه بقوله:

246 - (ما كان ظاهر ذكر إلاَّ عن باطن شهود أو فكر)

قلت: إذا كان الظاهر مشتغلاً بذكر الله فهو علامة وجود محبة الله في الباطن، إذ من أحب شيئاً أكثر من ذكره، ولا تكون المحبة إلَّا عن ذوق ومعرفة، فلا يكون ظاهر ذكر إلَّا عن باطن شهود أي شهود كان وإن كان لا يشعر بشهوده، فما ذكرت الروح حتى فنيت ولا فنيت حتى شهدت فكل من فني في ذكر الله فإن روحه شهدت جمال الحضرة أو تفكرت في جمال المذكور وبهائه أو في حسن ثوابه وجزائه.

فتحصل أن وجود الذكر في الظاهر ناشىء إما عن شهود في الباطن، وهو حال المريدين أو العارفين، أو ناشىء عن فكرة وهو حال الطالبين للجزاء. فإن الناس في الذكر على ثلاثة أقسام: قسم يطلبون الأجور، وقسم يطلبون الحضور، وقسم وصلوا ورفعوا الستور.

* * *

ثم بيَّن وجه كون ذكر الظاهر ناشئاً عن شهود الباطن، فقال:

247 - (أشهدك من قبل أن أستشهدك فنطقت بألوهيته الظواهر وتحققت بأحديته القلوب والسرائر)

قلت: الروح في أصل ظهورها في غاية الطهارة والصفاء، فحين أبرزها الله تعالى في عالم الذر كانت عالمة دراكة فأشهدها الله تعالى عظمته وجلاله وبهاءه وكمال وحدانيته، فقال لها حينئذ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية 172] فكلها أقرّت بالربوبية فلما ركبها في هذا القالب فمنها من أقرت بذلك العهد، ومنها من جهلت وأنكرت فقد أشهدك الحق تعالى حين كنت في عالم الأرواح ربوبيته

ووحدانيته فعلمتها وحققتها من قبل أن يستشهدك، أي يطلب منك تلك الشهادة، فحين طلبها منك وجد روحك عالمة، فنطقت بإلٰهيته التي عرفتها في عالم الذر ألسنة الظواهر، وتحققت بأحديته التي شهدتها قبل التركيب القلوب والسرائر فكل ما ظهر من الإقرار بالربوبية في عالم الشهادة فهو فرع الإشهاد المتقدم في عالم الغيب، وكل ما ظهر من التحقق بالأحدية للقلوب فهو فرع العلم السابق في علم الغيوب، فالواجب على العبد أن يكون جامعاً بين إقرار الظاهر وتوحيد الباطن، فالأول فرق والثاني جمع، وإلى هذا المعنى أشار الجنيد رضي الله عنه بقوله:

قدْ تحقَّقتُ بسري حين ناجاك لساني فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان

إنْ يكُنْ غيبُكَ التعظيمَ عن لحظِ عيانِي فلقدْ صيَّركَ الوجدُ مِنَ الأحشاءِ دانِي

* * *

ثم بيَّن كرامات الذكر المتقدم فقال:

248 - (أكرمك كرامات ثلاثاً، جعلك ذاكراً له ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك، وجعلك مذكوراً به إذ حقق نسبته لديك، وجعلك مذكوراً عنده فتمم نعمته عليك)

قلت: لقد أكرمك الحق تعالى أيها الإنسان كرامات كثيرة وأنعم عليك نعماً غزيرة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية 34] وأجل الكرامات وأعظمها كرامات الذكر. وفي الحديث: «**ما من يوم إلَّا ولله فيه نعم ينعم الله بها على عباده وما أنعم الله على عبد أفضل من أن يلهمه ذكره**»[1]، وكما قال عليه السلام. ذكره المنذري[2].

ومرجع هذه الكرامات إلى ثلاثة أمور:

الكرامة الأولى: جعلك ذاكراً له ومن أين لعبد ذليل أن يذكر سيداً جليلاً، ولولا فضله عليك لم تكن أهلاً لجريان ذكره على لسانك.

الكرامة الثانية: جعلك مذكوراً به حيث ذكرك بنفسه حين ذكرته، قال تعالى:

(1) رواه الطبراني في الدعاء، باب ما جاء في فضل ذكر الله تعالى، حديث رقم (1857) [1/ 520] ونصه: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم ولا ليلة إلَّا لله عز وجل من يمن به على عباده وصدقة وما من الله على أحد من عباده أفضل من أن يلهمه ذكره». ورواه غيره.

(2) في الترغيب والترهيب، كتاب النوافل، الترغيب في المحافظة على ثنتي عشرة ركعة من السُّنَّة في اليوم والليلة، حديث رقم (1006) [1/ 266].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 152] وإذا كنت مذكوراً بسبب ذكره لك فقد ثبتت خصوصيتك عنده فأي كرامة أعظم من هذه، فقد حقق نسبته لديك حيث أثبت لك الخصوصية، وقال لك: يا وليي ويا صفيي، فمن أين أنت وهذه النسبة لولا أن الله تفضَّل عليك.

قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: الآية 45] أي ولذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لله.

الكرامة الثالثة: حيث جعلك مذكوراً عنده في الملائكة المقربين. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه، وإن تقرَّب مني شبراً تقرَّبت منه ذراعاً، وإن تقرَّب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1] اهـ.

وفي حديث آخر: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله فيه إلَّا غشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

وكان يحيى بن معاذ رضي الله عنه يقول: يا غفول، يا جهول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لمت طرباً اهـ.

* * *

فإذا عمرت أوقاتك بذكر الله فعمرك طويل، وإن قلَّت أيامه كما أبان ذلك بقوله:

249 ـ (رب عمر اتسعت آماده وقلَّت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده)

قلت: رب هنا للتكثير في الموضعين، فكثير من الأعمار اتسعت آماده جمع أمد، وهو الزمان، أي كثير من الناس طالت أعمارهم واتسعت أزمنتهم وقلَّت أمدادهم أي

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب مناقب علي بن أبي طالب. . .، حديث رقم (3498) [3/ 1357]. وابن حبان في صحيحه، ذكر فتح الله جل وعلا خيبر على يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (6932) [15/ 377] ورواه غيرهما. ورواه الحاكم في المستدرك بلفظ: «يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس (264 ذكر أبي رافع مولى رسول الله ﷺ رضي الله عنه) حديث رقم (6537) [3/ 690] ورواه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي رافع، حديث رقم (994) [1/ 332] ورواه غيرهما.

فوائدهم، فلم يحصلوا على شيء حيث اشتغلوا بالبطالة والتقصير حتى مضت تلك الأيام كطيف المنام وأضغاث أحلام، وكثير من الأعمار قلّت آمادهم، أي أزمنتهم وكثرت أمدادهم أي فوائدهم فأدركوا من فوائد العلم والأعمال والمعارف والأسرار في زمن قليل ما لم يدركه غيرهم في الزمن الكثير. ومثال ذلك أهل الجذب مع السلوك وأهل السلوك وحده فإن أهل الجذب الموافقين للسالكين في الأعمال يطوون في ساعة واحدة من مسافة القرب ما لم يدركه أهل السلوك في سنين، وذلك أهل الفكرة مع أهل الخدمة فكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة، وفي ذلك قال الشاعر:

كلُّ وقتٍ مِنْ حبيبي قدرُهُ كألفِ حَجَّه

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أوقاتنا كلها ليلة القدر. أي كل وقت عندنا أفضل من ألف شهر عند غيرنا. قال القاضي أبو بكر بن العربي المعافري تلميذ الغزالي: لمت الشيخ أبا حامد على انقطاعه واعتزاله عن الخلق وقطع انتفاعهم بما وهبه الله له من العلم الظاهر والباطن. فقال متمثلاً:

قد تيممتُ بالصعيدِ زماناً وأنا الآنَ قدْ ظفرتُ بالماءِ
مَنْ سرى مطبقَ الجفونِ وأضحى فاتحاً لا يردُهَا للعماءِ

أي من كان يمشي مسدود العينين وأضحى، أي صار، فاتحاً لعينيه لا يرجع للعماء. قلت: يا سيدي الاشتغال بالعلم نفع عام وهو من أفضل العبادات، وقد قال ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1]. فقال: لما طلع قمر السعادة في أفق الإرادة وأشرقت شمس الوصول في أرض الأصول:

تركتُ هوَى سعدَى وليلَى بمعزلٍ وصرتُ إلى علياءَ أولَ منزلِ
فنادتني الأكوانُ مِنْ كلّ جانبٍ ألا أيُّها الساعِي رويدَكَ فامهلِ
غزلتُ لهم غزلاً رقيقاً فلم أجدْ لغزلي نساجاً فكسرتُ مِغْزَلِي

فانظر من أطلعه الله على بركة عمره وأراه ثمرة وقته، كيف اختار الآكد فالآكد والأولى فالأولى ليدرك ما تلمحه من الفوائد ويحظى بالخصائص والزوائد اهـ.

قال الشطيبي رحمه الله: قال أحمد بن أبي الحواري لأبي سليمان الداراني

(1) رواه أبو يعلى في مسنده من مسند أبي سعيد الخدري، حديث رقم (1252) [2/ 444] وأبو نعيم في حلية الأولياء، شعبة بن الحجاج، [7/ 205].

رضي الله عنهما: قد غبطت بني إسرائيل، قال: بأي شيء، قلت: بثمانمائة عام حتى يصيروا كالشنان البالية وكالحنايا والأوتار. فقلت: ما ظننت إلّا وقد جئت بشيء، والله ما يريد الله منا أن تيبس جلودنا على عظامنا وما يريد منا إلّا صدق النية فيما عنده. هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما ناله الآخر في أعماره الطويلة اهـ.

وقال في القوت[1]: فإن البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك في عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في السنة ما يرتفع له في عشرين سنة، وللخصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات وتدارك لما فات عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات، فكل ذرة من ذكر تسبيح أو تهليل أو حمد أو تدبر وتبصرة، أو تفكر وتذكرة لمشاهدة قرب ووجد برب ونظرة إلى حبيب ودنو من قريب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين الذين هم لنفوسهم واجدون وللخلق مشاهدون ومثال العارفين فيما ذكرناه من فنائهم بشهادتهم ورعايتهم لأمانتهم وعهدهم في وقت قربهم وحضورهم مثل العامل في ليلة القدر، العمل فيها لمن وافقها خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر اهـ. منه[2]

* * *

فالبركة في العمر هي إدراك الإمداد العظيمة في الآماد القليلة كما تقدم وكما بيَّنه بقوله:

250 ـ (من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمان من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة)

قلت: ليست البركة في العمر بكثرة أيامه وطول أزمانه، وإنما البركة في العمر أن تصحبه العناية وتهب عليه ريح الهداية، فيدرك في يسير من الزمان من منن الله تعالى، أي من علومه ومعارفه وأسراره ما لا يدخل تحت دوائر العبارة لأن ما أدركه أوسع من ضيق العبارة، إذ قال تعالى[3]: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[4]. فقد يدرك العارف من دقائق الأسرار ما تعجز عنه عبارة اللسان كل ذلك في أقل زمان. وغالب هذا يحصل من ملاقاة الرجال

---

(1) كتاب قوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي وقد سبقت الإشارة إليه.
(2) منه: أي من كتاب قوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي رحمه الله تعالى.
(3) في الحديث القدسي.
(4) هذا الحديث سبق تخريجه.

وصحبتهم، فإن المدد الذي يحصل للإنسان في ساعة واحدة معهم لا يحصل في أزمنة طويلة مع غيرهم ولو كثرت صلاتهم وصيامهم، إذ ليس العبرة بكثرة الأوراد إنما العبرة بكثرة الأمداد: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أحوالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[1]. ذكره[1] في الجامع[1].

والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، والعمل مع المعرفة ليس كالعمل مع الجهل، وذلك معلوم.

قال الشيخ الحضرمي في بعض وصاياه: من كان يستمد من محبرة الجمع فهو يكتب ما يكون وما لا يكون «طويل طويل طويل. قصير قصير قصير. شيء شيء شيء. ما شيء ما شيء ما شيء. عدم عدم عدم. وجود وجود وجود» اهـ. فالمعنى طويل طويل، والحس قصير قصير، والموجود القديم شيء ثابت وما سواه ليس بشيء، والسوى عدم والواحد القهار وجود، فالذي يكتب من محبرة الجمع أي يستمد من حضرة الجمع يكتب الأشياء كلها ويستمد من الأشياء كلها لمعرفته في الأشياء كلها كانت قصيرة أو طويلة وجودية أو عدمية وبالله التوفيق.

* * *

وسبب البركة في العمر هو التفرغ من الشواغل والشواغب، فمن كثرت شواغله وشواغبه لا بركة له في عمره لأنه منع من تصريفه في طاعة مولاه بمتابعة شهواته وتحصيل مناه. ومن تفرَّغ من الشواغل ولم يقبل على مولاه فهو مخذول مصروف عن طريق استقامته وهداه كما أبان ذلك بقوله:

251 - (الخذلان كل الخذلان أن تتفرَّغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه)

قلت: إذا قلَّت شواغلك في الظاهر وعوائقك في الباطن ثم لم تتوجه إليه في ظاهرك ولم ترحل إليه في باطنك، فهو علامة غاية الخذلان الكبير، لأن جل الناس ما حبسهم عن التوجه إلى الله إلَّا كثرة أشغالهم الحسية فاشتغلت جوارحهم بخدمة الدنيا في الليالي والأيام والشهور والأعوام حتى انقرض العمر كله في البطالة والتقصير. فهذا هو الخذلان الكبير.

---

(1) يقصد الطبراني في الجامع الصغير أو الكبير أو المتوسط. والحديث رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم وخذله...، حديث رقم (2564) [4/ 1986] ونصه: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». والحديث رواه غير مسلم أيضاً.

ومن الناس من قلَّت شواغلهم الظاهرة لوجود من قام لهم بها لكن كثرت علائقهم في الباطن لكثرة ما تعلق بهم من الشواغب، فهم مغرقون في التدبير والاختيار والاهتمام بأمور من تعلق بهم من الأنام لا سيما من كان له جاه ورياسة وخطة أو سياسة، فهذا باعتبار العادة بعيد من الإقبال على مولاه إلَّا إن سبقت له سابقة عناية فتجره إلى رحمة ربه ورضاه.

والحاصل أن الخير كله في التخفيف من الشواغل والعلائق، فمن تفرَّغ منهما فهو قريب من الحضرة. وأما من كثرت شواغله وعوائقه فأمره بعيد لأن فكرته مشغولة بالعلائق والمخاطف فمهما همَّ بالسير جذبته المخاطف إليها وبقي مرهوناً معها، وهو الذي أشار إليه بقوله:

* * *

252 ـ (الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار)

فمن لا تفرغ له لا فكرة له، ومن لا فكرة له لا سير له، ومن لا سير له لا وصول له. فالفكرة هي سير القلب إلى حضرة الرب وذلك السير في ميادين الأغيار، أي في مجال شهود الأغيار ليستدل بها على وجود الأنوار، فهذه فكرة أهل الحجاب. وفكرة أهل الشهود سير الروح في ميادين الأنوار أو سير السر في ميادين الأسرار. فتكلم الشيخ على بداية الفكرة ولم يتكلم على نهايتها ولو تكلم عليهما معاً لكان أحسن كما فعل فيما يأتي حيث قال: الفكرة فكرتان إلخ.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: الفكرة انبعاث القوة الإدراكية في عالم الغيب والشهادة ليدرك حقيقة الأشياء على ما هي عليه، ومن وجد ذلك فهو عارف اهـ. وقيل: إنما عبر الشيخ بالأغيار وهي المخلوقات لقوله عليه السلام وقد رأى قوماً يتفكرون فقال لهم: **«تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله حق قدره»**[1] اهـ.

قلت: إنما نهى عليه السلام عن التفكر في كنه الذات وإدراك الحقيقة، وأما التفكر في عظمة الذات وقدمها وبقائها ووحدانيتها وتجلياتها في ظهورها وبطونها فهذا لا ينهى عنه لأنه سبب المعرفة مع العجز عن إدراك الكنه.

---

(1) رواه أبو الشيخ ابن حبان الأصبهاني في العظمة، باب الأمر بالتفكر في آيات الله عز وجل، حديث رقم (5) [1/ 9] وخرجه السيوطي في الدر المنثور، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النَّجم: الآية 42] [7/ 662] ونص الرواية هو: «عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لن تقدرون قدره».

والتحقيق أن أهل الحجاب لا يحل لهم التفكر إلَّا في المصنوعات، وأما أهل العرفان فلا يتفكرون إلَّا في عظمة الذات أي في عظمة الصانع وتوحيده وقدمه وبقائه وظهوره واحتجابه، وفي الغيبة عن الحس وشهود المعنى أو في الغيبة عن الكون بشهود المكوِّن أو في الغيبة عن الظلمة بشهود النور.

* * *

وهو سراج القلب الذي أشار إليه بقوله:

253 ـ (الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له)

قلت: الفكرة في عظمة الباري وتوحيده نور، فإذا كان القلب مشغولاً بالفكرة في عظمة الحق فهو منور بنور الحق، وإذا خلا من الفكرة في الحق دخلته الفكرة في الأغيار وهي ظلمة ولا تجتمع الظلمة والنور أبداً، فالفكرة سراج القلب فإذا ذهبت الفكرة في الحق انطفأ نوره بدخول ظلمة الكون فلا إضاءة له، ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله في ميدان الفكرة على بساط التوحيد اهـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أربعة من حازهن فهو من الصدِّيقين المقرَّبين، ومن حاز منهن ثلاثة فهو من أولياء الله المقربين، ومن حاز منهن اثنين فهو من الشهداء المؤمنين، ومن حاز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين.

أولها: الذكر وبساطه العمل الصالح وثمرته النور.

الثاني: الفكرة، وبساطه الصبر وثمرته العلم.

الثالث: الفقر، وبساطه الشكر وثمرته المزيد منه.

الرابع: الحب، وبساطه بغض الدنيا وأهلها وثمرته الوصول إلى المحبوب.

* * *

ثم بيَّن فكرة البداية والنهاية، فقال:

254 ـ (الفكرة فكرتان، فكرة تصديق وإيمان وفكرة شهود وعيان)

قلت: فكرة أهل التصديق والإيمان هي سير القلب في ميادين الأغيار، فهم يتفكرون في المصنوعات ليتوصلوا إلى معرفة الصانع وقدرته وعلمه وحياته وغير ذلك من سائر صفاته وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البَقَرَة: الآية 3]. وفكرة أهل الشهود والعيان هي سير الروح في ميادين الأنوار قد انقلبت الأغيار في حقهم أنواراً والدلائل مدلولات والغيب شهادة، وهم الذين أطلعهم الله على سر قوله

تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: الآية 101].

ثم بيَّن حال الفريقين فقال:

254 ـ (فالأولى: لأرباب الاعتبار).

قلت: الفكرة الأولى، وهي فكرة تصديق وإيمان لأصحاب الاعتبار، وهم أهل الاستدلال يستدلون بالصنعة على الصانع، وهم السائرون إلى الله بأنوار التوجه.

254 ـ (والثانية: لأرباب الشهود والاستبصار).

قلت: الفكرة الثانية: وهي فكرة شهود وعيان هي لأرباب الشهود والاستبصار لأنهم ترقوا من شهود الدليل إلى المدلول ومن الأثر إلى المؤثر ومن الأغيار إلى شهود الأنوار ومن الفرق إلى الجمع ومن الملك إلى الملكوت فما يشهدون إلَّا أنوار الملكوت تدفقت وانصبت من بحار الجبروت فهم غرقى في بحار الأنوار مطموس عنهم وجود الآثار فإن ردوا إليه رأوه قائماً بالله ومن الله وإلى الله، فما أعظم قدرهم عند الله وفي مثلهم قال القائل:

هُمُ الرجالُ وغبنٌ أنْ يُقال لمنْ ... لم يتصف بمعاني وصفِهم رجلُ

حققنا الله بما حققهم به آمين. هذا آخر الباب الخامس والعشرين وبها ختمت الأبواب وما بقي إلَّا المراسلات والمناجاة.

[المراسلات]

[الكتاب الأول]

رسالة في السلوك إلى حضرة ملك الملوك

وحاصل المراسلات ثلاثة كتب، وجواب. فأول الكتب رسالة في السلوك إلى حضرة ملك الملوك بدايتها ونهايتها ونصها.

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه:

(أما بعد فإن البدايات مجلاة النهايات)

قلت: البدايات ما يظهر على المريد في أول دخوله من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق وهو مظهر ومجلاة للنهايات، أي يتجلى فيها ما يكون في النهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جاداً في طلب الحق باذلاً نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصراً في ذلك علمنا قصوره عما هنالك. وأنشدوا:

بقدرِ الكدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالِي وَمَنْ طلبَ العُلَى سَهِرَ اللّيالي
تريدُ العزَ ثمَّ تنامُ ليلاً يغوصُ البحرَ مَنْ طلبَ اللّئالي

وبالجملة، من رأيته صادق العزم في البداية **فاعلم** أنه من أهل العناية، ومن كان في سلوكه معتمداً على الله ومفوضاً أمره إلى الله كانت غاية سلوكه الوصول إلى الله كما نبَّه عليه بقوله:

(ومن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته)

قلت: البداية بالله هي أن لا يرى لنفسه حولاً ولا قوة لا في عمل ولا في حال ولا في مجاهدة ولا مكابدة بل ما يبرز منها من الأعمال أو من الأحوال، رآه منَّة من الله وهدية إليه فإن كان هكذا فقد صحت بالله بدايته وإليه تكون نهايته، ومما يتأكد النظر إليه في البداية تصحيح ما يفتقر إليه في سلوكه من علم الشريعة وعلم الطريقة، فالعمل بلا علم جناية والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية، وفي ذلك قيل:

إذا كنتَ ذا عملٍ ولم تك عالماً فأنت كذي رِجْلٍ وليسَ له نعلُ
وإنْ كنتَ ذا علمٍ ولم تكُ عاملاً فأنت كذي نعلٍ وليسَ له رِجْلُ
جوادُكَ مسبوقٌ إلى كلِّ غايةٍ وهلْ ذو جوادٍ ريءَ يسبقُهُ البغلُ

وقد ذيلتها ببيت تكميلاً للأقسام، فقلت:

وإنْ كنتَ ذا علمٍ وحالٍ وهمةٍ جوادُكَ سابقٌ يصحُ لهُ الوصلُ

فإذا حصل المريد ما يحتاج إليه في بدايته من إتقان طهارته وصلاته وصومه فليشتغل بطاعة ربه ويعرض عما يشغله عنه، كما أبان ذلك بقوله:

(والمشتغل به هو الذي أحببته وسارعت إليه، والمشتغل عنه هو المؤثر عليه)

قلت: أل موصولة في الموضعين، أي الذي تشتغل به في جميع أوقاتك وتصرف إليه كليتك هو الحبيب الذي تسارع إليه، وأفضل أشغالك ذكره وليكن ذكراً واحداً وقصداً واحداً تبلغ مرادك إن شاء الله، والذي تشتغل عنه، أي تغيب عنه، هو المؤثر عليه بفتح الثاء، أي هو الذي تركته وآثرت حب الله عليه.

والحاصل أن الذي تشتغل به وتقصده هو الذي أحببته وسارعت إليه والذي تغيب عنه هو الذي تركته وآثرت حب الله عليه، فلا جرم أن الله يبلغك ما تريد إن الله يرزق العبد على قدر همته، وأنشدوا:

إذا العبدُ ألقَى بينَ عينيهِ عزمَهُ وأعرَضَ عَنْ كلِّ الشواغلِ جانباً
فقدْ زالَ عنهُ العارُ بالعزمِ جالبًا عليهِ قضاءَ اللّهِ مَا كانَ جالبَاً

وقيل: إن علامة الصادق أن لا يرضى بدون الغاية أبداً مع أن الغاية لا تدرك أبداً. وقال الفضيل: من رأيتموه وكلامه حكمة وصمته فكرة ونظره عبرة فلا تهتموا منه، فإنه قد قطع عمره في عبادة وسلوكه أبداً في زيادة، ومن رأيتموه يطيل الأمل ويسيء العمل فاعلموا أن داءه عضال اهـ.

وأعظم ما يشتغل عنه المريد ويغيب عنه حب الدنيا، فإنه سم قاطع ولا يمكن السير إلى الله بصفاء القلوب مع بقاء شيء منها وقليلها ككثيرها.

روي أن بعض المريدين قام ليلاً لعبادته فلم يجد قلبه، فقال: إذا أصبحت شكوت هذه الوسوسة للشيخ. فوقف الشيطان على الشيخ وقال: إن فلاناً يريد أن يشكوني وأنا ما ظلمته، إن الدنيا بستاني وأنا أحرسها فمن أخذ مني شيئاً لا أتركه

حتى يترك ما أخذ. فلما أصبح جاء الشيخ فقال له الشيخ: جاء إبليس يشتكي بك ما الذي أخذت له، فقال: يا سيدي خلق ثوبي فطلبت إبرة لا رقعة، فقال له: اخرجها له وقل لنفسك الموت أقرب من ذلك. فطرحها فوجد قلبه. وأنشدوا:

لا تحقرنَّ ضعيفاً عندَ رؤيتِهِ إنَّ البعوضةَ تدمي مقلةَ الأسدِ
وللشرارةِ حقرٌ حينَ تنظرُهَا وربما أضرمَتْ ناراً على بلدِ

ثم هذا الذي تشتغل به وتسارع إليه هو أيضاً يطلبك ويسارع إليك، وإن تقربت إليه شبراً تقرَّب إليك ذراعاً، كما أبان ذلك بقوله:

(ومن أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه)

قلت: اليقين هو سكون القلب وطمأنينته بحيث لم يبق فيه اضطراب ولا ريب في جميع الأمور، وطلب الله لعبده من وجوه، منها أنه يطلبه بالقيام بحقوق العبودية ووظائف الربوبية، ومنها أنه يطلبه بالتوجه إليه والفرار مما سواه ويطلبه بالعكوف في حضرته على بساط الأدب والمحبة، فمن أيقن أن الله يطلبه بهذه الوجوه صدق الطلب إليه، وصدق الطلب هو إفراد القلب والقالب لجهة المطلوب بحيث لم يبق له التفات لغيره، فلم يثق إلَّا به ولا يعتمد إلَّا عليه كما أشار إلى ذلك بقوله:

(ومن علم أن الأمر كله بيده انجمع بالتوكل عليه)

قلت: قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هُود: الآية 123] فاعبده وتوكل عليه، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 154] فمن علم أن الأمور كلها بيد الله أمر الدنيا وأمر الآخرة والنفوس والقلوب لم يبق له نظر إلى سواه، وانجمع بكليته عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: الآية 3] أي كافيه، ومن كان الله كافيه ماذا يفوته.

حكي عن بعض المشايخ أنه دخل برية الحجاز مع أصحابه بغير زاد، فلما طالت عليهم المدة وأجهدهم الجوع انحرف الشيخ عن الطريق وهز شجرة فأسقطت رطباً جنياً فأكلوا منها إلَّا شاباً، فقال له الشيخ: لِمَ لَمْ تأكل، قال: إني نويت التوكل على الله ورفضت الأسباب جملة فكيف أجعلك عندي بمنزلة السبب حتى تكون النفس متشوفة لما علمت منك. ثم لم يصحبهم تصحيحاً ليقينه وإتماماً لعقده.

ومما يعين على تحقيق اليقين وصدق التوكل رفض الدنيا وأهلها، وإليه أشار بقوله:

(وأنه لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه)

قلت: قد حكم الله على هذا الوجود الظاهر أن يصير باطناً فلا بد أن تنهدم

دعائمه وهي ما يستقل به وجوده في العادة وهي هنا استعارة عن هدم وجوده وتبديله في خلق آخر. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: الآية 48]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية 88] على تأويل أهل الظاهر. ولا بد أيضاً أن تسلب كرائمه، والمراد زوال بهجته وجماله وهي زينة الدنيا التي ذكرها الله بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 14] فمن تيقن بفناء هذا الوجود وزوال هذا العرض الفاني جعل الدنيا محلاً للعبور يعبر منها إلى دار البقاء، فيصبر على شدتها ولأوائها حتى تنقضي عنه أيام الدنيا. فهذا هو العاقل الذي ذكره بقوله:

(فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى)

قلت: لأن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور، كما قال عليه السلام[1]. فالعاقل هو الذي يميِّز بين الحق والباطل والنافع والضار والحسن والقبيح، وكل ما يفنى وإن طال فهو قبيح وكل ما يبقى وإن غاب فهو مليح. قال بعضهم: يا عجباً للمطمئن للدنيا والراكن إليها والحريص عليها وهو يرى سرعة زوالها وكثرة تقلبها بأهلها ومفاجأة نوائبها. وأنشدوا:

أينَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ومَنْ ... كانوا إذا الناسُ قامُوا هيبةً جلسُوا

كأنَّهم قطُّ ما كانُوا ولا خلِقُوا ... وماتَ ذكرُهُم بينَ الورَى وَنُسُوا

حطُوا الملابسَ لمَّا ألبِسُوا حللاً ... مِنَ الترابِ علَى أجسادِهِم وكسُوا

قال مالك بن دينار: مررت بمقبرة فوجدت بهلول المجنون قاعداً بين القبور وهو عريان إلَّا ما يستر العورة، فأتيت نحوه لأستفيد من طرائفه فوجدته تارة ينظر إلى السماء فيستهل وتارة ينظر إلى الأرض فيعتبر، وتارة ينظر عن يمينه فيضحك وتارة ينظر عن شماله فيبكي. فسلمت عليه فرد عليّ السلام فسألته عما رأيت من حاله، فقال: يا مالك أرفع رأسي إلى السماء فأذكر قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ

---

(1) ونص الحديث كما رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، رقم (7863) [4/ 346] هو: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعَام: الآية 125] فقال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل الصدر انفسح، فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف قال: نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله».

﴿٢٢﴾ [الذاريات: الآية 22] فأستهل، وأنظر إلى الأرض فأذكر قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية 55] فأعتبر، وأنظر عن يميني فأذكر قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الواقعة: الآية 27] فأضحك، وأنظر عن شمالي فأذكر قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ [الواقعة: الآية 41] فأبكي. فقلت: يا بهلول إنك لحكيم أتأذن لي أن أشتري لك قميص قطن، قال: افعل. فسارعت للسوق وأتيته بقميص قطن فنظر إليه وقلبه يميناً وشمالاً ورمى به إليَّ وقال: ليس مثل هذا أريد، قلت: وكيف تريده، قال: أريد قميصاً من الإخلاص محفوظاً من الدنس والانتقاص غرس قطنه بالحقائق وحرس من جميع البوائق، سقاه جبريل بماء السلسبيل فأينع حسناً وأثمر قطناً فلقطته أيدي الكرام البررة التالين سورة الحمد والبقرة، ثم حلجته[1] أكف الوفاء بعز وصفاء من غير جفاء ثم نخلته الأوتار المتصلة بالأنوار وغزلته مغازل الحمد والثناء بالمحبة والاعتناء، جعلت الجنة لنا سجه[2] ثواباً وكان هو للابسه من النار حجاباً، فهل تقدر يا مالك على مثل هذا، فقلت: إنما يقدر عليه من خصك بوصفه وألهمك لمعاينته وكشفه. ثم قلت: يا بهلول صف لي لألبس هذا القميص، فقال: نعم، إنما يلبسه من خصه الله بأنواره وكتبه في ديوان أبراره، وأحياه بالسابقة وقواه بالعزيمة الصادقة فجسمه بين الخلق يسعى وقلبه في الملكوت يرعى فلا يتكلم بغير ذكر الله لفظة، ولا ينظر لغير الله لحظة، ثم صاح صيحة عظيمة وقام وهو يقول: إليك فر الهاربون ونحوك قصد الطالبون وببابك أناخ التائبون اهـ. اللهمَّ قد وقفنا ببابك فلا تطردنا ونحن انتسبنا لجنابك فلا تحرمنا يا أرحم الراحمين.

ثم من فرح بالباقي وأعرض عن الفاني تشرق عليه الأنوار وتلوح له الأسرار، كما أبان ذلك بقوله:

(قد أشرق نوره وظهرت تباشيره)

قلت: قد أشرق نوره بحلاوة الزهد في الدنيا والإقبال على المولى لأن حب الدنيا ظلمة، فإذا خرج من القلب دخله النور وهو حلاوة الزهد وراحة القناعة وبرد الرضى ونسيم التسليم، وظهرت تباشيره، أي مبشرات تبشره بالإقبال وروح الوصال وجنة المعارف والجمال. وأنشدوا:

---

(1) حَلَج القطن: نَدَفَهُ (لسان العرب).

(2) السَّاج: الطيلسان الأخضر أو الأسود (تاج العروس).

إذا هبَّت علينا من حماكُم نسيماتٌ تذكّرنا الوِصَالا
مبشرةً بإقبالٍ وسعدٍ وعزٍ دائمٍ دهراً طويلا
مبلغةً شذا تلكَ المعانِي مذكرةً رُبَاهَا والطُّلُولا
فذلكَ خيرُ وقتٍ بالمعنَى وأحسنُ ما تعاطَى السّلسَبيلا

فحين أشرق نوره وظهرت تباشيره أعرض عن الدنيا بالكلية، كما أبان ذلك بقوله:

(فصدف عن هذه الدار مغضياً وأعرض عنها مولياً)

قلت: الصدوف هو الإعراض والتولي، أي فأعرض هذا السائر إلى الله عن الدنيا بحذافيرها مغضياً بصره، أي مغمضاً عيني بصيرته عن النظر إلى زهرة هذه الدار وبهجتها ممتثلاً في ذلك قول المولى لرسوله المصطفى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ [طه: الآية 131] أي أصنافاً من الكفار زهرة الحياة الدنيا لتفتنهم فيه، وأعرض عن هذا قلباً وقالباً مولياً ظهره عنها مقبلاً بوجهه إلى المولى.

قال الشطيبي: واعلم أن الإعراض عن الدنيا إنما هو بالقلب، ومتى كان القلب معلقاً بها لم ينفع زوالها من اليد ولا قطع أسبابها بل المطلوب زوالها من القلب سواء كانت في اليد أو لم تكن. قال تعالى لمن أعطاه ملك الأرض بحذافيرها، سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: الآية 39] وقال فيه أيضاً: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 30] وقال تعالى لمن نزعها منه بحذافيرها سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [ص: الآية 43]. ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 44] لكن من علامة حب الآخرة ترك الدنيا، وعلامة تركها أن لا يفرح بالموجود منها ولا يتأسف على ما فاته منها، ولا يمكن ذلك إلّا بترك الانتصار للنفس ومخالفتها. وأنشدوا:

يا نفسُ في التقريبِ كلَّ مذلةٍ فتجرَّعِي ذلَّ الهَوَى بهوانِ
وإذا حَللتِ بدارِ قومٍ دارِهِم فلهُم عليكِ تعزُّزُ الأوطانِ

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه عن الدنيا، فقال: أخرجها من قلبك واجعلها في يدك فإنها لا تضرك. وقال الحضرمي رضي الله عنه: ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها إنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: لأنها كالحية وليس الشأن في قتل الحية إنما

الشأن في إمساكها حية اهـ. وقد يقصد بترك الدنيا ما هو أعظم من الدنيا كحب الجاه والرياسة وغير ذلك من الحظوظ ولذلك قيل: من أراد أن يكون منه شيء فلا يأتي منه شيء لأنه عبد لإرادته وعامل لحظ نفسه فإذا انقطعت عنه الحظوظ النفسية والشهوات الدنيوية صح قصده إلى الله وانفرد قلبه بالتوجه لمولاه.

قلت: ولأبي الأنوار التطواني قصيدة في هذا المعنى قال في بعضها:

وَمَنْ كانَ قصدُهُ في نيلِ مَا يُريدُ فمَا قامَ بالحُجَّةِ

واصلْ طريقَنَا وارفض العلل مع الصبر وارفع للهمةِ

وحسبِ المُحبُّ مشاهدةً يقيناً لم يَبْدُ مِنْ حضرةِ

وفهمُكَ عنهُ جديرٌ بأنْ يُعَوِّضَكَ المنعَ بالمنحةِ

وأبو الأنوار هذا تلميذ أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي، وقبره بتطوان[1] بالمصلى القديمة لناحية القصبة، نفعنا الله بذكره.

ثم إن من أعرض عن الدنيا لا وطن له فيها وإنما وطنه عند مولاه، كما بيَّن ذلك بقوله:

(فلم يتخذها وطناً ولا جعلها سكناً)

قلت: لأن من توطن الشيء فقد قام فيه والسائر لا مقام له إلَّا عند مولاه. وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول في شأن الدنيا: «اعبروها ولا تعمروها»[2]. وقال عليه السلام: **«ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب سافر في يوم صائف فاستظلّ تحت شجرة ثم راح عنها وتركها»**[3].

فليست الدنيا دار إقامة ولا سكناً وإنما هي قنطرة من هنا إلى هنا. فالعارف لا يكون مع غير الله قراره لأن همته كلها عند الله، كما قال:

(بل أنهض الهمَّة فيها إلى الله وصار فيها مستعيناً به في القدوم عليه)

قلت: النهوض هو القيام كأن السائر إلى الله أنهض همته وأقامها من هذا العالم يريد بها دخول عالم الملكوت. وإنهاض الهمة يكون بامتثال أمره والاستسلام لقهره والاستعانة به على سفره. وهو معنى قوله: وسار فيها مستعيناً به في القدوم عليه،

---

(1) إحدى مدن المملكة المغربية.

(2) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم [1/ 380].

(3) رواه أبو يعلى في مسنده، تابع مسند عبد الله بن مسعود، حديث رقم (5229) [9/ 148] وأحمد في المسند، عن عبد الله بن عباس، حديث رقم (2744) [1/ 301] وروى نحوه غيرهما.

والقدوم على الله هو الوصول إلى معرفته وتحقيق العلم به، ولا يصح ذلك إلّا بالتبري من الحول والقوة، ومن ظن أن اجتهاده يوصله لمرغوبه فقد جهل ومن صح اعتماده على الله وصل. ثم بيَّن السر فقال:

(فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها)

قلت: المطية في اللغة هي المركوب، واستعيرت هنا للعزم القوي، أي فما زال عزمه قوياً وروحه شائقة لا يقر قرارها، أي لا يسكن قرارها في موطن دون سيدها لأن الشوق أقلقها وخوف فوات اللحوق أزعجها، فهي في السير على الدوام كما قال: **(دائماً تسيارها)** قلت: إنما دام سيرها لقلة عوائقها، لأنها لما أعرضت عن الدنيا مولية عنها قلت عوائقها لأن الدنيا شبكة العوائق وأصل العلائق وكل من قطع عروقها من قلبه ذهبت عنه العلائق كالشيطان الذي هو أبوها، فلما طلق له بنته تركه. وكالنفس لأن قوامها الدنيا فلما ذهبت ماتت، وكالناس لأن الدنيا جيفة والناس كلابها فلما تركت لهم جيفتهم سلمت منهم فدام سيرها إلى أن وصلت إلى أصل وطنها وهي الحضرة كما بيَّنه بقوله:

(إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس)

قلت: الإناخة هي النزول وحط الحمول، ولما وصلت الروح إلى مشاهدة الأحباب وفتح لها الباب أزالت ما كان عليها من الأثقال وجلست على بساط النزاهة والكمال، وهي حضرة القدس أي التنزيه التي هي دائرة الولاية المقتضية للعبد تحققه بتقديس مولاه عن كل وصف لا يليق بذاته حتى عرف أنه أجلّ من أن يعرف وأعظم من أن يوصف فيقول: لا أحصي ثناء عليك، فيغرق في التعظيم ويتمكن في التقديس فينعكس تقديسه عليه بحيث يحفظه مولاه فلا يعصيه بل يكون مقدساً بتقديس الحق إياه، إذ قدَّس مولاه فقدسه مولاه كل على ما يليق بوصفه، ومن هذا التقديس ينسى كل شيء بمولاه فيأنس به دون ما سواه في عين إجلاله والهيبة منه تعظيماً لا فرقاً أو تذلُّلاً في عين الإذلال فافهم. قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

وبساط الأنس هو محل الفرح بقرب الحبيب ومناجاة القريب ليغيب عن كل شيء ويتأنس به في كل شيء. ثم بيَّن أسرار الحضرة، وهي ست، فقال:

(في محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة)

قلت: أما المفاتحة، فهي مفاتحة علم الغيوب، فأنت تفاتحه بطلب العطاء وهو يفاتحك بكشف الغطاء، أنت تفاتحه بطلب الزيادة وهو يفاتحك بتوالي الإفادة، أنت

تفاتحه بالترقي في المقامات وهو يفاتحك بأسرار العلوم والمكاشفات.

وأما المواجهة، فهي مواجهة أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فأنت تواجهه بأنوار التوجه وهو يواجهك بأنوار المواجهة، وهي كشف الحجاب وفتح الباب، أنت تواجهه بالطاعة وهو يواجهك بالمحبة، وأنت تواجهه بالإقبال وهو يواجهك بالوصال، أنت تواجهه باستكشاف أنوار الملكوت وهو يواجهك بكشف أسرار الجبروت.

وأما المجالسة، فهي مجالسة الأدب والهيبة، فأنت تجالسه بالأدب والحياء وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء، أنت تجالسه بمراقبته وهو يجالسك بحفظه ورعايته، أنت تجالسه بذكره وهو يجالسك ببره، أنا جليس من ذكرني، كما في الحديث[1].

وأما المحادثة، فهي المكالمة القلبية، وهي الفكرة والجولان في عظمة الجبروت، فأنت تحادثه في سرك بمناجاته وسؤاله وهو يحادثك بمزيد إحسانه ونواله، أنت تحادثه بدوام حضوره في سرك ولبك وهو يحادثك بإلقاء العلوم والأسرار والحكم في قلبك، أنت تحادثه في عالم الشهادة وهو يحادثك في عالم الغيب وفي التحقيق ما ثمَّ إلَّا عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة. وفي هذا المعنى قال الجنيد: لي أربعون سنة وإنا نحدث الحق والناس يرون أنا نحدث الخلق. وقالت رابعة العدوية رضي الله عنها:

ولقدْ جعلتكَ في الفؤادِ مُحدّثي   وأبحتُ جِسمي مَنْ أرادَ جلوسِي

فالجسمُ منّي للجليسِ مؤانسٌ   وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسِي

وأما المشاهدة، فهي كشف حجاب الحس عن نور القدس، أو تقول: كشف رداء الصون عن الكون. فأنت تشاهد ذاته في عالم ملكوته وهو يشاهدك في عالم ملكه، أنت تشاهد ربوبيته وهو يشاهد عبوديتك.

والحاصل: أن المشاهدة من العبد هي شهود العظمة بالعظمة كما قال شيخنا رضي الله عنه: ومشاهدة الرب للعبد هي إحاطة علمه بأحواله وأسراره.

وأما المطالعة، فهي مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر، فأنت تطالعه بالتوجه إليه وهو يطالعك بالترقي إليه، أنت تطالع موقع قضائه وقدره

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث.

فتتلقاها بالقبول والرضى، وهو يطالع أحوالك وسرائرك فيكشف عنك الحجب ويوسع عليك الفضاء، أنت تطالعه بالتقرب والإقبال وهو يطالعك بالمحبة والوصال فيتلقاك بالإقبال والوصال. وهذه الأسرار لا يذوقها إلَّا أهل الأذواق، فكل واحد يذوق منها على قدر شربه ووجده والله تعالى أعلم.

فإن سكنت الروح في هذه المراتب صارت الحضرة مأواها ومثواها، كما بيَّن ذلك بقوله:

(فصارت الحضرة معشش قلوبهم إليها ياوون وفيها يسكنون)

قلت: عش الطير وكره الذي يأوي إليه، فكأن أرواح العارفين طيور الحضرة تطير في الملكوت، وتسرح في الجبروت ثم تأوي إلى عش العبودية في الظاهر وعش الشهود في الباطن. فالحضرة التي هي معشش قلوب العارفين هي حضرة الذات إليها يأوون، أي يرجعون بعد الطيران إلى فضاء الملكوت وأسرار الجبروت وفيها يسكنون لا يخرجون منها أبداً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: الآية 48] ومحلها في أعلى عليين وهو عرش قلوب العارفين:

(فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين)

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: التوحيد عرش والشريعة المطهرة كرسي ذلك العرش، والحقوق المفضلة فيها سماؤها، والحظوظ النفسانية أرضها، فكل حقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بصاحبها، وكل شريعة لا تعضدها حقيقة لا كمال لها اهـ.

قلت: النزول هنا مجاز كأن الحرية عرش والعبودية سماء أو أرض، أو تقول: الحقيقة عرش والشريعة أرض، فما دامت الروح في بحر الوحدة كأنها في عرش الرحمٰن، فإن نزلت إلى العبودية كأنها نزلت إلى السماء أو الأرض. وظاهر كلام الشيخ ومن تبعه من الشراح أن النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ خروج عن الحضرة وليس كذلك، إذ من كان عمله بالله وتصرفاته كلها بالله لا خروج له عن الحضرة، وإنما النزول في حقه بالقالب فقط دون القلب فالقلب لا يخرج من عشه أبداً بعد أن تمكن منه فكل من بلغ أن يكون علمه بالله ومن الله وإلى الله، لا يكون تنزله للشريعة خروجاً عن الحضرة لا سيما الصلاة التي هي معدن المصافاة فبها تتسع ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار، اللهمَّ إلَّا أن يحمل النزول في كلامه على أنه بالقالب دون القلب كما تقدم، ويدل على هذا

قوله فيما يأتي: بل دخلوا في ذلك بالله إلخ.

قال الشعراني في بعض أجوبته: سألت شيخنا سيدي علياً الخواص: أي الحالتين أفضل للعبد في حال الصلاة، هل يكون يعبد الله كأنه يراه أو كأن الله يراه؟ قال: فأجابني بأن يكون العبد يعبد الله كأن الله يراه أفضل من كونه كأنه يراه، ثم أطال الكلام في توجيه ذلك.

قلت: وقد كنت اعترضت هذا الكلام وكتبت عليه ما مضمنه: إن العارفين اتفقوا أن العمل بالله أفضل من العمل لله لأن العمل بالله مشاهدة والعمل لله مراقبة ومقام المشاهدة أعلى من مقام المراقبة، فالصلاة مع المشاهدة أفضل من الصلاة مع المراقبة وما ألزمه الخواص غير لازم. ثم عرضته على شيخ شيخنا مولاي العربي [الدرقاوي] ففرح به غاية وأعجبه، يعني اعتراضي على كلام الخواص، ولا يستغرب هذا من الخواص والشعراني.

قال في التسهيل: وإذا كانت العلوم منحاً إلٰهية ومواهب اختصاصية فغير مستبعد أن يدخر لكثير من المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. ونزولهم إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ إنما يكون بالإذن والتمكين، أما الإذن في نزولهم إلى الحقوق بإذن شرعي إذ حقوق الشريعة كلها موقتة والتمكين فيها هو سهولتها والتمكين منها بحيث لا يعارضه عارض يمنع منها شرعاً أو طبعاً، وأما الإذن في نزولهم إلى أرض الحظوظ فبالإلهام والإعلام، بحيث يتأنى في الأمر حتى يفهم أنه مراد الحق تعالى، وقد كان شيخ المشايخ الجيلاني رضي الله عنه في حال سياحته لا يأكل حتى يقال له: بحقي عليك إلّا ما أكلت.

قلت: وكل من كان عنده الفهم عن الله لا يتصرف إلّا بالإذن من الله، وبعضُ من طبع الله على قلبه من جلامدة الفقهاء ينكر هذا، وهو معذور في بلاد الضعف إذ من جهل شيئاً عاداه. والمراد بالتمكين هو صحة الفهم عن الله حتى لا يبقى له تزلزل إنه مراد الحق بحيث لم ير له معارض شرعي ولا عادي، وكذلك الرسوخ في اليقين هو الثبوت في المعرفة في حال إرادة الفعل. وقد ضربت لهذا مثلاً وهو أن رجلاً حمل ولده وأنزله في بستان أو دار ثم تركه، فجاء قوم ينازعونه في إذن أبيه له، ويقولون له: نزلت هنا بغير إذن، فلا شك أنه إن أقسم بالله أنه ما نزل إلّا بإذن من أبيه كان باراً في قسمه، فإذن أبيه حين أنزله هناك صريح ولو لم ينطق له بلسانه ولا يجحد هذا إلّا غبي أو مكابر فالله تعالى يمنُّ علينا بالفهم عنه في أمورنا كلها آمين.

ثم ذكر مفهوم قوله بالإذن والتمكين، فقال:

(فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة)

قلت: أما النزول بسوء الأدب، فهو أن يكون نزولهم في طلب الأجور أو الحروف وهو الجزاء. وأما الغفلة فهي رؤية النفس في حال العمل وهو عندهم ذنب يستغفرون، منه فاستغفارهم بعد الصلاة إنما هو من حضور نفوسهم في عملهم، ولذلك قيل:

*** وجــودُكَ ذنــبٌ لا يــقــاسُ بــهِ ذنــبٌ ***

والحاصل: أن أهل الحضرة نزولهم بالله وعملهم بالله، لا يرون لأنفسهم حولاً ولا قوة ولا يطلبون من ربهم جزاء ولا أجرة إذ محال أن يطلب الجزاء على عمل غيره، هذا في حال نزولهم إلى سماء الحقوق.

وأما نزولهم إلى أرض الحظوظ فإنما هو لأداء حقوق العبودية فليس نزولهم بشهوة النفس ونيل متعتها لتحقق فنائها وموتها، قد انقلبت حظوظهم حقوقاً ولأجل المعنى قال سيدنا عمر رضي الله عنه: إني لأتزوج النساء وأجامعهن وليس لي في ذلك شهوة، قالوا: ولم تفعل ذلك يا أمير المؤمنين، قال: رجاء أن يخرج الله من صلبي من يكثر به محمد ﷺ أمته.

وقال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إذا وافق الحق الهوى كان كالزبد مع العسل. يعني إذا وافقت النيَّة الصالحة الهوى كان كالزبد مع العسل. وقال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئت به»**(1).

فتحصل أن مقام الزوال يقتضي الفناء عن الحظوظ كلها ولم يبق إلَّا الواحد الأحد، كما أبان ذلك بقوله:

(بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله)

قلت: بل للإضراب عما تقدم من دخولهم في الحقوق بسوء الأدب والغفلة أو نزولهم لأرض الحظوظ بالشهوة والمتعة وإنما دخلوا في الحقوق أو الحظوظ بالله لتحقق فنائهم عن أنفسهم ولله لتحقق إخلاصهم ومن الله لشهودهم الفعل من الله وإلى الله لتحققهم أن الأمور ترجع كلها إلى الله، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ

---

(1) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة، باب ما يجب أن يكون هوى المرء. . .، حديث رقم (15) [1/ 12] والطوسي في الأربعين.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: الآية 123] فأمر العباد كله قائم بالله وصادر منه ومنّته إليه.

ثم استدل بالآية الكريمة على أن الدخول في الأشياء والخروج منها يكون بالله، فقال:

(﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: الآية 80] ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني وانقيادي إليك إذا أخرجتني واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ينصرني ولا ينصر عليّ، ينصرني على شهود نفسي ويغيّبني عن دائرة حسّي).

قلت: الآية لها تفسير ظاهر وتفسير باطن اهـ. أعني على طريق أهل الإشارة.

أما تفسير أهل الظاهر فقالوا: هذه الآية نزلت في فتح مكة وأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها، ومعناه: رب أدخلني مكة مدخل صدق، أي إدخال صدق بأن يكون دخولي بك واعتمادي عليك ناصراً لدينك بحولك وقوتك وهذا كقوله عليه السلام في بعض أدعيته حين كان يقدم من سفره: «صدق الله وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده»[1]، وأخرجني من مكة مهاجراً إلى جهاد عدوك مخرج صدق، أي إخراج صدق بأن نكون منصوراً بك معصوماً بحفظك ورعايتك ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: الآية 80]، أي برهاناً دامغاً لكل باطل نصيراً ينصرني على من عاداني.

وأما تفسير أهل الباطن فهو ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه مستدلاً بالآية على أن دخول العارفين في الأشياء كلها يكون بالله وخروجهم منها يكون بالله، فقال:

وقل أيها العارف (﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ [الإسراء: الآية 80]) في الأشياء حقوقاً كانت أو حظوظاً (﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: الآية 80]) أي إدخال صدق بأن أكون ذلك الإدخال بك معتمداً فيه على حولك وقوّتك متبرئاً من حولي وقوتي ومن شهود نفسي (﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ [الإسراء: الآية 80]) منها (﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: الآية 80]) أي إخراج صدق بأن نكون مأذوناً فيه بإذن خاص مصحوباً بالخشية وسر الإخلاص، وهذا معنى قوله: (**ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني**) في الأشياء (**وانقيادي إليك إذا**

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو، حديث رقم (1703) [2/ 637] وابن حبان في صحيحه، ذكر ما يقول المرء عند قفوله من الأسفار، حديث رقم (2707) [6/ 424] ورواه غيرهما.

أخرجتني) منها (﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ﴾ [الإسرَاء: الآية 80]) أي من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب (﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ [آل عِمرَان: الآية 151]) أي برهاناً قوياً وليس ذلك إلَّا وارد قوي من حضرة قهار لا يصادمه شيء إلَّا دمغه فيحق الحق ويزهق الباطل ويكون ذلك (**نصيراً السلطان ينصرني ولا ينصر علي**) أي ينصرني على الغيبة عن الحس وعن شهود السوى حتى نعد عنهما برؤية مولاهما، ولا ينصر على الوهم والحس وشهود الغيرية.

ثم بيَّن ذلك فقال:

(ينصرني على شهود نفسي)

أي يقوّيني على الغيبة عنها، فإذا انتصرت على شهودها انهزم عني وذهب شهودها وبقي شهود ربها، فالنصرة على الشيء هو غلبته حتى يضمحل وينقطع، وكان شهود النفس عدو يحاربك ويقطعك عن شهود ربك فإذا نصرك الله عليه غلبته ودفعته عنك فتتصل حينئذ بشهود محبوبك، وإذا فني شهود النفس فني حينئذ وجود الحس، وهو معنى قوله:

(ويفنيني عن دائرة حسي)

فإذا فنيت دائرة الحس بقي متسع المعاني وفضاء الشهود، وهذه هي الولادة الثانية، فإن الإنسان بعد أن خرج من بطن أمه، وهي الولادة الأولى، بقي مسجوناً بمحيطاته محصوراً في هيكل ذاته قد التقمه الهوى وصار في بطن الحس والوهم وسجن الأكوان المحيطة بجسمانيته، فإذا فنيت دائرة حسه وخرج من بطن عوائده وشهوات نفسه نقبت روحه الكون بأسره وخرجت إلى شهود مكونها، فقد ولد مرة ثانية وهذه الولادة لا يعقبها فناء ولا موت، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الدّخَان: الآية 56] وهذا معنى قول سيدنا عيسى عليه السلام: «**ليس منا من لم يولد مرتين**»[1]، هكذا ذكره الشطيبي من قول عيسى عليه السلام.

وقال بعض الحكماء في قوله عليه السلام: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة**»[2]. قال: الهجرة هجرتان، هجرة صغرى وهي هجرة الأجساد من أوطانها،

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه ابن أبي عاصم في الجهاد، النية في الجهاد، حديث رقم (261) [2/ 619] ورواه البخاري في صحيحه بلفظ: «لا هجرة ولكن جهاد ونية» حديث رقم (1737) [2/ 651] ورواه مسلم أيضاً برقم (1353) [2/ 986] ورقم (1864) [3/ 1488] ورواه غيرهما.

وهجرة كبرى وهي هجرة النفوس عن مألوفاتها وعوائدها، وهو معنى قوله عليه السلام: **«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»**[1] جعل الجهاد الأكبر هو جهاد النفس والجهاد الأصغر هو جهاد الجسم. وقال أيضاً عليه السلام: **«الهجرة باقية إلى يوم القيامة»**[2] يعني الهجرة الحسية والمعنوية فكل بلد لا يجد فيها من يعينه على دينه أو لا يجد فيها قلبه تجب الهجرة عنها، وكل شهوة تقطعه عن ربه تجب الهجرة عنها وبالله التوفيق.

هذا آخر الكتاب الذي أرسله إليَّ بعض إخوانه، وحاصله بيان السلوك من أوله إلى آخره فهو يكفي ذوي الألباب عن مطالعة كل كتاب.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) أخرج نحوه ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، باب الهجرة من دار العدو. . .، حديث رقم (2024) ولفظه: «الهجرة باقية ما قوتل المشركون».

[المراسلات]

[الكتاب الثاني]
رسالة في بيان الوصول إلى بحر الحقيقة

ثم ذكر الكتاب الثاني الذي أرسله لبعض إخوانه أيضاً، فقال:

(وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه)

قلت: وكانت الرسالة المتقدمة في بيان السلوك بدايتها ونهايتها، وهذه الرسالة في بيان الوصول إلى بحر الحقيقة مع مراعاة حرمة الشريعة طرفان وواسطة، قوم فرطوا وقوم أفرطوا وقوم توسطوا وجمعوا، بَيَّنَ الشيخ الأقسام الثلاثة تتميماً للتقسيم، فأشار إلى أصل التقسيم فقال:

(إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد في منَّته فالشريعة تقتضي أن لا بد من شكر خليقته)

قلت: عين القلب هي البصيرة ومن شأنها أن لا ترى إلَّا المعاني دون المحسوسات، كما أن البصر لا يرى إلَّا المحسوسات دون المعاني، والحكم للغالب منهما فمن غلب بصره على بصيرته لا يرى إلَّا الحس وهو الغافل، ومن غلبت بصيرته على بصره لا يرى إلَّا المعاني وهي معاني التوحيد وأسرار التفريد، فالبصيرة لا ترى إلَّا نور الحق دون ظلمة الخلق لكن لا بد من إثبات الحكمة، وقد تقدم قوله: الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته، فلا بد من إثباتها قياماً بالحكمة ونفيها قياماً بالوحدة، فإن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في منَّته بل واحد في جميع تصرفاته فالشريعة والحكمة تقتضي، أي تطلب، أن لا بد من شكر خليقته. قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: الآية 14] فإذا أنعم الله عليك بنعمة كانت دنيوية أو دينية على يد واسطة فعليك في ذلك وظيفتان، إحداهما قلبية وهي اعتقادك أنها من الله بلا واسطة وأن ما سواه مقهور على إيصالها. والثانية لسانية، وهي أن تدعو له وتثني عليه عملاً بالشريعة.

فقد روى النعمان بن بشير عنه ﷺ أنه قال: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[1]، ومن أسمائه تعالى الشكور فليتخلق العبد بذلك وحكمة اعتبار الواسطة ثلاث، أولها: أنها إرسال من الحق تحمل الهدايا إليك، ومن الكرم إكرام الرسل. وثانيها: أنها أواني تصل فيها إليك المنافع، ومن الحكمة ترفيع آنية المنافع. وثالثها: ما في ذلك من دفع منَّة الوهم إذ الوهم يقتضي بطبعه الميل لمن أحسن إليك، فإذا كافأته باللسان فقد أعتقت من رق إحسانه.

ثم قسَّم الناس باعتبار الحقيقة إلى طرفين وواسطة كما تقدم، فقال:

(وإن الناس في ذلك على أقسام ثلاثة)

إما واقف مع الحس ناظر للأسباب، أو غائب عن الحس وعن رؤية الأسباب، أو جامع بينهما. أو تقول: إما عامة أو خاصة، أو خاصة الخاصة. ثم أشار إلى الأول فقال:

(غافل منهمك في غفلته)

أي مسترسل في غفلته مستغرق في نومه لا يبالي بما وقع منه ولا يتنبه من نومه. ثم بيَّن أصل غفلته فقال:

(قويت دائرة حسه)

أي قوي تكثيف حسه الدائر به فتكثف حينئذ حجابه وعظم جهله فعظمت غفلته، ولو فنيت دائرة حسه لاتصلت روحه بعالم الملكوت أو الجبروت فلم تر إلَّا الجمع، أو ترى الجمع في عين الفرق والفرق في عين الجمع لكن لما قويت دائرة حسه انطمس نور بصيرته، كما قال:

(وانطمست حضرة قدسه)

أي انطمست عنه حضرة القدس، وهي شهود المعاني الملكوتية لانطماس بصيرته لأن هذه المعاني لا تدركها إلَّا البصيرة فلما انطمست البصيرة، بقوة كثافة الحس انطمس نور حضرة القدس عنه.

ثم ذكر ما ترتب على انطماس حضرة القدس وهو شهود الخلق دون الحق فقال:

---

(1) رواه أحمد في المسند، حديث أسامة بن شريك، رقم (18472) [4/ 278] والقضاعي في مسند الشهاب، باب (272 من لم يشكر القليل. . .،] حديث رقم (377) [1/ 239] ونص رواية أحمد هو: عن النعمان بن بشير قال: قال النبي ﷺ على المنبر: «من لم يُشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب».

(فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين)

قلت: كل من لم يفن عن دائرة حسه ولم يغب عن شهود نفسه بشهود ربه لا يطمع أن يتحرر من رق إحسان الخلق إما اعتقاداً أو استناداً، ولو جاهد نفسه في مراعات التوحيد فلا بد من الطبع أن يسرق بخلاف من تحقق بالزوال وغرق في بحر الوحدة فلا يسرقه شيء، وعلى تقدير غفلته فيكون سريع الانتباه.

ثم بيَّن حال الفريقين في نظر الإحسان من المخلوقين، فقال:

(أما اعتقاداً فشرك جلي)

أي لا خفاء في أن من نسب الفعل لغير الله استقلالاً أنه كافر خارج عن الإيمان وإن كان ظاهره متوسماً بوظائف الشريعة لأن من اعتقد خالقاً أو رازقاً مع الله استقلالاً فهو كافر بالإجماع.

ثم ذكر الثاني بقوله:

(وأما استناداً فشرك خفي)

قلت: الاستناد هو الميل الخفي بحيث إذا قلت له: من الذي رزقك، يقول: الله، لكن الغالب أن قلبه يسبق إلى رؤية الخلق قبل رؤية الخالق، وربما يقول بلسان الحال أو المقال: لولا الذي جاء من قبله ما كان ولولا الأسباب ما كانت المسببات فوقوفه مع ارتباط الأسباب دون النفوذ إلى مسبب الأسباب هو شركه الخفي ولو نبذ الأسباب ونفذت بصيرته إلى شهود مسبب الأسباب لتبرأ من الشرك الجلي والخفي ولتحلى بمقام الإخلاص الكامل الوفي. وإليه أشار بقوله:

(وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب)

قلت: الحقيقة هي شهود نور الحق في مظاهر الخلق أو شهود نور الربوبية في قوالب العبودية، فصاحب الحقيقة هو الذي يغيب عن الخلق بشهود نور الملك الحق، ويفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، فإن كان مع مراعاة الحكمة فهو كامل وإن كان من غير مراعاة الحكمة فإن كان غائباً مصطلماً فهو معذور وهو الذي بيَّنه بقوله:

(فهذا عبد مواجه بالحقيقة) أي كوشف بنورها **(ظاهر عليه سناها)**

أي نورها، فلما دهته الأنوار سكر وأنكر الحكمة، فهو باعتبار ما قبله كامل لاستغراقه في بحر الوحدة وهو معذور في نفيه الحكمة لغلبة وجده وظهور سكره،

وباعتبار ما بعده ناقص لقصور نفعه على نفسه وإن كان قد سلك الطريق وأتى على غايتها حتى وصل إلى التحقيق، كما بيَّن ذلك بقوله:

(سالك للطريقة)

أي لولا سلوكه مع الطريق ما استنارت له معالم التحقيق وإنما فاته أنوار التشريع وأسرار الحكمة، وأما الطريق فقد سلكها وأتى على غايتها كما ذكره:

(قد استولى على مداها)

يعني على غايتها فلا وصول للحقيقة إلَّا بعد سلوك الطريقة وتحقيق ظاهر الشريعة، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية 189] فلا باب لبيت الحقيقة إلَّا من جهة الشريعة والطريقة فإذا وصل إلى الحقيقة فمن الناس من يكون صدره ضيقاً فلا يحتمل تلك الأنوار ولا يطيق مشاهدة تلك الأسرار فيغيب في شهود الوحدة وينكر الحكمة.

ومن الناس من يكون واسع الصدر قوي النور فإذا أشرقت عليه أنوار الحقيقة لم تغلبه عن القيام بالحكمة وصار برزخاً بين حقيقة وشريعة، هكذا يكون سيره بين فناء وبقاء حتى يتمكن فيهما ويعتدل أمره بينهما، وهذه حالة الأقوياء والطريقة الشاذلية جلها هكذا يسير أهلها بين حقيقة وشريعة حتى يقع التمكين والاعتدال.

ثم كمَّل الشيخ هذا القسم الذي غلبت عليه الحقيقة فقال:

(غير أنه غريق الأنوار)

أي غلبت عليه أنوار الحقيقة حتى غاب عن أحكام الشريعة.

(مطموس الآثار)

أي غائب عن شهود الكون من حيث إن الحق أثبته ليعرف به، وهذا لما أشرقت عليه أنوار الحقيقة ضم الفروع إلى أصولها وأنوار الملكوت إلى الجبروت، وأنكر الوسائط لغلبة السكر عليه كما بيَّنه بقوله:

(قد غلب سكره على صحوه)

السكر وارد قوي يغيِّب القلب عن شهود الحس، والصحو ذهاب ذلك الوارد حتى يرجع القلب إلى الإحساس بعد الغيبة (و) غلب عليه أيضاً.

(جمعه على فرقه)

الجمع رؤية الحق بلا خلق والفرق رؤية الخلق بلا حق، فإن كان بعد الجمع

فهو رؤية الخلق والحق.

والحاصل أن أهل الجمع لا يشهدون إلَّا الحق، وأهل الفرق لا يشهدون إلَّا الخلق، ويستدلون به على الحق، وأهل الفرق في الجمع يشهدون الخلق والحق، أعني يشهدون الواسطة والموسوط من غير فرق بينهما. **(و)** غلب عليه أيضاً **(فناؤه على بقائه)** الفناء الغيبة عن الخلق بشهود الحق والبقاء شهود الخلق بالحق إن كان بعد الفناء، وإن كان قبل الفناء فهو شهود خلق بلا حق وهو محل أهل الحجاب **(و)** غلب عليه أيضاً **(غيبته على حضوره)** الغيبة انقطاع القلب عن ملاحظة الخلق، والحضور مشاهدة حضرة المولى بعد الغيبة عن شهود الحس والسوى. فهذه أحوال أهل الجذب من السالكين فإن كان لهم شيخ فلا بد أن يخرجهم إلى السلوك وهو مقام البقاء، فإن البقاء يطلب الجذب حتى يدركه كما يدركه عمره الطالب له، فكان بعض أشياخنا يقول: أرنا من يفرق لنا نحن ضامنون له الخروج إلى البر، وهو البقاء الذي أشار إليه الشيخ بقوله:

(وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً وغاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصده عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطي كل ذي قسط قسطه ويوفي كل ذي حق حقه)

قلت: هذا هو القسم الثالث، وهو مقام خاصة الخاصة، وهم أهل الرسوخ والتمكين فكلما شربوا من خمر الحقيقة زاد صحوهم وتجوهر عقلهم، وكلما غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق زاد حضورهم، فتراهم مستغرقين في الفكرة والنظرة ومع ذلك يحسون بدبيب النملة، حتى يظن من لم يبلغ مقامهم أنهم من أهل الغفلة لكثرة ما بهم من الفطنة، وهم مستغرقون في الحضرة، وقد كان عليه السلام يصلي بالناس فإذا سمع بكاء الصبي خفف شفقة على أمه فأهل هذا المقام الكامل لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم فهم مجموعون في فرقهم مفروقون في جمعهم يشهدون الحق في حال شهودهم الخلق ولا يصدهم فناؤهم عن بقائهم فهم فانون عن أنفسهم باقون بربهم، ولا بقاؤهم يصدهم عن فنائهم فظاهرهم مشغول بالحس مثلاً وباطنهم معمور بالمعنى، يعطون كل ذي حق حقه فيعطون الحقيقة حقها بشهود الحق في الباطن والشريعة حقها باستعمال الجوارح في حقوقها في الظاهر، ويوفون كل ذي قسط قسطه فيوفون الناس قسطهم من الإحسان والحق حقه في توحيده بالجنان، أو تقول: أفردوا الحق بالإنعام وشهود الإحسان وأثنوا على الوسائط باللسان، أو تقول:

أعطوا الربوبية حقها بشهود الإحسان منه وحده وأعطوا الخليقة حقها بشكر الواسطة إقامة لرسم العبودية.

والحاصل أن هذا المقام هو كما قال الشاذلي رضي الله عنه: الجمع في باطنك مشهود والفرق على لسانك موجود.

تنبيه: قد رأينا كثيراً من الناس يترامون على هذا المقام الكامل من غير صحبة ولا جذب ويزعمون أنهم يصلون إليه بإتقان علم الشريعة وعملها وهو غلط إذ لا سبيل إلى هذا المقام إلَّا بمروره على المقام الذي قبله، وهو الجذب والاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكون، ولا بد من سكر ثم صحو وجذب ثم سلوك وجمع ثم فرق وفناء ثم بقاء، نعم قد يكون بعض الأفراد أقوياء يجذبون إلى حضرة الحق مع مشاهدة الخلق ويسيرون بين جذب وسلوك كما تقدم في الطريقة الشاذلية وأمثالها. وأما من لم يصحب العارفين الذين سلكوا هذه المقامات فلا يطمع في نيل هذا المقام أبداً إلَّا الفرد النادر الذي لا حكم له والله تعالى أعلم.

ثم استدل على المقام الثاني وهو الجذب والفناء، والثالث وهو الصحو والبقاء بقضية السيدة عائشة مع أبيها في قضية الإفك، فقال:

(وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ: اشكري رسول الله، فقالت، والله لا أشكر إلَّا الله)

قلت: قضية الإفك مشهورة مذكورة في سورة النور تولى شرحها أهل الظاهر إلَّا أن ظاهر كلام الشيخ رضي الله عنه: أن القائل لها هو أبوها، والذي في الصحيح أن الذي قال لها اشكري رسول الله ﷺ هي أمها.

وفي رواية: فقالت لي أمي لما نزلت براءتي من السماء: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أشكر إلَّا الله. ويمكن الجواب بأن ذلك وقع بإشارة أبيها أو قالاه معاً أو سكوته كأنه وفاق، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة فقال:

(دلها أبو بكر على المقام الأكمل، مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار)

قلت: المراد بإثبات الأثر بعد الفناء عنه إثباته بالله ونفيه بالله جمعاً بين القدرة والحكمة، وإنما كان هذا أكمل مما قبله لأن هذا حاز المقامين، أعطى القدرة حقها في الباطن وهو الشهود، والحكمة حقها في الظاهر وهي العبودية. فهو سالك بنفسه

دال لغيره كامل عالم معلم عارف معرف، وهي غاية القصد والطلب لأنه مقام الخلافة التامة والمنافع العامة. ولا شك أن الخير العام خير من الخير الخاص، والخير العام هو الذي يعطي كل ذي حق حقه ويوفي كل ذي قسط قسطه.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ مع قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فقال له: اتق الله حق تقاته بقلبك، واتق الله بجسمك ما استطعت فتكون جامعاً للشريعة والحقيقة. اهـ.

ثم استدل على إثبات الأثر بالكتاب والسنة فقال:

(وقد قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: الآية 14])

فأمر أولاً بشكر من تولى نعمة الإيجاد وأمر ثانياً بشكر من ظهرت على يديه نعمة الإمداد. فالواسطة ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته والآية صريحة في إثبات الواسطة أدباً، والغيبة عنها عقد لأجل التوحيد.

ثم ذكر دليل السنّة، فقال:

(وقال صلوات الله وسلامه عليه: لا يشكر الله من لا يشكر الناس)(1)

قلت: يصح في اسم الجلالة الرفع على الفاعلية والنصب على المفعولية، ومعنى الأول الله تعالى لا يشكر فعل من لم يشكر الناس ولا يحبه. وعلى الثاني من لم يشكر الناس فلا يشكر الله، أي فلا يسمى شاكراً لله. وتقدم حديث النعمان بن بشير: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله**»(2).

ثم بيَّن الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة في ذلك الوقت، فقال:

(وكانت في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها)

قلت: الاصطلام نعت الحيرة ومحل الدهشة والغيبة، أي كانت رضي الله عنها في ذلك الوقت غائبة عن حالها، فانية عن حسها كما هو حال الجذب. وقوله: في ذلك الوقت، يقتضي أنه لم يكن ذلك شأنها على الدوام وإنما هو عارض قهري ووارد إلٰهي اختطفها عن حسها، كما عرض ذلك لخليل الله إبراهيم حين عرض له جبريل فقال له: ألك حاجة، فقال: "أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى»(3)، فلم يلتفت إلى

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه أحمد في المسند عن النعمان بن بشير، حديث رقم (18472) [4/ 278] والقضاعي في مسند الشهاب، (272 من لم يشكر القليل. . . .) حديث رقم (377) [1/ 239] ورواه غيرهما.

(3) رواه الطبري في تفسيره [17/ 45] والسيوطي في الدر المنثور [5/ 641].

الواسطة فقال له: سله، فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي». وكقوله عليه السلام: «**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**»[1]. فكانت عائشة رضي الله عنها في ذلك الوقت.

(غائبة عن الآثار فلم تشهد إلَّا الواحد القهار).

قلت: ومما يقوّي عذرها في شكر الله وحده قول رسول الله ﷺ: «**يا عائشة اشكري الله فإن الله تعالى قد برّأك**»[2] فهي راجعة لأمره في عدم شكره، كما قاله ابن أبي جمرة لكن بضميمة ما ذكره المؤلف، إذ لا يصح مع الصحو إهمال الوسائط في المقام الأكمل. قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

فهذا آخر الرسالة التي كتبها لبعض إخوانه، وهي في غاية الإتقان والكمال، فلو لم يكن في هذا الكتاب إلَّا هذه الرسالة مع التي قبلها لكانت كافية، فجزاه الله عن أهل الطريقة خيراً.

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2159) [2/ 226] والهروي في المصنوع [1/ 258].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب حديث الإفك، حديث رقم (3910) [4/ 1517] ومسلم في صحيحه، باب في حديث الإفك. . .، حديث رقم (2770) [4/ 2129] ورواه غيرهما.

[المراسلات]

[الكتاب الثالث]
رسالة في قرّة العين التي تكون في الصلاة

ولما كانت صلاة العارفين ليست كصلاة الغافلين، تكلم في هذه الرسالة الثالثة على قرّة العين التي تكون في الصلاة، هل هي خاصة بالأنبياء أو للأولياء نصيب من ذلك، فقال رضي الله عنه:

(لما سئل عن قوله صلوات الله وسلامه عليه: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»[1] هل ذلك خاص بالنبي ﷺ أم لغيره منه شرب ونصيب، فأجاب: أن قرّة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود).

قلت: قرّة العين كناية عن شدّة الفرح لأن بكاء الفرح دمعه بارد والقرّ بالضم هو البرد، يقال في الدعاء: أقرّ الله عينك، أي أفرحك حتى تبرد عينك بدموع الفرح. ومضمن كلام الشيخ في جوابه: أن قرّة العين في الصلاة متفاوتة على قدر التفاوت في المعرفة والشهود، والمعرفة على قدر التخلية والتحلية.

فمعرفته عليه السلام لا يوازيها معرفة، وشهوده عليه السلام لا يقرب منه شهود، لكن قد تحصل المشاركة في مطلق الشهود من حيث هو وتكون القرة على قدره، فإذاً لورثته عليه السلام قسط ونصيب من قرّة العين على قدر صفاء مشربهم وتفرغ قلوبهم وأسرارهم، فالعلماء ورثة الأنبياء، فمن جملة ما ورثوه قسط من قرة العين في الصلاة، ولذلك كانوا يغيبون فيها ويجدون من النعيم واللذة فيها ما تعجز عنه العبارة، وقد كان منهم من يقطع الليل كله في ركعة ويختم القرآن في كل ليلة، فلولا ما كانوا يجدون من حلاوة المناجاة ما دامت لهم تلك الحالة.

ويفهم هذا من قول الشيخ في الجواب: أن قرّة العين بالشهود على قدر المعرفة

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، حديث رقم (2676) [2/ 174] والبيهقي في السنن الكبرى، باب الرغبة في النكاح، حديث رقم (13232) [7/ 78] ورواه غيرهما.

بالمشهود. فأتى بعبارة عامة تصدق بكل من له نصيب من الشهود، لكن قرّة عين الرسول ﷺ لا يوازيها قرّة عين أحد وكذلك الأنبياء عليهم السلام بعد النبي ﷺ وإلى هذا أشار بقوله:

(والرسول صلوات الله وسلامه عليه ليس معرفة كمعرفته فليس قرّة عين كقرّته)

قلت: لم يؤنث الفعل المجازي التأنيث في الموضعين، وإنما كانت معرفته عليه السلام لا يساويها معرفة لأنه أول قدمه في مقام الإحسان، إذ لا مجاهدة له ولا سير له باعتبار الوصول لأنه واصل من أول قدم، فنهاية الأولياء بداية الأنبياء ونهاية الأنبياء بداية الرسل وبدايته عليه السلام من نهاية الرسل، وإنما قلنا: لا سير له باعتبار الوصول لأن السير في مجاهدة الأوصاف المذمومة، وهو مطهر منها كما قال القائل[1]:

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

[وأجملُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وأكملُ منكَ لَمْ تَلِدِ النساءُ]

وأما السير بمعنى الترقي فهو ثابت له على الكمال، فقد كان عليه السلام يترقى في الساعة الواحدة مقامات ويستغفر من المقام الذي يترقى منه.

وحكي عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه كان يستشكل قوله عليه السلام: «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**»[2] وفي رواية: «**مائة مرة**»[2] حتى رأى النبي ﷺ فقال: يا مبارك غين أنوار لا غين أغيار، ففهم حينئذ أن ذلك الغين، وهو التغطية، إنما هي تتفاوت بالقوة والضعف باعتبار الكشف، فكلما كشف له عن مقام رأى ذلك المقام نقصاً باعتبار ما بعده ورآه حجاباً وتغطية لما فوقه وهكذا. وعظمته تعالى لا نهاية لها، ولذلك قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ **[طه: الآية 114]** وقال أبو العباس رضي الله عنه: الأنبياء عليهم السلام خلقوا من الرحمة ونبينا عليه السلام هو عين الرحمة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ **[الأنبياء: الآية 107]**.

وقال الشيخ الحضرمي رضي الله عنه بعد كلام ذكره: فهو ﷺ مظهر الحق، الأكبر وهو أكبر مظاهر الحق في الوجود، فلذلك كان كل حرف من كلماته يوازي الجم الغفير، وكل قطرة من فيض بحره توازي البحر الزاخر الكبير، وأعظم من ذلك

---

(1) هو عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوي، تولى مشيخة الأزهر، من مؤلفاته الإتحاف بحب الأشراف. توفي سنة 1171 هجرية.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب الاستغفار، حديث رقم (2702) [4/ 2075] وابن حبان في صحيحه، ذكر لفظ لم يعرف معناه. . .، حديث رقم (931) [3/ 211] ورواه غيرهما.

بألف ألف نقير وقطمير. لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. اهـ المراد منه.

فتحصل أن مقامه عليه السلام في العرفان لا يوازيه مقام، وكذلك قرّة عينه عليه السلام لا ينالها غيره من الأنبياء والأولياء، وإنما يكون لهم من ذلك شرب ونصيب على قدر شهودهم ومعرفتهم.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: إنما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية 1] ولم يقل: بنبيه ولا برسوله، ليفتح باب السريان لغيره فمن له قسط من العبودية له قسط من الإسراء. ولما كان له عليه السلام كمال العبودية كان له كمال الإسراء فأسري بروحه وجسده وليس ذلك لغيره اهـ.

فإذا وقع الإسراء بالروح إلى الملكوت حصلت له قرّة العين في العبادة على قدر إسرائها، وإسراؤها على قدر تصفيتها من العلائق والعوائق، والله تعالى أعلم.

ولما كان جوابه بأن قرة العين بالشهود على قدر معرفته بالمشهود، فيه خفاء عن المقصود بيَّنه بقوله:

(وإنما قلنا: إن قرّة عينه في صلاته بشهوده جلال مشهوده لأنه أشار إلى ذلك بقوله: في الصلاة، ولم يقل: بالصلاة)

قلت: لأن الأصل في الظرفية أن تكون على بابها، فَقُرَّةُ عينه ﷺ إنما هي بشهود ربه ومساررته ومكالمته، فالصلاة إنما هي محل لتلك القرة لا بها تكون القرة. وأما قوله عليه السلام: «**أرحنا بها يا بلال**»(1) فالباء سببية، أي أرحنا بسببها وراحته عليه السلام إنما هي بمناجاة ربه لا بغيرها.

ثم ذكر علّة كونه عليه السلام لا تقرّ عينه بالصلاة وإنما تقرّ عينه بربه، فقال:

(إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لا تقر عينه بغير ربه) فلا فرح له إلّا به ولا سرور له إلّا في إقباله، قد رفع همَّته عن الكونين وخلع نعله من الدارين، ولأجل ذلك قال فيه القائل:

لـه هـمـمٌ لا مـنـتـهـى لـكـبـرهَـا ... وهـمَّـتُـهُ الـصـغـرَى أجَّـل مِـنَ الـدَّهـرِ

لـهُ راحـةٌ لـوْ أنَّ مِـعْـشـارَ جُـودِهَـا ... على البركانِ كانَ البَرُّ أندَى مِنَ البحرِ

(كيف وهو يدل على هذا المقام)

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (6215) [6/ 277] والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، رقم (5604) [10/ 442].

وهو مقام الإحسان إذ به تحصل قرّة العين.

(ويامر به من سواه) من الأنام.

(لقوله صلوات الله وسلامه عليه: اعبد الله كانك تراه)

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: لم يقع في الحديث بهذا اللفظ، وإنما وقع في تفسير الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك اهـ.

قلت: وفيه نظر، فإن في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «**اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها، السر بالسر والعلانية بالعلانية**» اهـ رواه الطبراني كما في [الترغيب والترهيب] للمنذري.

ثم من كان يعبد الله كأنه يراه فلا يمكن أن يلتفت إلى رؤية ما سواه، كما بيَّنه بقوله:

(ومحال أن يراه ويشهد معه سواه)

قلت: لأن ثبوت السوى حجاب، فلا يصح الشهود حتى يزول كل موجود ولا يبقى إلَّا واجب الوجود، ويرى ما سواه كأنه ظلال أو خيال عند التحقيق مفقود.

فإن قلت: إذا كان السوى مفقود فلم قال عليه السلام في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه»، وقال لمعاذ: «**اعبد الله كأنك تراه**» فأتى بكاف التشبيه إذا كانت الرؤيا حاصلة فكيف يشبهه عليه السلام بمن يرى.

فالجواب: أنه عليه السلام في محل التشريع والتحقيق، وهذا الحديث وقع في محفل كبير، فيه من هو من أهل المراقبة وفيه من هو من أهل المشاهدة، فأتى بكلام يقبله الخاص والعام، فالكل مخاطب بإتقان العبادة كأنه يشاهد، فمنهم من بلغ ذلك ذوقاً، ومنهم من يكون منه ذلك مجاهدة.

وأيضاً شهود أنوار الملكوت سر من أسرار الربوبية لا تفشى لغير أهلها، ولو قال عليه السلام: أن تعبد الله لأنك تراه، أي ترى أنوار جبروته متدفقة لرياض ملكوته لكان فيه إفشاء لسر الربوبية ولا يفهمه إلَّا الخواص، وقد قال عليه السلام: «**خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون**»[1] فأتى بكلام موجه يقبله أهل الظاهر وأهل الباطن. فأهل الظاهر

---

(1) رواه البخاري بلفظ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله». (الصحيح، باب من خص بالعلم قوماً. . .، حديث رقم (127) [1/ 59] وروى الحديث غير البخاري.

يتركون الكاف على بابها وأهل الباطن يجعلونها بمعنى اللام، لأن رؤية البصيرة عندهم في معد العيان، لأن البصر إذا فتحت البصيرة غلبت عليه ولم يبق له حكم أصلاً. وأيضاً الرؤية إذا أطلقت إنما تنصرف للبصر، فلو لم يأت بالتشبيه لتوهم أن الله تعالى يُرى بالبصر الحسي، وهو محال. قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية 103] أي الحسية وإنما تراه البصائر المفتوحة، فإذا انفتحت البصيرة استولت على البصر فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أنوار الملكوت والله تعالى أعلم.

ولما قرَّر الشيخ أن قرّة عينه ﷺ إنما هي بالله لا بالصلاة بحث معه باحث فأشار إلى البحث بقوله:

(فإن قال له سائل: قد تكون قرَّة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين منَّة الله، فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرَّة العين بها، وقد قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ **[يونس: الآية 58])**

قلت: مضمن البحث أن قوله عليه السلام: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» يمكن أن تكون في بمعنى الباء، أي بالصلاة، ويكون وجه الفرح بها لأنها فضل من الله ورحمة وبارزة من منَّة الله، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: الآية 58] فقد أمر الله تعالى عباده بالفرح بفضل الله وبرحمته والصلاة من ذلك، فيجب الفرح بها وهي معنى قرَّة العين، فأجاب:

(فقال: اعلم أن الآية هذه قد أومات) أي أشارت **(إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب إذ قال؛ فبذلك فليفرحوا، وما قال؛ فبذلك فافرح يا محمد، قل لهم ليفرحوا بالإحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضِّل، كما قال في الآية الأخرى؛** ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ **[الأنعام: الآية 91])**

قلت: مضمن الجواب أن قرّة العين بالصلاة إنما يصح أن تكون في حق غيره ﷺ من أولياء أمته لأنهم يفرحون بفضل الله وإحسانه لأنها علامة على رضوانه، وأما هو ﷺ فلا تكون قرّة عينه إلَّا بالله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: الآية 58] ولم يقل: فبذلك فافرح يا محمد، فدل خطاب الآية أن الفرح بالفضل والرحمة إنما هو لأمته ﷺ وهو إنما يكون فرحه بالله لا بشيء دونه كقوله في آية الأنعام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91].

والتحقيق هو أن يقال: من تحقق بنعيم شهود الربوبية لم يكن فرحه إلَّا بشهود محبوبه دون غيره كائناً من كان، ومن كان مقيماً في محل العبودية ولم يذق شيئاً من مطالعة أنوار الربوبية لم يكن فرحه إلَّا بفضل الله ورحمته، ومن ذاق ولم يتحقق يكون

فرحه بهذا، أي تارة بهذا وتارة بهذا. فعلى هذا يكون لأكابر أمته ﷺ قسط من الفرح بالله دون ما سواه لكن لا يبلغون مقام الرسول عليه السلام لأن شهوده عليه السلام لا يساويه شهود فتكون قرة عينه كذلك، والله تعالى أعلم.

خاتمة في ذكر الحديث الذي أشار إليه الشيخ وما يتعلق به.

روي أن جابر بن عبد الله صنع طعاماً لرسول الله ﷺ فاجتمع هو ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فتذاكروا في الطاعة لله ولرسوله إلى أن قال أبو بكر: إنما حبِّب لي من الدنيا يا رسول الله ثلاث، إنفاق مالي عليك، والجلوس بين يديك، وكثرة الصلاة عليك.

وقال عمر: وأنا حُبِّب إليَّ من الدنيا ثلاث: إكرام الضيف، والصيام في الصيف، والضرب بين يدي رسول الله ﷺ بالسيف.

وقال عثمان: حبِّب إليَّ من الدنيا ثلاث: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام. وقال علي مثل ذلك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: **«وأنا حبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»**(1)

فنزل جبريل فقال: وأنا حبِّب إليَّ من الدنيا ثلاث: تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وعيادة المرضى. ثم غاب وظهر وقال: يا رسول الله وربّ العزة يقول: **(وأنا حُبِّب)** إليَّ من الدنيا ثلاث: لسان ذاكر، وقلب شاكر، وجسم على البلاء صابر. اهـ ذكره الشطيبي، فالله أعلم بصحته. غير أنه كلام صحيح في نفسه.

والحكمة في النساء الترغيب في كثرة التناكح ليكثر النسل بمن يعمر هذا العالم. وأما الطيب فإنه ﷺ كان طيباً نفحه الله في الوجود فتعطرت به الأكوان فكان عليه السلام ينفح طيباً مس طيباً أو لم يمسه، كان يستعمل الطيب الكسبي يستر به الطيب الوهبي خشية أن يتغالى الناس فيه كما تغالوا في عيسى عليه السلام. وقيل: إن الطيب من صفة أهل الجنة، وقد كان عليه السلام في الجنة فتطيَّب بطيبها والله تعالى أعلم.

---

(1) هذا الخبر لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من مصادر ومراجع. وإنما ورد بألفاظ أخرى متقاربة منها ما رواه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، حديث رقم (2676) [2/ 174] ولفظه: "حبب إليَّ النساء والطيب وجعلت قرى عيني في الصلاة".

[المراسلات]

[الكتاب الرابع]
الرسالة الرابعة في الفرح بالمنن

ثم ذكر الرسالة الرابعة في الفرح بالمنن بعد أن قدم الفرح بالله، فقال: رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه:

(الناس في ورود المنن عليهم على ثلاثة أقسام)

يعني عوام وخواص وخواص الخواص.

ثم ذكر مقام العوام فقال:

(فرح بالمنن لا من حيث مبدئها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها)

قلت: وهذا كالبهيمة ليس شأنه وهمُّه إلَّا نفسه وحسَّه. ولله در ابن البنا حيث قال:

واعلم بأن عصبة الجهال   بهائم في صورة الرجال

ثم ذكر حكمه فقال: **(فهذا من الغافلين)**

لأنها، أي النعم، إذا أقبلت عليه اشتغل بها عن ذكر معطيها تلذذاً وترفهاً، وإذا أدبرت اشتغل فكره بطلبها والحرص عليها، وإذا نالها شغلته متعتها عن شكرها، فيكون ذلك سبباً في زوالها. قال تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية 7] وربما.

(يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية 44] فالآية وإن نزلت في الكفار فحكمها عام، فكل من اشتغل بنعم الدنيا وزخارفها عن ذكر الله وما طلب منه يصدق عليه أنه فرح بما أوتي. فبينما هو منهمك في غفلته مستغرق في شهوته أخذه الموت بغتة فإذا هو ملبس أي آيس من الرجوع إليها ومن الانتفاع بها، وقد عرف بفقدانها.

ثم ذكر القسم الثاني وهو مقام **الخواص**، فقال:

(وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منَّة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها)

قلت: ويستفيد أيضاً إقبال من أرسلها عليه وذكره بها، أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام: «يا موسى اعلم أنني إذا أعطيتك ثمرة مسوسة فإني قد ذكرتك بها فاشكرني عليها فإنه لا يعطيكها غيري» اهـ. فتكون تلك النعمة سبباً يجره إلى محبة المنعم فيترقى إلى الدرجة الثالثة.

ثم ذكر شاهد هذا القسم من القرآن، فقال:

(فيصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: الآية 58]).

قلت: يعني فيكون فرحه بفضل الله، وهو الإيمان، ورحمته وهو القرآن، وغير ذلك هو أي فضل الله ورحمته خير مما يجمعون من حطام الدنيا وشهواتها الغرارة. وأنشدوا:

طَلِّقِ الدنيا ثلاثًا والتمسْ زوجاً سواهَا
تُبْ إلى ربّكَ منهَا واحترِسْ قبلَ أذاهَا
إنّها زوجةُ سوءٍ لا تبالِي مَنْ أتاهَا
أنْهِ نفسك عن الغي وجانب هواها

قيل: إن بعض العباد أراد إبليس فتنته، فجاءه من باب الرغبة في الدنيا، فوجده قد سده بالزهد والقناعة. فجاءه من باب الشهوة فوجده قد سده بدوام الحزن والكآبة. فجاءه من باب الضعف والحدة فوجده قد سده بالتواضع والاستكانة، فصاح وقال: هذا عبد قد تحصن مني فليس لي عليه سبيل.

وفي الخبر: «أن المنادي ينادي يوم القيامة: أين أصحاب المتاجر الرابحة من أهل الأعمال الصالحة، فيقوم الأولياء والأصفياء والعباد والزهاد فيؤتون بنجائب من النور، فتطير بهم نحو العرش وتسبقهم الملائكة بين أيديهم إلى أن تنزلهم في منازلهم من الجنة، ويقولون لهم: هذه أحمالكم وفيها أعمالكم. وينادي المنادي أيضاً: أين أبناء الدنيا، أي المخلفون والمقصرون، أين من عصى المولى، هلموا إلى دار البلوى. فيؤتون وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون، فيؤمر بهم إلى العذاب»[1]. اهـ.

ثم ذكر القسم الثالث، وهم **خواص الخواص**، فقال:

---

(1) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(وفرح بالله ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها)

قلت: ظاهر متعتها هو حظ البشرية، وهي اللذة الحسية، وهو حال أهل المقام الأول، أعني الغافلين، وباطن منتها هي ذكر المنعم وإقباله عليه وهو حال أهل المقام الثاني.

وأشار إلى حال أهل المقام الثالث فقال:

(بل شغله النظر إلى الله عما سواه)

من المتعة الحسية أو المعنوية (و) شغله **(الجمع)** على الله بالتوكل **(عليه)** فكفاه شؤونه وأموره حتى لم يبق له اهتمام بغير مولاه بل أغناه به عما سواه **(فلا يشهد إلَّا إياه)** ولا يحب شيئاً سواه.

ومما وجد في بعض الكتب المنزلة: يقول الله تعالى: «عبدي إن أطعتني واليتك وإن اتقيتني قرَّبتك، وإن استحييت مني أكرمتك، وإن توكلت عليَّ كفيتك، وإن عصيتني عاقبتك، فعقوبتي لك من أجلك لا من أجلي، جلَّ قدري وعظم فضلي، عبدي إني أعلم منك ما لو علمته زوجتك لسألتك الطلاق ولو علمه عبدك لسألك العتاق ولو علمه أبوك لهان عليه الفراق، عبدي إن جئتني تقول: أسأت، أقول لك: وأنا قد غفرت، وإن قلت: تبت، أقول: وأنا قبلت». اهـ.

ثم ذكر مصداق هذا القسم الثالث، فقال:

(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)

قلت: المراد بالقول في هذا المقام القول القلبي أي اذكر الله على الأشياء كلها تفن ولم يبق إلَّا مولاها، ثم اترك الناس في وهمهم يلعبون. ومن جملة الأشياء النعم التي يتجلى بها، فإذا ذكر الله عليها غاب في شهوده عنها واستغنى به عن كل ما سواه.

قال الشبلي رضي الله عنه: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

وقال أبو محمد الحريري رضي الله عنه: من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر، ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكره اهـ.

تنبيه: كثيراً ما يستدل الصوفية بهذه الآية على الانقطاع إلى الله والغيبة عما سواه، وهو تفسير إشارة لا تفسير معنى اللفظ لأنها نزلت في الرد على اليهود حيث قالوا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ

ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعَام: الآية 91]، فقال لهم الحق تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ [الأنعَام: الآية 91]، فلما لم يجيبوا قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الجَاثيَة: الآية 26] أي قل لهم: أنزله الله، ثم لا تجادلهم بل ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعَام: الآية 91]. والصوفية رضي الله عنهم يقرون الظاهر على ظاهره ويقتبسون إشارات خفية لا يعرف مقصودهم غيرهم، ولذلك رد عليهم بعض المفسرين حيث لم يعرف قصدهم: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 60].

وأما ذكر هذا الاسم باللسان مجرداً ففيه ثلاثة أقوال، أحدها: الجواز مطلقاً. والثاني: الكراهة مطلقاً. والثالث: التفصيل، يجوز لأهل النهايات دون أهل البدايات. والمشهور الأول وعليه طريق الشاذلية ومن تعلّق بهم والله تعالى أعلم.

ولما استدل بما في كتابنا ذكر ما في كتاب مَنْ قبلنا، فقال:

(وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود قل للصديقين بي فليفرحوا وبذكري فليتمتعوا)

قلت: لا يكمل الفرح بالله حتى يخلو القلب من محبة ما سواه، فما دام العبد متعلقاً بشيء من السوى فلا يكمل فرحه بالله ولا يتم تنعمه بذكر الله. أو تقول: ما دامت الروح مسجونة في سجن الهيكل لا يتم فرحها بالله ولا تتنعم بذكر الله، فإن تخلصت من سجن البدن وتحررت من رق الأكوان كمل فرحها بالواحد المنان، وأنشدت:

أنتُم سروري وأنتُم مُشْتَكى ألمي وأنتُم في ظَلامِ اللّيلِ أقماري

فإنْ نطقتُ فلم أنطق بغيركُم وإن صَمَتُّ فأنتُم عقدُ إضماري

وهذا هو الفرح الحقيقي والسرور الأصلي وما سواه أعراض لأغراض.

قال المقدسي: السرور أعلى من الفرح لأن الفرح ربما شيب بالحزن الذي هو مقابله، والسرور لا حزن معه. وقيل: هما شيء واحد. وقال بعضهم: السرور على ثلاثة أقسام: بداية ووسط ونهاية. فبداية السرور يذهب به خوف القطيعة وظلمة الجهل ووحشة الفراق، وأما وسطه فإنه يكشف حجاب العلم ويفك رقّ التكليف وينفي التدبير والاختيار، وأما غايته فإنه يمحو آثار الوحشة ويقرع باب المشاهدة ويضحك وجه الروح لبشارة التجلي، ففي بداية الفرح والسرور يحصل التصديق وفي وسطه يحصل الأنس وفي نهايته يحصل الجمع والوصال. اهـ.

وقد ضرب بعضهم مثلاً للأقسام الثلاثة، أعني من يفرح بالنعم من حيث إنه

ينال فيها شهوته أو يشهد فيها منَّته ومعونته أو يفرح بالمنعم وحده، فقال: مثل ذلك كثلاثة رجال قدموا على السلطان فأعطى لكل واحد فرساً وسيفاً، أما أحدهم فقال: هذا فرس نتمتع به ونركب عليه في حوائجي ونقاتل به عدوي. ففرح به من حيث يقضي به مآربه وشهواته وليس في قلبه محبة للملك إنما جاء لقضاء حاجته. وأما الآخر فقال: هذا فرس نستعين به على خدمة الملك وعلى القدوم عليه وعلى مجاهدة عدوه. ففرح بالفرس من حيث إنه يستعين به على حوائج الملك ومآربه دون حوائج نفسه. وأما الثالث فقال: إن الملك يحبني ويعظمني حتى أعطاني هذا الفرس، فهذا اعتناء من الملك وإقبال عليّ. ففرح بالفرس من حيث إنه يدل على محبة الملك له واعتنائه به. فهذا مَثَل للأقسام الثلاثة. وقد أشبع [الإمام محمد] الغزالي الكلام في هذا المعنى في باب الشكر[1] فانظره إن شئت.

ثم ختم رسالته بدعاء مناسب، فقال:

(والله يجعل فرحنا وإياك به) أي دون غيره، والمخاطب هو المرسل إليه هذه البطاقة أو كل من يطالع كتابه أو يحفظه أو يعمل به أو من يسمعه وقرىء عليه، وإذا كان فرحنا به وحده كنا من القسم الثالث الذي هو مقام خواص الخواص، ومن كان فرحه بالله كان راضياً به ومرضياً عنه كما قال:

(وبالرضى منه) أي ويجعل فرحنا بالرضى من قبله بحيث لا نرضى بشيء دون رضاه عنا فنكون راضين به مرضياً عنا. قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: الآية 119]. ومن تحصن بها تحصن من الغفلة بحصن منيع ولذلك قال:

(وأن لا يجعلنا من الغافلين) الذين يفرحون بالنعم دون شهود المنعم. وقد اشتمل دعاؤه على الأقسام الثلاثة من باب التدلي، فالفرح بالله هو المقام الثالث، وبالرضى منه هو الثاني، واحترز من الأول بعدم جعله منه، وإذا خرج من حرز الغفلة حصل على اليقظة وهي جماع التقوى الذي أشار إليه بقوله:

(وأن يسلك بنا مسلك المتقين) الذين اتقوا الشرك والمعاصي أولاً، والشهوات والعوائد ثانياً، والسوية والغيرية ثالثاً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾ [المائدة: الآية 93]، فالتقوى على ثلاثة أقسام بحسب المقامات، فتقوى أهل مقام الإسلام حفظ الجوارح من المخالفات اتقاء

(1) باب الشكر الموجود في كتابه الشهير (إحياء علوم الدين).

سخط الله، وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية 16]. وتقوى أهل مقام الإيمان حفظ القلوب من الهفوات والخطرات وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية 197]. فإذا تطهر القلب من الهفوات والخطرات منح بشهود معاني الصفات. وتقوى أهل مقام الإحسان حفظ السر مما سوى الله، فإذا تطهر السر من الأغيار منح بشهود الأنوار وهي عظمة الذات، ولكل مقام من مقامات التقوى بواعث تبعث على تقواهم، فالباعث لأهل مقام الإسلام على تقواهم رجاء الثواب وخوف العقاب، فتقواهم على سبيل الخوف والرجاء والباعث لأهل مقام الإيمان على تقواهم شهود الجلال والجمال، فتقواهم على سبيل الهيبة والحياء، والباعث لأهل مقام الإحسان على تقواهم شهود العظمة والكمال فتقواهم على المحبة والتعظيم. وأنشدوا:

فكنْ أيُّها العبدُ المعنَّى أخَا تقَى ... حيثَ التَّرقي في المعارجِ باللُّطفِ
وثقْ بلطيفِ الصنعِ تحظَ بفضلِهِ ... وخلِّص إليهِ القصدَ يغنيكِ بالعطفِ
وفوِّضْ وسلِّمْ و ارقَ في درجِ الصفَا ... على الكونِ تحظَ بالمعارفِ والعرفِ
وتدركُ ما أمسَى الورَى عنهُ في غنَى ... وتعرفُ أشياءَ تجلُ عنِ الوصفِ

ومن حصَّل مقام التقوى وحاز منها الغاية القصوى دام عليه السرور والفرح وذهب عنه الحزن والترح.

روي أن رابعة العدوية رضي الله عنها لقيت عتبة الغلام وهو يتبختر في قميص جديد، فقالت له: ما هذا التيه والعجب الذي ما رأيته منك قبل اليوم، فقال: ومن أولى بهذا مني وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً.

وقال ذو النون: رأيت شيخاً في الركب يمشي وبيده مصحف وهو يقرأ ويهتز ويرقص في مشيته، فقلت: يا شيخ ما هذا الرقص، فقال: قلت في نفسي عبد من أنا وكلام من أنا أتلو وبيت من أنا قاصد فهزتني حالة الفرح وأطربني ذلك من غير قصد مني اهـ.

ثم توسل فيما طلب بمنَّة الله وكرمه فقال:

(بمنِّه وكرمه) أي إنما أطلب ما تقدم من منَّة الله وكرمه لا بسبب عمل ولا حال وكل هذا اعتماد على مولاه فيما أولاه وتولاه في مبدئه ومنتهاه.

[المناجاة]

وها هنا انتهى الكتاب وما بقي إلَّا مناجاة الكريم الوهاب. قال بعض الشراح: هذه المناجاة على قسمين: قسم يقضي بالتعريض والتأهب، وقسم يشهد بالتحقيق والتأدب. وأكثر ما يظهر فضلها للتالي في وقت الأسحار وبعد صلاة الصبح، فلها هناك سر عظيم وفتح جسيم فمن لازمها في ذينك الوقتين وجد بسطاً زائداً على العادة، ولها خواص وأسرار يعرفها من جربها من العباد والزهاد والطالبين لمعرفة رب العالمين. وقد ذكر بعضها الشيخ ابن عباد في نظم الحكم فقال:

لم يبقَ إلَّا ما بهِ المناجاةُ   سياقُهُ حقتْ لهُ المراعاة

لكونه يهذبُ الأسرارا   ويجلبُ الأضواءَ والأنوارا

وأنتَ يا خِلّي ويا صفيي   إن انتهجتَ نهجَ ذا الولي

وسقتَه مساقَه الجميلا   مُنكسِراً وخاضِعاً ذليلا

رأيتَ في باطنِكَ الزيادةَ   والخيرَ واستبشرتَ بالسعادة

ووجه مناسبتها لما قبلها، أن القلب إذا انبسط بالفرح بالحبيب انطلق اللسان لمناجاة القريب، فقال في أولها:

1 ـ (إلٰهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري)

قلت: إنما ابتدأ مناجاته بالتحقيق بالفقر لما يعقبه من سرعة الغنى. وقد قلت في قصيدة تقدمت:

تحقق بوصف الفقر في كل لحظة   فما أسرع الغنى إذا صحح الفقر

قال الشيخ أبو عثمان في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: الآية 55] التضرُّع هو أن تقدم افتقارك وعجزك وعارك وضرورتك وقلة حولك وقوتك، وليس التضرع بالإجهار، ولا يكون للطاعات إظهار. اهـ.

يقول رضي الله عنه: أنا الفقير في غناي الوهمي الإدعائي فكيف لا أكون فقيراً في فقري الحقيقي الأصلي، فغناي بموافقة الأسباب الظاهرة ليس وجوده مني ولا بقاؤه بيدي فأنا فقير في حالة وجوده فكيف لا أكون فقيراً في حالة فقده. أو يقول: أنا الفقير في حالة حياتي التي يظهر فيها صورة غناي بعشيرتي وأحبابي، فكيف لا

أكون فقيراً بعد مماتي حين يتخلَّف عني أحبابي وجيرتي. أو يقول: أنا الفقير إليك في حال غناي بك فلا غنى لي عن زيادة مددك. وهذا كما قال القائل:

أَنَا الفقيرُ إليكمْ والغنيُّ بكُم   وليسَ لي بعدَكُم حرصٌ علَى أحدِ

فكيف لا أكون فقيراً في حال فقري إليك إذا كنت فقيراً في حال نظري إلى غناي بك، فكيف لا أكون فقيراً في حال نظري إلى فقري إليك. ولله در القائل:

إنّي إليكَ معَ الأنفاسِ محتاجُ   لو كانَ في مفرقي الإكليلُ والتاجُ

وفي إظهار الفاقات إلى الله وإنزال حوائجه بساحة مولاه مع رفع الهمة عما سواه من الحظوظ والمكانة وعزازة القدر عند الله ما يكلّ عن وصفه اللسان ويعجز عن حمله واسع الجنان.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى في الدعاء إلَّا قال له الحق: لبيك، لكنه لا يستطيع سمع ذلك، وقد تقدم كلام الله تعالى في بعض الكتب المنزلة، يقول الله تعالى: «ما رفع عبد حاجته إليّ دون خلقي أعلم ذلك من نيّته فتكيده السماوات السبع والأرضون السبع إلَّا جعلت له فرجاً ومخرجاً من أمره». أو كما قال.

وقال أبو القاسم القشيري: من أشار إلى الله ثم رجع بحوائجه إلى غيره أفقره الله إلى الخلق ثم نزع له الرحمة من قلوبهم، ومن شهد محل افتقاره إلى الله ورجع بحوائجه إليه أغناه الله من حيث لا يحتسب وأعطاه من حيث لا يرتقب.

قيل لبعض المحققين: أيطلب العبد الرزق، قال: إن علم أين هو فليطلبه. قال: قيل: أيسأل الله، قال: إن علم أنه نسيه فليذكره قبل أن يتوكل على الله. قال: إن كان في شك فليختبره، قيل: فأي شيء يعمل، قال: ما أمره. اهـ. فليثق العبد بربه وليشتغل بما أمر به وليكن كما قال بهلول المجنون: نعبده كما أمرنا وهو يرزقنا كما وعدنا. ولا يتعلق بمخلوق أصلاً قلباً ولا قالباً وليمح الخواطر التي تخطر بباله من هذا المعنى قبل أن تستحكم فيه فيعاقب بالحرمان ويرمى بالخذلان.

قال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: تهت في البادية حتى ضرني الحال، فسمعت نباح كلب، فأصغيت إليه وأخذت نحوه فإذا بلص قد صفعني فقلت في نفسي: هذا جزاء من توكل على مخلوق. فقيل لي في سري: يا إبراهيم ما دمت في خفارتنا، أي جوارنا وعهدنا، كنت عزيزاً فلما دخلت في خفارة كلب سلّط عليك الخلق فتبت إلى الله تعالى، وإذا بالذي صفعني قد سقط عن جرف وطار رأسه. اهـ. وأنشدوا:

مـددتُ يـدي أرجُـو نـوالاً ورحـمـةً   وما لـي شفـيـعٌ غـيـرَ جُـودِكَ والـرّجَـا
فجدْ لي بعفوٍ منكَ وارحمْ تذلُّلي   فأنتَ الذي أعطيتني الفقرَ واللّجَا

* * *

ثم إن الفقر والجهل من أوصاف العبودية كما أن الغنى والعلم من أوصاف الربوبية، فلما أدلى بفقره إلى غنى مولاه أدلى بجهله إلى سعة علم مولاه فقال في المناجاة الثانية:

2 - (إلٰهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي)

قلت: يقول رضي الله عنه: أنا الجاهل في علمي العارض الذي علّمتني فكيف لا أكون جاهلاً في جهلي الأصلي الذي فيه أركزتني، أو يقول: أنا الجاهل في حال نسبتي إلى العلم الذي علمتني فكيف لا أكون جهولاً في جهلي الذي هو أصلي ومحلي، وما نسبة علم العبودية في جانب علم الربوبية إلّا كنقرة العصفور من البحر كما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية 85]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: الآية 255]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النّحل: الآية 78] فالعلم العارض لا يدفع الجهل الأصلي، هذا باعتبار الحكمة والنظر إلى أصل البشرية. وأما الروحانية فأصلها علامة دراكة لأنها نموذج رباني ولطيفة نورانية فإنما حجبها كثافة البشرية وظلمة الطبيعة كما قال في المباحث:

فـلـمْ تـزلْ كـلُّ نـفـوسِ الأحـيـاءِ   عـلّامـةً درّاكـةً لـلأشـيَـا
وإنَّـمَـا تـحـجـبُـهَـا الأبـدانُ   والأنـفـسُ الـنـزغُ والـشـيـطـانُ
فـكـلُّ مَـنْ أذاقـهُـم جـهـادَهُ   أظـهَـرَ لـلـقـاعـدِ خـرقَ الـعـادَه

* * *

ثم إن من تحقق بفقره الأصلي لا يسكن إلى غناه العارض، ومن تحقق بجهله الأصلي لا يسكن إلى علمه الفرعي، فإن الأمور كلها بيد الغني الكريم والقلوب كلها بيد المدبر الحكيم، كما أبان ذلك في المناجاة الثالثة بقوله:

3 - (إلٰهي إنَّ اختلاف تدبيرك وسرعةَ حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء والياس منك في بلاء)

قلت: اختلاف التدبير هو إقامة كل عبد في حكمته على حسب إرادته ومشيئته من فقر أو غنى، من علم أو جهل، من عز أو ذل، من قبض أو بسط، من

سقم أو صحة أو مرض، من إيمان أو كفر، إلى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوُّع مظاهر الحكمة. وسرعة حلول المقادير هو تبديل تلك الأحوال في أسرع حال من فقر إلى غنى ومن غنى إلى فقر، ومن علم إلى جهل ومن جهل إلى علم، ومن عز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن قبض إلى بسط ومن بسط إلى قبض، ومن سقم إلى صحة ومن صحة إلى سقم، ومن إيمان إلى كفر والعياذ بالله ومن كفر إلى إيمان. فقلوب الخلق بيد الله الواحد القهار يقلبها كيف يشاء ويختار ويفعل بها ما يشاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية 23] فإذا تحقق العبد بهذا امتنع من أن يسكن إلى ما أعطاه مولاه لأنه قد يسلبه ذلك في ساعة واحدة، وامتنع أيضاً أن ييأس من مولاه في وقت شدته وبلواه. قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: الآيتان 5،6] ودوام حال من قضايا المحال، لكن لم يتحقق بهذا ذوقاً إلَّا العارفون، فلذلك لا يسكنون إلى عطاء ولا ييأسون في بلاء بل يسكنون إلى من بيده المنع والعطاء، فلذلك لا يزول اضطرارهم ولا يكون مع غير الله قرارهم. ودليل ما قاله الشيخ قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية 29] ولا مفهوم لليوم، بل في كل لحظة هو في شأن، يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعز قوماً ويذل آخرين، يميت قوماً ويحيي آخرين، يعطي قوماً ويمنع آخرين، من أمور يبديها لا يبتدئها.

وقال بعضهم في تفسير الآية: كل يوم يجهز ثلاثة عساكر، عسكراً من الأصلاب إلى الأرحام، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون إلى الله جميعاً اهـ. وقد تقدم بعض الكلام على علامات العارف.

وقال الشطيبي في هذا المحل: فقلوب العارفين تشاهد بنوره ولا مشاهد للحق سواه، ومنازلات الربوبية خارجة عن رسوم البشرية، فعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيه ما غاب من غيره، وجلاء القلب لا يكون إلَّا بنور الإيمان والإيقان، فعلى قدر قوة الإيمان يكون نور القلب وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة الحق، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة بأسمائه وصفاته، وبقدرهما يكون التعظيم لذاته وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد، وبقدر كماله يكون استغراقه في أوصاف العبودية، وبقدر استغراقه في أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية، وما قدروا الله حق قدره اهـ.

قلت: وبقدر قيامه بحقوق الربوبية يكشف له عن أسرار الألوهية. وأنشدوا:

كانتْ محادثةُ الركبانِ تخبرني ... عن فضلِكُم وسناكُم أطيبَ الخبرِ

حتى التقينَا فلَا واللَّهِ مَا سمِعتْ أذني بأحسنَ ممَا قدْ رأى بصرِي

* * *

ومن أوصاف العبودية بعد الفقر والجهالة، الخساسة واللآمة كما أن من أوصاف الربوبية بعد الغنى والعلم الإحسان والكرم. فأدلى الشيخ بذكر لآمة نفسه إلى كرم مولاه وإحسانه، فقال في المناجاة الرابعة:

4 - (إلٰهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك)

اللؤم بضم اللام وسكون الهمزة هو الشح والدناءة، وفي القاموس: لؤم بالضم ضد كرم. يقول رضي الله عنه: إلٰهي يظهر مني من الدناءة والخساسة واللآمة والمساوي ما يليق بلآمتي ودناءتي، ويظهر منك من المبرَّة والإحسان والكرامة والامتنان وتغطية المساوي والنقصان ما يليق بكرمك الزاخر وكمال إحسانك الباهر فقابل إساءتنا بإحسانك وغط مساوينا بوصف كرمك وامتنانك، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة يا أكرم الأكرمين.

حكي عن بعض الناس أنه قال: إلٰهي كم أعصيك وأنت تسترني، فسمع قائلاً يقول: لتعلم أني أنا وأنت أنت. وقيل: إن الله تعالى خلق ملكاً ينادي: يا ابن آدم يا مسكين كنت في العدم مفقوداً فمن ذا الذي صيَّرك نسخة الوجود إلَّا الكريم ذو الجود، من ذا الذي أبرزك من عالم الغيب لعالم الشهود، من ذا الذي استنقذك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، من ذا الذي تكفل بشؤونك إلَّا الكريم المنان، فكن مطيعاً لله تكن عبده حقاً ولا تطع نفسك وهواك فتكون لهما رقّاً اهـ.

ومن كرمه تعالى أن سبقت رحمته غضبه، ومن كرمه أيضاً إقباله على العاصي والمطيع. ففي الحديث الصحيح: «لما خلق الله الخلق قال للقلم: اكتب، قال: وما أكتب، قال: اكتب رحمتي سبقت غضبي. فكتبه وألقى الكتاب فوق العرش»[1] زاد بعضهم: «فإذا كان يوم القيامة رأى الناس ذلك الكتاب فيقرأه كل من سبقت له السعادة ويحجب عن أهل الشقاوة».

وفي الحديث أيضاً: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى خلق مائة رحمة أنزل منها واحدة إلى الأرض وأمسك عنده تسعة وتسعين، فمن تلك الرحمة الواحدة التي أهبطت إلى الأرض تراحمت الخلائق بينهم حتى أن الدابة لترفع حافرها عن ولدها**

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

خشية أن تصيبه[1]، فإذا كان يوم القيامة ضم تلك الرحمة إلى التسع والتسعين ونشرها بين عباده فتسع الخلق كافة ويحرم منها من هو كافر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية 156]» الآية. اهـ بالمعنى.

ويروى أن رجلاً اصطاد أفراخاً فلما أخذهم جعلت أمهم تطير فوقهم ثم سقطت عليهم فضمها مع أولادها فأتى بها النبي ﷺ فأخبره خبرها فقال عليه السلام: «أتعجبون لهذا الطائر، والله لله أرحم بعبده المؤمن من هذا الطائر بأفراخه»[2].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «يخرج من النار رجلان ثم يمثلان، أي يوقفان، بين يدي الله فيؤمر برجوعهما إلى النار فيسرع أحدهما فيلقي نفسه فيها ويتعاصى الآخر عن الرجوع فيقال للذي رمى بنفسه: لم ألقيت نفسك في النار، فيقول: لئلا أكون عاصياً في الدنيا ثم أكون عاصياً في الآخرة. ويقال للآخر: لِمَ لَمْ تمتثل الأمر كما فعل هذا، فيقول: رجوت من كرم الله أن لا يعيدني إليها بعد أن أخرجني. فيؤمر بهما إلى الجنة».[3] وأنشدوا:

ولَوْ أنَّ فرعونَ لمَّا طغَى وقالَ علَى اللَّهِ قولاً عظيمَا
أنابَ إلى اللَّهِ مستغفراً لمَّا وجدَ اللَّهَ إلَّا رحيمَا

* * *

وكيف لا يرجى حلمه وكرمه وشمول لطفه ورحمته وقد سبق وجود العباد لطفه ورأفته كما أبان ذلك في المناجاة الخامسة حيث قال:

---

(1) رواه الدارمي، باب إن لله مائة رحمة، حديث (2785) [2/ 413].

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، السابع والأربعون من شعب الإيمان، حديث رقم (7131) [5/ 421] والصنعاني في تفسيره، سورة هود.

(3) أخرج نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في رحمة الله [10/ 384] ونصه: عن فضالة بن عبيد وعبادة بن الصامت أنهما حدثا أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة وفرغ الله تعالى من قضاء الخلق فيبقى رجلان فيؤمر بهما إلى النار فيلتفت أحدهما فيقول الجبار: ردوه، فيردونه، فيقول: لم التفت؟ قال: كنت أرجو أن تدخلني الجنة، قال: فيؤمر به إلى الجنة فيقول: لقد أعطاني الله عز وجل حتى إني لو أطعمت أهل الجنة ما نقص ذلك مما عندي شيئاً، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا ذكره يرى السرور في وجهه». رواه أحمد ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «آخر من يخرج من النار رجلان، يقول الله لأحدهما: يا ابن آدم ما أعددت لهذا اليوم هل عملت خيراً قط، أو رجوتني؟ فيقول: لا يا رب. فيؤمر به إلى النار وهو أشد أهل النار حسرة. ويقول للآخر: هل عملت خيراً قط أو رجوتني؟ فيقول: نعم يا رب، كنت أرجو إن أخرجتني أن لا تعيدني فيها وهو آخر من يدخل الجنة». رواه أحمد والبزار وزاد: هل خفتني، ورجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو حسن الحديث.

5 - (إلٰهي وَصَفْتَ نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي)

قلت: اللطف بالضم الرفق والمبرة وصلاح العبد في عاقبته. وفي القاموس: لطف لطفاً بالضم رفق ودنا، ولطف الله بك أوصل إليك مرادك بلطف اهـ. والرأفة شدة الرحمة وأرقها. قاله في القاموس أيضاً. والضعف ضد القوة، يقول رضي الله عنه شاكياً إلى الله ضعفه وفقره ومستمداً من مولاه لطفه ورأفته: إلٰهي وصفت نفسك في كتابك العزيز الذي أنزلته إلينا باللطف والرأفة فقلت فيه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: الآية 19]، وقلت: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: الآية 9]، واتصافك باللطف والرأفة قديم فإذا كنت بنا لطيفاً رحيماً قبل وجود ضعفنا فكيف لا تمنحنا من لطفك ورأفتك بعد ظهور ضعفنا، لطفت بنا ونحن للطف غير محتاجين أفتمنعنا منه عند احتياجنا إليه وأنت أرحم الراحمين، أجريت علينا رفقك قبل أن تبرزنا إلى دارك أفتمنعنا منه بعد ظهورنا مع عظيم إبرارك. ومن تفكّر في عجائب صنع الإنسان وما خصه الله به من كمال الخلق والإتقان وما يلحقه من ضروب المنن والإحسان، وجد نفسه مغموراً في لطف مولاه مرفوقاً به في أول منشئه ومنتهاه.

قال بعض الحكماء: قد أدركت العقول مما أودع في الإنسان اثنتي عشرة ألف حكمة، وأما الذي لم تدركه العقول فلا يعلمه إلَّا الله هذا في خاصة نفسه وأما في غذائه وشرابه ولباسه وسائر لوازمه فأكثر من ذلك. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: الآية 4] وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: الآية 24] الآية فسبحان من أعجزت العقول بدائع ألطافه وقصرت الأفكار عن عظيم أوصافه وهو اللطيف الخبير، ما أكثر لطائفه للمبتدئين وأوضحها للمستيقظين وأعظمها في جميع المخلوقين، قد سرى لطفه في جميع الأكوان وأبهرت حكمته أفكار الإنس والجان. وأنشدوا:

أحاطَ بتفصيلِ الدقائق علمُهُ — فأتقنها صُنْعاً وأحكمَها فِعْلا
فمِنْ لطفِهِ حفظُ الجنينِ وصونُهُ — بمستودعٍ قدْ مرَّ فيهِ وقدْ حَلا
تَكَنَّفَهُ باللطفِ في ظلماتِهِ — ولا مِال يُغنيهِ هناكَ ولا أهْلا
ويأتيهَ رزقٌ سابغٌ منهُ سائغٌ — يروحُ لهُ طَوْلاً ويغدُو لهُ فَضْلا
وما هوَ يَستدعِي غذاءً بقيمةٍ — وَلا هو مِمَنْ يُحْسِنُ الشُّرْبَ والأكْلا
جرَى في مجاري عِرْقِهِ بِتَلَطُّفٍ — بلا طلبٍ جَرْياً على قدرِهِ سَهْلا

وأجرى له في الثَّدي لُطْفَ غِذائِهِ ... شراباً هنيئاً ما ألذَّ وما أحلَا
وألهَمَهُ مصًّاً بحكمةِ فاطِرٍ ... تجلّى لأربابِ العقولِ بمَا أولَى
وأخَّرَ خلقَ السِّن عنهُ لوقتِهَا ... فأبرزهَا عَوْناً وجاءَ بها طَوْلا
وقَسَّمَها للقطعِ والكسرِ قِسْمَةً ... وللطَّحْنِ أعطَى كلَّ قِسْمٍ لها شَكْلا
وصرفَ في لَوْكِ الطعامِ لسانَه ... يُصَرِّفُهُ علواً إذا شَاءَ أو سُفْلا
ولو رامَ حصراً في تَيَسُّر لقمةٍ ... وألطافُهُ فيما تَكَنَّفَهَا كلا
فكم خادمٍ فيهَا وكمْ صانعٍ لهَا ... كذلكَ مشروبٌ وملبُسُه كلا
وكم لطفٍ منْ حيث تحذَرُ أكرمتَ ... وما كنتَ تدري الفرعَ منها ولا الأصْلَا
ومنْ لطفِهِ تكليفُهُ لعبادِهِ ... يسيراً وأعطاهُم مِنَ النِّعم الجَزْلا
ومِنْ لطفِهِ توفيقُهُم لإنابةٍ ... تُوَصِّلُ للخيراتِ منْ حبلِهِم حَبْلا
ومِنْ لطفِهِ بعثُ النبي محمدٍ ... ليشفعَ في قومٍ وليسُوا لها أهلا
ومِنْ لطفِهِ حفظُ العقائِدِ منهُمُ ... ولو خالفَ العاصِي المُسِيءُ وإنْ زلا
ومِنْ لطفِهِ إخراجُهُ عَسَلاً كَمَا ... تُشَاهِدُ مِمَّا كان أودعَهُ النَّحْلا
وإخراجُهُ مِنْ بينِ فرثٍ مُجَاوِرٍ ... دَماً لبناً صرفاً بلا شائبٍ رِسْلا
وإخراجُهُ مِنْ دُودَةٍ مَلْبَساً له ... رُوَاقاً عجيباً أحكَمَتْهُ لنَا غَزْلا
واعجبُ مِنْ ذا خلقُهُ القلبَ عارفاً ... به شاهداً بلا شبيهٍ ولا مِثْلا
وألطافُهُ للبحرِ المحيطِ فَخُذْ بما ... بَدَا لكَ واشهدْهَا وإيَّاك والجَهْلا
وصَلِّ علَى المُخْتَار أفضَلِ مُرْسلٍ ... على خالِصِ العرفانِ باللَّهِ قَدْ دَلا

* * *

فهذه ألطافه الواصلة إلينا ومحاسنه الجارية علينا، فإن وفّقنا سبحانه للقيام بشكرها بمحاسن الأفعال والأقوال فذلك من فضله وكرمه، وإن صرفنا عن شكرها بظهور مساوي أفعالنا فبقهره وعدله كما أبان ذلك في المناجاة السادسة فقال:

6 - (إلٰهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنّة عليّ وإنْ ظهرت المساوىء مني فبعدلك ولك الحجة عليّ)

قلت: ظهور المحاسن على الإنسان في أقواله وأفعاله وأخلاقه هو من منَّة الله العظيمة وهداياه الجسيمة، لأنه عنوان المحبة والقبول وذلك هو غاية المطلوب

والمأمول. وظهور المساوي على العبد في أقواله وأفعاله هو من عدله تعالى وقهره، وإظهار الحجة عليه، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعَام: الآية 149]، فالعبد ليس له مع الحق اختيار ولا قدرة على نفع ولا إضرار، فإن صرفه سيده فيما يرضى فلظهور اسمه الكريم، وإن صرفه فيما لا يرضى فلتصريف اسمه الحكيم، أو لإظهار اسمه القهار أو المنتقم أو الجبار، فالنواصي بيده، والقلوب بين أصبعيه.

ولله در الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه حيث يقول في بعض أدعيته: اللهمَّ إن حسناتي من عطائك وسيئاتي من قضائك، فجد اللهمَّ بما أعطيت على ما به قضيت حتى تمحو ذلك بذلك، لا لمن أطاعك فيما أطاعك فيه الشكر، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه العذر، لأنك قلت وقولك الحق ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية 23] اللهمَّ لولا عطاؤك لكنت من الهالكين، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين، وأنت أجل وأعظم وأعز وأكرم من أن تطاع إلَّا برضاك أو أن تعصى إلَّا بقضائك.

إلٰهي ما أطعتك حتى رضيت ولا عصيتك حتى قضيت، أطعتك بإرادتك ولك المنَّة عليَّ وعصيتك بقدرتك ولك الحجة عليَّ، فبوجود حجتك وانقطاع حجتي إلَّا ما رحمتني، وبفقري إليك وغناك عني إلَّا ما كفيتني.

اللهمَّ إني لم آت الذنب جرأة مني عليك ولا استخفافاً بحقك لكن جرى بذلك قلمك ونفذ به حكمك ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك والعذر إليك وأنت أرحم الراحمين.

اللهمَّ إن سمعي وبصري ولساني وقلبي وعقلي بيدك لم تملكني من ذلك شيئاً، فإذا قضيت بشيء فكن أنت وليي واهدني إلى أقوم سبيل يا خير من سئل ويا أكرم من أعطى، يا رحمٰن الدنيا والآخرة ارحم عبداً لا يملك دنيا ولا آخرة. اهـ وهو الذي اختصره الشيخ في هذه المناجاة بأحسن عبارة وأوجز لفظ، فللَّه دره وهذا شأنه في تهذيب طريق الشاذلية جزاه الله عن المسلمين خيراً.

ومثل هذه المناجاة وقعت من بعض الصالحين، روي أن شاباً من العباد تعلّق بأستار الكعبة وقال: إلٰهي إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتك فبجهلي ولك الحجة عليَّ، فبإثبات حجتك وانقطاع حجتي إلَّا ما غفرت لي. فسمع هاتفاً يقول: أنت عتيق من النار اهـ.

وقال ذو النون رضي الله عنه: رأيت جارية والصبيان يرمونها بالحجارة فكففتهم عنها فنظرت إليَّ وقالت كأنها تعرفني: يا ذا النون ما علامة الصدق، قلت: صيام

النهار وقيام الليل، فقالت: يا ذا النون كيف يلذّ النوم لمن علم حبيبه لا ينام، ثم بكت وقالت: إلٰهي إن فكرت في إحسانك إليّ لم أبلغ كنهه بفكري، وإن ذكرت سترك عليَّ لم أقم فيه بشكري فيا عجباً لقلوب العارفين بك كيف لا تتفطر إجلالاً لقدرك وإعظاماً لوصفك، تباركت يا مولانا ما أحلمك على من عصاك، وما أفضلك على من لم تدع له شغلاً بسواك. ثم أنشدت:

يا حبيبَ القلوبِ أنتَ الحبيبُ ... أنتَ أُنسِي وأنتَ منِّي قريبُ
يا طبيباً بذكرِهِ يتداوى ... كلُّ ذي سَقَمٍ فنِعْمَ الطبيبُ
طلعَتْ شمسُ مَنْ أحبُّ بليلٍ ... واستنارَتْ فمَا تلاهَا غروبُ
إنَّ شمسَ النَّهارِ تغربُ بليلٍ ... وشموسُ القلوبِ ليست تغيبُ
فإذَا مَا الظلامُ أسبَلَ سِتْراً ... فإلى ربِّهَا تحِنُّ القلوبُ

* * *

وإذا حنَّت القلوب إلى مولاها وانضمت إليه بعشقها وهواها كيف يكلها إلى غيره وهو قد تولاها، وكيف لا ينصرها وهو إليه قد آواها، كما أبان ذلك في المناجاة السابعة بقوله:

7 ـ (إلٰهي كيف تكلني وقد تكفلت لي وكيف أضام وأنت الناصر لي أم كيف أخيب وأنت الحَفِيُّ بي ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك)

(إلهي كيف تكلني) أي تحوجني إلى غيرك **(وقد تكفلت لي)** بأموري وشؤوني كلها حيث قلت: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ **[الطّلَاق: الآية 3]**، وقلت: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ **[هُود: الآية 6]** **(وكيف أضام)** أي أظلم وتنتهك حرمتي **(وأنت الناصر لي)** فتنصرني وتنصر لي وتنصر بي وقد قلت في كتابك الحكيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ **[الحَجّ: الآية 38]**، وقلت وقولك الحق: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ **[محَمَّد: الآية 7]**، وقلت وحكمك حق: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[الرُّوم: الآية 47]** فانصرنا يا خير الناصرين كما نصرت أنبياءك ورسلك وخاصة أوليائك المقربين يا أرحم الراحمين **(أم كيف أخيب)** أي أحرم وأمنع من الخير **(وأنت الحفي بي)** أي المعتني بأموري، أو الرفيق بي في جميع أحوالي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **[البَقَرَة: الآية 257]**، وقال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ **[الأعرَاف: الآية 196]** فتولنا يا مولانا برعايتك وحفنا بعنايتك واجعلنا بك منتصرين وعليك متوكلين يا رب العالمين. **(ها أنا أتوسل بفقري إليك)** حتى من فقري،

وافتقاري إذ لا نسبة لي منك سوى فقري إليك، فأنا فقير إليك من كل شيء حتى من فقري فإن كان الأغنياء قد قدموا بين أيديهم الأموال فأنا أقدم إليك فقري في جميع الأحوال، وإن كان الأقوياء قد قدموا إليك صالح الأعمال فأنا أقدم إليك التضرُّع والابتهال.

ما لي سِوى فقري إليكَ وسيلةٌ فبالافتقار إليكَ ربي أضرعُ
ما لي سوى قرعِي لبابكَ حيلةٌ فلئن رددتُ فأيُّ بابٍ أقرعُ

وأي نسبة لفقر العبد من غنى مولاه، كما قال:

7 - (وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك)

لأنك غني عن الانتفاع بالمنافع، فاغننا بك عن الاحتياج إلى غيرك حتى ألقاك بك لا بغيرك إنك على كل شيء قدير.

روي أن شيخ أشياخنا القطب الجامع مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه قال للشيخ أبي الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه: يا أبا الحسن بم تلقى الله، قال: بفقري، قال له: والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقاه بالصنم الأعظم هلا لقيته به. وكأنه رضي الله عنه دلّه [على] الزوال عن نفسه وعن كل ما ينسب إليها من فقر وغيره.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: ويجاب عن أبي الحسن بأنه أراد بفقره حتى من فقره المنسوب إليه وهو الزوال فإذا صح افتقاره من كل شيء فقد صح غناه بالله عن كل شيء، وإذا صح غناه بالله فما يلقى الله إلَّا بالله.

قال الهروي رضي الله عنه: فقر العامة ترك الدنيا، وفقر الخاصة ترك الدنيا والآخرة، وفقر خاصة الخاصة ترك الدنيا والآخرة والنفس اهـ.

وإظهار هذه الأمور بين يدي العليم الخبير عبودية فقط، ولذلك قال:

7 - (أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك)

إذ محال أن يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، فحسبي من سؤالي علمه بحالي **(أم كيف أترجم إليك بمقالي)** عما في ضميري **(هو)** أي مقالي **(منك برز)** إذ لا موجد سواك غير أن مقام الربوبية يقتضي وظائف العبودية وهي إظهار الفاقة والاحتياج والتضرُّع باللسان والابتهال دون طلب دفع ما قدر أو جلب ما لم يقدر كما قال الشيخ أبو الحسن: ولا

نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد، كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك إنك على كل شيء قدير.

7 ـ **(أم كيف تخيّب آمالي)** أي مطامعي وحوائجي **(وهي وفدت عليك)** أي نزلت بساحة كرمك وعلى ساحل بحر وجودك وحطت الأحمال على باب فضلك والتجأت إلى حصن عزك، وكيف تخيّبون آمال الطامعين وباب كرمكم مفتوح، أم كيف يحرم قاصدكم وبحر فضلكم وإحسانكم ممنوح، أم كيف يضام جاركم وجاه عزكم منيع، أم كيف يخفر جواركم ونفوذ أمركم في الأشياء سريع. وأنشدوا:

أَيُضَامُ عبدٌ في حِمَاكُم قَدْ نَزَلْ ... يَا مَنْ لهم كلُّ الأمانِي والأمَلْ

7 ـ **(أم كيف لا تحسن أحوالي)** بل لا تكون إلّا في غاية الحسن والكمال (و) الحال أنها **(بك قامت)** إذ لا قيام للعبد إلّا بالله ولا وجود له من ذاته بذاته وكل من كان بالله ومن الله وإلى الله فكيف يلحقه النقص والخلل، ولذلك قال: **(وإليك)** أي قامت بقدرتك وانتهت إلى أمرك ومرادك فالأمور كلها أنت مبدؤها ومصدرها وإليك منتهاها ومرجعها، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: الآية 123] وأنشدوا:

أقبِلْ علينَا لا تخفْ فلنَا الهُدَى ... ولنَا الجلالُ مَعَ الجمالِ خُذِ الصَّفا

واقصِدْ حِمَانَا ما أتانَا مذنبٌ ... إلّا نجَا لَوْ كانَ مِنْ الذنوبِ على شَفَا

اللهمَّ إنَّا قصدنا حماك خاضعين ولجنابك منتسبين وبحبل جوارك متمسكين وبعز جاهك مستعزين وبنصرك السريع منتصرين فانصرنا ولا تنصر علينا يا خير الناصرين، حاشا عهدك الوافي ونصرك الكافي أن تخذل من دخل تحت جوارك أو تطرد من وقف ببابك يا خير من سئل ويا أكرم من أعطى، ارحم عبداً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً برحمتك يا أرحم الراحمين.

* * *

8 ـ (إلٰهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي)

قلت: هذه المناجاة الثامنة وهي تتميم لما قبلها، لأن الحق إذا كان وكيلاً لك وناصراً لك وحفياً بك فقد لطف بك وأنت لا تشعر، فاللطف هو سوق المسار من حيث المضار أو سوق المنافع في قالب الفجائع.

(والحاصل) أن اللطف هو جلب الخير جلباً لطيفاً لا يعرفه إلّا أهل البصائر،

فاللطف الجميل هو الذي يكون باطنه نعمة وظاهره نقمة، باطنه جمال وظاهره جلال، فالعارف بالله يرى نفسه مغموراً في اللطف في كل حال، ولذلك قال الشيخ رضي الله عنه فيما تقدم: من ظنّ انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره، وأما الجاهل بالله فلا يشعر باللطف إلَّا إذا كان حسياً ظاهراً جلياً، ولذلك قال الشيخ في هذه المناجاة تواضعاً وتنزلاً: **(إلهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي)** حيث جهلت لطفك الخفي وطلبت لطفك الجلي. ولو عاملنا الحق تعالى بمقتضى جهلنا لنزع لطفه الخفي عنا وتركنا مع مرادنا ولكنه سبحانه حليم فلم يعاملنا بمقتضى جهلنا فلطف بنا مع عظيم جهلنا، ولذلك تعجب الشيخ من شدّة لطف الله به مع عظيم جهله، وهذا كما قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: إذا سألت الله العافية فاطلبها من حيث يعلم أنها لك عافية. وقال أيضاً في مرضه حين قال له إنسان: اسأل الله لك العافية، قال له: ما أنا فيه هو العافية. وقد سأل العافية أبو بكر رضي الله عنه فمات مسموماً، وسألها عمر رضي الله عنه فمات مطعوناً، وسألها عثمان رضي الله عنه فمات مذبوحاً، وسألها علي رضي الله عنه فمات مقتولاً اهـ.

فالعافية واللطف هو الرضى والتسليم وسكون القلب عند مجاري الأقدار، والرحمة هي اللطف والمحبة والتقريب، فالحق تعالى يريد أن يقرِّب عبده إليه ويطوي مسافة البعد بينه وبينه بما يسلط عليه من إذاية الخلق والفقر والأمراض وغير ذلك مما يؤلم النفس. ثم إن العبد يفر منها ويسأل الله أن يبعده منها لأجل جهله وقبيح فعله، ولذلك ورد في بعض الأخبار يقول الله تعالى: «يا عبدي كيف أرحمك بدفع ما به أرحمك»[1]، أو كما قال. وهذا معنى قوله:

9 ــ (إلهي ما أرحمك بي مع قبيح فعلي) وهو هروبي مما به رحمتني.

ويحتمل أن يريد بقبيح الفعل الذنوب والمعاصي، فإنها توجب المقت والبعد، فلو عاملنا بمقتضى فعلنا الذميم لأذاقنا من بأسه الأليم، لكن رحمة الرحمٰن الرَّحيم غلبت عذابه الأليم أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام: يا موسى خاطب المذنبين باللطف واللين وادعهم إليّ بالقول الجميل، ورغِّبهم في النعيم المقيم، ولا تغلظ عليهم فلو شئت أن أعجل عقوبتهم لما أمهلتهم طرفة عين، وأعلمهم أنه من تاب إليَّ قبلته ومن تمادى أمهلته ومن عصاني عذَّبته، يا موسى من ذا الذي قصدني صادقاً فخيَّبته أو لجأ إليَّ فأسلمته، أو سألني فمنعته أو رجع إليّ فطردته، أو تاب إليّ

(1) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وما قبلته، أو تضرَّع إليَّ وما رحمته اهـ.

ولما أنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: الآية 30] قال سيدنا علي كرَّم الله وجهه ما معناه: يا رسول الله قال علي: من آخذه الله بذنبه في الدنيا فهو أكرم من أن يعذِّبه عليه في الآخرة، ومن عفا عنه في الدنيا فهو أعز من أن يعاقبه في الآخرة، ومن ستره في الدنيا فهو أجل من أن يفضحه في الآخرة، قال علي: فكانت عندي خيراً من الدنيا وما فيها. وأنشدوا:

سبحانَ مَنْ أَبدَعَ الأشياءَ وقدَّرَهَا   وَمَنْ يجودُ على العاصِي ويستُرُهُ
يُخْفِي القبيحَ ويُبْدِي كلَّ صالحةٍ   وَيَغْمُرُ العبدَ إحساناً ويشكُرُهُ

* * *

ولما كان اللطف يقتضي التهذيب والرحمة تقتضي التقريب، تعجب الشيخ من شدة قرب الحق للعبد مع شدة بعد العبد عنه، فقال في المناجاة التاسعة:

10 - (إلٰهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك وما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك)

قلت: قرب الحق من العبد قرب رحمة واجتباء وتقريب واصطفاء، هذا في حق الخواص، وفي حق العوام هو قرب إحاطة وقدرة وعلم ومشيئة وتصريف وقهرية، والمراد هنا هو الأول، فإنَّ بعد العبد من ربه إنما هو بسوء أدبه وإلا فالحق تعالى قريب من كل شيء محيط بكل شيء، ليس شيء أقرب إليه من شيء ولا شيء أبعد إليه من شيء، وما بعد العبد من ربه إلَّا وهمه وسوء فعله، ولذلك قال الشيخ تواضعاً وأدباً: إلٰهي ما أقربك مني بلطفك ورأفتك وعلمك وإحاطتك وما أبعدني عنك بوهمي وسوء أدبي، أو ما أقربك مني بأوصاف الربوبية وما أبعدني عنك بأوصاف العبودية، فأوصاف الربوبية رفيعة القدر عظيمة الشأن وأوصاف العبودية خسيسة القدر دنيئة المقدار، فلا مناسبة بينهما في القدر مع تلازمهما في المحل بتحقيق الوحدة، فهما متلازمان في القيام متضادان في الأحكام، والرأفة شدة الرحمة والعطف وذلك يقتضي شدّة القرب والوصال وينفي وجود السوية والانفصال، وهو الحجاب، ولذلك تعجب الشيخ من وجود الحجاب بينه وبين مولاه مع شدّة رحمته له وحباه، إذ من تعطف عليك وآواك لا يمكن أن تلتفت عنه إلى سواه.

وفي الحكمة مكتوب: يا عبدي قد أسجدت لك الكون بما فيه الملك وأملاكه والملكوت وأملاكه، فأنت أنا بما أيدتك وأنا أنت بما قلدتك، فعش للأبد فمقامك

لا يزاحمك فيه أحد، يا عبدي خرقت لك الحجاب وفتحت لك الباب وأظهرت لك الأمر العجاب فأبلغ قومك اللباب ولو قالوا: ساحر أو كذاب فأنا قد وهبتك الأخلاق فدعهم يقولون: إن هذا إلا اختلاق. يا عبدي قد جعلتك تقول للشيء كن فيكون وما عليك إن قالوا ساحر أو مجنون، أنت تشرب من رحيق الكوثر وهم يقولون إن هذا إلَّا سحر يؤثر، عرجت بسرك إلى السماء وعلمتك خصائص الأسماء، فأنت أمين خزائن التحقيق الدال لجمع الخلق على الطريق. يا عبدي من طعن في الوزير وسفه أمره فقد رد أمر الأمير وجهل قدره من أطاع الرسول فقد أطاع الله اهـ.

فالله تعالى بجوده وفضله إذ اصطفى عبداً من عباده قرّبه بفضله واجتباه لحضرة قدسه وصفاه من كثائف طبعه وحمى شخصه من رعونات نفسه، فيصير من أهل قربه، قد ارتفع الحجاب عن عين قلبه فزجت روحه في بحار الأحدية وغاب سره في سبحات الألوهية، فإن كان ممن أريد الاقتداء به رد إلى شهود سر وجوده، وقد كحلت عين قلبه بسر الحقيقة وكسيت ذاته وجوداً معاراً عليها وهو وجود الحق المفاض على جميع الممكنات، فيرى ذاته المتوهمة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ووجد الله عنده، هنالك يصير العبد بالله ولله، أمره بأمر الله حيث لم يبق فيه شائبة لسواه ولا شيء يحجبه عن الله، فهذا الذي أحبه مولاه واصطفاه لحضرة قدسه واجتباه لمناجاته وأنسه، فكان سمعه وبصره وناصره وحافظه في متقلبه ومثواه، هناك يصير عارفاً به في كل حال وخصوصاً عند اختلاف الأحوال.

* * *

كما أشار إلى ذلك في المناجاة العاشرة فقال:

11 ـ (إلٰهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك مني أن تتعرّف إليّ في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء)

قلت: إنما اختلفت آثار القدرة لتعرف عظمة القادر، واختلافها يكون في الأجسام كالعلويات والسفليات والجمادات والمائعات والنورانيات والظلمانيات والمائيات والناريات، وكاختلافها في الحيوانات كأجناس بني آدم والأنعام والبهائم والطيور والسباع والوحوش والحشرات، وباختلافها في الأعراض كالبياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والشهوبة وغير ذلك من الألوان لتعرف من ذلك سعة قدرته وعلمه وعظمة ذاته المقدسة، وإنما تنقلات أطوارها من شباب وكهولة وشيخوخة ومن مرض وصحة وفقر وغنى وعز وذل وسلب ورد ومنع وعطاء وقبض وبسط وجلال وجمال وحياة وموت إلى غير ذلك لتعرفه تعالى في كل حالة من هذه الأطوار. وعند

اختلاف أجناس هذه الآثار حتى لا نجهله في شيء منها.

فإن الحق تعالى قد تعرّف لعباده في أجناس مصنوعاته وفي اختلاف أحوال قدرته جهله من جهله وعرفه من عرفه فلا يسمى الإنسان عارفاً حتى يعرف الله في الأشياء كلها مع اختلاف آثارها وتنقلات أطوارها فيعرفه في الذل كما يعرفه في العز، ويعرفه في السلب كما يعرفه في العطاء، ويعرفه في المرض كما يعرفه في الصحة، ويعرفه في الجلال كما يعرفه في الجمال، إلى غير ذلك مما تقدم. ويتلوَّن مع كل لون ويتطوَّر مع كل طور، فالعارف هو الذي يتطوَّر بجميع الأطوار ليقضي جميع الأوطار. والتلوُّن مع الأشياء هو الأدب معها والخضوع مع الحق فيها، وأما من كان يعرف في الجمال دون الجلال وفي العطاء دون المنع، وفي العز دون الذل، وفي الصحة دون المرض أو في العافية دون المحنة، أو في الغنى دون الفاقة، أو في الرخاء دون الشدة، فإنه كذاب. وانظر إلى قول القائل:

حَبيبي ومحبُوبي علَى كلِّ حَالةٍ

وما أقبح الإنسان يدَّعي الخصوصية والمعرفة ونفي السوى، فإذا تعرّف له الحق تعالى باسمه الجليل أنكره وهرب منه، وهذه عادة الله تعالى في عباده، كل من ادعى خصوصية أو قوة اختبره في الحين ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 8]، فيفتضح المدعون ويثبت الصادقون.

وقد ذاق الشيخ رضي الله عنه هذا المعنى بعد أن كان يعرف في البعض وينكر في البعض، فلما تحقق علم أن اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، إنما سرها ليعرف الحق بها، فقال: إلٰهي قد علمت، أي تيقنت، باختلاف الآثار، أي آثار القدرة وتنقلات الأطوار أي الأعراض والأحوال أن مرادك مني أن تتعرّف إليَّ في كل شيء من اختلافات أجناس القدرة وتنقلات أطوارها حتى لا أجهلك في شيء منها.

قال في التنوير[1]: كل حالة زائلة لا محالة، لأن مراد الحق أن ينقل عبده في الأطوار ويخالف عليه الآثار حتى يتعرف إليه في كل حالة خاصة بتعرف خاص، ومن أراد حالة واحدة لم يرد الكمال اهـ. فالله تعالى إنما أراد من عباده معرفته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية 56]. قال ابن عباس: أي ليعرفون، ومعرفته إنما تكون بتخالف الآثار وتنقلات الأطوار. وذكر غيره

---

(1) كتاب «التنوير في إسقاط التدبير» للشيخ تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري، هذا وقد سبقت الإشارة إليه.

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرَّحمٰن: الآية 46] أن إحدى الجنتين معرفة الله وهي جنة المعارف، والأخرى جنة الزخارف، ومن دخل المعارف لم يشتق إلى شيء سواها.

وقال مالك بن دينار: خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما ذاك، قال: معرفة الله تعالى، وقيل: إنه وجد حجر مكتوب بقلم القدرة: من أحسن كل شيء ولم يعرف الله لم يحسن شيئاً حتى يعرف الله، فإذا عرف الله فقد أحسن كل شيء ولم يغب عنه شيء. اهـ.

ويكفي من عرف الله الراحة من كد الرزق وتعب الحرص وتشويش البال منه وتعلُّق الوهم به، فإنه لم يؤت أكثر الخلق إلَّا من الاهتمام به، ولو قنع العبد لاستغنى الغنى الذي لا فقر بعده، والتوكل على الحي الذي لا يموت هو الغنى الأكبر الذي لا يلحقه فقر أبداً.

قال الفضيل رضي الله عنه: لا ينبغي للعبد أن يثق بعافية ولا بغنى ولا بحالة تسرّه غير الله، بينما العبد معافى تراه مبتلى وبينما العبد غنياً تراه فقيراً، وبينما العبد ضاحكاً تراه باكياً، وبينما العبد مسروراً تراه حزيناً، وبينما العبد حياً وإذا به ميت تعس، من وثق بغير الله أو ركن لشيء سوى الله. انتهى.

حكي أن رجلاً ضاق حاله من أجل المعيشة وطال به الكد والتعب، فخرج هائماً على وجهه ودخل الصحراء فوجد قصراً دارساً خرباً قد كشف عنه الريح [و] الرمل، وإذا بكوخ من الرخام في حائط ذلك القصر وفيه مكتوب هذه الحكمة:

لما رأيتُكَ جالسَاً مُستقبلاً	أيقنتُ أنَّكَ للهمومِ قرينُ
ما لا يُقدَّر لا يكونُ بحيلةٍ	أبداً ومَا هُوَ كائنٌ سيكونُ
سيكونُ ما هُوَ كائنٌ في وقتِهِ	وأخو الجهالةِ مُتْعَبٌ محزونُ
يجري الحريصُ ولا ينال بحرصِهِ	شيئاً ويحظَى عاجزٌ ومهينُ
فَدَعِ الهمومَ وَتَعَرَّ مِنْ أثوابِها	إن كانَ عندَكَ بالقضاءِ يقينُ
هوِّنْ عليك وكن بربِّك واثقاً	فأخُو الحقيقةِ شأنُهُ التهوينُ
طَرَحَ الأذى عَنْ نفسِهِ في رزقِهِ	لمَّا تيقَّن أنَّهُ مضمونُ

* * *

ومن نظر إلى سعة كرم الله وبره ثم نظر إلى عجز نفسه وفقره طرح أحمال

الهموم عن ظهره واكتفى بعلم مولاه ونظره، كما أشار إلى ذلك في المناجاة الحادية عشرة بقوله:

12 - (إلٰهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك وكلما أياستني أوصافي أطمعتني مننك)

قلت: العبد إذا نظر أوصاف نفسه اللئيمة وأفعالها الذميمة استحى من الله أن يرفع إليه حاجة يطلبها وخرس لسانه عن النطق بها، لأنه يرى من خساسة نفسه ولآمتها ما لا تستحق بذلك إلّا العقوبة والطرد، فإذا نظر إلى سعة كرم الله وجوده وإحسانه وبره انطلق لسانه بالسؤال وطمع فيما له من سعة العطاء والنوال. وقد تقدم قوله: إن أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فانظر ما منه إليك، وإن أردت أن ينفتح لك باب الحزن فانظر ما منك إليه.

ولا شك أن من نظر نفسه بعين الإنصاف لم يجدها أهلاً لغير العقوبة، إما من جهة الغفلة والتقصير وإما من قلّة الوفا بالشكر والحمد. ولهذا ورد في بعض الأدعية: اللهمَّ افعل بنا ما أنت له أهل ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وقال بعض أهل التشديد من العباد: لا ينبغي للعبد أن يرى نفسه إلّا شبه نجس إن جلس مع الداعين لم يرهم إلّا منعوا الإجابة من سببه، ولو سجد على الجمر لم ير عمله أهلاً للقبول، ولو كانت نفسه في غاية التزكية لم يرها أهلاً لمدح ولا لثناء، ومتى ما تمسح الناس بثيابه تبرُّكاً فإنما يرى نفسه كالبكر المزفوفة لبعلها وهي مفتضة بفجور، كلما طافوا بها وعظَّموا شأنها زاد حزنها من خوف الفضيحة.

قلت: كل من تحقَّق زواله عن نفسه وبقاءه بربه فلا حرج عليه في ثنائه ومدحه، إذ ليس هو الممدوح وإنما الممدوح من فضله عليك ممنوح، وكل من مد يده للتقبيل ولم يرها يد الجليل كان القطع في حقها من القليل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: الآية 10] ولا تكون يده يد الجليل حتى تتحقق خلافته في الأرض، ولا تتحقق الخلافة حتى يستولي على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه ويصير في قلبه كحلقة في الأرض فإذا صار هكذا كان خليفة الله في أرضه ويده يد الملك، فكل من بايعه فإنما بايع الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: الآية 10]. وأنشدوا في مثله:

قدِ استقامَ علَى المنهاجِ يسلكُهُ ولمْ يزِغْ حائداً منهُ ولا عَدَلا
مَنْ حالُهُ يعمرُ الدنيا بظاهرِهِ وقلبُهُ في أعالي الخلدِ قدْ نَزَلا
وأبصر الأمرَ يجري في مسالكِهِ من أوّلِ النَّشء حتَّى شبَّ واكتهَلا
وناطقتُهُ البرايا وهي صامتَةٌ وميَّز الضدَ والأرواحَ والعِلَلا
وأظهرَ الصورةَ العليَا بصورتَهَا الحُسْنَى ومن قبلُ كانَتْ أُلبِسَتْ ظُلَلَا

قال بعضهم: اشتريت جارية سوداء، فلما جن الليل وأردت أن أنام قالت: يا مولاي، أما تستحي؟! مولاك لا ينام وأنت تنام. ثم قامت تصلي. فانتبهت وهي ساجدة فسمعتها تقول في سجودها: بحق حبك لي لا تعذبني، فقلت لها: غلطت، قولي: بحبي إياك لا تعذبني. فلما سلمت قالت: يا مولاي ما غلطت بل أصبت ولولا محبته لي ما أنامك وأقامني، فقلت: اذهبي فأنت حرة لوجه الله. قالت: هذا العتق الأصغر وبقي العتق الأكبر. اهـ.

وكان بعض الوالهين يقول في بعض مناجاته: إلٰهي لو أردت إهانتي ما وفّقتني لطاعتك ولو أردت فضيحتي ما سترتني عند مخالفتك، إلٰهي لولا ذنوبي ما خفت العذاب ولولا كرمك ما رجوت الثواب. اهـ.

* * *

ثم فسَّر الشيخ الأوصاف التي آيسته إن نظر إليها من منَّة الله ورحمته، فقال في المناجاة الثانية عشرة:

13 ـ (إلٰهي من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي، ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي)

قلت: محاسن الإنسان لا تخلو من خلل ونقصان، ولو لم يكن إلَّا نسبتها لنفسه وفعله ورؤيتها من قوته وحوله لكان كافياً في خللها ونقصها، فتنقلب مساوي بعد أن كانت في الصورة محاسن. وإذا كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي، وكذلك حقائق العبد وهي ما تحقق به من المقامات والمنازلات وأذواق العارفين ومواجيد المحبين لا تخلو من شوائب الدعوى ومسارقة الهوى لولا مسامحة المولى فإذا كانت حقائقه التي تحقق بها وذاقها لا تخلو من شوائب الدعوى فإذا نسبها لنفسه كانت كلها دعاوي فكيف لا تكون دعاويه الفارغة دعاوي. فإذا علم العبد هذا استحى من مولاه أن ينسب لنفسه شيئاً من المحاسن، أو يثبت لها نوعاً من الحقائق، فربما يفضح على رؤوس

الخلائق. ويكفي المريب وجدان السلامة.

قال ذو النون رضي الله عنه: الحياء من الله يقطع العبارة ويدقّق الإشارة.

وقال السري السقطي رضي الله عنه: الحياء من الله يطرق القلب فإذا وجد فيه شيئاً من حب الدنيا رحل.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: يقول الله تعالى: «عبدي إنك ما استحييت مني أُنْسِي الناس عيوبك وأنسي بقاع الأرض ذنوبك وأمحو من أمّ الكتاب زلاتك ولا أناقشك بالحساب يوم القيامة» اهـ.

وقد فسَّر النبي ﷺ الحياء فقال: **«الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر القبر والبلى وتترك أفضل زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»**[1] اهـ.

ووجد رجل نائم في موضع مخوف كثير السباع والآفات ودابته حوله ترعى، فقيل له: إنك في موضع مخوف، فقال: إنَّا نستحيي أن نخاف غير الله. ثم رجع لنومه.

وفي الحكمة مكتوب: من استحى من الله وهو مطيع استحى الله منه وهو مذنب.

وسئل الجنيد عن الحياء: ما هو، فقال: شيء يتولد بين رؤية النعماء ورؤية التقصير.

وقال الفضيل: علامة الشقاوة خمسة: قلّة الحياء، وقسوة القلب، وجمود العين، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل. اهـ.

* * *

ثم على تقدير سلامة محاسنه من المساوي وتصفية حقائقه من الدعاوي فأمر المشيئة مبهم والسابقة والخاتمة غير معلوم أمرهما، فلا يدري ما يفعل الله به، كما أبان ذلك في المناجاة الثالثة عشرة بقوله:

14 ـ (إلٰهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي حال حالاً ولا لذي مقال مقالاً)

قلت: لا شك أن حكم الحق نافذ في خلقه لا معقب لحكمة ولا راد لقضائه،

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية 23] وهذا هو الذي حرك قلوب العارفين فلم يطمئنوا بحال ولم يعتمدوا على عمل ولا مقال، بل صاروا مضطرين إلى الله في كل حال لأنهم قد علموا أن حكم الله نافذ كلمح البصر أو هو أقرب، ومشيئته قاهرة لا يصرفها عن إنفاذ مرادها صارف ولا تردها همة ولي ولا عارف، ففي لحظة واحدة يقرب البعيد ويبعد القريب ويرفع الوضيع ويضع الرفيع ويعز الذليل ويذل العزيز ويغني الفقير ويُفقر الغني ويبسط المقبوض ويقبض المبسوط ويمرض الصحيح ويصحِّح المريض، فكيف يصح لعاقل أن يركن إلى حاله ومقامه أو يعتمد على علمه وأعماله، أو يغتر ببسط لسانه ومقاله، والله تعالى يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية 24].

وقال بعضهم: من أين للعبد ثبوت حال أو مقال وهو عين المقال في الحال، ذرَّة جلَّة[1] جالت على معناها فلم تبلغ منتهاها، فوالله ما بلغ العبد شفيعة معناه فأنى له بوترية معناه، جوهرة رامت فلاحت وأومضت فغمضت وسكنت فتمكنت فبرزت من قعر بحر الغيب، فغار منها القدر فأجناها في سواد عينها خيفة أن تنال أو تسم أو تعرف، فلا كيف لها ولا أين ولا رحم ولا عين ولا وصل ولا بين.

ومعنى قوله: عين المقال في الحال، يعني أن أمر العبد بين الكاف والنون فهو عين قول: كن في أسرع حال، فالمراد بالمقال هو قول: كن فيكون، تصريف ذلك الأمر في الحال.

وقوله: ذرّة جلة الخ، الذرة النملة الصغيرة، وجلّة عظيمة، أي ذرة صغيرة في الحس عظيمة في المعنى، جالت بفكرها في إدراك معناها فلم تبلغ منتهاها، كناية عن عجائب صنعة الباري في أصغر شيء فكيف بالإنسان، ولذلك قال: فوالله ما بلغ العبد شفعية معناه.

وشفعية معنى العبد هي بشريته الظاهرة لأنها محل العبودية التي هي شفع باعتبار الربوبية. ووترية معناه روحانيته لأنها واحدة.

وقوله: جوهرة رامت، المراد بالجوهرة هي الروح، رامت أي قصدت الظهور

(1) الجُلَّة بالضم: وعاء من خوص. والجِلَّةُ: البَعَر، أو البعرة. والجلَّة: الذي لم ينكسر. وقوم جِلَّة بالكسر: عظماء سادة، وجلَّة عظيمة. (لسان العرب: جلل). وهذا المعنى الأخير هو مراد المصنف كما سيرد في شرحه للعبارة.

فلاحت أي ظهرت في هذا القالب البشري، وأومضت أي أشرقت أنوارها على ذلك القالب، فغمضت أي استترت وانحجبت فلم يعلمها إلَّا من أوجدها ونفخها وسكنت في قفصها فتمكنت فيه.

وقوله: فبرزت من قعر بحر الغيب يشير إلى أصل بروزها من بحر الجبروت فلما برزت إلى عالم التكوين عالمة بأسرار الغيب وهي أسرار الملك غار منها القدر وخاف عليها أن تفشي أسرار الملك فأجناها أي أجنى عليها في سواد عينها فحجبها عن تلك الأسرار خيفة أن تنال تلك الأسرار أو تظهر أو تعرف، فلا كيف للروح ولا مكان ولا رحم لها بل هي درة يتيمة، ولا عين لها تعرف ولا وصل لها بشيء ولا قطع لها عن شيء، جل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء، والله [تعالى] أعلم. وأنشدوا:

فالكلُّ يطلبُ نُعمَى حيث ضَلَّ وما ... يحظى بِنُعْمَى سوَى فردٍ بأفرادِ

مهلاً عليكَ وعدُ مِنْ حيثُ جئتَ وسَلْ ... في الدارئين غداً عَنْ ساكنِ الوادي

عسَاك تلقَى خبيراً عالماً بهِم ... ينبيكَ عنهُم ولم يلمْ بميعادِ

قال بعض الحكماء: تالله ما ظفر بسعدى إلَّا من تاه في أرض التقديس وتنزَّه عن الخسيس والنفيس فأصبح جسمه وروحه العصى ونفسه فرعون، فكلامه صمت وصمته كلام ولسان حاله يخاطب جميع الأنام، فلو عرضت عليه الشهادة في باب الحجرة والموت داخلها على حسن الختام لترك الشهادة واختار الموت على أكمل التمام عملاً على اليقين دون الشك ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: الآية 73] يا هذا ما أطيب عيش من دعي فأجاب، ما أعز قدر من لازم الباب، ما أخس قدر من أبعد عن الجناب، ما أبخس قيمة من له على الغفلات انكباب، إذا غلب الطبع فلا تنفع الحيلة، ومن سبق له القضاء لم تنفعه الوسيلة، فسبحان من يعطي ويمنع ويضر وينفع.

جذبت العناية سلمان الفارسي من أرض فارس، ونودي بلال من بلاد الحبشة، وأبو طالب على باب التحقيق وقد حرم التوفيق، وقع الحكم ونفذ الأمر وسبقت المشيئة وجف القلم ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: الآية 63] اهـ.

* * *

وكما أن حكمه النافذ يهدم الاعتماد على الأحوال، كذلك عدله القاهر يهدم

الاعتماد على الأعمال، كما أبان ذلك في المناجاة الرابعة عشرة حيث قال:

15 ـ (إلٰهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيّدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك)

قلت: لا ينبغي للعبد أن ينظر إلى شيء من طاعته وإن عظمت، ولا أن يستحسن شيئاً من أحواله وإن حسنت، فالناقد بصير والرقيب على الضمائر خبير، فكم من طاعة تعظم في عين صاحبها كأمثال الجبال لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وكم من أحوال تصفو عند صاحبها وهي عند الله مدخولة. وقد تقدم قوله: لا كبيرة إذا قابلك فضله ولا صغيرة إذا واجهك عدله، فمن قابله بفضله عادت كبائره صغائر ومن واجهه بعدله رجعت صغائره كبائر، وذلك قال هنا: كم من طاعة بنيتها، أي نمَّيتها، وكثرتها، هدم اعتمادي عليها عدلك، أي نظري إلى عدلك، فلما نظرت إلى عدلك تلاشت أعمالي واضمحلت أحوالي، وكم من حالة شيّدتها ورفعتها فلما نظرت إلى عدلك وشدة مناقشتك انهدمت وتلاشت، بل أقالني منها بأن زالت نسبتها عني فضلك وهدايتك وتوفيقك فلم تبق لي طاعة ولا حال ورجع ذلك إلى الفاعل المختار الكبير المتعالي، فالواجب على العبد أن ينسلخ من علمه وعمله وحاله ونفسه وروحه وحوله وقوته، ويبقى فقيراً بين يدي سيده عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء.

قال بعضهم: والله ما غاص في بحر الفناء إلَّا من باع نفسه من الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية 111] كيف يخوض في بحر الحقائق من لم يخلص علمه وعمله من الزيف، وصيارفة الحق بالمحك المحمدي على الساحل يردُّون من لا يخلص، وأين الإخلاص هذا لمن وصل إلى ساحل ذلك البحر، فكيف بمن ينكره ولا يُصدِّق به أو يسير إليه منحرفاً دون استقامة، كما قيل:

ليس مَنْ باتَ قريراً عينُهُ ... مثلَ مَن أصبحَ قَفْراً دارسا
ليس مَنْ أُكْرِمَ بالوصلِ كمَنْ ... ظلَّ يهذِي بلَعَلَّ وعسى
ليس مَنْ أُلْبِسَ أثوابَ التُّقَى ... مثلَ الذي أُلبسَ ثوباً دَنِسا
ليس مَنْ سِيرَ بهِ مثلَ الذي ... باتَ يَرعَى الحمَى مبتئِسا
ليس مَنْ شاهدَ صبحاً واضحاً ... مثلَ الذي شاهدَ ليلاً غَلَسا
ليس مَنْ بُوِّىء روضاتِ الحمَى ... مثلَ الذي أُسكنَ قفراً يابسا

ليس مَنْ أَشبَهَ غصناً يانعاً   مثلَ مَنْ أَشبَهَ عوداً يابسا

* * *

ثم إن عدم الاعتماد على العمل لا يقتضي ترك العمل، بل يجب على العبد أن يداوم على العمل ولا يتكل عليه فإن لم يقدر على مداومته بالفعل فبالمحبة والعزم، كما بيَّن ذلك في المناجاة الخامسة عشرة بقوله:

16 - (إلٰهي إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً فقد دامت محبة وعزماً)

قلت: طاعة العبد لربه يجب أن تكون فعلاً ومحبة وعزماً في كل لحظة ووقت، فإن لم يقدر على ذلك فليعزم على البر والتقوى وينوي فعل الخيرات، فنيّة المؤمن خير من عمله ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية 70] أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من مال أو عمل.

وقال بعضهم: الفعل الجزم هو وجود العمل والمحبة، والعزم هو التوجه للعمل، وكم من متوجه لم يلحق وكم من مجد لم يسبق، لكن في العزم ظهرت الحقائق وبه جاءت الشرائع، وليس على العبد إلَّا القصد والجد والعزم. وأما نفوذه فقد يقدر وقد لا يقدر والله غالب على أمره. والمراد بالعزم القصد، والنية هي توجه القلب للأمر المطلوب اهـ.

واعلم أن متابعة العلم اختيارية ومتابعة الحال اضطرارية، فما دام العبد معه بقية اختيار وجب عليه اتباع العلم، وهو مقام السلوك، فإن غلب الحال وجب اتباعه وهو مقام الجذب، ومثل ذلك قضية الصدِّيق حين أتى بماله كله فقال له الرسول عليه السلام: **«ما تركت لأهلك؟»** فقال: تركت لهم الله ورسوله[1]. ولم يلتفت لقوله ﷺ في حال التشريع **«لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»**[2]. ولما غلب الحال على العلم صار الحكم للحال، فيا له من مقام ما أعز شأنه وأرفع قدره عند المحققين. وأنشدوا:

وحاشاهُم مِنْ قادحٍ في طريقِهم   ومطلوبُهُم أسنَى المطالبِ كلِّها

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الزكاة، حديث رقم (1510) [1/ 574] حديث رقم (1678) [2/ 129] وأبو داود في سننه، باب في الرخصة في ذلك، حديث رقم (1678) [2/ 129] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب رثي النبي ﷺ سعد بن خولة، حديث رقم (1233) [1/ 435] ومسلم في صحيحه، باب في الوصية، حديث رقم (1628) [3/ 3ـ 1250] ورواه غيرهما.

حباهُم بتأييدٍ وعزٍ وعصمةٍ فأكرِمْ بأوصافٍ لهم ما أجلُّها

واعلم أن العازم على الخير فاعل والعازم على الوصول واصل، وليس على العبد إلَّا الاجتهاد فإذا بذل مجهوده وأخلص مقصوده فهو والواصل سواء.

وكان شيخ شيخنا يقول: من مات وهو في الطريق أدركته الولاية بعد الموت على التحقيق. اهـ. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية 75]، وفي الحديث: «**من مات في طريق الحج فهو حاج، ومن مات في طريق الجهاد فهو مجاهد**»[1]. قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: الآية 100] ومن مات في طريق الله فهو شهيد. وفي الحديث: «**من مات وهو يطلب العلم، أي النافع، ليس بينه وبين النبوَّة إلَّا درجة واحدة، ومن توجه لأمر ولم يدركه فكأنما أدركه**»[2]. ولا بد في مبادىء الأمور من الصبر والتحمل للمشاق وقمع النفس عن الهوى والراحة، ولذلك سمي الجهاد جهاداً والقاصد يطلب الباب بعد أن كان يطلب سواء السبيل فإذا وصل الباب أنتج له طلب الدخول فإذا دخل أنتج له الوصول فإذا وصل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: الآية 17]، وأنشدوا:

مَنْ فاتَهُ طَلَبُ الوصول ونيلُهُ مِنهُ فقلْ لَهُ مَا الذي هُوَ يطلبُ

حَسْبُ المُحبِ فناؤه عمَّا سوى محبوبِهِ إنْ حاضرٌ ومغيبُ

* * *

ثم إنَّ عزم العبد على الطاعة ليس هو بيده حقيقة لكنه مأمور به شرعاً، وهو الذي نبَّه عليه في المناجاة السادسة عشرة بقوله:

17 - (إلٰهي كيف أعزم وأنت القاهر أم كيف لا أعزم وأنت الآمر)

قلت: محبة الطاعة والعزم عليها والعمل بها ليس هو من قدرة العبد وفعله في الحقيقة، وهو مأمور به من جهة الشريعة لتقوم الحجة وتظهر المحجة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: الآية 149] إن الله لا يظلم مثقال ذرة فمن

---

(1) روى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (5321) [5/ 282] وأبو يعلى في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (6357) [11/ 238] ولفظه: «من خرج حاجاً فمات كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب الله له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب الله له أجر الغازي إلى يوم القيامة».

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

نظر إلى الباطن وجد العبد مجبوراً ومن نظر إلى الظاهر وجده غير معذور.

فالواجب على الإنسان، وخصوصاً العارف، أن ينظر بعين الحقيقة لبواطن الأمور فيعذر الخلق لأنهم مجبورون في قوالب المختار، وينظر بعين الشريعة لظواهر الأمور فينفذ الحقوق ويقيم الحدود ستراً لسر الربوبية وإظهاراً لوظائف العبودية، لكن ذلك بلطف ولين قلبه يحن عليه وظاهره يغلظ عليه كالعبد يؤدب ابن سيده، وهذا مضمن هذه المناجاة، أي كيف أعزم على الطاعة وأعقد عليها وأنت القاهر لي، فلا طاقة لي على فعلها وأنت تقهرني عنها. وهذه هي الحقيقة، وكيف لا أعزم عليها وأنت الآمر لي بها فإن لم أعزم عليها عذبتني وهذه هي الشريعة. فالواجب أن أعزم وننظر ما تفعل، فإن وفقتني للعمل فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة، وإن لم توفقني فأنت أهل العفو والمعذرة، وأنت الفاعل المختار، فالأمر أمرك والعبيد عبيدك ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ [يونس: الآية 99] ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً.

قال الشطيبي رحمه الله: أراد المؤلف أن يدل المريدين على مقام الجمع بين الحقيقة والشريعة لأن عزم العبد مطلوب منه شريعة ونتيجته مسلوبة منه في الحقيقة ولا يثبت بينهما إلّا من ثبته الله، فلهذا تعجب الشيخ رحمه الله من تضاد الطالبين لأنه خارج عن مقدور البشر، لكن لما كان الإنسان نسخة الوجود وأشرف كل موجود أودع فيه من أسرار حكمته ما يؤلف بين الضدين ويجمع بين الكفؤين، قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآيتان 19، 20] فمن ظهر أثر البرزخية على جوارحه عمل أعمال الدنيا وأعمال الآخرة، ومن ظهر أثر البرزخية على قلبه جمع بين أعمال الآخرة ومشاهدة الحضرة وأشرق نورها عليه، ومن ظهر أثر البرزخية على روحه جمع بين المشاهدة والمحبة.

ثم قال: واعلم أن الأجسام تموت وتبعث وتنشر وكذلك النفوس والأرواح. فأما موت الأجسام فهو عند الخروج من الدنيا وتبدل القصور بالقبور. وأما موت النفوس فهي عند الخروج من الحظوظ وتبدلها بالحقوق. وأما موت الأرواح فهو رجوعها لعالمها النوراني وصفة الملأ الأعلى على الهاجس النفساني، فإذا لم يبق للنفس نظر إلّا لله ولا للروح تعلق إلّا بالله، وفني من لم يكن وبقي من لم يزل انجمع الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر وتعينت المشاهدة من كل وجهة وخوطب من سوى الحق بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية 88] وحينئذ يهتف هاتف التجريد من مقام التفريد: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غَافر: الآية 16] فلم يجبه من عوالم

البشرية والصور الأثرية مجيب فيجيب نفسه بنفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية 48] اهـ المراد منه مختصراً.

* * *

وإنما أمر الله تعالى بالطاعة والعزم عليها لأنها سبب الوصول إليه حسبما جعلها الحق تعالى حكمة وشريعة كما بيَّن ذلك في المناجاة السابعة عشرة بقوله:

18 - (إلٰهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك)

قلت: التردد في الآثار هو التردد بين إثباته ونفيه وهي حالة المستشرفين، فإذا أثبته مستقلاً كان في حالة البعد، وإذا نفاه كان في حالة الجمع، فطلب الجمع على الدوام بحيث لا يبقى له تردد في نفيه وإثباته بالله وهو مقام البقاء، فإثبات الأثر بالنفس على الدوام هو بعد على الدوام، وهو مقام أهل الحجاب من العوام، ونفيه على الدوام هو مقام أهل الجمع من أهل الفناء والجذب ونفيه ثم إثباته بالله هو مقام أهل البقاء قياماً بوظائف الحكمة والقدرة وجمعاً بين الحقيقة والشريعة، وهذه المناجاة إنما تليق بأهل الاستشراف.

ولو أراد الشيخ رضي الله عنه أن ينبه على مناجاة السائرين والواصلين والمتمكنين لقال بعد هذه المناجاة التي هي للسائرين: إلٰهي تنزهي في الأنوار يوجب قرب المسار فاجمعني إليك بفكرة توصلني إليك. وهذه مناجاة الواصلين قبل الرسوخ والتمكين، ثم يقول: إلٰهي تنزهي في الأسرار يوجب وصل المسار فاجمعني إليك بنظرة تقيمني بين يديك، وهذا غاية الجمع وهو تمكن النظرة ودوام شهود الحضرة ولا يذوق هذا إلَّا من سبقت له الخدمة وتداركته عناية الجذبة فأصبح من الفائزين ولمحبوبه من الواصلين.

وقد قيل: إذا أبغض الله عبداً، والعياذ بالله، طرده عن بابه وشغله عنه بمكابدة رفع حجابه وليس له طاقة على ذلك ما لم يكن الله في عونه، وهو معنى لا حول ولا قوة إلَّا بالله لكن العنين لا يدرك لذّة الجماع، والأعمى لا يدرك رحب الساحات والبقاع.

قيل: إن بعض المجموعين على الله أراد التستر عن مقامه فكان لا يسأل عن شيء إلَّا قال: هو، فقيل له: لعلك تعني الله، فسقط ميتاً. ويسمى عندهم جمع الجمع وهو خاص بخواص الخواص. وقيل: بالأنبياء عليهم السلام، وقيل:

بالرسل، وقيل: بنبينا محمد ﷺ ولا يمكن الوصول إلى هذا إلَّا برفع الهمة عن الكونين وخلع النعلين من الدارين.

قال بعضهم: عرضت عليَّ الدنيا بزخرفها وزينتها فأعرضت عنها فعرضت عليَّ الجنان بقصورها وحورها وحللها فأعرضت عنها فقيل لي: لو وقفت مع الدنيا لحجبناك عن الآخرة ولو التفت إلى الآخرة لحجبناك عنا، فارض بنا عما سوانا وقسطك يأتيك من الدنيا والآخرة.

وقال آخر: رأيت رجلاً وضع سجادة على الماء ومضت به فقلت في نفسي: فاز الرجل وأنا لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فسمعت هاتفاً يقول: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

* * *

قال الشطيبي: ثم إن التردد في الآثار والنظر إليه إنما هو لأهل الدليل المفتقرين للنظر إليه ليستدلوا به على صانعه، وأما أهل الشهود فهم أغنياء عن الأثر لأن ظهور الحق عندهم أظهر من غيره بل لا وجود لغيره أصلاً. وإلى هذا أشار في المناجاة الثامنة عشرة بقوله:

19 - (إلٰهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك)

قلت: قد تعجب الشيخ رضي الله عنه ممن يستدل على الله بنوره بعد كمال ظهوره، فكيف يفتقر النور بعد ظهوره إلى دليل يدل على وجوده، وكيف يحتاج إلى دليل من هو أظهر من كل دليل، أم كيف يفتقر إلى دليل من نصب الدليل. ولله در القائل:

عجبتُ لمنْ يبغي عليكَ شهادةً وأنتَ الذي أشهدتَهُ كلَّ شاهِدِ

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف، أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء اهـ.

قلت: فيا عجباً كيف تكون الفروع أظهر من الأصول ولولا الأصول لم يكن للفروع حصول، أم كيف تكون السواقي والأنهار الجارية من البحار أظهر من تلك البحار وما فاضت أنوار الملكوت إلَّا من بحار الجبروت لكن البصيرة العمياء لا ترى الشمس في أفق السماء ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء.

قال مريد لشيخه: يا أستاذ أين الله، فقال له: أسحقك الله أتطلب مع العين أين.

وقال رجل للجنيد رضي الله عنه: يا أبا القاسم هل رأيتم ربكم حين عبدتموه أم اعتقدتم الوصول إليه بقلوبكم، فقال الجنيد رضي الله عنه: أيها السائل ما كنا لنعبد رباً لا نراه، وما كنا بالذي تراه أعيننا فنشبهه، وما كنا بالذي نجهله فلا ننزهمه. فقال له الرجل: فكيف رأيتموه، فقال له: الكيفية معلومة في حق البشر مجهولة في حق الرب، لن تراه الأبصار في هذه الدار بمشاهدة العيان، ولكن تعرفه القلوب بحقائق الإيمان ثم تترقى من المعرفة إلى الرؤية بمشاهدة نور الامتنان، فهو سبحانه مرئي بالحقائق القدسية منزه عن الصفات الحدثية، مقدّس بجماله منعوت بكماله متفضل على القلوب بمواهبه ونواله معروف بعدله منعوت بفضله اهـ. فلما سمع الرجل مقالة الجنيد قام وقبَّل يده وتاب ولازمه حتى ظهر عليه الخير، ولزم صحبته حتى مات رحمة الله عليهما.

واعلم أن أهل الدليل يستدلون بالصنعة على الصانع وبالشاهد على الغائب، وأهل العيان صار الغيب عندهم شهادة والدليل عين المدلول. فالقسم الأول أهل علم اليقين، والثاني أهل عين اليقين أو حق اليقين. القسم الأول عوام، والثاني خواص أو خواص الخواص.

قال الشيخ أبو الحسن: أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه. فهو معنى قول الشيخ هنا: إلٰهي كيف يستدل عليك بما أي بالكون الذي هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك على تقدير وجوده من الظهور ما ليس لك، متى غبت عن البصائر والعيان حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، وذلك الدليل لا قيام له إلَّا بك، محال أن يظهر في الوجود غير نورك، ومتى بعدت عن الأشياء التي قامت بك أي بقدرتك حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، لا مسافة بينك وبين خلقك ولا قطعة تقطعهم عنك إلَّا وجود الوهم وقاهرية الحجاب، أعاذنا الله منه بمنِّه وكرمه.

* * *

وكيف تجوز عليه الغيبة وهو الرقيب القريب كما أبان ذلك في المناجاة التاسعة عشرة بقوله:

20 ـ (إلٰهي عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً)

قلت: الظاهر أن هذا إخبار بأن كل عين خلت من مراقبة الحق تعالى فهي

عمياء، وكل صفقة خلت من محبة الله فهي خاسرة، ويكون العمى في حقها معنوياً فكأنها حيث لم تراقب الله تعالى ولم تستح منه عمياء لأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النّساء: الآية 1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يُونس: الآية 61] فمن لم يعتقد هذا فهو كافر، ومن اعتقده ولم يستح من الله فهو جاهل أعمى البصيرة. وقد قالوا: إن الحياء جله من البصر، ألا ترى أن الأعمى قليل الحياء. فدل أن البصر الذي لم يراقب الله تعالى ولم يستح منه ليس ببصر وإنما هو عمى. ويحتمل أن يريد بالعين عين البصيرة، قال بعضهم: إذا عصيت الله فاعصه بموضع لا يراك فمن لم يستحي من نظر الحق وبارز مولاه بأنواع المعاصي فقد عميت عين بصيرته. وسئل بعضهم: بم يستعين العبد على حفظ بصره؟ فقال: بعلمه بأن رؤية الحق تسبق بصره اهـ.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان**»(1). والصفقة هي ما تشتري جملة وكني بها عن حظ العبد وقسمته الأزلية، فمن كان حظه من الله المقت والبعد فصفقته خاسرة نسأل الله العافية.

كان بعض السادات يبكي فقيل له: لم هذا البكاء، فقال له: ليس بكائي من ذنوبي وعصياني لأن ذلك من صفة نفسي، وإنما بكائي على أن كانت أقساماً قسمت وحظوظاً أجريت وكان حظي منها البعد اهـ.

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء عليهم السلام: «يا عبدي أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً»، فمحبة الله لعبده تقريبه واجتباؤه لحضرته ومحبة العبد لله طاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه والاستسلام لقهره. فهذه أوائل المحبة وهي كسبية ونهايتها كشف الحجاب وفتح الباب والدخول مع الأحباب وهذه وهبية نتيجة الكسبية، وإلى هذا المعنى أشارت رابعة العدوية في شعرها حيث قالت:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهوَى ... وحبّاً لأنَّكَ أهلٌ لذاكَ

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، الفصل الثاني في ذكر آثار. . . ، حديث رقم (741) [1/ 470] واللالكائي في اعتقاد أهل السنة، الباب الحادي والخمسون، حديث رقم (1686) [5/ 933].

فَـأَمَّـا الـذي هـوَ حـبُّ الـهـوَى ... فـشـغـلِـي بـذكـرِكَ عـمَّـن سـواكَ
وأمَّـا الـذي أنـتَ أهـلٌ لَـهُ ... فـكـشـفُـكَ لـلـحـجـبِ حـتَّـى أراكَ
فـلا الـحـمـدُ فـي ذَا ولا ذاكَ لـي ... ولـكـنْ لـكَ الـحـمـدُ فـي ذَا وذاكَ

فأشارت رضي الله عنها إلى أن محبة العبد لله على قسمين، قسم ناشىء عن شهود الإحسان، وقسم ناشىء عن شهود الجمال.

فأما الأول الذي هو ناشىء عن شهود الإحسان فلا شك أن العبد إذا نظر إلى إحسان الله تعالى وإنعامه عليه بضروب النعم الحسية والمعنوية أحبه لا محالة، لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وهذا هو المسمى بحب الهوى، أي الميل، وهو مكتسب لأن الإنسان مغمور بإحسانات الله إليه وهو متمكن من النظر فيها فلا يزال يطالع نعمة بعد نعمة ومنَّة بعد منَّة وكل نعمة أعظم من التي قبلها فتعظم محبته لمولاه وبذلك يبلغ قصده ومناه.

وأما الثاني، وهو الناشىء عن شهود الجمال، فإن العبد إذا كشف الحجاب عن قلبه وزالت عنه الموانع والقواطع رأى جمال الحق وكماله وأشرقت أنوار الحضرة وسناها على قلبه، والجمال محبوب بالطبع فانعقدت المحبة بينه وبين مولاه وإنما خصصت رابعة رضي الله عنها الحب الناشىء عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول وإن كان أهلاً للجميع لأن هذا منَّة الله لا كسب للعبد فيه، والآخر فيه سبب وعمل العبد معلول.

وقولها: فشغلي عمن سواك، من باب التعبير بالمسبِّب عن السبب، والأصل فثمرته شغلي بذكرك، إلخ. وقولها أيضاً: فكشفك للحجب حتى أراك من باب التعبير بالسبب عن المسبب عكس ما قبله، والأصل فسببه ومنشؤه كشف الحجاب حتى رأيتك بعين قلبي. وقولها فلا الحمد إلخ، إخبار منها بأن الحبين معاً منه وإليه في الحقيقة لا كسب لها في ذلك، وإدراك التفاوت بين ما تؤثره شربة المحبة الناشئة عن شهود الإحسان وما تؤثره شربة المحبة الناشئة عن شهود الجمال ونعوت الكمال، وأن أثر الثانية أقوى من أثر الأولى بل لا نسبة بينهما ضروري عند كل ذائق. اهـ قاله الفاسي في شرح الرائية.

فقول الشيخ رضي الله عنه: لم تجعل له من حبك نصيباً، يحتمل أن يكون من إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول، والأول أبلغ لأن محبة الله لعبده أعظم لأنها أصل محبة العبد لمولاه. قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية 54] فمن أعطاه الله

تعالى من حبه المذكور نصيباً فقد حاز ربح الدارين وفاز بقرة العين، ومن حرمه ذلك فقد خسرت صفقته وبان غبنه وخيبته، نسأل الله منَّته ورحمته.

قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: إن الله عز وجل ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: «اصنع ما شئت فقد غفرت لك»[1] اهـ من ابن عباد.

* * *

ولما كانت نهاية المحبة الفناء في المحبوب، ونهاية الفناء البقاء، وهو الرجوع إلى الأثر، أشار إلى ذلك الشيخ فقال في المناجاة الموفية عشرين:

21 - (إلٰهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت عليك منها مصون السر عن النظر إليها، مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير)

قلت: الرجوع إلى الآثار هو النزول من عش الحضرة التي هي الإغراق في بحر الوحدة والغيبة عن السوى بالكلية إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ، فينزلون إلى سماء الحقوق أدباً مع الربوبية وقياماً بحقوق العبودية، وإلى أرض الحظوظ أدباً مع الحكمة وإظهاراً لوظائف العبودية.

ومثال الأول، وهو النزول إلى سماء الحقوق، ما يلزم العبد من العبادات البدنية أو المالية مؤقتة أو غير مؤقتة.

ومثال الثاني، وهو النزول إلى أرض الحظوظ ما تفتقر إليه البشرية من مأكل

---

(1) يؤيد هذا القول الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. ونص رواية مسلم هو: عن عبيد الله بن أبي رافع، وهو كاتب علي، قال: سمعت علياً رضي الله عنه وهو يقول: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: ائتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها. فانطلقنا تعادي بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا: اخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟ قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش. قال سفيان: كان حليفاً لهم ولم يكن من أنفسها وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي ﷺ: صدق. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: أنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ **[المُمتَحنَة: الآية 1]**». صحيح مسلم، باب من فضائل أهل بدر...، حديث رقم (2494) [1941] وصحيح البخاري باب لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، حديث رقم (4608) [4/ 1855] ورواه غيرهما.

ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك من الأمور الحاجبية. وقد أمر الله تعالى بهما ليتميز سر الربوبية من سر العبودية أو ليظهر استغناء الربوبية بافتقار العبودية.

فطلب الشيخ رضي الله عنه أن يرده إليها بعد أن كان رحل عنها بهمته بكسوة الأنوار وهي أنوار الشهود فيكون رجوعه إلى الأثر بالله غائباً عن حظه وهواه. وقد كان قبل أن يرحل عنها يتعاطاها بنفسه بعد متعته وحظه، فلما عرف الحق غاب عن نفسه، فإذا رجع إلى رسم بشريته رجع إليه بالله قد كساه أنوار الشهود عن الالتفات إلى سواه.

وطلب أيضاً أن يكون رجوعه إلى الآثار متلبساً بهداية الاستبصار وهي تحقيق المعرفة في الأشياء التي يتعاطاها كانت عبادات أو عادات، فلا يسرقه فيها طبع ولا حس بل يدخل فيها بالله ومن الله وإلى الله ويخرج منها كذلك، وهو معنى قوله: حتى أرجع إليك منها، أي حتى تكون تلك الأشياء هي التي تردني إليك حين نعرفك فيها ونشاهد عظمتك ونور جبروتك فيها، إذ الوجود كله مستمد من بحر جبروتك فالعارف يشرب من كل شيء ويتقوَّت من كل شيء. يأخذ النصيب من كل شيء ولا ينقص من نوره شيء.

فتحصل أن كسوة الأنوار هي دخوله في العبادات وفي العادات بالله لا بنفسه، وهداية الاستبصار هي معرفته في تلك الآثار التي نزل إليها ورجع لها.

وقوله: كما دخلت إليك منها، معناه أنه كان مع الأكوان وهي حاجبة له عن شهود المكوِّن فلما عرف فيها كان دخوله على الله منها، وهذا كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

الخلقُ نوارٌ وأنا رَعَيْتُ فيهمْ هُمُ الحجابُ الأكبرُ والمدخلُ فيهمُ

وإذا دخل في الأشياء بالله وشهد فيها أنوار الإلٰه قطعاً كان مصون السر عن النظر إليها على أنها كونية مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، كانت عبادات أو أسباباً أو عادات، لأن العارف غني بالله لا يفتقر إلى شيء سواه ولا يعتمد إلَّا على مولاه، فإنه غني حميد سميع بصير على كل شيء قدير.

* * *

ثم إذا رجع العبد إلى الآثار فلا بد أن يظهر على ظاهره أثر الذل والافتقار تحقيقاً لوظائف العبودية وقياماً بآداب الربوبية كما أبان ذلك في المناجاة الواحدة والعشرين بقوله:

22 ـ (إلٰهي هذا ذلّي ظاهر بين يديك وهذا حالي لا يخفى عليك منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك لا بغيرك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك)

قلت: هذا اعتراف منه رضي الله عنه بغاية الذل والانكسار وإظهار لشدة الفاقة والاضطرار وانطراح على باب مولاه في إظهار ذلّه وبث شكواه، فلا شك أن الله سبحانه قد كساه حلّة العز والافتخار وبهاه بين خلقه بالظهور والاشتهار حتى صار كلامه تتحلى به القلوب والأسماع ويعظم به التأثير والانتفاع، وذلك ثمرة من تذلّل بين يديّ العزيز الحكيم الغني الكريم، كما قيل:

تَذلَّلْ لِمَنْ تهوَى لِتكسبَ عزَّةً ... فكَمْ عزَّةٍ قَدْ نالَها المرءُ بالذُّلِ

وقال آخر:

تذلَّلْ لِمَنْ تهوى فليسَ الهوَى سهلُ ... إذا رضيَ لكَ المحبوبُ صحَّ لكَ الوصلُ
تذلَّلْ لهُ تحظَى برؤيا جمالِهِ ... ففي وجهِ مَنْ تهوَى الفرائضُ والنفلُ

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: ما أعزَّ الله عبداً بعزّ هو أعزّ له من أن يدله على ذلّ نفسه، وما أذل الله عبداً بذل هو أذلّ له من أن يحجبه عن ذلّ نفسه اهـ.

والحال الذي لا يخفى على مولاه هو حال الضعف والافتقار والذل والانكسار. وإنما يكون ظهور ذلك الحال بتحقيق المعرفة والوصال، ولذلك وصله بقوله: منك أطلب الوصول إليك لا من غيرك ولا على يد غيرك ولا إلى غيرك بل أنت تتولى قبض أرواحنا إلى حضرتك بيدك وتحول بيننا وبين غيرك. وهو معنى قوله: وبك أستدل عليك لا بغيرك إذ لا وجود لغيرك معك، على التحقيق. وقد تقدم قول من قيل له: بم عرفت ربك، قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: لا دليل على الله سواه وإنما يطلب العلم لأدب الخدمة اهـ.

وكما لا دليل عليه غيره كذلك لا هادي إليه سواه. كما قال: فاهدني بنورك إليك أي اهدني بنور التوجه في حالة سيري إليك وبنور المواجهة بعد وصولي إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك حتى نتحقق بالوصول إليك فنرجع إلى رسم العبودية في عين شهود أنوار الربوبية والله ذو الفضل العظيم.

* * *

هناك تفيض العلوم اللدنية والأسرار الربانية كما أبان ذلك بقوله في المناجاة

الثانية والعشرين:

23 - (إلٰهي علّمني من علمك المخزون وصني بسر اسمك المصون)

قلت: العلم المخزون هو العلم الموهوب الذي يفيض على القلوب من حضرة علام الغيوب، لا ينال بحيلة ولا اكتساب ولا يؤخذ من دفتر ولا كتاب، وإنما يعطى من حضرة الكمال مع حكمة صحبة الرجال أو بمحض الفضل والنوال. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلّا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلّا أهل الغرَّة بالله»[1] اهـ.

وهي أسرار الربوبية التي أخفاها الله عن خلقه ولم يطلع عليها إلّا خواص أوليائه فإذا نطقوا بها مع غير أهلها ردوا عليهم وربما أباحوا دماءهم، ومنها الاطلاع على أسرار القدر وعجائب المغيبات، ومنها الاطلاع على مفاتح العلوم ومخازن المفهوم، فيستخرجون بنتائج أفكارهم من درر الحكم ويواقيت العلم ما تكل عنه الألسن وتعجز عن حمله العقول.

قال أبو بكر الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 7] يقولون: هم الذين رسخت أرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر فعرفهم ما عرفهم وخاضوا في بحار العلوم بالفهم لطلب الزيادة، فانكشف لهم من ذخائر خزائن الغيب تحت كل حرف من كتاب الله وآية من كلام الله عجائب الإدراكات الوهبية فنطقوا بالحكمة البالغة والألفاظ السابغة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ [المجَادلة: الآية 22]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ [المجَادلة: الآية 22]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ [المجَادلة: الآية 22].

وقال بعض التابعين: أسرار الله تعالى لا يبديها إلّا لأمناء أوليائه من غير سماع ولا دراسة.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ولم يشاركونا فيما نحن فيه. وكان أكثر كلامه في العقل الأكبر والاسم الأعظم وشعبه الأربع ودوائر الأولياء ومقامات الموقنين والأملاك المقربين وعلوم الأسرار وإمداد الأذكار ويوم المقادير وشأن التدبير وعلم البدء وعلم المشيئة وشأن القبضة ورجال الغيب وعلوم الأفراد وأخبار القيامة، وهذا كله من العلم المخزون.

وأما [العلم] المصون الذي طلب فهو صيانة من رؤية الأغيار أو الوقوف مع

---

(1) رواه أبو منصور الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (802) [1/ 210] وأورده المنذري في الترغيب والترهيب حديث رقم (141) [1/ 58].

الأنوار دون معرفة الواحد القهار، واسمه المصون هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، وسره هو ظهور تصرفه فيما طلب به والله تعالى أعلم.

* * *

ثم إذا تحقق الصون من الأغيار دخل القلب في حضرة الأسرار، وهي حضرة المقربين من السالكين والمجذوبين كما أبان ذلك في المناجاة الثالثة والعشرين بقوله:

24 ـ (إلٰهي حققني بحقائق أهل القرب واسلك بي مسالك أهل الجذب)

قلت: الحقائق جمع حقيقة، وهي إدراك معرفة الأشياء على ما هي عليه بالأصالة. وحقائق أهل القرب هي علومهم ومعارفهم وأذواقهم وكشوفاتهم.

وأهل القرب هم المقربون سواء كانوا من أهل المراقبة الكاملة أو المشاهدة أو المكالمة. فالقرب يتفاوت بتفاوت السير والتصفية، فيكون أولاً مراقبة ثم شهوداً ووصولاً ثم محواً واضمحلالاً ثم بقاء وتنزلاً، وهذا يكون بالمجاهدة والمكابدة وهو مقام أهل السلوك من المحبين، ويكون جذباً وعناية وهو مقام أهل الجذب من المحبوبين، وقد يكون أولاً مجاهدة وآخراً جذباً وعناية وهو أعظم قدراً وأعم نفعاً وأنفع تربية، وهو الذي أراد الشيخ رضي الله عنه لأنه طلب أولاً التحقيق بحقائق أهل القرب، وهم أهل التقرب حتى أحبهم الله، ثم طلب ثانياً سلوك أهل الجذب وهم المحبوبون الذين اجتباهم الله واختطف أرواحهم من شهود الأغيار إلى شهود الأنوار. قال تعالى: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: الآية 13] وهم المحبوبون، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: الآية 13] وهم المحبون. فأراد الشيخ أن يكون جامعاً بين سلوك وجذب، وهو أعظم من غيره.

وقال بعضهم: أهل القرب هم أهل الحضرة المستغرقون في الشهود لأن الله تعالى ليس في حقه قرب ولا بعد، وإنما ذلك في حق العبد، فمن رفع الحجاب عن عين قلبه وفاضت عليه أنوار قربه رمته المراقبة للمشاهدة والمشاهدة للمكاشفة والمكاشفة للمعاينة والمعاينة للمسامرة والمحادثة والمكالمة، وصار الحق أبداً جليسه وأنيسه، فهذا هو التقريب للعبد بعد البعد وخرق جميع الحجب، وهذا المقام هو الذي طلب الشيخ أبو الحسن بقوله: واقرب مني بقدرتك قرباً تمحق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك، إلخ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أهل المحبة والشوق على قسمين، قوم اشتاقت نفوسهم على الغيبة فلا سكون لهم إلّا باللقاء، وقوم اشتاقت

أرواحهم على الحضور والمعاينة والشهود فلا سكون لهم إلَّا بالغوص في بحر الأسرار وتنزل المعاني على قلوبهم.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: لله رجال لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار لكنهم على الأرائك ينظرون.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لأنهم معه أبداً. والنبي ﷺ قال: «**المرء مع من أحب**»[1]. وسأل جماعة من المشايخ الجنيد رضي الله عنه عن المحبة، فبكى وقال: كيف أصف عبداً ذاهباً عن نفسه متصلاً بذكر ربه قائماً بأداء حقوقه ناظراً إليه بعين قلبه، قد أحرق قلبه نار هيبته وصفى شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، وهو بالله ولله ومع الله. اهـ. فقالوا: ما على هذا مزيد يا تاج العارفين. وهذا الوصف صادق بأهل السلوك والجذب، والله تعالى أعلم.

* * *

ولا شك أن من بلغ هذا المقام ورسخت المحبة والمعرفة في قلبه على التمام، لم يبق له مع محبوبه تدبير ولا اختيار ولا تشوُّق ولا انتظار، كما أبان ذلك في المناجاة الرابعة والعشرين بقوله:

25 ـ (إلٰهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري).

قلت: الاستغناء بتدبير الله عن تدبير النفس، وباختيار الحق عن اختيار العبد إنما يكون بعد الغيبة عن النفس بشهود مدبِّر الأمور والمتصرِّف فيها، وهو الفاعل المختار الواحد القهار لأنه هو المنفرد بالتدبير والاختيار والمشيئة والاقتدار. وأما قبل الغيبة عنها بمعرفة سيرها فلا يتخلص العبد من كدر التدبير وظلمة التكدير، ولذلك طلب الشيخ أن يغيّبه الله بمعرفته حتى تجتمع همومه وقصوده وإرادته واختياراته في هم واحد وهو شهود محبوبه، كما قال القائل[2]:

كـانـتْ لـقـلـبـي أهـواءٌ مـفـرقـةٌ فاستجمعتْ مُذْ رأتكَ العينُ أهوائِي
فـصارَ يـحسدُني مَنْ كنتُ أحسدُهُ وصرتُ مولَى الورَى مُذْ صرتَ مولائِي

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب علامة حب في الله عز وجل..، حديث رقم (5817) [5/ 2283] ومسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، حديث رقم (2639) [4/ 2032] ورواه غيرهما.

(2) هو الحسين بن منصور الحلاج شهيد الحب الإلٰهي توفي سنة 309هـ.

تركتُ للنَّاس دنياهُم ودينَهُم   شغلاً بذكرِكَ يا ديني ودنيائي[1]

فقوله: أغنني بتدبيرك، أي بشهود تدبيرك. وشهود تدبيره لا يكون إلَّا بعد معرفته كما تقدم، وطلب أيضاً الوقوف على مراكز الاضطرار وهو التعزُّز في مقام العبودية في الظاهر على الدوام لأن العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره باطناً، وقد تقدم هذا.

ومركز الشيء محل استقراره الذي يركز فيه، وهي هنا استعارة عن تحقق العبودية وهي أن يعرف قدره ولا يتعدى طوره.

* * *

فمن تخلص من ظلمة التدبير والاختيار ووقف على مراكز الاضطرار، فقد تحرر من ذلّ نفسه وتطهر من شرك تخمينه وحدسه، كما أبان ذلك في المناجاة الخامسة والعشرين بقوله:

26 ـ **(إلٰهي أخرجني من ذل نفسي)** وهو ذلّها لغير الله بالطمع والحرص اللذين هما بذرة شجرة الذل **(وطهِّرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي)**.

قلت: لعل المراد بالشك هنا خطور خصيم الفرق وهو الخصيم الظلماني، أو يريد بالشك خواطر الرزق التي لا تثبت.

وقال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: الشك ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها، فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن، وطهارته منه إنما تكون بوجود ضده وهو اليقين، فبه يتسع الصدر وينشرح ويزول عنه الحرج والضيق، وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه، وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى وبفضله. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح بالرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في السخط والشك»**[2] اهـ.

والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن مسبب الأسباب تعلق الصيد

---

(1) وتتمة هذه الأبيات بيتان هما:

ما لامني فيك أحبائي وأعدائي   إلا لغفلتهم عن عظم بلوائي

أشعلت في كبدي نارين واحدة   بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

(2) رواه القضاعي في مسند الشهاب، باب (708 إن الله بقسطه...) حديث رقم (1116) [2/ 168] وأبو نعيم في حلية الأولياء، سفيان الثوري [7/ 130].

بالشرك، ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب، فيحلو له الهوى فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التي يتوصل بها إلى بغيته لا يرى غيرها، فيشتبك من أجل ذلك في حبائل الشرك، وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذي يقذفه الحق تعالى في قلبه، فتطمئن بذلك نفسه وتسكن من الشره والطيش الذي أصابها، وكلما قوي التوحيد في قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر فتمحى من قلبه الأسباب ويثبت فيه خالص التوحيد، فإذا تطهر العبد من الشرك والشك تولاه الله بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد.

وفي أخبار داود عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود هل تدري متى أتولاهم، إذا طهروا قلوبهم من الشرك ونزعوا من قلوبهم الشك» اهـ.

ويحتمل أن الشيخ إنما طلب طهارته من الشك والشرك عند نزول الدواهي الطوام، لأنها مظنة الشكوك والأوهام، فلا يشك في لطف الله عند نزول قدره ولا يتعلق بسبب ولا غيره، فيكون إبراهيمياً حنيفياً إذا ألقي في نار الجلال. وقال له الكون: ألك حاجة، فيقول له بلسان حاله أو مقاله: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى. فإذا قال له: سله، يقول له: علمه بحالي يغني عن سؤالي. فلا جرم أن الله تعالى يقول لنار الجلال: كوني على وليي برداً وسلاماً، فتنقلب جمالاً محضاً فإذا تخلص العبد من الشك والشرك في ذلك الوقت كان موحداً حقيقياً وإبراهيمياً حنيفياً فلا يعتمد إلَّا على الله ولا يستنصر إلَّا به كما قال الشيخ:

(بك أستنصر) لا بغيرك **(فانصرني وعليك أتوكل)** أي أفوّض أموري كلها إليك **(فلا تكلني)** أي تحوجني إلى غيرك **(وإياك أسأل)** حوائجي كلها لا من غيرك **(فلا تخيّبني)** مما رجوت لأنك كريم تستحي أن ترد من رفع يديه إليك صفرين، أي خائبتين **(وفي فضلك أرغب فلا تحرمني)** من فضلك العظيم **(ولجنابك)** أي حماك وحرمك **(أنتسب فلا تبعدني)** من حماك وجوارك بسوء أدبي معك وأنت عفو حليم **(وببابك أقف)** وأتضرع وألزم تلك الباب وأقرع **(فلا تطردني)** إذ ليس من شأن الكريم أن يطرد عن بابه العظيم أو يرد من أمّ بحر جوده العميم.

ونحنُ كلابُ الدارِ طبعاً ولمْ نزلْ ... نحبُّ مواليها ونحرسُ بابَها
إذَا طُرِدَتْ يوماً كلابُ قبيلةٍ ... فقومي كرامٌ لا تهينُ كلابُها

قال علي بن هند الفارسي رضي الله عنه: اجتهد في أن لا تفارق باب سيدك بحال فإنه ملجأ الكل، فمن فارق تلك السدة لا يرى بعدها لقدميه قرار ولا مقاماً اهـ.

(وإذا) لزمت الباب أعطاك قبل الطلب ومنحك بلا سبب، وإلى ذلك أشار في المناجاة السادسة والعشرين بقوله:

27 ـ (إلٰهي تقدّس رضاك أن تكون له علّة منك فكيف تكون له علّة مني)

قلت: رضا الله تعالى لا ينال بسبب ولا عمل ولا طلب، وإنما هو منح إلٰهية ومواهب اختصاصية يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فقد تنزَّه وتقدَّس رضا الله تعالى أن تكون له علَّة منه لأنه قديم فكيف تكون له علّة من غيره وهو الغني الكريم، ولذلك قال:

27 ـ (أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني)

فكما تنزَّه رضاه وسخطه أن تكون لهما علَّة أو سبب، كذلك تنزَّهت ذاته المقدسة عن إيصال المنافع منه أو من غيره، فكما أن ذاته المقدسة قديمة كذلك أوصافه المطهرة قديمة أزلية.

قال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه: الرضى والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جريا به في الأزل، يظهران الوسمين على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلمها عليهم، فأنى تنفع من ذلك الألوان المصفرة والأكمام المقصرة والأقدام المنتفخة اهـ.

لكن جرت عادة الله تعالى وسنته أن من ظهرت عليه الطاعات والإحسان كان ذلك علامة الرضى والرضوان، ومن ظهرت عليه المخالفة والعصيان كان ذلك علامة السخط والخسران، وبهذا جاءت الشرائع والمرء يموت على ما عاش عليه، والنادر لا حكم له، والله تعالى أعلم.

وقد قال بعض العلماء في قوله عليه السلام: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يبقى بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار**»[1] إن الأول كثير بفضل الله، والثاني نادر لا حكم له كسبقية رحمة الله غضبه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

(1) روى نحوه البخاري في أبواب عدة منها: باب (6) ذكر الملائكة. . . ، حديث رقم (3036) [3/ 1174] ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، حديث رقم (2643) [4/ 2036] ورواه غيرهما.

ومع هذا لم تزل الأكابر تخاف من السابقة أو الخاتمة إذ لا يدري ما سبق به القضاء والقدر كما أشار إليه الشيخ في المناجاة السابعة والعشرين بقوله:

28 ـ **(إلٰهي إن القضاء والقدر قد غلبني)** فكم أعزم على الطاعة والقضاء يغلبني، وكم أفر من المعاصي والقدر يقحمني، فلا حيلة لي إلَّا رجاء حولك وقوتك **(وإن الهوى بوثائق)** أي بحبائل **(الشهوة أسرني)** أي ربطني وحبسني عن النهوض إلى حضرتك والفوز بدخول جنتك **(فكن أنت الناصر لي)** دون واسطة من غيرك **(حتى تنصرني)** على من يصدني عنك **(وتنصر بي)** من تعلَّق بجنابي أو لاذ بسببي. وهذا كما قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: وأغننا بلا سبب واجعلنا سبب الغنى لأوليائك وبرزخاً بينهم وبين أعدائك.

ثم سأل الغنى الأكبر فقال:

28 ـ **(وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي)** فإن العبد إذا تعمَّر قلبه بالله استغنى به حتى عن طلبه، وربما دلهم الأدب على ترك الطلب، وهذه هي السعادة العظمى والولاية الكبرى، كما قال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه: فالسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك. وهذه نتيجة أنوار الولاية التي أشرقت في قلوب العارفين، وهذا معنى قوله:

28 ـ **(أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك)** حتى ظهر الحق وزهق عنهم الباطل فعرفوك ووحدوك **(وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك)** فملأتها بأنوار شهودك فأحبوك ولم يحبوا سواك لأنهم لم يشهدوه **(وأنت المؤنس لهم)** بحلاوة ذكرك وشهود نورك **(حيث أوحشتهم العوالم)** فلم يستأنسوا بشيء منها بل استوحشوا منها من حيث كونيتها، واستأنسوا بصانعها والمتجلي فيها، فأبدلهم الله الأنس به في الخلوات والمجالسة معه في الفلوات بحلاوة المشاهدة والمكالمة والمساررة والمناجاة، وهذا هو النعيم المقيم والفوز العظيم.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: بينما أنا أمشي في البادية إذ لقيتني امرأة فقالت: من أنت، فقلت: رجل غريب، فقالت: وهل توجد مع الله غربة.

وكتب مطرف بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: وليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه، فإن لله عباداً استأنسوا بالله، فكانوا في وحدتهم أشد استئناساً منهم مع الناس في كثرتهم، وأوحش ما يكون الناس أنس ما يكونون وأنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون اهـ.

28 ـ **(أنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم)** أي أنت الذي هديتهم طريق الوصول إلى حضرتك حتى استبانت أي ظهرت لهم معالم، أي علامات التحقيق. وهذا من الشيخ رضي الله عنه تعريض بالسؤال وهو أعظم من التصريح، وكأنه يقول: إلٰهي كما أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك، وكما أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى أحبوك وكما آنستهم حيث أوحشتهم العوالم وهديتهم حتى استبانت لهم المعالم، فأشرق أنوار المعارف في قلبي حتى أعرفك، وأزل الأغيار من قلبي حتى أحبك، وآنسني بك حيث أوحشتني العوالم، واهدني إلى طريق التحقيق حتى تتبين لي المعالم فأستغني بك عن كل شيء وأجدك عند كل شيء، كما قال:

28 ـ **(ماذا وجد من فقدك)** ولو ملك الدنيا بحذافيرها فهو أفقر الفقراء، كما قال الشاعر:

لِـكُـلِّ شـيءٍ إذا فـارقـتَـهُ عـوضٌ ... ولـيـسَ لـلَّـهِ إنْ فـارقْـتَ مِـنْ عـوضِ

قيل للشبلي: أي الخسران أعظم، قال: من فاتته الجنة ودخل النار. فلما مات رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك، قال: لم يطالبني بالبراهين على الدعاوي إلَّا على شيء واحد، قلت ذات يوم: لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار، فقال لي: وأي خسارة أعظم من خسران لقائي، أي شهودي ومعرفتي.

28 ـ **(وما الذي فقد من وجدك)** لقد ملك الوجود بأسره واستغنى غنى لا فقر بعده آخر دهره **(لقد خاب من رضي دونك بدلاً)** أي لقد خاب وخسر من أحب شيئاً دونك ورضيه بدلاً بك. وأنشدوا:

سهرُ العيونِ لغيرِ وجهِكَ باطلٌ ... وبكاؤهُنَّ لغيرَ فقدِكَ ضائعُ

أيظنُّ أنّي فيكَ مشتركُ الهوَى ... هيهاتَ قَدْ جمعَ الهوَى بكَ جامعُ

بَصري وسَمعي طَائعانِ وإنَّمَا ... أنَا مبصرٌ بكَ في الحياةِ وسامعُ

28 ـ **(ولقد خسر من بغى عنك متحوّلاً)** أي ولقد خسر من أوقفته ببابك ثم طلب باب غيرك، وتحوَّل إليه والتجأ إلى غير جنابك، فلا أخسر منه ولا أبخس صفقة من تجارته، ترك باب الكريم والتجأ إلى باب العبد اللئيم.

فقوله: متحوَّلاً مفعول لبغى، بمعنى طلب، وهو اسم مفعول بمعنى المصدر،

وعنك متعلق بالمصدر، أي ولقد خسر من طلب تحولاً عن جنابك العظيم وبابك الكريم.

29 - **(إلهي كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان)** ولا تقطعه أبداً عن الإنسان **(أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان)** بل امتنانك فائض على الأنام وهو واصل إليهم على الدوام، عرفه العارفون وجحده الغافلون **(يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته)** وذلك حين استوحشوا من مؤانسة غيره **(فقاموا بين يديه متملقين)**.

قلت: التملُّق هو التلطف في بث الشكوى والتودُّد بمساررة النجوى. وفي الحديث: «**إذا أحب الله عبداً قال للملائكة: إذا دعا أخِّروا حاجة عبدي فإني أحب أن أسمع صوته**»[1] فالتملُّق بين يدي الحبيب ومساررة القريب هي من أعظم الرغائب وأفضل المطالب لا يعرفها إلَّا أهل الشوق والاشتياق، كما قال الشاعر:

سفينةُ الحبِّ في بحرِ الهوَى وقفتْ ... فامنُنْ عليَّ بريحٍ منكَ يجريهَا

لا يعرفُ الشوقَ إلَّا مَنْ يكابدُهُ ... ولا الصبابةَ إلَّا مَنْ يُعانيهَا

لا أوحشَ اللَّهُ منكُم مَنْ يُحبكُمُ ... وآنَسَ اللَّهُ داراً أنتُمُ فيها

29 - **(ويا من ألبس أولياءه)** العارفين **(ملابس هيبته)** حتى هابهم كل شيء وخاف منهم كل شيء ولم يخافوا من شيء. وفي الحديث: «**من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه كل شيء**»[2]. وحيث ألبسهم لباس هيبته **(فقاموا بعزّته مستعزّين)** لما رفعوا همتهم عن الخلق أعزهم الله ولما رفعوا همتهم عن الدنيا أعزهم الخلق، فإن الولي إذا أراد الله أن يرده إلى خلقه لينفع به عباده ألبسه حلتين حلّة البهاء والجمال ليقبل الناس عليه بالمحبة والوصال فيغنيهم الله به، وحلّة الهيبة والجلال ليمتثل أمره إذا أمر ويجتنب نهيه

---

(1) روى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي أمامة رضي الله عنه حديث رقم (7697) [8/ 166] ونصه: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول للملائكة: انطلقوا إلى عبدي فصبوا عليه البلاء صباً فيأتونه فيصبون عليه البلاء فيحمد الله فيرجعون فيقولون: يا ربنا صببنا عليه البلاء صباً كما أمرتنا فيقول: ارجعوا فإني أحب أن أسمع صوته». وروى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن أنس بن مالك، حديث رقم (745) [1/ 197] وروى نحوه غيرهما.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً، الفصل الثاني في ذكر آثار وأخبار. . . ، حديث رقم (974) [1/ 541].

إذا نهى، وهاتان الحلتان يكساهما عند الرسوخ والتمكين، وإلى ذلك أشار بعض الشعراء، والله أعلم بقوله:

إنَّ عرفانَ ذي الجلالِ لعزٌّ وضياءٌ وبهجةٌ وسرورُ
وعلى العارفينَ أيضاً بهاءٌ وعليهم مِنَ المحبةِ نورُ
فهنيئاً لمَنْ عرفَكَ إلٰهي هوَ واللّٰه دهرُهُ مسرورُ

فلما كانوا لله وبالله ومع الله أعزهم الله وأعزَّ من أعزهم.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 26] قال: بأن يكون لك بك معك بين يديك اهـ. وسبب العز من الله هو ذكر الله، كما قال:

29 ـ **(أنت الذاكر من قبل الذاكرين)** أي أنت الذاكر لهم من قبل أن يذكروك فلولا ذكرك إياهم ما ذكروك.

قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت في بداية أمري في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتبهت رأيت ذكره سبق ذكري ومعرفته سبقت معرفتي ومحبته أقدم من محبتي وطلبه لي أولاً حتى طلبته .

29 ـ **(وأنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين)** فلما بدأتهم بالإحسان توجهوا إليك بالطاعة والإذعان **(وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين)** جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى الأسباب والعلل.

29 ـ **(وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين)** فقد وهبت لنا النعم وأمرتنا بالسخاء والكرم ووفقتنا لعطائها ووعدتنا بالنعيم الجزيل عليها، فللَّه ما أعطى وله ما أخذ، فإذا عرف العبد هذا لم تبق له وسيلة يتوسل بها إلَّا فضل الله وكرمه.

وفي مناجاة الجنيد رضي الله عنه: يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه، يا بادىء العارفين بما فيه عرفوه، يا موفق العابدين لصالح ما عملوه، من ذا الذي يشفع عندك إلَّا بإذنك، من ذا الذي يذكرك إلَّا بفضلك. واستقراض الرب من عبده ما وهبه له غاية في ترفيعه لقدره، وإبانته لشرفه ووعده مع ذلك جزيل الثواب، نهاية في إكرامه له وتفضله عليه، وقال بعضهم: ملكك ثم اشترى منك ما ملكت ليثبت لك معه نسبة، ثم استقرض منك ما اشتراه، ثم وعدك عليه من العوض أضعافاً، بيَّن فيه أن نعمه وعطاياه بعيدتان أن تكونا مشوبتين بالعلل اهـ.

* * *

قال ابن عباد رضي الله عنه: ولما بيَّن أن طلب الحق سابق على طلب العبد طلب منه أن يطلبه ليتحقق منه الطلب، فقال في المناجاة الثامنة والعشرين

30 ـ (إلٰهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك) أي اطلبني برحمتك الأزلية حتى أطلبك وأصل إليك، فإن الطلب سابق الوصول وهذه طريقة السلوك.

ثم أشار إلى طريق الجذب والعناية، فقال:

30 ـ (واجذبني بمنَّتك حتى أقبل عليك)

قلت: ولو عكس لكان أحسن، فيقول: اطلبني برحمتك حتى أقبل عليك واجذبني بمنَّتك حتى أصل إليك. فإن الجذب هو الاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكوِّن والغالب أن يكون بعد التوجه والطلب والمجاهدة والتعب، وقد يجذب أولاً ثم يرد إلى السلوك والأول أكمل.

ثم إذا حصل طلب الرب لعبده حتى وصل إليه لا ينقطع عنه خوفه ورجاؤه كما أبان ذلك في المناجاة التاسعة والعشرين بقوله:

31 ـ (إلٰهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، وإنَّ خوفي لا يزايلني وإن أطعتك)

قلت: لما كانت السابقة مبهمة والخاتمة مجهولة كان العبد بين خوف ورجاء ولو بلغ ما بلغ، فإن القلوب بيد الله يقلِّبها كيف يشاء، والنواصي بيد قدرته تقودها حيث شاءت. قال الشاعر:

حسبيَ اللَّهُ توكلتُ عليهِ ... مَنْ نواصي الخلقِ طراً في يديه
ليسَ للهاربِ في مهربِهِ ... أبداً ملجَأ إلَّا إليه

فكيف لا يصح للعبد أن ينقطع خوفه إن أطاع، أو يقل رجاؤه إن عصى. وقد تقدم في أول الكتاب: أن خوف العارفين ورجاءهم ناشيء عن شهود صفة الجلال والجمال وهما لا يتغيران، فكذلك ما ينشأ عنهما، ولذلك وصف الشيخ نفسه بهذه الحالة الشريفة وهي الاعتدال على الدوام ظهرت منه طاعة أو معصية. وراجع ما تقدم وانظر عند قوله: لا كبيرة إذا قابلك فضله إلخ، فإذا تحقق أن العبد لا مهرب له في حال عصيانه إلَّا وقوفه ببابه ولا سكون له في حال طاعته إلَّا إلى كرمه وإحسانه، علم أنه مدفوع إليه على كل حال، وهذا معنى قوله:

32 ـ (إلهي قد دفعتني العوالم إليك) فمهما ملت إلى شيء دفعتني عنه أو ركنت إليه حركته عليَّ حتى تدفعني إليك، فما أرحمك بي مع عظيم جهلي. وهذه

علامة العناية من الله لعبده، فمهما رآه وقف مع شيء أو ركن إلى شيء ولو كان طاعة شوشه عليه ورحّله منه. وقد تقدم أن من جملة العقوبة التي يعاقب بها المريد تركه وما يريد.

وقال شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه: إذا رأيتم الفقير يقوم الغوات والتشويش عليه من كل جهة فاعلموا أن الله تعالى يريد أن يسكنه عنده. أو كلاماً هذا معناه.

والحاصل: أن الحق تعالى غيور لا يحب قلب عبده أن يركن إلى غيره، وهذا من كرمه تعالى وإحسانه إلى عباده، ولذلك قال:

32 ـ (وقد أوقفني علمي بكرمك عليك) قلت: لما دفعته العوالم إليه لم يجد كريماً سواه فأوقفه كرمه على بابه، ولا ذبحنا به، والكريم لا تتخطاه الآمال.

قيل: معنى كرم الله إحسانه لعباده. وقيل: الذي لا يدع حاجتهم لغيره. وقيل: الذي يعطي قبل السؤال.

قال الجنيد: الكريم الذي لا يحوج إلى السؤال.

وقال المحاسبي: الذي لا يبالي من أعطى ولا كم أعطى.

وقيل: إن من فهم كرم الله تعالى لم يجزع من سوء قضائه لأنه يرى المصيبة نعمة مستورة عن إدراك الخلق، كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه: ما أصابني الله بمصيبة إلَّا رأيت لله فيها ثلاث نعم، الأولى: حيث لم تكن في ديني، الثانية: حيث لم تكن أعظم مما وقعت. الثالثة: إن الخطايا تكفَّر بها فأنا أشكر الله عليها. اهـ. ولهذا قالوا: ليس العجب ممن يلتذ بالنعيم إنما العجب ممن يلتذ بالعذاب الأليم، وذلك لا يكون إلَّا بخرق عادة النفس حتى تلتذ بما يتألم به الناس كما قال القائل[1]:

أريـــدُكَ لا أريـــدُكَ لـــلـــثـــوابِ ... ولـــكـــنِّـــي أريـــدكَ لـــلـــعـــقـــابِ

وكـــلُّ مـــآربـــي قـــد نـــلـــتُ مـــنـــهـــا ... ســـوى مـــلـــذوذِ وجـــدِي بـــالـــعـــذابِ

وقال آخر:

إذا كانتِ الأقدارُ مِنْ مالِكِ المُلْكِ ... فـــسيـــانَ عـــنـــدي مـــا يَـــسُـــر ومـــا يُـــبْـــكـــي

* * *

(1) القائل: هو الشيخ الحسين بن منصور الحلاج، وقد سبقت الإشارة إليه.

والحاصل: أن المحبة إذا قويت غيَّبت المحب عن الآلام وإلا فهي ناقصة، ومنشأ المحبة شهود الكرم كما تقدم، ومن وقف بباب كرم مولاه لا يخيب أمله ومناه، كما أبان ذلك في المناجاة الموفية ثلاثين بقوله:

33 ـ **(إلٰهي كيف أخيب وأنت أملي)** أي محل طمعي ورجائي والكريم لا يخيِّب آمال الطامعين وهو أكرم الأكرمين.

33 ـ **(أم كيف أُهان وعليك متكلي)** وقد قلت في كتابك العزيز: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ **[الطلاق: الآية 3]** أي كافيه، ومن كنت كافيه وناصره لا يُهان أبداً.

حكي أن بعض الأولياء ولدت له بنية في آخر عمره وماتت أمها وحضرته الوفاة فقال له رجل: أوصني عليها أكفلها، قال: لا، ولكن إذا نامت فاحملها إلى حرم الله ودعها في الحجر وامض ودعها في كفالة الله. فلما مات فعل الرجل ذلك وصار يرقبها على بعد، فرأتها أم الخليفة وهي تطوف فأمرت بحملها لها فتبنتها وربتها حتى بلغت وزوجتها لابن الوزير وأصدقتها عشرين ألف دينار. فانظر حال من توكل على كفالة مولاه وآوى إلى حصن رعايته وحماه. وأنشدوا:

أيحسنُ بي في دارِكُم ونزولِكُم أوجهُ يوماً للعبادِ رجائيَا
يحقُ لمثلي أن يعودَ لمثلِكُم وأن أتركَنْ جمعَ العبادِ ورائيا

وحكي أن رجلاً كانت له امرأة حاملة وأراد سفراً، فلما خرج لسفره قال: اللهمَّ إني استودعتك ما في بطن هذه المرأة. ثم غاب، فلما قدم من سفره سأل عنها فقيل له: إنها ماتت وهي حامل، فلما كان الليل خرج إلى المقابر فرأى نوراً فتبعه فإذا هو في قبرها فنبش عليها فإذا بالصبي يرضع في ثديها فهتف به هاتف: يا هذا إنك قد استودعتنا الولد فوجدته أمَا إنَّك لو استودعتنا أمه لوجدتهما جميعاً. اهـ من التنوير. فما ألطفه سبحانه بمن استرعاه وما أحفظه لمن دخل حماه، اللهمَّ اجعلنا ممن تحصَّن بك فكفيته وممن استرعاك في تركته فرعيته يا أرحم الراحمين.

* * *

ولا شك أن من دخل تحت خفارة العزيز كان عزيزاً بالله ذليلاً له، وإليه أشار في المناجاة الحادية والثلاثين بقوله:

34 ـ (إلٰهي كيف أستعز وفي الذلة أركزتني)

أي كيف أستعزُّ عليك وأنت في ذلّ العبودية أركزتني أي أقررتني وأقمتني (أم

كيف لا أستعزّ وإليك نسبتني) أي أم كيف لا أستعزّ في قلبي وروحي وسري وإليك نسبتني لما أودعت في قلبي من سر الخصوصية ونور المعرفة وقوّة الحرية، فقلت: يا عبدي ويا وليي، ولا شك أن هذه النسبة توجب الافتخار على الوجود والتيه على كل موجود، فذلُّ العارف يرجع إلى ظاهره عبودية، وعزّه يرجع إلى باطنه حرية بما شهد من أنوار الربوبية، وإليه أشار بعضهم بقوله:

نحنُ إنْ كنَّا به تهنَا دلالاً ... على سائرِ الحرائرِ والعبيد
وإنْ نحنُ رجعنَا إلينَا ... عطَّلَ ذُلُّنَا ذُلَّ اليهود

قال بعضهم: رأيت ذلّ كل ذي ذلّ فزاد ذلّي على ذلّهم، ونظرت في عز كل ذي عز فزاد عزي على عزهم اهـ.

وقال الشبلي رضي الله عنه: لقد ذلّلت حتى عزّ في ذلّتي كل ذي ذلّ، وعززت حتى ما تعزَّز أحد إلّا بي ومن به تعزَّزت.

* * *

ثم إن الفقر أخو الذلّ ولذلك قرنه به في المناجاة الثانية والثلاثين فقال:

34 ـ (أم كيف لا افتقر إليك وأنت الذي في الفقر أقمتني)

لأن أنفاسي بيدك فأنا فقير إليك في كل لحظة في إيجادي وإمدادي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [فاطر: الآية 15] وهذا هو الفقر إلى نعمة الإيجاد، ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [إبراهيم: الآية 19] وهذا هو الفقر إلى نعمة الإمداد **(أم كيف أفتقر إلى غيرك وأنت الذي بجودك أغنيتني)** حيث كفيتني ما أهمني وتكفلت لي برزقي وما تقوم به بِنْيَتِي، وأغنيتني بمعرفتك حتى لا أحتاج إلى غيرك. وفي الحديث: «**ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس**»[1]. أي الروح وغناها إنما يكون بربّها.

34 ـ (أنت الذي لا إله غيرك تعرّفت لكل شيء) بما أظهرت له من نور جلالك وجمالك فصار **(مسبِّحاً بحمدك وساجداً لك)**.

34 ـ (فما جهلك شيء) فالكل عارف بك ومقرّ لك بالربوبية إما طوعاً ظاهراً وباطناً وإما باطناً فقط لتظهر حكمتك **(وأنت الذي تعرّفت إليّ في كل**

---

(1) رواه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم، باب كراهية الحرص على الدنيا، حديث رقم (2343) [3/ 115] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن المالك من حطام هذه الدنيا . . .، حديث رقم (679) [2/ 453] ورواه غيرهما.

شيء) من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار **(فرأيتك ظاهراً في كل شيء)** بنورك الأزلي الذي أفنى وجود كل شيء **(فأنت الظاهر لكل شيء)** وأنت الباطن لكل شيء. وفي الحديث: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[1]. وقد تقدمت أقسام الظهور مستوفاة في أول الكتاب.

وعبَّر هنا بعبارة لم تتقدم، فقال:

34 - (يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيباً في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه)

قلت: أشار إلى تفسير قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ [الرَّحمٰن: الآية 1]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحَديد: الآية 4] فذكر أن استواء الحق تعالى على العرش إنما هو برحمانيته فهو مغمور في رحمانية الحق حتى صار غيباً في رحمانيته إذ لا نسبة له معها. ورحمانية الحق تعالى وصف قائم بذاته والصفة لازمة للموصوف فإذا غاب العرش وانطوى وجوده في رحمانية الحق غابت العوالم أيضاً في رحمانيته لأنها غابت في وجود العرش، فلما انطوى وجود العرش في عظمة الحق ورحمانيته انطوى وجود العوالم كلها لأنها في جوف العرش كحلقة في الأرض وهو محيط بها كما أحاطت الرحمانية بالعرش، فلا نسبة له معها. ثم فسّر ذلك فقال:

34 - (مَحَقْتَ الآثار بالآثار) فالآثار الأولى هي العوالم، والآثار الثانية هو العرش، قد امتحقت الأكوان كلها في عظمة العرش حتى صارت كالعدم **(ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار)**.

قلت: المراد بالأغيار هو العرش وما احتوى عليه من الآثار. أو تقول: هو كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش، أو ما فرض وجوده خارجاً عن العرش، وأفلاك الأنوار هي أنوار الذات والصفات فإذا امتحقت الأغيار وهي الآثار بأنوار عظمة الذات بقيت الأنوار وانفرد بالوجود الواحد القهار، فأنوار الصفات هي

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر مناقب [السيدة] فاطمة. . .، حديث رقم (4741) [3/ 170] والنسائي في النسن الكبرى، قوله جل ثناؤه: ﴿الأول والآخر. . .﴾ حديث رقم (7668) [4/ 395] ورواه غيرهما.

أنوار الذات وأنوار الذات هي أنوار الصفات، والله تعالى أعلم.

34 ـ (يا من احتجب في سرادقات عزِّه عن أن تدركه الأبصار)

قلت: السرادقات في اللغة هي الأسوار المحيطة بالدار، وهي هنا كناية عن الحجب القهرية، وهي حجب العزة التي احتجب الحق تعالى بها عن عباده مع شدة ظهوره ومرجعها إلى دوائر الحس والوهم والغفلة والأكِنَّة التي على القلوب. وتنحصر في خمسة أمور:

الأول: حب الدنيا الذي زرعه الحق تعالى بقهره في قلوب الناس حتى انصرفت إليها الهمم وتاهت فيها العقول وتظلمت بصور خيالها القلوب واشتبكت فيها الفكر، فلا تنصرف إلى غيرها، وبهذا احتجب جلّ العباد إلّا من عصم الله.

الثاني: ارتباط الأسباب مع مسبباتها والعوائد مع ما تعوَّدت بها، كتوقف أمر الرزق على حركة السبب، والنبات على وجود الأمطار وغير ذلك من ارتباط الأسباب، فظن الجهال أنها لا تنفك عن مسبباتها فحجبوا بها عن مسبب الأسباب، والحكيم العليم يرزق من غير أسباب ويعطي بلا حساب، وبهذا احتجب كثير من الناس فوقفوا مع الأسباب وحجبوا عن شهود ربّ الأرباب إلّا من نفذت بصيرته من ذوي الألباب.

الثالث: الوقوف مع ظاهر الشريعة ترغيباً وترهيباً، علماً وعملاً، فقوم وقفوا مع الترغيب فانكبوا على العمل طلباً للجزاء وهم العباد، وقوم وقفوا مع الترهيب فغلب عليهم الخوف وهم الزهاد، وقوم وقفوا مع ترغيب العلم فاشتغلوا بعلم الرسوم والحروف وتركوا علم اليقين والخشية والمعرفة وهم علماء الظاهر، فحجبوا بالعلم عن المعلوم وهي معرفة الحي القيوم.

الرابع: الوقوف مع حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة، وهي سموم قاتلة لمن وقف معها، وهي لأهل المراقبة وبها احتجب كثير من العباد والزهاد، وقد تظهر لهم خوارق وكرامات حسية فتزيدهم حجاباً عن الله.

الخامس: ظهور أثر القدرة على هذه التجليات واتصافها بأوصاف العبودية كالفقر والذل والجهل والمرض والموت وغير ذلك من أوصاف البشرية التي سترت سر الخصوصية، وبهذا احتجب بعض المستشرفين على الفناء في الذات فرجعوا من حيث جاؤوا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: الآية 18] فهذه سرادقات العز التي احتجب الحق تعالى بها، فإن العزيز هو الذي لا يترقى إليه وهم

طمعاً في تقديره ولا يسمو إلى صمدانيته فهم قصداً إلى تصويره. وقيل: العزيز من ضلّت العقول في بحار عظمته وحارت الألباب في إدراك نعمته وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله ووصف جماله. وقال رسول الله ﷺ: **«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**[1] اهـ.

34 ـ **(يا من تجلّى بكمال بهائه)** أي حسنه وجماله **(فتحققت عظمتَه الأسرارُ)** أي أسرار العارفين، فدام سرورهم وحبورهم إلى يوم الدين، ثم تتصل نضرتهم بنظرتهم إلى ربّ العالمين. وأنشدوا:

سروري بكمُ أضحَى يجُلُ عن الوصفِ ... وقربي منكم بالمودة والعطفِ

وأنتُمْ مَعي حيثُ استقَلَّ بيَ الهوَى ... فلي بكُم شُغلٌ عن الدَّاني والإلفِ

سويداءُ قلبي أصبحَتْ حرمَاً لكم ... تطوفُ بها الأسرارُ مِنْ عالمِ اللُّطفِ

رسائلُ ما بينَ المحبينَ أصبحَتْ ... تجُلُ عن التعريفِ والرسمِ والعُرفِ

رسائلُ جاءتنَا بريّ[2] جنابِكُم ... عوارفُ عرفٍ فاقَ كلَّ شذَا عَرْفِ

34 ـ **(كيف تَخفى)** عن بصائر العارفين **(وأنت الظاهر)** وحدك لا ظاهر معك، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية 3] فالحق هو الظاهر لكن لا تدركه أبصار المخلوقين ولا يرى الحادث القديم، ولا يرى الحق إلّا الحق، فإذا فني الخلق الحادث وبقي القديم رأى القديم القديم وعرف الحق الحق، فما دمت لم يغط الحق تعالى وصفك بوصفه ونعتك بنعته لا تطمع في شهوده ومعرفته مع شدّة ظهور نوره **(أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر)** الذي لا يخفى عليه ولا يغيب عنه شيء وهو المحيط بكل شيء **(والله الموفق)** إلى سواء الطريق والموصل إلى عين التحقيق **(وبه أستعين)** فإنه القوي المعين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم **(وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد)** المصطفى الكريم **(وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً دائماً إلى يوم الدين)**.

نجز ما قصدنا جمعه بحول الله وقوّته، فإن وافق الحق والصواب فالمنّة لله العلي الكبير، وإلا فالعبد محل الخطأ والتقصير ولا سيما مع الباع القاصر والعلم القصير.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) الرِّيُّ: المنظر الحسن. قال الفارسي: وهو من مكان النعمة وأنه خلاف أثر الجهد والعطش والذبول. وفي التنزيل العزيز: ﴿أحسن أثاثاً ورِيّاً﴾. (لسان العرب)/ والرِّيّ: ما رأت العين من حال حسنة من المتاع واللباس. (العين).

وأقول كما قال الشيخ خليل[1]: واعتذر لذوي الألباب من التقصير الواقع في هذا الكتاب، وأسأل بلسان التضرُّع والخشوع وخطاب التذلُّل والخضوع أن ينظر بعين الرضى والصواب، فما كان من نقص كمِّلوه وما كان من خطأ أصلحوه، فقلَّما يخلص مُصنِّف من الهفوات أو ينجو مؤلف من العثرات. وكما قال ابن مالك[2] في التسهيل: أعاذنا الله من حاسد يسدّ باب الإنصاف ويصد عن جميل الأوصاف، وألهمنا شكراً يقتضي توالي الآلاء ويقضي بالقضاء اللأواء، أي الشدة. وكما قال في حرز الأماني:

*** فيَا عاطرَ الأنفاسِ أحسن تأوُّلاً ***

وأنا أسأل الله تعالى أن ينفع به مَنْ كَتَبَه أو طالعه أو حصَّل شيئاً منه أو سمعه أو عَمَل بما فيه، وأن يكسوه جلباب القبول ويبلغ محصله كل مطلوب ومأمول بجاه خير الأنام مولانا **محمد** الشفيع المقبول صلَّى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه أهل المحبة والوصول وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وافق الفراغ من تبييضه عشية يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى، سنة إحدى وعشرة ومائتين وألف، وابتداء جمعه في شهر المحرم الحرام من ذلك العام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيِّدنا **محمد** خاتم النبيين وإمام المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا **محمد** النبيِّ الأميِّ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

---

(1) هو الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي، فقيه مالكي، من أهل مصر، ولي الإفتاء على مذهب مالك من أشهر كتبه: «المختصر في الفقه المالكي» وقد شرحه كثيرون، توفي سنة 776 هجرية.

(2) هو الشيخ العلامة جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجياني المعروف بابن مالك النحوي المتوفى سنة 672 هجرية. من أشهر مؤلفاته: «الألفية في النحو». ومن كتبه أيضاً كتاب «التسهيل» الذي أشار إليه الشارح أحمد بن عجيبة رحمه الله تعالى، واسمه الكامل «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد».

فهرس المحتويات

إيقاظ الهمم في شرح الحكم [الجزء الأول]

[الباب الأول]

[الباب الثاني]

[الباب الرابع]

[الباب الخامس]

[الباب السادس]

[الباب السابع]

[الباب الثامن]

[الباب التاسع]

[الباب العاشر]

[الباب الحادي عشر]

[الباب الثاني عشر]

إيقاظ الهمم في شرح الحكم [الجزء الثاني]

[الباب الثالث عشر]

[الباب الرابع عشر]

[الباب الخامس عشر]

[الباب السادس عشر]

[الباب السابع عشر]

[الباب الثامن عشر]

[الباب التاسع عشر]

[الباب الموفي عشرين]

[الباب الحادي والعشرون]

[الباب الثاني والعشرون]

[الباب الثالث والعشرون]

[الباب الرابع والعشرون]

[الباب الخامس والعشرون]

[المراسلات]

[الكتاب الأول]

[المراسلات]

[الكتاب الثاني]

[المراسلات]

[الكتاب الثالث]

[المراسلات]

[الكتاب الرابع]

[المناجاة]